كلايد بريستوويتز

أمة مارقة

الأحادية الأمريكية وفشل النوايا الحسنة

ترجمة وتقديم: فخرى لبيب

المركز القومى للترجمة

2053



أمة مارقة

الأحادية الأمريكية وفشل النوايا الحسنة

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2053
- أمة مارقة: الأحادية الأمريكية وفشل النوايا الحسنة
- كلايد بريستوويتز
- فخرى لبيب
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة كتاب:
ROGUE NATION:
American Unilateralism & the Failure of Good Intentions
By: Clyde Prestowitz

First published in the United States by Basic Books,
a member of the Perseus Books Group

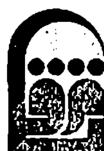
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

أمــــة مارقـــــة

الأحادية الأمريكية وفشل النوايا الحسنة

تــــألـــيــــف : كــلايد بريســتــوويــتــز

ترجمـــة وتقديم : فـــخـــرى لبـــيـــب



2015

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

بريستوويتز ، كلايد

أمة مارقة : الأحادية الأمريكية وفشل النوايا الحسنة

تأليف/ كلايد بريستوويتز ، ترجمة وتقديم : فخرى لبيب .

ط ١- القاهرة : المركز القومى للترجمة، ٢٠١٥

ص، ٢٤ سم

١- الولايات المتحدة الأمريكية - العلاقات الخارجية

٢- المجتمع الأمريكى

(أ) لبيب، فخرى (مترجم ومقدم)

(ب) العنوان ٣٢٧,٧٣

رقم الإيداع ٢٠١٤/١٧٨٢١

الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 718-845-6

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم المترجم

كتاب " أمة مارقة " كتاب مهم للغاية، وتجيء أهميته من أن كاتبه هو واحد من الطبقة الحاكمة فكرا وانتماء، وبذا ينطبق عليه أشد الانطباق القول المأثور: وشهد شاهد من أهلها، وهو شاهد لا يعرض للأوضاع الاقتصادية والسياسية والدولية والثقافية فقط، لكنه يدعم ما يقول بإحصائيات موثقة وباقتباسات ثابتة المرجعية؛ تأكيدا لمصداقيته، وهو فى ذات الوقت كالزمار الذى لا يخفى لحيته فيترك لنا بصمته الدالة على موقعه الاجتماعى ورؤاه على امتداد الكتاب أيضًا.

وقبل الدخول فى المقدمة يلزم تقديم المؤلف للقارئ كما جاء فى سطوره: " أنا لست اشتراكيا فرنسيا، أو من شباب الستينيات الأمريكى المتمسك بعناد بالمبادئ ... إننى فى الحقيقة الشخص غير الملائم لكتابة هذا الكتاب، إننى نتاج الطبقة الوسطى، محافظ جمهورى، يفتقد المرونة، صلب لا ينثنى، مفرط فى الوطنية ... أسست فى الكلية، كرد فعل للعقيدة الليبرالية السائدة فى حرم الجامعة نادى الكلية المحافظ ... تطوعت للخدمة فى فيتنام، وظللت داعما للحرب مدى طويلاً، عملت فى العديد من الشركات متعددة الجنسيات، والتحقت عام ١٩٨٢ بإدارة ريجان ثم مستشارا لوزير التجارة، وأدرت مفاوضات العديد من الاتفاقيات ... وحظيت بلقب (صقر التجارة)".

إنه براء تمامًا من أن يكون يساريا أو ليبراليا أو ديمقراطيا، إنه محافظ ينتمى للحزب الجمهورى، لكنه يطرح أيضًا فى سياق عرضه الأسباب التى دفعته إلى كتابة هذا الكتاب: إن عزلة أمريكا التى أحس بها بقوة، بينما كان يسافر زائرًا عدة بلدان، والتى تزداد سوءًا على مر الأيام هى التى دفعته إلى كتابة هذا الكتاب، وذلك بهدف

العودة إلى مبادئ المحافظين الحقيقية؛ فالمشروع الإمبراطورى الأمريكى لمن يسمون بالمحافظين الجدد - ليس محافظًا البتة، إنه الراديكالية والغرور والمقامرة مع بلاغة وطنية تقليدية.

ذلك هو المؤلف كما يقدم نفسه فى وضوح تام، وهو يقدم لنا أيضًا أمريكا الجذور خلاصة رؤية أمريكا لذاتها: إن الأمريكيين استثناء بين الأمم، هم منارة البشرية - الشعب المختار المميز - إسرائيل هذا الزمان، فإن كانوا هم الشعب المختار، فأمريكا هى أرض الميعاد، ويجب عليهم خلق أمة واحدة تمتد من البحر إلى البحر، وقد غدا ذلك حقيقة بمحاربة جيرانها والاستيلاء على أراضيهم وعلى حساب الأمريكيين الأصليين الذين أبيدوا من على وجه التقريب، وقد عبر أحد رؤسائهم، أندرو جاكسون على ذلك الاستيلاء على أرض الغير بأنه: توسيع لمساحة الحرية.

وهناك إضافة مهمة عن رؤية الأمريكيين لأنفسهم ولإسرائيل باعتبار ذلك أمرا له أهمية خاصة فى منطقتنا: يرى الأمريكيون إسرائيل أشبه بأمريكا - أمة مهاجرة، ملاذًا للمقهورين، مجتمعًا من المستوطنين الرواد، بلدا قويا شجاعًا يرغب فى القتال من أجل الحق، ديمقراطية يحكمها القانون، مستهلكين للثقافة الغربية فى صحراء معزولة، شيئا ما مثل الولاية الحادية والخمسين، ومن هنا ينظرون إلى الحرب الإسرائيلية باعتبارها حربًا أمريكية.

يا الله!

يتناول هذا الكتاب أوجه الحياة الأمريكية من خلال سياسات الإدارة الأمريكية، هنالك قاسم مشترك يكمن وراء كل ذلك، إنه المنهج الأمريكى فى التعامل مع الآخر، وهو منهج كما سنرى يتسم بالتعالى والغطرسة والنظرة للغير من أعلى، مع اتخاذ موقف تبشيرى مزعوم دفاعًا عن أجمل القيم الإنسانية، لكن دون أى التزام بها، حتى إنه ينطبق عليهم عنوان فرعى ساخر فى الكتاب يقول: "افعل كما أقول ولا تفعل كما أفعل"، وكذا قول سفير بريطانى: "إن أمريكا تبشر دوما بحكم القانون، لكنها فى

النهاية تضع نفسها فوق القانون"، أى أن هنالك تعارضاً حقيقيا بين القول والفعل، أو أنها تطلب من الآخرين تنفيذ ما لا تلتزم هى به، وهى نظرة عنصرية تقوم على أساس أن أمريكا فوق الجميع.

يقول الرئيس ترومان: طريقنا فى الحياة يقوم على إرادة الأغلبية، ويتميز بالمؤسسات الحرة وحكومة تمثيلية وانتخابات حرة وضمانات لحرية الفرد وحرية التعبير والعقيدة، يجب على الولايات المتحدة أن تدعم الشعوب، وتقاوم محاولات الإخضاع بواسطة الأقليات المسلحة أو الضغوط الخارجية.

ويقول بوش: إن على أمريكا أن تقف بقوة إلى جانب مطالب الكرامة البشرية: حكم القانون، وحدود لسلطة الدولة المطلقة، وحرية التعبير والعبادة، والعدالة المتساوية، واحترام المرأة، والتسامح الدينى والإثنى واحترام الملكية الخاصة.

لكن الواقع يقول: إن أمريكا دعمت كثيراً من الديكتاتوريين السلطويين الذين يمثلون عكس ما قال به ترومان وبوش تماماً، ما داموا يعملون لحسابها وتنفيذا لأهدافها فى معاداة الشيوعية زمنا، وفيما تسميه بالحرب ضد الإرهاب الآن. يقول المؤلف: إن الولايات المتحدة تتدخل لتغيير أنظمة انتخبت ديمقراطيا مثل محمد مصدق فى إيران وإعادة الشاه، وجاكوب أرينيز فى جواتيمالا ليحل محله حكام دمويون، وسلفادور الليندى فى شيلى ليحل محله أوجستو بينوشيه، وهنالك قائمة طويلة للتدخلات البربرية المروعة فى: زائير، وإندونيسيا، والدومينيكان، ولبنان، واليونان، والفلبين، وتايوان، وتايلاند، وكوريا، وباكستان وأفغانستان؛ حيث جاءت بنظام طالبان القمعى الذى ينتمى إلى القرون الوسطى.

وقامت أمريكا أثناء الحرب الأهلية بين ماوتسى تونج وشيانج كاى شيك بدعم الثانى حتى تمت هزيمته، ويقول المندوب الأمريكى لدى شيانج: إن المشكلة فى الصين بسيطة نحن نتحالف مع جاهل أمى، متطير فلاح، ابن عاهرة، فى حين كان سادة أمريكا مثل جون فوستر دالاس ودين راسك وغيرهما يصفون ديكتاتورية شيانج الفاسدة فى تايوان بأنها كانت: بطلة الحرية والديمقراطية.

وأمريكا وقفت عند الصدام بين الهند وباكستان عام ١٩٧١ إلى جانب باكستان الفاشستية ضد الهند الديمقراطية.

وأمريكا تقول عن إسرائيل: إنها بلد ديمقراطي يحكمه القانون، وهى تعلم جيداً أن الفلسطينى فى الأرض المحتلة لا يستطيع البناء أو العمل أو الدراسة أو شراء أرض أو زراعة محصول أو أن يبدأ أعمالا، أو أن يتمشى ليلاً أو يزور عائلته فى غزة أو الأردن دون إذن من الاحتلال الذى يسمى كل تلك الأفعال "احتلالاً مستنيراً".

يبدو أن القاموس الأمريكي قاموس خاص تنقلب فيه المعانى تماماً؛ لأن هؤلاء الذين يتحدثون عن الخير للآخرين يقدمون فوراً الوجه الآخر إن كان هنالك مساس، مهما كان ضئيلاً بمصالحهم، فمصالح الولايات المتحدة لا تبغى التصالح بتاتا مع أى مصالح أخرى، إنها الأعلى والأولى مهما كان الدمار الذى يمكن أن يحيق بالعالم. إنهم يرون ضرورة أن يتفوقوا ليردعوا أى أعداء محتملين يسعون للتفوق عليهم أو التساوى معهم، هم يقولون: نحن على القمة، ونحن نستحق أن نكون هنالك، وننوى البقاء حيث نحن، وعلى حلفائنا ألا يطمحوا لدور أكبر.

ولهم عقيدة عن الأمن الخاص بهم عبر التفوق العسكرى الساحق، إن لديهم إحساساً بأنهم استثناء ومعزولون، شعب غير عادى، وليس لباقى العالم أن يخاف منهم؛ لأنهم قد مُنحوا الحقيقة التى جعلتهم أحرارا صالحين، إنهم "إمبريالية ناعمة"، تتدخل ليس من أجل الإخضاع ولكن من أجل الإنسانية!! ومن أجل أن تنال ثناء محبى الحرية فى العالم أجمع!! وكانت العقيدة الجديدة هى الحرب الاستباقية، أى أخذ الحرب إلى العدو الذى تفترضه الولايات المتحدة، رغم أن تلك جريمة حرب طبقا لمحاكمات نورمبرج، كما أنها منافية لدستور الأمم المتحدة.

وحتى تحقق الولايات المتحدة فرض سيادتها، عبر القوة العسكرية، أعدت ثلاث عشرة من "مجموعات المعارك"، التى لا يوجد لدى أى بلد فى العالم مثيل لها، ولو مجموعة واحدة، وتلك تتكون من: حاملة طائرات طولها ١١٠٠ متر بها حوالى ٦٠٠٠

ملاح وطيار وميكانيكى، عليها ٧٠ طائرة، يرافقها طراد مضاد للصواريخ، وعدة فرطاقات ومدمرات، وغواصتان وسفن إمداد، وهنالك قوات متناثرة فى ٧٠٠ منشأة عسكرية على امتداد العالم، مع ١٢٠٠٠٠ جندى فى أوروبا، و٩٢٠٠٠ فى شرق آسيا والباسيفيكى و ٢٠٠٠٠ فى شمال إفريقيا والشرق الأوسط وجنوب أسيا و ٢٥٠٠٠ فى النصف الغربى من الكرة الأرضية. الولايات المتحدة تضع العالم كله على حافة الحرب، ترهب العالم بكل تلك القوة العسكرية، ويتحدثون عن أن أى تردد من جانبهم يعرض سلام العالم للخطر، فى حين تتمتع تلك القوات حيثما وضعت بوضع إمبراطورى. وضع سيادى لا مثيل له. فهى تفرض كما فى كوريا الجنوبية اتفاقية غير متكافئة البتة خاصة بوضع قواتها هناك، تنص على أن سلطات الولايات المتحدة وحدها (محكمة الولايات المتحدة العسكرية) هى التى تتناول الجرائم التى يرتكبها جنود الولايات المتحدة وقت عملهم، والمحاكم الكورية هى التى تتناول الجرائم فى غير أوقات العمل، وتلك مقيدة أيضًا فى التطبيق.

والتاريخ الأمريكى حافل بالحروب، منذ توقيع الدستور عام ١٧٨٩، حتى الآن، نادرا ما مر عام لم ترتبط فيه الولايات المتحدة بعملية عسكرية عبر البحار حتى إنها بلغت ٢٣٥ عملية، غير الحرب الأمريكية ضد الهنود الحمر.

ولقد أنشأت الإمبريالية الأمريكية شكلاً يطلقون عليه "الإمبريالية المعادية للإمبريالية"، والحقيقة أن ذلك ليس غير صراع للسيطرة على مناطق الثروة والأسواق فى العالم.

ويقول المؤلف: إننا ندفع ثمن أخطاء جسيمة صدرت عن الجهل وجنون العظمة والثقة الزائدة فى أسلحتنا وقوتنا. ورغم كل التضحيات، فى سبيل قضية الحرية والعدالة، فغالبا ما يُنظر إلى أمريكا من الخارج بخوف وارتياب.

والحقيقة أن الشعوب دائمًا ما تنظر إلى السياسات الأمريكية بخوف وارتياب، وذلك لأن تلك السياسات ما كانت قط فى سبيل الحرية والعدالة.

يقول أحد الرؤساء الأمريكيين: إن الولايات المتحدة هى القائد الذى يحبذ التفاوض حول معاهدات دولية.

ولكن واقع الحال يقول كالمعتاد خلاف ذلك. هنالك قضية أن الشعب الأمريكى استثناء من شعوب الأرض، شعب مختار يعمل فى حقل نشاط الرب، هم يقفون إلى جانبه يحاربون من أجل الخير ضد الشر، وهم أكثر قداسة من الآخرين، لهم القيادة وعلى باقى العالم أن يتبعهم، متميزون ولذا فهم يستحقون الحصانة.

إن تلك العقلية المتغطرسة المتسيدة المتعالية دائما ما تقود لا إلى مفاوضات ولكن إلى طريق مسدود بالنسبة للأمريكيين؛ مما يؤدى إلى عزلهم والابتعاد أكثر فأكثر عن باقى السياق العالمى.

إن الولايات المتحدة بسبب الصورة التى صاغتها لنفسها تطالب فى كثير من المفاوضات الدولية باستثناءات خاصة، أو ميزات تتفرد بها دون كل دول العالم. ففى قضية حظر استخدام الألغام الأرضية، طالبت أمريكا، حتى توقع على الاتفاقية، باستثناء استخدامها الألغام فى المنطقة الكورية المنزوعة السلاح، كما طالبت بحقها فى استخدام الألغام الذكية وهى ذات التدمير الذاتى بعد زمن محدد سابقًا، وتفاوض لا ينتهى حول الألغام المضادة للأشخاص، واستخدام الأنظمة المختلطة المضادة للدبابات، ويقول كلينتون تبريرًا لذلك: "إن لأمتنا مسئولية متفردة. لن أرسل جنودنا لحماية حرية شعبنا، وحرية الآخرين، دون أن يكونوا فى أمان قدر المستطاع". رغم أنه من الثابت أن قوات الولايات المتحدة غالبا ما كانت تجد نفسها تتقهقر عبر حقول ألغامها هى، وهنالك تقدير بأن حوالى ثلث كل ضحايا الولايات المتحدة خلال الحرب كانت بسبب ألغام صديقة. إن الحقيقة تكمن ليس فى الدفاع عن حرية أمريكا والآخرين، لكنها تكمن، دون شك، فى صناع الأسلحة والمكاسب الهائلة التى يحققونها من تجارة الموت تلك.

وقد طالبت الولايات المتحدة أثناء مفاوضات المحكمة الجنائية الدولية، باستثناء مواطنى الولايات المتحدة من السلطة التشريعية للمحكمة، بل وصل الأمر إلى حد

مطالبات داخلية بأنه على الولايات المتحدة استخدام أية وسيلة بما فيها القوة لإطلاق سراح أى مواطن أمريكى تحتجزه المحكمة؛ وقد رأى الآخرون فيما تطالب به الولايات من معاملة خاصة لرعاياها كشرط للموافقة على تشكيل المحكمة إهانة بالغة وغير مقبولة.

وفيما يتعلق ببروتوكول كيوتو الخاص بالانبعاثات الحرارية، فقد وقفت الولايات المتحدة بصورة عدائية فى مواجهة الوصول إلى هذا الاتفاق على أساس أن المدافعين عن هذه القضية يسدون الطريق أمام التنمية الاقتصادية الأمريكية، بناء على دليل ناقص. وتفاقم الجرم أكثر أصبح المدافعون عن البيئة يمثلون أيديولوجية يسارية، ثم قال رجال بوش: إن البيئة هى المكان الذى ذهب إليه كل الشيوعيين بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، واشتد هجوم الكونجرس فقال أحدهم: إن هؤلاء المدافعين عن البيئة ليسوا أمريكيين ولم يكونوا قط أمريكيين، ولن يصبحوا أبدًا أمريكيين. وقالت عضوة بالكونجرس: إن قضية البيئة تهدد أساس المجتمع الأمريكى؛ مما يجعل مبادئ الدستور الأساسية تتآكل.

العالم مهدد بالدمار، والولايات المتحدة هى المسئول الأساسى عما يصيب العالم من تلوث، غير أنها لا تبالى بشىء غير مصالحها الضيقة المحدودة، ويرى الأوروبيون وسكان الجزر أن السياسة الاقتصادية للولايات المتحدة أنانية واستغلالية وتعرض البيئة للخطر، وتبحث دائمًا عن مهرب حتى لا تتقيد بعقد أو التزام. ويراها الكثيرون عدوا للبيئة.

ويقول المؤلف: إن أمريكا قد رفضت أو أضعفت معاهدات تعتبر علامات: حظر استخدام الألغام، والاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية، واتفاقية الحرب الكيميائية، واتفاقية الحرب البيولوجية، واتفاقية منع الانتشار، والمحكمة الجنائية الدولية، والأسلحة الصغيرة والأسلحة الخفيفة، واتفاقية وضع المرأة وأخريات.

وهنالك انتهاك خطير لاتفاقية هى صاحبة الدور الرئيسى فى تحققها، وتلك هى منظمة التجارة العالمية. إن الولايات المتحدة ترى أن اقتصادها هو القاطرة

الوحيدة التى تدفع الاقتصاد الكونى، وهى تؤمن، كما تدعى، بأن التجارة الحرة تعزز حقوق الإنسان، وتساعد البيئة وتحسن المساواة الاقتصادية، وهى تعلن أنه يجب على البلدان النامية أن تفتح أسواقها للتجارة الحرة، وأن تلغى الضوابط المحلية وأن تمارس الخصخصة، وأن تفتح الطريق أمام الولايات المتحدة، وتطالب اليابان وكوريا وأوروبا بوضع حد للحماية والدعم، وضرورة فتح الأسواق أمامها، وتطلب من صندوق النقد الدولى الضغط على البلدان النامية لإلغاء القيود والقواعد المنظمة لأسواقها، وفتحها لكل اللاعبين الدوليين، وفى نفس الوقت الذى تقول فيه وتفعل كل ذلك، تدعم هى مزارعى القطن لديها مما يترتب عليه دمار مزارعى القطن فى أجزاء أخرى من العالم، وتفرض تعريفة جمركية على الواردات العديدة لمنتجات الصلب مما يصيب الآخرين بالضرر. وتحدد حصصًا مما يؤدى إلى منع غالبية سكر المكسيك من دخول أسواقها.

إنها تمارس فضيلة السوق الحرة لحسابها، وتتمتع فى ذات الوقت بالثمار المحرمة للحمائية. وتزداد عزلة الولايات المتحدة.

إنها ترى نفسها فى الجانب الصحيح من التاريخ. وأن استراتيجية آلتها العسكرية الضخمة تعمل على تشكيل المحيط العالمى فى الجانب الصحيح. وأن الدولار كالعملة العالمية وحجر الزاوية فى صندوق النقد الدولى، وقوتها العسكرية قد أجلستها فى مقعد سائق العولمة، وأن النظام العالمى الجديد يجب أن يتشكل وفقا للمصالح الأمريكية. وأن العولمة، باعتبارها نوعًا من "القوة الناعمة" هى التى سوف تقنع الآخرين، بالوحدة، أى الخضوع لها، فى إطار الإمبراطورية بقوة "الرغبة الطوعية". فالعولمة هى الأمركة. ويقول مستشار للعلاقات الخارجية الأمريكية: إننا على استعداد لأن نكون مواطنى العالم، لكن ذلك فقط، إن صار العالم امتدادا للولايات المتحدة.

وفى الوقت الذى ترى فيه أمريكا نفسها فوق الجميع، قيادة بلا منازع، يرى العديدون أن قيادة الولايات المتحدة للعولمة لا تعمل لصالحهم، بل يرى البعض أن العولمة كسب كبير للموت.

وتجيء رؤية من الصين تقول: إن الولايات المتحدة تفرض طريقها دون أن تدرى ما هى فاعلة. ورأى من روسيا بأن الممارسات الأمريكية: سوف تدمر النظام الكلى للمعاهدات. ومن المكسيك: إن الموقف الأمريكى يدعو للأسف. ومن كوريا الجنوبية: إن أمريكا عقبة أمام حل مشاكلها مع الشمال وهى تستخف بهم، وذلك أمر كالجحيم. ومن أصدقاء أمريكا الآسيويين: أن الولايات المتحدة تفكر فى نفسها باعتبارها حاملة المعايير العالمية للأخلاق والفلسفة السياسية والتنظيم. أو هى تحكم السلوك العالمى المتحضر، وتسعى إلى فرض رؤيتها على الآخرين. ومن الاتحاد الأوروبى أن الولايات المتحدة تميل إلى الحلول العسكرية، وأنه يرتاب فى العاطفة الأخلاقية التى تصبغ سياسة الولايات المتحدة الخارجية وكذا بالمثل التواءاتها وتحولاتها. وأن الولايات المتحدة غير متحمسة لأى شيء يمكن أن يجعل من أوربا لاعبا حقيقيا، وهى تستخدم الناتو كوسيلة للتغلب على الاتحاد الأوروبى. ومن أمريكا اللاتينية فى سخرية: أمريكا محبة للسلام! إن أحداً فى أمريكا اللاتينية لا يؤمن بهذا الهراء. وحتى الأستراليين يقولون للأمريكيين: لا تسألونا أن نختار بينكم وبين الصين، أى إن كفة الصين هى الراجحة. ويقول رأى عالمى عام: لماذا تكون أمريكا مسئولة عن كل شيء؟ من الذى عينها لذلك بمعاييرها المزدوجة؟

ويؤكد المؤلف: أن التوتر بين أمريكا وأصدقائها القدامى فى كوريا الجنوبية وأوروبا واليابان وجنوب شرق أسيا وأمريكا اللاتينية يتصاعد إلى مستويات خطرة.

كما يقول: إن إحساسنا بأن لنا رسالة، واعتقادنا أننا أفضل خلقًا من الآخرين، جعل من العسير علينا أن نستمع، لأننا نؤمن أنه ليس لدى الآخرين الكثير مما هو جدير بالاهتمام. إنهم لا يفكرون كثيراً فى العالم، لأنهم يرون أنفسهم العالم الوحيد الذى يثير الاهتمام. إن بلدانا كثيرة لا تقبل بعالمية قيمنا، وغير راغبة فيها، وبصورة متزايدة. لا يبدو أن هنالك أحداً يوافق على انتشار العادات والأفكار

الأمريكية. يجب أن نرى أنفسنا كما يرانا الآخرون، وأن نعمل معا من أجل مصالح المجتمع الدولى ككل.

ورغم أنه تجب الإشارة إلى فضل المؤلف فيما جاء فى هذا الكتاب من بيانات مهمة للغاية، فإنه طبقًا لما ذكره عن نفسه، ينتمى للطبقة الحاكمة، ويحمل بصمتها، ويرى فى القنبلة الذرية، التى أطلقت على اليابان، رصاصة رحمة ولا أدرى كيف ذلك مع كل الدمار الذى سببته، ومازالت تسببه حتى اليوم. كما يقول إنه قد أحس لزمن طويل بأن عدم الذهاب إلى بغداد عام ١٩٩٢، أى بعد طرد صدام من الكويت، كان خطأ تاريخيًا، فصدام، حسب رؤيته، هو أحد وحوش التاريخ الكبرى، وإن إسقاطه لن يكون شيئًا رديئًا. وهذا يعنى أنه مع التدخل الأمريكى، والوصاية الأمريكية على الآخرين. إنه فقط يرى، وذلك خلافه الأساسى مع المحافظين الجدد، أن يتم ذلك بصورة أكثر جاذبية، فى صحبة حلفاء، وبدعم من الأمم المتحدة، وأن ذلك سوف يؤدى إلى المشاركة فى الأعباء والمخاطر، فلا تكون المسئولية منفردة أحادية؛ مما يحافظ على الأرضية الأخلاقية العالية للولايات المتحدة.كما يرى أيضًا، بعد انهيار المعسكر الاشتراكى، أن النموذج الامريكى الفريد للرأسمالية قد انطلق أخيرا من عقاله، بازغًا كالمعيار الذى لابد أن يتجه العالم إليه لا محالة. وأن "الناتو" قد تأسس على قيم عامة من الديمقراطية وحقوق الإنسان ومقاومة القهر، وهو الذى كسب الحرب الباردة.

والحقيقة أن القراءة المدققة لهذا الكتاب، ولما جاء به المؤلف من استشهادات وإحصائيات، توضح أن أمريكا ليست كذلك ولا الناتو أيضًا، وأن أمريكا التى اعتادت إطلاق المسميات المسيئة على الآخرين، مثل إمبراطورية الشر، أو محور الشر، أو البلدان المارقة هى فى الواقع "الأمة المارقة" حقًا.

فخرى لبيب

إهداء

من أجل أبنائى
آنى، وكومى، وبريان

"إننا على استعداد لأن نكون مواطني العالم،

ولكن فقط إن صار العالم امتدادا للولايات المتحدة"

جيمس واربورج

مستشار للعلاقات الخارجية

الفصل الأول

فى خصام مع العالم - وأنفسنا

مارقة هى صفة - تعنى أنها لم تعد مطيعة، أو منتمية، أو مقبولة، كما لا يمكن التحكم فيها أو مساءلتها، إنها منحرفة، وحشية التصرف بصورة شاذة، أو لا يمكن التنبؤ بمزاجها.

قاموس ويبستر الشامل الكامل

أرى أننا سوف نكون مثل مدينة فوق تل، ترقبها عيون الشعب كله

الحاكم جون وينثروب

إن عنوان هذا الكتاب عنوان استفزازى عن عمد؛ لذا دعنى أعجل بتأكيد أننى لا أقصد، بأى صورة من الصور، مساواة الولايات المتحدة بصدام حسين العراق، أو أى نظام وحشى ديكتاتورى آخر. حقا، لقد فضلت دوما أن أفكر فى بلدى باعتبارها "مدينة فوق تل"، ربما أحيانا غائمة أكثر منها براقة متألقة. كلا، إن ما يثير قلقى، وما ألهمنى عنوانى هو أن أعداداً كبيرة من الناس، فى الخارج، بما فيهم العديد من أصدقاء لأمريكا منذ زمن طويل، بدؤوا يروننا بصورة متزايدة، إن لم نكن تماما مثل صدام، أو متوحشين آخرين، فإننا يقينا مثل ما جاء من كلمات فى قاموس ويبستر، "لم نعد منتمين، متوحشين لا يمكن التحكم فينا أو مساءلتنا، ونتصرف بطريقة لا يمكن التنبؤ بها". والحقيقة، أن واشنطن بوست، الصادرة اليوم (الاثنين، ٢٤ فبراير ٢٠٠٣)

تحمل فى صفحتها الأولى قصة تقول: إن العديد من الناس فى العالم يعتبرون الرئيس جورج دبليو بوش تهديدا لسلام العالم أخطر من صدام. أم أن هذا تطور حديث نتج عن الحوار الدائر عما يجب فعله بخصوص العراق. استمع إلى الجارديان الصادرة فى لندن: "إن أمريكا، الأمة التى لا غنى عنها، قد بدأت تماثل الدولة المارقة بصورة جوهرية. إن أمريكا بوش بدلا من قيادة مجتمع الأمم، تبدو ميالة، بصورة متزايدة، إلى مواجهته. وبدلا من أن تكون مدينة براقة فوق التل، ترتفع جلجلة قومية. إننا نفعل ما نشاء ... فإن كنتم لا تحبون ما نفعل، حسنا، فتلك سياستنا الصارمة"(١). إن هذا لم يكتب الأمس، لكنه كتب فى ربيع عام ٢٠٠١، وقت أن رفضت الولايات المتحدة اتفاقية كيوتو، الخاصة بالاحتباس الحرارى الكونى".

فى ذلك الوقت بدأت اكتشاف عمق العزلة الخارجية لأمريكا، والمدى المتسارع الاتساع لها، وذلك خلال سلسلة من الرحلات التى قمت أثناءها بعقد لقاءات مع قادة من أنحاء العالم. كنت، فى الحقيقة، في آخر واحدة من تلك الرحلات، فى الساعة ٣,٤٥ بعد الظهر، يوم ١٠ سبتمبر عام ٢٠٠١، عندما سمعت النداء الأخير الخاص بطائرة الساعة الرابعة، من سان فرنسيسكو إلى واشنطن دالاس، فأسرعت الخطى. كانت هذه هى رحلة الطيران الأخيرة، بعد الظهر، قبل "العين الحمراء" المروعة. كنت متعبا، لم أكن على خير حال، كما لم أكن راغبًا فى ألا ألحق بها. لذا جريت، وغطست فى البوينج ٧٧٧ بالضبط وقت إغلاق بابها. لقد أخذتنى أسفارى إلى طوكيو، وسنغافورة، وجاكرتا، وهونولولو للمشاركة فى سلسلة من مؤتمرات ولقاءات تناولت العولمة والدور الأمريكى فى العالم. وكان شأنى شأن من يقيم بعض الوقت فى الخارج ويرأس معهد أبحاث السياسة الخارجية، فغدوت قلقا مما كنت أقرأ أو أسمع عن الفجوات التى تزداد اتساعًا بين أمريكا وأصدقائها منذ زمن طويل.

لم تهدأ الرحلة ما كان يثير قلقى. كانت صورة أمريكا، كما هى مرئية من الخارج، قبيحة على نحو متزايد. وسمعت فى آسيا، كما سمعت من قبل فى أوربا وأمريكا اللاتينية، انتقادا متصاعدا، بل حتى خوفًا من الولايات المتحدة التى كانت

غالبا، فى نزاع مع باقى أنحاء العالم، وكذا، بالمثل، مع مثلها العليا المعلنة. إن الحركات الحديثة المنسحبة من الاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية، التى تزيد من نشر الدفاع الصاروخى الوطنى، وتعلن أن الصين "منافس استراتيجى"، قد أثارت المخاوف من حرب باردة جديدة. يضاف إلى ذلك أن البشارة التى بشرت بها الولايات المتحدة بعولمة اقتصادية، غابت من أمام العديد من الآسيويين عندما حلت الأزمة المالية ١٩٩٧ - ١٩٩٨ وقد عانت البلدان النامية فى أسيا وأمريكا اللاتينية من التخريب، بينما أفلتت صناديق التغطية الأمريكية والبنوك سالمة دون أن يصيبها أذى، حتى بدأ البعض ينظر إلى العولمة باعتبارها شكلاً جديداً من الإمبريالية. كما سمعت أيضاً نقدا للاتجاهات الأمريكية الأحادية، والتى جرى التدليل عليها من رفضها لكل من اتفاقية كيوتو الخاصة بالتحكم فى الاحتباس الحرارى الكونى، والاتفاقية الدولية التى تحظر استخدام الألغام الأرضية، فى مواجهة تصديق عليها، يكاد يكون عالميا من كل البلدان، بما فيها حلفاء وأصدقاء أمريكا التقليديون.

وبينما أهرع إلى الوطن، وأنا أمعن التفكير فى تلك الانتقادات وغيرها، كانت أحداث مهمة جدا، غدونا الآن لسوء الحظ معتادين عليها تماما، تجرى فى سلسلة يمكن أن تزيد من حدة تلك المسائل الخاصة بالدور والسلوك الأمريكى فى العالم، وبينما طائرتى تصعد من مطار سان فرنسيسكو الدولى، كان هنالك زائران غامضان يزوران الولايات المتحدة، هما محمد عطا وعبد العزيز العمرى، يندفعان من فندق ميلز فى وسط مدينة بوسطن إلى فندق كومفورت فى سوث بورتلاند - مين، وفى تلك الأثناء، كانت شخصية إدارية من الأمن القومى تطالب بعمليات عسكرية واستخباراتية ضد شخص هو أسامة بن لادن وتنظيم يدعى القاعدة، وواصلت تلك الشخصية البحث فى مكتب مستشارة الأمن القومى كونداليزا رايس فى انتظار موافقة رئاسية، ووصلت إلى مطار واشنطن دالاس حوالى الساعة ١٢,٣٠ قبل الظهر، صباح ١١ سبتمبر واتجهت إلى منزلى، فى الوقت الذى نام فيه عطا والعمرى وأصدقاؤهما.

فى الساعة ٩,١٥ قبل الظهر تلمست طريقى إلى الهاتف الرنان، معتقدا أن المتحدث هو مساعدتى سونجاى هاريسون، لتخبرنى أنها قد حجزت لى موعدا مبكرا مع الطبيب. كانت بالفعل سونجاى، غير أنها لم تكن تطلبنى بسبب الطبيب. أمرتنى قائلة "افتح تلفازك". لم أستطع إلا أن أفكر، بعد الرعب الأول، فى أن العولمة قد ذهبت بعيداً أكثر بكثير مما أدركت.

وقد سئل الرئيس جورج دبليو بوش، فى مؤتمر صحفى، بعد قليل من الهجمات، "لماذا هم يكرهوننا؟" وكانت "هم" فى السؤال تعود على الإرهابيين ومن يساندهم، بما فيهم، من كنا ندعوهم بـ "الأمم المارقة"، والذين صنفهم بوش فيما بعد بـ "محور الشر"، وجاءت الإجابة المباشرة عن السؤال، على أية حال، ممن "هم" مختلفون وأكثر أهمية بكثير، وأكثر عدداً بكثير، "هم" هؤلاء الذين أظهروا بوضوح درامى أنهم بعيدون عن الكراهية، وأنهم "يحبوننا". وكان الرئيس الروسى فلاديمير بوتين، عدونا، لمدة طويلة، فى الحرب الباردة، إنه أول من اتصل بالبيت الأبيض، ولحق به سريعا جيانج زيمين، وهو رئيس بلد آخر مضطرب العلاقات مع الولايات المتحدة، وطار جاك شيراك، الرئيس الفرنسى، سريعا إلى نيويورك، وأصبح أول رئيس أجنبى يشاهد "جراوند زيرو". ولحق آخرون. لا شك أن تلك التصرفات قد وصفت، وربما حسبت أيضًا، باعتبارها مجاملات دبلوماسية. لكن، ما كان من الممكن إنكار أصالة تعبيرات المشاركة الوجدانية، التى انهمرت من الناس العاديين على امتداد الكون. لقد غُمرت السفارات الأمريكية من لندن إلى موسكو إلى سنغافورة بالزهور. وفى باريس، رفرف العلم الفرنسى عند نصف السارية على امتداد نهر السين، وصرحت جريدة الموند فى عنوان بارز "نحن جميعا أمريكيون"(٢).

إن هجوما مماثلاً على أى بلد آخر، ما كان ليحقق مثل ذلك الشعور المتدفق، كان الأمر وكأن العالم كله، مثله مثل الأمريكيين، يحس نفس فقدان البراءة؛ إذ رغم كل الانتقادات التى سمعتها، فإن الناس فى أنحاء العالم كانوا ما يزالون يرون الولايات المتحدة باعتبارها "المدينة فوق التل"، وكانت كل العيون مصوبة إليها الآن؛ لأن لديها

الطاقة الكامنة، إن رغبت، وكما أظهرتها بوضوح طوال تاريخها، لتأكيد انتصار الأمل على الخوف. بدا وكأن الناس فى كل مكان يرغبون، فى استماتة، أن يكون هنالك، على الأقل، مكان واحد منيع على الهولات التى تطوف بقية الكون بحثًا عن فرائس؛ لذا لحق العالم بالأمريكيين، ليلبسوا معا ثوب الحداد، ويقررون أن ذلك الدمار لن يحدث مرة أخرى. كانت هذه هى البطانة الفضية لسحابة ١١ سبتمبر ٢٠٠١، والتى قدمت لأمريكا وأصدقائها فرصة من أجل محو مشاعر الماضى المثيرة للانتقاد والشكوى والضرر، من أجل "أن نعود إلى جادة الصواب"، كما جاء فى كلمات الرئيس السابق ليندون جونسون والإنجيل، أن نعود إلى ذات الموجة، وأن نكون حضورا وقت خلق نظام عالمى جديد أفضل.

إن ذلك لم يحدث، واجتمع مجلس أمن الأمم المتحدة، بعد عام ونصف، لينظر فى كيفية معالجة عدم إذعان العراق الكلى لقرار الأمم المتحدة ١٤٤١، والذى دعا العراق إلى إثبات أنها دمرت وأوقفت تطوير أسلحة الدمار الشامل الخاصة بها، والملاحظ أن القرار دعا العراق إلى تقديم الدليل، ولم يطالب مفتشى الأمم المتحدة بالبحث فى كل صحارى العراق تعقبا لها. وحث كولين باول، وزير الخارجية، مجلس الأمن على الدفاع عن مصداقيته بتوجيه إنذار إلى صدام حسين كى يتعاون أو يواجه تدمير نظامه.

وتبع دومينيك دى فيلبين، وزير الخارجية الفرنسية، باول. وطالب بالمزيد من المفتشين، والمزيد من الوقت لهم، حتى يجوبوا الصحراء. وانفجر جمهور المراقبين بالتصفيق لفيلبين، فى مظاهرة للمشاعر غير مسبوقة عمليا، أو ممنوعة بصرامة، وسارت الملايين، فى نهاية الأسابيع التالية، تتظاهر حول العالم ضد الحرب والولايات المتحدة، وهم يحملون لافتات تدعو أمريكا بـ"الأمة المارقة"، ولذا بدا أن فرصة بداية جديدة قد أفلتت، وبدلاً من أن "نعود معًا إلى جادة الصواب" وجدنا أنفسنا ننعزل بصورة متزايدة، ونفقد ثقة الآخرين، ولا نثق نحن فى الآخرين - إننا فى خصام مع العالم ومع أنفسنا.

بينما كان الموضوع الحال، فى شتاء ٢٠٠٢، هو العراق، فإن جذور أزمة "عزلة" أمريكا تذهب أعمق من ذلك بكثير، وسوف تظل طويلا بعد ذهاب صدام. إن هدفى من هذا الكتاب هو محاولة أن أشرح للأمريكيين الحائرين والمضارين لماذا يبدو العالم وقد استدار ضدنا. ولأوضح للأجانب أيضًا، أنهم كثيرا ما يسيئون تفسير وتأويل النوايا الأمريكية الحسنة. وبينما أقدم وجهة نظر متزنة عن أمريكا، فإننى لا أهدف إلى ضربها بعنف. لقد أمضيت الكثير من حياتى فى آسيا، وربما أشمئز، مثلا، من كيم جونج إيل قائد كوريا الشمالية، أكثر مما يفعل الرئيس بوش، أنا لست اشتراكيا فرنسيا، ولست من شباب الستينيات الأمريكى المتمسك بالمبادئ فى عناد، والذى لا يدخن، إننى فى الحقيقة الشخص غير الملائم لكتابة هذا الكتاب، إننى نتاج الطبقة الوسطى، محافظ، جمهورى، يفتقد المرونة، صلب لا ينثنى، مفرط فى الوطنية، من عائلة مسيحية ولدت من جديد، التحقت بكلية سوارثمور؛ حيث أسست نادى الكلية المحافظ، فى رد فعل للعقيدة الليبرالية السائدة فى حرم الجامعة (والتى يمكن للبعض أن يقول عنها: إنها راديكالية معتدلة)، وذهبت للدراسة فى اليابان، ولأصبح دبلوماسيا فى الخدمة الخارجية؛ وتطوعت للخدمة فى فيتنام، إلا أننى عينت فى هولندا بدلا من ذلك؛ وكنت هنالك فى سفارة الولايات المتحدة فى لاهاى، الضابط المسئول للدفاع عن سياسة الولايات المتحدة فى فيتنام، وظللت داعما للحرب مدة طويلة بعد أن تخلى كثيرون من المحافظين الآخرين عنها، وعملت فى العديد من الشركات متعددة الجنسيات، وعشت كرجل أعمال فى بروكسل وطوكيو، بينما كنت كثير الأسفار عبر العالم، والتحقت عام ١٩٨١ بإدارة ريجان. وغدوت أخيرا مستشارا لوزير التجارة، وهو موقع مارست فيه إدارة المفاوضات فى العديد من الاتفاقيات التجارية الدولية الأخرى؛ حيث اكتسبت سمعة "صقر التجارة"، وأسست - فيما بعد - منظمة بحثية لا تقوم على الربح، ويطلق عليها أيضًا "مصنع الفكر"، وهى تركز على تحليل القضايا الكونية.

إن مثل هذه الخبرة والتحليل الدولى هما اللذان جعلانى عميق القلق حول إلى أين نحن ذاهبون. ولم أومن لبرهة بأن الولايات المتحدة شر، أو أنها مارقة مثل صدام، إن

أمريكا يمكن أن تكون مثل "موجة مارقة"، انتفاخ كبير يجرى فى اتجاه عكسى للاتجاه العام للأمواج، وهى تفاجئ البحارة وتتسبب فى تدمير غير متوقع، إن أمريكا أمة كبيرة لا يمكن التنبؤ بما تفعل، وذات تاريخ طويل متعاقب من الكرم واللامبالاة قبل باقى العالم، وبينما نفكر فى أنفسنا باعتبارنا "الفتيان الطيبين"، فإننا نعمى عن سلوكنا المثير، أحيانا، بسبب قوة أساطيرنا وهيمنة ثقافتنا، إننى أخشى وجود هوة تزداد اتساعا بين أمريكا وأصدقائها؛ حيث نحن الأمريكيين ننصت إلى، لكننا لا نسمع، ننظر إلى، لكننا لا نرى هموم ورؤى البلدان الأخرى. ونفشل، فى ذات الوقت، فى الاعتراف بأن بعضا من سلوكنا يهزأ من قيمنا، إننا نعزو الآن تحديدا ما يوجه إلى السياسات الأمريكية من نقد، إلى ما يلقاه نجاحنا وقوتنا من حسد، وإلى العداء المزمن للمبادئ الأساسية التى ترتكز عليها الثقافة الأمريكية، تلك يقينا بعض المتاعب، لكنها ليست كلها، ربما وجب علينا النظر أيضًا إلى الكيفية التى نتناول بها بعض الموضوعات الأساسية، وكيف يمكن لسلوكنا أن يتسق مع قيمنا.

إن قائمة همومنا تبدأ بالأحادية الأمريكية، وما يراه العالم فينا من "إمبريالية ناعمة"، كعلامة تجارية أمريكية خاصة بها، وترتبط بهذا مسألة العولمة، كعملية أمركة، وإذا ما كانت تُحتضن أو تُقاوم. إن استخدام الطاقة، والاحتباس الحرارى الكونى موضوعان كبيران مرتبطان، لهما أهمية كونية، وتدور حولهما وجهات نظر تتباين بحدة. إن استخدام النفط الأجنبى خاصة أن له دلالات ذات علاقة بالحرب والسلام، يمكن أن يؤثر بطريقة درامية على بلدان أخرى، كذلك تشمل وجهات النظر الأمريكية حول السيادة وحرية الفعل والهيمنة العسكرية على دلالات كبرى ذات علاقة بالحرب والسلام، لا يمكن يقينا التهرب من موضوع إسرائيل وفلسطين، كما لا يمكن تجاهل النقاط الساخنة فى العراق وكوريا، وتسير مترددة مسألة إذا ما كانت أمريكا والصين سوف تصبحان صديقتين أم عدوتين، ويثور حقا السؤال عن من هم أصدقاؤنا ومن هم أعداؤنا الآن، يثار أيضا بصورة متزايدة فى أماكن أخرى، إن العلاقات فى أعقاب الحرب الباردة، وبداية الحرب على الإرهاب، تبدو فى مرحلة انتقالية، مع تفاقم

التوترات بين الأصدقاء القدامى، واكتشاف الأعداء القدامى مفاتن كل منهما والتى كانت خافية حتى الآن. وفى النهاية، هنالك السؤال الطاغى عما تريد أمريكا أن تكونه: "أن تكون الثور الجاهز لجر العربة"، كما جاء فى كلمات كولين باول الذى كان حينذاك رئيس رؤساء الأركان المشتركة، أو كما يود غالبيتنا أن يروا الولايات المتحدة، يروا المدينة فوق التل.

وقد ناقشت تلك الموضوعات مع قادة أجانب، أثناء جولة أخرى فى أربع عشرة عاصمة عالمية فى آسيا وأمريكا اللاتينية، وأوربا والشرق الأوسط، خلال صيف وخريف ٢٠٠٢. وقد وجدت فى كل مكان ذهبت إليه أن الولايات المتحدة تفصل ذاتها عمدا عن البلدان الأخرى، وتؤكد فى صخب حقها فى التفوق وعظم النفوذ، إن أفضل مثال على ذلك هو الوضع مع اتفاقية منظمة شمال الأطلنطى (الناتو). لقد كان هنالك الكثير من الانتقاد للناتو فى الولايات المتحدة بسبب معارضة بعض من أعضائه دعم سعى الولايات المتحدة الدافع لتغيير النظام فى العراق، غير أن الولايات المتحدة جعلت من الناتو حجر زاوية أمنها الاستراتيجى لأكثر من خمسين عاما، وحدث فى أعقاب ١١ سبتمبر أن وضع الناتو، لأول مرة فى تاريخه، المادة الخامسة من الاتفاقية موضع التنفيذ. إن هذه الفقرة تجبر كل الأعضاء على النظر إلى الهجوم على واحد منها باعتباره هجوما عليهم جميعا، ولذا يجب عليهم أن يدعموا رد فعل عسكرى، إذا كانت هنالك ضرورة لذلك، وكان القرار بالإجماع (إن تذكر هذا مهم؛ نظرًا للغضب الأمريكى الجارى بسبب أفعال فرنسا وألمانيا)، ورغم هذا فإن العمل الإرهابى الصادر عن منظمة غير حكومية يمكن ألا يشكل بالفعل، من الناحية الفنية، هجوما فى ظل قواعد الناتو تلك. يضاف إلى ذلك أن فرنسا وبلجيكا وبريطانيا، ودولاً أخرى أعضاء فى الناتو لم يعرضوا فقط السماح لهم بإرسال قوات والمشاركة فى العمليات ضد طالبان والقاعدة فى أفغانستان، بل توسلوا حتى يتحقق ذلك. وأخذ البنتاجون قوات بريطانية خاصة قليلة العدد، وأبلغ الآخرين، "شكرا"، ولكن لا شكر، فالأمر أيسر دون حلفاء. إننا فى الواقع سنفعل ذلك بأنفسنا، ولسوف ندعوكم إن احتجنا إليكم، وقد تسبب هذا

الإعلان عن الأحادية الأمريكية، إلى جانب الانسحاب من الاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية ونشر الدفاع الصاروخي الوطني، في مقاومة كبرى لجهود الولايات المتحدة حول الكون. لقد قال لي، في الحقيقة، قائد ماليزي رفيع: "إن الطريقة التي تُسَير بها الأمور، سوف تجعل الولايات المتحدة، في القريب العاجل، ضد العالم". إن الحديث الأمريكي حول "ائتلاف الإرادة"، والحرب الوقائية والاستباقية، مقترن باستراتيجية مقررة لمنع صعود أية قوى مناظرة للولايات المتحدة، يخيف الناس، ويجعلهم يفكرون في أنهم قد عادوا إلى ما وراء الدغل، أو أنهم لم يغادروه البتة. إن هذا الخوف من أمريكا الإمبراطورية، أو ما يسميه الصينيون الهيمنة الأمريكية، يفاقمه بيان "ناصرنا أو لا تكن لك بنا صلة"، والذي هو جزء مما يكمن وراء معارضة مجلس الأمن مجاراة مجادلات كولين باول التي تقوم على الإكراه. هنا، حقا، ما يثير السخرية الكبرى، فالجهد لإزاحة مارق متطرف مثل صدام، كان يُقوض؛ لأن الخوف منه كان يقويه الخوف من الولايات المتحدة.

إن هذه المشاعر قد عبر عنها، منذ زمن طويل، أفضل تعبير، قائد أوربي وصديق راسخ للولايات المتحدة، إيتيين دافينون، الذي قال لي: "كانت أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية قوية للغاية، وخلقت عالما جديدا، بتحديد مصالحها الوطنية تحديدا عريضا بطريقة جعلتها جذابة لبلدان أخرى فتحدد مصالحها في إطار احتضان تلك الأمريكية، وقد ناصرت الولايات المتحدة، بصورة خاصة، خلق مؤسسات كونية، كذا العمليات الشرعية لإرساء القواعد والمبادئ، وحكم القانون. الآن أنتم، ثانية، أقوياء للغاية، والعالم، مرة أخرى، في حاجة إلى إعادة بناء أساسية، ولكن وأنتم لا تتحدثون إلى أحد، تبدون وقد أدرتم ظهوركم لأشياء ناصرتموها نصف قرن، وحددتم مصالحكم بصورة محدودة وضيقة، وأساسا في مجال الأمن العسكري"[٣]، ويضيف أطلسي آخر، هو نائب رئيس اللجنة الثلاثية والمدير السابق لمنظمة التجارة العالمية الجنرال بيتر سوثر لاند في حوار آخر: "لم تعودوا تبدون الالتزام بالتعددية التي فعلتم الكثير لرعايتها". ومع ذلك، قال أوربي آخر، هو السفير السابق للاتحاد الأوربي في الأمم

المتحدة، هوجو بايمان: "إن لديكم فى الوطن نظاما رائعا للضوابط والتوازنات، غير أنه لا يمكن التنبؤ نهائيا بما ستفعلون فى سياستكم الخارجية. ويمكن لبندولكم أن يتأرجح من جانب إلى آخر فى سرعة شديدة، بينما هؤلاء الذين منا، والذين يمكن أن يتأثروا بعمق، ليس لديهم فرصة حتى لجعل أصواتهم مسموعة، فما البال أن يكون لنا أى نفوذ. إن هذا مثير للقلق حقا؛ لأنه بينما نواياكم فى العادة طيبة، فإن أفعالكم غالبا ما تشى بالجهالة والأيديولوجية، أو المصالح الخاصة. ويمكن أن يكون لها نتائج ضارة للغاية البقية منا".

والغريب، كما يبدو للأمريكيين، أن العديد من الناس فى الخارج يحسون أنه بالرغم من كل حديثنا عن الديمقراطية وحقوق الإنسان والتجارة الحرة، فإن أمريكا تهدف حقا للسيطرة على أقدار الأمم الأخرى، سعيا وراء مصالحها قصيرة المدى أو ما يشغلها فى قضايا أيديولوجية. والأمثلة وفيرة؛ حيث إننا نستثمر بصورة ما، فى كل بلد فى العالم تقريبا. خذ كوريا مثلا، الأمريكيون يميلون إلى النظر إليها باعتبارها بلدا يدين بالكثير للولايات المتحدة، لإنقاذها الكوريين فى باكورة الخمسينيات بثمن قدره ٣٦٠٠٠ قتيل أمريكى، ولتقديم الكثير من أسس المعجزة الاقتصادية الكورية. وقد رأى الأمريكيون أنفسهم، فى فترة أكثر قربا، المدافعين عن كوريا الجنوبية، بربطهم كوريا الشمالية بمحور الشر، وبإيقاف معونة الطعام والكهرباء إلى الشمال حتى يتخلى عن برامج أسلحته النووية.

ويمكن أن تبدو هذه الصورة مبهجة ومنطقية للأمريكيين، لكنها يمكن أن تبدو مختلفة تماما من الجانب الآخر. إن الكوريين ممتنون للتضحية الأمريكية دفاعًا عنهم، ويقرون بها، لكنهم يرون أن الفعل الأمريكى لم يكن ١٠٠٪ نكران ذات، إنه جزء من سياسة أكبر تستهدف منع انتشار الشيوعية، بهدف حماية المصالح الأمريكية، كما يقول الكوريون بأن الولايات المتحدة دعمت، بعد نهاية الحرب، سلسلة من الديكتاتوريات العسكرية الوحشية، والتى أساءت بانتظام إلى حقوق الشعب الكورى، دون احتجاج واضح من واشنطن. إن كيم داى - جونج، الذى كان قد أنهى لتوه فترته

كرئيس لكوريا، ما زال يسير بصعوبة بسبب سنوات التعذيب والسجن، وبينما ما زالت قوات الولايات المتحدة تواجه، حقا، الكوريين الشماليين، عبر المنطقة منزوعة السلاح، فإنه حق أيضا أن قواتنا تتمتع بنوع من الوضع الإمبراطورى. إن واحدة من أكبر قواعد الولايات المتحدة العسكرية فى العالم، تقع فى وسط مدينة سيول؛ حيث تشكل عامل إثارة دائم، إن حوادث جنود الولايات المتحدة، التى يتكرر وقوعها، ويقتل فيها الكوريون، بصورة عرضية، فى حوادث مرور، والتهجم على النساء المحليات، وارتكاب مخالفات للقوانين الكورية، قد أدت، نادراً، إلى إلقاء أمريكيين فى السجن الكورى أو إلى المحاكمة أمام محكمة كورية، إن اتفاقية وضع القوات (سوفا) بين الولايات المتحدة وكوريا تقول بأن سلطات الولايات المتحدة وحدها هى التى تتناول الإساءات التى يرتكبها جنود الولايات المتحدة أثناء عملهم (للسلطات الكورية السلطة القضائية على الجنود فى غير أوقات عملهم، لكن هذا مقيد أيضاً فى التطبيق).

أما فيما يتعلق بجهد الولايات المتحدة لإفقاد كوريا الشمالية استقرارها، فإن الكوريين الجنوبيين يؤكدون أنهم لم يطالبوا بذلك، وأنه يتعارض وسياسة "أشعة الشمس" التى ينتهجها الجنوب، والتى سعت إلى بناء جسور مع الشمال فى محاولة لتحقيق تغيير تدريجى، وعندما التقيت فى العام الأخير مع واحد من المسئولين البارزين فى السياسة الخارجية، توسل إلى أن أشرح لواشنطن، أن كوريا الجنوبية لا تستطيع تحمل انهيار مفاجئ للنظام الشمالى. قال: "إننا لسنا ألمانيا الغربية؛ ونحن غير قادرين على امتصاص الشمال، كما امتصت ألمانيا الغربية، ألمانية الشرقية".

إن علاقات الولايات المتحدة مع الصين، وهو موضوع أكثر أهمية لآسيا وللعالم، تكشفت عن انفصال مماثل؛ إذ رغم التحسن فى روابط الولايات المتحدة والصين، عبر التعاون فى مقاومة القاعدة، مما يشكل نقطة مضيئة فى الحرب ضد الإرهاب، إلا أن اتجاهات الولايات المتحدة تظل متضاربة. لقد عززنا، من ناحية، التجارة والاستثمار مع الصين، إلى حد أن أكبر عجز تجارى ثنائى لنا، لم يعد مع اليابان، ولكن مع

الصين، حيث صدرت عشرات البلايين من دولارات استثمارات الولايات المتحدة فى البلد. وقد اتجهنا، من ناحية أخرى، بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، إلى نقل بؤرة منشآتنا الدفاعية نحو الصين باعتبارها تهديدا محتملاً، بسبب اقتصادها المتنامى، وأسلحتها النووية، ورفع كفاءة قوتها العسكرية، وإصرارها، فى النهاية، على أن ترفع العلم الصينى فوق تايوان، التى تعتبرها إقليما مرتدا. لقد تحركت الولايات المتحدة جزئيا نتيجة تلك الهموم، تحركت فى حالة من الشيزوفرانيا، بسبب النمو السريع فى الحصص الاقتصادية، تحركت قدما إلى الأمام، فى عملية نشر الصواريخ الدفاعية، ووصفت الصين "كمنافس استراتيجى". إن اتجاهات الولايات المتحدة، فيما يتعلق بتايوان، اتجاهات متضاربة بصورة خاصة، ورغم أننا قطعنا علاقاتنا الدبلوماسية الرسمية مع تايوان، وأكدنا على سياسة "صين واحدة"، بعد فتح الرئيس نيكسون للصين عام ١٩٧٢، فإننا واصلنا الحفاظ على روابط اقتصادية وثيقة مع الجزيرة. يضاف إلى ذلك، أنه مع خروجها الحديث من الديكتاتورية إلى الديمقراطية، وحديثها عن إعلان استقلالها عن الصين، غدا دعم الولايات المتحدة لتايوان أقوى، مع إعلان بوش عن مبيعات أسلحة جديدة كبرى، وتأكيد أن الولايات المتحدة سوف "تفعل ذلك مهما اقتضى الأمر"[٤]، حماية تايوان.

وقد وجدت أثناء أسفارى فى آسيا، أن تلك الأفعال قد تسببت فى إثارة المزيد من الذعر بدلاً من الراحة. إن القليلين يشاركون وجهة النظر القائلة بأن الصين بصواريخها الباليستية الثمانية عشر، وميزانية دفاعها التى تبلغ عُشر تلك التى للبنتاجون، لديها النية، أو القدرة،على أن تصبح منافسا استراتيجيا للولايات المتحدة، فى أى فترة زمنية ذات معنى حقا. لقد كان القادة الصينيون الذين قابلتهم، يعبرون عن خوفهم من أن أمريكا تبغى الآن جعل الصين بعبع الأطفال، بدلاً من الاتحاد السوفيتى، وأن "تبقى على الصين إلى أسفل". إنهم يقولون: إن الصين ليست هى من طوق الولايات المتحدة، ولا هى من أرسل دوما بطائرات التجسس إلى شواطئها. كما أشاروا أيضًا إلى أن الصين تؤكد أنها تقوم بتنمية اقتصادية بدعم

متحمس من الصناعة فى الولايات المتحدة وحكومة الولايات المتحدة، والتى يمكن أن تعوقها الإنفاقات العسكرية الكبيرة. وكما قال مسئول فى شنغهاى: "نحن نود أن نبيع إلى الولايات المتحدة، لا أن نهاجمها". وهنالك أخرون، بما فيهم وزير دفاع الولايات المتحدة السابق، يقولون بخطر التحقق الذاتى للنبوءة، مشيرين إلى أننا إن عاملنا الصين كعدو، فإنه يحتمل أن تبدأ التفكير فى أنها كذلك. أما فيما يتعلق بتايوان فقد عبر العديدون من الآسيويين عن صدمتهم، إذ بعد ثلاثين عاما من الاتباع الدقيق لسياسة "صين واحدة"، فإننا الآن قد نعرض للخطر استقرار المنطقة، بتغيير وضع تأسست عليه كل علاقاتنا مع الصين. وحتى فى تايوان، فإن غالبية هناك لا تدعم الاستقلال، كما أنه ليس هناك ما يثير خوفا كثيرا من غزو شيوعى. إن التايوانيين هم، فى الحقيقة، من يغزون الأرض الرئيسية، حيث استثمروا أكثر من ٦٠ بليون دولار. كما أن حوالى ٥٠٠,٠٠٠ شخص قد ذهبوا للحياة فى شنغهاى وحدها. ويتساءل بعض الآسيويين الذين تحدثت إليهم، إن كانت الولايات المتحدة تحتاج إلى مجرد عدو.

وقد ذكر العديد من القادة الأجانب وجها أخر مثيرا للمتاعب لأحادية الولايات المتحدة – وتقلبها وإهمالها، وقد أشاروا إلى أن أفغانستان كانت بالكاد موجودة بالنسبة للأمريكيين حتى عام ١٩٧٩، عندما غزاها الاتحاد السوفيتى وأسس نظام دُمِى شيوعى. وكان ردُ فعل الولايات المتحدة هو مناصرة رد فعل إسلامى جهادى، وتمويل وتسليح المجاهدين، بما فيهم أسامة بن لادن، لمعارضة السوفييت. وما أن ترك السوفييت البلد حتى فقدت أمريكا اهتمامها، ولم تقل كلمة عندما أجبرت قوات طالبان النساء على الخروج من المدارس والوظائف، وأعادتهم مرة أخرى، إلى ما وراء الخمار. وأمريكا مهتمة الآن ب "حماس" بالطبع. وبذا يمكن أن تظهر الولايات المتحدة، من خلال هذا المنظور، فى صورة من لا يعتمد عليه، الأنانى، الذى لا أخلاق له.

ويُرى وجه آخر لـ"يانوس"(*)، فيما يتعلق بالعولمة. إن قوة أمريكا الاقتصادية قوة لا مهرب منها، مثل وجودها الجيوبوليتيكى، وقد غدت الولايات المتحدة، عبر الخمسين عاما الماضية، الكاهن الأعظم للعولمة، تبشر بحرية التجارة والأسواق المفتوحة، والخصخصة، وإلغاء القيود والقواعد المنظمة، والاعتماد المتبادل. وعندما حلت المتاعب باقتصاديات مثل تلك التى لأندونيسيا، والبرازيل، وماليزيا، قامت الولايات المتحدة، والمؤسسات الدولية التى ترتبط بها، أوثق ارتباط (مثل صندوق النقد الدولى) بجعل قروض الطوارئ مشروطة، مع إنهاء الدعم، و "الرأسمالية الصديقة". وأصر المسئولون من الولايات المتحدة الأمريكية، فى مفاوضات لا نهاية لها مع اليابان وكوريا وأوربا على وضع نهاية للحماية، ودعم ما يسمى بالقطاعات الحساسة، وطالبوا بفتح الأسواق للأرز واللحم، وفواكه الموالح، واستضافة منتجات أخرى. إن الولايات المتحدة وهى تبشر بشعار "تجارة لا معونة"، أكدت على الاتفاقيات التجارية الحرة، مثل "اتفاقية أمريكا الشمالية للتجارة الحرة" (النافتا) باعتبارها أفضل طريق للتنمية والنمو.

ولذا أحس العالم بخيبة أمل قوية عندما فُرضت تعريفة طوارئ على واردات الصلب فى الولايات المتحدة عام ٢٠٠١ وكان الأساس المنطقى هو الأكثر إزعاجًا. قالت حكومة الولايات المتحدة إن الصلب "قطاع حساس" يعانى من تدفقات الواردات. إن العديدين فى العالم ممن عانوا غطرسة الولايات المتحدة المتسمة بالإرهاب صياحا، أثناء المفاوضات التجارية، يمكن فقط أن يضحكوا، وكانت قائمة المزرعة التى رفعت بحدة دعم سلسلة كاملة من المنتجات الزراعية الأمريكية، هى الأكثر أهمية، على أية حال. إن ذكر مثال عن التأثير، الذى وقع على بلد واحد فقط، نتيجة تعريفة الطوارئ والدعم، يوضح كيف أن ٧٥٪ من صادرات البرازيل، التى تعانى من الأزمة، لن تستطيع المنافسة فى السوق الأمريكية، وعلق البرازيليون على ذلك بالإشارة

(*) إله الأبواب والبدايات عند الرومان (المترجم).

إلى شعار "الكثير للغاية للتجارة، لا للمعونة". وكان حال المكسيك أكثر رداءة. فرغم اتفاقية (النافتا) فإن الحصص الصارمة، منعت دخول غالبية السكر المكسيكى من دخول سوق الولايات المتحدة، وقد فقد عمال السكر المكسيكيين، فى تلك الأثناء وظائفهم، حيث حلت أذرة الولايات المتحدة المحلاة، والمدعومة بكثافة، محل السكر، فى المشروبات المكسيكية الخفيفة.

وكان الاحتباس الحرارى الكونى، مثلة مثل التجارة، موضع مباحثات واسعة عبر السنوات العشرين الماضية. إن الولايات المتحدة، باعتبارها أكبر مَصدَر فى العالم لغازات الصوبات التى تساهم فى الاحتباس الحرارى، كانت لاعبا أساسيا فى هذه المحادثات. وبينما هنالك اتفاق عام حول الاحتباس الحرارى، فإن أسبابه، ومداه المحتمل، وما يتضمنه تظل أمورا يجرى النقاش حولها. وقد عبرت الولايات المتحدة عن قلقها الحذر؛ لأن تخفيض الانبعاثات يمكن أيضًا أن يخفض النمو الاقتصادى. لكنها قاومت الأهداف الكيفية، حتى يتم معرفة المزيد. وقد التزمت الولايات المتحدة عام ١٩٩٢، فى ظل اتفاقية ريو، ببذل الجهود من أجل تعويق الاحتباس الحرارى، غير أنها أبقت عمدا حصص تخفيض الانبعاثات خارج الاتفاقية، أو جعلت منها أهدافا بذاتها. ثم انصرفت إدارة بوش فى مارس ٢٠٠١ عن أى اتفاق، برفض التصديق النهائى على اتفاقية كيوتو الخاصة بالاحتباس الحرارى الكونى.

وقد حظى ذلك بشعبية فى الوطن، غير أن هذه الحركة أدينت على أوسع نطاق فى باقى أنحاء العالم، خاصة ما ثار من جدل بأن أغنى أمة فى العالم، لم تستطع اللحاق بالبلدان الأخرى، فى محاولة لدرء تدنى بيئى حاد محتمل، وذلك بتخفيض الانبعاثات، بسبب احتمال حدوث تكاليف اقتصادية.

وعندما زار بوش، جوتنبرج بالسويد، فى ١٤ يونيو ٢٠٠١ للقاءات مع رؤساء خمسة عشر بلدا من الاتحاد الأوربى، حياه مئات المتظاهرين. وتحدث رئيس الوزراء السويدى جوران بيرسون، نيابة عن القادة الأوربيين، فقال للصحافة: إن الولايات المتحدة تنتج، "سياسات خاصة سوف تعرض البيئة للخطر"(٥).

لا يوجد موضوع تتسع فيه الهوة بين أمريكا وباقى أنحاء العالم أكثر من المسألة الإسرائيلية الفلسطينية. إن إسرائيل بالنسبة للأمريكيين، صديق وثيق الصلة وحليف، إن ملايين الأمريكيين قد ذهبوا إلى إسرائيل كسائحين، ومئات الألوف إن لم يكن الملايين عاشوا هنالك بأنفسهم أو لديهم أصدقاء وأقارب يعيشون هنالك. إن إسرائيل بالنسبة للعديد من اليهود والمسيحيين الأمريكيين هى أرض ميعاد اليهود كما جاء فى الكتاب المقدس، وقد قامت شركات تكنولوجية أمريكية باستثمارات كبيرة فى منشآت صناعية هنالك. يضاف إلى ذلك أن الأمريكيين بدؤوا فى أعقاب ١١ سبتمبر النظر إلى نضال إسرائيل ضد الإرهابيين الانتحاريين باعتباره مماثلا لحربنا ضد إرهاب القاعدة، ولذا بدت مطالبة الرئيس بوش بإنهاء العنف الفلسطينى وإجراء انتخابات جديدة لاستبدال القادة الفلسطينيين المنتخبين حاليا (مثل ياسر عرفات)، طبيعية وشرعية تماما فى الولايات المتحدة، وقال العديد من حلفاء الولايات المتحدة فى الخارج، على أى حال، إنه طبقا لفهمهم الديمقراطية، فإنهم سوف يتعاملون مع من ينتخبه الفلسطينيون أيا كان، بما فى ذلك ياسر عرفات، إن اقتضى الأمر ذلك. وبينما يدين باقى العالم التفجيرات الانتحارية، فقد لاحظوا أيضًا أن الفلسطينيين يعيشون فى ظل الاحتلال منذ قرابة أربعين عامًا، وأن المستوطنات الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة قد تمت بطريقة عنيدة عبر السنوات العشر الماضية. إن هذا، كما يقول العديدون، يشكل نوعًا من العنف الزاحف الساكن. حقا، لقد ربط البعض ذلك بمعاملة الولايات المتحدة للأمريكيين الأصليين خلال ترسيخ الحدود الأمريكية فى القرن التاسع عشر وباكورة القرن العشرين، وقد أكد لى عدد من القادة الأجانب فى لقاءات معى فى صيف ٢٠٠٢ أن المطالبة بوقف العنف الفلسطينى دون ذكر الاستيطان الإسرائيلى أمر مجحف، ويؤدى إلى نتائج عكسية.

لقد تجاوز هذا الموضوع إسرائيل وفلسطين كثيرا، وهو يتسرب بصورة كبيرة تثير القلق فى سياستنا الخارجية، لقد وجدت خلال رحلة قريبة، عبر جنوب شرق آسيا – أن الاتجاهات فى بلدان مثل أندونسيا وماليزيا تتجه سريعًا إلى الراديكالية. إن

أصحاب هذه الاتجاهات لهم أهميتهم الاستراتيجية، وهم تقليديا أصحاب مهن مرتبطين بالإسلام الليبرالى، وليس لأى من الأمتين روابط ذات بال مع الشرق الأوسط. ومع ذلك، فإن محادثات قليلة يمكن أن تذهب إلى ما وراء الوضع الإسرائيلى الفلسطينى المعقد. إنهم يرون كل ليلة على التلفاز، قادة الولايات المتحدة وهم يقومون بأعمال مشتركة نشطة مع القادة الإسرائيليين، والإسرائيليون يستخدمون أسلحة أمريكية لمهاجمة أهداف فلسطينية: والنتيجة استنتاج العديد من أصدقاء أمريكا القدامى أن أمريكا بذاتها تهاجم الإسلام. إن الوضع فى أوروبا ليس عاطفيا بهذا القدر. إلا أن رسميا أوضح لى، فى باريس، فى ضوء وجود أقلية إسلامية كبيرة فى فرنسا، أن سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط يمكن أن تنظر إليها حكومتى باعتبارها مخاطرة أمنية.

ولذا فإن العديد من أصدقائنا وحلفائنا يصبح لهم، بعد موضوع يليه آخر، وجهة نظر تكاد تتناقض كلية مع وجهة نظرنا. هل هم بلهاء؟ هل هم ضعيفو الشخصية؟ فاسدون؟ إن افتراض ذلك يبعث على الراحة، لكن الحقيقة هى أننا دوما ذلك الرجل الغريب حتى النهاية. إننا كأمة نعيش بعيدا عن وطننا الرئيسى. إننا غالبا ما لا ندرك ذلك بسبب حجمنا الفعلى، والذى يميل إلى وضع غمامة على رأينا فى الآخرين. وقوتنا تلك تسمح لنا بافتراض أن معيارنا أو وجهة نظرنا هى الوجهة المهيمنة كونيا، أو يجب أن تكون كذلك (ولذا فإننا نتمسك بشدة بالأميال والبوصات والدرجات الفهرنتية، رغم أن باقى العالم قد اتجه منذ زمن بعيد إلى النظام المئوى الأكثر بساطة). إن الوجه الحقيقى الفاسد فى هذه الظاهرة هو أن باقى العالم يجاملنا بسبب قوتنا، مما يمكننا من البقاء معصوبى العينين.

وبينما يراقب باقى العالم أمريكا بعناية، ويضع وجهات نظرها فى الحسبان، فإن الأمريكيين لا يدركون فى غالب الأحوال، وجود وجهات نظر أخرى. وهم إن أدركوا ذلك، فإنهم لا يهتمون. إن ما يثير الأجانب أشد الإثارة، بخصوص الأحادية الأمريكية، ليس هو سياسة قراراتنا المتعمدة، ولكن عدم الوعى الكامن وراء تلك السياسات.

يضاف إلى ذلك، كما سأناقش، إحساسنا بأن لنا رسالة، واعتقادنا أننا أفضل خلقًا من الآخرين، مما جعل من العسير علينا أن نستمع. إننا، من ناحية، لا نستمع استماعًا جيدًا للغاية؛ لأنه ليس علينا أن نفعل ذلك. ونحن نميل، على أية حال، إلى أن نؤمن أنه لا يوجد أحد آخر لديه الكثير، مما هو جدير بالاهتمام ليخبرنا به. ومن جهة أخرى، يتجنب باقى العالم إخبارنا بحقائق كريهة؛ لأنهم يخشون مضايقتنا. إن الدليل على الكيفية التى تُعصب بها عيوننا يجىء فى نتائج اقتراع كبير، للرأى العام الكونى عام ٢٠٠٢، أجراه "مركز أبحاث بيو للشعب والصحافة"(٦). وقد أكدت تلك النتائج ما كنت أسمعه فى أسفارى ولقاءاتى: وتحديدًا هو، أنه رغم وجود مخزون من النية الحسنة تجاه الولايات المتحدة، فإن منسوبها فى هبوط. وقد كان للنتيجتين أهمية خاصة لمناقشاتى فى هذا الكتاب. كان السؤال عن إذا ما كان الأمريكيون، لا يضعون غيرهم فى الحسبان، وهم يصنعون سياستهم، وقد أجاب ٧٥٪ من الأمريكيين بنعم، غير أن أغلبية كبيرة من كل بلد آخر، تقريبا، قالت: لا. وكان السؤال الثانى، لمن تم سؤالهم، هو إعطاء رأيهم فى – أولاً – الأمريكيين كشعب، ثم أمريكا كبلد وأظهرت الإجابات وجهات نظر أكثر إيجابية، فيما يتعلق بالأمريكيين كأفراد أكثر من البلد ككل. مثال ذلك، الأردن، حيث قدم ٢٥٪ ممن سئلوا وجهة نظر إيجابية فى الولايات المتحدة، بينما قال ٥٣٪ أنهم يحبون الأمريكيين. وجاءت أرقام مماثلة عبر الشرق الأوسط، تؤكد غالبيتها، على ما يبدو، أن الناس فى الخارج يحبوننا أكثر مما يحبون ما نفعل.

إننا قادرون على ارتكاب أخطاء كريهة، رغم أن نوايانا جديرة بالاحترام. إن هجمات ١١ سبتمبر مثال نموذجى على ذلك. إن استعادة الأحداث الماضية، والتأمل فيها يوضح أن الأمر لم يكن بحاجة لشرلوك هولمز لاستنتاج الخطر الذى كان يوشك أن يحدث طبقا للمعلومات الموثوق بها، والتى كانت ترقد هنا وهناك، حتى على مكتب مستشارنا للأمن القومى. غير أنه لم يكن فى وسعنا أن نسمع لأننا لم نفكر فى أنه علينا أن نسمع. أو أن نفكر فى فيتنام. لقد حظى الفرنسيون بهزيمة بشعة قبلنا لكنهم

كانوا الفرنسيين. ألم يستسلموا بمجرد أن تلقوا نفخة من رصاص ألمانى، فى الحرب العالمية الثانية؟ يضاف إلى ذلك أننا لم نكن نحاول إعادة تأسيس إمبراطورية ما. كانت دوافعنا نقية. كنا نحارب الشيوعيين الملحدين، ووقف الدومينو من السقوط. كانت هنالك مشكلة واحدة فقط: لم يكن لدينا معلومة موثوق بها تدل على أنه ليس للشيوعية أية علاقة بذلك. كان الأمر كله عن الوطنية والاستقلال. شىء كان علينا نحن خاصة، من بين شعوب العالم، أن نفهمه، غير أننا لم نفعل ذلك؛ لأننا لم نعط الأمر انتباهنا. كان ذلك مثل تجربة شخصية مررت بها كطالب جامعى فى اليابان فى أوائل الستينيات. كنت أدرس اليابانية مدة عامين. وبينما لم أكن مثاليا، لم أكن رديئا أيضا. حدث ذات يوم، فى مطار هانيدا بطوكيو، أن سألت القائمة بالعمل فى كشك المعلومات سؤالا باليابانية، وأجابت بالإنجليزية قائلة إنها لا تعرف غير كلمات قليلة من الإنجليزية. ومن ثم، لم تستطع الإجابة على سؤالى، استدرت حينئذ إلى زوجتى الصينية والتى لم تتحدث اليابانية، وأخبرتها ماذا تقول. وكررت زوجتى السؤال باليابانية، وردت القائمة بالعمل، فى الحال، باليابانية أيضا، بالمعلومات المطلوبة. إن ما أود قوله هو أن الموظفة تعرف أن الأجانب لا يستطيعون التحدث باليابانية، ولذا فإنها لم تستطع فهم لغتها هى عندما تحدث بها شخص آخر، لا يبدو شكله مثل شكل اليابانيين. ونحن الأمريكيون غالبا ما نفشل فى الفهم لأننا نضع أنفسنا فوق الحالة.

ليس الأمر أننا دوما على خطأ، بينما البلدان الأخرى على صواب. ففى حالة اتفاقية كيوتو مثلا، هنالك حجج جيدة يمكن طرحها لصالح إدارة بوش، كما سأناقش. غير أن اتجاهنا للإعلان أكثر من الشرح، أو حتى الإقرار بالهموم الشرعية للآخرين، غالبا ما يقوض قضيتنا، حتى عندما تكون لدينا الحجة الصحيحة. فى حالة كيوتو، وربما كان لمدخلنا الأحادى الأثر السيئ الذى جعل من المستحيل علينا، تقريبا، التوقيع على اتفاقية معدلة، هى مقبولة الآن تمام القبول. والأكثر أهمية، إن ذلك عقّد بصورة كبيرة، جهودنا لنيل الدعم والتعاون فى موضوعات أخرى أكثر حيوية، مثل العراق والحرب ضد الإرهاب. ولما كانت هنالك أوقات يجب علينا التصرف فيها أحاديا، فإنه

يجب علينا، حقيقة، أن نلجأ للتعددية كلما استطعنا، حتى نقلل المقاومة عندما لا نستطيع فعل ذلك بصورة مطلقة.

ربما يتساءل البعض، لماذا يجب علينا، بأية حال، أن نبالى بما يفكر فيه الآخرون، طالما أنه ليس فى مقدورهم إيذاؤنا. غير أن تلك تحديدًا هى القضية. إنهم يستطيعون إيذاءنا بآلاف السبل: بعدم التعاون، مثلا، فى الأعمال الاستخباراتية الخاصة بالنشاطات الإرهابية، وبعدم تقديم تسهيلات عسكرية أو حقوق مرور طائرات الحملات الأمريكية فوق أراضيهم، أو بمقاطعة المنتجات الأمريكية أو تشجيع بدائلها. الحقيقة هى أن العالم قد غدا من الصغر والخطورة بحيث لا يمكن لأمريكا أن تتجاهل حقيقة دورها فى الشئون الكونية، أو تسىء فهم شئون الآخرين. حان وقت الانتباه للحاجة إلى رؤية أنفسنا كما يرانا الآخرون، وأن نقرر إذا ما كنا نريد حقًا أن نكون "غير منتمين أو مقبولين، لا يمكن التحكم فينا أو مساءلتنا". أم أننا نريد أن نكون الشعب الذى نتصور أن نكونه، الشعب المثل الأعلى لجون وينثروب. والذى ذكره الرئيس ريجان.

احتفظ فى ذهنك بهذا الاختيار وأهميته، بينما تقرأ الفصول التالية – ليس فقط من أجل العلاقات الخارجية الأمريكية، ولكن من أجل أمريكا ذاتها، من أجل المعنى الذى يجب أن تكونه المثل الأعلى الذى جعل سفاراتنا فى الخارج تُغمر فى الورود بعد ١١ سبتمبر. احمل فى ذهنك أيضا الجزء الثانى من موعظة وينثروب، والذى لا يُذكر عادة: "إن كنا سنتعامل، مع الإهنا، بطريقة مخادعة فى هذا العمل الذى أخذناه على عاتقنا، فإننا سوف نجعله يسحب عونه الحالى لنا، مما يجعلنا نادرة، وموضع سخرية عبر العالم. إننا سنفتح أفواه أعدائنا ليتحدثوا بالشر عن سبل الله وكل السادة الذين فى خدمته. سوف نجعل الخجل يصبغ وجوه الكثيرين من خدام الله الأفاضل، ونتسبب فى أن تتحول صلواتهم إلى لعنات تنصب علينا حتى نفنى من الأرض الطيبة أينما ذهبنا".

الفصل الثانى

الإمبراطورية غير المعترف بها

نحن الأمريكيون الشعب المختار المميز - إننا إسرائيل زماننا -
إننا نقود فلك حريات العالم.

- هيرمان ميلفيل

ترقد واشنطن العاصمة على ضفاف البوتوماك، حيث يتسع النهر بعد اندفاعة هائجة سريعة عبر جبال فرجينيا ومارى لاند، ثم استدارة فانحدارة أخيرة ومتأنية إلى الأطلنطى، إنها واحدة من أجمل المدن الأمريكية. تتشعب شوارعها الواسعة من صرة مركزية، تقاطعها طرق ملتوية غير مباشرة، ونصب تذكارية رشيقة، وساحات عامة تعطى المدينة هوى أوربيًا، يعكس ذوق مصممها الأصلى، مخطط المدن الفرنسى بيير لانفانت. إن حجمها وتواضعها يميزها عن عواصم باقى الأمم العظمى. إن واشنطن بسكانها الذين يقلون عن ٦٠٠,٠٠٠ نسمة، ومساحتها التى تبلغ ٦٨,٢٥ ميلا مربعا فقط، وأمر رسمى قانونى بعدم إقامة ناطحات سحاب، تعتبر مدينة صغيرة بالمعايير العالمية، وتفتقد التأثير القوى أو الامتداد الذى له رهبته لنيويورك أو لوس أنجلوس، تفتقد فخامة باريس، أو تعقيد طوكيو أو لندن الكثيف. إن النمط اليونانى - الرومانى للنصب التذكارية، وكذا للعديد من مبانيها العامة يوجد صلة مع أمجاد الماضى الكلاسيكى، خاصة مع الجمهوريات العظمى والمؤسسات الجمهورية، وليس مع الإمبراطوريات والتقاليد الإمبراطورية.

إن تماثيل المدينة ونصبها التذكارية تحيى ذكرى هؤلاء الذين لعبوا أدوارًا رئيسية فى تاريخ الولايات المتحدة. إن الكثيرين منهم ليسوا أمريكيين. المركيز لافاييت، الصديق الكبير لجورج واشنطن، والإلهام القادم من فرنسا خلال الأيام السوداء للقضية الثورية الأمريكية، فى وادى فورج، وأمامه أجمل منظر للبيت الأبيض من خلال حديقته عبربنسيلفانيا أفينو. ويحظى جيفرسون وواشنطن ولينكولن المؤسسين العظام للبلد ومخلصيها، بالطبع، بهياكل رخامية خاصة نقشت خطبهم على جدرانها. إن التقدير والولاء فى واشنطن موجه نحو مبادئ وآراء رجال الدولة والفلاسفة الذين ناصروا الحرية وحقوق كل الناس غير القابلة للتصرف. هنا، لا توجد نصب تذكارية للفاتحين أو المنتصرين. لا يوجد فى واشنطن قوس نصر، ولا بوابة براندنبرج، ولا قصر بكنجهام، أو مدينة محرمة. إن النصب التذكارى الذى يحظى بأكبر عدد من الزوار هو ذلك الذى يحيى ذكرى الحرب الوحيدة التى خسرتها أمريكا. كل يوم ينثال مجرى مثابر من أناس ارتسمت الكآبة على وجوههم، يهبطون المنحدر العام إلى نصب فيتنام التذكارى قرب البركة العاكسة ليجد الواحد منهم اسم صديق أو ابن، أو ابنة أو زوج، أو زوجة أو حبيب محفور على الجدران الجرانيتية السوداء. ويستمع إلى المناداة على أسماء من سقطوا. لا يوجد بينهم جنرال أو أدميرال يشد انتباه مثل هذا السيل الذى لا ينتهى من الزوار. إنك لا يمكنك فى بكين أو فيينا أو أوربا تفادى الاحساس بالتقليد الإمبراطورى الذى يتسم بالفخار. ولكن واشنطن ذات طلعة أكثر تواضعا وبساطة. إنها لم تصمم قط باعتبارها صرة إمبراطورية.

وإن أنت تجولت من نصب فيتنام التذكارى بضع مبان حتى شارع الدستور نحو الكابيتول فإنك تصل إلى الأليبس إلى يسارك؛ حيث يمكنك من هنالك رؤية خلفية البيت الأبيض. ورغم أنه، دون شك، أفضل مقر لنائب رئيس فى العالم، إلا أنه ليس مؤثرا كما يجب أن تكون مثل تلك الأشياء. إنه يصبح باهتا عند مقارنته بقصر بيل جيتس، رئيس ميكروويف، الذى تبلغ مساحته ٦٦٠٠٠ قدم مربع، والذى بناه بنفسه على ضفاف بحيرة واشنطن فى سياتل. إن الأراضى والحدائق مليحة، وتلقى العناية

الواجبة، لكنها ضئيلة إن قورنت بعزبة روكفلر فى تلال بوكانتيكو، أو قلعة الإمبراطور التى يحيط بها خندق مائى، وتغطيها الأشجار فى قلب طوكيو. بل إن مكاتب البيت الأبيض أقل مما يجب أن تكون عليه بصورة لافتة للأنظار، وقد دهشت عند زيارتى الأولى للمكتب البيضاوى .... من المدى الصغير الذى هو عليه. إن لكثير من المديرين التنفيذيين فى الشركات حيز عمل أكبر، وتثير مكاتب أخرى فى البيت الأبيض الضحك بكل ما فى الكلمة من معنى. إن حجرة مستشار الأمن القومى مثلا تتسع بالكاد لمنضدة قهوة وكرسى واحد لزائر، ويتسع مكتب نائبه أو نائبته بالكاد لمكتب واحد. من الواضح أنه لم تكن هنالك البتة نية أن يكون قصرا.

إننا نحن الأمريكيين قد تعلمنا فى إطار تقاليد مضادة للإمبريالية، مضادة للعسكرية وفساد سياسات القوة التى كانت تتبعها الأنظمة الملكية والإمبراطورية الأوربية، إن كتاب رالف والدو إمرسون "المزارعون الذين أُعدوا للمعركة"(١)، الرجال الذين يتميزون باهتمامهم البالغ، من كونكورد وبوسطن، والمتطوعون الذين اقتطعوا الوقت من الزراعة والصيد ليلحقوا بجورج واشنطن فى مونمرث ويوركتون، والذين كسبوا الاستقلال من الإمبراطورية البريطانية، كان ابن فرانكلين الذى يتحدث فى سهولة وبساطة هو من تحاشى ملبس وسلوكيات بلاط القصور الأوربية، وهو الذى تفوق بدهائه وحيلته على كل من الفرنسى والبريطانى ليوسع حدود الولايات المتحدة الأمريكية الجديدة، وهو الذى كفل تقدم الحرية. وجاءت كلمة إخلاص ووفاء لهؤلاء الأمريكيين الأوائل تقول: إن الجيوش القائمة على النمط الأوروبى، جنبا إلى جنب مع الأخلاق المعقدة (جيفرسون) والتى يبدو أنها تأتى بعدها كنتيجة لها، إنما هى خطر يجب تفاديه، إن التقليد الأمريكى، وهو تقليد منذ زمن طويل، كان لجيوش من مواطنين نهضوا لمواجهة حالة طارئة، وهى جيوش تُسرح حال انتهاء الأزمة. إن الإمبراطورية، تظل بالنسبة للأمريكيين، كلمة تعنى إخضاع واستعباد شعوب أجنبية ضد إرادتها. إنها تمثل نقيض المثل العليا التى تربى عليها الأمريكيون، والجوهر المحدد لشر العالم القديم، والذى أمل الأمريكيون أن يتلاشى فى ضوء مثالنا نحن.

وكما نمت القوة الأمريكية فى القرن العشرين، نما كذلك أيضا مفهوم "القوى العظمى المعارضة"(٢)، وقد بيّن المؤرخ أرنست ماى هذا المفهوم على أفضل وجه عندما قال: إن "بعض الأمم تحقق العظمة. الولايات المتحدة يُلقى بالعظمة على كاهلها"(٣). إن أمريكا، من وجهة النظر هذه، لا تسعى إلى القوة أو الأرض. إنها تؤكد قوتها فقط مكرهة، ومن أجل أغراض نبيلة لضمان السلم والدفاع عن الديمقراطية، ولقد أوضح القادة الأمريكيون من الحزبين هذا المعتقد، فقال ستروب تالبوت نائب وزير خارجية كلينتون: "إن الولايات المتحدة، طبقًا لما هو دارج، ولزمن متفرد فى تاريخ القوى العظمى، تحدد قوتها، ليس بلغة قدرتها على تحقيق أو تأكيد هيمنتها على الآخرين، ولكن بلغة العمل مع الآخرين من أجل مصالح المجتمع الدولى ككل"، وأضاف نائب وزير الخزانة، لارى سومرس: إن الولايات المتحدة هى "القوة العظمى الأولى غير الإمبريالية"(٤)، وحتى لا يتفوق عليه أحد، قال حاكم تكساس حينذاك، جورج دبليو بوش، فى جمهور من المستمعين فى كاليفورنيا فى خريف عام ١٩٩٩: "إن أمريكا لم تكن البتة إمبراطورية. حقيقة، ربما تكون القوى العظمى الوحيدة فى التاريخ التى كانت لديها الفرصة ورفضتها، مفضلة العظمة على القوة، والعدالة على المجد"(٥). لقد كان بوش متناغما، فى هذه النقطة، مع الغالبية الكبرى من سكان الريف(٦).

وبعد أعوام ثلاثة، تحدث، على أى حال، فى ١ يونيو ٢٠٠٢، نفس جورج دبليو بوش، كرئيس الآن، إلى فصل دراسى من خريجى الكلية العسكرية، فى الأكاديمية العسكرية للولايات المتحدة، فى وست بوينت، وطرح رأيا مغايرا يمكن أن يقلب مائتى عام من العقيدة الاستراتيجية الأمريكية رأسا على عقب. بدأ بما يمكن التنبؤ به تماما، بقوله "ليس لدى أمريكا إمبراطورية كى تمد رقعتها، أو يوتوبيا حتى تؤسسها". وأكد، "أننا نتمنى للآخرين، فقط ما نتمناه لأنفسنا. السلامة من العنف، وجوائز الحرية، والأمل فى حياة أفضل". ثم أكد بوش، على أى حال، إنه بينما العقيدة الدفاعية الأمريكية القائمة منذ زمن طويل عقيدة ردع ومنع انتشار ، فإنها ما تزال ممكنة

التطبيق فى بعض الحالات، "إن التهديدات الجديدة تقتضى أيضًا تفكيرا جديداً". وواصل، " يجب أن نأخذ الحرب إلى العدو، وأن نواجه أسوأ التهديدات قبل أن تبزغ. إن الطريق الوحيد إلى السلام، فى العالم الذى دخلناه، هو طريق العمل"(٧).

وجاء الفصل الأول فى غضون أقل من أسبوعين، عندما انسحبت الولايات المتحدة رسميا من الاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية فى ١٣ يونيو. واستكملت تماما، وبصورة أكبر، فى ٢٠ سبتمبر، ما تعد الآن عقيدة جديدة هى "الحرب الاستباقية"، فى استراتيجية الأمن القومى السنوية للولايات المتحدة، والتى هى وثيقة يجب على كل رئيس أن يطرحها على الكونجرس. بدأ التقرير بتأكيد أنه يجب على الولايات المتحدة ألا تستخدم قوتها العسكرية التى لا نظير لها للضغط طلبا لميزة أحادية، ولكن يجب عليها، فى الواقع، السعى لخلق توازن قوى يكون فى صالح الحرية البشرية، وأكد أهمية أن الأمم الملتزمة وحدها "بحماية حقوق الإنسان الأساسية، وضمان الحرية السياسية والاقتصادية، سوف تكون قادرة على ضمان رفاهية مستقبلها". واستمر يقول :

"إن الشعب فى كل مكان يرغب فى أن يقول ما يفكر فيه، وأن يختار من يحكمه، ويتعبد كيف شاء، ويعلم أبناءه -ذكورا وإناثا - ويحوز الملكية، ويتمتع بفوائد عمله .... إن قيم الحرية تلك شرعية وحقيقية لكل شخص، فى كل مجتمع - وواجب حماية تلك القيم ضد أعدائها، هو دعوة عامة للشعوب المحبة للحرية. إن الولايات المتحدة سوف تنتهز هذه الفرصة لتوسيع فوائد الحرية عبر الكون. إن على أمريكا أن تقف بقوة إلى جانب مطالب الكرامة البشرية غير القابلة للتصرف أو التفاوض: حكم القانون، حدود على السلطة المطلقة للدولة، حرية التعبير، حرية العبادة، العدالة المتساوية، احترام المرأة، التسامح الدينى والإثنى، واحترام الملكية الخاصة"(٨).

ليس فى ذلك شىء غير عادى، غير أن الورقة تناولت، بعد ذلك، بطريقة لا لبس فيها كيفية السعى إلى تلك الأهداف. قال الرئيس: إن الولايات المتحدة، "لن تتردد فى العمل منفردة"، وسوف تدافع عن نفسها، إن كانت هنالك ضرورة، بواسطة "العمل

الاستباقي"، واختتمت الوثيقة بتأكيد أنه في حالة أن أحدا لم تبلغه الرسالة، فإن، "قواتنا سوف تكون قوية بما يكفي، كي يعدل أي أعداء محتملين عن السعي لبناء عسكري، بأمل التفوق، أو التساوي، مع قوة الولايات المتحدة. وفي كلمات أخرى، نحن على القمة، ونستحق أن نكون هنالك، وننوي البقاء هناك".

إن هذه العقيدة الدرامية الجديدة للتفوق والهجوم الاستباقي، لم تنقض فقط سنوات من سياسة الأمن القومي الأمريكي، لكنها ضربت في القلب اتفاقية ويستفاليا، التي عززت، بالشواهد، النظام الدولي الحديث لدول الأمم، لأكثر من ثلاثمائة عام. إن هذه الاتفاقية التي وقعت عام ١٦٤٨ لإنهاء حرب الثلاثين عاما، أقرت كمبدأ أساسي في العلاقات الدولية، قداسة السيادة الوطنية، وعدم تدخل دولة في شئون دولة أخرى، كما بدت عقيدة بوش منافية أيضا لدستور الأمم المتحدة، الذي يجرم "التهديد أو استخدام القوة ضد سلامة الأراضي أو الاستقلال السياسي لأي دولة"، كما ناقضت تلك العقيدة نتائج محاكمات نورمبرج التي تعاملت مع "الحرب الاستباقية" باعتبارها جريمة حرب.

ورغم أن العقيدة الجديدة بدت كمفاجأة للعالم، غير أنها خضعت بالفعل للنقاش لبعض الوقت، فبعد انهيار الاتحاد السوفيتي، عند نهاية إدارة بوش الأولى، واجهت منشأة دفاع الولايات المتحدة، فجأة سؤالاً خاصا بالوجود: ما المنطق تحديدا، بدون وجود إمبراطورية الشر، في الحفاظ على قوات أمريكية كبيرة منتشرة على نحو واسع، والميزانيات التي تدعم هذه القوات؟ وطلب ديك تشيني، ثم وزير الدفاع، من وكيل وزارة الدفاع بول ولفوويتز، أن يعمل مع رؤساء الأركان المشتركة، من أجل إعداد خطوط إرشادية لاستراتيجية دفاع جديدة للولايات المتحدة. وقد أشار باول إلى الاستراتيجية الجديدة خلال شهادة أمام لجنة القوات المسلحة بمجلس النواب في باكورة ١٩٩٢. قال: إن الولايات المتحدة تحتاج إلى "قوة كافية" كي "تحول دون أي تحد من أي حالم بتحدينا على المسرح العالمي. وأضاف: "إنني أود أن أكون الثور الجاهز لجر العربة"، حتى، "لا يكون هنالك مستقبل لأي محاولة تحد لقوات

الولايات المتحدة المسلحة[٩]. إن الخطوط العريضة للتخطيط الدفاعي الجديد، كما سُربت إلى النيويورك تايمز فى مارس ١٩٩٩، قالت: إن الهدف لاستراتيجية الولايات المتحدة للدفاع كانت "لمنع عودة ظهور منافس جديد"، ومن أجل تحقيق ذلك، فإنه على الولايات المتحدة أن تقنع حلفاءها، وأعداءها بالمثل، "إنهم ليسوا فى حاجة للطموح إلى دور أكبر"، إن القوة الاستباقية كانت خيارا، وأن الولايات المتحدة، سوف تحتفظ بمستودع نووى أساسى، فى الوقت الذى تشجع فيه الآخرين على تخفيض ما لديهم من أسلحة نووية، أو التخلى عنها، وفى النهاية، ترى الخطوط الإرشادية أنه يجب أن تكون تحالفات المستقبل "جمعيات لغرض بذاته"، لا تدوم، فى الغالب، بعد مواجهة الأزمة، وتحمل فقط، فى حالات كثيرة، اتفاقًا عاما حول الأهداف التى يجب إنجازها.

وقد أدى تسريب المسودة إلى إثارة عاصفة ساخنة من النقد، وحاول المتحدث باسم البنتاجون أن يبعد تشينى عن الوثيقة بتسميتها "مسودة منخفضة المستوى"، حتى إن الوزير لم يرها بعد. وطرح البنتاجون، على نحو عام، نسخة جرى تخفيف تأثيرها فى يناير ١٩٩٣، لكن الأمر كان، عند هذه النقطة، أكثر بقليل من إيماءة وداع؛ حيث أخلى بوش الأب الطريق أمام إدارة كلينتون، التى وضعت تلك الخطوط الإرشادية الجديدة فوراً على الرف، والآن، بعد تسع سنوات أنزلتها إدارة بوش الثانية من على الرف، ونفضت عنها الغبار، وتبنتها باعتبارها استراتيجية الأمن القومى الأمريكى الجديدة.

إن الحركة، على الأرجح، ما كان يجب أن تكون مثيرة للدهشة؛ حيث إن مجموعة مؤثرة من الرواد كانت تحدد مجرى إمبراطورية أمريكية جديدة، خلال العقد السابق، ومن ثم طالب المحرر السابق لـ " وول ستريت جورنال "ماكس بوت، بالاحتلال الأمريكى لأفغانستان والعراق، واحتمال أماكن أخرى، وفرض الديمقراطية الليبرالية عليها، تماما مثلما حدث فى طوكيو وبون بعد الحرب العالمية الثانية. وكتب ريتشارد هاس، وهو عالم فى معهد بروكينجز وسوف يصبح فيما بعد، مدير إدارة تخطيط سياسة

الدولة، كتابا بعنوان "العمدة المعارض" عام ,١٩٩٧ وفى صيف عام ٢٠٠٢ قال: إنه لو كان عليه أن يكتب هذا الكتاب من جديد فسوف يشطب الصفة[١٠]. وأكد المعلق المحافظ، أرفينج كريستول أن"الشعب الأمريكى سوف يستيقظ ذات يوم من الأيام، على حقيقة أننا قد غدونا أمة إمبراطورية، رغم أن الرأى العام، وكل تقاليدنا السياسية معادية للفكرة"[١١].

ربما تكون أفضل صورة للنظام الجديد، هى تلك التى رؤيت فى المكسيك، فى أواخر أكتوبر عام ٢٠٠٢، بعد نشر وثيقة الاستراتيجية الجديدة؛ فقد اجتمعت رؤوس القوى الاقتصادية، التى تشكل منتدى التعاون الباسفيكى الاقتصادى، فى لوس كابوس من أجل محادثاتهم السنوية التى تنعقد فى اتحاد مع قمة المديرين التنفيذيين، لقادة رجال الأعمال الأساسيين، من أنحاء الباسفيكى، وقد حدث فى العشاء الختامى الذى استضافه الرئيس المكسيكى – فيسنت فوكس – أن جلس رؤساء الدول ورؤساء الوزارات إلى منصة، فى طرف قاعة كبيرة، بينما جلس فنانون يغنون ويرقصون على خشبة مسرح عند الطرف الآخر، وجلس رجال الأعمال إلى مناضد مستديرة، فيما بين الاثنين، ولم يبدأ الحدث حتى التاسعة مساء، فقد كانت هذه هى المكسيك. أدركت، عندما ألقيت نظرة على المنصة أن العديد من الرؤساء يعانون. الرئيس الصينى جيانج زيمن، والذى يبلغ من العمر ستة وسبعين عامًا، كان قد وصل بالأمس فقط من بكين. كانت طائرته، كما هو واضح، قد تخلفت. وكان ذلك حال، أيضا، رئيس الوزراء اليابانى جونيشيرو كويزومى، وكان الآخرون يعانون درجات أخرى من التعب. وبدا الرئيس بوش، الذى كان قد قضى ثلاث ساعات طيران فى القوة الجوية ١، من مزرعته فى كراوفورد، تكساس، مبكرا فى ذات اليوم، بدا فى هيئة جديدة. كان قد أُجلس، فى النهاية، بعد رئيس الوزراء الفيتنامى. لم يكن واضحا أنهما يتبادلان حديثًا مثيرًا. ولم يكن الطعام قد قدم بعد. كنا نحن الجالسين إلى موائد رجال الأعمال نمضغ آخر البسكويتات الهشة الرقيقة اليابسة السابقة على العشاء، ونأتى على آخر ما فى قوارير المياه، وبينما كنت اتساءل إن كان بوش (والمشهور عنه ذهابه المبكر إلى الفراش)

سوف يظل طوال العشاء، نهض واقفا وغادر، كان عليه أن يكون فى الفراش حتى يكون مستعدا لجريه البطىء فى السادسة صباحًا على الشاطئ، صباح اليوم التالى كنت واثقا أن المسئولين المكسيكيين قد عرفوا مقدما عن احتمال مغادرة الرئيس، غير أن رجال الأعمال لم ينبههم أحد دون شك. وقد لاحظوا أن جيانج وكويزومى والآخرين يتحملون المشقة، حتى وإن لم يتحملها الرئيس، وعلق أحد التنفيذيين المكسيكيين "بوش، من يظن نفسه، الإمبراطور".

شكل الإمبراطورية

كان السؤال أفضل مما أدركه رجل الأعمال، كنت على يقين أن بوش لم يفكر فى نفسه كإمبراطور، الإمبراطوريات شىء حازه الأوربيون أو الصينيون أو اليابانيون، لكن لم يحزه الأمريكيون. وعلى أية حال، فإنه لو نظر أو سار أو بطيط مثل البط، فإن الفرصة هى بطته. كان لأمريكا، بالطبع مستعمرات مباشرة قليلة، أو ممتلكات من أرض على النمط الكلاسيكى لبريطانيا ويابان الماضى. غير أن الإمبراطوريات تقاس أيضا بقدرتها على إبراز القوة لإخضاع الآخرين أو إغرائهم على ما تصدره من أوامر، وعلى وضع القوانين وفرضها، وعلى تأسيس معايير اجتماعية. ونحن إن نظرنا إلى الكيفية التى ترتب بها الولايات المتحدة الأوراق، فيما يتعلق بهذا الصدد، فسوف، تبدأ سيماء البطة التى لا تخطئها العين فى الظهور.

إن حاملة الطائرات يو إس إس، "كيتى هوك"، عادة ما تخفر الباسفيكى الغربى من مرفئها فى يوكوسوكا اليابانية، إنها أقرب إلى مدينة معدة نوويا طافية، منها إلى مجرد سفينة – إن طولها أكثر من ١١٠٠ قدم، وهو طول يضارع مبنى من عشرين طابقا – كما تحمل سطح انطلاق يمتد ٢٥٠ قدما، من جانب إلى آخر. إن هذا الحيوان القوى الضخم يأوى ٦٠٠٠ من الملاحين والطيارين والميكانيكيين، بالإضافة إلى طائراتها السبعين المتطورة طبقًا لأحدث الأساليب. يرافقها، حيث ذهبت، طراد

إيجيبس للحماية، وهو مجهز لإسقاط الصواريخ القادمة، وعدة فرقاطات ومدمرات، وواحدة أو اثنتين من الغواصات الصيادة القاتلة، وسفن إمداد، ويمكن للكيتى هوك أن تبحر بسرعة تزيد عن ٣٠ ميلاً فى الساعة، وهى دعم لهجوم الولايات المتحدة على أفغانستان، غطت ٦٠٠٠ ميل من يوكوسوكا إلى المحيط الهندى فى اثنى عشر يوما، إن ذلك حقًا، تركيز مرعب للقوة العسكرية.

إن لدى الولايات المتحدة ثلاث عشرة وحدة من مجموعات حاملات المعارك تلك، ولا يوجد بلد آخر لديه حتى مجموعة واحدة[١٢]، وسواء كانت تلك قاذفات قنابل، أم صواريخ باليستية عاملة، أم غواصات استراتيجية، أم قنابل ذكية يوجهها الليزر، أم صواريخ كروز مثبتة إلى الأرض، أم طائرات بلا طيارين، أم سفن حربية، فإن هنالك هيمنة على امتداد أكثر من ٧٠٠ منشأة عسكرية للولايات المتحدة عبر الكون[١٣]، مع ١٢٠٠٠٠ جندى أمريكى فى أوربا، و٩٢٠٠٠ فى شرق آسيا والباسفيكى، ٢٠٠٠٠ فى شمال إفريقيا والشرق الأوسط وجنوب آسيا، و١٥٠٠٠ فى النصف الغربى من الكرة الأرضية خارج الولايات المتحدة[١٤]. إن نصيب الولايات المتحدة، من إنفاق الدفاع الكلى لكل بلدان العالم هو ٤٠٪ آخذة فى الزيادة، إنها تنفق أكثر مما تنفق البلدان التسعة مجتمعة[١٥]، وفى لغة الهيمنة العسكرية المطلقة، فإن العالم لم ير مثيلا لهذا.

وتلوح الولايات المتحدة على وجه التقريب بهذه الضخامة الاقتصادية، إن الناتج المحلى الإجمالى للولايات المتحدة هو ١٠ تريليون دولارا، وهو يصل إلى أكثر من ٣٠٪ من الناتج المحلى الإجمالى الموحد لجميع بلدان العالم، وضعف ذلك الذى للبلد رقم ٢، اليابان، وبينما الناتج المحلى الإجمالى الموحد للاتحاد الأوربى ٩ تريليون دولار، بما فى ذلك البلدان التى التحقت به حديثا، فإن الاتحاد الأوربى ليس دولة بعد، ويعمل كنظير للولايات المتحدة فى مناطق محدودةً فقط. ومع ذلك فالولايات المتحدة أكبر اقتصاديا من أوربا كلها، وأربعة أضعاف ألمانيا، الأكبر اقتصاديا فى أوربا. ويعادل اقتصاد الصين، طبقا لأسعار السوق عشر حجم اقتصاد الولايات المتحدة فقط،

وروسيا أقل من نصف ذلك. وحتى بعد خسارة سبعة تريليون دولار، من قيمة سوق الولايات المتحدة، نتيجة انهيار الفقاعة التكنولوجية الحديثة، فإن رسملة بورصات الولايات المتحدة تقدر بـ ٣٦٪ من قيمة السوق الكونى[١٦]. إن نمو إنتاجية الولايات المتحدة بـ ٥٠٪ أسرع من نمو الدول المتطورة، هو الأمر الأكثر أهمية ودلالة، يضاف إلى ذلك أن كل الأرقام تتحرك فى صالح الولايات المتحدة. إن اقتصاد الولايات المتحدة ونصيبه من الناتج المحلى الإجمالى الكونى، وتقييم أصوله، ونمو إنتاجيته تواصل الصعود، ولذا فإنه يبدو، على الدوام، أكبر، والنتيجة أنه سوف يكون بالفعل قادرا على زيادة حجم وقوة قواته العسكرية الساحقة، بينما ينفق من ناتجه المحلى الإجمالى نسبة أقل على الدفاع.

كذا لا يمكننا إنكار قيادة أمريكا فى مجال التقنيات الأساسية، ولا هيمنتها الفكرية، ويقدر إنفاق الولايات المتحدة، فى مجال البحث الطبى والبيوتكنولوجى - أكثر من باقى العالم مجتمعا[١٧]. إن أكثر من ٨٥٪ من الحاسبات الآلية فى العالم تعمل بنظم تشغيل "ميكرو سوفت ويندوز" أو "يونيكس"، وتدار بواسطة "إنتل" أو "موتورولا ميكرو بروسيسورز"، إن "السوفت وير"، ونظم دمج الأعمال تسيطر عليها شركات مثل "ميكروسوفت" ، و"أوراكل"، و"إى دى سى"، و"إى بى إم". وتنتج الولايات المتحدة قدرا ضخما من العقاقير الجديدة والأدوية. وما يقارب ٧٥٪ من كل اتصالات الإنترنت كونيا تمر عبر الولايات المتحدة عند نقطة أثناء إرسالها. وتقدر عائدات الأفلام الأمريكية بحوالى ٨٥٪ من إيرادات شباك تذاكر السينما فى أوربا، وأكثر من ٨٠٪ من السوق الكونى الكلى. وقد وجد فى مسح حديث لأفلام القمة العشرة، فى اثنين وعشرين بلدا، إن ١٩١ فيلما من ٢٢٠ فيلما يحتمل بيعها هى أفلام أمريكية[١٨].

إن هيمنة كهذه غير مسبوقة. إن الناتج المحلى الإجمالى للفرد، فى بريطانيا العظمى، فى ذروة إمبراطوريتها، فى أواخر القرن التاسع عشر، كان أقل من ذلك الذى فى الولايات المتحدة، وكان إنفاقها الدفاعى أقل من ذلك الذى لكل من روسيا وفرنسا[١٩]، بل وحتى بريطانيا لم تهيمن ثقافيا بما يقارب ذلك القدر. إن الفرنسيين لم

يتناولوا فى الغداء أو العشاء سمكا ورقاقات بطاطس، أو يحتشدون للتسلية البريطانية، بل وحتى الإمبراطورية الرومانية تبهت عند المقارنة، لقد كانت عظيمة، لكنها إقليمية بصورة محددة، وكانت الإمبراطورية الفارسية منافسا كفئا، ويحتمل أن الناتج المحلى الإجمالى للصين كان أكبر، وأن تكنولوجيتها القابلة للجدل والمناقشة أكثر تقدما.

أن تكون كبيرا وقويا وذا سلطة، لا يساوى بالضرورة الإمبريالية، وإن ساوتها، فربما تكون الإمبريالية مسألة إغراق أكثر منها مسألة إكراه، إن قوة أمريكا تعبر عن نفسها فى الحقيقة، عبر ثلاثة سبل على الأقل: الإكراه، والإغراء، والإقناع، إن الإكراه، بالطبع، هو الأكثر مباشرة، وقد رأينا منذ زمن قريب مثالا لافتا للنظر، على نحو خاص، فى الاستياء الذى يسببه، ففى ١٣ يونيو عام ٢٠٠٢، كان اثنان من ضباط جيش الولايات المتحدة يدفعان بمركبة تطهير ألغام من القاعدة العسكرية الأمريكية، وسط سيول، إلى أراضى التدريب خارج المدينة، وبينما يستديران فى منحى مستتر بسرعة كبيرة – على طريق ضيق، كان أيضا أقل الطرق التى يحبونها وصولا إلى غايتهم – صدما فتاتين مراهقتين كانتا تسيران على حافة طريق المشاة، وسحقاهما تحت عجلاتهما، وطبقا لاتفاقية وضع القوات مع كوريا، فإن السلطات الكورية لا تجرى التحقيق مع الجنود، لكنهما يحاكمان أمام محكمة الولايات المتحدة العسكرية، وفى أواخر نوفمبر، وُجد أن الاثنين غير مذنبين، ونقلا إلى خارج كوريا.

يكاد ذلك الحدث أن يكون متفردا فى تاريخ الوجود الأمريكى العسكرى فى كوريا، غير أن تلك الحادثة كانت بارزة نتيجة لتوقيتها، لقد تمت تبرئة الضابطين قبل أسبوعين من انتخابات الرئاسة فى كوريا الجنوبية، وقد احتشد خمسون ألفا بعد فترة قصيرة من إعلان القرار، فى شوارع سيول، وحفز غضبهم حملة روه مو هيون الانتخابية، كان روه محامى حقوق مدنية، علم نفسه بنفسه، وكان يدير منبرا معارضا لسياسة الولايات المتحدة نحو الشمال، ويدافع عن مراجعة الشروط المجحفة للتحالف مع الولايات المتحدة، وكان خصم روه هو لى خوى شانج، والذى كان ينطلق كمدافع

قوى عن التحالف التقليدى، وعن خط الولايات المتحدة، وقد صوت حوالى ٦٠٪ من الكوريين الذين فى العشرينيات أو الثلاثينيات لروه، مانحين إياه هامش الفوز، مثيرين القلق في واشنطن من العداء الكورى للولايات المتحدة الأمريكية[٢٠]. لقد أُنتخب روه في الأساس لأن شباب كوريا مستاء من كونه دولة تابعة للولايات المتحدة.

وتلك هى النقطة الأساسية؛ إذ بينما يفكر غالبية الأمريكيين فى أن كوريا حليف شجاع، مجد، كادح، مستقل، فإنها بالفعل، من نواح عديدة قمر صناعى تابع، وهى ليست الوحيدة فى ذلك. فاليابان ترقد على بعد ٩٠ ميلا عبر المضايق الكورية، وحدث منذ أعوام عدة مضت أن أثار أحد سياسى اليابان القادة إيشيرو أوزاوا نقاشًا متواصلا مع نداء أن تصبح اليابان بلدا طبيعيا[٢١]. يقينا، لم يكن غالبية الأمريكيين واعين إلى أن اليابان بلد غير طبيعى، إلا أن قضية أوزاوا كانت تحديدا أن اليابان، أيضا تابعة للولايات المتحدة، إنها مثل كوريا تستضيف العديد من قواعد الولايات المتحدة، وهناك، كما فى كوريا، حوادث متواصلة – الناس تدهسهم المركبات، ومعارك بين المواطنين والجنود الأمريكيين، واغتصاب النسوة المحليات وهلم جرا، ومع ذلك، فإن قدرة السلطات المحلية على التحقيق ومحاكمة الأشخاص العسكريين من الولايات المتحدة مقيدة، إن المثل الأكثر تماسكا بالنسبة لى، والخاص بطبيعة العلاقة، حدث عندما صاحبت نائب الرئيس بوش، حينذاك، فى رحلة إلى طوكيو، فى منتصف الثمانينيات، كانت طائرة نائب الرئيس تحتاج، عند أحد النقاط، إلى منطقة يجب أن تطير عبرها خارج اليابان، وسأل أحدهم إن كنا فى حاجة إلى إذن يابانى من أجل طريق الطيران، ورد الضابط المسئول على الفور: إن الترخيص غير ضرورى لأن "ذلك هو مجالنا الجوى".

إن دستور اليابان، الذى كتبته أمريكا، يحظر عليها القيام بحرب ما، كما تعمل قوات الدفاع الذاتى طبقا لإطار شديد التقييد، إن اتفاقيات أمن اليابان وكوريا مع الولايات المتحدة تقوم على ترتيبات فى اتجاه واحد، إن الولايات المتحدة تأخذ على عاتقها مهمة الدفاع عن هذين البلدين حال الهجوم عليهما، ولكن ليس هنالك من التزام

عكسى بالدفاع عن الولايات المتحدة، إن جيش كوريا تحت قيادة الولايات المتحدة، وكذلك اليابان فى ذات الوضع فعليا.

إن موضوع السيادة هذا، يذهب إلى أبعد من الأمور العسكرية، فقد حاولت اليابان، أثناء الأزمة المالية الآسيوية عام ١٩٩٧ - أن تقوم بعملية إنقاذ مستقلة لأمم جنوب شرق آسيا، غير أن معارضة وزارة خزانة الولايات المتحدة أوقفتها، وقد أُجبرت كوريا على إعادة هيكلة اقتصادها، فى ظل وصاية صندوق النقد الدولى، الذى يخضع بشدة لنفوذ وزارة خزانة الولايات المتحدة، إن ما ألقى "أوزاوا" الضوء عليه هو أن اليابان عندما تجلس الدول، فإنها تجىء دون مجموعة كاملة من أوراق اللعب.

إن الشىء الوحيد الباعث على الراحة هنا هو أن اليابان ليست بمفردها، وكما لاحظ إرفينج كريستول: "إنها الآن حقيقة، فلا يزال هنالك قصور فى الاعتراف الدبلوماسى الصريح، حتى إنه لا يمكن لأمة أوربية أن يكون لها - أو ترغب حقًا فى أن يكون لها سياستها الخارجية الخاصة بها. إنها أمم غير مستقلة، رغم أن لديها درجة كبيرة من الحكم الذاتى المحلى[٢٢]".

إن القوة الأمريكية مغرية أيضا - بطريقتين: الأولى ذات علاقة بامتيازات ومكافآت المشروعات، ورغم أن هنالك الكثير من المشاكل المرتبطة بالنظام التعليمى فى الولايات المتحدة، غير أن لديها، دون شك، أفضل الجامعات فى العالم، وهى مفتوحة لكل القادمين بغض النظر عن بلد الأصل، والعديدون منهم فى الحقيقة قادمون جدد من الخارج، والنتيجة أنه فى أية لحظة معينة، هنالك حوالى ٦٠٠٠٠٠ طالب أجنبى يدرسون فى جامعات الولايات المتحدة، وهنالك عبر السنين، وبصورة واقعية ملايين الطلاب الأجانب، الذين حصلوا على درجات علمية[٢٣]. كما أن هنالك العديد من البرامج الرئيسية لخريجى الجامعات فى العلوم والهندسة فى مدارس النخبة، مثل بيركلى أو معهد ماساشوستس للتقنية، والتى جذبت غالبية طلابها من عبر البحار.

إن أمريكا أيضا هى مكة العالم بالنسبة لأصحاب المشاريع، إن الأصل الوطنى لوادى السيليكون مستتر غير ظاهر، إن جاء الأمر إلى تمويل وتنشئة الأفكار الجديدة، وقد بدأت عام ٢٠٠٠ مثلا أكثر من ٤٠٪ من الشركات الجديدة التى تأسست فى الوادى بواسطة أصحاب مشاريع هنود، أقاموا بعد ذلك عمليات كبرى فى أوطانهم[٢٤]، إن هذا الترتيب موات لصاحب المشروع، وموات للولايات المتحدة، وموات للهند، إن كان لديك شخص لا يبدأ فى تكوين شركات، لكنه يضرب البيسبول، أو يقذف كرة السلة عبر السلة، فإن أمريكا - مرة أخرى - هى المكان الذى يناسبك.

الطريقة الثانية للإغراء تعطى أقل فيما يتعلق بالامتياز وأكثر فيما يتعلق بالإقناع، خذ شركات الكوكاكولا، وهى الأكثر نجاحا فى كل الشركات الدولية. إنها بمبيعاتها التى تبلغ ٢٠ مليار دولار، وإيراداتها التى يجىء ثلثاها من الأسواق العالمية قد تبدو أن لديها القليل الذى يثير قلقها، غير أنها تعانى بالفعل قلقًا كبيرًا، إن عليها، كى تحافظ على جذب المستثمرين، وجعل الشركة قادرة فى هذا الحقل أن تبقى على عملية النمو، إنك عندما تكون كبيرا، مثل شركة الكوكاكولا، فإنك سوف تضيف بلايين الدولارات للمبيعات كل عام، وأنت عندما تكون قد اخترقت بالفعل الكثير من السوق العالمى، فإنك تبدأ فى التساؤل، من أين سيأتيك نموك، ولحسن الحظ فإن هنالك عددا كبيرا من الناس فى أماكن مثل الهند أو أندونيسيا، ما زالوا يشربون الشاى أو الماء. "وبينما لا يمكن صناعة العطش، فإنه يمكن صناعة التذوق"[٢٥]. ومن ثم، تستثمر شركة الكوكا بعضا من دخلها الهائل فى الدعاية (مستخدمة فى الغالب صور النجاح الأمريكى) لإقناع الهنود والإندونيسيين بأن الكوكاكولا هى المشروب الكوزموبوليتانى العالمى، وربما يكون الشاى أفضل لك، غير أنه لا يمتلك صورة النجاح تلك، ولذا يظل الناس على امتداد الكون يختطفون الكوكاكولا، وتظل الكوكاكولا فى نمو.

لقد أسست أمريكا عبر القوة العسكرية، والاتفاقيات غير المتكافئة، والتفوق الفكرى، ومكافآت المشروعات، والإقناع الودى، سيادة مشتركة غير مسبوقة على

الكون، والإجابة على سؤال صديقى رجل الأعمال المكسيكى، أنه مهما كان تفكيره، فإن بوش هو الإمبراطور.

صنع إمبراطورية

ولدت أمريكا فى ثورة ضد الإمبراطورية، غير أنها أخفت بذورها الخاصة بها منذ البداية، لقد غامر نوعان من الناس بالذهاب إلى العالم الجديد لتأسيس مستعمرات، فى باكورة القرن السابع عشر، بحثا عن قدرهما، ذهب المغامرون والحرفيون إلى فرجينيا مع الكابتن جون سميث بحثا عن الثروة. وذهب إلى ماساشوستس، مع الحاكم جون وينثروب، الحجاج والمتطهرون بحثا عن الجنة، وقام هذان الباحثان بدفع التوسع الأمريكى منذ ذلك الحين.

كان هنالك - بداية - ازدواجية معينة فى عقول مؤسسى البلاد، فقد حذر واشنطن وجيفرسون، من ناحية، من التحالفات المعقدة، وقال جون كوينسى آدامز قولته الشهيرة: إن "أمريكا لا تذهب إلى الخارج بحثا عن هولات تدمرها ... إنها قد تصبح ديكتاتور العالم، إنها لن تكون بعد ذلك، حاكمة لروحها ذاتها"، ومع ذلك كان جيفرسون هو من حلم "بإمبراطورية للحرية"، وهو الذى ضاعف حجم البلاد بجسارة، وبشرائه أراضى لويزيانا، وبتصوره زمنا، "سوف يغطى فيه تضاعفنا كل القارة الشمالية، إن لم يكن القارة الجنوبية"، وردد أدمز كلامه قائلاً: "يبدو أن العناية الإلهية قد قررت قدر أمريكا الشمالية، لتسكنها أمة واحدة"، وكان الاتجاه الأحادى نحو البلدان الأجنبية، والروح التوسعية، من الناحية العملية، حدى سيف يُدعى الاستثنائية الأمريكية[٢٦].

لقد رأى الأمريكيون أنفسهم منذ البداية استثناء بالنسبة للأمم التى تدار بطريقة طبيعية، لقد رأوا وقد شكلوا أول جمهورية منذ الأزمنة الكلاسيكية أنهم بداية لتاريخ بشرى جديد بالكامل، أما والأمر كذلك، فإنهم يجب ألا يلوثوا بالاعتماد

على، أو تبنى، سبل شعوب التاريخ القديم، وقد أُقنع الأمريكيون بأنهم منارة للبشرية، وبدؤوا يفكرون فى أنفسهم، كما جاء فى كلمات الفصل المقتبسة، "الشعب المختار المميز - إسرائيل زماننا" - فإن كان الأمريكيون هم الشعب المختار، إذن كانت أمريكا هى "أرض الميعاد"، ويكون "بيان القدر" هو المصطلح الذى يعبر عن العقيدة القائلة بأنه يجب على الأمريكيين خلق أمة واحدة تمتد عبر القارة من البحر إلى البحر، وفى عام ١٨٨٥، غدا ذلك حقيقة. بالطبع، جاءت تلك الحقيقة على حساب المكسيك، التى فقدت نصف أراضيها فى حرب أثارتها أمريكا، وعلى حساب الأمريكيين الأصليين الذين أبيدوا على وجه التقريب، ومرت تلك الحقيقة دون أن يلتفت إليها أحد فى ذلك الوقت، فقد كستها بلاغة ما أسماه الرئيس أندرو جاكسون، "توسيع مساحة الحرية".

وكادت هذه المساحة أن تحظى بقفزة كمية، عند نهاية القرن التاسع عشر؛ إذ إن الروح الأمريكية التوسعية، وهى تجسد "بيان قدرها" استدارت نحو الشواطئ الأجنبية، ولم تكن الولايات المتحدة، فى الحقيقة، غريبة على الخارج، فقد حاربت عبر البحار فى مائة مناسبة، كان أسطول الولايات المتحدة، يقوم بدوريات فى نهر اليانجتسى الصينى منذ أربعينيات القرن التاسع عشر، غير أن الرئيس ماكنيلى طلب من الكونجرس إصدار تفويض باستخدام القوة لحماية المصالح الأمريكية، ولوقف القهر الإسبانى لكوبا، قال ماكنيلى: "إننا نتدخل ليس من أجل الإخضاع. إننا نتدخل من أجل الإنسانية"، وحتى "ننال ثناء محبى الحرية فى العالم أجمع"، ولكن عندما تركت نهاية الحرب الفلبين الإسبانية سابقا، فى أيدى أمريكية، اختتم ماكنيلى بعد الكثير من "النضال الذى اتسم بالورع والتقوى" (ورغم إعلان الفلبين الاستقلال) اختتم بقوله "لم يُترك لنا شىء نفعله، غير أن نأخذهم جميعا، وأن نعلم الفلبينيين، وننهض بهم، ونُحضرهم، وننصرهم(٢٧). وهكذا غدت الفلبين مستعمرة أمريكية بعد أن كانت مستعمرة إسبانية مدة أربعمائة عام.

ولم يطرح وود رو ويلسون التوجه إلى توسعات كبرى تخضع للتحكم الأمريكي، لكنه رغم ذلك عبر بوضوح عن حاسة ماكنيلي التبشيرية بطريقة جديدة ذات دلالات عميقة يمكن أن يكون لها صداها في زماننا. أولا: انتظر حتى "دفعت" هجمات الغواصات الألمانية الأمريكيين إلى الحرب العالمية الأولى، وعندما قاد البلاد إلى الحرب، كان ذلك بغرض جعل العالم مكانا "آمنا للديمقراطية"، لقد فشلت عصبة الأمم، بسبب الانعزاليين في مجلس شيوخ الولايات المتحدة، كما قيل. والحقيقة، على أية حال، إن أعضاء المجلس المعارضين كانوا داعمين متحمسين للتوسع الكولونيالي للولايات المتحدة، لم يكونوا انعزاليين، كما أنهم لم يرفضوا العصبة لأنهم كانوا أحاديين، لقد كان ذلك على نحو ما هو الاستثنائية الأمريكية ضد الاستثنائية الأمريكية، ولو كان ويلسون، قد فقد الجولة الأولى، فإنه، على أية حال، قد أسس أسلوب السياسة الخارجية الأمريكية وإطارها حتى بقية القرن.

إن السياسة والأهداف الأمريكية، في الحرب العالمية الثانية، كانت تكاد أن تكون ويلسونية كلية، وقد قال الرئيس روزفلت عند إعلان الحرب: "إننا لا نحارب من أجل الإخضاع، ولكن من أجل عالم تكون فيه هذه الأمة، وكل ما تمثله هذه الأمة من أمان، من أجل أطفالنا"[٢٨]، وخرجت أمريكا، بالطبع، كالقوة المهيمنة بصورة شاملة، ومع ذلك، فإنها فعلت شيئا لم تفعله قوة مماثلة من قبل، شيئا يقوم على التعددية، إنه لأمر آسر أن نتأمل كيف كان يمكن للعالم أن يبدو، إن لم تكن هنالك حرب باردة، لكن كانت هنالك الحرب الباردة، واختار الرئيس ترومان أن يستجيب في إطار الطريقة المعتادة حاليا، قائلا: "نحن إن ترددنا في قيادتنا، فإننا ربما نعرض سلام العالم للخطر، ونحن يقينا سوف نعرض رفاهية هذه الأمة للخطر"[٢٩].

إن سياسة وقف الانتشار، التي جعلت أمريكا وحلفاءها يتفوقون على الشيوعية، في الحرب الباردة، كانت مبنية على عدة دعامات. أولاً: حددت الولايات المتحدة مصالحها الوطنية، في إطار تشابكها في تحالفات ومؤسسات متعددة الجنسيات، تستهدف منع انتشار الشيوعية والحفاظ على الديمقراطية وتعزيزها، والحكم الكوني

للقانون، وعدم العدوان، ومجرى شرعى للقواعد والمبادئ المؤسسية حيثما كان ذلك ممكنا. ثانيًا: المحافظة على قوى عسكرية كبيرة للغاية، ودائمة بوضوح وجلاء، ويستلزم ذلك إنفاقا على الدفاع يتراوح من ٣ إلى ١٠٪ من الناتج المحلى الإجمالى، وخلق مجمع صناعى عسكرى، هائل وقوى[٢٠]. وثالثًا: كانت عادة من عادات الملاءمة؛ إذ غالبا ما دعمت الولايات المتحدة حكاما ديكتاتوريين وسلطويين، طالما نهجوا نهج معاداة الشيوعية (وهنا يجىء إلى الذهن شاه إيران، وفرديناند ماركوس فى الفلبين، وديكتاتوريين عسكريين متعاقبين من أمريكا اللاتينية، وجنوب كوريا، وباكستان وتايوان) بالرغم من معرفتها الكلية أن ذلك يدمر مصداقيتها كمدافع عن الحرية، وفى النهاية، غدت التجارة الحرة والأسواق المفتوحة مجدولة بطريقة لا فكاك منها مع تعزيز الديمقراطية، كانت وجهة النظر تلك تقول: إن السياسات الاقتصادية للسوق الحرة، سوف تقود إلى التحرر السياسى، وكانت تلك السياسات، بالطبع، جيدة، أيضا، للمصالح التجارية للولايات المتحدة. ومن ثم، تم كسب الحرب الباردة عبر البحث الكلاسيكى الأمريكى عن كل من الثروة والجنة اللتين ذكرتهما فيما سبق.

وكاد يبدو مع الغياب المفاجئ لأى تهديد لأمن الولايات المتحدة، ومع اندفاع غالبية العالم لتبنى سياسات ديمقراطية، وللسوق الرأسمالية، مع حرية التجارة، إنه لم يعد هنالك أى شىء للمناقشة، وقد بشر فرانسيس فوكوياما فى "نهاية التاريخ" بحقبة جديدة يجرى فيها تبنى القيم العالمية للولايات المتحدة، أو بصورة أكثر اتساعا، القيم الغربية، والرفاهية والسلم الكونيين. والآن، وقد انتصرت القيم الأمريكية بوضوح وجلاء، جاءت اللحظة التى يمكن فيها للدولة أن تخطو إلى وراء، وتخفض بطريقة درامية منشآتها العسكرية، وتغلق العديد من قواعدها واسعة الانتشار، وتعدل من التزاماتها الأمريكية الخارجية، وتقود العالم بتقديمها النموذج، وكان فى وسع الولايات المتحدة أن تقف سريعا باعتبارها "المدينة فوق التل"، سعيدة أن تجد "عيون كل الشعوب عليها"، كما تخيل الحاكم جون وينثروب منذ قرون مضت.

ولكن بينما خُفضت قوات الولايات المتحدة والإنفاق، فإن وجودها فى الخارج ظل كبيرا، ونمت بالفعل نسبتها فى قوة العالم العسكرية وإنفاقها، بينما ذابت القوات السوفيتية السابقة وغيرها. إن السيطرة التى مارستها أمريكا، خلال الحرب الباردة، بدأت تتجه نحو التفوق، كانت أمريكا خلال الحرب الباردة، الأولى بين النظراء، كانت القائد لمختلف حلفائها، ولكن كان ما يزال عليها أن تتشاور، وأن تحقق إنجازا ما بالإجماع، إنها تتحرك الآن نحو الهيمنة الكاملة. كانت تدفعها قوى القصور الذاتى والعادة، ومصالح عسكرية كبرى تقوم على الاحتراف، وبعث النزعة الويلسونية لفعل الخير الذى تقوم عليه الاستثنائية والأحادية الأمريكية، وحرب الخليج عام ١٩٩١، وأجندة اقتصادية تحظى بالتعزيز والمساندة.

وما زالت تطفو إلى السطح تناقضات بذاتها، فى غياب قوى معارضة قوية. إن كان نموذجنا قويا إلى هذا الحد، فلماذا نحتاج إلى كل هؤلاء الجنود، وإلى كل تلك المدافع؟ وكانت الإجابة الأساسية التى قدمها الاستراتيجيون أن الاتحاد السوفيتى الذى تم إضعافه، يمكن أن يطلق العنان لعدم الاستقرار، والنزاعات الإقليمية التى فى وسع الولايات المتحدة وحدها إدارتها، إن على قوات الولايات المتحدة أن تظل متفوقة لضمان تشكيل النظام الجديد طبقا للمصالح الأمريكية، وقد دعمت حرب الخليج هذا التفكير وقوته، كان يكمن خلفه منطق أكبر: إن التاريخ لو كان قد انتهى، فقد ترك كاسبين وخاسرين، وقد عنف الرئيس كلينتون الصين فى مؤتمر صحفى عام ١٩٩٧؛ لأنها تقف على الجانب الخطأ من التاريخ[٣١]. وقال فى حديث له فى هونج كونج فى يوليو ١٩٩٨ إن أمريكا قد حددت "الجانب الصحيح للتاريخ"[٣٢]. وفى كلمات المتحدث باسم البيت الأبيض، نيوت جينجريش، وهو جمهورى من جورجيا، إن أمريكا الآن، أمام لحظة هى فيها ذات "ثروة وقوة وفرصة لا نظير لها"؛ كى تدير مصير العالم، ويجب ألا تبدد تلك الفرصة[٣٣]، وقد كررت مستشارة الأمن القومى المستقبلية، كندوليزا رايس، كلام كلينتون، فقالت فى مجلس لوس أنجلوس للشئون الخارجية عام ١٩٩٩: إن المسألة الأساسية هى إن كانت الولايات المتحدة سوف "تقبل مسئوليتها لكونها على الجانب الصحيح من التاريخ"[٣٤].

إن جزءًا كبيرًا من "الجانب الصحيح للتاريخ" هو العولمة، وإزالة كل الحواجز أمام حركة السلع والمعلومات، والنقود، والناس، وخلق نظام عالمي واسع موحد التجارة، وكما قال توم فريدمان، محرر عمود بنيويورك تايمز: "إننا نبغى توسعا، فى كل من قيمنا، والبيتزاهت الخاصة بنا"[٢٥]. إن دور الأمريكيين، كان يجب أن يكون، طبقا للرئيس كلينتون "فى القلب من كل شبكة كونية حيوية"؛ مما "يزيد بطريقة درامية فعاليتنا فى العمل مع الناس من أجل السلام، وحقوق الإنسان والاستقرار". إن استراتيجية الآلة العسكرية الأمريكية الضخمة قد غدت فى هذا السياق استراتيجية "ارتباط" لـ "تشكيل المحيط العالمي" بطرق توصل إلى تقدم "الجانب الصحيح من التاريخ"[٢٦]، وقد طرحت انتخابات بوش، عام ٢٠٠٠، فى البداية، اتجاها جديدا؛ إذ قال بوش أثناء الحملة: "إن كنا أمة متعجرفة، فإنهم سوف يروننا هكذا، ولكن إن كنا أمة متواضعة، فإنهم سوف يحترموننا". كما دافع أيضا عن تخفيض العديد من التزامات أمريكا الخارجية، وحذر من بناء الأمة[٢٧]. لكن المصطلح الخاص بالصين تغير من شريك إلى "منافس استراتيجى"، فى أوائل إدارته الجديدة. وأُعيد وبإلحاح تأكيد الحاجة إلى التخلص من الاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية، وبناء دفاع صاروخى وطنى وأيا كان احتمال وجود اتجاهات جديدة كامنة، فقد محتها أحداث ١١ سبتمبر بصورة حاسمة. وقد قال الرئيس وهو يتحدث إلى الكونجرس فى ٢٠ سبتمبر: "إن الحرية ذاتها تحت الهجوم" وتكلم فى حديثه فى وست بوينت، فى يونيو عام ٢٠٠٢، عن تعزيز نموذجنا للتقدم البشرى، وهو "القائم على مطالب الكرامة الإنسانية غير القابلة للتفاوض أو التداول، وحكم القانون، وحدود لسلطة الدولة، واحترام المرأة، والملكية الخاصة، وحرية التعبير، والعدالة المتساوية، والتسامح الدينى"، وأضاف: "إن لدينا فرصة عظمى لتوسيع سلام عادل، باستبدال الفقر والقهر والاستياء من كل العالم، بأمل فى يوم أفضل"، ومن ثم، أعلن بوش نفسه عن غير قصد إمبراطورًا لمستعمرة مستقلة، يجىء "الاعتراف" بها فى كلمات رجل الدين البروتستنتى رينهولد نيبوهر: "إن ذلك ما نتجنبه بغضب شديد"[٢٨].

روح إمبراطورية

"لقد كان قدرنا كأمة ألا تكون لدينا إيديولوجيات ولكن أن نكون نحن أمة واحدة".

ريتشارد هوفستادر

إن أمريكا هى البلد الوحيد الملحق باسمها "نية": "الأمريكانية" كلمة مألوفة (وتُسمع أكثر، عادة، فى التعبيرات السلبية، "المضاد للأمريكانية"، غير أننا لا نسمع أبدًا "المضاد لليابانية أو المضاد للألمانية"). إن البلدان الأخرى مجتمعات بكورية(*) بصورة نموذجية، تشتق هويتها من التاريخ العام والميراث، غير أن أمريكا أسست على مجموعة من المبادئ، ويصبح المرء أمريكيا بالاهتداء إلى الآراء التى طالب فيها إمرسون بـ "خبرة دينية". وكما قال الكاتب الإنجليزى ج.ك.شيسرتون: "إن أمريكا هى الأمة الوحيدة فى العالم التى تأسست على عقيدة دينية"[٣٩]، ويتقدم ريتشارد هوفستادر خطوة أبعد بالتعليق الذى اقتبسناه فى هذا الفصل[٤٠]، إن المبادئ الأساسية لهذه الأيديولوجية هى الحرية،والمساواة والفردية والشعبية والحكومة المقيدة[٤١]، إن الأمريكيين، وهم يرون أنفسهم كشعب مختار يعمل فى حقل نشاط الرب من أجل خلق مجتمع جديد مثالى، وجدوا دينهم الحقيقى فى تلك القيم. إنهم قد يختلفون بقوة حول كل شىء، من الله حتى كرة القدم، غير أن أحدًا لن يرتاب فى صحة أو عالمية تلك الآراء.

وقد انتشرت الأعلام الأمريكية، فى أعقاب ١١ سبتمبر، فى كل فضاء متاح. وانتهى كل حديث بالكلمات "فليبارك الله أمريكا"، كنت قد عدت للتو من الخارج، وأدركت كيف أن هنا، لا بد وأن يكون غريبا ومثيرا للأجانب، إذ عندما قام إرهابيو

(*) حق المولد. حق بسبب ولادة المرء فى بلد معين (المترجم).

الجيش الجمهورى الأيرلندى بهجمات فى بريطانيا، أو الإرهابيون الجزائريون فى فرنسا، أو إرهابيو أوم فى اليابان، فإن تلك الأمم لم تتزين فجأة بالرايات، ولم يستدع رؤساء وزرائهم المباركة الإلهية الخاصة بهم. هل يعتقد الأمريكيون أنهم، بصورة ما، أكثر قداسة من الآخرين، كلا - لكنهم كانوا على ثقة من أن لديهم فكرا أفضل، وأكثر قداسة من الآخرين؟ وقد عبر الرئيس عن ذلك بطريقة مثالية عندما قال "إن الحرية ذاتها قد هوجمت"، وليس برجا التجارة العالميين، أو البنتاجون أو أمريكا، ولكن شيئا أكثر أهمية بكثير: الحرية، العقيدة الدينية، الدين الحقيقى، الشىء الوحيد الذى يعطى أملاً فى عالم أفضل(٤٢).

إن الأمريكيين يؤمنون بعالمية الأمريكانية، ولذا فإنهم لا يرون أنفسهم الأفضل أو الأكثر قداسة، بصورة كبيرة، لكونهم فى الطليعة. إن الشئ اللطيف فيما يتعلق بهذا الدين، إنه نوع من كنيسة أعلى يمكن لأى أحد أن يلتحق بها، بغض النظر عن معتقداته، أو ارتباطاته. حقا، إن السبب الذى يجعل الأمريكيين لا يرون إمبراطوريتهم الخاصة، هو إيمانهم الضمنى بأن كل إنسان هو أمريكى محتمل، وأن انتسابه الوطنى أو الثقافى الحالى إنما يرجع إلى سوء الحظ، وإن كان قابلا للانعكاس، كتب إيمرسون: إن أمريكا سوف تكون "الأمة الأولى للرجال" - الأمة الأولى للأفراد، أكثر منها الأمة الأولى للملوك أو الطبقات، لكنها لن تكون الأخيرة(٤٣)، إن الأمريكيين يرون أنفسهم يقودون الآخرين إلى الطريق وهم يرون أن باقى العالم راغب فى أن يتبعهم، وعندما وعد القادة الأمريكيون بتعزيز انتشار الحرية كونيا، فإن ما كان فى عقولهم هو الأمريكانية، الولاء للولايات المتحدة الأمريكية.

إن هذه العقيدة الدينية جذابة بقوة من أوجه عدة - إنها لا شىء أكثر من تأكيد المساواة، إن المساواة فى العقيدة الدينية لا تعنى وضعا اجتماعيا متساويا، أو مكافآت متساوية، إنها تعنى فرصة متساوية، لقد جاء الكولونياليون الأوائل إلى العالم الجديد سعيا وراء الثراء، وقد وعدت العقيدة الدينية كل المشايعين لها نفس الفرصة، الآن وإلى الأبد، وكما قال المؤرخ الأمريكى فريدريك جاكسون تيرنر، "كانت أمريكا، منذ الأيام

التى أبحر فيها أسطول كولومبس فى مياه العالم الجديد هى الاسم الآخر للفرصة، وأخذ شعب الولايات المتحدة طابعه من التوسع الدائم، الذى لم يكن فقط مفتوحا أمامه، بل فرض عليه. إن الطاقة الأمريكية تتطلب بصورة متصلة، مجالا أوسع لمارستها[٤٤]. لقد كانت أمريكا بالنسبة لغالبية تاريخنا، مفتوحة أمام القادمين الجدد. كانت المكان الذى يمكن أن تتوقع فيه الموهبة، ومهارات أعمال المشروعات، والعمل الجاد، وعائدا عادلا (أو أفضل) ولا شىء مستحيل. لقد كتبت ذات يوم، مقارنا بين اليابان والولايات المتحدة، إن كل شىء محظور فى اليابان، ما لم يسمح به بصورة واضحة، بينما كل شىء فى الولايات المتحدة مسموح به، ما لم يُمنع بصورة واضحة، إنها الحرية التي يمكن أن تكون أكثر بكثير من الحرية السياسية، هى التى تجعل من أمريكا قوة جذب للمهاجرين، ومصدر أمل للعديد من الناس حول الكون. أضف إلى تلك الجاذبية تسامحنا، وشمول مجتمعنا القائم على الهجرة، إنك طالما تلتزم بالعقيدة الدينية، ففى وسعك تقريبا، أن تكون أى شىء تبتغيه.

إنك حر بصورة خاصة، بقدر ما يخص الأمر دينك الآخر. ورغم المخاوف من النقيض، فإن الإصرار الأساسى على فصل الدولة عن الكنيسة، كان ضربة عبقرية لضمان قوة الكنائس ونشاطها، ولقد أصبحت الكنائس فى أوروبا مضفرة ومرادفة للأرستقراطيات، والحكومات السلطوية، وبدأت تموت تدريجيا، بينما نمت الكنائس المستقلة فى أمريكا وازدهرت، وقد قال توكوفيل فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، إن الأمريكيين هم الأشد تدينا بين الشعوب، وقد بقى ذلك حقيقيا حتى يومنا هذا. إن أكثر من نصف الأمريكيين جميعا يذهب فى نهاية كل أسبوع إلى مكان للعبادة، وذلك مقارنة بـ ١٠٪ إلى ٢٠٪ فى أغلب البلدان الأوربية وكندا. إن أمريكا أكثر شبها، فى هذا الصدد بالمجتمعات الإسلامية.

إن طابع الحياة الدينية فى الولايات المتحدة، وضعته دوما، الطوائف البروتستانتية التى أكدت على العلاقة الفردية الشخصية بالرب، ومن ثم أكدت

الالتصاق الصارم بمجموعة المبادئ الأخلاقية التى تسرى عبر التاريخ الأمريكى، وخاصة عبر وجهة نظر الأمريكيين فى الأمم الأخرى.

إن اتحاد هذا التدين المفرط - مع أى شىء - يفضى إلى روح الفرصة المتساوية، وقد أدى ذلك إلى نتائج مختلطة، وكانت النتيجة الأكثر درامية وقوة هى ازدهار الموهبة التى أنتجت ثروة أمريكا الكبرى، وقيادتها فى التكنولوجيا، والدواء، والفنون، والتعليم الجامعى، إن لدى أمريكا أعلى مستوى معيشة فى العالم، والأغلبية الساحقة من أغنياء العالم، وهى أيضا قائدة العطاء الخيرى إلى حد بعيد، إن الجامعات الكبرى مثل ستانفورد وهارفارد ويال، تدين بوجودها لسخاء المحسنين. إن أندرو كارنيجى هو الذى أعلن أن "الرجل الذى يموت غنيا، يموت وقد لحقه الخزى والعار"، وقد استمتع بحياته طبقًا لكلماته، إن الأمريكيين الذين تصل ثروتهم إلى عشرة ملايين دولار يهبون ٩٪ سنويا، ويعطى الأمريكى المتوسط إلى الكنيسة والأعمال الخيرية أكثر من٢,٢٪ إلى ١٪ من الدخل القومى مقارنة بحوالى ٠,٥٪ لأوروبا وأقل من ذلك فى أماكن أخرى[٤٥]، وكان التحسن المطرد فى العدل الاجتماعى عبر السنوات جزءًا من السبب الذى أدى إلى هذا، وأدى إلى نجاح الفرصة المتساوية، ورغم دوام هذا لزمن طويل، فإن تناقض شديدى التدين، الذين كرسوا أنفسهم لقضية المساواة، بينما يُمارس التمييز العنصرى، قد جعل الإبقاء على هذا، فى النهاية، أمرا غير ممكن، إن ذلك لم يحدث فقط بالتخلى البطىء عن الممارسات التمييزية (وهى عملية ما زالت تعمل للاكتمال)، لكن هذا الحل وقع، دون عنف، إلى حد كبير؛ لأن الفضيلة الأمريكية لا يمكنها، فى النهاية، قبول الوحشية.

إن أساطير الأقدمين الجيدة يمكن، من ناحية أخرى، أن تغطى على العديد من الآثام، إن بلدا قيدت أراؤه الدينية الإجهاض، ويستخدم عقوبة الموت بصورة متكررة، يطرح تناقضا مثيرا للاهتمام، إن هذا اللغز يلقى الضوء على أوجه خاصة بمجتمع الولايات المتحدة، إن أكثر من خمسة عشر ألفًا من الناس يقتلون فى الولايات المتحدة كل عام - أعلى بكثير، بالنسبة لكل شخص أو فرد، من أى بلد صناعى آخر، وهو

معدل يمكن ربطه أولا بحقيقة أن المدنيين من العامة مسلحون حتى الأسنان فى الولايات المتحدة[٤٦]، كما أن سجون الولايات المتحدة أيضا أكثر امتلاء من تلك التى فى أى بلد كبير آخر، إن رجلا من كل ثمانية رجال أمريكيين أدين بجناية كبرى، وواحد من كل عشرين سُجن (بالنسبة للرجال السود فإن النسبة هى واحد إلى خمسة)[٤٧]، إن الولايات المتحدة التى يعادل سكانها ٥٪ من سكان العالم، بها ربع مساجين العالم[٤٨].

وتلفت التناقضات الاقتصادية النظر بنفس القدر، إن الفجوة بين الأغنياء والفقراء فى الولايات المتحدة كبيرة للغاية، بالنسبة لبلد بهذا الثراء. كان يعيش مثلا، فى عام ١٩٩٨، واحد من كل ثمانية تحت خط الفقر، وحوالى ٢٠٪ منهم كانوا أطفالا – ويوجد حوالى ضعف هذا العدد فى أوربا الغربية، ارتباطا بكل حالة[٤٩]، إن افتقاد خطة للصحة الوطنية يعنى أن أكثر من ٤٠ مليون أمريكى يفتقدون التأمين الصحى، وفى نفس الوقت فإن الأثرياء يحسنون العمل بطريقة رائعة، إن نسبة ال ١٪ التى على قمة أهل البيت قد راكموا ثروة أكثر من كل القاع البالغ ٩٥٪. وفى هذا أيضا تقود أمريكا العالم المتطور، والمثير للاهتمام أن لا أحد فى هذه البلدان يعمل على أن يكون مواطنوه تعساء للغاية، إن أسطورة الفرصة المتساوية قوية إلى حد أن الأمريكيين لا يخططون لإنزال الأثرياء إلى أسفل، لكنهم يركزون على الكيفية التى يمكن أن تجعلهم هم أنفسهم أثرياء.

ولذا فإنه عندما يتحدث القادة الأمريكيون عن توسيع عالم الحرية، فما معنى ذلك فيما يتعلق بالامتدادات الخارجية للإمبراطورية؟ إن العقيدة الدينية الأمريكية كريمة بالفطرة، إن الأمريكيين يودون الفرصة طبقا للمدى الذى يفكرون فيه، ليس لأنفسهم فقط، ولكن للعالم، ولسوء الحظ فإن الأمريكيين لا يفكرون كثيرا فى العالم؛ لأنهم يرون أنفسهم كالعالم الوحيد الذى يثير الاهتمام، ولم تكن مصادفة أثناء حرب فيتنام أن كان الجنود يتحدثون عن العودة إلى الوطن، باعتباره "العودة إلى العالم"، الأمريكيون عامة لا يتعلمون لغات أجنبية (خَرَّجت جامعات الولايات المتحدة، تسعة يتحدثون

العربية عام ٢٠٠٢)[٥٠]، أو يسافرون إلى الخارج، وغالبيتهم لم يستطيعوا العثور على بلدان "محور الشر" (العراق، إيران، شمال كوريا) على الخريطة، إن أمريكا موجودة حيث الفرصة، والأفكار الجديدة، ونجوم المهن والحرف أينما كانوا، وكل ما هو خارج ذلك هامشى كما هو مُحدد ومُعرف تقريبا، إن وجها مهما للإمبراطورية الأمريكية هو أن الأمريكيين لا يرونها هكذا، إن القليلين منهم ينظرون نظرة كلية، أو يفكرون إلى أين هى ذاهبة، أو ما الذى تحتاجه، ويقينا، لا أحد مسئول، إن هذه الغفلة تخلق الإهمال، وعدم التماسك، وغالبا مبادرات سياسية متناقضة.

إن أندونيسيا، مثلا، ليست فقط أكبر بلد إسلامى فى العالم، لكنها أيضا واحدة من البلاد الإسلامية القليلة ذات حكومة علمانية ديمقراطية، رغم أنها قليلة الخبرة، عندما قابلت قادتها فى صيف عام ٢٠٠٢، كانوا يحاولون فى استماتة خلق البنى الأساسية للديمقراطية - أشياء مثل الدستور، ومجالس المدن، وقوات الشرطة غير العسكرية، وقضاة ومأمير قضائيين مستقلين، وقد طلب بعض المسئولين الأندونيسيين الكبار المساعدة الأمريكية، فقدم رالف ل. بويس، سفير الولايات المتحدة، أفضل ما لديه استجابة لذلك، ولكن منذ الحرب الباردة خفضت الولايات المتحدة تمثيلها الدبلوماسى بأكثر من ٥٠٪. وقُيد ما يستطيع بويس القيام به بشدة.

إن هذا ليس صحيحًا فقط بالنسبة لأندونيسيا، وقد كتبت النيويورك تايمز فى يوليو ٢٠٠٢- أن المواقع الدبلوماسية للولايات المتحدة فى بلدان تمتد من العربية السعودية إلى الصين إلى روسيا وباكستان، قد خفضت هيئاتها تخفيضا شديدا[٥١]. وكانت التايمز قد نشرت منذ بضعة أشهر، عن النمو السريع لمدارس الإسلاميين الأصوليين فى باكستان، تملأ الفجوة التى تركها انهيار ميزانية الحكومة. وقد قامت كندا بالتنازل عن الديون المستحقة لها طرف الحكومة، مقابل إنفاقها على التعليم، وذلك ردا على هذا الانهيار، فى حين لم تفعل الولايات المتحدة شيئا[٥٢]، ونشرت التايمز فى ٢٠٠٢ قصة أخرى احتفظت فيها الولايات المتحدة بـ ٣٤ مليون دولار من الاعتمادات المخصصة لصندوق سكان الأمم المتحدة، لخوفها من أن يساعد هذا المال حكومة

الصين فى تحقيق برامجها الخاصة بالإجهاض القسرى(٥٣). لا عليك، إن كل ما كانت تحتاج الصين إلى إنفاقه هو ثلاثة ملايين فقط، أم أن الولايات المتحدة كانت تريد تحديدا، مقاومة الإجهاض القسرى وذلك بإظهار فعالية التخطيط الأسرى الطوعى، لا بأس، ففى ذات الوقت كانت إدارة الصحة والخدمات البشرية فى الولايات المتحدة تعلن عن برامج تعاونية مع نفس وزارة الصحة الصينية التى حُرمت من صناديق السكان، إن الحرمان من صناديق الأمم المتحدة ما يزال بلا معنى، غير أن يكون لعبة سياسية للتأثير فى نفوس المشاهدين، وقد تساءل الكاتب الأمريكى جارى ويلز "كيف يمكن إخبار البلدان الأخرى أنه ليس فى وسعها القيام بعملية الإجهاض بينما هى شرعية هنا؟(٥٤) في وسعنا فعل ذلك، حيث إن الإجهاض فى الولايات المتحدة موضوع مثقل بمغزى دينى؛ ونحن ننظر إلى كل تلك البلدان باعتبارها راغبة فى أن تكون كأمريكا، إن أحدا لا يفكر فيهم كثيرا، على أى أساس غير ذلك الأساس.

إن اعترض طريق الفرصة شىء ما، أو وقع ما هو كريه، فإن حدوث أى من هذين سوف يثير يقينا رد فعل مركز، بطريقة لا يمكن تفاديها، وفى حالة حصار الفرصة، فإن الرد يمكن أن يكون ضغطا شاملا، حدث فى منتصف التسعينيات مثلا، عملية نسخ كثيف غير قانونى لميكروسوفت ويندوز سوفت وير فى الصين، وكان ذلك قتلا لأعمال ميكروسوفت هناك، وفى أماكن أخرى. وقامت حكومة الولايات المتحدة التى خفضت تمثيلها الدبلوماسى فى أندونيسيا إلى النصف، ولم تبالى قيد أنملة بحالة المدارس فى باكستان، باقتلاع كل الموانع، وطلبت من الحكومة الصينية اتخاذ إجراءات صارمة ضد القراصنة،أنا أعرف ذلك؛ لأننى كنت مستشار حكومة الولايات المتحدة فى ذلك الوقت، إن رد الفعل فى حالة حدوث شىء كريه قد يكون مميتا.

أوضح صمويل هنتنجتون أن العقيدة الدينية الأمريكية والهوية قد تطورا وهما فى تعارض مع "آخر" غير مرغوب فيه، عُرف دوما باعتباره خصما للحرية(٥٥)، وكان ذلك الآخر، فى الأساس، هو القهر البريطانى الأرستقراطى، ثم القهر الأكثر اتساعًا، القهر

الإقطاعي الملكي لأوروبا الإمبريالية، وتحولت الولايات المتحدة فيما بعد إلى قائد للحضارة الأوروبية الأمريكية ضد تهديدات وجهت إلى هذه الحضارة من الإمبراطورية الألمانية، النازية، والفاشية، والعسكرية اليابانية. ثم عَرَّفت الولايات المتحدة نفسها، فيما بعد، باعتبارها قائد العالم الحر ضد الاتحاد السوفيتي والشيوعية الدولية، وكان تأثير التدين الأمريكي الشديد هو الذى جعل النزاع، فى كل مرحلة، حملة صليبية أخلاقية، كان المتوقع من الأمريكيين التصرف طبقا لضمائرهم، ولهذا وجدوا أنه من الصعب عليهم دعم حرب تبدو غير عادلة، أو حربا لأسباب أرضية أو مصالح ذاتية، يجب على الأمريكيين حتى يصادقوا على حرب ما أن يروا أنفسهم إلى جانب الرب، يحاربون من أجل الخير ضد الشر، ولأن الحرب ضد الشر؛ لذا يجب أن يكون النصر مطلقًا، والتسليم غير مشروط.

هذا هو رد الفعل الذى أطلقته أحداث ١١ سبتمبر، هذا هو السبب الذى جعل الرئيس يقول: "أنتم معنا أم ضدنا" و"أننا سوف ننالهم أمواتا أو أحياء"، ولماذا يكرر مقولة رونالد ريجان : "إمبراطورية الشر" مع مقولته هو "محور الشر". إنك حتى تكون جديرا بالقتال، يجب أن تكون خسة العدو أيضا مطلقة.

ويجيء ضد هذه الخلفية ما تسعى الولايات المتحدة إليه، والذى يطلق عليه مدير إدارة تخطيط سياسة الدولة، ريتشارد هاس عقيدة التوحيد. وهى عقيدة تستهدف توحيد البلدان الأخرى والمنظمات فى اتساق تدعم عالما متناغما مع مصالح وقيم الولايات المتحدة، ومن ثم يتعزز السلم والرفاهية والعدالة. يجب أن تقوم العقيدة بإقناع الحكومات والشعوب للتوقيع على "مطالب الكرامة البشرية غير القابلة للتفاوض أو التداول: حكم القانون، وقيود على سلطة الدولة، واحترام المرأة، والملكية الخاصة، والعدل المتساوى والتسامح الديني". إن تلك القيم ليست قيما أمريكية ضيقة تعود على الأمريكيين فقط، لكنها قيم عالمية تفيد الناس فى كل مكان[٥٦].

وتطرح مثل تلك البيانات أسئلة واضحة، السؤال الأساسى فيها هو كيف يمكن تحقيق كل ذلك؟ ويبدو أن الإجابة سوف تكون من خلال تعزيز متواصل للعولمة، مقترن

بائتلافات الإرادة"، وذلك لإحداث تغييرات فى الأنظمة التى تُعتبر أنظمة خطرة. وفى هذا السياق فإنه يُنظر إلى العولمة باعتبارها نوعا من "القوة الناعمة"(٥٧)، التى سوف تغرى الآخرين بالوحدة فى إطار الإمبراطورية بقوة الرغبة الطوعية، لفعل ما نريدهم أن يفعلوه. هنالك اقتناع بأن الناس سوف يرون هذا التوحيد باعتباره الطريق إلى الرفاهية، وأن الرفاهية سوف تؤدى إلى التحرر والمقرطة. وإن تلك بدورها سوف تؤدى إلى سلم واستقرار دائمين، إن هذه القوة الناعمة التى تمارسها الأسواق، والثقافة، والمؤسسات الأمريكية – يراها الحكيم نوعا من الأسرار، سلاحا منفردا يتناقض حتى مع النماذج الرومانية والبريطانية، جاعلا الإمبراطورية الأمريكية إمبراطورية طوعية، تظل طويلا غير معترف بها؛ لأنها تقوم على أنساق تعاونية تقودها الولايات المتحدة، وتتماسك معا بغراء القوة الأمريكية الناعمة. ورغم أن خبرة الأعوام الخمسين الماضية تقدم دليلا يدعم هذا السيناريو المغرى، فإن هنالك تحذيرين. الأول، هو أن التناقض مع الإمبراطوريات الأخرى، يشكل إساءة فهم للتاريخ. إن الإمبراطورية الرومانية لم تحكم أساسا بالقوة، ولكن بتمديد نظامها القانونى والثقافى، بل وحتى حقوق وواجبات المواطن الرومانى إلى الشعوب الأخرى. لقد فضلت روما، الحكم غير المباشر فى غالب الأحوال. وعادة ما استخدمت القوة كملجأ أخير فقط. وكما قال مونتسيكيو، أن تلك "كانت وسيلة بطيئة للإخضاع"(٥٨). وقد اشتهرت الإمبراطورية البريطانية، بما اكتسبت للسبب ذاته، "فى نوبة من نوبات غياب العقل"(٥٩). وكان جورج كانينج رجل الدولة البريطانى هو من قال: "التجارة دون قوة حيثما استطعنا، والتجارة بالقوة إن كان علينا فعل ذلك"(٦٠). لقد رأى الرومان ثم البريطانيون أن القوة الخشنة لم تقد فقط القوة الناعمة بل لحقت بها أيضا.

ويلى التحذير الثانى، التحذير الأول. لقد أطلق توماس فريدمان على العولمة، النظام العالمى الذى حل محل الحرب الباردة، ومما لا شك فيه أن فى وسع العولمة خلق الثروة والاستقلال، وتحدى المفاهيم القديمة بقوة، ونشر الآراء الجديدة، وكما قال هوبرت فيدرين، وزير خارجية فرنسا: "يمكن لأمريكا أن تلهم أحلام الآخرين ورغباتهم،

شاكرين لها هيمنتها على الصور الكونية"، ولكن أى أحلام للآخرين وأى رغبات، وعلى أية قيم تقوم، وداخل أى إطار سياسى واجتماعى. (عندما أدرت منذ زمن قريب التلفاز فى حجرة فندق جاكرتا، وجدت أن القناة الأولى تعرض مسلسل الجميلة(*)). وكما قال لى مدير الأسهم والبورصة بهونج كونج، أندرو شينج، منذ زمن قريب: "إن القيم الأمريكية يمكن أن تزدهر، فقط، مع وجود موارد ضخمة رهن إشارتك، وإذا افترضنا أن ما لديكم فى الولايات المتحدة يمكن أن يحصل عليه الجميع، فإننا نكون مجانين. بداية، فكر فقط لو أن كل واحد استهلك كما يستهلك الأمريكيون، فسوف يكون ذلك كارثة بيئية".

تدفع الأسواق العولمة، غير أن الأسواق لا أخلاقية وداروينية، والاستهلاك عدو ربها، ويقول ميتشيل بروس: "إن زيادة الاستخدام إلى حده الأقصى، والذى لا يوجد فيه مكان للأخلاق، قد غدا بالنسبة للكثيرين فلسفة كلية للحياة، إلا أن ذلك لا يتسق والسلوك الاجتماعى الجيد"(٦١). إن الوهم الذى ساد فى العقد الأخير بأن بلدين توجد بهما مطاعم مكدونالد لن تحارب الواحدة منهما الأخرى - قد تبخر مع القهر الصربى فى كوسوفو، والجنود الأطفال فى سيراليون، والذين يرتدون قمصانا عليها رموز فرق الولايات المتحدة الرياضية المفضلة لديهم، بينما يبترون أيدى السجناء، إن دولة الأمة الديمقراطية الحديثة، هى وعاء للقيم، يتفوق فيه النفع العام، على المصلحة الخاصة، غير أن الرأسمالية غير مهتمة، بصورة متأصلة، بالأمم وقيمها، لقد روضت الأمم، الرأسمالية حتى الآن، بفرض قيود معينة تقوم على القيم، غير أن العولمة تهاجم وتدمر دولة الأمة وقيمها، ومما يثير السخرية، أن العولمة تعزز الاعتماد المتبادل والتعاون الدولى، بصورة ما، رغم أنها تقوى أيضا تشظية القوى التى يدعوها الكاتب بنجامين باربر، "الجهاد". حقا، إن قوى الإرهابيين قد تحولت بصورة فاعلة للغاية، بصورة أكثر من هؤلاء الذين ينتمون إلى قوى التوحيدين الجارية، والنتيجة تثير السخرية، من ذلك

(*) مسلسل درامى تلفازى يقوم على الحركة (المترجم).

العالم المفتوح الذى تدعمه الولايات المتحدة؛ حيث جعلها ذلك أقل أمنا، بدلا من أن تكون أكثر أمنا.

إن للجهاد صدى، بطريقة خاصة وإن كانت مهمة، فى منطقة مركزية وحيوية من الإمبراطورية، لقد غدا التعليم الوطنى مزدهرا فى الولايات المتحدة؛ إذ يوجد حاليا مليون ونصف طالب فى مختلف البرامج. وهم يزدادون بنسبة تتراوح من ٧ إلى ١٥٪ سنويا[٦٢]. إن مرجع هذا الارتفاع، فى الأساس، رغبة الوالدين المتدينين تجنيب أطفالهما تشرب القيم المادية للعولمة، لقد أحيط اللغز بإطار محكم، بواسطة الرئيس بوش، وإن كان دون عمد، عندما أخبر الأمريكيين أنهم الآن فى حرب، وأن واجبهم هو الإبقاء على الاقتصاد جاريا، وذلك بالمزيد من الاستهلاك. وقد رأى توماس فريدمان أن، "النظام الكونى البازغ فى حاجة إلى من يقويه"، وأن هذا "هو عبء أمريكا الجديد"[٦٣]. لكنه لم يقل أبدا ما الذى سوف تقويه أمريكا بالضبط أو كيف. هل سوف تستخدم الولايات المتحدة القوة لتبيع مسلسل الجميلة؟ وهل سوف تفعل ذلك بمفردها أم مع حلفاء لها؟

قد يكون الجواب هو أنها سوف تفرض المطالب العالمية التى لا تقبل التفاوض أو التداول، بمساعدة "ائتلافات الإرادة". لكن يثور هنا السؤال الخاص بالعالمية الحقيقية لتلك المطالب. إن مطالب بوش، فى الغالب، نظير مثالى لمطالب وودرو ويلسون عام ١٩٧١، مع إضافة لافتة للأنظار هى احترام المرأة. لقد اكتشف الأمريكيون هذه القيمة العالمية الجديدة منذ عهد قريب فقط. وهل التعريف الأمريكى لاحترام المرأة هو، فى الحقيقة، قيمة عالمية، وأن تحقيقها مسألة غير قابلة للتفاوض أو التداول؟ أو تقتضى قيودا على السلطة. إن كل دول العالم لا تتفق، عمليا، مع الكيفية التى تضع بها الولايات المتحدة تلك القيود. إنها قد تزيد من سلطات الدولة فى حالات عديدة – مثل، التنظيم الصارم للأسلحة – وجعلها أكثر آدمية فى نواحى أخرى – مثل، إلغاء عقوبة الموت. وإن كنا نبحث عن ائتلافات الإرادة، فإن الدليل يقول إن بلدانا كثيرة لا تقبل بعالمية قيمنا، وهى غير راغبة فيها بصورة متزايدة.

حدث فى شتاء عام ١٩٤٨ القارس أول مواجهات كبرى للحرب الباردة فى برلين الغربية، كانت غرب برلين، الواقعة فى قلب منطقة الاحتلال السوفيتية، مقاطعة للحرية تحتلها قوات الولايات المتحدة والقوات البريطانية والفرنسية، فى قلب الجيوش السوفيتية، وفرضت السلطات السوفيتية الحصار عليها؛ لأنها لم ترغب فى الهجوم مباشرة، لكنها كانت تنتوى تولى أمر برلين كلها، إنهم لن يزودوا المقاطعة، ولن يسمحوا بأن تشحن إليها المؤن من الغرب، مرورا بالأراضى التى تحتلها، وأطلقت قوات الولايات المتحدة، فى عمل مرتجل يائس، الجسر الجوى الذى يعرف الآن بجسر برلين الجوى الأسطورى، حاملة آلاف الأطنان من المؤن يوميا إلى مطار تمبلهوف، بينما تتحدى السوفيت أن يقوموا بإيقافهم، ونجحوا. وظلت برلين الغربية منارة الحرية لأربعين عاما، حتى جاء سقوط حائط برلين أخيرا ليعيد توحيد شطرى المدينة. لقد كان رؤساء برلين وأمريكا دوما على علاقة خاصة. وقد قال الرئيس كينيدى للمدينة بالألمانية عام ١٩٦٣: "أنا برلينى"، ليحظى بهتاف صاخب. وحدث عام ١٩٨٧ أن سمع الرئيس ريجان ذات الهتافات، عندما طالب القائد السوفيتى جورباتشوف "بهدم السور"، ولكن عندما زار بوش المدينة، فى مايو ٢٠٠٢، قوبل بالسخرية وليس بالهتاف. ما الذى كان قد حدث؟

لقد أجرى مركز بيو للأبحاث من أجل الشعب والصحافة مسحا ضخما للرأى العام الكونى حول الولايات المتحدة، لاكتشاف ما الذى حدث، فعقد لقاءات مع أكثر من ٣٨٠٠٠ شخص فى ٤٤ بلدا، فى ربيع وصيف ٢٠٠٢، وكانت النتائج، بالنسبة للأمريكى، إيجابية ومثيرة للانزعاج أيضا، فقد أظهرت – من ناحية – مخزونا هائلا من النية الحسنة نحو الولايات المتحدة والإعجاب بها على امتداد الكون، كما كشفت فى ذات الوقت عن أن تلك العواطف فى هبوط، بينما يتصاعد فقدان الثقة والكراهية للولايات المتحدة، وربما كان الأكثر أهمية هو آراء الأمريكيين فى عدد من المناطق؛ إذ كانت متباينة بطريقة درامية عن تلك التى كانت عمليا لكل الناس الآخرين، وكشف

هؤلاء الذين يعرفوننا أفضل من غيرهم، عن صور من الهبوط الأشد انحدارا فى العاطفة الإيجابية، كان الناس فى كل مدينة جرى مسحها، باستثناء الأرجنتين، وتلك التى فى الشرق الأوسط وجهة نظر مواتية كلية للولايات المتحدة تصل إلى ما يزيد عن نصف المشاركين فى المسح، وهبطت النسبة المواتية - فى نفس الوقت، هبوطا فعليا عبر اللوحة. ففى عام ١٩٩٩ مثلا، قال ٧٨٪ من الألمان: إن لديهم وجهة نظر إيجابية، بينما انخفضت تلك النسبة عام ٢٠٠٢ إلى ٦١٪، وكانت النسبة المواتية فى بريطانيا العظمى ٨٣٪، هبطت إلى ٧٥٪. وفى أندونيسيا كانت النسبة ٧٥٪ نزلت إلى ٦١٪، واليابان ٧٧٪ هبطت إلى ٧٢٪، والأرجنتين ٥٠٪ انخفضت إلى ٣٤٪. وذهب قليلون إلى الطريق الآخر؛ إذ صعدت فرنسا بطريقة مثيرة للدهشة من ٦٢٪ إلى ٦٣٪، بينما انتقلت روسيا من ٣٧٪ إلى ٦١٪، ونيجيريا من ٤٦٪ إلى ٧٧٪. لقد اتجه الميل عموما إلى أسفل. وفى بلدان مثل تركيا وباكستان والأردن ومصر، قيمت الولايات المتحدة سلبيا بحوالى ٧٠٪ من المشاركين فى المسح، وكما اتضح فى الفصل الأول، فإن العديد من المشاركين ثمنوا شعبنا بصورة أكثر مواتاة بكثير من بلدنا. ولذا فإن ٢٥٪ مثلا من الأردنيين ثمنوا أمريكا إيجابيا، غير أن ٥٣٪ ثمنوا الأمريكيين إيجابيا.

إن أمريكا وجيرانها يختلفون اختلافا كبيرا فى وجهات النظر حول الأخطار الأشد التى تواجه العالم. إن رقم (١)، بالنسبة للأمريكيين هو الأسلحة النووية، وباستثناء اليابان، لا يوجد بلد واحد يضع هذا على قمة قائمته، وهذا أمر مفهوم. إن التلوث والبيئة يجيئان فى أسفل هموم الولايات المتحدة، بينما هما عاليتان فى كل مكان أخر، وخاصة فى آسيا. إن الإيدز والأمراض المعدية تشكل أيضا هموما كبرى فى أى مكان آخر. لكن الأمر ليس إلى هذا الحد فى الولايات المتحدة، إن الكراهية الدينية والإثنية هى المرشحة الأساسية فى أوربا والشرق الأوسط، والكثير من جنوب شرق آسيا وإفريقيا، ولكن مرة أخرى ليس الأمر كذلك فى الولايات المتحدة.

إن أمريكا تتلقى أكثر الإعجاب لما تقدمه من تكنولوجيا وعلوم، مع أغلبيات، فى كل بلد، تسجل هنا انطباعا مواتيا، إن ثقافة البوب رابح كبير أيضا، مع ثلثى الأوربيين والأمريكيين اللاتينيين وأكثر من نصف الآسيويين الذين يقولون: إنهم يحبونها، مع استثناءات قليلة فى الهند وبنجلاديش وبلدان شرق أوسطية عديدة، وفى تناقض ظاهر، على أية حال، لا يبدو أن أحدا يوافق على انتشار العادات والأفكار الأمريكية، كما يرى أكثر من نصف الكنديين وثلث الأوربيين والآسيويين، وأكثر من ثلاثة أرباع هؤلاء الذين فى الشرق الأوسط، إنها غير مرغوب فيها. إن الآراء الأمريكية حول الديمقراطية تلقى ردود فعل أكثر اختلاطا، وإن كانت أكثر إثارة للقلق من بعض الوجوه، وتلقى تلك الآراء فى إفريقيا وآسيا خارج الهند، قبولا إيجابيا تماما، غير أن الرأى فى أمريكا اللاتينية وأوربا منقسم بالعدل كذلك، ففى بريطانيا مثلا، يحب ٤٢٪ آراء الولايات المتحدة حول الديمقراطية، بينما لا يحبها ٤٢٪، ويقف فى كندا من ٥٠ – ٤٠٪ ضدها.

كانت هنالك ثلاثة أسئلة: هل فشلت الولايات المتحدة فى حل المشاكل، ووسعت الفجوة بين الأغنياء والفقراء؟ هل تضع الولايات المتحدة آراء الآخرين فى الحسبان، عندما تضع السياسات العالمية؟ وهل يكون العالم أفضل بوجود قوة عظمى ثانية؟ وكان الرد فيما يتعلق بالسؤال الأول شاملا، وهو أن الولايات المتحدة لا تحل المشاكل، وأنها مع استثناءات مهمة مثل مصر وباكستان، وغالبية إفريقيا، توسع الفجوة بين الأغنياء والفقراء، وفيما يتعلق بالسؤال الثانى، فإن أغلبيات كبرى، كما جاء فى الفصل الأول، تقول فى كل مكان: إن أمريكا لا تلقى بالا لوجهات نظر الآخرين – باستثناء المشاركين فى المسح من الولايات المتحدة، حيث قال ٧٥٪ منهم : إن أمريكا تبدى انتباها هاما لهموم الآخرين. إن هذه الفجوة يجب توقعها بشكل ما، غير أن حجمها وعالميتها قوية ومعبرة، وقد قالت أغلبيات كبرى فى غالبية البلدان: إن العالم سوف يصبح مكانا أكثر خطراً، إن كان هنالك بلد واحد مساو للولايات المتحدة فى قوتها العسكرية، وإن كان ذلك باعثًا على الراحة، فإنه يجب ألا تخفى دلالة النفور

والاستياء. هنالك نقطة أخيرة مثيرة للقلق، بشكل خاص، وهي أن هؤلاء الذين يعرفون الولايات المتحدة أفضل من غيرهم - هم في الغالب الذين يقيمونها التقييم الأشد هزالا، أو هم الذين يظهرون أكبر انخفاض في التقديرات الإيجابية(٦٤).

إن هذه الإحصائيات تحدد فقط الموضوعات الموجودة في الإمبراطورية والتي نصرخ بها في وجه الأمريكيين، وكذلك ما سمعته في آلاف المحادثات حول العالم. إن "اجتماع بيلدبرج هو حشد سنوي للولايات المتحدة، والحكومة الأوربية، ورجال الأعمال، والأكاديميين، وقادة الوسائط الإعلامية، الذين يناقشون العلاقات عبر الأطلنطية، بطريقة غير رسمية في نهاية أسبوع ربيعي طويل. وقد انعقد اجتماع ٢٠٠٢ في واشنطن، في نهاية أسبوع خطاب الرئيس في وست بوينت. وقد عبر الأوربيون عن مشاعر تتراوح ما بين الإنكار والغضب إلى خيبة الأمل وإحساس بالخيانة والإهانة، وكما قال ممثل فرنسي سابق في الناتو، فإن الولايات المتحدة كانت تقول بصورة فعالة: إنها سوف "تعتني بأوربا"، في صورة علاقة تقوم على "الحماية"، وقد أكد ذلك، مفوض أوروبي سابق، "إن الولايات المتحدة ترى أن الإجماع عملية اختيارية غير ملزمة؛ وأن ذلك سوف يؤدي إلى التآكل العميق للنظام العالمي الذي ناضلنا خلال الخمسين سنة الماضية لخلقه. إن هذه الفكرة ليست معادية للعولمة فقط، لكنها متناقضة فعليا مع النموذج الأمريكي نفسه"، وقد أضاف واحد من أثرى الخبراء الماليين في العالم، "إن الأحادية الإختيارية تدمر كل ما ترمز له الولايات المتحدة، وذلك بإبطال الضوابط والتوازنات وحكم القانون. إن الولايات المتحدة تقول بصورة أساسية: إن القوة صائبة، سواء كان ذلك بوعي أو بدون وعي"، وأكد سفير حليف رئيسي للولايات المتحدة ومقيم في واشنطن أن عقيدة الحرب الاستباقية تضع سابقة خطيرة، وتساءل: "ماذا ستفعلون عندما تقرر الهند أو باكستان المسلحة نوويا أنه يتوجب عليهما أيضا تبني هذه الاستراتيجية؟".

لم يكن هذا رد فعل أوربي خالص. كنت أتناول العشاء، بعد فترة قصيرة من اجتماع بيلدبرج مع عدد من سفراء في الأمم المتحدة، من المكسيك، والبرازيل،

وفرنسا، وسويسرا، والاتحاد الأوروبى، وسنغافورة، واليابان، ومصر، ونيجيريا، لقد وصلوا بالفعل بعد موعد اللقاء، فى الثامنة بعد الظهر، لقد تأخروا جميعا فى مناقشة مجلس الأمن حول المطالب الأمريكية بمعاملة خاصة لمواطنى الولايات المتحدة كشرط لموافقة الولايات المتحدة على تشكيل محكمة العدل الدولية، وهى مؤسسة كانت الولايات المتحدة، فى الأساس، قد اقترحتها، كانوا ما يزالون هائجين عندما وصلوا إلى مسكن مضيفنا، فى الجانب الغربى العلوى، فبعد أن وافقوا بالفعل على ما اعتبروه إجراءات وقائية محكمة، ضد مقاضاة الأمريكيين لدوافع سياسية، قدمت الولايات المتحدة المزيد من المطالب من أجل معاملة استثنائية، مطالب مهينة وغير معقولة، وقد قال سفير من أمريكا اللاتينية: إن الولايات المتحدة لا تثق فى العالم كله. إنها تعتمد فقط على القوة العسكرية، وليس لديها رؤية لنفسها وهى تعمل مع الآخرين، إن كل شىء يدور دوما حول نفسها فقط". وعبر واحد من السفراء الأوربيين عن الشعور العام عندما قال:"لقد كانت الولايات المتحدة فى الماضى منارة للعالم، لكن يبدو أنها تعمل أكثر فأكثر، ليس فقط دون النظر إلى الآخرين، ولكن أيضا دون اعتبار للمبادئ ذاتها التى جعلت منها منارة، إن هذا يوقع الكآبة فى النفس، ويخيب آمالنا جميعا بصورة رهيبة"، لقد عبروا لى كإنسان، عن معارضتهم الشخصية، بل وحتى تقززهم من وضع الولايات المتحدة، لكن أغلبهم أقر بأن حكومتهم قد توجههم للموافقة على المطالب الأمريكية - لماذا؟ لأن لدى الولايات المتحدة طرقًا عديدة لجعل حياة تلك البلدان كريهة، ولا أحد يرغب فى إغضاب أكبر قوة فى العالم لأى سبب إلا المسائل الحاسمة، ولذا فإنه عندما عرض الاقتراح للتصويت، فى مجلس الأمن، أمسكوا جميعا بأنوفهم، وصوتوا بنعم، لكنهم لن ينسوا تلك المعاملة المهينة.

وقد وُجد امتعاض مماثل فى دوائر أوسع أيضًا، وحددت قمة المديرين التنفيذيين، فى اجتماع التعاون الاقتصادى لآسيا والمحيط الهادى فى لوس كابوس، فى أكتوبر ٢٠٠٢ معالم نظام للتصويت الفورى يقدم تقدير احتمالات بصرى سريع لردود فعل المستمعين لمختلف الأسئلة التى وضعها مُوجه البرنامج، وقد حظى ردان من هذه الردود بأهمية خاصة، فقد لوحظ فى إحدى الحالات أن هنالك ١٠٠٠٠٠ من قوات

الولايات المتحدة منتشرة فى اليابان وكوريا وباقى آسيا لأكثر من خمسين عاما، وطلب من المستمعين ما إذا كانوا يتوقعون بقاء تلك القوات لعشر سنين أخرى، أو خمس وعشرين سنة، أو خمسين سنة، وقد اختار ثلثاهم تقريبا خمسًا وعشرين أو خمسين. وسئل المستمعون، فيما بعد كى يصوتوا بخصوص أكثر التهديدات خطورة على أمن المنطقة، هل هى الإرهاب؟ أم قوة الصين الصاعدة، أم إعادة تسليح اليابان، أم الحركة الضخمة للناس عبر الحدود، أم النقص فى المياه، أم الإيدز، أم الهيمنة الأمريكية؟ وبينما اختار ٦٠٪ من المستمعين تقريبا الإرهاب، فقد جاءت الهيمنة الأمريكية فى الموقع الثانى بنسبة ٣٠٪، سابقة كل الاختيارات الأخرى[٦٥]. لم يكن هؤلاء مجموعة من الجناح اليسارى الراديكالى، كانوا ثمانمائة من قمة رجال الأعمال من مختلف أنحاء منطقة آسيا - الباسفيكى، يقولون: إنهم يخافون الهيمنة الأمريكية أكثر من أى شىء آخر ما عدا الإرهاب.

إن ما يتوق العالم إليه، هو ما أسماه ميتشيل هيرس الرؤية الأمريكية "للمثالية الشاملة"[٦٦]، ولايات متحدة مهتمة بماهية المشاكل الحقيقية، وما نقع فيه من أخطاء، كما جاء فى كلمات تومس فريدمان. إن ما يحدث بدلا من ذلك هو "أن الولايات المتحدة تفرض طريقها، وهى تفعل ذلك دون أن تدرى ما هى فاعلة"، كما قال أحد الدبلوماسيين الصينيين: إن مثالاً حيا على ذلك هو القصة التى نشرتها نيويورك تايمز فى ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٢ عن ثروة النفط فى نيجيريا. تتناول القصة التناقض بين ثراء منازل مديرى محطة شيفرون/تكساكو فى أوجبورودو، نيجيريا، وأكواخ عمال حقل النفط على الجانب الآخر من الوادى الضيق، والذين استولوا على المنازل الثرية واحتلوها كجزء من احتجاج سلمى. إن الوضع معقد وله علاقة بالكثير من فساد الحكومة النيجيرية وعدم كفاءتها. ولكن فيكتور أوموتو، وهو موظف فى البلدية المحلية عبر عن العواطف أفضل تعبير عندما قال: "نعم، لقد فشلت الحكومة النيجيرية، غير أننا نعرف أن الأمريكيين يؤثرون على سياسات هذه الحكومة. فلو كانت مصالح المجتمع فى القلب من اهتمامهم، فلماذا لا ينبهون الحكومة النيجيرية؟ إن الأمريكيين

الذين يزعمون أنهم المدافعون عن الحرية، الأمريكيون الذين يزعمون الرغبة فى تحسين البشرية - هم الشيطان بالنسبة لنا. هل يمكنك أن تقول لى: إنهم ليسوا أسوأ من صدام حسين، أو أسامة بن لادن؟ إنهم يجيئون، ويأخذون، ويتركون، دون أن يعيدوا شيئا".

إن موظفا فى إدارة الدولة، منذ زمن طويل، وسفيرا سابقا فى العربية السعودية، هوشاس فريمان، وضع الأمر بصورة أكثر دبلوماسية قائلاً : إن "الولايات المتحدة مدينة فوق التل، لكن الضباب يلفها بصورة متزايدة". وأضاف: "إننا فى حاجة إلى حرب على الغطرسة مثل الحرب على الإرهاب".

الفصل الثالث

لعبة أمريكا

ليس عدلا أن تجعل الأسواق المالية البرازيل
تدفع ثمنا اقتصاديا لإجراء انتخابات ديمقراطية

– روبنزمان باربوسا
سفير البرازيل فى واشنطن دى.سى.

سوباشاى بانيتشباكدى رجل سعيد، مستدير الوجه، يحيطه جو الأستاذ الأكاديمى الذى كانه يوما ما، كان قد قايض الجامعة بالسياسة، وغدا نائبا لرئيس وزراء تايلاند فى منتصف تسعينيات القرن العشرين، وهو الآن المدير العام لمنظمة التجارة العالمية (دبليو تى أو)، وقد تغدينا معا فى فندق شانجرى لاى، فى شنغهاى، فى أكتوبر ٢٠٠١، قبل أن يحتل مركزه فى دبليو تى أو؛ حيث كنا نحن الاثنين مشاركين فى اجتماع "منتدى التعاون الاقتصادى الآسيوى الباسفيكى"، وبينما كنا ننظر إلى سفينة رشيقة عابرة قبالة رصيف الميناء على نهر هوانج بو، استمتعنا بذكريات على نحو غير متوقع، بدا أن كلينا قد عاش فى مدينة روتردام فى الستينيات من القرن العشرين، دون أن تكون لدينا بالطبع فرصة اللقاء، وحاولنا تبادل الحديث بهولنديتنا الصدأة (والتى كان يتحدثها أفضل منى)، وكانت تايلاند، كما علمت، قد أرسلته لدراسة الاقتصاديات تحت إشراف الشهير جان تينبرجن من

جامعة روتردام، وظل يعمل هناك كأستاذ مدة عشر سنوات، قبل العودة إلى تايلاند، كنت أنا نائب القنصل، فى قنصلية الولايات المتحدة فى روتردام من عام ١٩٦٦ إلى عام ١٩٦٨.

وانتقلت مناقشتنا من الماضى البعيد إلى الماضى الأكثر قربا، وعدنا للحديث بالإنجليزية، وفجأة صار جادا للغاية، وتحدث فى التطورات الاقتصادية الحديثة: "إن أثر الأزمة المالية الآسيوية كان مدمرا لتايلاند وجنوب شرق آسيا، وتسبب فى تساؤل العديدين، إذا ما كان لدى الولايات المتحدة وصندوق النقد الدولى فهم جيد للكيفية التى أثرت بها العولمة على الاقتصاديات الآسيوية".

انهيار عام ٩٧

كان سوباشاى يشير إلى أحداث بدأت تتكشف فى بانكوك فى خريف ١٩٩٦. لقد انتشرت، خلال تسعينيات القرن العشرين، المعجزة التى بدأت فى اليابان، فى ستينيات القرن الماضى، عبر كوريا، وتايوان، وهونج كونج، وسنغافورة، وماليزيا، وأخيرا جاءت إلى تايلاند، كان الوقت بالنسبة لجنوب شرق آسيا هو أفضل الأوقات، كانت الرأسمالية الديمقراطية بانتهاء الحرب الباردة، هى النظام الوحيد الذى بقى على قيد الحياة، وتسيد كل ما عاينه. وتجاوز، ببساطة، الشيوعية فى سباق خلق الثروة. كانت "العولمة" - وهى توحيد الاقتصاديات الوطنية والكيانات المتحدة من خلال التجارة، وعبر الاستثمار العابر للحدود على نطاق عالمى واسع، هى كلمة السر الجديدة. وجاءت أفضل الكتب مبيعا بقلم كُتاب مثل اليابانى كينيشى أوهما الذى غنى تمجيداً لـ "عالم جديد بلا حدود"، تغدو فيه الحدود الموقعة على الخرائط بلا معنى، وأفضل ما يمكن أن تفعله الحكومات هو حث السادة الشركاء في العالم على الاستثمار فى بلدانهم، ثم يفسحون الطريق، وظهرت وجهة نظر عامة بين كبار قساوسة الاقتصاد العالمى، ووزارة خزانة الولايات المتحدة، وصندوق النقد الدولى،

والبنك الدولي، وجامعات النخبة حول الطريق إلى المستقبل، وغدت تلك معروفة باسم "إجماع واشنطن"، وقد بسط فريدمان الفكرة ليجعلها في متناول مدارك الجمهور، تحت عنوان "السترة الذهبية"، وهي معادلة دعت إلى ميزانيات متوازنة، وضرائب منخفضة، وانسياب حر لرأس المال، والبضائع، والخدمات، والخصخصة، ورفع القيود والقواعد المنظمة، وحماية حقوق الملكية، خاصة حقوق ملكية المفكرين، وحكومة صغيرة، وتحرير أسعار الفائدة، وقال البعض: إن تطبيق تلك الإجراءات سوف يجيء بالرفاهية، ويضيق الهوة بين الأغنياء والفقراء، وأن بذورها سوف تجيء بالمقرطة، التي سوف تجيء بدورها بالاستقرار والسلام، وقدم فريدمان مزيدا من الإيضاح بأن الآلة الرئيسية لحدوث كل هذا كانت "غريزة القطيع الإليكترونية، التي ستجمع أقزاما خرافيين بلا سمات يحملقون في شاشات الكومبيوتر في أوكار نسور ساكنة هادئة في وول ستريت، وكابوتوشو، والمدينة، وأماكن أخرى، يرسلون تريليونات الدولارات تعدو حول الكون، مع تكتكة فأر".

واكتشف القطيع الإليكتروني، في التسعينيات، جنوب شرق آسيا. وابتدع وصلة معينة لتايلاند، وما رؤي، فيما بعد، على أنه واحد من القطاعات المالية الكبرى في التاريخ، كان بخارا يتجمع، في تلك الأثناء، في الولايات المتحدة. لقد أطلقت أسعار الفائدة المنخفضة، واقتصاد مزدهر - موجة مد من نقود تسعى وراء عوائد عالية - كذلك - كان مستثمرون من اقتصاديات أوربا واليابان - بطيئة النمو، يبحثون عن مراعي أكثر خضرة. وبدأ جنوب شرق آسيا، بنموه العالي، وأسعار فائدته المرتفعة

والمخاطرة المنخفضة بسبب قوة عملاته المرتبطة بالدولار، نيرفانا(*) المصرفيين، وأقرضت البنوك الأوربية واليابانية والأمريكية المنطقة ما بين عام ١٩٩٢ وعام ١٩٩٦، أكثر من ٧٠٠ مليار دولار، وقد بلغت القروض الأجنبية قصيرة الأمد لتايلاند

(*) السعادة القصوى في البوذية (المترجم).

وحـدها قـرابة ١٠٪ من الناتج المحلى الإجـمـالى لكل من تلك السنوات[1]، وصب "الاستثمار الأجنبى المباشر" (إف دى أى) أيضا مع جنرال موتورز وفورد وتيوتا وديملر كريسلر، وجميعهم يعلنون عن مصانع سيارات جديدة فى تايلاند، بينما أظلمت السماء بناطحات السحاب الجديدة. واحتضن قادة آسيا - الباسفيكى، عام ١٩٩٤، فى اجتماع فى أندونيسيا عقيدة العولمة، بإعلانهم تكوين منتدى "التعاون الاقتصادى لآسيا والمحيط الهادي" (إيه بى إى سى)، والالتزام بتحقيق تجارة حرة كاملة فى المنطقة حتى عام ٢٠٢٠. وفى مؤتمرات المشاهير كونيا من سنغافورة، ودافوس، وواشنطن، أشار كل الأساتذة الدارسين، ومئات المصرفيين، والقادة السياسيين الأذكياء، إلى جنوب شرق آسيا باعتباره الجزء الأكثر ديناميكية فى الاقتصاد العالمى، والذى كان يقود الطريق إلى اليوتوبيا(*).

إن قليلين هم الذين لاحظوا، فى أواخر أغسطس عام ١٩٩٦- انهيار بنك بانكوك للتجارة، وارتفعت بعض الحواجب فى فبراير ١٩٩٧، عندما عانت شركة سومبرا سونج للأراضى عجزا فى سندات اليورو، مرسلة أول الإشارات بأن فقاعة المنطقة الحقيقية قد تكون على وشك الانفجار، وفجأة فى أواخر ذلك الشهر، بدأت فينانس ون، وهى أكبر شركة مالية فى تايلاند، فى البحث عن شريك تندمج معه، وبذلك بدأ القطيع الإليكترونى الفرار من السياج، وبدأ المصرفيون الأجانب فى المطالبة بقروضهم قصيرة الأجل، بينما باعت صناديق التغطية العملة التايلاندية بسعر منخفض، معتقدين أن الربط بالدولار لا يستطيع أن يتماسك وأن العملة لا بد أن تنخفض قيمتها، وبدأت شركات تايلاند، وقد خشيت أن يحل بها نفس الشىء، وكانت قد اقترضت قروضا باهظة من الخارج، بدأت فى إغراق "الباهت" بدلا من الدولار فى محاولة شاملة لدعم سعر الصرف، وصب البنك المركزى التايلاندى احتياطاته من الدولارات، ٢٦ مليار دولار جملة، باذلا جهدا يائسا للشراء.

(*) المدينة الفاضلة (المترجم).

فى الساعات القليلة من صباح يوليو ١٩٩٧، استدعى مسئولو البنك المركزى، وزير المالية ثانونج بيدايا، برسالة كئيبة: لن يكون هنالك فى القريب أى احتياطيات من الدولارات، إن تايلاند سوف تفلس بطريقة فعالة، وأوقظ قادة مصرف بانكوك باستدعاءات هاتفية، قام بها مسئولون بدعوتهم إلى اجتماع طارئ. واجتمعوا فى السادسة والنصف صباحا، فى مبنى منخفض يبدو كمن يجلس القرفصاء، على الجانب الآخر من قصر بانخوم بروم المنمق المزخرف، والذى يوجد به بنك تايلاند، قيل لهم: إن احتياطيات الحكومة قد نفذت، ومن ثم لم يعد لديها دولارات يمكن أن تشترى بها الباهت لتبقى على قيمته مربوطا عن ٢٥ باهتا للدولار، ولم يكن أمام الحكومة خيار غير ترك السعر المحدد، وأن تدع الباهت يطفو – أو يغرق - بحرية، وفُتحت سوق الصرف فى التاسعة، وللحال انخفض الباهت ١٥٪، كما أنه سوف يخسر، فى النهاية، ٦٠٪ من قيمته، وأغلقت الحكومة حتى أوائل ديسمبر ستا وخمسين مؤسسة مالية من ثمان وخمسين واحدة، هى قمة المؤسسات المالية فى البلاد. وأصبح فى الإمكان رؤية ملوك المال وهم يبيعون الساندوتشات فى شوارع بانكوك؛ إذ ارتفعت البطالة إلى ٢٠٪، وأضاف سائقو سيارات الأجرة لمحة جديدة إلى جولة مشاهدة رئيسية: قيادة السيارة إلى شارع أسوك، وول ستريت بانكوك، لرؤية البنوك الميتة، لقد انفض الحفل، لكن مهلا، فتلك فقط كانت تايلاند، إننى أتذكر حديثى فى مؤتمر حضره قادة المسئولين الرسميين للولايات المتحدة، واقتصاديون أكدوا، إنه بينما كان انهيار تايلاند خزى وعار على تايلاند ومؤلم لها، فإنه يجب علينا ألا ننسى أن كل اقتصاد تايلاند يصل فقط إلى ١٨٥ مليار دولار، وهو أقل من مدينة سان دييجو، من الواضح أن العملية لم تكن صفقة كبيرة، ويبدو أنه لم يكن من موافق غير الرئيس كلينتون؛ حيث كان المجتمع الدولى بقيادة اليابان يناضل حتى يضعوا معا خطة تمويل طارئة لتايلاند، ومال كلينتون إلى أن تشارك الولايات المتحدة، قائلا: إن المشكلة برمتها كانت مجرد "حوادث قليلة مؤسفة على الطريق إلى الرفاهية الكونية[٢]، ولكن لو كان الأمر بالنسبة لكلينتون، إصابة بالفواق، فقد كان بالنسبة لتايلاند إصابة بسرطان المعدة. وتذكرت تايلاند أنه عندما عانت المكسيك مشاكل مماثلة عام ١٩٩٤، حرك كلينتون السماء والأرض

ليضعوا معا خطة إنقاذ، كما تذكرت تايلاند أيضا المساعدة التى قدمتها للولايات المتحدة فى فيتنام، وأن الولايات المتحدة هى التى كانت تضغط عليهم طوال الوقت؛ ليتحولوا إلى بشارة التجارة الحرة والأسواق المالية المفتوحة. إن تايلاند، كما قال سوباشاى، فى تعليقه لى فى شنغهاى، لن تنسى سريعا هذه "الحوادث المؤسفة على الطريق"، وافتقاد الولايات المتحدة الاستجابة بها.

لكن الأمر لم يعد فجأة مقصوراً على تايلاند وحدها، ففى يوليو، بعد سقوط الباهت بفترة قصيرة، بدأ سقوط الرينجيت الماليزى، والروبية الأندونيسية، بينما قدم صندوق النقد الدولى ١,١ مليار دولار إلى الفلبين. وسعى صانع السيارات الكورى "كيا"، فى ذات الوقت، للحصول على مساعدة طارئة، كحركة وقائية، وعندما جاء أكتوبر كان الرينجيت قد فقد ٢٥٪ من قيمته التى كانت فى يناير، وكانت الروبية قد فقدت ٢٨٪. وأوقف مهاتير، رئيس الوزراء الماليزى بيع الأوراق المالية الماليزية بالنسيئة، وفرض ضوابط مقيدة على تدفق النقود من وإلى البلاد، فى محاولة لمنع انهيار مثل ذلك الذى حدث فى تايلاند، وواجه عمليا بسبب هذا نقدا شديدا من كل النخبة المالية العالمية، بما فى ذلك قمة المسئولين الرسميين فى حكومة الولايات المتحدة، الذين قالوا: إن مثل تلك الحركة سوف تدمر كلية، وبصورة دائمة، ثقة المستثمر العالمى فى الاقتصاد الماليزى، وإدانوه للنمو البطىء إلى ما لا نهاية، ولم يكن هو خجولا البتة، فأطلق العنان لنقد ساخر عنيف ضد المضاربين الدوليين، وسمى المالى جورج سوروس بالأبله، وانتقد بشدة الولايات المتحدة، وصندوق النقد الدولى للسياسات التى مكنت للهجمات المضاربة تلك، والتى دمرت قدرة البلدان النامية فى اللحاق بهم. وقد أخبرنى مهاتير فيما بعد أن المسئولين فى مجلس وزرائه والمستشارين طلبوا منه أن يلتزم الصمت؛ لأن الرينجيت يهبط أكثر، كلما فتح فاه، وقال:"لكن واجبى هو أن أقول الحقيقة"، كما قال لقمة رجال البنوك، فى الاجتماع السنوى، لصندوق النقد الدولى، والبنك الدولى فى هونج كونج فى سبتمبر إن تجارة العملة، غير أخلاقية، ويجب حظرها، وهبطت عملة أندونيسيا، التى كانت تسير فى أعقاب الرينجيت، بسبب ما كان يصدر عنه من تعليقات، بينما تتصاعد البطالة فى إصرار.

وبدأ القـادة الماليـون، فى اجـتـمـا ع هونج كـونج، فى تناغم مع كلينتـون، رغم الاضطراب فى جنوب شرق آسيا، وحتى بينما كـان القطيع الإليكترونى يتجـه إلى التـلال، طلب قادة صندوق النقد الدولى إجراء تغيير فى دسـتور المنظمة يسمح لها بممارسة المزيد من الضغط على البلدان النامية، من أجل إلغاء القيود والقواعد المنظمة لأسواقهم، وفتحها لكل اللاعبين الكونيين. ووضـعوا مـعا، بالفعل، أموال إنقاذ لتايلاند وأندونيسيا، ولكن لا شىء بالطبع لماليزيا الولد الردىء، ولم يكن هنالك، فى الحقيقة، قلق كثير، كما عبر عن ذلك بوضوح التقرير السنوى المتوهج لصندوق النقد الدولى حول الاقتصاد الكورى، والذى كان، طبقا لسادة صندوق النقد الدولى - يؤدى تقريبا دوره بدقة، بالقدر الممكن أن يقوم به اقتصاد ما. هنا كانت توجد بوضوح حالة هى الأقرب إلى تنفيذ حكم مثالى بالإعدام.

وانفجرت العاصفة بكل قوتها، عندما أخذ سادة العالم فى تفريغ محتويات حقائبهم فى دورهم، بعد العودة من هونج كونج، وأصبح دولار هونج كونج، لارتباطه الوثيق بدولار الولايات المتحدة - هو هدف واحدة من أشد هجمات المضاربة عدوانية فى التاريخ. وأوجدت صناديق التغطية الكونية الضخمة نسخا منها، أبراج محصنة وتنانين، إنهم يبيعون دليل هونج كونج للأوراق المالية، هانج سينج، بسعر منخفض، بينما يبيعون أيضا دولارات هونج كونج. إن بيع الدولارات كما قدروا سوف يجبر الحكومة على رفع الأسعار العالمية؛ للاحتفاظ بالربط بدولار الولايات المتحدة، غير أن رفع أسعار الفائدة، يمكن أن يدفع بأسعار الأوراق المالية إلى أسفل؛ مما يجعل أوضا ع دليل الأوراق المالية مربحة. حقا لقد كانت عمليات مربحة للغاية، واضطربت هونج كونج، وأُجبرت أندونيسيا على قبول خطة كفالة صندوق النقد الدولى، الذى طالب بتقشف محلى؛ مما كان سيدفع، دون شك، بالبطالة إلى ذروتها، وعومت اليابان فكرة تشكيل صندوق نقد آسيوى، يُمول إلى حد كبير من احتياطيات اليابان الهائلة، ويُستخدم لدعم وتعزيز اقتصاديات المنطقة المريضة. كنت واحدا من هؤلاء الذين شرح لهم اليابانيون الفكرة، لكننى عندما عرضتها على المسئولين المناسبين فى واشنطن،

كان رد الفعل سلبيا حادا، وماتت الفكرة في هدوء لنقص الأوكسجين، وبينما كانت الفكرة تخمد كان يخمد أيضا الاقتصاد الكوري، نموذج الأداء الجيد.

كان الكسب الذي حققه الاقتصاد الكوري، خلال أكتوبر، في هبوط، وفي نوفمبر أُجبر عدد من الشركات الكورية الكبرى على إعلان تأخير أو تعليق استثمارات محلية ودولية، وفي عام ١٩٩٦ ناصرت الولايات المتحدة كوريا لتصبح أحدث عضو في "منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية"، نادي البلدان المتطورة، ورغم أن تلك كانت طريقة للحصول على عضو آسيوي ثان (بعد اليابان)، وإلا فإن الكل جماعة غربية، كما سهل ذلك لمفاوضي الولايات المتحدة الضغط على كوريا كي تفتح أسواقها المالية، وما أن التحقت كوريا بهم حتى غمرتها النقود الأجنبية، حيث جاء إلى البلاد ١٣,١ مليار دولار زيادة في قروض البنوك الأجنبية، والآن غدت البنوك الأجنبية، بما فيها عدد من مؤسسات الولايات المتحدة الكبرى، عصبية، وبدأت تتجه نحو الباب. ما كان في الإمكان حدوث ذلك في ظروف سيئة، كانت كوريا في قلب الانتخابات الرئاسية، ولم يكن هنالك أحد يراقب المخزون، وكررت كوريا، في محاولة يائسة للإبقاء على قيمة عملتها، تجربة تايلاند حتى آخر ديسمبر ١٩٩٧، كان على مسئوليها أن يبلغوا الرئيس، أنه لا تكاد توجد أية احتياطيات.

وعند هذه النقطة استبد بواشنطن مزاج جديد، إن كوريا رغم كل شيء، ليست حدثا مؤسفا على الطريق، إنها اقتصاد العالم الأكبر الحادي عشر، والحليف الاستراتيجي الكبير للولايات المتحدة، إنك لا تستطيع أن تترك دولة مثل تلك في الأنابيب، ووضعت هونج كونج، في نوفمبر ١٩٩٧ حدا لهجمات المضاربة، وذلك بجعل "هيئة النقد" تشتري ببساطة جزءا كبيرا من الأنصبة البارزة في دليل هانج سينج، كانت هذه مناورة مركبة، لكنها لا تختلف في الواقع اختلافا كبيرا عن تحكم مهاتير في تدفقات النقود من ماليزيا وإليها، ولأن هونج كونج فعلتها، وهي تعتذر، وليس كما فعلها مهاتير متحديا، فإن المسئولين الرسميين الأمريكيين والدوليين، أصابتهم غصة، غير أنهم تجرعوها، ولذا فإن سفارة الولايات المتحدة في سيول، كوريا الجنوبية،

ووزارة خزانة الولايات المتحدة في واشنطن، بدؤوا اتصالات ساخنة مع وول ستريت، برسالة تقول: إن واشنطن سوف تقدر إن لم تقم بنوك الولايات المتحدة بأخذ نقودها خارج كوريا، وهي حقا سوف تكون ممتنة للغاية إن تم تمديد القروض، كان هذا شيئا جميلا، في إطار العروض التي لا يمكنك رفضها، بالطبع بلغت تلك الإجراءات ذات صنف الإجراءات التي فرضها مهاتير، غير أن كوريا كان لديها اقتصاد حقيقي، وكانت حليفا حقيقيا.

لقد نجحت تلك الإجراءات بالفعل، وإن لم تكن بالسرعة الكافية. وفي ربيع ١٩٩٨، كان النزيف قد أوقف إلى حد كبير في آسيا، غير أن روسيا التي كانت على الحد لفترة زمنية ما، تخلفت عن سداد سندات حكومتها، وقد أرسل ذلك بقشعريرة عبر أسواق الائتمان الدولية، التي جمدت فعليا إقراض بلدان مثل البرازيل والأرجنتين، وحتى الأسواق المالية في الولايات المتحدة أحست بالآثار، وقد عُصرت مجموعة معينة عصرا خطيرا – "إدارة رأس المال طويل المدى" (إل تي سي إم) وهي صندوق تغطية مقره ويستبورت، كونيكتيكت. كان هذا واحدا من تلك المؤسسات التي جرى تفصيلها بما يناسب الأثرياء للغاية فقط، إنها تأخذ نقودك فقط إن أنت وافقت على أن يكون الحد الأدنى الذي تضعه ١٠ مليون دولار، وأن تبقيها هنالك مدة ثلاث سنوات، ويعد الصندوق إنه في مقابل هذا الالتزام، سوف يحقق لك، على الأقل، من ١٥ إلى ٢٠٪ سنويا بالاستثمار بطرق مركبة، أنت لا ترغب في معرفتها، ليس لأن هنالك أي خطأ في تصرفاتهم، ولكن فقط لئلا تستطيع، حقا، فهمها. إنك إن كنت تبحث عن أقزام خرافيين يحرسون الكنوز، فإنك ما كنت لتفعل أفضل من هؤلاء الأشخاص – إنهم مجموعة من وول ستريت عالية الثراء، مزودة بخميرة من اقتصاديين حاصلين على جائزة نوبل.

إن الفكرة الأساسية بالفعل، فكرة بسيطة نسبيا، رغم هذا التعقيد، إن أسعار الفائدة للأنواع المتماثلة من السندات تتجه، بمرور الوقت، إلى التماثل. إن الأمور سوف تكون مثيرة للدهشة، إن كانت غير ذلك. إن مثل تلك الأسعار يمكن، على أي حال أن تتباعد في السنوات قصيرة المدى، بسبب دواعي عرضية طارئة؛ ولذا فإنك

إن استثمرت وهى متباعدة، وراهنت على التقارب بمرور الوقت، فإنك لا شك رابح فى غالب الأحوال، هذا ما كانت تفعله إدارة رأس المال طويل المدى، هنالك مسألتان أساسيتان، واحدة هى الفعالية المالية، فالتفاوتات أو هوامش الأرباح على استثمارات تلك السندات محدودة للغاية، ولذا عليك كى تكسب مالا أن تشترى كمية منها، ويفضل فعل ذلك بأموال مقترضة، والمسألة الأساسية الثانية هى الاحتمالات؛ حيث يتدخل إخصانيو الرياضيات، أنت فى حاجة إلى فكرة جيدة جدا عن مدى طول الوقت الذى سوف تأخذه عمليات التباعد كى تتقارب؛ لأنها إن طالت أكثر مما توقعت، فإنك يمكن حقا، أن تخسر سريعا قدراً من المال. إن إدارة رأس المال طويل المدى لديها أفضل المتخصصين فى الرياضيات، وأفضل نماذج الكومبيوتر، وهى تقترض أغلب النقود وتراهن بها كلها، وقد عمل المشروع، كما يفترض له أن يعمل، وحققت إدارة رأس المال طويل المدى فى خلال ثلاث سنوات كسبا قدره ٣٤٪ سنويا فى المتوسط لمستثمريها، بينما جعلت شركاءها من بين أثرى الناس فى العالم[٣].

وفى ربيع ١٩٩٨ كان المستثمرون يتوسلون كى يضعوا المزيد من النقود فى الصندوق، وضاعف الصندوق رهانه بمبلغ إجمالى أكثر من تريليون دولار من صناديق ذات فعالية مالية، لكن كانت هنالك مشكلة. كان العالم يتصرف بطريقة هزلية، كل الافتراضات التى قام عليها نموذج الكومبيوتر ثبت خطؤها، التقارب لم يحدث طبقًا لبرنامج المواعيد المحددة، وبدأت إدارة رأس المال طويل المدى تنزف نقوداً، وكان هذا النزيف صادر من خرطوم حريق. كان ذلك بالطبع سيئًا لإدارة رأس المال طويل المدى، ومستثمريها، غير أنه كان هنالك أناس آخرون هامون قلقون أيضًا، وكان ألان جرينسبان واحدا منهم، وهو رئيس "النظام الاحتياطى الفيدرالى للولايات المتحدة"، وأكثر المصرفيين المركزيين أهمية فى العالم (وقد يقول البعض: إنه أهم رجل فى العالم)، لقد أكد جرينسبان، وهو واحد من حوارى آين راند المؤيد المتطرف لمبادئ الحرية، والكاهن الاكبر لفضائل الأسواق المتحررة من الأغلال، أكد أمام كونجرس

الولايات المتحدة، في شهادة شاملة، إنه لم يكن هنالك حاجة لتنظيم صناديق تغطية مثل إدارة رأس المال طويل المدى؛ لأنهم كانوا كمحترفين يعرفون المخاطر، وكانوا على استعداد لتقبلها. لكن الآن، فإن الخطر الذى كان يحدق فى وجه جرينسبان هو انهيار النظام المالى الكونى كله، كانت إدارة رأس المال طويل المدى قد اقترضت أموالا طائلة، وقامت بمثل تلك المراهنات الخطرة التى إن انهارت هددت بأن تأخذ معها البنوك الكبرى وربما النظام ذاته، وعندما واجه جرينسبان تلك المخاطرة، طرف بعينه، ونظم كفالة لإدارة رأس المال طويل المدى، لقد فرض فى الواقع ضوابط على رأس المال، وكان يحتمل بما فعل أن يكون قد أنقذ النظام المالى العالمى، لقد أنقذ دون شك لحم بعض كبار اللاعبين فى وول ستريت، وكان يمكن فى كوالالمبور أن تسمع مهاتير وهو يضحك.

هذا، إذن، وجه واحد من أوجه العولمة، إن صندوق النقد الدولى والكثيرين من الرسميين المسئولين فى الولايات المتحدة قد اعترفوا بأخطاء وسياسات غير مناسبة، إلا أن الولايات المتحدة أفلتت من أسوأ أزمة مالية كونية منذ الركود الكبير، غير مصابة بأذى إلى حد كبير، إن الأندونيسيين، والتايلانديين، وصينى هونج كونج، والكوريين - ما زالوا يحملون الندوب، وما زالوا يتذكرون لا مبالاة وتقلب وجهالة الولايات المتحدة ومؤسسات العولمة، ورؤيتها نفسها باعتبارها أقوم أخلاقًا من الآخرين.

افعل كما أقول، ولا تفعل كما أفعل

وقع الرئيس جورج دبليو بوش، فى ٦ أغسطس عام ٢٠٠٦ "قانون هيئة تعزيز التجارة" الذى صُمم لتحسين قدره إدارته على التفاوض حول اتفاقيات تجارية دولية حرة، قال بوش: "إن أمريكا تعود إلى العمل لتعزيز التجارة المفتوحة"، وقد وعد بأبعد من ذلك، وهو أنه سوف "يستخدم هذه السلطة الجديدة لتوفير المزيد من الوظائف،

ومستويات أعلى للحياة للأسر الأمريكية"، وكان قد أكد فى ملاحظات سابقة "لمجلس أمريكا" أن "التجارة المفتوحة ليست مجرد فرصة اقتصادية، إنها أساس أخلاقى لا يمكن تجنبه"، وقد قام كولين باول بتوسيع وجهات النظر هذه، فقال: "الحقيقة أن التجارة الحرة والعولمة تدعم العامل وحقوق الإنسان على المدى الطويل، إنها تساعد البيئة، وتحسن المساواة الاقتصادية، من أجل ثروة أكبر للجميع"[٤]، وأضاف أن إدارة بوش مصرة على "السعى للتجارة الحرة، فى كل فرصة، لسبب بسيط، وهو أن التجارة فعلها، إنها تعطى الناس الأمل، وتساعدهم على إطعام أطفالهم، ووضع أسقف فوق رؤوسهم، لقد بدؤوا صعود السلم، ولن يعودا للوراء أبداً"[٥]، لم يكن بوش أو باول يقول أى جديد أو متفرد، لقد كانت التجارة والأسواق المفتوحة هى سياسة كل رئيس أمريكى منذ فرانكلين روزفلت وتعويذته الروحية.

ولكن حاول أن تقول هذا لمودى سانجار، وهو من كوروكورو، مالى، من غرب إفريقيا، لقد ربط، كما جاء فى وول ستريت جورنال، قبل حفل توقيع بوش بقليل، محراثه، ذا النصل الواحد، وبدأ اليوم الأول من أيامه الأربعة عشر الأولى، حتى يحرث الخمسة عشر أكراً من القطن، التى يمتلكها. وبينما يكدح فى عمله القاصم للظهر، كان لديه أمل قليل فى أن يعود عليه ذلك بالخير الوفير، كانت الأسعار التى قدمت هذا العام لزارعى القطن فى مالى، تقل ١٠٪ عن أدنى أسعار قدمت فى العام الماضى؛ وكان قد حدث فى العام الماضى أنه بعد أن دفع كل تكاليف الإنتاج تبقى لعائلة سانجار مال يقل عن ٢٠٠٠ دولار عما تحتاجه دستتان من الأفراد، نفقة، ومع هبوط الأسعار ثانية، وارتفاع تكاليف المخصبات والمبيدات المستوردة، فإن العائلة قد تكون غير قادرة على الإنفاق على تعليم بعض أطفالها.

وكتب نفس "الجورنال": إنه بينما يعرق مودى ويقلق، على الجانب الآخر من الكون، فإن كين هود، من جونيسون، مسيسيبى، خطا إلى جراره المكيف الهواء، وجلس فوق مقعد مزود بوسادة هوائية، وضبط نظام القمر الصناعى، المنظم الكونى؛ ليعرف المخصب الذى يحتاجه ليضخه على النبتات الصغيرة، التى بدأت تندفع

بالفعل من التربة، على امتداد العشرة آلاف أكر التى يمتلكها، ورغم هبوط أسعار القطن دوليا، فإن هود وعائلته يواصلان شراء الأرض، إن هود، وهو مدير "المجلس الوطنى للقطن" يقول: "هنالك أسباب عديدة للتفاؤل". إن الحصول على ٨٠٠٠٠٠ دولار، فى المتوسط، كقيمة صافية للأسرة التى تزرع القطن، يجعل من السهل فهم ثقة هود.

غير أنه من الهام فهم ماذا يكمن وراء تلك الثقة، والفجوة الواسعة بين سانجار وكين هود، إن تفسيرا منطقيا ومقبولا للحال سوف يكون التنافسية والإنتاجية، وفى حديث آخر أكد الرئيس بوش أن "المزارعين الأمريكيين، وأصحاب مزارع تربية الحيوانات هم الأكثر إنتاجية فى العالم"، وتلك حقيقة يمكن أن تفسر بسهولة رفاهية السيد هود، فى مواجهة فقر السيد سانجار. إن عشرة آلاف أكر، ومعدات حديثة، فى مواجهة ثور ومحراث مفرد، على قطع أرض بالغة الصغر، لا يمكن أن تبدو محل جدل كبير، ربما كما قال السيد هود، إنه "يجب على مزارعى إفريقيا ألا يزرعوا القطن". إلا أن مزارعى القطن فى دلتا المسيسيبى، ليسوا بالفعل أقل المنتجين تكلفة، إنهم أعلى المنتجين تكلفة فى العالم، إنهم ينفقون حوالى ٦٠٠ دولار لينتجوا أكرا من القطن، إن كل تلك المعدات عالية التقنية باهظة الثمن، إن أرض الدلتا تروى، والبذور أعلى أسعاراً؛ لأنها معدلة جينيا لمقاومة الحشرات، ثم إن هنالك المخصبات والسوائل الكيميائية الخاصة بأوراق الشجر - مرتفعة الأسعار: لذا لماذا كل هذا التفاؤل فى جونيسون؟ الأمر بسيط: الدعم والإعانات المالية. لقد وقع الرئيس بوش، قبل أيام قليلة من تقييد مودى سانجار لثوره إلى المحراث، وقبل أن يتسلق كين هود جراره، وقع قانونا هو جزء آخر من التشريع الذى كان من المتوقع له أن يزداد فعليا، فى العام الماضى، ٣,٤ مليار دولار، دعما للقطن، إن كين هود يتوقع أن يحصل من هذا المبلغ على مليون دولار تقريبا(٦).

غير أن ثروة مستر هود الجيدة، وثروة باقى ال ٢٥٠٠٠ مزارع من مزارعى القطن الأمريكيين - لم تجئ فقط على حساب دافعى الضرائب الأمريكيين، بل إنها تجىء

أيضا على حساب الاقتصاد الكلى لبلدان مثل مالى، وربما، أخيرا، على حساب الأمريكيين والأمن القومى، إن أمريكا رغم تكاليف إنتاجها العالية، هى أكبر مُصدر للقطن، وهى تنافس مالى فى الأسواق الكونية، إن غرب إفريقيا، كمنطقة، هى المُصدر الثالث الأكبر، إن الدعم الذى تقدمه الولايات المتحدة يؤكد للمزارعين الأمريكيين أنهم سوف يربحون ٧٠ سنتا لكل رطل من القطن، بغض النظر عن السعر العالمى (٥٥ سنتًا للرطل فى يناير ٢٠٠٣)(٧). يضاف إلى ذلك أنهم لا يضعون حدودا للأكرات المنزرعة، وليس هنالك ما يثير الدهشة فى أن مزارعى الولايات المتحدة حصدوا محصولا قياسيا، بلغ حوالى عشرة مليار رطل فى العام الماضى، محققين إغراقا هائلا للسوق العالمى دفع بالأسعار بعيدا أسفل نقطة الخروج من البيع دون مكسب أو خسارة، بالنسبة لأغلب مزارعى العالم، وفى إيجاز، فإن دعم الولايات المتحدة يعنى أن منتجى القطن الأعلى تكلفة فى العالم، يغرقون القطن فى الأسواق الدولية، ويكسبون نصيبا من السوق أكبر وأكبر، بينما يدفعون بالمنتجين قليلى التكلفة إلى خارج نطاق الأعمال، ليست هذه هى الطريقة التى يفترض أن تعمل بها الرأسمالية، لكن هذه هى الكيفية التى تبدو عليها فى مالى، وهى واحدة من البلدان العشر الأقل تطورا فى العالم، ومكان يعجز حتى عن تزويد شعبه بالعناية الصحية والتعليم الأساسيين، دع جانبا القدرة على مجاراة ما تقدمه الولايات المتحدة من دعم، وقد قدم تقرير حديث للبنك الدولى حسابا وضح أن إلغاء الدعم الذى تقدمه الولايات المتحدة سوف يخفض إنتاج الولايات المتحدة، ويؤدى إلى ارتفاع أسعار القطن العالمية؛ مما سوف يحقق مبلغ ٢٥٠ مليون دولار من الدخل الزائد إلى غرب ووسط بلدان إفريقيا – وهى ثروة فى منطقة يعيش فيها الكثيرون على دخل يقل عن دولار واحد فى اليوم(٨).

إن ما يسببه الدعم من تدمير يتجاوز تدمير مزارعى القطن الدوليين، إنه يدمر أيضا جهود الولايات المتحدة فى محاربة الفقر الكونى كعنصر أساسى فى الحرب على الإرهاب، لقد بدأت حكومة الولايات المتحدة تأكيد معونة التنمية المفتوحة، فى محاولة

لكسر حلقة البؤس وعدم الاستقرار التى تجعل العالم النامى قابلا لاستضافة مجموعات إرهابية، إن الولايات المتحدة تنفق، فى مالى مثلاً، ٤٠ مليون دولار سنويا على التعليم والصحة وبرامج تنموية أخرى(٩)، لكن هذا المبلغ تكاد تبطله كلية خسائر شركات القطن الحكومية، التى تصل إلى ٣٠ مليون دولار، سببها هبوط أسعار القطن الدولية، والنتيجة زيادة المرارة فى هذا البلد المسلم الخاضع للسيطرة، الذى يتكون من ١١ مليون شخص، يقول مودى ديالو، وهو قائد فى اتحاد المزارعين: "هذا هو ما تتجه إليه أمريكا، إنها تود أن تهيمن على العالم اقتصاديا وعسكريا." ولحسن الحظ فإن مثل تلك العاطفة لم تنفجر بعد فى موقف عملى، لكن مواطنى غربى إفريقيا الذين يجرى إفقارهم يحتشدون بصورة متزايدة فى البلدان الأوروبية، وهؤلاء الذين يتخلفون يرون المزيد من الملالى من باكستان والشرق الأوسط فى جوامعهم، وفى مدارس تحفيظ القرآن، بينما توجد تقارير عن ماليين وآخرين يذهبون إلى الخارج للتدريب الدينى، إن وجه العولمة، طبقا للنمط الأمريكى وحرية التجارة - ليس هو الأمل الذى يلهمه كولين باول لغرب إفريقيا. إنه وجه خشن مراءٍ، يلهم بالانجراف إلى الراديكالية وربما إلى الإرهاب، بالطبع تتجاوز تكلفة التعامل مع ذلك، إلى حد بعيد، أى شيء ينفق فى الدعم أو المعونة.

إن بكارى تراور مواطن من مالى يعمل رئيسا لشركة الدولة للأقطان، وهو يطرح حلا خلاقًا، إنه يقول: "قد يكون من الأفضل للولايات المتحدة أن تدفع لمزارعيها حتى لا يزرعون القطن". يقينا إنه على صواب، إن مزارعى الدلتا فى الحقيقة يمكن أن يزرعوا الأذرة وفول الصويا أو القمح بأسعار رخيصة إلى حد كبير للغاية، أكثر مما يزرعون القطن، إنهم بمثل تلك المحاصيل يستطيعون المنافسة فى الأسواق العالمية دون دعم، غير أن لدى إدهستر الإجابة على ذلك، "إننى أستطيع فقط، زراعة القطن وجنيه دون عائد"، وحيث إن لدى إد وزملائه، من مزارعى القطن، أصدقاء أقوياء فى لجنة قطن مجلس الشيوخ ومجلس نواب الولايات المتحدة؛ لذا فهنالك قليل من شك فى أنه سوف يزرع القطن ويقطفه دون عائد، لفترة من الزمن قادمة. كم سيكلف ذلك الولايات المتحدة والعالم، فى نهاية الأمر، الزمن وحده هو الذى سوف يقول ذلك.

إن تكاليف التعريفة الجمركية الطارئة التى فرضها بوش على الواردات العديدة لمنتجات الصلب، فى مارس ٢٠٠٢، ثم من ناحية أخرى، تعريفها وتحديدها، فى الحال وبدقة، إن نسبة ٣٠٪ تعريفة جمركية سوف ترفع التكاليف على من يستخدمون صلب الولايات المتحدة بقدر ٢ مليار دولار، بينما تخفض مبيعات وأرباح منتجى الصلب الأجنبى والمصدرين بقدر ٢٠٪[١٠]. ويجىء ذلك فى الوقت الذى تبذل فيه الجهود لبدء جولة جديدة من المفاوضات حول تحرير التجارة، تستهدف بداية جديدة للاقتصاد الكونى المنهار حينذاك، إن هذا الفعل القائم على حماية الإنتاج الوطنى أطلق العنان لعاصفة مشتعلة من النقد فى كل أركان المعمورة، فقد نُظر إليه باعتباره انتهاكًا لمبادئ التجارة الحرة تحديداً، التى كانت الولايات المتحدة تدفع إليها من أجل محادثات تحرير التجارة الجديدة، وكذلك كمثال آخر ترفض فيه الولايات المتحدة طلب حلفائها، وتعمل بطريقة أحادية خدمة لمصالحها الأنانية الخاصة بها. تلك كانت فعليا حالة يقوم فيها الرئيس بفعل الشىء الخاطئ من أجل أسباب صحيحة.

وقد أخذت صناعات بذاتها نتيجة ديناميكيات لا يمكن فى الغالب سبر غورها، أهمية رمزية خاصة، وصناعة الخطوط الجوية مثال جيد على ذلك. إن شركات الخطوط الجوية نادرا ما تحقق أرباحًا، لكن كل بلد لديه عمليا شركة سواء كان لذلك مغزى اقتصاديا أم لا، إن الأمر يبدو وكأنك لن تكون بلداً حقيقيا إن لم يكن لديك شركة طيران، والأمر كذلك فيما يتعلق بالصلب، لقد كان الصلب، جنبا إلى جنب، مع قوة البخار والسكك الحديدية - واحداً من عُمد الثورة الصناعية، وقد قادت بريطانيا العظمى العالم، خلال الجزء الأكبر من القرن التاسع عشر، فى إنتاج الصلب، وكانت تقيس تفوقها الصناعى، بقدر قيادتها مجال هذه السلعة الحيوية، وكانت ألمانيا هى أول من عملت على حماية صناعاتها، ثم جاءت الولايات المتحدة، حتى تتمكنا من اللحاق بتلك البريطانية، وعندما تحقق ذلك، نُظر إليه كعلامة على ظهور قوى جديدة، وعلى الهبوط البريطانى، ودخلت اليابان اللعبة فى أوائل القرن العشرين، وعمل مجتمع

الحديد والصلب، بعد الحرب العالمية الثانية، كرائد فى تكوين السوق الأوروبية المشتركة، وأخيرا، الاتحاد الأوروبى اليوم، وقد وعد رئيس الوزراء السوفيتى نيكيتا خروشوف، أثناء الحرب الباردة، بأن تدفن الشيوعية، الرأسمالية، بأشياء من بينها التفوق عليها فى صناعة الصلب، وتكاد كل دولة نامية من كوريا وماليزيا إلى المكسيك وبولندا - أن تكون قد أحست بضرورة قيام صناعة صلب كجزء من استراتيجيتها للتصنيع، وتبع ذلك استخدام العالم لقدر كبير من الطاقة الإنتاجية للصلب عبر المائة سنة الماضية.

ليس من اليسير إغلاق مصنع صلب إن كان قد بدأ الإنتاج، إن مصانع الصلب التى قد تصل تكلفة الواحد منها من ١ إلى ٢ مليار دولار - هى مصانع كثيفة رأس المال إلى أقصى حد، وهى صناعة ذات تكاليف محددة تصل من ٣٥ إلى ٤٠٪ من التكلفة الإجمالية لإنتاج الطن، ولذا فإنه بسبب معدل التكلفة الثابت المرتفع هذا، يكون إنتاج الصلب وبيعه عملا اقتصاديا، حتى لو كان ذلك بخسارة طفيفة، ما دام الدخل يغطى على الأقل جزءًا من التكاليف الثابتة، وتكمن وراء هذا حقيقة أن مصانع الصلب توظف العديد من الناس مباشرة، بل وأكثر، بصورة غير مباشرة، فى الصناعات التى تغذى وتخدم المصانع، من الشائع الحديث عن "مدن الصلب"؛ لأن مصنع الصلب غالبا ما يكون هو دم الحياة لمدينة أو منطقة بكاملها، يضاف إلى ذلك أنه باعتباره صناعة قديمة ذات جذور فى الحرب الطبقية خلال أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فإن الصلب فى كل مكان قوى نقابيا، فعال سياسيا، وبينما أضيفت مصانع جديدة فى مختلف الأماكن، عبر السنين، فإن المصانع القديمة لم تتجه إلى الإغلاق، إنها بدلا من ذلك ناضلت، وغالبا ما باعت بالخسارة، وشكلت فى كثير من أنحاء العالم، خارج الولايات المتحدة، كارتلات (اتحادات للمنتجين) حتى تدعم الأسعار، بينما تصبح أيضا المتلقى الحقيقى لدعم الحكومة، وأصبحت النتيجة تراكما للطاقة الإنتاجية يفيض بكثير عن الطلب الفعلى، وقد قدرت بعض التحليلات أن ثلث طاقة الإنتاج العالمى، التى تبلغ مليار طن من الصلب هى فائض عن الطلب[١١].

إن غالبية هذا الإنتاج الفائض قد وجدت، خلال العشرين سنة الماضية، طريقها إلى سوق الولايات المتحدة، وقادت تلك الحقيقة إلى العشرات من عمليات إفلاس مصانع الصلب بالولايات المتحدة، وإلى خسارة ١٨ مليون طن من الطاقة الإنتاجية القصوى، وتقليص قوة العمل في صناعة الصلب الأمريكية من ٤٥٩٠٠٠ عامل في عام ١٩٨٢ إلى ١٢٩٠٠٠ عامل اليوم[١٢]، ويكمن وراء هذه الإحصائيات المؤلمة عوامل ثلاثة كبرى: الانتفاح النسبى لسوق الولايات المتحدة، والافتقار النسبى لمساعدة حكومة الولايات المتحدة للصناعة، وخصوصيات نظام المعاش والرعاية الصحية، ورغم النقد الكثير لحمائية الولايات المتحدة، فالحقيقة أن الولايات المتحدة هى سوق النخبة للتصدير، إن دخولها حتى بخصوصياتها، أيسر بكثير من أى سوق آخر كبير، إن الإحصائيات التجارية تكشف عن ذلك بطريقة درامية، فبينما تحظى الواردات بـ ٢٤,١٪ من سوق الولايات المتحدة، فإن تلك النسبة تصل إلى ١٩,٣٪ فقط من سوق الاتحاد الأوروبى، و١٠٪ تافهة من السوق اليابانية[١٣]. هنالك سبب لهذا، وهو أن أوربا واليابان وبلدان أخرى تسيطر عليها ترتيبات عمل حميمة تستهدف التحكم فى الواردات، وتعمل من خلال اتحادات صناعية، ومجموعات من الشركات ذات علاقات تبادلية، وهنالك عامل آخر هو المساعدة الحكومية الكثيفة التى تقدم للعديد من صناعات الولايات المتحدة، غير صناعة الصلب، فى شكل حُقن من رأس المال العام، وامتصاص الديون، أو تدبير بنية تحتية ذات أهمية - كل ذلك بهدف تجديد القدرة التنافسية للشركات - وعامل أخير هو "تكاليف إرث" التقاعد والرعاية الصحية.

إن العديد من منتجى الصلب الولايات المتحدة، حتى بدون الحماية والمساعدة العامة التى يتلقاها منافسوهم الأجانب - يخفضون التكاليف بصورة درامية، ويحسنون الإنتاجية لتظل ذات قدرة تنافسية للمستهلكين فى سوق الولايات المتحدة (ازداد إنتاج الولايات المتحدة للعامل فى الساعة من ٧٠,٥ طنا عام ١٩٨٠ إلى ١٤٢,٩ عام

٢٠٠٢، مقارنة بـ ٦٧ و ١٢٧,٩ فى ألمانيا، و٦٢,٢ و١٤٣,٢ فى اليابان)[١٤]. تم تخفيض الإنتاج وتخفيض عدد العمال، غير أنهم كانوا يحملون عبء صكوك المعاشات والرعاية الصحية، التى ترتفع قيمتها أكثر فأكثر، مما جعلهم غير قادرين على المنافسة، إن الرعاية الصحية، والمعاشات تمول فى أغلب البلدان المنتجة للصلب، تمويلا عامًا، إن أصحاب العمل، فى الولايات المتحدة هم الذين يوفرون برامجها، بالطبع، وكانت تلك تشكل، فى صناعة الصلب جزءًا كبيرًا من العقود التى جرى التفاوض حولها بين الشركات و "عمال الصلب المتحدين"، ويواصل المتقاعدون فى ظل تلك الاتفاقيات، وكذا العمال الذين سرحوا هم وعائلاتهم تلقى معاش ذى مؤشر تضخمى، وفوائد الرعاية الصحية طوال حياتهم، إن مثل تلك الاتفاقيات، وتكلفتها الموروثة، غالبا ما تُحدد تحت ضغط ثقيل من حكومة الولايات المتحدة، حتى إن صناعة يعمل بها ١٣٩٠٠٠ عامل تكون محملة بصك معاش ورعاية صحية يعادل حجمها ضعفى أو ثلاثة أضعاف حجم صناعة أخرى، إن تلك التكاليف ليست فقط عبئًا ثقيلا، لكنها تتجه أيضا إلى كبح خطى يمكن أن تجعل الصناعة أكثر قدرة على المنافسة. كان الاتجاه الكونى يسير نحو اندماج مؤسسات فى أخرى، وتوفير تسهيلات إنتاج على مدى كبير للغاية، غير أن هذا لم يحدث إلى حد كبير للغاية فى الولايات المتحدة؛ حيث لا يمكن لشركة أن تضطلع بتكاليف أى شركة يمكن أن تنالها، ومن ثم، فإنه بينما يمكن أن يكون لاندماج "صلب الولايات المتحدة" و"صلب بيت لحم" مغزى اقتصاديا، فإنه لا يمكن حدوثه، ما دامت مشكلة تكاليف الإرث موجودة.

كان لدى حكومة الولايات المتحدة منذ زمن طويل، عند التعامل مع مشاكل تكيف صناعة الصلب – اختيار أن تتحرك لإدخال تعديلات متقدمة، لتأخذ على عاتقها تكاليف الإرث تلك، كما فعلت حكومات أخرى، أو أن تفرض تعريفة جمركية طارئة على الواردات الموجودة فى ظل قانون تجارة الولايات المتحدة لتكون سببا كبيرا للضرر الذى يقع على صناعة الولايات المتحدة، يجب على صناعة الولايات المتحدة أن تقدم،

فى ظل القانون، خطة إعادة تنشيط حتى تصبح مؤهلة للتعريفة الجمركية، إن مثل تلك الخطط تاريخيا لم تنجح عادة، على أى حال، وقدمت التعريفة الجمركية فقط نجدة مؤقتة من المنافسة منخفضة السعر. كان رفع التكاليف على من يقومون بالاستخدام، مثل شركات أدوات السيارات والآلات - مساعدا على جعل تلك الصناعات غير قادرة على المنافسة بالمثل، كما وقع الضرر أيضا على الاقتصاديات المصدرة، ومع ذلك لم يُفعل شىء يجعل الصناعة المحلية أكثر فاعلية.

كان من الواضح فى مارس ٢٠٠٢ أن الطريق المفضل كان يجب أن يكون أخذ حكومة الولايات المتحدة بعض تكاليف الإرث على عاتقها وجعل الصناعة أكثر قدرة على المنافسة، وقد قيل لى، فى اجتماع مع رئيس مجلس إدارة واحدة من شركات الصلب الكبرى بالولايات المتحدة: إن ذلك كان أيضا هو الطريق الذى يمكن أن تفضله الصناعة؛ لأنه سوف يسمح باندماج الشركات فى بعضها البعض، وإجراءات أخرى يمكن أن تضع الصناعة فى مصاف الأعلى منزلة ومكانة فى العالم، كما أخبرنى أيضا باسكال لامى، المفوض التجارى للاتحاد الأوروبى، وكذا مسئولون رسميون متعددون يابانيون أن أوربا أو اليابان لا يمكن لهما أن تعترضا على مثل تلك السياسة للولايات المتحدة، إن قرار إدارة بوش بفرض رسوم ضد الإغراق بدلا من ذلك، كان يرجع إلى رغبتها فى إدخال السرور على اتحادات الصلب، التى فضلت هذا الاختيار، كما يرجع إلى فلسفة سوقها الاقتصادية المتشددة الخاصة بتجنب أى شىء له نكهة سياسية اقتصادية. كان صحيحا، بصورة مؤكدة، إن هنالك استجابة لمشاكل الصناعة، إلا أن أسلوب الفعل تسبب فى رد فعل سلبى هائل فى الخارج، وأضر بمصداقية الولايات المتحدة التى كانت تطالب، فى ذات اللحظة، بمفاوضات جديدة لتحرير التجارة، وقد استجابت الولايات المتحدة لمشكلة سياسية بانتهاجها الطريق السهل للخروج، وتحميل التكاليف للبلدان المصدرة، فى انتهاك مباشر بعقيدتها هى عن حرية التجارة[١٥].

هنالك وجه آخر للعولمة، إنه ذلك الوجه الذى عرفته بطريقة حميمية، لقد تصادمت معه أولا عام ١٩٥٨، عندما أبحرت من نيويورك إلى أمستردام لقضاء وقت فى أوربا كطالب تبادلي، واستغرقت رحلتنا عشرة أيام، وتلك تعادل تقريبا سبع أو ثمانى ساعات سفر بالطائرة اليوم، أتذكر دهشتى وأنا أرى آلاف الدراجات الهوائية وهى تقف فى كل بقعة يمكن تصورها فى شوارع أمستردام وقنواتها، كنت فى السادسة عشرة من عمرى، وكنت قد حصلت للتو على أول سيارة لى منذ أشهر قليلة مضت. ومع ذلك، فحتى الجدات هنا كن يركبن دراجات هوائية، أخذت القطار من أمستردام إلى بازل فى سويسرا، وكنت باعتبارى حفيد رجل شارك فى إنشاء السكك الحديدية سعيدا أن أرى القطار تجره قاطرة بخارية، شىء لم أره البتة من قبل فى بلدى، واعتدت فى القرية السويسرية الصغيرة التى تقع عند سفح جبال الألب، حيث كان على أن أقيم، على المياه الساخنة وهى تنقطع وسط حمامى وأنا أغتسل، وتعلمت الذهاب إلى البقال للتسوق كل يوم؛ لأن الثلاجة كانت من الصغر الشديد بحيث لا تستطيع احتواء أكثر من التزود بغذاء يوم. لم تكن أوربا فى تلك الأيام فقيرة على شاكلة بلد نام، لكنها لم تكن كذلك غنية على شاكلة الولايات المتحدة.

وصلت اليابان لأتابع دراساتى الجامعية عام ١٩٦٤، تقريبا فى الوقت الذى أعلن فيه نورمان ماكرى، لأول مرة، عن "المعجزة" اليابانية فى الإيكونوميست؛ لم تكن دون شك تشبه معجزة بالنسبة لى، كان الانتقال، مرة أخرى، بالدراجة الهوائية أكثر منه بالسيارة. استأجرنا أنا وزوجتى ما دعاه أصدقاؤنا اليابانيون بالطابق "المترف". لم يكن به ماء ساخن، ولا حمام، ولا موقد مسطح، وكان التسخين يجرى بموقد يُشعل بالكيروسين، نمنا على فراش يفرد على الأرض بالليل، وذهبنا إلى الحمامات العامة، وغلينا حفاضات طفلنا فى دلو فوق شىء ما يشبه موقد بنسن. وارتدينا أقنعة من شاش لحماية أنفسنا من هواء طوكيو الضار بالصحة، لم نر البتة جبل فوجى حتى دُعينا إليه فى جولة للمشاهدة، وكان أصدقاؤنا اليابانيون يعملون ستة أيام فى

الأسبوع، ولا يأخذون إجازة البتة، ويعيشون فى أحوال تماثل تلك التى يدعوها الأمريكيون بالمخيمات. مرة أخرى، لم تكن اليابان فقيرة حقا، لكنها لم تكن ثرية مثل أوربا تقريبا، فما البال بالولايات المتحدة.

وعدت بعد سنتين إلى هولندا باعتبارى نائب القنصل، فى قنصلية الولايات المتحدة فى روتردام، لقد أوجدت ثمانى سنوات فرقا مثيرا للدهشة، كانت الدراجات الهوائية قد خرجت، ودخلت الدراجات البخارية الصغيرة والسيارات، وتحولت كل القطارات إلى قاطرات ديزل أو كهربائية، وكان النمو الصناعى السريع يعمل على توفير تدفئة مركزية فى المنازل، بعد تطوير حقول الغاز فى أوربا الشمالية، وكانت مخازن البقالة الصغيرة الجذابة تفسح الطريق للسوبرماركتات، وسرعان ما أدركت العامل الكبير الكامن وراء هذا التطور السريع للثروة، وقد أخبرنى "القنصل العام"، أن مهامى سوف تكون تعزيز الاستثمار الأمريكى فى الأراضى الواطئة، والصادرات الهولندية إلى الولايات المتحدة، محافظا على متابعة التطورات فى ميناء نوتردام، لم تكن تدعى عولمة حينئذ، وكان الكتاب الأفضل بيعا للكاتب الفرنسي جان جاك سرفان سكريبر وعنوانه "التحدى الأمريكى"، وبغض النظر عما كانت تُسمى، فقد كانت روتردام أكبر ميناء فى العالم؛ حيث أدى تدفق رأس المال الاستثمارى إلى أوربا، إلى خلق مصانع امتصت المواد الخام، وشحنت بالسفن، سلع كاملة إلى سوق الولايات المتحدة الهائل، إن التجارة والاستثمار الدوليين قد جعلا الهولنديين، وأوربيين آخرين أثرياء حقا - على منوال الولايات المتحدة.

كنت أعيش فى بروكسل، بلجيكا، عام ١٩٧٢، كمدير للتسويق الأوروبى لشركة سكوت للورق وبينما كنت أناضل لوضع خطة تسويق موحدة للعمليات الوطنية المختلفة لشركة سكوت فى أوربا، أحسست بتعاطف وإعجاب شديد بالقادة الأوربيين الذين كانوا يستخدمون قوة الرأسمالية الكونية لتشكيل قوة اقتصادية أوربية جديدة كلية، وعدت ثانية إلى اليابان عام ١٩٧٦ حيث اكتشفت أن فكرى كان على صواب، فيما يتعلق بالمعجزة، على أى حال كان المرور مستحيلا، الحمامات العامة كانت تخرج من

نطاق الأعمال، حيث ركب الناس حماماتهم الخاصة فى منازلهم، وانخفضت ساعات العمل الأسبوعى إلى خمس ونصف يومًا . وقد علق جون فورستر دالاس، وزير الخارجية السابق، بأن اليابانيين لم يستطيعوا صناعة أى شىء يمكن أن يشتريه الأمريكيون، ولكن كان لليابان فائض تجارى كبير ومتنامى مع الولايات المتحدة، وقد تباهى أحد أصدقائى فى سفارة الولايات المتحدة فى طوكيو، بأنه قام بعمل عزز الصادرات اليابانية إلى سوق الولايات المتحدة أفضل من ذلك الذى قمت به لتعزيز الصادرات الهولندية.

وأصبحت بمرور الوقت مفاوضا تجاريا فى إدارة ريجان، لقد نما العجز التجارى مع اليابان إلى ١٥,٨ مليار دولار وكان العجز التجارى الكلى للولايات المتحدة يتجه إلى مستوى غير مسبوق، مستوى ٢٧ مليار دولار سنويا[١٦]، وقد قال العديد من المحللين : إن هذا العجز لا يمكن بقاؤه طويلا. وأخبرنى سكرتير "كوميرس مالكوم بالدريج": إن وظيفتى هى تخفيض هذا العجز. وفى عام ١٩٨٦، عندما بلغ العجز مع اليابان ٥٥ مليار دولار، كان العجز الكلى قد صعد إلى ١٥٠ مليار دولار سنويا، وكان من الواضح أننى قد فشلت. وتركت الإدارة لأجرب حظى فى كتابة كتاب عن المفاوضات التجارية، لم أكن أتصور أن يصل العجز التجارى للولايات المتحدة (فنيا عجز الحساب الجارى) إلى معدل سنوى يقارب ٥٠٠ مليار دولار عند نهاية عام ٢٠٠٢، إن لهذا الرقم أهمية هائلة من عدة أوجه، لكنه قبل كل شىء مقياس كيف ساهمت أمريكا، وهى تعمل من خلال العولمة فى إثراء جزء كبير من العالم.

إن هذا لم يحدث صدفة، فقد صممت الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية، على تجنب الأخطاء التى جاءت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، وتبنت خطا سياسيا يمكن أن يسمى اليوم "بناء الأمة"، وقدم "مشروع مارشال" ما يعادل أكثر من ٩٠ مليار دولار، قياسا على أسعار اليوم، وذلك للمساعدة فى إعادة بناء أوروبا، وكان "مشروع دودج" قد وُضع ببراعة لتقف اليابان من جديد على قدميها[١٧]، وقد شُكل صندوق النقد الدولى، وكان الدولار هو حجر الزاوية فيه، لضمان أسواق مالية عالمية

مستقرة، بينما تأسس البنك الدولى ليقدم التمويل الأساسى للبلدان النامية، وكانت الولايات المتحدة وستظل المساهم الأكبر فى المؤسستين، وربما كانت الأكثر أهمية هى "الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة" (الجات) التى ألزمت أمريكا وحلفاءها الكبار بتخفيض التعريفات وتحقيق التجارة الحرة على أسس كونية حقيقية، وقادت الولايات المتحدة، بدأب "جولة جنيف" الخاصة بالمحادثات التجارية عام ١٩٤٧، وتواصلُها حتى "جولة أوروجواى"، التى اختتمت عام ١٩٩٤، وقادت الولايات المتحدة العالم الصناعى من أجل تخفيض التعريفات والحواجز التجارية الرسمية إلى حد ضئيل وتافه، وغدت التجارة الحرة، خلال هذا الوقت، تبادلية إلى حد كبير، على الأقل بين الدول المتطورة، غير أن الولايات المتحدة خفضت تعريفاتها بشدة فى البداية، دون أن تطلب من شركائها فى التجارة، فى أوربا واليابان - التبادلية أو التعامل بالمثل - إن الولايات المتحدة، وهذا أمر هام للغاية، أبقت على قيمة الدولار ثابتة مدة خمسة وعشرين عاما، بينما خفض التعافى السريع وتطور شركائها التجاريين من الدور القيادى للإنتاجية الأمريكية الهائلة، فيما بعد الحرب مباشرة. وأخيرا، حثت حكومة الولايات المتحدة الصناعة الأمريكية على المساعدة فى الجهود التنموية، وذلك بالاستثمار فى الخارج، من خلال تخفيض سعر التقنية وزيادة الواردات، ويقول روبرت جالفين، الرئيس السابق لموتورولا: إن الرئيس إيزنهاور حثه عام ١٩٥٧ على محاولة زيادة الواردات من اليابان، وذلك للمعاونة فى تقوية اقتصادها، ومن أجل توطيد تحالفها مع الولايات المتحدة.

وكانت أوربا نجم التصدير المبكر؛ حيث حصلت سيارة "البيتل" من صنع شركة فولكس فاجن الشهيرة، على نسبة غير مسبوقة من سوق سيارات الولايات المتحدة عام ١٩٥٨، وهى نسبة ٥٪، وكذلك أى دراجة ذات مبدل للسرعة وإطارات نحيلة، التى كانت تعرف بـ "الدراجة البريطانية"[١٨]. غير أن اليابان استطاعت، بمعاونة أناس مثل جالفين أن تلحق بالركب سريعا، وتبنت بشكل خاص استراتيجية نمو يقوده التصدير، وفى عام ١٩٦٤، عندما وصلت إلى طوكيو، كان للشركات اليابانية بالفعل

أنصبة كبيرة فى أسواق استهلاك الإليكترونيات الأمريكية، كانوا يتحركون بسرعة نحو السيطرة، وجاءت السيارات اليابانية فيما بعد، لكن النسيج والصلب وعناصر مكونات واردة من اليابان - كانت تحل محل مصانع الولايات المتحدة؛ مما تسبب فى نزاعات تجارية حادة.

وباقى القصة معروف جيداً - أدركت اليابان الركب، وتفوقت على الولايات المتحدة، فى قطاعات صناعية وتكنولوجية أساسية وعديدة، وهى تتمتع اليوم بدخل لكل فرد؛ اعتماداً على سعر الصرف، أكبر أحيانا من ذلك الذى فى الولايات المتحدة، وسرعان ما تعلمت كوريا وتايوان وهونج كونج وسنغافورة وماليزيا تقليد اليابان، ثم أضافت تلك البلدان وسيلة جديدة، توددت إلى المستثمر الأجنبى، وأغرت الشركات الأجنبية وغيرها بأن تستفيد من التكلفة المنخفضة بوضع المصانع داخل حدودها، وسرعان ما بدأ العالم يتحدث عن "النمور الآسيوية" و"التنانين"، وقد أدت "اتفاقية أمريكا الشمالية للتجارة الحرة" (النافتا)، وهى الاتفاقية الأكثر قربا، إلى ١٢٧٪ زيادة فى صادرات المكسيك، وجعلتها الشريك التجارى الأكبر الثانى (بعد كندا)، وهدف كبير لاستثمارات الولايات المتحدة[١٩]. ونحن إن أخذنا الاقتصاد العالمى ككل، خلال الخمسين سنة الماضية، فإن التجارة المحررة كانت عاملا كبيرا للنمو، مع زيادة الصادرات والواردات أكثر من مائة ضعف، بينما زاد الناتج المحلى الإجمالى ٤٪ سنويا[٢٠]. يضاف إلى ذلك أن صعود الصين والهند إلى مراتب الاقتصاديات التصنيعية الجديدة - قد أحدث أثرا كبيرا فى مستويات الفقر العالمية، إن ملايين الناس فى هذين البلدين اللذين يعتبران من أكثر بلدان العالم كثافة سكانية، تحركوا إلى أعلى، عن الدخل اليومى المقدر بدولارين، وهو الدخل الذى يحدد أقصى حالات الفقر، لا يمكن التأكيد بما يكفى أن مساهمات أمريكا إلى هؤلاء كانت أساسية ولا غنى عنها: إن الولايات المتحدة تمتص ٢٥٪ من الصادرات الآسيوية، ٦٠٪ من أمريكا اللاتينية، مع عجزها التجارى الهائل، وهى السبب المباشر أو غير المباشر لـ ٣٥٪ من إجمالى الاستثمار الكونى فى مصانع من البلدان النامية[٢١]. هل يمكن للعولمة أن تكون جيدة لغير الأمريكيين؟ دون شك. هل هى منظمة لتصل بالرفاهية الكونية إلى أقصاها؟ دعونا نرى.

غير أن أمريكا تملك صندوق الرمال

وُضعت أسس النظام الاقتصادى الكونى اليوم، عام ١٩٤٤، فى منتجع بريتون وودز فى نيوهامبشاير؛ حيث توصل الحلفاء إلى اتفاق حول العناصر الرئيسية للهيكل المالى الذى سيقام عند نهاية الحرب العالمية الثانية، كان تفادى تكرار السياسة التجارية الحمائية "سياسة إفقار الجار"، وتخفيضات قيمة العملة التنافسية التى جاءت بكارثة "الركود الاقتصادى العظيم"، ونهوض الفاشية، وأصرت الولايات المتحدة وبريطانيا فى بريتون وودز على ضرورة اعتماد النظام العالمى الجديد على قواعد عالمية من أجل غرض الانفتاح، وردود فعل تبادلية يتم الاتفاق عليها، فى حالة صعوبات بذاتها، ومن هنا جاء إنشاء صندوق النقد الدولى كحكم للنظام الجديد، وإنشاء البنك الدولى كآلية تمويل متعددة الأطراف لتنمية بلدان العالم الثالث، وأصرت الولايات المتحدة على أن تحظى بحقوق تصويت حاسمة فى المؤسستين، وقد مُنحت لها تلك الحقوق.

وثار نقاش حانق كبير حول طبيعة نظام الدفع العالمى الجديد، وفيه حث الاقتصادى البريطانى الكبير جون مايتارد كيتس على إيجاد عملة عالمية جديدة يمكن دعمها بالذهب وتدعى "بانكور"، وكان منطق كيتس أن مثل تلك العملة سوف تحل محل كل أعضاء النظام، على قدم المساواة، كان الهدف هو جعل النظام يعمل فى توازن، ومن ثم، فإن بدأ بلد فى مواجهة عجز تجارى، فإنه بدلا من تخفيض قيمة عملته، سوف يجبر على تبنى إجراءات صارمة فى وطنه يمكن أن تجعله قادراً على شق طريقه خروجا من الصعوبة، التى واجهها، يمكن لصندوق النقد الدولى أن يسهل هذه التسوية، بتقديم قروض انتقالية بدلا من البرامج الصارمة، كما اقترح أيضا أن البلدان التى تحقق فائضا تجاريا تتبنى سياسات تحرك اقتصادياتها، وفرض تعريفات مؤقتة على صادراتها، يجب تنظيم تدفق رؤوس الأموال بين البلدان بصرامة حتى يمكن لسياسات سعر الفائدة الوطنى أن تعمل على تكيف الاقتصاديات المحلية بصورة فاعلة.

وفى النهاية، أصرت الولايات المتحدة على أن يكون الدولار وليس البانكور هو العملة العالمية؛ إذ يمكن أن يكون قابلاً للتحويل بحرية إلى ذهب عند سعر محدد، فى حين أن كل العملات الأخرى يمكن ربطها بالدولار عند سعر محدد. إن تغييرات فى أسعار العملة يمكن أن تحدث فقط من خلال اتفاقية مع صندوق النقد الدولى، وذلك يعنى مع الولايات المتحدة فى الواقع. إن ضوابط رأس المال (والتى قيدت فرص العمل المصرفى العالمى) كانت أيضا جزءا من الاتفاقية النهائية، غير أن التعريفات المؤقتة، على البلدان التى لديها فائض تجارى، تم التخلى عنها. يجب على البلدان التى تعانى عجزا، أن يُفرض عليها التكيف بطريقة أوتوماتيكية، ما دامت تحتاج إلى تمويل عجزها بالحصول على قروض انتقالية من صندوق النقد الدولى - أو هكذا بدا الأمر فى ذلك الوقت.

ونجح النظام الجديد متجاوزا كل التوقعات، وحلقت التجارة العالمية عالميا عندما هبطت التعريفات بنسبة ٧٣٪ ما بين عامى ١٩٤٧ و١٩٦١ وتعافت أوربا واليابان سريعًا إلى حد بدا إعجازيا[٢٢]، وتحولت فوائض التجارة الأمريكية الهائلة، فى أوائل الستينيات، فى سنوات ما بعد الحرب مباشرة إلى عجز متنام بطريقة لا رحمة فيها، فى الوقت الذى جعلت فيه الإنتاجية الصاعدة للاقتصاديات الأوربية واليابانية البضائع التى تنتجها تمتلك قدرة تنافسية فى سوق الولايات المتحدة المفتوح الآن نسبيًا، لقد أصرت أمريكا على الدولار كالعملة الدولية؛ لأن هذا يعطينا ميزة الدفع لكل ما نريده بعملتنا نحن - ومع ذلك كشف العجز عن بعض الصعوبات غير المتوقعة - لم يكن هنالك، بدون التعريفات على فائض صادرات البلدان التى اقترحها كينس، أى ضغط عليها لرفع قيمة عملاتها أو تخفيض الصادرات، وبدأت تلك البلدان فى تكديس أكوام كبرى من الدولارات فى صناديقها.

لقد حققوا بفاعلية احتياطيات إضافية فى الأنظمة المصرفية لبلدان الفائض، فاتجهت تلك الدولارات لإطلاق الإمدادات النقدية وتحريك التضخم، وقد ثُمن العجز التجارى للولايات المتحدة بالدولار، وكان ذلك فى الحقيقة تصديرا للتضخم، ومثالاً على

هروب الولايات المتحدة من الترتيبات التى تُطبق على كل الآخرين داخل النظام، لكن كان هنالك علاج، كان مقابل قبول الدولار كالوحدة الدولية للدفع هو وعد من الولايات المتحدة أن تحافظ على قيمته فى مواجهة الذهب، وأن تجعل من الممكن تحويله بحرية إلى الذهب بسعر محدد، وبدأت بعض البلدان بقيادة فرنسا تحويل دولاراتها إلى ذهب، وذبلت احتياطيات الولايات المتحدة من الذهب خلال الستينيات، وواجهت الولايات المتحدة بالاختيار شديد الألم ما بين الحفاظ على النظام بإذعانها لذات القواعد، مثلها مثل البلدان الأخرى، وتبنى إجراءات صارمة محلية، أو التخلص من النظام، واختارت الولايات المتحدة التخلص من النظام، يضاف إلى ذلك أنها استمدت من قوتها العظمى ميزة أن تفعل ذلك بطريقة أحادية، وكان السعى لسداد تكاليف الحرب فى فيتنام والبرامج المحلية "للمجتمع العظيم"، دون زيادة فى الضرائب؛ مما أدى إلى تضخم اقتصاد الولايات المتحدة، دون إمكانية تجنب ذلك، وغدا الضغط على المدفوعات الدولية غير محتمل. وفى ٢ مارس ١٩٧١، علق الرئيس نيكسون، ببساطة، إمكانية تحويل الدولار إلى ذهب، وأوجد هذا كأمر واقع قاعدة الدولار بدلا من قاعدة تبادل الذهب، وجُعل الدولار عملة العالم الإلزامية، دون أن تتحمل الولايات المتحدة أى التزامات أمام باقى العالم، إن عملات بلدان أخرى يمكن أن تعوم فى مواجهة الدولار، ويمكن لاقتصادياتها أن تتكيف طبقا لأهواء السياسات الاقتصادية للولايات المتحدة، ورُفعت على أى حال الضوابط التى على رأس المال، فى يوم رأس سنة ١٩٧٤ , وأصبح فى وسع الولايات المتحدة بحق أن تشترى كل ما تريد بنقودها هى دون نتائج عليها أو التزاما لغيرها، وكانت هذه حرية حقيقية، أما بالنسبة لباقى العالم فإن جون كونالى، وزير الخزانة، أمسك بطريقة مثالية، بوجهة النظر الأمريكية عندما قال: "كان لدينا مشكلة ونحن نتقاسمها مع باقى العالم - تماما مثلما تشاركنا فى رفاهيتنا، ذلك هو ما وُجد الأصدقاء من أجله".

إن القدرة غير المحدودة عمليا، لطباعة نقود العالم منحت أمريكا ميزات هائلة فى تشكيل إطار العولمة - والأكثر أهمية أنها سمحت لأمريكا كى تصبح المستهلك الدولى

لآخر ملاذ ومأوى: إن فى وسعنا نسيان ما يخص الادخار، وتحقيق عجز تجارى متواصل، فحيثما يتوجب على البلدان الأخرى المحافظة على تجارتها متوازنة، عبر الوقت، بصورة أم أخرى، وأن تستهلك، تقريبا، بنفس قدر ما تنتج، فإن الولايات المتحدة ليس عليها أن تبيع أى شىء حتى تشترى. إن فى وسعها ببساطة طبع دولارات، إن قاعدة الدولار يسرت أيضا وبصورة كبيرة استثمارات شركات الولايات المتحدة عبر البحار، وسمحت للولايات المتحدة أن تقع فى عجز تراكمى فى الحساب الجارى بحوالى ٦ تريليون دولار، بينما تستثمر تراكميا حوالى ١,١ تريليون دولار فى الخارج، عند نهاية القرن العشرين(٢٣).

غير أن الدولار لم يكن هو أداة أمريكا الوحيدة، إن الحجم الكلى للسوق الأمريكى، وانتشار اللغة الإنجليزية باعتبارها لغة الفرنجة، والقوة العسكرية الضخمة، قد عملت جنبًا إلى جنب مع الدولار لتضع أمريكا فى مقعد سائق العولمة، خذ صناعة السينما وإذاعة التليفاز، لو كنت صانع أفلام أمريكية أو مذيعًا، فإنك تبدأ بمستمعين محليين محتملين يبلغون ٢٨٠ مليونا من الناس، مقارنة بحوالى ٦٠ مليونا إذا كنت فرنسيا، و٨٠ مليونا إن كنت ألمانيا. بالطبع، لو كنت صينيا أو هنديا، فإن فى وسعك الاعتماد على البلايين. غير أن المستمعين إليك سوف يكونون محليين بصورة تامة. وأنت باعتبارك أمريكيا، يمكنك على أى حال، الاعتماد أيضا على البلايين، أناس من كل أنحاء العالم، لغتهم الثانية هى اللغة الإنجليزية، وهم جزء من سوقك المحتمل، بالإضافة إلى المشاهدين من الولايات المتحدة. ليس هنالك ما يثير الدهشة فى صناعة الأمريكيين لأفلام، وعروض تلفازية وتسجيلات أكثر من أى أناس آخرين، وقد أصبحت ثقافة البوب الأمريكية منتشرة كونيا.

وتطبق ديناميكيات أخرى، فى مناطق أخرى، إن قوة الولايات المتحدة العسكرية تعنى أن أمريكا تتجاوز، بما لا يقاس، قمة موردى السلاح فى العالم. إلا أن ذلك قد وفر أيضا تدفقا هائلا من الموارد ليدعم القيادة التكنولوجية الأمريكية، إن الإنترنت مثلا نشأت فى الأصل كشبكة "وكالة مشروعات البحث المتقدم" (إيه آر بى إيه) شبكة

لإدارة الدفاع، إن هذا التطور الوحيد الذى بدأ منذ خمسة وعشرين عاما مضت، يعنى أن ٧٥٪ من مرور الإنترنت الكونى اليوم، يحول عبر الولايات المتحدة، ويوجه فى نقطة ما بواسطة شركات تشغيل أمريكية[٢٤]، وأخيراً فإن القوة العسكرية للولايات المتحدة تقوى دور الدولار بجعل أمريكا هى الملاذ الأكثر أمانا، ورغم أنها تسبح فى الدولارات، فإن العالم يواصل الاحتفاظ بها؛ لأنه أين لك أن تضع نقودك، وقت الشك وعدم اليقين؟

إن المفاوض الأمريكى، مثلى، يحدد مجال اللعب، من موقع القوة هذا. لقد كسبت الولايات المتحدة، مبكرا فى اللعبة، كسبت إعفاءات من قواعد التجارة الحرة، للحساسية السياسية لأسواقها الزراعية، وأسواق المنسوجات، مما سمح لها، بصورة مؤثرة أن تظل محمية للغاية، وقد افترض مفاوضو الولايات المتحدة، فى العشرين سنة الأولى، بعد تأسيس الجات – أن صناعاتها الأخرى هى الأعلى تنافسية، وأن أسواقها مفتوحة بحرية، دون فتح تبادلى من الشركاء التجاريين، وتدفقت الواردات – على أى حال – فى أواخر السبعينيات، فتصلب الدبلوماسيون الأمريكيون فى موقفهم، وطالبوا صناعات مثل السيارات والتلفاز الملون بقيود "طوعية" من المصدرين مثل اليابان، وأوضحوا بقوة أن إقامة مصانع فى الولايات المتحدة سوف يكون اتجاها حكيما للعمل، كانت هذه طريقة فظة ومرائية لمواصلة ممارسة فضيلة السوق الحرة التى تتمتع بالثمار المحرمة للحمائية، بالطبع، غضب شركاؤنا التجاريون إلا أن الخيارات التى كانت أمامهم قليلة، كان المستهلك الأمريكى حتى وإن بدا مقيدا هو الشارى الرئيسى فى المدينة، وكان كل المصدرين، على أى حال، فى حاجة إلى قوى الولايات المتحدة المتجمعة عبر الأفق لحمايتهم، وخدمت هذه الأحجية بصورة أكبر فى كبح ضغوط الجمهور السياسى الأمريكى الذى كان يفقد وظائفه حتى يستورد ضغوطًا من أجل إجراءات حمائية.

كان الطريق المفضل لمفاوضى الولايات المتحدة هو الدفع بقوة من أجل فتح الأسواق الأجنبية، ووضع قواعد تخدم بشكل خاص الصناعات الأمريكية والشركات

القادرة على التنافس (أو ذات قوة مؤثرة)، كانت هذه سياسة عاقلة، غير أن تحقيقها يمكن أن يقود إلى نتائج غريبة متنقلة، الولايات المتحدة ترفض كموقف مبدئى أى مفهوم عن السياسة الصناعية أو الاستراتيجية الاقتصادية، ولذا فإن أجندتها التفاوضية مصممة، إلى حد كبير، على نحو يقوم على المصادفة أو تحت ضغط كثيف للشركات، ومن ثم، فإن صناعة الطباق، فى الولايات المتحدة، ومنتجاتها ذات قدرة تنافسية عالية، وهى تحث الممثل التجارى للولايات المتحدة ، على فتح الأسواق الكونية أمام الطباق الأمريكى، حتى وإن كان المحامى العام يقاضى تلك الصناعة، لتضليلها الرأى العام عن الآثار السرطانية للتدخين، ويعجب بعض المعلقين: لماذا تود الولايات المتحدة تصدير السرطان.

وقد شكلت الملكية الفكرية مجالا آخر لتشدد كبير، إن هذا المفهوم كله غربى بشكل واضح، إن وجهة نظر الكثير من بلدان العالم الأخرى هى أننا نقف فقط فوق أكتاف هؤلاء الذين ذهبوا من قبلنا، ومن ثم، فإنه يُنظر إلى فكرة أنه يمكننى بمفردى تماما أن أخترع وأمتلك فكرة بذاتها، باعتبارها فكرة أنانية، ومع ذلك، فإنها قوام حياة الصناعة عالية التكنولوجيا فى الولايات المتحدة، وقد جعلها مفاوضو الولايات المتحدة ذات أولوية عالية، من أجل دمج الحماية القوية لبراءة الاختراع، وحق التأليف والنشر، فى قواعد التجارة الدولية وفرضها بصرامة، ولنأخذ مثالا آخر عن الشركات التى تصنع منتجات استراتيجية مثل الطائرات وشبه الموصلات، والتى هى هدف لاحتياجات الاستثمار حتى إن بعض البلدان النامية تحاول فرضها كشرط للبيع فى أسواقها، وقد نجح مفاوضو الولايات المتحدة فى حظر تلك الحاجيات المندمجة فى قواعد التجارة الكونية، ووقعت حالة أخرى أظهرت فيها دبلوماسية الولايات المتحدة مهارتها، فى أواخر الثمانينيات، عندما بدت البنوك اليابانية، وكأنها سوف تهرب ومعها المخزون العالمى - إذ قادت خزانة الولايات المتحدة مفاوضات "اتفاق بازل" الذى طلب فيه من البنوك زيادة رأس المال الأساسى فى ميزانياتها العمومية، إن هذا لم يسو فقط ملعب بنوك الولايات المتحدة والملتصقة إلى حد نموذجى بالحاجات الأعلى لرأس

المال، أكثر من البنوك اليابانية، كما أغرت أيضا عملية شراء حقيقية لأوراق الخزانة المالية، في وقت كانت فيه الولايات المتحدة في حاجة ملحة لتمويل عجزها.

جاءت لحظة في الثمانينيات بدا فيها أن اليابان توشك على أخذ اللعبة من الولايات المتحدة؛ إذ بالإضافة إلى بنوكها، أمسكت إليكترونياتها وسياراتها وصلبها ومصانع الآلات فيها، بزمام القيادة في الأسواق العالمية الأساسية، ولكن حدث في "اتفاق بلازا" عام ١٩٨٥ (فندق بلازا بنيويورك، حيث اختتم الاتفاق) أن أقنعت الولايات المتحدة، اليابان، بإعادة تقييم الين، وإدخال سلسلة من الأحداث المتلاحقة التي أنتجت في النهاية الفقاعة اليابانية عام ١٩٩٢. ذلك جنبا إلى جنب مع نهاية الحرب الباردة، والصعود البراق لأسواق الأوراق المالية الأمريكانية في التسعينيات؛ مما محا أي شك فيمن كانت اللعبة لعبته، إن النزاع الذي أثاره فوكوياما بمقولته عن نهاية التاريخ التي ربطتها الديمقراطية الليبرالية بالسوق الرأسمالي - قد برهن أنها ذاتها هي النموذج الوطني الذي قدم نتيجة طبيعية هامة: إن الشكل الأمريكي للسوق الرأسمالي هو تحديدا الذي يمكن أن يخدم كمثال يمكن أن يتجاهله الآخرون فقط، عندما يحيق بهم الخطر، إن الغرض الطاغي للشركة، في هذا النموذج، هو الوصول بعوائد حملة الأسهم إلى أقصى حد، إن مصالح الإدارة، تقف جنبا إلى جنب، مع تلك التي لحملة الأسهم عبر مِنح سخية لخيارات الأوراق المالية، التي ترفع مكافأة الإدارة إلى أكثر من ٤٠٠ ضعف عمال الإنتاج (مقارنة بـ ٤٠ ضعفا عام ١٩٨٠)؛ ذلك لأن المديرين الكبار هم نظراء كبار نجوم الرياضة في عالم العمل[٢٥]، إن دور الحكومة هو إلغاء القيود والقواعد المُنظمة، والخصخصة، وإفساح الطريق. وفوق كل شيء يُنظر إلى السوق الحر غير المقيد باعتباره أفضل موزع للموارد، ووسيلة للتنمية.

وقد حقق هذا النموذج، نموا إنتاجيا قدر بـ ٣٢٪. وبدا أنه قد أبطل دورة عمل التسعينيات، وأمد "إجماع واشنطن" السابق ذكره، بدعم قوي، ظهر كوجهة نظر مهيمنة، لأفضل طريق لثراء البلدان النامية. يجب على البلدان النامية أن تفتح من هذا المنظور أسواقها للتجارة الحرة، وتحرر أنظمتها المالية لتشجع التدفق الحر

لرأسمالها، وتخصخص وتلغي القيود والقواعد المنظمة، وتحافظ على مستويات عالية من الادخار والاستثمار، وتبقي على أسعار الصرف مستقرة حتى يمكن جذب الاستثمار الأجنبي، وعندما ثارت الأزمات، مثل تلك التى حدثت فى آسيا عام ١٩٩٧، فإن رد فعل صندوق النقد الدولي الغريزي الأول، كان محاولة الحفاظ على قيمة العملة بغرض التقشف، وأسعار صرف عالية، كشرط لمنح قروض طوارئ، وبعيدا عن توفير الاستقرار للنظام، فإن صندوق النقد الدولي، غدا الواضع لوجهات النظر المتشددة لـ "إجماع واشنطن"، موضع التنفيذ، وغدت العولمة تعني بوضوح الأمركة، وما الذى كان خطأ فى ذلك؟ وقد كتب فريدمان عام ١٩٩٦ أن البلدان التى كانت لديها مطاعم مكدونالد- لم تتحارب البتة[٢٦]، (هذا بالطبع لم يعد صحيحا)، إن العولمة باعتبارها الأمركة كان المفروض فيها أن تقود إلى معايير صاعدة تؤدى إلى الديمقراطية، التى يجب أن تقود إلى السلم والاستقرار الكونيين.

رد فعل معاكس قوى

حدث فى سياتل، خلال أسبوع ٢٩ نوفمبر ١٩٩٩، عدة أشياء، غير أن السلم والاستقرار لم يكونا من بينها، وقفت فى "سبرينج ستريت" منفعلا إلى حد الاختناق من الغاز المسيل للدموع، وأنا أراقب المحتجين ضد العولمة يحطمون نوافذ الحوانيت، ويوبخون الشرطة بطريقة ساخرة، كان أغلب وزراء التجارة فى تلك الأثناء يحتشدون فى اتفاقية سياتل، والمركز التجارى، يحاولون عقد دورة جديدة من محادثات التجارة الدولية، كان هذا هو الاجتماع الأول الكبير لـ "منظمة التجارة العالمية" (دبليو تى إيه)، التى أنشئت خلفا للجات فى نهاية الجولة الأخيرة للمحادثات التجارية عام ١٩٩٤.

كان عدد قليل فقط من المتحمسين يعرفون، عندما كانت تجرى محادثات تجارية، غير أن العولمة غدت موضوعا هاما، حتى إن حوالى ٥٠٠٠٠ محتج

اتجهوا إلى نقطة واحدة بمناسبة هذا الاجتماع، ليعبروا عن همومهم، مر أمامى حشد يائس من حلفاء غير واعدين، عمال يتسمون بالفظاظة من أحواض السفن، وقرب مصانع البوينج، يصرخون "سائقو الشاحنات يحبون السلاحف"، والمدافعون عن البيئة يرتدون أردية جماعة "أنقذوا السلاحف"، وطلبة الكليات الذين يبحثون عن قضية التحقوا بيساريين محترفين فى إدانة استغلال الشركات، حتى عندما فضحت أحذيتهم "النايكى"(*) انتماءهم، وكان هنالك على الجانب الآخر ممثلو البلدان النامية الذين يشتكون من أن الكونى يميل بطريقة جائرة صوب خدمة مصالح الدول المتطورة، وقد قال وزير تجارة من العالم الثالث فى مرارة: إنه والكثيرون من زملائه لم يستطيعوا حتى أن يدخلوا فى غالبية دورات المفاوضات، وقد أخفق الاجتماع، فى النهاية، فيما يتعلق بموضوع الدعم الغذائى فى البلدان المتطورة، غير أن ذلك الإخفاق لم يحدث إلا بعد أن جعل الاجتماع العالم يتنبه إلى أن الطريق إلى العولمة قد يكون صخريا للغاية.

ورغم أن هنالك تفكيرا واسعا يقول: إن البلدان المتطورة هى أكثر المستفيدين بالعولمة، فإن بعضا من المعارضين لها يجىء من التنظيمات العمالية، إن النقابات العمالية ترى فى العولمة ما يهدد مكاسبها التى تحققت بنضال صلب، وذلك لتمكين الرأسمالية من التهرب من القواعد والمؤسسات التى أنشأتها الحكومات الوطنية، عبر السنين، لترويضها، إن حقيقة إمكان استفادة بلد ما من العولمة، بمعنى عام، لا يعنى أنه ليس هنالك خاسرون. ومثال ذلك، واردات الملابس الرخيصة إلى الولايات المتحدة تشكل هبة للمستهلكين وللاقتصاد الكلى، إلا أنها تجىء على حساب عمال الولايات المتحدة فى صناعة الملبوسات، إنهن إلى حد كبير نساء، يشكلن أقليات مثل ماريا كونسيلو جارسيا، الذى فقدت عملها الذى تحصل منه على ٤,٧٥ دولار

(*) الهة النصر عند الإغريق (المترجم).

فى الساعة، بعد خمسة عشر عاما من حياكة جينز بولو(*) فى "مصنع الشمس للملبوسات" فى الباسو، تكساس، عندما أعلنت الشركة أنها سوف تنقل الكثير من العمل إلى المكسيك؛ حيث يدفع للخياطات حوالى دولار واحد للساعة، ورغم أن المستهلكين الأمريكيين يستفيدون من الانتقال، فإنه لا توجد وسيلة فعالة لدى الولايات المتحدة لتعويض النساء مثل ماريا لخسارتهن وظائفهن، فإنه ليس مثيرا للدهشة أنها وزملاءها ونقابتهن لسن من قادة الهتاف للعولمة، إن الحقيقة التى تثير الحنق، بشكل خاص، إن تلك الوظائف غالبا ما تذهب إلى أماكن مثل مصنع كين شى فى الصين؛ حيث تقوم "لجنة العمل الوطنية" بإيجاد حراس يضربون العمال إن تأخروا فى تجهيز حقائب يد "كاتى لى جيفورد" من أجل "وال مارت"[٢٧]. ومن ثم، فإن العمل فى البلدان المتقدمة يتطلب تعويضا عن تكاليف العولمة، ودمج حقوق العمل فى اتفاقيات التجارة الدولية.

ويرى أنصار البيئة فى العولمة، مثلهم مثل العمال عودة إلى حقبة الرأسمالية الظالمة، إنهم يخشون أن يؤدى الضغط العنيد من أجل تخفيض التكاليف إلى انتقال الإنتاج، بصورة لا مفر منها، إلى مناطق غير منضبطة بيئيا، إن هذا الخوف غير مبرر، لقد شاركت فى كثير من الحالات التى كان فيها قرار موقع المصنع متأثرا، إلى حد ما، بطبيعة النظم البيئية، ووضعها موضع التنفيذ، ذكر بعض المحللين أن النمو الصينى الذى يقوده التصدير جاء على حساب تدنى بيئى يعادل ٨ إلى ١٢٪ من الناتج المحلى الإجمالى للصين[٢٨]، وقطع الأشجار الاستوائية فى أندونيسيا بمساحة تصل إلى حجم كونيكتيكت كل عام من أجل تغذية صناعة أرضيات الحجرات والأثاث، وأدوات الكتابة من ورق وأقلام للمكاتب، فى أسواق اليابان والصين والولايات المتحدة وأوربا، إن هذه التجارة غير الشرعية بنسبة ٨٠٪ سوف تجتث كليا غابات أراضى سومطرة

(*) بنطلونات الجينز (المترجم).

المنخفضة، جنبا إلى جنب مع الأورانجوتان والنمر السومطريين، في خلال السنوات العشر القادمة[٢٩]، وفي البرازيل تتلاشى غابات خشب الماهوجني لأسباب مماثلة، ثم إن هنالك السلاحف ومخزون الأسماك، التي طبقا لما يقوله علماء البحار - يعاني بالفعل انهيارا مأساويا على امتداد العالم نتيجة دعم صيد السمك الجائر[٣٠]. وبينما الجهود الطوعية مثل "الميثاق الكوني" الذي تسانده الأمم المتحدة أو الذي حقق تقدما في جعل شركات متعددة الجنسيات تصادق على المبادئ البيئية، فإن المدافعين عن البيئة يظلون متشائمين في مواجهة تعليقات مثل تلك التي للرئيس بوش الأول، الذي قال قبل "قمة الأرض" في ريوديجانيرو عام :١٩٩٢ "إن طريقة حياة الأمريكيين ليست مطروحة للتفاوض"، وقرار ابنه بقاء الولايات المتحدة خارج اتفاقية كيوتو حول الاحتباس الحراري الكوني؛ لأنه "سوف يكون ضارا باقتصاد الولايات المتحدة"، الذي أكد فقط للمدافعين عن البيئة وجهة النظر القائلة بأن العولمة تحتاج أن تُغير بطريقة عنيفة[٣١].

لقد فقدت الشيوعية والاشتراكية الآن طابعهما المميز، بالنسبة لليسار المحترف وطلبة الكليات الذين يبحثون عن قضية، وأصبح العداء للعولمة مجرد سبيل آخر لمهاجمة نفس الهدف الرأسمالي، هنالك عامل آخر هو عنصر التجانس النظامي الذي يسبب الحنق والاستياء، وهو كذلك - في الغالب - نتيجة الخضوع المتأرجح للإغراء، إن بامبانج راشمادي يعرف الكثير عن هذا، إنه مالك لـ ٨٥ مطعما من مطاعم مكدونالد المنتشرة عبر أندونيسيا، لقد وضع سريعا، في أعقاب ١١ سبتمبر، لافتات تقول: "بسم الله الرحمن الرحيم، إن ماكدونالد أندونيسيا مملوك لمسلم محلي"، ويؤمن السيد بامبانج أن مطاعمه مفيدة لأندونيسيا، لكنه يعرف أيضا أنها ترمز إلى تغيير في نمط حياة مستقر يمكن التنبؤ به، وهنالك الكثير من الحنين إليه[٣٢]. يضاف إلى هذا الإحساس بالفقدان، إحساس من قبل عديدين بأن ذلك التغيير يحدث بطريقة غير ديمقراطية للغاية. وكما يقول أستاذ الاقتصاد الهندي كاوشيك باسو: إن العولمة تعني أن إجمالي الديمقراطية الكونية يتقلص حتى لو أصبحت بلدان بمفردها أكثر ديمقراطية؛ حيث

مارست الشعوب والأمم نفوذا غير متماثل فى ظل العولمة[٣٣]، إن كوريا مثلا كانت فرصتها فى الاختيار قليلة، خلال الأزمات المالية لعام ١٩٩٧، لكنها حتى تقبل برنامج الإنقاذ الماكر من الولايات المتحدة، فتحت قطاعها المصرفى كى تمتلكه البنوك الأجنبية، إن لدى البلدان الفقيرة والبلدان الصغيرة القليل الذى تقوله عن شروط العولمة، التى اجتثت حريتهم فى الاختيار بصورة متزايدة.

إن المشكلة الأكبر ببساطة هى أن العديدين لا يرون القيادة الأمريكية للعولمة، باعتبارها تعمل من أجلهم، وبينما رفعت العديد من بلدان شرق آسيا والباسفيكى، بما فى ذلك الصين الأكثر حداثة، مستويات معيشتها، خلال الخمسة عشر عاما الماضية، فإن أكثر بقية العالم النامى لم تفعل ذلك. إن الناتج المحلى الإجمالى للفرد فى الشرق الأوسط، وشمال إفريقيا، وأمريكا اللاتينية قد نما فقط بحوالى ٥ ,١٪ فى السنة، وفى جنوب الصحراء الإفريقية ووسط وشرق أوربا ووسط آسيا فإن الناتج المحلى الإجمالى للفرد قد تقلص بالفعل[٣٤]، وبينما يعود قدر كبير من هذا الفشل إلى السياسات المحلية غير الملائمة، وإلى افتقاد الانفتاح على الخارج، فإن العولمة لعبت دورًا أيضا.

يضاف إلى ذلك أن بعض البلدان الهامة يصيبها الفشل رغم الاتباع الظاهر لنظام العولمة كما يؤمر به، خذ المكسيك مثالا على ذلك، إن نتيجة اتفاقية النافتا هو مجىء المكسيك كلية داخل الاقتصاد العالمى، مع إنقاص للحواجز التجارية، وأسواق مالية مفتوحة، والالتصاق الكلى بإجراءات مثل حماية الملكية الفكرية، التى يُظن أنها تجذب الاستثمار الأجنبى، وغدت المكسيك ديمقراطية أيضا بعد واحد وسبعين عاما من حكم الحزب الواحد، ليس للنافتا بالطبع شروط لبناء البنية التحتية أو تمويل خاص للتنمية أو سهولة حركة العمال مثلما فعل الاتحاد الأوروبى، بطريقة نموذجية، عندما أدخل بلدانا أقل تطورا فى الاتحاد الأوربى، غير أن إيمان أمريكا بالحلول التى تقدمها السوق الحرة جعلت تلك الحلول تبدو أكثر تكلفة ولا ضرورة لها، وحفزت النافتا من ناحية أخرى زيادات درامية فى صادرات المكسيك، وفى الاستثمار الأجنبى فى

المكسيك، فقد زادت الصادرات المكسيكية ما بين عامى ١٩٩١ و٢٠٠١، ١٢٠ مليون دولار. وزاد الاستثمار الأجنبى المباشر (إف دى آى) بـ ١٦ مليار دولار، ومع ذلك فإن قليلين فى المكسيك هم الذين أحسوا بأنهم أفضل حالا، فبعد عشرين سنة من إصلاحات السوق الحرة، وعشرة أعوام من النافتا فإن ٥٠٪ من المكسيكيين يعيشون على حوالى أربعة دولارات لليوم الواحد[٣٥]، عندما عملت فى المكسيك، فى السبعينيات، كان يمكن اعتبار حوالى ٦٠٪ من السكان طبقة وسطى وعمالاً، اليوم النسبة هى ٣٥٪، وهى فى هبوط، هناك مشكلة كبرى، من بين مشاكل محلية كثيرة – هى أن الوظائف تغادر المكسيك؛ لأن المصانع تغلق، وتنتقل إلى بلدان تكاليفها العمالية أقل، وقد نقص "كالاداى جولف كلوب"، فى صيف عام ٢٠٠٢، مثلا، عمالته المكسيكية إلى النصف، عندما نقل إنتاجه إلى الصين[٣٦]، وفشل ذلك فيما بعد، وقابلت ماير زاجا وهو واحد ممن يقودون صناعة المنسوجات المكسيكية فأخبرنى أنه من الصعب للغاية منافسة المنسوجات الصينية المستوردة فى السوق المكسيكى.

والبرازيل مثال آخر. ضُغط عليها كى تمقرط سياساتها، وتعولم أسواقها، وعانت من أزمة اقتصادية وسط انتخاباتها الرئاسية فى خريف عام ٢٠٠٢؛ حيث سحب المستثمرون الأجانب أموالهم خشية نجاح المرشح اليسارى، لويس إيناسيو، "لولا دى سيلفا"، وتنكره لالتزامات الدَّين، وكما قال لى روبنز باربوسا سفير البرازيل فى واشنطن فى وقت ما، "لا يبدو أنه من العدل أن تطلب منا دفع ثمن لنجرى انتخابات ديمقراطية، والأسوأ أن تجعل من الصعب علينا كسب نقود لنسدد التزاماتنا، بإقامة حواجز تجارية ضد نصف منتجاتنا التى نريد بيعها لكم: فول الصويا، السكر، عصير البرتقال والصلب".

إن موضوع الحواجز هذه والقيود الضارة، لها صدى فى أماكن كثيرة، الباكستان تشعر بالمرارة؛ لأن الولايات المتحدة قدمت زيادة رمزية فى الحصة المحدودة التى وضعتها لواردات المنسوجات الباكستانية، رغم دعمها القوى لها فى أعقاب ١١ سبتمبر، وقد اشتكت نيوزيلندا وأستراليا والفلبين من القيود الصارمة على واردات

الولايات المتحدة الزراعية، وتجيء شكوى مختلفة من إفريقيا والهند؛ حيث للإيدز تأثير مدمر، ورغم وجود العقاقير واستخدامها فى البلدان الغربية الثرية، ليتمكن مرضى الإيدز من ممارسة حياة إنتاجية مع المرض، فإنها غالية الثمن للغاية بالنسبة للعالم النامى، المشكلة هنا أن قواعد منظمة التجارة العالمية، التى تحمى براءات الاختراع جعلت من المستحيل على منتجى العقاقير الجنسية فى البلدان النامية عرض الأدوية بأسعار رخيصة، والنتيجة أن البعض فى تلك البلدان يرى فى العولمة فعليا سببا كبيرًا للموت.

ويكمن وراء هذه الشكاوى – على أى حال – موضوع أشد عمقا عن صحة نظرية العولمة، وقد قال لى جورج سوروس منذ زمن قريب: "إن الحكمة التقليدية تعتبر أن الأسواق دوما على صواب، ولكن من خبرتى فإنها فى الغالب الأعم، على خطأ، رغم أنها تستطيع تصحيح نفسها". إن مشكلة الصين مع المكسيك تقدم مثالا معبرا، إن عقيدة العولمة ترى أن البلدان لو فتحت أسواقها للتدفق الحر للسلع والنقود، وخصخصت، وأبطلت القيود والقواعد المنظمة، ووضعت قاعدة قانونية صارمة، وصانت الشفافية، ومارست حصافة مالية ونقدية، فإن العالم سوف يجيء متزاحما على أبوابها، إن الصين فى الحقيقة تمتص نصيب الأسد من الاستثمار الأجنبى المباشر؛ حيث يحتشد منتجو العالم على شواطئها، وليس عند الصين، حتى الآن، قاعدة قانونية، وقليل من الشافية، مثقلة بالإجراءات المنظمة، ولديها نظام مصرفى هو الثانى فقط، بعد اليابان فى الهشاشة، إن الحقيقة، كما لاحظ البنك الدولى تكمن فى "معجزة شرق آسيا: النمو الاقتصادى والسياسة العامة"، المعادلة التى اتبعتها البلدان الآسيوية، وفى طليعتها اليابان، معادلة تحمل شبها قليلا للعقائد المعيارية للعولمة، إنها تطالب بمعدلات ادخار عالية جبرية (سنغافورة مثلا تحجز قرابة نصف الحساب الذى يدفع للعامل، لصندوق ادخاره)، ووضع حد للاستهلاك المحلى، وشروط على الاستثمار الأجنبى المباشر بنقل التكنولوجيا، والتدخل الحكومى فى توزيع رأس المال، وحماية غالبية الأسواق المحلية والتأكيد على التصدير، باعتباره قائد النمو.

ومع ذلك، فهنالك شك حتى فى إمكان نجاح هذه المعادلة فى وجه ظاهرة الصين. فى الماضى، كان النموذج الذى يحتذى هو البدء بصناعة منتجات كثيفة العمالة مثل الملبوسات، ثم التحرك صعودا على السلم إلى صناعة أكثر تطوراً، لكن في وسع الصين إنتاج الأقل والأعلى، وهى فى الحالتين المنتج الأقل تكلفة، إن هذا يترك مكانا ضئيلا للبلدان النامية الأخرى.

العمل على نجاحها

إن العولمة يدفعها تقلص مكان وزمان التكنولوجيا، مسألة لا يمكن وقفها، وهى قد غدت تعويذة مقدسة، ومع ذلك فإن هذا قد قيل من قبل، فقد كتب أنجل نورمان عام ١٩١٠ "الوهم الكبير"، وهو كتاب نادى بأن تكون الحرب شيئا من الماضى؛ لأن الاقتصاد العالمى كان مندمجا إلى حد كبير فى ذلك الوقت، واقتضى الأمر أكثر من ستين عاما بعد نهاية الحرب العالمية الأولى؛ ليعيد العالم اكتساب مستوى العولمة الذى كان قد تمتع به عام ١٩١١. وحتى تنجح العولمة هذه المرة، يجب مخاطبة الشكاوى والمسائل الاقتصادية التى ذكرتها سابقا، بأسلوب عملى وغير أيديولوجى، إن الدعوة إلى التجارة الحرة والانفتاح لا تكفى، إن الناس لا تكره العولمة التى تقودها أمريكا فى ذاتها، إن مئات الملايين، إن لم تكن البلايين، تحبها فى الحقيقة، ولكن إن كان على ذلك أن يدوم، فإنه يجب أن تنتشر الفوائد وبصورة عريضة ومتساوية، بينما تكون حساسة للحاجيات الاجتماعية والسياسية للعديد فى المجتمعات المختلفة.

الفصل الرابع

الركض وراء باطل

اثنتا عشرة ياردة طولا وزقاقان اتساعا
وخمسة وستون طنا من الزهو الأمريكى
كانيو نيرو، كانيو نيروا

– ذى سيمبسونس

(محاكاة ساخرة لإعلان عن سيارات الدفع الرباعى)

كان الحدث الإخبارى الرئيسى فى صحافة اليوم والبرامج الإذاعية والتلفازية، ١ مارس ٢٠٠٢ هو أفغانستان، لقد خُلعت طالبان، والمطاردة تجرى للإمساك بأسامة بن لادن فى فكى مصيدة عملاقة، تُعرف باسم "عملية أناكوندا"، والتى انطلقت فى جبال تورا بورا الكالحة، وشغلت حوالى نصف الصفحة الأمامية من الواشنجتون بوست، صورة تبين القصف الكثيف للحواجز الدفاعية للجبل، جنبا إلى جنب مع قصة عن تفاصيل تقدم العملية، والإشارة إلى أن الإصابات التى حلت بالأمريكيين يصل إجمالى حجمها، بصورة ما، إلى ثمان وخمسين حالة، كانت قصة أخبار هامة ومثيرة ويلزم قراءتها.

وكانت هنالك مقالة أخرى أقل لفتا للأنظار، فى الصفحة أ ١٢، حول حديث مجلس الشيوخ هذا الأسبوع عن تطبيق رسوم على استهلاك الجازولين طبقا لسرعة

السير بالميل على سيارات الدفع الرباعى (إس يو فى)، لقد أُدخلت هذه الرسوم على السيارات عام ١٩٧٥، بعد الصدمات النفطية لعامى ١٩٧٣ - ١٩٧٤، عندما كان متوسط سرعة السيارات فى الولايات المتحدة هو ١٢ ميلا للجالون الواحد من الغاز، وقد عُرفت تلك بمعايير "كافيه"، التى اقتضت أن تكون سرعة سيارات الركاب الجديدة، التى ينتجها صناع الولايات المتحدة، تحقق متوسطا اقتصاديا للوقود قدره ٢٧,٥ ميلا للجالون الواحد عام ١٩٧٩[١].

وكانت النتيجة الرئيسية درامية، ففى غضون سبع سنوات ارتفع متوسط سرعة السير بالميل من ١٣ ميلا للجالون الواحد، إلى ٢٥,١ ميلا للجالون الواحد، وبلغ هذا المتوسط ذروة ٢٦,٢ ميلا للجالون الواحد عام ١٩٨٧[٢]، ومنذ ذلك الحين غدت سيارات الدفع الرباعى والشاحنات الخفيفة شعبية للغاية، كعربات يومية الاستعمال للعائلات، حتى تجاوز عددها عام ٢٠٠٢ أكثر من العدد الكلى للعربات المبيعة، وبينما كان ذلك مربحا للغاية لمنتجى السيارات، الذين حققوا أرباحا من سيارات الدفع الرباعى والشاحنات أعلى بكثير من تلك التى حققتها السيارات الأخرى، فقد لعب هذا التغير فى السوق دوراً مدمرا بالنسبة لاقتصاد الوقود، كان متوسط سرعة السير بالميل عند استخدام الغاز للعربات الجديدة، وقت أن تناول مجلس الشيوخ الأمر قد انحدر إلى ٢٤,٠ ميلا للجالون الواحد، وكان استهلاك الجازولين الأمريكى وواردات النفط تحلق عاليا، كان مجلس الشيوخ، فى محاولة منه لتصويب هذه الحالة، ينظر بعين الاعتبار فى مشروع يمد تطبيق المعايير من السيارات العادية إلى سيارات الدفع الرباعى، بغرض زيادة السرعة الكلية على أساس الميل بمقدار ثلاثة أميال، أى إلى حوالى ما كانت عليه عام ١٩٨٧[٣].

وقد اقتبست مقالة "البوست"، مقولة ترنت لوت، زعيم الأغلبية بمجلس الشيوخ، بأن زيادة المعايير لن يكون مقبولا؛ لأن "هذه ما تزال أمريكا"، وإن حدث، فإنه لن يتمكن، بعد ذلك، من أخذ أحفاده فى جولة بالسيارة حول المزرعة[٤]، هذه مسألة يمكن أن تمزق قلب كل أمريكى، ما لم يكن قد جرى تضخيمها دون حياء، ومع ذلك يبدو أن

لا أحد قد رأى العلاقة بين تعقيبات لوت، وقصة عملية أنا كوندا، الموجودة على الصفحة الأولى، كم عدد الحيوات التى نود دفعها من أجل برميل واحد من النفط، ودورة سريعة حول المزرعة فى سيارة دفع رباعى؟ ذلك، سؤال ظالم بالطبع. إلا أنه من الصعب تجنب النتيجة التى يعتقد بها لوت، وهى وجوب أن يكون الغاز رخيصا؛ لأن هذه هى أمريكا، وأن للأمريكيين الحق فى جعل سعر الغاز رخيصا. وحيث إن التكاليف المادية والبشرية لعملية الآنا كوندا هى نتيجة جزئية لهذه العاطفة، فإنه يبقى عليها مخفية بصورة جيدة.

إن المرء يرى أعدادا قليلة من سيارات الدفع الرباعى فى لندن، أو باقى أوروبا واليابان، إن ذلك يرجع إلى سبب رئيسى هو أن الجازولين يباع فى كل تلك الأماكن من المضخة بسعر يتراوح من ٣,٩٧ دولار للجالون (فى اليابان) و٤,٦٦ دولار (فى المملكة المتحدة)[٥]. إنه أعلى سعر فيما قبل الضريبة، ١,٢ دولار للجالون الواحد، مقارنة بمتوسط حوالى ١,١ دولار فى البلدان المتقدمة الأخرى[٦]، غير أن الولايات المتحدة تضيف حوالى ٣٨ سنتا ضرائب فقط، فى حين يفرض باقى العالم المتطور ضريبة أكبر من تلك بستة أمثالها[٧]، وليس هنالك ما يثير الدهشة فى أن أوروبا واليابان تنتج سيارات تقطع حوالى ٢٤,٠ ميلا للجالون الواحد - أو عشرة أميال، للجالون الواحد، أفضل من الولايات المتحدة[٨]، ولو حصلت عربات الولايات المتحدة على ذات اقتصاد الوقود كما فى أوروبا واليابان، لما احتاجت البتة إلى استيراد نفط الخليج الفارسى.

إن الفرق فى فاعلية الطاقة لا يقف عند حد العربات والشاحنات؛ إذ يمكنك أنت السفر فى القطار عالى السرعة، بعد التحسين الذى أدخله الأوربيون على قطارات الطلقة اليابانية ذات السمعة الشهيرة، من بروكسل إلى باريس فى حوالى ساعة وعشرين دقيقة، إن المسافة تكاد تكون مثل تلك التى بين واشنطن ونيويورك، ومع ذلك فإن هذا السفر يعادل تقريبا نصف طول "خط مترو امتراك"، ونتيجة ذلك أن أعدادا أكثر من الناس تأخذ القطار، بدلا من الطائرة، من باريس إلى بروكسل والعودة. إن

أوروبا بإقامتها نظاما للسكك الحديدية حديثا وعالى السرعة - قد خفضت بطريقة درامية من الحاجة إلى طاقة فاعلة للطيران، لحساب سكك حديدية فاعلة للغاية.

إن الجازولين، خارج الولايات المتحدة، أكثر تكلفة، وكذلك الكهرباء، وليس فى هذا ما يثير الدهشة، فاستخدام الكهرباء للفرد الواحد، داخل الولايات المتحدة، ضعف ذلك الذى فى اليابان، التى هى الثانى الأكثر استخداما[٩]، إن اليابانيين قد شددوا فى الحقيقة بقوة، على فعالية الطاقة، حتى غدا فى وسعهم إنتاج ما قيمته دولار من إجمالى الناتج المحلى، بأقل من نصف طاقة الولايات المتحدة[١٠]. إن اليابان بالطبع بلد صغير، ويقع غالبية شعبه وصناعته على شريط ضيق يمتد من طوكيو إلى أوساكا، ولذا فإن المسافات والتفاوتات أقل مما هى فى الولايات المتحدة، لكن الاتحاد الأوربى منطقة كبيرة ذات اختلافات طقسية وطوبوغرافية كبيرة، وعدد سكان أكبر من ذلك الذى فى الولايات المتحدة، وإجمالى ناتج متماثل، مما يجعل القصة واحدة، وقد استخدم الأوروبيون ٢/٣ الطاقة التى استخدمها الأمريكيون فقط، من أجل تحقيق معادل للدولار من إجمالى الناتج المحلى[١١]، كان فى إمكان أمريكا، لو كان لديها نفس فعالية الطاقة كما فى الاتحاد الأوربى، ليس فقط أن تعمل دون واردات النفط من الخليج الفارسى، بل كان فى إمكانها أن تعمل دون حقبة واردات نفطية، إن هذا كان سيؤدى إلى خفض ١٠٠ مليار دولار سنويا من عجز الولايات المتحدة التجارى، ويوقف تدفق نقود الولايات المتحدة التى يعاد تدويرها خلال الدول المنتجة للبترول فى الشرق الأوسط لتمول الإرهاب ولتنشر الإسلام الراديكالى، كما كان سيؤدى أيضا إلى خفض حاجة الولايات المتحدة للانتشار العسكرى فى الخليج الفارسى بصورة كبيرة، إن أعمال الانتشار تلك التى تتكلف ٦٠ مليار دولار سنويا، رفعت التكلفة الحقيقية لنفط الخليج إلى حوالى ٢٠٠ دولار للبرميل الواحد[١٢]، إن الكثيرين من المراقبين فى أنحاء العالم يتساءلون: لماذا لا تكون أمريكا أكثر جدية فيما يتعلق بالطاقة خالصة فى نطاق مصالحها هى. إن السبب، كما سأشرح، له علاقة بحاسة وعى أمريكا لاستحقاقاتها، كما لذلك علاقة أيضا بحبنا للحرية الفردية، غير أن ثمن هذا

الاستقلال كان هو الاعتماد الذى جعلنا عرضة للهجوم، وقاد تعرضنا للهجوم بدوره إلى الحرب والتدمير والموت، وأخيرا إلى لمحة بحث عن الروح.

حق بكورية بوبا

إن التعريف النمطى لبوبا هو أنه شخص يحس أن الله منحه حق قيادة شاحنة خفيفة، على الطريق السريع، بسرعة ٨٠ ميلا فى الساعة، وقد فُتحت نوافذها وأداة تشغيل الـ سى دى، وهواء مكيف بأقصى طاقة، وعلبة جعة مفتوحة فى حجره، وبينما يُعتقد أنه رجل أبيض من الجنوب، فإن الناس من نوع البوبا يمكن العثور عليهم، فى الحقيقة، من كونيكتيكت إلى كاليفورنيا، بين كل السلالات والجنسين، هنالك شىء ما من بوبا داخل كل منا نحن الأمريكيين (لا أسرار البتة: فأنا نفسى أقود سيارة دفع رباعى)، دع جانبا للحظة الأمور غير الأساسية التى تتكرر بلا تغيير - الموسيقى، علبة البيرة، الكلب الكبير فى مقعد الراكب، بندقية الصيد فى حامل البندقية وراء النافذة الخلفية، والملصقات الوطنية - انتبه للسيارة المفرطة فى التزود بالطاقة، المفرطة فى التزود بالكماليات (والتى توفرها الصناعة الأمريكية فى غالب الأحوال) والطريق (الذى جهزته الحكومة الأمريكية، والإحساس بالاستحقاق (الذى يزود به التاريخ الأمريكى). من أين جاءت تلك الأشياء، وإلى أين تأخذنا؟

إننا غالبا ما نرسم لأمريكا صورة بلد بدأ فقيرا، وأنه بعمله الشاق والمغامرة جعل نفسه الدولة الأكثر تطورا بين الدول، والحقيقة - على أى حال - أن أمريكا كانت ثرية منذ البداية تقريبا. كانت تكنولوجيا أوربا، فى القرن السابع عشر، متاحة تماما لمستوطنى "العالم الجديد" كانت موارد الطاقة فى ذلك الوقت هى، فى المقام الأول، الأخشاب والرياح والمياه بشكل خاص، ولم يكن هنالك فى أى مكان أخشاب ورياح ومياه أكثر من تلك التى فى المستعمرات الجديدة، لقد اكتشف الحجاج ومستوطنون

آخرون العربية السعودية التى كانت فى زمانهم؛ حيث كان لدى السعودية أكبر احتياطيات الطاقة وأقلها تكلفة فى تلك الأيام، وهذا ما فعلته أيضا أمريكا الشمالية فى ذلك الوقت؛ لذا، فإن الأمة تمتعت، منذ ميلادها بطاقة رخيصة، وجاءت أجيال المستقبل لتستهلكها باعتبارها حق بكوريتها.

عندما ارتبط المستوطنون بالأساليب الفنية والأدوات التى أحضروها معهم من أوربا، أمدت هذه الطاقة الرخيصة الوفيرة نموا اقتصاديا، بقدرة متدفقة؛ مما يمكن مستويات المعيشة أن تكون فى سرعة ندا لتلك التى فى العالم القديم، أو تزيد عنها، كانت الولايات المتحدة عام ١٨٢٠ أغنى رابع بلد فى العالم، ذات إجمالى ناتج محلى قدره ١,٢٥٧ دولار (بدولار عام ١٩٩٠) للفرد الواحد، كان ترتيبها يجىء فقط بعد الأراضى الواطئة التى كان نصيب الفرد فيها ١,٨٢١ دولار، والمملكة المتحدة ١,٧٠٧ دولار، وبلجيكا ١,٣١٩ دولار، كانت فرنسا مثل الولايات المتحدة تقريبا، بينما كانت ألمانيا وإيطاليا إلى وراء عند حوالى ١,١٠٠ دولار، وكانت اليابان حوالى نصف مستوى الولايات المتحدة، وكانت الولايات المتحدة هى الثالثة فى متوسط العمر عند ٣٩ سنة، وهى تجىء تالية لألمانيا ٤١ سنة، والمملكة المتحدة ٤٠ سنة[١٣].

وتقدم القرن التاسع عشر والثورة الصناعية معا، وتحولت مصادر الطاقة العالمية من الأخشاب والرياح والمياه إلى حقبة جديدة من البخار والفحم وزيت الحوت، ومرة أخرى، كانت الولايات المتحدة هى العربية السعودية لذلك الزمان، ارتفع إنتاج الولايات المتحدة من مستويات لا تستحق الذكرِ عام ١٨٢٠ إلى ٢٠٠ مليون طن مترى تقريبًا عام ١٩٠٠[١٤]، وبلغ أسطول صيد الحيتان، الذى بدأ فى نيو بد فورد وماساشوسيتس عام ١٧٥٥ ذروة قدرها ٣٢٩ سفينة عام ١٨٥٧[١٥]، كانت هذه الطاقة الرخيصة والوفيرة عاملا كبيرا فى منح اقتصاد الولايات المتحدة، فى منتصف القرن الثامن عشر، أسرع معدل نمو بين اقتصاديات العالم الكبرى، وصعدت عام ١٨٧٠ إلى أكثر

من ضعف مستويات معيشتها عبر الأربعين سنة التالية؛ لتحتل أعلى موقع فى إجمالى الناتج المحلى للفرد(١٦)، وسوف يقدم ما تم العثور عليه، منذ سنوات قليلة سابقة، فى أويل كريك(*) قرب تيتوسفيل، بنسلفانيا، المساعدة لارتفاع هذا المستوى فى المعيشة بصورة كبيرة.

كان قد تم تسجيل تسرب مادة سوداء لزجة من الأرض فى مملكة ما بين النهرين، منذ زمن بعيد يصل إلى ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد، لقد عثر عليه مصادفة إلى جوار الفرات، غير بعيد عن بابل وبغداد اليوم، وعُرف باسم البيتيومين (القار)، والذى استخدم فى البناء كملاط حوائط فى أريحا وبابل، وهنالك احتمال كبير فى استخدامه لتغطية ألواح فلك نوح، وسلة موسى، حتى لا ينفذ الماء منها أو يؤثر فيها، كما استخدم أيضا لإنشاء الطرق، والإضاءة، والدواء، وبالطبع الحرب، وقد كتب هوميروس فى الإلياذة أن أهل طرواة كانوا يطلقون لهبا على سفن اليونانيين لا ينطفئ، واستخدم الفرس النار فى غزواتهم، واستخدم البيزنطيون النيران اليونانية، وهى خليط من البيتيومين والجير، الذى يظل مشتعلا حتى إن تلامس مع الماء، ونُسى البترول وتطبيقاته فى الغرب إلى حد كبير بعد سقوط روما، واستخدم فى خمسينيات القرن التاسع عشر، الكيروسين المستخرج من النفط الخام الذى عثر عليه فى جاليسيا ورومانيا للإضاءة فى فيينا، وأُدخل فى حينه إلى الولايات المتحدة.

كان هذا التطور هو الذى جعل النفط المتسرب ينطلق فى نافورات وأبار ملح حول أويل كريك؛ الأمر الذى كان مثيرا للغاية بالنسبة لمحام من نيويورك، هو جورج بيسل ومجموعة صغيرة من المستثمرين كان قد جمعهم، كان النفط الذى يغطى سطح الخليج (كريك) يجمع، لفترة من الزمن، كما تجمع القشدة، أو بخرق تُنقع فى المياه المشبعة بالنفط ثم يتم عصرها، ومن ثم، فإن القدر القليل من النفط الذى يُجمع استخدم فى

(*) خليج النفط (المترجم).

غالب الأحوال فى صناعة الأدوية، غير أن مجموعة بيسل رأت مستقبلها فى بيعه منافسا للكيروسين وزيت الحوت لاستخدامه فى المصابيح، إن الجمع كالقشدة والنقع لم يستطيعا - على أى حال - إنتاج الحجم من المنتج الذى يتصورونه للبيع على وجه التقريب، كما لم تكن للحفر قدرة على تحقيق ذلك، وحتى يمكن الوصول إلى مصدر النفط اقتصاديا قرروا تبنى الأساليب الفنية المستخدمة، حينذاك، فى حفر آبار الملح. وابتدأ العمل فى ربيع ١٨٥٨، وبعد عام من العمل المرهق لم يكن هنالك على الإطلاق ما يبشر بوجوده، وتنامى اليأس، وواصلت المجموعة العمل بقوة عبر الصيف حتى أغسطس، وبعث المستثمرون، عندما بدأت النقود فى النفاذ، بطلبية النقود النهائية إلى الكولونيل أ.ل. دريك المشرف على الحفر، ومعها تعليمات بإيقاف العمليات، ووقع الحفر فى صدع، بعد ظهر يوم السبت ٢٧ أغسطس عام ١٨٥٩، ولم يكن دريك قد تسلم الخطاب بعد، كان العمل متوقفا بمناسبة الراحة الأسبوعية، وجاء يوم الاثنين، والخطاب لم يجئ بعد، ووصل دريك إلى الموقع ليجد الحفارين يقفزون فوق أنابيب وبراميل مليئة بسائل أسود، ولاح فجر عصر النفط[١٧].

كان امتداد الطاقة الأمريكية "بونانزا" غير واضح فى البداية، كانت الصناعة لربع قرن مضى هشة، غامضة، وتعتمد اعتمادا كليا على حقول نفط بنسيلفانيا، وحذر جيولوجيو ولاية بنسيلفانيا عام ١٨٨٥ من أن النفط كان "ظاهرة مؤقتة تتلاشى"، وأصاب القلق واحدا من القمم التنفيذية فى شركة ستاندار أويل فباع بعضا من أنصبته فى الشركة بتخفيض قدره ٢٥٪، ومضت فترة على فعلته هذه حتى تم اكتشاف نفط جديد فى ليما وأوهيو، فى حقل نفط يمتد على حدود أوهيو - أنديانا، وكان هذا الحقل جيد الإنتاج، حتى إن إنتاجه بلغ ثلثى الإنتاج الكلى للولايات المتحدة عام ١٩٨٠.

واختفى خلال الستين سنة التالية، كل ما كان مثارا من قلق حول وجود إمدادات كافية، وذلك بعد اكتشاف المزيد من حقول البترول العملاقة، وفى عام ١٨٨٢ بدا مواطنو المدينة الصغيرة كورسيكانا، تكساس حفر آبار جديدة ليزيدوا من ما يحتاجون

إليه من مياه كانت تتضاءل، فوجدوا - على أى حال - بدل الماء نفطا، كان هذا مجرد مقدمة، وفي خريف ١٩٠٠، بدأ الحفر على قمة تل ملح مخروطى قرب بيومونت، تكساس، يدعي سبيندل توب، وفي عيد الكريسماس ظهر بعض النفط، وقُدر أن البئر يمكن أن ينتج خمسين برميلا في اليوم، لم يكن ذلك بالشيء السيئ؛ لكنه لم يكن ذلك الشيء الذى يوشك حقا على الحدوث، بعد إجازة الكريسماس، استأنف العمال العمل في يوم رأس السنة، وفي ١٠ يناير عام ١٩٠١ انفجرت الأرض، مرسلة أنابيب الحفر والصخور والنفط لمئات الأقدام في الهواء، كان البئر البترولي الأول الأغزر تدفقا في الولايات المتحدة. انساب انسيابا هائلا بلغ خمسة وسبعين ألف برميل في اليوم، ولحقت به آبار أخرى: سيجنال هيل في كاليفورنيا وسمينول العظيم(*) في أوكلاهوما، ثم جدهم جميعا دادجوينرز بلاك جاينت(**) في شرق تكساس.حقا كانت أمريكا هي العربية السعودية لتلك الحقبة، كيف يمكن لأى أحد أن يشك في أن الطاقة الرخيصة كانت - حقيقة - حق بكورية أمريكية؟

كانت المشكلة - في الحقيقة - هي أن النفط كان كثيرًا للغاية، كان يظهر في كل وقت - تدفق غزير جديد - وانهارت الأسعار، وهددت المنتجين بالإفلاس، وقد ثارت هذه المسألة مباشرة بعد أول إضرابات في أويل كريك، كان برميل النفط يباع مبكرا عام ١٨٦١ بعشرة دولارات، انخفضت إلى عشرة سنتات في نهاية العام(١٨)، واستطاع جون د. روكفلر ضبط التوزيع والنقل عبر الاتحاد الاحتكارى لستاندارد أويل نيوجيرسي؛ مما جعله يستفيد من الأسعار المخفضة ويحقق أرباحا هائلة، كما وضع أيضا إجراء نظاميا للسوق. وتقهقرت حقول تكساس الشاسعة، وخاصة البلاك جاينت، بل وحتى إستاندرد أويل، وانخفض سعر النفط الذى كان يباع في تكساس عام ١٩٢٦ بمبلغ ١,٨٥ دولار للبرميل إلى ستة بنسات للبرميل في نهاية مايو ١٩٣١، حتى إن

(*) أحد الأمريكيين الهنود فى فلوريدا (المترجم).

(**) الأب العملاق جوبيز الأسود (المترجم).

أكبر المنتجين كان في وسعه أن يشم رائحة الإفلاس، وأخذوا يبحثون عن طريق يحد من الإنتاج ويحقق استقرار الأسعار.

أُنشئت لجنة سكك حديد تكساس عام ١٨٩١، كمحاولة شعبية لتحقيق بعض التحكم في السكك الحديدية الاحتكارية، ومُنحت أيضا تلك اللجنة عام ١٩٣١، بعض النفوذ لتنظيم "الفاقد المادي" من إنتاج النفط، وتم التوصل من خلال تلك القاعدة الضيقة. وعبر الكثير من الالتواءات والمنعطفات، إلى الاقتصاد في الإنتاج، وجعل الأسعار مستقرة كونيا، حتى تأسست "منظمة البلدان المصدرة للبترول" (أوبك) بقيادة السعودية عام ١٩٦٠ وكانت لجنة سكك حديد تكساس هي – في الحقيقة – أوبك الأمريكية في زمانها.

إن الإمداد الأمريكي الضخم لطاقة رخيصة، زود أمريكا بقوة القيادة الكونية، وقد بلغ دخل الفرد في الولايات المتحدة عام ١٩١٣، ٥٫٣٠١ دولار، كان ذلك أعلى من الـ ٤٫٩٢١ دولار التي في بريطانيا العظمى، القوة العظمى في ذلك الحين، وأصبحت الولايات المتحدة أكبر منتج في العالم للصلب، ولمنتجات أساسية أخرى عديدة[١٩]، وواجهت صناعة النفط، للحظة في الثمانينيات، صعوبة، عندما بدأت مصابيح توماس أديسون للإضاءة الكهربية تحل محل مصابيح الزيت، غير أن اختراع "العربة بلا حصان" عام ١٨٨٥ أنقذ هذا الزمن، وغير نمو صناعة السيارات وجه أمريكا والعالم، كان هنالك بالفعل زمن أن دخلت أمريكا الحرب العالمية الأولى، ٣٫٥ ميلون سيارة على طرق الولايات المتحدة، ونما هذا العدد إلى أكثر قليلاً من ٢٣ مليونا عند نهاية عام ١٩٢٩، وأصبح الأمريكيون يمتلكون ٧٨٪ من كل سيارات العالم[٢٠].

لم يكن النفط هاما فقط كقوة اقتصادية. لقد بدأت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ بقطارات تدار بالبخار، تحمل قواتنا إلى المعركة، والخيل تجر المدفعية وعربات الإمداد، وانتهت بعد أربع سنوات بدبابات بريطانية تدار بالجازولين وتسحق الخنادق الألمانية، والقوارب "يو" الألمانية تختنق من نقص وقود الديزل، وكما قال مدير "اللجنة الفرنسية العامة للبترول": كان النفط "دم النصر"، وقد جاء ٨٠٪ منه من الولايات

المتحدة[٢١]، وكانت المشاركة المبكرة، والمتواصلة، للنفط الأمريكى هى التى منحت النصر للحلفاء أكثر من القوات الأمريكية التى دخلت الحرب متأخرة.

وإذا كان النفط جزءًا أساسيا من اللعبة فى الحرب العالمية الأولى، فقد كان اللعبة كلها فى الحرب العالمية الثانية، وعند اندفاع اليابان بعيدا داخل الصين عام ١٩٤٠، بدأت مناقشة داخل الولايات المتحدة حول إذا ما كانت تفرض حظرًا على صادرات النفط التى كانت أساسية للآلة الحربية اليابانية، وخشية حدوث ذلك غزت اليابان الإنديز الشرقية الهولندية لتسيطر على حقول نفطها، وأخيرًا أدت سيطرة اليابان، فى يوليو ١٩٤١، على الهند الصينية إلى الحظر، كأمر واقع، فى ٢٥ يوليو، ومنذ تلك النقطة غدا الهجوم على بيرل هاربور، والحرب فى الباسفيكى، مجرد وقت فقط، كان اليابانيون رغم وجود آبار نفط الهند الشرقية فى أيديهم، فى حاجة إلى نقل حاجياتهم إلى جزائر وطنهم، كان خط الإمداد طويلا وعرضة للهجوم، وخسرت اليابان الحرب؛ لأنها لم تستطع الإبقاء على خط ناقلات البترول جاريا، وفى النهاية، كانت ناقلات البترول اليابانية تُغرق بنفس السرعة التى كانت تُنزل بها إلى الماء. وغدا الأسطول اليابانى غير فاعل لنقص الوقود، ربما تكون القنبلة النووية قد قدمت رصاصة الرحمة، لكن النقص فى النفط هو الذى أدى إلى هزيمة اليابان.

وقد جرت ذات القصة فى أوربا بعد فشل هتلر أساسًا فى الاستيلاء على موسكو؛ لأنه كان يتوجب عليه أن يحول جزءًا كبيرا من قواته، فى محاولة لوضع اليد على حقول نفط باكو، التى كانت أساسية لاستمرار مجهوده الحربى الكلى، وفى نفس الوقت جعلت النوعية الفقيرة للطرق الروسية القوات الألمانية تستهلك ضعف الوقود الذى كان مقدرا استخدامه، وفشل الألمان فى الاستيلاء على باكو، وبدأت جيوش هتلر تعانى بصورة واقعية قبل موسكو بحوالى عشرين ميلا نقصا فى الغاز.

وفشل هتلر مرة أخرى فى معركة بولجى، التى كانت محاولته الأخيرة لدفع الحلفاء إلى وراء البحر، بسبب نقص الوقود، حقا ما أن بدأت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى العمل على هزيمة أسطول الغواصات الألمانى فى شمال الأطلنطى

عام ١٩٤٢، وهو الذى كان يهاجم قوافل ناقلات البترول إلى إنجلترا، حتى كان مصير المحور قد تقرر نهائيا، وتدفق النفط دون أن يعترضه أحد من أمريكا ليمنح القوة لقوات الحلفاء التى كانت تستهلك إجمالا حوالى ٧ مليار برميل من النفط للقتال فى الحرب، وكانت تجيء ستة مليارات منها من أمريكا[٢٢].

عندما أُلغيت عملية ترشيد الجازولين التى اتخذت أثناء الحرب، فى الولايات المتحدة، ارتفعت الصيحة بعد تسليم اليابانيين بقليل، "املأ حتى النهاية"، وغدت تلك هى الشعار الوطنى الجديد، وانفجرت مبيعات السيارات ما بين نهاية الحرب فى أغسطس ١٩٤٥ ونهاية عام ١٩٥٠، وكانت قد هبطت أثناء الحرب، وبدأ الأمريكيون يطرحون نمط حياة جديدة كلية[٢٣]، لقد بنى الأمريكيون البلاد عبر قرون ثلاثة، ثم مروا بعقد ونصف من الركود، عانت البلاد فيها التقتير وقد أنكرت ذاتها، والآن جاء وقت الاستمتاع بحق بكورية الأمة من الطاقة الرخيصة.

بوبا يرهن حريته

إن فلات بوش بروكلين ضاحية نموذجية، شُيدت على مسافة ٢٠ دقيقة من القطار فى وسط مانهاتن، إنها تتكون من مجموعة منازل سكنية، منخفضة ومستقيمة، ذات أرصفة، منازل متقاربة حتى إنه يمكن للجيران تبادل الحديث بعضهم مع بعض من شرفاتها، بها مخازن ومدارس ومحطات قطارات، على مسافات يسهل قطعها سيرا على الأقدام، العربات ليست ضرورية هنا حقا، إنها فقط تسبب الإزعاج بضجتها فى الشوارع، إن فلات بوش قد جرى بناؤها دون وضع مسألة السيارات فى الحسبان، إن ازدهار أمريكا فيما بعد الحرب كان يدفعه، إلى حد كبير تشييد نوع مختلف للغاية من الضواحى، ونبتت وترعرعت تطورات إسكان جديدة في سرعة بعيدا عن المدن الرئيسية، فى تلك الأماكن التى يعتبرها الناس مناطق ريفية، غير أن ذلك الريف قدم نوعا جديدا من الضواحى مكونًا من مجموعات منازل مرتفعة ذات

منعطفات، دون أرصفة، مقامة على قطع أرض مساحتها نصف أكر أو أكثر، المسافات فيما بينها سيرا على الأقدام بعيدة، دون حوانيت فى الجوار أو محطات قطارات، لقد بدأت المنازل كبيرة، ثم كبرت أكثر مع الزمن، وقد غدت الحجرات العائلية، والمطابخ الريفية، وحجرات الخلوات ضرورية، إن تلك المنازل كانت بالطبع منضبطة طقسيا بصورة كاملة، ومتخمة بآخر طراز من الأدوات الكهربائية، وقد انتقل إلى الضواحى التى تماثل تلك خلال العشر السنوات التى تلت الحرب أكثر من تسعة ملايين شخص، وفى عام ١٩٧٦ أصبح عدد السكان الأمريكيين فى الضواحى أكثر من عدد سكان البلدان الريفية والمدن[٢٤].

إن على كل هؤلاء الناس بالطبع أن يحصلوا على ما يريدون تسوقه من مكان ما. وقام مول الضاحية استجابة لهذا الطلب، مرة أخرى اختلفت تلك الضواحى اختلافا بيِّنا عن حى المال القديم فى وسط المدينة؛ إذ بدلا من صفوف المتاجر فى أبنية عديدة الطوابق، أمامها طوار عام، قامت مناطق مقسمة فى الضواحى، طبقا للقانون المحلى بأوامر شرعية، مناطق من مجموعات متاجر منخفضة الارتفاع، وسط الباحات المخصصة لوقوف السيارات؛ مما يجعل السير من متجر إلى الآخر الذى يليه مسألة غير عملية، فى تلك الأثناء كان وجه وسط المدينة يتغير أيضا، وغدت المدن المركزية، مع حياة أعداد كبيرة للغاية من الناس فى الضواحى، مجمعات من أبنية مكتبية عالية الارتفاع، غير أن تلك المبانى لم يكن يستخدم القرميد والحجارة فى تشييدها كما كان الحال فى الأيام الخالية، كانت أبراجا زجاجية براقة تعمل كمغاطس حرارية صيفا، وكثلاجات شتاء، وحتى تكون صالحة للسكنى، كان ذلك يتم فقط بأنظمة تتحكم فى درجات الحرارة تعمل بالطاقة الرخيصة.

لم يكن يعيش فى الضواحى النموذجية، فى البداية، تركزات من الناس كبيرة، تبرر الاستثمار فى خط خاص للسكك الحديدية، فوُضعت فى إطار سلطة المدن التى يمكنها وضع أنظمة نقل عامة؛ لذا كانت السيارة هى الوسيلة الوحيدة للوصول إليها أو حولها، وكان هنالك عامل آخر يعمل، كان على الشركات الخاصة أن تستثمر فى

خطوط السكك الحديدية، وتقوم بصيانتها، وتدفع عنها الضرائب، بينما كانت الحكومة هى التى تعد الطرق إعداداً جيدا، وغدت إقامة الطرق جنبا إلى جنب مع بناء المنازل، صناعة مزدهرة، كان النموذج الأصلى لكل هذا هو لوس أنجلوس؛ حيث تم هنالك تحطيم نظام نقل عام، كان ريشه قد نبت منذ عهد قريب، عندما اشترى كونسورتيوم(*) مكون من شركات السيارات والوقود والإطارات، شركات الترام، وأغلقها واقتلع مساراتها، وحول طرق الترام إلى طرق للسيارات، كانت الفكرة هى زيادة سوق الأوتوبيسات والسيارات والإطارات والوقود، ونجح الكونسورتيوم.

أخذت كاليفورنيا على عاتقها، عام ١٩٤٧، بناء نظام طرق ضخم يمكن أن يرتبط كشبكة إقليمية واحدة، وسرعان ما تبعتها نيوجرسى بجاردن سيتى باركواى(**)، ونيوجيرسى تيرن بايك(***)، وتوالت غالبية الولايات بعد ذلك بقليل، وافتتح الرئيس إيزنهاور عام ١٩٥٦ كل مشروعات تلك الطرق بتوقيعه "قانون الطرق العام ما بين الولايات"، والذى استهدف إنشاء شبكة وطنية من الطرق الأوتوستراد وقدرها ٤١٠٠٠ ميل، وقد تم دعم المشروع أساسًا باعتباره إجراء أمن قومى، يمكن أن ييسر الإخلاء السريع للمدن فى حالة هجوم ذرى، لكن الأمر لم يكن - على أى حال - أمرا عسكريا، كان أقرب إلى ممارسة مجموعة واسعة من صناعات السيارات، والنفط، والمطاط، والعقار، والشاحنات الكبيرة، والباحات المخصصة لوقوف السيارات، ضغطا حتى يشق هذا المشروع طريقه، وقد قال إيزنهاور عنه: إنه "سوف يغير وجه أمريكا"(٢٥). وقد فعل.

إن الناس لم تنقل سكناها فقط إلى الضواحى، بل بدؤوا نقل مكاتبهم إلى هناك بالمثل، إن زيادة السفر بالطائرات جعل وجود المكاتب، إلى جانب المطارات أمراً

(*) اتحاد مالى (المترجم).

(**) الشارع العريض المزدان بالأشجار ورقعات العشب حديقة للولاية (المترجم).

(***) الطريق الرئيسى لنيوجيرسى (المترجم).

جذابا، إن الخطوط الجوية والمطارات، مثلها مثل الطرق، تشيدها الحكومة وتصونها، وتحول المسافرون فى أسراب إلى النفاثات الجديدة، ليس فقط لأنها تقلل وقت الطيران، ولكن أيضا لأنها خفضت الأسعار نتيجة تكلفة الوقود المنخفضة، وتضاءل فى تلك الأثناء النقل العام والسكك الحديدية؛ إذ أقبل الأمريكيون على الطرق والسماوات المدعومة.

وفى عام ١٩٧٥، كانت البلاد قد صممت وشيدت لتكون فى صالح السيارات والطائرات أكثر من القطارات والأوتوبيسات، والنقل الخاص أكثر من النقل العام، وعاشت الغالبية منا فى منازل كبيرة واسعة المساحة، بعيدة عن أعمالنا، أو أى مكان آخر يمكن أن نذهب إليه، إن نمط الحياة الذى أعطته لنا الطاقة الرخيصة لم يعد اختيارا: إنه أسلوب بناء البلاد تحديدا هو الذى تطلب ذلك.

كان السبب التقريبى لهذا التحول هو السيارة، التى تغيرت هى أيضا، إن الناس يقضون الكثير للغاية من الوقت فى سياراتهم، ويرون فيها تعبيرا عن شخصياتهم؛ لذا غدت السيارات بالتدريج أكبر، وأكثر قوة، وأكثر رفاهية. إن الأطراف الخلفية والغطاء والمصدات المدهونة بالكروم زينت السيارات التى نما طولها إلى ٢٥ قدما، وأصبح التغيير الآلى والتكييف معيارا، كذا فعل المحرك V-8 الذى بلغت قوته أكثر من ٢٥٠ حصانا\ أى فرق أحدثه ذلك الذى حدث، فى الوقت الذى كان استهلاك السيارة فى عام ١٩٧٣، ١٣ ميلا فقط للجالون الواحد؟ لم يكن الغاز يشكل أى مشكلة.

صدمات

كان الوضع يتجه بالفعل إلى أن يكون مشكلة لبعض الوقت، وقد كتب هارولد أيكس وزير الداخلية، مبكرا عام ١٩٤٣، مقالا بعنوان، "إننا عرضه لنفاذ البترول"، إن اكتشافات العشرينيات والثلاثينيات لم تعد تتكرر، مع ارتفاع الاستهلاك. وأصبح لا مفر من احتمال تحول الولايات المتحدة إلى مستورد خالص. وتجسدت هذه الحالة

بصورة أسرع مما كان متوقعا عام ١٩٤٨، عندما تجاوزت واردات الولايات المتحدة صادراتها من النفط[٢٦]، لم تكن أمريكا، مع وصول أول مستوطنين إلى جيمس تاون تعتمد على الغير، فيما تحتاجه من طاقة، لكنها الآن غدت كذلك.

لكننا لو وضعنا جانبا تمثيل ذلك لتغير تاريخى، فإن التحول لم يكن مثيرا لكثير من القلق فى حينه، لقد قامت لجنة سكك حديد تكساس بالحفاظ على استقرار الأسعار، وذلك بالإبقاء على الإنتاج الفعلى أقل من الطاقة القصوى، ودفعت هذه الممارسة، كناتج ثانوى، بقدرة متدفقة وقت الأزمات، كانت هذه القدرة المتدفقة هى التى وفرت هامش النصر فى كل من الحربين العالميتين، وظلت تلك القدرة، منذ عام ١٩٤٨ حتى أواخر الستينيات، عند حد ملايين عديدة من البراميل فى اليوم الواحد، غير أن الاستهلاك تصاعد رغم كل التوقعات، ليس فقط فى الولايات المتحدة، ولكن فى كل أنحاء العالم، فقد تعافت أوربا واليابان، وبدأت بلدان أخرى عملية التصنيع، وقد ارتفع استهلاك النفط فى العالم الحر من ١٩ مليون برميل يوميا إلى أكثر من ٤٤ مليون برميل[٢٧] فى اليوم، وفى عام ١٩٧٠، عندما بلغ إنتاج الولايات المتحدة ذروة قدرها ١١,٣ مليون برميل فى اليوم، انخفضت الطاقة المتدفقة إلى مليون برميل يوميا[٢٨]، ومن هناك سار الكل إلى انحدار، وفى عام ١٩٧١ رُخص للجنة السكك الحديدية بالإنتاج حتى الطاقة القصوى، ورغم ذلك صعدت الواردات سريعا من أكثر من ٢ مليون برميل يوميا عام ١٩٦٧ إلى ٦ مليون، أى أكثر من ٣٥٪ من استهلاك الولايات المتحدة عام ١٩٧٣[٢٩]، وفى عام ١٩٦٨، أبلغت "إدارة الدولة"، "منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية" (أو أى سى دى) فى باريس أنه فى حالة حدوث أزمات مستقبلية فإنه لن يكون هنالك تدفق للإمداد من الولايات المتحدة[٣٠]. إن العالم والولايات المتحدة يعتمدان الآن، وبشدة، على إنتاج الشرق الأوسط، والذى يعد واحداً من أكثر المناطق غير الآمنة فى العالم، وهذا الاعتماد سوف يتزايد.

ورغم أن النفط كان معروفا منذ قديم الأزمان، فإنه لم يصبح مركز اهتمام تجارى فى الشرق الأوسط حتى عام ١٩٠٠، عندما اقترح شاه فارس المفلس على

دبلوماسى بريطانى متقاعد إمكانية بيع امتياز للتنقيب عن النفط فى فارس، وذلك فى محاولة منه لدعم وضعه المالى الذى كان يعانى دوما من عدم الاستقرار، وبعد عدة مغامرات اشترى ويليام كنوكس دأركى الامتياز وهو صاحب مشروعات بريطانى، حقق ثروة من استخراج الذهب فى أستراليا، وفى صباح ٢٦ مايو عام ١٩٠٨، وبدعم مالى من الحكومة البريطانية، حقق البئر تدفقا غزيرا، كما حققت شركة دأركى عام ١٩٠٩، ما أسمته الأجيال اللاحقة من أصحاب المشاريع الأمريكيين "أى بى أو" (التقديم العام الأصلى)، الذى أصبح اسما عاما مثل أنجلو برسيان أويل كومبانى(*). واشتدت المنافسة البريطانية مع ألمانيا، عبر السنوات الخمس التالية بثقل، بناء على دفع قوى من الشاب وينستون تشرشل، من أجل إحلال السفن الحربية التى تعمل بالنفط كوقود محل تلك التى تدار بالفحم كوقود، وفى يونيو عام ١٩٤١، اشترت حكومة صاحب الجلالة ٥١٪ من أنصبة الأنجلوبرسيان، وكانت النتيجة صفقة اتسمت بالحكمة؛ حيث أنتجت الأنجلوبرسيان أويل كومبانى ٢٠٪ من النفط الذى استهلكه أسطول صاحب الجلالة، أثناء الحرب التى كانت قد بدأت من أغسطس من ذلك العام(٣١).

إن قصة اكتشاف وتنمية حقول نفط الشرق الأوسط العظمى حكاية أسرة ومركبة، وطويلة للغاية، لنسردها هنا تفصيلا، يكفى القول أنه بعد ضربة دأركى فى فارس، كان السباق قد بدأ، وأصبح المشايخ المعدمين على امتداد الشرق الأوسط فجأة موضع ود ومحبة من أصحاب مشروعات النفط الغربيين، بحثًا عن امتيازات حفر، وحصل البريطانيون نتيجة وضعهم الإمبراطورى على أكثر تلك الامتيازات فى البلدان التى غدت إيران والعراق والكويت، غير أنهم عملوا - بصورة ما - على إقناع أنفسهم بعدم وجود نفط فى شبه الجزيرة العربية. ولذا فإنه عندما توجهت ستاندار أويل أوف

(*) الشركة الإنجليزية الفارسية للنفط (المترجم).

كاليفورنيا (سوكال) إلى الملك بن سعود للحصول على امتياز للتنقيب فى العربية السعودية، أخبر دبلوماسى بريطانى الملك الذى كان ممتنعا عن السماح لأجانب بشق ثقوب فى مملكته أن يأخذ النقود لأنه لا يوجد نفط لديه، وأنه بذلك يحصل على النقود، وسرعان ما سيغادر الأجانب، ولكن فى مارس عام ١٩٣٨ تدفق الدمام رقم ٧، والباقى تاريخ.

كانت الشركة التى عثرت على النفط فى العربية السعودية شركة أمريكية، تحولت فيما بعد إلى شركة هامة للغاية، رغم طرد حكومة الولايات المتحدة فى ذلك الوقت عندما تقدمت سوكال باقتراح لم يكن له ضرورة، للتمثيل الدبلوماسى للولايات المتحدة فى المملكة. وعند بداية الحرب العالمية الثانية، عرف الجميع بوجود كميات كبيرة من النفط فى الشرق الأوسط وخاصة فى شبة الجزيرة العربية وأثناء مجرى الحرب، قامت الولايات المتحدة، بعد أن صرفت النظر عن الاقتراح باعتباره غير هام، باستخدام "تمويل الإعارة والتأجير" لدعم صيانة حقول نفط السعودية، ورغم ذلك، كان إنتاج الشرق الأوسط هامشى الأهمية، فقط، أثناء الحرب.

وتغير ذلك سريعا عندما أصبحت الأربعينيات خمسينيات؛ ففى عام ١٩٤٦ جاء ثلاثة أرباع النفط الأوربى من أمريكا، وفى عام ١٩٥٢ جاء أكثر من النصف من الشرق الأوسط[٣٢]، إن التحول إلى إنتاج الشرق الأوسط، ونهاية الكولونيالية، ونهوض الوطنية فى المنطقة، وتأسيس دولة إسرائيل الذى أوجد وضعا مركبا مصحوبا بموضوعين رئيسيين. الأول: صراع متصل (قدر له أن يكون ناجحا) قامت به حكومات البلدان المنتجة من أجل انتزاع السيطرة على النفط وتسعيره بعيدا عن شركاته. وكان الثانى وما زال غير ناجح هو محو إسرائيل أو تقييدها بشدة.

وثارت أزمة النفط الأولى عندما أممت إيران (فارس سابقا) االأنجلوبرسيان أويل كومبانى؛ مما أثار اضطرابا كبيرا، ومقاطعة فعلية من بريطانيا ضد الشركة المؤممة حديثا، والتى قلصت تدفق نفط الشرق الأوسط إلى الأسواق العالمية، وملأت لجنة سكك

حديد تكساس، ذات القدرة الهامة المتدفقة، الفجوة بسهولة، على أى حال، ولم يصب المستهلكين ضررا، وثارت الأزمة الثانية عام ١٩٥٦، عندما تحرك الرئيس المصرى جمال عبد الناصر وأمم شركة قناة السويس المملوكة للبريطانيين والفرنسيين، وتحكم فى الحركة عبر الممر المائى، وفى رد فعل على ذلك، هبطت قوات بريطانية فرنسية، فى تحالف مع إسرائيل، فى محاولة للسيطرة على منطقة القناة.

وبالطبع، أغلق ذلك القتال انسياب النفط من الشرق الأوسط إلى أوربا وأوقفه، كان البريطانيون والفرنسيون يعتمدون على دعم الولايات المتحدة فيما قاموا به من عمل، غير أن الرئيس إيزنهاور، الذى بوغت بما حدث، كان مقتنعا بأن ذلك سوف يدفع العرب، فقط نحو السوفيت؛ ولم يطلب من البريطانيين والفرنسيين أن يغادروا فقط، لكنه رفض أيضا أن يجعل الطاقة المتدفقة متاحة لهم، ما لم يفعلوا ما طلب، كان ذلك تهديدا حاسما، وما أن ترك الغزاة مصر، حتى قدمت لجنة سكك حديد تكساس ما أنقذ أوربا من الخسارة والأذى.

ونشأت الأزمة الثالثة فى حرب الأيام الستة التى بدأت فى ٥ يونيو عام ١٩٦٧، عندما وجهت إسرائيل ضربة استباقية ضد القوات المصرية والسورية التى كانت تهددها، ودار الحديث عن سلاح النفط فى الدوائر العربية لوقت ما، والآن استل هذا السلاح من غمده، وأعلن وزراء البلدان العربية الحظر فى السادس من يونيو. وفى ٨ يونيو كان الشحن بالسفن قد انخفض بنسبة ٦٠٪[٣٣]، وغدت الحالة حرجة؛ إذ إن أوربا تحصل الآن على ثلاثة أرباع حاجاتها المتنامية بسرعة من النفط من الشرق الأوسط، وهبت لجنة السكك الحديدية، على أى حال، مرة أخرى إلى الإنقاذ، مطلقة العنان لمليون برميل يوميا من قدراتها المتدفقة. وفى يوليو كان من الواضح أن سلاح النفط كان سيفا من مطاط.

وتغير سوق النفط بطريقة حاسمة عام ١٩٧٣ لم تعد الولايات المتحدة هى ممول الملاذ الأخير، كانت العربية السعودية هى ذلك الملاذ، وحتى الولايات المتحدة كانت

تعتمد عليها من أجل برميل النفط الأخير، وتشكلت الأوبك(*) عام ١٩٦٠ كجزء من نضال البلدان المصدرة لتنتزع العائد والتحكم بعيدا عن شركات البترول، لم تكن بعد اسما مألوفا، وقد أحرزت بعض النجاح، غير أن حالة السوق فيما يتعلق بفائض الإمداد والقدرة المتدفقة للولايات المتحدة دمرت جهودها بصورة متواصلة، وقد شجعتها الظروف الجديدة، على أى حال، على اتخاذ خط متشدد فى اجتماع مفاوضاتها السنوية مع الشركات، الذى انعقد فى ٨ أكتوبر ١٩٧٣، فى فيينا، ففى ٧ أكتوبر، يوم كيبور فى إسرائيل، شن القائد المصرى أنور السادات هجوما مفاجئا على قوات إسرائيل التى تحتل سيناء وغزة، وقدمت الشركات، على مائدة المفاوضات، فى فيينا زيادة فى الأسعار قدرها ١٥٪ ليصل سعر البرميل إلى حوالى ٣,٤٥ دولار(٣٤)، وضحك وزراء النفط فى الأوبك، كان ردهم الضعف أو لا شىء، وفى تلك الأثناء كان السادات يتوسل إلى إخوته العرب؛ كى يجربوا سلاح النفط مرة أخرى، فى محاولة للضغط على الولايات المتحدة وأوربا لإجبار إسرائيل على التراجع، وترددت العربية السعودية وقد تمزقت بين عدم رغبتها فى عزل الولايات المتحدة، والإحساس بالظلم الذى تشارك فيه باقى العرب حول خلق إسرائيل، لكنها وافقت حينذاك، وفى ٧ أكتوبر أعلن الحظر، وقد أثبت سلاح النفط هذه المرة أنه سيف من صلب توليدو(**)!.

وربط الناس بالفعل فى بلجيكا حيث كنت أعيش فى ذلك الوقت، خيولهم وثيرانهم إلى سياراتهم لنقص الغاز، وزودت أنا سيارتى المؤجرة، خلال رحلة إلى المقر الرئيسى لشركتى فى فيلادلفيا، بالكتب والمجلات لقتل الوقت فى خطوط الغاز، وبلغ سعر النفط الخام فى ١٦ أكتوبر ٥,٤٠ دولار للبرميل، وأصبح السعر فى منتصف ديسمبر ١٧ دولارا للبرميل، وارتفعت الأسعار فى المضخات فى الولايات المتحدة

(*) منظمة البلدان المصدرة للبترول (المترجم).

(**) السيف الطليطى – نسبة إلى طليطلة بالأندلس (المترجم).

٤٠٪[٣٥]، وأخيرا تفاوض هنرى كسينجر من أجل إنهاء الأعمال العدائية، ويتطلع السادات الآن إلى إقامة روابط جديدة مع الولايات المتحدة، ودعا العرب إلى غمد السيف، الأمر الذى فعلوه فى ١٨ مارس.

وظل بنيان القوة الجديد قائما، رغم انتهاء الحظر، كان ذلك هو العصر الذهبى للأوبك؛ وعاد الاستقرار إلى الأسواق خلال الخمس سنوات التالية، رغم ارتفاع الأسعار أكثر مما تصوره أى أحد. ثم جاء خلع شاه إيران، وصعود آية الله الخومينى، وإغلاق حقول النفط فى أواخر عام ١٩٧٩، مرة أخرى حلقت الأسعار، وحل الذعر، كان الأثر على الاقتصاد العالمى هائلا؛ ودخلت البلدان الصناعية فى ركود عميق، وانخفض إجمالى الناتج المحلى فى الولايات المتحدة ٦٪، وتضاعفت البطالة إلى ٩٪[٣٦]. وتوقف الاقتصاد اليابانى عن النمو لأول مرة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وكان الأسوأ هو مأزق البلدان النامية التى لا تنتج، ولديها قدرة محدودة على تحمل عبء الأسعار العالية، وأصاب الركود الاقتصاد الكونى، غير أن سيل النقود تدفق فى خزائن الأوبك، ليعاد تشغيله إلى حد كبير من خلال بنوك الولايات المتحدة وأوربا، فى شكل قروض للبلدان النامية التى كانت مدينة بصورة متزايدة، وطالب الرأى العام الكونى بمعرفة إن كان هنالك سبيل أفضل.

العلاج بالصدمة

كان نفس السؤال قد سئل بالفعل، منذ ثلاثين عاما على وجه التقريب؛ إذ ثار الكثير من النقاش حول البدائل لضمان أمن الإمداد، عندما غدا واضحًا فى منتصف الأربعينيات أن احتياطيات نفط الولايات المتحدة يحتمل أن يكون لها حدود، وقد دافع البعض عن زيادة الواردات زمن السلم حتى يمكن الإبقاء على الاحتياطيات المحلية لحالات الطوارئ؛ ولم تنفذ هذه الفكرة قط، ولكن فرضت بالفعل حصص نسبية على الواردات، فى محاولة للإبقاء على المنتجين المحليين رابحين، ونظريا للبحث عن المزيد

من النفط. وبدت الولايات المتحدة، مع وجود كميات كبيرة من الفحم والزيت الحجرى فى جبال روكى، فى وضع مثالى لتحقيق صناعة نفط بطريقة تركيبية تصنيعية، يمكن أن تضمن إمدادات لا نهائية، وفى عام ١٩٤٧ اقترحت الإدراة الداخلية مشروعا على نمط - مانهاتن بتكلفة قدرها عشرة مليارات من الدولارات لإنجاز صناعة وقود تركيبية تصنيعية خلال السنوات الأربع أو الخمس التالية ... وأخيرا اعتمدت ٨٥ مليون دولار للبحث، لكن البرنامج مات حيث اتضح أن الزيت المصنع سيكلف عمليا أكثر من النفط الأجنبى الرخيص، الذى كان متاحا للحال حينذاك[٣٧].

وأوجد النجاح فى معالجة أزمات النفط المبكرة، خلال العقدين التاليين - إحساسًا بالأمن منع من طرح السؤال الخاص بـ"السبيل الأفضل". يقينا، لم يسأل أحد من مستشارى الأمن القومى للأمة هذا السؤال، عندما باع إيزنهاور، فى واحدة من سخريات التاريخ العظمى، مشروع الطريق العام ما بين الولايات؛ الأمر الذى يمكن أن يفاقم بصورة كبيرة، تعرض أمريكا لهجوم موردى النفط الأجانب، باسم الأمن القومى[٣٨]، عندما كتب دين أتشيسون - وزير الخارجية السابق - سيرته "حاضر وقت الخلق" بعد حرب الأيام الستة، علق أنه لو "وُضع جزء من استثمارنا فى برنامج الفضاء، فى عملية تطوير سيارة كهربائية عملية، ومصانع طاقة نووية، هنا وفى أوروبا، لكنا فعلنا الكثير لحل مشكلة تلوث هوائنا، وحررنا أوربا من الاعتماد على الشرق الأوسط، والاتحاد السوفيتى من دوافعه لاختراقه"[٣٩]، ولم ينتبه أحد حينذاك، لكن السؤال عاد الآن وأكثر إلحاحًا من أى وقت مضى.

وكان رد طوكيو وأوربا على أزمة ١٩٧٨ مباشرا وعنيفا، أخرجت الوزارة اليابانية القوية للتجارة الدولية والصناعة (ميتى) المصاعد التى فى مبانى مراكزها الرئيسية من الخدمة فخفضت الحرارة شتاء، وتكييف الهواء صيفا، كنت كما أتذكر، أتصبب عرقًا، بالمعنى الحرفى للكلمة، أثناء دورات التفاوض فى تلك الأيام، أو أرتجف بدلا من ذلك، فى وجود زملائى اليابانيين الذين يرتاحون فى صدريات صوفية، تلك الإجراءات كانت بالطبع رمزية، لكنها وضعت الأسلوب الذى مكن اليابان من تبنى سياسات جديدة

صارمة. والتزمت اليابان، من ناحية الإمدادات، ببرنامج ضخم لإقامة مصنع للطاقة النووية، وتوفير إمدادات من الغاز الطبيعي السائل من جنوب شرق آسيا وروسيا، والتحول من النفط إلى الفحم حيثما كان ذلك ممكنا، وكانت الأكثر أهمية، على أي حال، هي الجهود التي تبذل لتخفيض الطلب عن طريق صيانة الطاقة، ووضعت معايير عالية الفاعلية من أجل تطبيقات جديدة، ورُفعت الضرائب على الجازولين وأسعار الكهرباء، وعملت الحكومة والصناعة على خلق عمليات ومعدات أكثر فاعلية، وربما كان الأكثر أهمية هو إقناع الحكومة اليابانية للعامة أن مستقبل اليابان متوقف على صيانة الطاقة، ومن ثم، حبذت القدرة الأسطورية لليابانيين على أن يحصلوا حتى على جزء صغير أكثر، من لا شيء، في ذلك الوقت، بدأت وزارة التجارة الدولية والصناعة في رسم خطط لتحويل بنية الصناعة اليابانية من الطاقة - الكثيفة إلى المعرفة - الكثيفة بقطاعات التقنية العالية، التي يمكن لليابان أن تتحدى بها، بطريقة درامية، الولايات المتحدة في الثمانينيات، وقد قال لي ناوهيرو أمايا، الذي كان حينذاك نائب وزير التجارة الدولية والصناعة: إن التجربة كلها كانت هبة إلهية مقنعة، لاشك أن سياسات تخفيض استخدام النفط، وزيادة فاعلية الطاقة - نجحا بصورة أفضل مما توقعه أحد، وفي عام ١٩٨٥، كانت اليابان تستخدم طاقة أقل بـ٣١٪ لإنتاج دولار واحد من إجمالي الناتج المحلي و٥١٪ كاملة نفطا أقل[٤٠].

لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فالسلطات اليابانية بفرضها ضرائب ثقيلة على الوقود والعربات، ضرائب كان يخصم جزء منها لصالح الوصول إلى نماذج طاقة فاعلة، قد أدخلت فاعلية هائلة في أسطول سياراتها وشاحناتها، إن كل الضرائب اليابانية، مثلا، تكاد تكون قد ذهبت إلى الغاز الطبيعي السائل، لقد باعت تيوتا وهوندا ٣٦٠٠٠ عربة هجين تدار بمزيج من الغاز والكهرباء، في الولايات المتحدة عام ٢٠٠٢، وكان استهلاكها أكثر من ٥٠ ميلا للجالون الواحد[٤١]. في حين لم يبع منافسوها شيئا في تلك الأثناء، وقد خفضت اليابان منذ عام ١٩٨٥ اعتمادها على النفط اللازم للاحتياجات الكلية للطاقة من ٦٠٪ إلى حوالي ٥٠٪، وكذا خفضت استخدامها للطاقة

لكل دولار من إجمالى الناتج المحلى ليكون هو الأقل بين البلدان الصناعية الكبرى، يضاف إلى ذلك أن لديها سياسة طويلة المدى تضعها على طريق تحسين فاعلية الطاقة بحوالى ٣٠٪ أخرى عام ٢٠١٠[٤٢].

وقلدت أوروبا بقيادة فرنسا اليابان، وذلك برفع ضرائب الجازولين وأسعار الكهرباء، المرتفعة بالفعل، بل سارت حتى أبعد من اليابان فالتزمت بالطاقة النووية، مع تبنى فرنسا سياسة جادة للغاية، كما قلد الأوربيون أيضا تأكيد اليابان على أعمال الصيانة، ومرة أخرى قادت فرنسا الطريق. أصبحت تدفئة المبانى لا تزيد عن ٢٠ درجة مئوية. ويقوم مفتشون بزيارات مفاجئة للتأكد من الإذعان والتنفيذ، بل حظر الفرنسيون أيضًا أية دعاية يمكن اعتبارها تشجيعا على استخدام المزيد من الطاقة[٤٣]، واستحثت أسعار الطاقة العالية، وكذلك برامج الحكومة اكتشاف وتنمية حقول نفط بحر الشمال، والجهود (التى عارضتها الولايات المتحدة بمرارة) لإحضار الغاز الطبيعى من الاتحاد السوفيتى إلى أوربا الشمالية، وأثبتت تلك السياسات، كما حدث فى اليابان، كفاءتها، بأكثر مما كان متوقعا منها، وبينما كان يغذى النفط والغاز الطبيعى والفحم متحدين ٦٣٪ من كهرباء فرنسا عام ١٩٧٣، فإن ٧٥٪ من الكهرباء اليوم نووية، بينما يصل النفط إلى أقل من ١٪[٤٤]. لقد حولت أوروبا غالبية السيارات من الجازولين إلى طاقة الديزل؛ مما زاد اقتصاد وقود أسطولها المرتفع بالفعل إلى أنماط جديدة من ٢٨ ميلا للجالون الواحد إلى ٣٥ ميلا للجالون الواحد[٤٥]، إن أوربا فعليا مستهلك منخفض نسبيا للطاقة التى بلغت ٨٤٠٠ بى تى يو(*) للدولار الواحد من إجمالى الناتج المحلى، وانخفضت بصورة مثابرة إلى ٧٤٠٠ بى تى يو عام ٢٠٠٢ وأوقف استهلاك الفرد للكهرباء فى أوربا، عند أقل من نصف ذلك الذى هو فى الولايات المتحدة[٤٦]، إن لأوروبا – مثلها مثل اليابان – خطة واضحة نحو المزيد من التنوع والصيانة، خطة تؤكد أيضا على بديل لمصادر الطاقة.

(*) وحدة حرارية بريطانية (المترجم).

وكان رد الفعل الأمريكى، من ناحية أخرى، متقلب، مرتبك، وفى الغالب منقسم، ففى عام ١٩٧٣ أعلن الرئيس نيكسون "مشروع الاستقلال": باسم روح مانهاتن ومشروعات "أبوللو" التى سوف تحقق للولايات المتحدة استقلال طاقتها حتى عام ١٩٨٠ [٤٧]، غير أن نيكسون سرعان ما اختفى فى فضيحة ووترجيت، ولم يرتق المشروع أبدا حتى إلى مرحلة التخطيط، ولم يحظ - على أى حال - بغير دعم شعبى قليل، لقد رأى الرأى العام أن طريق الحياة الأمريكية مهدد، وأقنعت جلسات الاستماع فى الكونجرس، فى ذلك الوقت، العديدين أن ما يحدق بهم من قصور إنما هو من خلق شركات النفط الكبرى، كان الناس يريدون من واشنطن أن تفعل شيئا، لكن هذا الشىء بدا وكأنه التخلص من خطوط الغاز، وإعادة الأسعار القديمة الجيدة، بينما تحمل الشركات على الدفع، واتبع الرئيس فورد، نيكسون، فاقترح خطة لمدة عشر سنوات لبناء ٢٠٠ محطة نووية، و٢٥٠ منجما كبيرا للفحم و١٥٠ مصنعا يدار بالفحم، ٢٠ مصنعا لإنتاج النفط المُصنع[٤٨]، ورفع نائب الرئيس نيلسون روكفلر حفيد مؤسس صناعة النفط الحديثة، رفع الرهان باقتراح برنامج يكلف ١٠٠ مليار دولار لتأمين الوقود المُصنع ومصادر طاقة أخرى لا تقبل المنافسة اقتصاديا[٤٩]، ورأى المعارضون من كل نوع أن لا شىء من هذا قد وجد طريقه حتى إلى طاولات الرسم.

واتخذت خطوتان، على أى حال، وسط كل هذا الخلاف والجدل، منحت ترانس الإسكان بيب لاين(*) سلطة التمكن من تنمية حقول نفط ألاسكا، كذا سُن تشريع عام ١٩٨٥ خاص بفاعلية الوقود، اقتضى أن يكون استهلاك السيارات فى المتوسط هو ٢٧,٥ ميلا للجالون الواحد[٥٠]، وقد جعل الرئيس كارتر من الطاقة موضوعه رقم (١) عندما تولى السلطة عام ١٩٧٧، وأدخل سياساته باعتبارها "المناظر الأخلاقى

(*) خط الأنابيب عبر الألاسكا (المترجم).

للحرب"[٥١]، وقد أشار بعض الهازلين إلى أن الكلمة المناسبة هى "مواء"؛ إذ لا شك كان لهذا النقاش، أحيانا، صدى أشبه بأنين القطط، وبعيدا عن متطلبات فاعلية وقود السيارات، كان هنالك تأكيد على أهمية الصيانة. كان النفط فى الحقيقة ما يزال خاضعا لإجراءات تسيطر على الأسعار مما أبقاه أرخص، بصورة زائفة، حتى يسعد الناس، لقد أعطى كارتر لهذا الأمر الأولوية حتى ترتفع أسعار النفط المحلى إلى أسعار السوق العالمى، فقط، حتى لا يعتقد الناس أن هنالك أزمة، وقد ربح فى النهاية فيما يتعلق بهذا، لكنه دفع ثمنا سياسيا غاليا، وقد اشتملت اقتراحات كارتر الأخرى على ضريبة "الإسراف فى استخدام الغاز" على سيارات تستخدم وقودا بذاته لا يتسم بالكفاءة، وضريبة تخصم لصالح السيارات ذات السرعة العالية على أساس الميل الواحد، وسلسلة من حوافز الضرائب والقواعد المنظمة تستهدف فرض التحول إلى مصانع منتجة تدار بالفحم، وخطة لمضاعفة محطات الطاقة النووية العاملة، وائتمان ضريبى للاستثمار فى معدات الطاقة الشمسية والمادة العازلة، وتغير من المعايير الطوعية إلى تلك الإجبارية للإذعان بفاعلية، ومعايير أداء إجبارية للمبانى الجديدة، وزيادة كبيرة فى تمويل البحث والتطوير، وحوافز لتنمية الطاقة من موارد متجددة، وإزالة الحواجز لاستخدام الكهرباء المنتجة صناعيا فى الشبكة العامة، وتكوين "احتياطى بترولى استراتيجى" لتوفير إمداد النفط لتسعين يوما، وذلك المشروع البديل، مشروع الوقود المصنع بـ ٢٠ مليار دولار حتى يتم فى النهاية إنتاج ٢,٥ مليون برميل يوميا من النفط من الطفل الصفحى بـ"جبل روكى"[٥٢].

ومما يثير الانتباه أنه لم يكن هنالك ذكر للنقل على نطاق واسع أو السكك الحديدية، ولكن لو كان هنالك ذكر، فالمحتمل أنه ما كانت تكتب له حياة، وانتهى الأمر إلى إلغاء الكونجرس لضريبة الغاز، وإلى تخفيض الرسم على أساس السرعة العالية فى الميل الواحد، بينما قتلت الحادثة النووية التى وقعت فى "جزيرة ثرى ميل" عام ١٩٧٨، بشكل أساسى أى توسع للطاقة النووية يجعل بناء محطة نووية فى الولايات

المتحدة محرما لارتفاع تكلفته نتيجة المقتضيات البيئية الجديدة الصارمة للغاية، هذا فضلا عن احتمال دعاوى قضائية، ومع ذلك، فإن برنامج كارتر أضاف بالفعل حوافز هامة للفاعلية الأعلى، وللتحول من النفط إلى مصادر أخرى للطاقة، وكانت هنالك نتائج، وقد استفدت أنا، جنبا إلى جنب، مع ملايين آخرين أمريكيين من الائتمان الضريبى لمضاعفة المادة العازلة فى منزلى، ولتزويده بسخان مياه شمسى، واتخذت الشركة التى أعمل بها خطوات هامة لزيادة الفاعلية، وتضاعفت الرسوم على السيارات طبقا للسرعة بالميل عام ١٩٨٥، وانخفض استهلاك الطاقة الكلية لكل دولار من إجمالى الناتج المحلى من ١٨,٤٠٠ بى تى يو إلى ٢١,٤٠٠ بى تى يو (مقارنة بالهبوط فى اليابان من ٥,٠٠٠ إلى ٣,٩٤٦)(٥٣)، وزادت – فى نفس الوقت – الإمدادات بمجىء نفط ألاسكا على الخط، ونشَّطت الأسعار المرتفعة – والحوافز – المزيد من اكتشافات النفط والغاز الطبيعى فى الولايات المتحدة.

غير أن إدارة ريجان بدأت – عند مجيئها – تحولا فى سياسات الولايات المتحدة، التى كانت أكثر قربا من الخط الذى يتماشى مع الأخلاقيات الشعبية الأساسية للبلاد، كنت فى ذلك الوقت مستشار وزير التجارة، وأتذكر السعار للتخلص من أشياء مثل مشروع "الوقود المصنع"، الذى كان يُشتَهر به أثناء الحملة الانتخابية باعتباره فيل الحكومة الأبيض (كندا دولة مصدرة للنفط، وقد احتفظت بمشروعها، واليوم فإن ٢٠٪ من النفط الذى تنتجه مُصنع)(٥٤)، وتم تخفيض التمويل الفيدرالى للمحافظة على الطاقة ٧٠٪، وخفضت الأبحاث الخاصة بالطاقة وتنميتها تخفيضا كبيرا بنسبة ٦٤٪، وأسقطت الاقتراحات الساعية لمعايير فاعلية أعلى للعربات الجديدة(٥٥)، وكان كل التركيز موجها إلى عملية العرض: استخدمت الحوافز الضريبية والقواعد المنظمة حثا للحفز وتعزيز الإنتاج، وازداد المعروض بالفعل، لكن كان ذلك فى الغالب بسيطا بسبب خط أنابيب ألاسكا، ولسياسة السعودية فى إبقاء الأسعار منخفضة بما يكفى ليجعل الاستثمار فى طاقة بديلة مسألة تفتقد الجاذبية، وللتوسع الكبير فى الإنتاج من بحر الشمال وماليزيا ونيجيريا والمكسيك، وأماكن أخرى.

وبانخفاض الأسعار سخر القادة من الحاجة إلى أى نوع من السياسات الصناعية الحكومية، وبدأت اتجاهات الاستهلاك سيرها فى الاتجاه المعاكس، وواصلت الطاقة اللازمة لإنتاج دولار من إجمالى الناتج المحلى الهبوط، وذلك للاستبدال التدريجى للسيارات القديمة بأخرى جديدة، ولأن آثار معايير التشييد الجديدة والعمليات الصناعية الجديدة واصلت شق طريقها عبر الاقتصاد، إلا أن الهبوط كان يتباطأ، حتى مع بقاء الولايات المتحدة ذات طاقة أقل فاعلية، إلى حد بعيد، من بلدان صناعية أخرى، وهبط استخدام الطاقة بالنسبة للفرد الواحد من ٣٦٦ مليون بى تى يو عام ١٩٧٣ إلى ٣١٤ مليون بى تى يو عام ١٩٨٣، إلا أنها عادت إلى ٣٥٢ مليون عام ١٩٩٧ - أى أكثر من ضعف معدلات اليابان وأوروبا، التى كانت ١٦٥ مليونًا و١٧٠ مليون بى تى يو على التوالى[٥٦]، إن حساب السرعة بالميل، عند استخدام الغاز فى السيارات الجديدة والشاحنات الخفيفة وسيارات الدفع الرباعى وصلت إلى ذروة ٢٥,٦ عام ١٩٨٨، ثم انخفضت، حيث الأسعار الحقيقية، للبيع بالتجزئة، هى ١,٠٨ دولار للجالون الواحد من الجازولين عام ١٩٧٢، ثم ارتفعت إلى ٢,٠٥ دولار عام ١٩٨١، ثم انخفضت إلى ١,١٥ دولار عام ١٩٩٧[٥٧]، واستعادت واردات النفط صعودها الثابت، بعد الهبوط من عام ١٩٧٧ إلى ١٩٨٧ وبلغت عام ١٩٩٧ الذروة التى كانت قد بلغتها عام ١٩٧٧[٥٨]، وارتفع متوسط القوة بالحصان للعربات الجديدة بثبات بعد عام ١٩٨٢[٥٩]. وهبط استخدام الطاقة المتجددة من حوالى ١٠٪ من إجمالى استهلاك الطاقة فى الولايات المتحدة عام ١٩٨٤، إلى ٦ر٧٪ كما كان فى عام ١٩٧٧، بينما كان السعر الحقيقى لبيع الكهرباء بالتجزئة، والذى كان قد ارتفع ٥٣٪ ما بين ١٩٧٣ و١٩٨٢، ثم انخفض ثانية فى عام ١٩٩٧، إلى حوالى مستوى عام ١٩٧٣[٦٠]، وحققت الثلاجات، مصادفة أو غير ذلك، تحسنا فى فاعلية الطاقة قدرة ٢٩٤٪ ما بين ١٩٧٢ و ١٩٩٣ وما أن تم بلوغ المعايير الإجبارية، حتى تحول المنحنى ليكون مسطحا تماما[٦١]، ولم يصدر أى أمر بإقامة محطات طاقة نووية منذ عام ١٩٧٨، فى حين كانت تهرم المحطات القائمة، وهبط احتياطى النفط الاستراتيجى، فى تلك الأثناء، من ارتفاع قدره ١١٥ يومًا من الإمداد فى عام ١٩٨٥ إلى ٥٢ يوم إمداد فى نهاية عام ١٩٩٩[٦٢].

وباختصار، فإن صورة طاقة الولايات المتحدة، وهى تدخل القرن الحادى والعشرين، كانت تماثل بشكل متزايد تلك التى كانت عليها عام ١٩٧٣.

إلى الخليج والعودة: التسعينيات

احتشد وزراء الأوبك، فى ٢٢ سبتمبر عام ١٩٨٠، فى فيينا، ليخططوا لتنظيم الاحتفال بالذكرى العشرين فى أواخر العام فى بغداد، المدينة التى تأسست فيها الأويك. ولم ينعقد الحفل البتة؛ إذ انفجرت فى ذات اليوم كراهية كانت تجيش، منذ زمن طويل، بين العراق وإيران الثورية الجديدة، إيران آيات الله، حرب بدأت بهجوم عراقى كبير على خدمات النفط الإيرانى، وتوقع العراقيون، بقيادة الرئيس صدام حسين، الذى سوف يعرف العالم عنه المزيد فيما بعد نصرا سريعا، غير أن الحرب دامت سبع سنوات طوال، أزالت خلالها عمليا كل الإنتاج الإيرانى والعراقى من الأسواق، كان ذلك مقياسا على أن الكيفية التى عالجت بها الأسواق والآليات اللازمة قد تغيرت، حتى إن العالم تجنب ذعرا آخر، رغم الارتفاع الفعلى للأسعار، والأكثر أهمية على أى حال هو أن الولايات المتحدة أُجبرت على وضع علمها فوق السفن الكويتية ومرافقتها لمنع الإيرانيين، الذين يكرهون الشيطان الأكبر، من الهيمنة على الخليج، وعندما استخدمت العسكرية العراقية الغازات السامة (التى أطلق عليها فيما بعد أسلحة الدمار الشامل) فى ربيع عام ١٩٨٨، لكسب السيطرة، وفرض الهدنة، لم تحتج واشنطن، ولا الأمم المتحدة، ولا وسائل الإعلام على ذلك، ورغم تجنب صدمة نفطية أخرى فإن هذه الحرب حددت بداية إنشاء قوة بحرية كبيرة للولايات المتحدة فى الخليج الفارسى، وفى عام ١٩٨٥ كانت الولايات المتحدة تتكلف ٥٠ مليار دولار سنويا لمجرد الحفاظ على ممرات الإبحار مفتوحة[٦٢].

وبدا بعد خمس سنين أن الأيام السعيدة تعود ثانية إلى هنا، حُطم سور برلين وكذلك أسعار النفط، كان الأمريكيون يدفعون ثمنا للغاز أقل من أى وقت مضى، منذ

الأربعينيات[٦٤]، كما لم يكن هنالك ما يشير إلى قلق طويل المدى، ازدادت إمدادات العالم من النفط بحوالى ٥٠٪، من حوالى ٦٠٠ مليار برميل عام ١٩٨٥ إلى أكثر من ٩٠٠ مليار عام ١٩٩٠[٦٥]، وتوقف القليلون فقط ليلاحظوا أن الزيادات التى أُضيفت للاحتياطيات جرت غالبيتها بين المنتجين الكبار العاملين فى الخليج الفارسى[٦٦]، إنك إن نظرت فى الحقيقة، عن كثب فإن الصورة تشبه صورة السبعينيات أكثر مما تشبه الثمانينيات، كان الطلب العالمى يتنامى فى سرعة، واستدارت إلى أعلى كل الخطوط البيانية لاستهلاك الولايات المتحدة، كان الإنتاج الأمريكى مسرفا غير فقير، ولم تكن هنالك موارد نفطية كبرى تنتظر دخول النظام، غير أنه لم يكن هنالك من ينظر عن كثب.

كان ذلك حقا باستثناء شخص أساسى واحد، ففى الثانية من صباح ٢ أغسطس ١٩٩٠، أعلن حليف أمريكا السابق صدام أنه قد أرسل ١٠٠,٠٠٠من قواته المسلحة لتحتل جارته الكويت، التى كانت منذ قريب داعمة له فى المعركة ضد إيران، وبعد أسبوعين، فى مصادفة كشفت وجود شىء آخر مجاور لذلك الذى يجرى، حملت الصفحة الأولى لـ وول ستريت جورنال، فى ١٧ أغسطس قصة تقول: إن إدارة بوش كانت تقاوم بقوة محاولة كبرى للمحافظة على الطاقة خشية تذكير الناخبين بسنوات كارتر عندما أُطفئت الأنوار فى البيت الأبيض[٦٧].

ورغم أن الولايات المتحدة اشترت فقط ١٢٪ من نفطها، فى ذلك الحين من الخليج، فإن السيطرة على الكويت كانت ستمنح صدام القدرة على التحكم فى ٢٥٪[٦٨] من احتياطيات نفط العالم، وتضعه فى وضع يهدد العربية السعودية، التى تمتلك ٢٦٪ أخرى، وربما يتحرك حينئذ لتسوية حساباته ضد إيران، التى لديها ٩٪ أخرى من احتياطيات العالم، وبينما لم يشكل صدام تهديدا مباشرا على الولايات المتحدة أو حلفائها، وأن عليه بيع هذا النفط – على أى حال – ليكسب أى فائدة منه، فإن الرئيس بوش رد بأشد الأساليب قوة، وأعلن أن "أعمالنا، ونمط حياتنا، وحريتنا، وحرية البلدان الصديقة فى العالم سوف تعانى كلها إن سقط التحكم فى احتياطيات النفط

الكبرى فى أيدى صدام حسين"[٦٩]، وحشد الرئيس - بالطبع - ائتلافا كبيرا، وبدأ عملية عاصفة الصحراء المكونة من ٥٠٠,٠٠٠ من القوات المسلحة تحت قيادة الجنرال "ستورمين" نورمان شوارزكوف، الذى أهلك عدداً عظيما من قوات صدام، خلال مائة ساعة، مستعيدا استقلال الكويت، وسلما مضطربا فى الخليج، ومما يثير الدهشة أن النصر تحقق بعدد يزيد بصعوبة عن ٦٠٠ جريح وقتيل، ورغم أن الحرب كلفت ٦١ مليار دولار، فإن اليابان وحلفاء آخرين دفعوا منها ٥٤ مليار دولار بدلا من إرسال قواتهم[٧٠]، بالطبع لابد للخليج أن تجرى حراسته الآن بصورة أكثر يقظة وحذرا، إن أيا من هذه لم يحقق أى تغيير فى سياسات الولايات المتحدة أو اتجاهاتها فيما يتعلق بالطاقة، وظلت منحنيات الاستهلاك البيانية تصعد فى رشاقة إلى أعلى، ورغم أن وزير الخارجية جيمس بيكر أبلغ مجلس النواب، فى فبراير ١٩٩١ بأنه، "لا بد أن نفعل أكثر لاعتمادنا على الغير فى مجال الطاقة"[٧١]، فإن الرئيس عند تقديمه استراتيجيته الجديدة الخاصة بالطاقة فى مارس - لم يأت على ذكر للمحافظة أو الفاعلية - وطالبت الخطة بالحفر بحثا عن نفط جديد فى الأركتيك ناشيونال ويلد لايف رفيوج(*)، لكنه خفض الإنفاق على النقل على نطاق واسع، ورفض أى زيادة فى معايير فاعلية وقود السيارات[٧٢]، وقد قاوم كلينتون الدفع إلى الحفر فى القطب الشمالى وأى أراض وطنية، وشدد العديد من إجراءات التحكم البيئية، لكنه لم يغير بصورة هامة سياسات الأمة وممارساتها فيما يتعلق بالطاقة.

وجاءت حرب الخليج بالفعل بواحد من التغييرات الهامة للغاية، فقد انزعج سليل الأسرة السعودية الثرية أسامة بن لادن انزعاجا شديدا، لإقامة قاعدة جوية ضخمة، ونشر قوة كبرى للولايات المتحدة جنوب الرياض، على أرض العربية السعودية المقدس، واعتبر هذا إهانة فاضحة، ليس فقط للعربية، ولكن أيضا للإسلام ذاته، فأعلن الجهاد (الحرب المقدسة) على الولايات المتحدة، ومن غير المحتمل حتى لرجل ثرى للغاية أن

(*) القطب الشمالى الوطنى مأوى الحياة البرية (المترجم).

يتصور، كما يشاء صدى هذا الكلام، أنه فى وسعه هزيمة القوة العظمى الوحيدة المتبقية فى العالم، لكن خبرة ابن لادن، مع حرب أمريكية أخرى، منحته سببا للثقة، ففى عام ١٩٧٩ غزا الاتحاد السوفيتى القديم أفغانستان واحتلها، وساعدت الولايات المتحدة خشية انتشار النفوذ الشيوعى على تنظيم وتسليح المجاهدين، المقاتلين المسلمين فى سبيل الله، الذين فى وسعهم شن الجهاد ضد الجيوش السوفيتية الشيوعية، الكافرة، وهزيمتها بمساعدة الله والنقود الأمريكية وصواريخ ستينجر، وكان ابن لادن واحداً من هؤلاء المقاتلين، وغدا مقتنعا بأن السقوط الذى تلى ذلك للاتحاد السوفيتى كان نتيجة مباشرة لأعمال الإذلال التى باشرها فى أفغانستان، وقد أقنعه ذلك أيضا أن الله كان معه، وما دام الأمر كذلك فإن أحدا لن يستطيع الوقوف ضده بنجاح. ولذا، فإنه عندما قرر، فى أعقاب حرب الخليج، تقبل تحدى القوة العظمى المتبقية غير المنهزمة، كان على ثقة تامة فى النجاح النهائى.

إن صدام حسين – وهو مارق حقيقى – دون التباس البتة فى غموضه، قد عاد دون شك، اليوم مرة ثانية، أو ربما نحن الذين عدنا مرة أخرى؛ حيث إن صدام لم يذهب بعيدا، إننا نقول: إن الموضوع اليوم، على أى حال، ليس هو النفط، لكنه أسلحة الدمار الشامل. وبينما كان لذلك حقيقته، فإنه عليك أن تتساءل: إن كان على صدام أن يبالى كثيرا سواء لم تمتلئ خزائنه بحاجات العالم من نفطه، أو سواء لم يجلس على قمة الـ ٧٠٪ من احتياطيات بترول العالم، أو يجلس بعد القمة مباشرة. إن منحانا يذكرنى بتعريف الجنون – شخص ما يكرر ذات النهج مرة بعد أخرى، وهو يتوقع نتيجة مختلفة فى كل مرة، من المتوقع من الدول النامية، بما فيها الصين والهند، بعدد سكانهما الهائل، وهما على طريق الصناعة كثيفة الطاقة – أن يتضاعف طلبهما على الطاقة ثلاث مرات خلال السنوات الخمسين القادمة[٧٣]، وفى نفس الوقت فإن تخفيض الإنتاج فى بحر الشمال وألاسكا وأماكن أخرى، باكتشافات جديدة فى الشرق الأوسط، يعنى فى الغالب الاعتماد العالمى المتزايد، دون شك، على نفط الخليج الفارسى، إن ذلك يتضمن نزاعا إلى مدى أبعد وتشابكا فى السياسات الخطرة للمنطقة.

بينما أكتب هذا الفصل فى خريف ٢٠٠٢، كان جارى قد أدار لتوه نافخ أوراق الشجر؛ ليبعد الأوراق التى تساقطت مؤخرا عن مرجه الأخضر فى عيد الشكر، إن له كرشا بعض الشىء، وربما كان جمع الأوراق أفضل له، غير أن استخدامه النافخ أيسر فهو رغم كل شىء، لا يكلفه غير بنسات فقط، إن الشعب الأمريكى، وقد اقتنع أن الطاقة الوفيرة الرخيصة هى من حقوق بكوريته، فإنه يقاوم أى قيد على "حريته" فى الاستهلاك، وهو ينكر أى قول عن الأزمة والحاجة حتى لتغييرات ضئيلة فى "نمط الحياة الأمريكية"، واستعاد استخدام الطاقة بالنسبة للفرد صعوده، دافعا بنصيب الولايات المتحدة فى استهلاك الطاقة الكهربية إلى أعلى مرة أخرى، دافعا واردات الولايات المتحدة نحو ١٥ مليون برميل فى اليوم الواحد، وهى المرادف للناتج الكلى لأكبر منتجين فى العالم، روسيا والعربية السعودية، وينمو العجز التجارى للولايات المتحدة، وهو الآن ٥٠٠ مليار دولار، ويتزايد بطريقة لا سند لها، غير أن قليلين هم الذين يبدون قلقين، إن قادة كل من الحزبين السياسيين يركزون على ما هو ضرورى أيا كان، لإبقاء الأشياء على حالها لأطول فترة ممكنة.

لذا أعلن الرئيس فى أعقاب ١١ سبتمبر عن خطة جديدة للطاقة الوطنية تقوم كلية على سياسة العرض، وقد طالب فيها بإجراء حفر فى القطب الشمالى الوطنى مأوى الحياة البرية، واسترخاء القيود المفروضة على الاستكشافات فى أراضٍ وطنية أخرى، وإقامة ألف مصنع طاقة خلال العشرين سنة القادمة، تدار أساسًا بالفحم، وحوافز لتطوير الغاز الطبيعى[٧٤]، وفى نفس الوقت خفض تمويل البحث حول تقنية طاقة جديدة، تخفيضا كبيرا، ورفض نائب الرئيس أية فكرة تقوم على أنه فى وسع الأمريكيين القيام بفعل أكثر بإمكانيات أقل، وقال: إنه بينما يمكن أن تكون الصيانة فضيلة خاصة، فإنه ليس فى وسعها حل مشاكل طاقة الأمة[٧٥]، ولم تشتمل الخطة على ضرائب على الغاز، ولا رسوم على سرعة السير بالميل، ولا أية إجراءات أخرى خاصة بالصيانة من أى نوع، وبينما كان يُقدم هذا البرنامج، كانت الإدارة أيضا تزيد

وزن وقوة القوات العسكرية للولايات المتحدة على امتداد العالم، وبشكل خاص فى الخليج الفارسى بسبب الحاجة لضمان انسياب النفط دون عائق، وسار الكونجرس فى مناقشاته على هذا النحو، اعترض على أى زيادة فى المعايير الاقتصادية للوقود، وقالت السيناتور بربارا ميكولسكى، ديمقراطية، من ماريلاند: إن فرق الأمهات لكرة القدم تحتاج إلى شاحنات نقل كبيرة لتكون آمنة من عثرات الطريق[٧٦]، وقال السيناتور زيل ميللر، ديمقراطى، من جورجيا: إن "الشاحنة الخفيفة هى الشاحنة المرجوة فى أمريكا الريفية"[٧٧]؛ حيث تحل الكثير من المشاكل، عند نهاية كل يوم عمل، أكثر مما تحل فى كل قاعات واشنطن دى سى، واختار الكونجرس ألا يفعل شيئا فيما يتعلق بسرعة السير بالميل عند استخدام الغاز، وكأنه يحاول دعم جانبه الخاص من معادلة ميللر، فى الوقت الذى صوت فيه بصورة ساحقة لتفويض الرئيس فى الذهاب إلى الحرب مع العراق.

وكان النموذج الذى يحتذى حينئذ هو أن نستخدم بقدر ما نريد، وأن ننتج بقدر ما نستطيع، وأن نقاتل من أجل الحق فى فعل الشيئين أيا كانت القوة العسكرية اللازمة لذلك، إننا عندما ندعو حلفاءنا للقتال معنا، فإننا نُعرِّف أى تردد منهم بأنه عدم الرغبة فى القتال معنا، وبالعداء لأمريكا، غير أن العديد من أصدقائنا الأجانب يتساءلون: إذا ما كان هنالك ضرورة للقتال إن تصرفنا نحن بمزيد مما يشابههم، وبأقل مما يشابه مارقا تالفا.

هنالك على أية حال مشكلة حقيقية مع التوجه التقليدى للولايات المتحدة إلى الطاقة: إنها تهدد بارتفاع ثمنها بطريقة تدفع إلى الخطر، فكر فى الوضع الكونى خلال العشر إلى الخمسين سنة القادمة، إن سكان العالم الحالى ٦ مليار فرد، والمتوقع وصول العدد إلى ٩,٢ مليار حوالى عام ٢٠١٥[٧٨]، إن هذا النمو سوف يتضاعف مع التصنيع الكونى المتزايد؛ مما سيدفع إلى زيادة سريعة فى الطلب على النفط الكونى من ٧٧ مليون برميل فى اليوم الواحد حاليا إلى ١٢٠ مليون عام ٢٠١٢[٧٩]، إن الشرق الأوسط يحتوى حاليا على ٦٣٪ من احتياطيات نفط العالم، وما

لم يتم العثور على حقول جديدة ضخمة، فإن انحدار إنتاج الولايات المتحدة وبحر الشمال سوف يدفع ذلك الرقم إلى ٧٠٪ فى غضون عشر سنوات[٨٠]، إن العربية السعودية وحدها تحتوى على ٢٥ - ٣٠ ٪ من احتياطيات العالم[٨١]، إن الزيادة فى الطلب سوف تتحقق، ومن ثم سيتم الوفاء بها كلية فى الغالب من الشرق الأوسط، وأساسًا من العربية السعودية، وحيث إنها اللاعب الذى لديه سعة فائضة، بشكل عملى، فإن العربية السعودية، مثلها مثل لجنة سكك حديد تكساس القديمة، سوف يكون لديها فاعلية سوق هائلة، وقد أطلق جيمس وولسلى المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية (سى آى إيه) على هذه الفاعلية إنها "المرادف لسلاح نووى"[٨٢]، إن اليابان تعتمد بالفعل كلية على هذا النفط، وسوف تصبح أوروبا والولايات المتحدة والصين والهند وآخرين هكذا قريبا.

إن للولايات المتحدة مع العربية السعودية تلك العلاقة الخاصة منذ سنين، إن السعوديين لا يبيعون فقط النفط إلى الولايات المتحدة بدولار أقل، من أى أحد آخر، للبرميل الواحد[٨٣]، لكنهم يسعرون أيضا نفطهم بالدولار؛ مما يساعد الولايات المتحدة على الإبقاء على الدولار باعتباره الوحدة الأساسية للحساب، إن هذه ميزة عظمى، إن كان لا بد من تسعير النفط باليورو، مثلا فإنه يكون على الولايات المتحدة أن تدفع باليورو بدلا من الدولار، وسوف يكون ما يتضمنه ذلك أمرا بشعًا، سوف ينفذ ما لدينا من يورو بسرعة فائقة، إذا وضعنا فى الاعتبار عجزنا التجارى الهائل، لقد كان السعوديون هنالك أيضا عندما احتاجت الولايات المتحدة نقودا لإعداد المجاهدين فى أفغانستان، أو الكونتراس فى نيكاراجوا، أو لضخ المزيد من البراميل عندما احتاج السوق إلى الاستقرار، وقد قامت الولايات المتحدة فى المقابل بحماية العربية السعودية، وضمنت ملاذا آمنا لاستثماراتها.

ولكن، فيما يتعلق بالمستقبل، هل يشعر الصينيون والهنود وغيرهم بالراحة وأسطول الولايات المتحدة هو الضامن الأساسى لاستقرار الخليج، ضع فى حسبانك أن الولايات المتحدة قد تجد نفسها، من موقف إلى آخر، ولأسباب أيديولوجية

وجيوبوليتيكية، فى نزاع مع الموردين الذين لهم علاقات جيدة تماما مع زبائن آخرين، هل سيكون فى وسع الولايات المتحدة الإبقاء على النوعية الخاصة لعلاقاتها مع العربية السعودية فى المستقبل؟ لقد توترت تلك العلاقات فى أعقاب ١١ سبتمبر؛ حيث أبدى الأمريكيون تذمرهم من تعزيز المملكة للتطرف الإسلامى، وافتقادها للديمقراطية، وحقوق المرأة والحرية الدينية، وصدم الكثيرون من السعوديين وأحسوا بالأذى من العدوانية الأمريكية الجديدة، وكان فى وسعهم أن يردوا المعاملة بمثلها، إن التدفق الهائل للأموال - على أى حال - إلى الأنظمة التى يمكن أن تكون عدائية للمصالح والقيم الأمريكية، ليس بالأمر المرغوب فيه، وأخيرا فإن القيمة الجارية للدولار يمكن ألا تكون قابلة للبقاء، فى ظل ما تستورده الولايات المتحدة من كميات يجرى التكهن بها لعام ٢٠١٢، كل هذا بالطبع، فضلا عن النتائج البيئية لحرق كل ذلك النفط.

لذا تواجه أمريكا اختياراً، إن عدم فعل شىء هو اختيار للعجز التجارى الأكثر ارتفاعًا، ويا للسخرية؛ إذ هو اختيار تقوم به أمة تقدر الاستقلال والحرية فوق كل شىء، اختيار يقوم على الاعتماد الأكبر اقتصاديا واستراتيجيا على الغير، وحتى نوازن، يكون علينا الإبقاء على قوتنا العسكرية بل وزيادتها؛ لأنه إن كان علينا أن نفعل ذلك فى النهاية، ففى وسعنا أخذ ما نحتاجه فقط، ويوجد أسفل هذا الطريق المزيد من التشابك مع أشكال مختلفة من الجهاد، والمواجهة مع الإسلام، والاشتراك البغيض فى سياسات بلاط الأسرة الملكية السعودية.

إن بدا لك هذا مثل وعاء ديدان، فهنالك بديلان: أن تكون جادا فيما يتعلق بالحفاظ على الطاقة، وأن تكون جادا فيما يتعلق بتطوير الطاقة التى لا تقوم على البترول، إن الاثنين ليسا تبادليين بصورة مطلقة، والولايات المتحدة، على أية حال، لا تفعل أيا منهما فى اللحظة الحالية.

إن أى جهد جاد للحفاظ على الطاقة يجب أن يجرى تقديره مع البنية التحتية للطاقة الكثيفة للولايات المتحدة، ليس فقط فيما يتعلق بالأمريكيين، ولكن أيضا

فيما يتعلق بالاعتماد الخاطئ للاقتصاد الكونى على تلك البنية التحتية، إن اقتصاد الولايات المتحدة هو القاطرة الوحيدة التى تدفع الاقتصاد الكونى، عندما تسمع شكاوى النقاد من أن أمريكا لديها ٥٪ من سكان العالم، لكنها تستخدم ٢٥٪ من طاقته، فإن الرد الملائم هو أنها تنتج أيضا ٢٥٪ من إجمالى الناتج المحلى للعالم، وبدون هذا الإنتاج فإن أجزاء كثيرة من العالم تمتلك بالكاد أى إجمالى ناتج محلى يمكن أن نتحدث عنه، ربما تكون منازل أمريكا الكبيرة ذات طاقة غير فعالة، لكنها لا تحتوى على جهاز تلفاز واحد فقط، ولكن على اثنين بل وحتى ثلاثة، وإستريوهات، وحواسيب وسيارات، إن أى تغيير سريع ودرامى فى نمط هذه الحياة سوف يصيب العالم أجمع وليس الأمريكيين وحدهم.

ربما تكون أكبر احتياطيات الطاقة فى العالم ما تزال فى السيارات والمنازل والمصانع والمبانى الإدارية الأمريكية، إن المطلوب ليس الكثير للغاية من التصميمات بحجم أصغر، عندما تعاد الهندسة مرة أخرى، وقد حدث أثناء مناقشات مجلس الشيوخ سيئة السمعة، حول سيارات الدفع الرباعى، والتشريع المقترح لاقتصاد الوقود – أن قال السيناتور جون كيرى، ديمقراطى، من ماساشوسيتس: إن إعلانا لشركة فورد للسيارات جاء فيه أنه يمكنك أن تحظى فى مستقبلك بسيارة دفع رباعى توفر كل الحيز والقوة التى تريدها، بينما تستخدم فقط نصف كمية الجازولين الحالية[٨٤]، كما تحدث أيضا عن دراسة مقدمة من "الأكاديمية الوطنية للعلوم" تنتهى إلى أن التقنيات المتاحة حاليا، والتحسينات فى سرعة السير بالميل عند استخدام الغاز لأكثر من ٤٠٪، قد تحققت لسيارات الدفع الرباعى وعربات النقل الصغيرة على أسس اقتصادية تنافسية دون تضحية فى الحجم أو القوة بالحصان[٨٥]، إن مثل تلك التحسينات وحدها هى التى سوف تخفض واردات نفط الولايات المتحدة، كما هو مخطط لها بـ٦ مليون برميل فى اليوم، وذلك تقريبا هو نفس القدر الذى تنتجه العربية السعودية، والأكثر أهمية أن تلك التقنية سوف تغير بصورة درامية كل التصورات، لو تم تبنيها بصورة واسعة على امتداد العالم.

ومما يثير الإعجاب أكثر أن مكتسبات الحفاظ على الطاقة يمكن أن تكون ممكنة مع الكهرباء، إن الاستخدام الأكبر للطاقة الكهربائية إنما هو فى المحل الأول من أجل الفضلات، إن فواقد هائلة تحدث عندما تحول الكهرباء إلى شبكة القوة. وكما يشرح أمورى لوفينس من "معهد جبل روكى"، فإن مصانع الطاقة الصغيرة القائمة على اللامركزية يمكن أن تخفض تلك الفواقد كثيرا، بينما تجعل الإمداد بالطاقة، أيضا- أقل عرضة بكثير جدا لأعمال التخريب الإرهابية، إن المثال الذى ذكره لوفيتس، عن التناقض بين سياتل وشيكاغو، فى الفترة من ١٩٩٠ إلى ١٩٩٦ أكثر بساطة وقوة، لقد انخفض الاستخدام السنوى للكهرباء بأربعة آلاف ضعف تقريبا فى سياتل عنه فى شيكاغو، رغم أن الكيلووات - ساعة يكلف ضعف ما يكلفه فى شيكاغو[٨٦]، وكان السبب أن المرافق فى سياتل ساعدت الناس على التوفير، بينما تلك التى فى شيكاغو تثبط هممهم عن فعل ذلك، وقد لاحظ لوفينس أيضا أن تسع ولايات من الولايات المتحدة كافأت منذ عقد مضى المرافق لمساعدتها الزبائن على تخفيض الاستخدام بدلا من أن تبيع لهم المزيد من الطاقة، وقد تخلت اليوم العديد من الولايات عن التجربة، غير أن توجها إقليميا فى نيو أنجلند، ينبنى على أساس قيام المرافق بأعمال التفتيش فى الموقع، وتقديم تخفيضات على تركيب معدات أكثر فاعلية؛ مما منع فترات التعتيم التى كان وقوعها يكاد يكون مؤكدا. ويسمح للأعمال فى المملكة المتحدة بالحصول على تخفيض ضريبى على استثمارات توفير الطاقة بالقدر الذى تخفض به تلك الأعمال من فاقد الطاقة، وإن طُبقت تلك الممارسة فى الولايات المتحدة فيمكن أن تكون لها نتائج درامية، كذلك قدر لوفينس أن تَبنَى الولايات المتحدة لمصانع النمط الأوربى التى تتحد فيها الحرارة والطاقة يمكن أن تخفض استخدام الوقود فى الولايات المتحدة بمقدار الثلث. فى وسعى أن أواصل، لكن النقطة أنه حتى دون إجراءات شديدة القسوة، فإنه يمكننا تخفيض استخدام الطاقة بطريقة درامية كذلك تخفيض أهمية النفط، ليس فقط بالنسبة لاقتصاد الولايات المتحدة، ولكن أيضا بالنسبة للاقتصاد الكونى.

وتوجد تقنيات واعدة يمكنها بواسطة ذات الصفة المميزة - أن تُزيد كثيرا من إمداد الطاقة دون استخدام الوقود الحفرى على وجه الإطلاق، لقد برهنت أوربا واليابان على أن الطاقة النووية يمكن أن تكون آمنة واقتصادية، وتبشر التقنيات الجديدة لمعالجة الفضلات النووية بتخفيض كبير لأخطارها، إن الدانمارك تحصل بالفعل على قرابة ٢٠٪ من طاقتها من قوة الرياح، وتحصل مصانع الاتحاد الأوربى على ٢٢٪ كاملة من كهربائها من قوة الرياح عام ٢٠١٠ فى الغالب[٨٧]، إن قوة الرياح يمكن أن تلبى أيضًا جزءًا كبيرا من احتياجات الولايات المتحدة بأسعار تنافسية، ولقد ثبت فى السنوات القريبة أنه فى وسع المحفزات الإحيائية المعدلة وراثيا أن تنتج إيثانول (الكحول الإثيلى) من نوع من مادة نباتية خشبية، إن احتمال الحصول على كميات كبيرة من الطاقة الصديقة للبيئة من الفضلات النباتية وأجزاء من جنوع الشجر المتخمرة تخمرا بسيطا، احتمال قائم، إن إنهاء البلمرة(*) حراريا يحول الفضلات أيضا، مثل جيفة الحيوان، والإطارات المستعملة إلى وقود ديزل عالى الجودة[٨٨]، وربما كمن الاحتمال الأكثر درامية فى استخراج الطاقة من الهيدروجين عبر استخدام خلايا الوقود، هذه التقنية يمكن أن توفر الطاقة للمصانع والمبانى والمساكن، وكذلك الحلول بالمثل محل الجازولين فى السيارات والشاحنات، إن الأوتوبيسات تستخدم الهيدروجين بالفعل الآن، فى بعض المدن، كما تفعل ذلك أيضا بعض المبانى، مثل بناية كوندية ناست فى مانهاتن[٨٩]، إن كل شركات السيارات تجرى تجارب على العربات التى تعمل بطاقة الهيدروجين، وقد عرضت جنرال موتورز منذ فترة قريبة نموذجا أصليا يدعى "هاى واير" فى معرض باريس للسيارات، إن النقطة مرة أخرى هى أن الكثير يمكن تحقيقه بالتقنية من أجل الحل الفورى للعديد من المشاكل، وتعمل حكومة الولايات المتحدة، فى اتحاد مع شركات السيارات، حول تقنية خلية الوقود، التى عزز الرئيس

(*) البلمرة هى تحويل مركب إلى مركب آخر (المترجم).

بوش دعمها بـ٢ مليار دولار[٩٠]، بينما التباين مع بنائنا العسكرى الحديث قوى شديد الأثر، لقد أقر الكونجرس، للحال، فى أعقاب سبتمبر ميزانية تكميلية قدرها ٤٠ مليار دولار، زيادة، ذهب الكثير منها إلى البنتاجون، مع اقتراح من إدارة بوش بـ٤٦ مليار دولار، زيادة إضافية عام ٢٠٠٢، وهى أكبر زيادة سنوية منفردة منذ عام ١٩٨٢[٩١]. وكانت الـ٦٠ مليار دولار التى أنفقناها كمسألة طبيعية على حراسة الخليج الفارسى، فى طريقها للزيادة أيضا لمعالجة مشاكل العراق، ومهما كان ذلك ضروريا، فإننا لا ننفق ٥٠ أو ٦٠ مليار دولار على تطوير موارد طاقة بديلة، ومع ذلك، فإن هذا الوقت يبدو وقتا مناسبا لإعادة التفكير فى الاقتراحات التى طرحت عبر السنوات لإطلاق مشروع نمط أبوللو أو مانهاتن للطاقة، يقتضى تطوير بعض التقنيات، مثل خلايا الوقود الهيدروجينية، بالطبع، بعض الوقت بغض النظر عن قدر الاستثمار، ولكن هذا تحديدا هو السبب، لماذا يجب أن نبدأ الآن، وفى تلك الأثناء، فإن التقنيات المؤقتة، مثل السيارات الهجين، يمكن أن تحظى بدعم قوى كبرى للغاية.

إذا لم يكن فى وسع بوبا تغيير أساليبه، وأن يصبح مواطنا كونيا طيبا، فإنه يغامر بأن يصبح، أكثر فأكثر، مثل المارقين الذين يحاولون فرض النظام عليهم.

الفصل الخامس

من الذى خسر كيوتو؟

"تعال لترانا ونحن ما نزال هنا"

– وزارة السياحة

جزر المالديف

إن كنت تبحث عن بقعة نموذجية، تبتعد فيها عن البقع كلها، فأنت تبرم صفقة أسوأ من صفقة جزر المالديف، إنها مجرد بقع فى المحيط الهندى، على بعد ألف ميل تقريبا من الهند، ومناخ تلك الجزر المرجانية الرملية مناخ جميل شبه استوائى، وشواطئها عظيمة، وعدد سكانها يبلغ الـ ٢٧٥٠٠٠ نسمة، هدفهم فى الحياة هو التأكد من راحتك التامة ورضاك، إن كان ذلك يغريك فاحجز تذكرتك الآن بالطائرة؛ إن أعلى نقطة فى هذه الجزيرة يبلغ ارتفاعها خمسة أقدام فوق سطح البحر، ويبدو أنها تختفى بشكل واضح، مع موت شعابها المرجانية، وارتفاع البحر وتجريف الشواطئ؛ كادت موجة غريبة عام ١٩٨٧ أن تكتسح سيارة الرئيس مأمون عبد القيوم، ومنذ ذلك الحين، أصبح سكان الجزر أكثر اهتماما بموضوعات مثل الاحتباس الحرارى، وذوبان قمم ثلوج القطب الشمالى.

وقد أخبر الرئيس قيوم، الرئيس الأمريكى حينذاك جورج هـ. دبليو. بوش، فى قمة الأرض بريو عام ١٩٩٢– أن "ارتفاع أقدام قليلة سوف يكون نهاية بلدنا"، وحتى لا

يقلق، أجاب بوش وهو يقلد، عن غير قصد، الملك كانوت، "إن الولايات المتحدة لن تسمح بحدوث ذلك لجزر المالديف"[1]. ثم لحق الرئيس بكل قادة العالم، تقريبا، فى إلزام بلده بأخذ الخطوات التى تقلل انبعاثات غازات ما تسمى بالصوبات، وتنقص الاحتباس الحرارى الكونى.

تصور الصدمة التى أصابت وسط المحيط الهندى، فى ٢٨ مارس ٢٠٠١، عندما أعلنت إدارة بوش الأصغر أن الولايات المتحدة لن تدعم التصديق على بروتوكول كيوتو الساعى لتخفيض الاحتباس الحرارى الكونى، انتهى بروتوكول كيوتو، اليابان، فى ديسمبر ١٩٩٧، بعد مفاوضات شاقة، بدعوة الموقعين إلى تخفيض انبعاثاتهم من غازات الصوبات التى تغير المناخ حتى عام ٢٠١٠ بنسبة ٧٪، أقل من مستويات عام ١٩٩٠، ورغم أن هذا التخفيض كان، من الناحية العملية، أقل من نسبة الـ٦٠ إلى ٨٠٪ اللازمة لإنقاذ جزر المالديف من الغرق، فإن المالديفيين ومواطنى البلدان المنخفضة اعتبروا ذلك أفضل من لا شىء، وقالت كريستين تود هوايتمان رئيسة "وكالة بوش لحماية البيئة": إن معاهدة كيوتو كانت "ميتة"، بالنظر إلى ما يهم الإدارة، وأنه على الأوروبيين واليابانيين، إن أرادوا عقد اتفاقية - أن يتخذوا توجهًا آخر[2]، وإذا كانت هذه الأخبار قد أثارت المالديفيين، فإن أجزاء كثيرة من باقى أنحاء العالم، وخاصة أوربا، قد سخطت أشد السخط.

ولم يكن التوقيت معاونًا، جاء بيان هوايتمان قبل يومين من قيام جيرهارد شرويدر رئيس وزراء ألمانيا، الذى كان يحكم عبر تحالف مع "حزب ألمانيا الأخضر"، بزيارته الأولى لبيت بوش الأبيض الجديد (هل يمكن أن يكون لهذا علاقة ما بممانعة شرويدر الأخيرة لدعم بوش فى العراق)، كما جاء البيان أيضا بعد أسبوع فقط، من إرسال الاتحاد الأوربى خطابا يستحث فيه بذل جهود متجددة للاتفاق حول موضوعات الاحتباس الحرارى الكونى، وقبل شهرين ونصف من تحديد بوش موعدا لمشاوراته الأولى مع القادة الأوربيين فى استوكهولم، السويد، جاء الإعلان

كصفعة فى الوجه. كما لم يؤد حديث الرئيس فى ١١ يونيو، الذى أدلى به مباشرة قبل ساعات قليلة من سفره إلى إستوكهولم، إلى إحساس أحد بالهدوء أو السكينة، فقد وصف بروتوكول كيوتو بأنه اتفاقية يشوبها "خلل قاتل" و"أهداف غير واقعية لا تقوم على العلم"، وقال الرئيس: إنه لن يستجيب لأية تكليفات يمكن أن "يكون لها أثر اقتصادى سلبى، مع تسريح العمال وزيادة فى الأسعار على المستهلكين"[٣].

وكان رد فعل العالم الدبلوماسى؛ حيث يُنظر إلى "التعبير عن القلق" كتوبيخ ما، جاء الرد خشنا بصورة غير عادية، وصفت الحكومة السويدية فى إستوكهولم قرار الولايات المتحدة، بأنه "مروع واستفزازى"، ووصف ميشيل ميشر، وزير البيئة البريطانى - الإعلان الأمريكى بأنه "خطير للغاية" وأنه "موضوع يخص السياسة عبر الأطلنطية والكونية والأجنبية"- بينما قال الاتحاد الأوربى: إنه كان "مثيرا للقلق للغاية". وذهب البرلمان الأوربى إلى أبعد من ذلك قائلا: "إننا مروعون للتضحية بمصالح غالبية سكان العالم طويلة المدى، من أجل الجشع قصير المدى لشركات الولايات المتحدة". واستحثت اليابان واشنطن أن تعيد التفكير، وأكدت أستراليا أنه بالنظر إلى استهلاك أمريكا الهائل للموارد، فإن عليها مسئولية تخفيض انبعاثات غازات الصوبات[٤]. وصرخت الجارديان، وهى أقل تقيدا بصورة ما، بأن التخلى عن المعاهدة هو "فعل على نمط ما تقوم به طالبان من أفعال تدمير وحشية"[٥].

وقد قال المرشح بوش بالفعل، خلال الحملة الرئاسية عام ٢٠٠٠: إنه سيكون أكثر صرامة، فيما يتعلق بانبعاثات مصانع الطاقة، ومن ثم أعطى الانطباع بأنه كرئيس سوف يكون مهتما بالبيئة، وبالكاد بعد ستة أسابيع من تقلده منصبه، سحبت الإدارة الجديدة، على أية حال - إعلانها الخاص بحماية أسماك سليمان والسالمون المرقط المعرضة للخطر، ثم قام بوش فى ١٣ مارس عام ٢٠٠١، بصورة معاكسة لما تعهد به خلال حملته بتخفيض التلوث بالكربون، وذلك بتخفيف، لا تشديد، الإجراءات المنظمة

لانبعاثات مصانع الطاقة، لقد فعل ذلك رغم مذكرة لمديرة "وكالة حماية البيئة" هوايتمان التى تقول: "إننى أزكى بقوة أن نواصل الاعتراف بأن الاحتباس الحرارى الكونى موضوع خطير بحق"، وأضافت: "السيد الرئيس، إن الموضوع موضوع مصداقية الولايات المتحدة أمام المجتمع العالمى"، و"هو موضوع له صداه هنا فى الوطن، إننا فى حاجة للظهور مترابطين"(٦)، وقال الرئيس مجادلا بأن لدينا حالة طوارئ اقتصادية بسبب النقص فى الكهرباء، ومن ثم فإن الحصول على طاقة إضافية، أكثر أهمية من معالجة الانبعاثات، فى الوقت الراهن، وتبع ذلك، فى ٢٠ مارس، بأوامر تخفف الإجراءات المنظمة للزرنيخ فى مياه الشرب.

وبدا قرار كيوتو، فى أعقاب تلك الحركات، وكأنه يمثل روحا معادية بعمق للبيئة داخل الإدارة، وغدا مثلا للتبذير واللامبالاة والغطرسة الأمريكية، لقد كانت أمريكا، حتى الآن قائد الأمور البيئية، حقا، كانت هى من اخترع البيئة. والآن، يرانا الآخرون، فجأة، كالفتيان السيئين بسياستنا البيئية، التى هى بصورة ما رمز لكل ما هو خطأ فى أمريكا، إننى أتساءل: كيف وصلنا إلى هذا الحد؟

البيئة: صنعت فى أمريكا

قاتل الأمريكيون الأوائل الفرنسيين والهنود، ثم البريطانيين، غير أن ما حاربوه أكثر كان الأشجار، لقد اصطفت الفأس جنبا إلى جنب مع البندقية كأداة أساسية للتخوم والحدود، ورائحة الأخشاب المحترقة تحلق فوق المستوطنات الجديدة، كان شارلز ديكنز هو أول من جذب الانتباه للتدمير الذى تقوم به أعمال القطع تلك، كعمل انتقامى فى: مذكرات أمريكية"، وهى رواية سفر على "الطريق الوطنى" عام ١٨٤٢، وأصبح القلق من القطع الجائر للأشجار خطيراً، وغدا جورج بركينز مارش، أول محافظ على البيئة مع نشر كتاب "الإنسان والطبيعة"، وهو كتاب يقول بأن لقطع الأشجار نتائج كارثية على التربة والطقس المحلى، وصدر فى نفس العام كتاب "غابات

مين" لهنرى دافيد ثورو، نشر بعد وفاته، دعا فيه إلى إقامة حدائق وطنية، وتقدم الكونجرس بتشريع يمنح به "يوسيمايت فالى" إلى ولاية كاليفورنيا كحديقة عامة - ثم أعد الكونجرس عام ١٨٧٢ "يلوستون"، كالحديقة الوطنية الأولى - الأولى فى العالم، وهو قانون قلده الكثيرون فى أنحاء العالم، منذ ذلك الحين، لكن المقلد الأكبر لم يكن أحد غير الرئيس تيودور روزفلت الذى جعل من نفسه الرئيس المحافظ على البيئة، وذلك بإقامة ١٧ حديقة وطنية ونصبا تذكاريا. ووضع أساس تأسيس "خدمة الحدائق الوطنية"، وتبعه، فى ذلك، ابن عمه فرانكلين روزفلت، اتبع خطى تيدى بإنشاء "فرقة المحافظة المدنية" خلال "الركود العظيم"، لتوفر وظائف بإعداد الكثير من البنية التحتية البيئية التى سنعتمد نحن عليها.

وبرزت فجأة على المشهد، عام ١٩٦٢، راشيل كارسون بكتابها "الربيع الصامت"، وهو كتاب انفجر انفجارا أطلقت عليه الحركات البيئية "الطلقة التى دوت فى العالم كله"، لقد قدمت دراسة محكمة تقوم على أن العناصر الكيميائية التى اعتدنا النظر إليها كأساس لنمط حياتنا الحديثة التقدمية كانت، فى حقيقتها، تقوم بتسميم أجزاء كبيرة من السلسلة الغذائية، بما فيها البشر، وقد تابعت كارسون - بصورة خاصة - الانتشار القاتل للدى دى تى من عملية رش أشجار الدردار للتحكم فى المرض، إلى قتل الطيور، إلى إصابة الأسماك بالأمراض الخبيثة، إلى الإضرار بالكبد والجهاز العصبى المركزى فى البشر، وعندما ماتت كارسون بالسرطان، عام ١٩٦٤، كانت قد بدأت حديثا ظل دائرا حتى قاد إلى تأسيس الرئيس ريتشارد نيكسون لأول "وكالة لحماية البيئة" فى العالم، عام ١٩٧٠.

فى وسعى المواصلة بتقديم المزيد من الأمثلة، لكن النقطة هى أنه لأكثر من قرن كانت الولايات المتحدة هى التى قادت الطريق حول القضايا البيئية، كان تركيزها الأساسى محليا، غير أنها أمسكت بالقيادة بالمثل فى الموضوع الكونى الدقيق لثقب الأوزون.

جاءت فى طبعة الـ"ناتشر" ، فى يونيو عام ١٩٧٤ ، مقالة بقلم ف. شيروود رولاند، بروفيسور فى الكيمياء، بجامعة كاليفورنيا ، إيرفين، وماريوج. مولينا زميل ما بعد الدكتوراه فى معمل رولاند، تدور حول مجموعة من الكيماويات تسمى كلورو فلورو الكربون، وبالنظر إلى مكونيها الاثنين، فهما الغازان اللذان اخترعا فى الثلاثينيات للاستخدام فى الثلاجات، وأجهزة تكييف الهواء والبرامج التلفازية الجذابة، وقد حدث "هبوط ستراتوسفيرى"(*)، لأن مجموعة كلورو فلورو الميثان - الكلور الذرى، حفزت تدمير الأوزون" ، ومما لا يثير الدهشة أن غالبية الناس لم تلتفت إلى ذلك، بدأت الورقة، على نحو لا ضرر منه، بذكر ما يعرفه كل فرد بالفعل، وهو أن الميزة الأساسية لهذه المركبات هى أنها فى الغالب هامدة كيميائيا ، ومن ثم ليست سامة، وكانت تنطلق إلى الجو فى كميات متزايدة، بطريقة مطردة، حتى إن استقرارها فى حده الأقصى، كان يعنى بقاءها هنالك من ستين إلى مائة عام، وأن الطريقة الوحيدة التى يمكن أن تتحطم بها تلك الكيمياويات، كما لاحظ المؤلفان، هى انجرافها فى طبقات الجو العليا، وتحطيمها إلى أجزاء عن طريق الأشعة فوق البنفسجية، وهى عملية تعرف باسم "الفصل الضوئى" ، ثم أطلق المحرران العنان لضربتهما القاصمة فقالا: "إن عملية الفصل الضوئى لمجموعة كلورو فلورو الكربون من الستراتوسفير تنتج كميات لها وزنها من ذرات الكلور، وتؤدى إلى تدمير الأوزون الجوى"(٧).

حسنا ، وماذا بعد؟ اهتم - فى ذلك الوقت - قليل من الناس بالأوزون، الذى هو شكل من الأوكسجين غير المستقر بصورة كبيرة، يميل لونه إلى الزرقة، وله رائحة لاذعة، وهو سام، وهو يستخدم عند مستوى البحر فى عدد من المنتجات مثل المواد اللازمة لتبيض الألوان، وإبادة الجراثيم، وإزالة التلوث، إنه يشكل، أيضا ، وبصورة طبيعية،

(*) الجزء الأعلى من الغلاف الجوى (المترجم).

حوالى ٣٠ ميلا فوق الأرض فى الستراتوسفير، من خلال تفاعل الضوء الشمسى فوق البنفسجى مع الأوكسجين[٨]. ورغم أن أوزون الستراتوسفير هذا نحيل ورقيق للغاية فإنه حاسم وخطير بالنسبة لغالبية أشكال الحياة؛ لأنه يعترض، كطبقة، سبيل غالبية الأشعة الشمسية فوق البنفسجية، وهى أشعة تضر النبات والحشرات والطيور، وتسبب السرطان للبشر، إن ما كان يقوله رولاند ومولينا حينذاك هو أن طبقة غير مرئية مكونة من جزيئات، هى بصورة أو أخرى ضرورية للحياة على الأرض، هذه الطبقة كانت تتآكل بفعل الإشعاع فوق البنفسجى على مجموعة كلورو فلورو الكربون فى الستراتوسفير.

غير أن كل هذا كان كلاما نظريا إلى حد كبير، لم ير أحد أيًا من تلك الأشياء التى تحدث، كان رد الفعل الشامل للصناعة، وعند العامة والقادة السياسيين - أنه إن لم يحدث تغير ملحوظ فلن يكون هنالك علاج، ويبدو أنه لم يحدث تغير ملحوظ.

وجاء العام ١٩٨٥، ونشرت "ناتشر"، فى ١٦ مايو من هذا العام، ورقة أخرى حول الأوزون بقلم جوزيف فارمان عضو "المسح البريطانى للأنتاركتيكا"(*)، وهو عضو كلية بجامعة كامبريدج، وكان قد زار أنتكاركتيكا سبعا وعشرين سنة متتالية دون انقطاع، ما بين عام ١٩٥٧ وعام ١٩٨٤، وكانت واحدة من مهامه كل عام، قياس مستوى الأوزون فى السماء فوق الرأس، ورغم أنه كان عارفا بمقالة رولاند ومولينا، فإنه كان متشككا، حتى بينت قراءاته عام ١٩٨١ وجود هبوط فعلى فى طبقة الأوزون، فكر حينئذ أن المعدات قد تكون غير معايرة، وأنه يتوجب عليه إعادة ضبطها، غير أنها أظهرت نفس الشىء عام ١٩٨٢، ومرة أخرى عام ١٩٨٣، وفى عام ١٩٨٤ هبطت القراءات عن المتوسط بنسبة ٤٠٪، واتسع ثقب الأوزون ليصل إلى تييرا ديل فوجو عند

(*) قارة غير مأهولة حول القطب الجنوبى (المترجم).

طرف أمريكا الجنوبية، وكشف المزيد من مراجعة قراءاته أن الهبوط قد بدأ فعليا حوالى عام ١٩٧٧(٩).

ونشرت "الأكاديمية الوطنية للعلوم"، فى ذات الوقت تقريبا - ورقة مثل ورقة فارمان، تقدر فيها أن طبقة الأوزون يمكن أن تهبط بصورة متوسطة فقط، أو لا تهبط البتة، فى القرن القادم(١٠). غير أن "ناسا" تدخلت، كان قمرها الصناعى "نيمبوس ٧"(*) يدور حول الأرض فوق القطبين كل ساعة ونصف منذ عام ١٩٧٨، وكان المفروض فيه أن يرصد طبقة الأوزون، لكنه لم يجد شيئا ناقصا، لكن الناسا بعد مقالة فارمان فحصت معداتها، ووجدت أن القمر الصناعى قد تمت برمجته ليتجاهل أى أرقام أسفل مستوى معين باعتبارها أرقاما واضحة الخطأ، وأعادت الناسا برمجته، فأكد القمر الصناعى أن القراءات الخاطئة كانت صائبة، بل وأسوأ مما قاسها فارمان، كان هنالك بالطبع جهد أساسى للتقليل من أهمية النتائج، وأوصى وزير الداخلية الرئيس ريجان أن يضع الناس فقط قبعات، ونظارات داكنة، وستائر واقية من الشمس، ولكن عندما سلط الأطباء الضوء على ١٣٠ حالة إضافية من سرطان الجلد، وهى مسألة تعلو فوق كل شيء آخر، وعلى أضرار أخرى تنبأ بها علماء آخرون(١١)، كان من العسير أن يحس المرء بالسعادة.

كانت السماء تعانى، فى الحقيقة، تغيرا ملحوظا، وكان لا بد من إصلاح هذا التغير سريعا، وبدأت المناقشات الفعلية الدولية حول استنزاف الأوزون عام ١٩٧٦ تحت رعاية "برنامج الأمم المتحدة للبيئة" "يونيب"، وبدأت مفاوضات ١٩٨١ بهدف الوصول إلى اتفاقية تضع خطة للوقف التدريجى لاستنزاف مواد الأوزون، وانتهت عام ١٩٨٥ بتبنى اتفاقية جنيف التى شجعت التعاون ما بين الحكومات، فى بحث وملاحظة طبقة الأوزون وتبادل المعلومات، وفى كلمات أخرى، كان ذلك الاتفاق نمراً دبلوماسيا

(*) السحابة الممطرة فى طول السماء وعرضها (المترجم).

بلا أسنان ولا أهداف، ولا أساليب ضبط وتحكم، ولا التزامات مقيدة، إننى أتذكر، بوصفى عضوا فى إدارة ريجان، فى ذلك الوقت، القلق الذى ساد بين العاملين حول خطورة الوضع، وقد فكر الكثيرون أن ذلك يرجع إلى المعارضة العامة للإدارة للإجراءات الحكومية للضبط والتقييد، وعلاقتها الوثيقة بالصناعة؛ مما يجعلها تتفادى أو ترفض أى فعل علاجى، غير أن مدير وكالة حماية البيئة لى م.توماس يصر على أن ذلك شيئًا يتوجب على الولايات المتحدة أن تمسك بقيادته، وهو قد عمل عن قرب مع المنتجين الأمريكيين الكبار لكلورو فلورو الكربون، وقاد "دوبونت" الطريق للالتزام ببدائل، ووضع خطة للوقف التدريجى لإنتاج كلورو فلورو الكربون، وأرسل فى نفس الوقت السفير ريتشارد أ.بنيديك إلى مونتريال فى صيف عام ١٩٨٧ لقيادة وفد الولايات المتحدة فى التفاوض حول اتفاقية دولية مقيدة حول تخفيض استخدام وصناعة كلورو فلورو الكربون، والتخلص منه فى النهاية، وتم التوصل فى ١٦ سبتمبر إلى اتفاقية حول "بروتوكول مونتريال"، طالبت بتخفيض ٥٠٪ من مستوى استهلاك كلورو فلورو الكربون عام ١٩٨٦ حتى عام ١٩٩٩[١٢]، كانت النية أن تكون الاتفاقية عالمية، غير أن الدول النامية مُنحت فترة إعفاء من شروطها، مدة عشر سنوات، بسبب كل من المستوى المنخفض نسبيا من الاستهلاك وصعوبات التحول إلى التقنية التى تحل محله، وجاء الإذعان، فى الحقيقة، أسرع بكثير مما كان مقدرا، كان أغلب الخبراء يرون عام ٢٠٠٣، أن طبقة الأوزون يمكن أن تعود إلى وضعها الطبيعى فى منتصف القرن الواحد والعشرين[١٣].

ارتفعت التحذيرات عالية وعديدة من مشكلة ثانية مع الغلاف الجوى، وتوقع كثيرون أنها سوف تحل مثلما حلت مشكلة الأوزون، باتفاقية واضحة وفعالة تتمتع بدعم عالمى واسع، تقودها الولايات المتحدة مرة ثانية، إنهم على الأقل لم يروا، لماذا لا يكون هذا ممكنا؟ كان تناول ثقب الأوزون، كما يجرى تناول الموضوعات الكونية، متفردا من نواح عديدة: كان وراءه سبب واحد، مصادره قليلة، ويمكن تحديدها بسهولة، كما كان من الممكن تقدير نتائج التراخى بسهولة، مع وجود فعلى لبديل

نموذجي وملائم كي يحل محل كلورو فلورو الكربون، ومع تغير المناخ، والدور المفترض لثاني أكسيد الكربون في رفع درجات حرارة العالم على اتساعه، فإن لا شيء مما هو سابق كان حقيقيا. إن المصادر لا نهاية لها، أنت تخرج ثاني أكسيد الكربون، وكذلك كلبك وبراغيثه، والبكتيريا في مصرف حمامك. هذا فضلا عن سيارتك والفرن الخاص بك. وكل الأسئلة الكبرى - عن نتائج الاحتباس الحراري الكوني، وكم منها ناجم عن النشاط الإنساني، بل وحتى إذا ما كانت تحدث أصلا - ما تزال في عملية البحث عن إجابة.

من الأوزون إلى غازات الصوبة

لم يتساءل أحد، قبل عام ١٨٢٠، عن سبب ازدياد حرارة الأرض، حدث في ذلك العام أن جين بابتيست - جوزيف فورييه هاجم السؤال الخاص بالكيفية التي تحتفظ بها الأرض بحرارة الشمس بدلا من عكسها مرة أخرى في الفضاء. كان فورييه قد أصيب بعدوى "الميكسيديما"(*)، بينما كان يخدم في "هيئة العلماء" التي رافقت نابليون في حملته على مصر، وهو مرض يجعل المرء يحس دوما بالبرد، وبعد عودته إلى فرنسا، كان يرتدي معطفا طوال العام، وكرس جزءا كبيرا من الوقت لدراسة الكيفية التي تنتشر بها الحرارة. كان قد توصل إلى أنه بينما يرتد بالفعل الكثير من الحرارة مرة ثانية، فإن الغلاف الجوي يمسك ببعضها ويعيد عكسها مرة أخرى إلى سطح الأرض، وقارن هو هذا بجرس عملاق يصدر صوتا لا تستسيغه الأذن، قبته سحب وغازات تمسك بما يكفي من حرارة لجعل الحياة ممكنة، وصدرت مقالته: "ملاحظات عامة حول حرارة الكرة الأرضية والفضاءات الكونية"،

(*) أديما مخاطية، مرض جلدي ناشئ عن قصور في الغدة الدرقية، ويتميز بجفاف الجلد وفقدان النشاط العقلي والجسدي (المترجم).

التى نشرت عام ١٨٢٤، ولم يعتبر هذا العمل فى الحقيقة أفضل أعماله، ونُسيت حتى نهاية القرن[١٤].

وطور الفيزيائى السويدى سفينت أرهينيوس، عام ١٨٩٥ وكان قد قرأ عمل فورير أول نموذج نظرى لحساب تأثير ثانى أكسيد الكربون على درجة حرارة الأرض[١٥]. وتوصل إلى أن نقصا يصل إلى حوالى ٤٠٪ من ثانى أوكسيد الكربون فى الغلاف الجوى، سوف يؤدى إلى انخفاض درجات الحرارة من ٤ إلى ٥ درجات مئوية ٩- ٧ درجات ف) ويطلق عصرا جليديا جديدا. وأن مضاعفة هذه المستويات سوف يرفع، لنفس السبب، درجات الحرارة من ٥ إلى ٦ درجات مئوية (٩-١١ درجات ف). وقدر، فيما بعد، أن ذلك سوف يقتضى حوالى ثلاثة آلاف عام من حرق الوقود الحفرى لتحقيق هذه المضاعفة، إن مرحلة ترتفع فيها درجات الحرارة ارتفاعا رقيقا، بالنسبة لرجل اعتاد فصول الشتاء الشمالى القاسى لعصر الجليد الصغير، لا بد أن تبدو مشهدا يبعث على السعادة.

بعد سنوات قليلة، من نشر حسابات أرهينيوس جاء "سبيندلتوب" على غير توقع، تتبعه اكتشافات حقول النفط الأخرى فى تكساس وأوكلاهوما. وحل "نموذج هنرى فورد T " محل الخيول بصورة أسرع بكثير مما توقع أى أحد، بينما دفع ضوء أديسون الكهربى الطلب لإنتاج الطاقة الكهربية، وتسارع حرق الوقود الحفرى كثيرا أكثر مما توقع أرهينيوس، لكن أحدا لم يكن يهتم، إذا ما كان ذلك سوف يؤثر على الطقس، باستثناء جورج كاليندر الذى نشر فى عام ١٩٣٨ مقالة بعنوان: "الإنتاج الاصطناعى لثانى أوكسيد الكربون، وأثره على درجة الحرارة"[١٦]، وحسب كاليندر، بناء على بيانات جمعها من مائتى محطة خاصة بحالة الجو، على امتداد العالم، ما بين عام ١٨٨٠ - ١٩٣٤، أن الأرض قد ارتفعت حرارتها بحوالى درجة واحدة فهرينتية (٥٥. ٠م) فى ذلك الوقت، وتنبأ بارتفاعها درجتين (١. ١م) خلال القرن القادم، نتيجة إطلاق ثانى أوكسيد الكربون فى الغلاف الجوى، وأصدر فى عام ١٩٥٦، بعد ثمانية عشر عاما من جمع المزيد من البيانات، حسابات توضح أن تركيز ثانى

أوكسيد الكربون فى الغلاف الجوى يتزايد من ٢٩٠ جزءا لكل مليون (بى بى إم) عام ١٩٠٠ إلى ٣٢٥ جزءا عام ١٩٥٦ وكان هذا المستوى قريبا للغاية من الـ ٣١٥ جزءا لكل مليون التى أعلن عنها تشارلز كيلينج، وهو دارس شاب فيما بعد الدكتوراه فى "معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا" فى ذات العام. إن هذه الأرقام والمنحنيات أطلقت مقالة تمثل نقطة تحول، فى السنوات التالية، بقلم روجر ريفيل وهانز سوس، وكلاهما من "معهد سكريبس لعلم المحيطات"؛ إذ لاحظا أن "البشر ينفذون خطة تجربة جيوفيزيائية واسعة المدى، وذلك بأن يعيدوا الكربون العضوى المتركز المختزن فى الأرض خلال مئات السنين إلى الغلاف الجوى فى أقل من قرون قليلة[١٧]. إن قياسات كيلينج، خلال العشرين سنة القادمة، أكدت فقط هذه النقطة. وقد ارتفع منحنى كيلينج بثبات من ٣١٥ جزءا لكل مليون عام ١٩٥٦ إلى ٣٦٥ جزءا لكل مليون عام ١٩٩٧[١٨].

وارتفع القلق أيضا بارتفاع منحنى كيلينج؛ لما لذلك من دلالات، وبدأ الناس وقد غدوا حساسين بالفعل للمخاطر البيئية، مثل تلوث المياه، والمبيدات، يتنبهون إلى حالة الجو، وبدأ جون مك جوان، من معهد سكريبس، بداية بالستينيات فى ملاحظة أن المياه قبالة شواطئ كاليفورنيا قد أخذت حراراتها فى الارتفاع تدريجيا، وكانت درجات الحرارة عام ١٩٩٥ تزيد بحوالى ٣ درجات فهرنهيتية عن تلك التى فى عام ١٩٦٠، وبدأ الثلج الذى يغطى "مونت كينيا" فى الاختفاء بصورة واضحة حوالى عام ١٩٦٣، وتضاءل بحوالى ٤٠٪ حتى عام ١٩٨٧ وبدأ صيف القطب الشمالى يصبح أكثر دفئًا بـ٦ درجات فهرنهيتية خلال عشرين عاما، وضاعفت ثلاجات "الأنديز البيرونية"(*) معدل نوبانها ثلاث مرات بين عام ١٩٦٠ وأوائل الثمانينيات[١٩]، وقد أثارت تلك النذر مناقشة واسعة حول الاستنتاجات المحتملة وسياسة الإجراءات، وذكر تقرير صدر مبكرا عام ١٩٦٥[٢٠] عن البيت الأبيض حول الموضوعات البيئية والنتائج المحتملة

(*) نسبة إلى بيرو (المترجم).

للاحتباس الحرارى الكونى، ونظم ويليام كيلوج، من "المجلس الوطنى المعنى ببحث الأحوال الجوية" مؤتمرا فى إستوكهولم حول ما أسماه "تعديل المناخ المهمل"[٢١].

وتضاعفت التحاليل والإرشادات عبر العقدين التاليين، وكتب والاس س. بروبكر، من جامعة كولومبيا عام ١٩٧٥، فى مجلة ساينس، متنبئا بتسارع حقيقى فى اتجاه زيادة الحرارة خلال السنوات العشر التالية[٢٢]، وأطلقت "الأكاديمية الوطنية للعلوم"، بعد عامين تقريرا بعنوان "الطاقة والمناخ"، توصل إلى أن الاحتباس الحرارى الكونى يجب ألا يثير ذعرا أو رضاء عن الذات، ولكن بحثا مكثفا، ونشر ويليام كايلوج ومارجريت ميد، فى ذات العام، "الحالة الجوية: عرضة للخطر وتهدد بالخطر"[٢٣]، وفيه طالبا "بقانون للهواء"، توافق كل الأمم فيه على تخفيض انبعاثات ثانى أوكسيد الكربون، الخاصة بها، إلى مستوى يتم التفاوض حوله. وعندما تلاشت السبعينيات فى الثمانينيات، بدا أن الحالة الجوية تتجه إلى تحقيق ما تم التنبؤ به، وزاد معدل تراجع ثلاجات خطوط العرض - الوسطى تسارعا من ٣٠ إلى ٤٢ مترا كل عام[٢٤]. وقد بينت "بحيرة توليك" أسفل "سلسلة بروكس" على "المنحدر الشمالى القارس لألاسكا" ارتفاع ٣ درجات فهرنهيتية (٥,٤ م) فى درجات حرارة الصيف ما بين عام ١٩٧٩ وعام ١٩٩٤[٢٥]، وتقلص لوح جليد القطب الشمالى بنسبة ٦٪[٢٦]، وواصل حد الجليد تراجعه، وقد تنبأت نماذج الحاسوب الخاص بالحالة الجوية أيضا، بالمزيد من الاحتباس الحرارى، وانعقد عام ١٩٨٧ مؤتمر كانت ترعاه الأمم المتحدة وكندا وجمعية الأرصاد الجوية الدولية، ضم ٣٢٠ عالما وصانع قرار من ست وأربعين أمة، وأصدروا بيانا يقول: "إن البشرية تخوض، دون عمد، تجربة هائلة وشاملة كونيا. ونتائجها النهائية يمكن أن تجيء فقط بعد حرب كونية ذرية"[٢٧]، واتجهوا إلى حث أمم العالم المتقدم أن تعمل فى الحال على تخفيض انبعاثات غازات الصوبة، لكن عام ١٩٨٨ كان العام الذى دقت أجراسه إنذارا من الاحتباس الحرارى الكونى، كان بالنسبة لمن شاركوا منذ البداية أشد الأعوام المسجلة حرارة، ويقف على قمة أعوام ثلاثة أخرى فى الثمانينيات، كلها فى إيجاز أعوام مسجلة، إن تسعة وتسعين مدينة فى الولايات

المتحدة سجلت أعلى درجات الحرارة على الإطلاق ليوم واحد، كذلك فعلت موسكو، وفى لوس أنجلوس انفجر أربعمائة محول كهربى فى يوم واحد عندما بلغ الزئبق ١١٠ درجة فهرنهيتية (٤٣م)[٢٨]، وعانى "الميدويست" أسوأ جفاف منذ أيام سحابة الغبار الأشبه بالكرة، بينما احترقت حرفيا "حديقة بلوستان الوطنية"، وفى وسط هذه المحرقة انتصب جيمس هانسن مدير "معهد جودارد لدراسات الفضاء" الخاص بالناسا، فى مواجهة لجنة مجلس شيوخ الولايات المتحدة "المعنية بالطاقة والموارد الطبيعية" وقال: إنه "قد تم الكشف عن تأثير الصوبة، وهو يغير الآن مناخنا". كان هانسن متأكدا ٩٩٪ أن درجات الحرارة الحالية تمثل اتجاها حقيقيا للاحتباس الحرارى فى مواجهة التغير الطبيعى، وأضاف: "إننا نرهق ما لدى المناخ من جدوى" [٢٩]. وعندما يجىء ذلك من خبير مثل هانسن فى حجرات مجلس شيوخ الولايات المتحدة المهيبة، فإنه يمكن القول: إن ذلك قد حدد البداية الحقيقية للمعركة حول الاحتباس الحرارى الكونى، وأسس برنامج الأمم المتحدة للبيئة فى اجتماع، فى تورنتو فيما بعد، فى ذلك الصيف الطويل، "هيئة ما بين الحكومات المعنية بتغير المناخ" (آى بى سى سى)، وبدأ الإعداد لمؤتمر كونى حول البيئة والتنمية (والذى غدا معروفا باسم "قمة الأرض") لينعقد فى ريودى جانيرو فى يونيو ١٩٩٢، وسوف يصبح ذلك المؤتمر واحدا من الاجتماعات التى تضع البذور للعقد الأخير من القرن العشرين.

وحتى تدرك ما حدث وما لم يحدث فى ريو، فأنت فى حاجة لفهم بعض القوى والاتجاهات الأساسية التى كانت تظهر فى أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات، إن أحد العوامل الأساسية كان النقاش الذى دار حول العلم، إذ بينما لم ينازع أحد بيانات كيلينج عن ارتفاع محتوى الكربون فى الغلاف الجوى، كان هنالك كثير من النقاش حول الأثر، كان هنالك من ناحية هؤلاء أمثال هانسن الذى استنتج تشابها مع تجربة ثقب الأوزون وأكدت فى هذه الحالة، بيانات القياس الفعلية النبوءات العلمية السابقة، واتخذت للحال الخطوات اللازمة لعلاج المشكلة، من خلال تخفيض انبعاثات كلورو فلورو الكربون المتفق عليها عالميا، هنا جادل مرة أخرى هؤلاء الناس بأن

الطقس غير العادى هو الذى يثبت صحة النظرية العلمية، وإن شيئا دراميا ومشابها لبروتوكول مونتريال يحتاج إلى التحقق الآن، وكان هنالك من ناحية أخرى أناس مثل ريتشارد ليندزن، اختصاصى علم المناخ من الـ "إم.آى.تى". الذى قال: إن ذلك السبب والأثر ليسا واضحين تماما، ولا يمكن التكهن بالمستقبل بسهولة"[٣٠]. إن العديد من الأحداث المناخية الحديثة كانت، فى المحل الأول، هى "درجة الحرارة الأعلى منذ ...." أو "العاصفة الأسوأ منذ ....". غير أن "منذ تلك تعنى أنه كان هنالك حدث درامى مبكر قبل تراكم كربون الغلاف الجوى، والبداية المفترضة للاحتباس الحرارى، يضاف إلى ذلك أن فترة الاحتباس الحرارى أكبر من تلك الحادثة اليوم، قد وقعت فى العصور الوسطى، عندما استقر الفايكينج فى أيسلاند وجرينلاد، وتبع ذلك "عصر الجليد الصغير" فى حوالى عام ١٢٥٠ - ١٨٥٠، بسبب ارتفاع الحرارة المتجدد، كل ذلك حدث دون انبعاثات غازات الصوبات، بل حتى حدث الأسوأ، عندما سجل علماء الأرصاد الجوية تبريدا واضحا ما بين ١٩٤٠ - ١٩٧٠، رغم أن هذه الفترة يجب أن تكون - طبقا للنظرية - ضمن زمن تسارع الاحتباس الحرارى، كما أنه معروف أيضا، منذ زمن طويل - أن الأحداث الطبيعية مثل تذبذب قطب الأرض، وإظلام وسطوع الشمس - تؤثر فى درجة الحرارة والمناخ، ربما تكون تلك مسئولة جزئيا أو كليا، عن التغيرات؛ ثم كانت هنالك حقيقة أنه بينما أوضحت التسجيلات على السطح ارتفاع درجة الحرارة، لم توضح بالونات حالة الجو أى تغيير فى درجات حرارة الغلاف الجوى، عند ارتفاعات عالية، وحتى يتناولوا تلك الموضوعات قام علماء "هيئة ما بين الحكومات المعنية بتغير المناخ" بإقامة نماذج حواسيب تحاكى المناخ.

وقد انتهى التقرير الأول لـ"هيئة ما بين الحكومات المعنية بتغير المناخ"، الذى نشر فى عام ١٩٩٠ بتأكيد أن التركيزات فى الغلاف الجوى لغازات الصوبة كانت فى ازدياد، وتكهن بأنه فى ظل سيناريو "العمل كالمعتاد" فإن القرن الواحد والعشرين سوف يرى زيادة فى درجة الحرارة كل عقد، جنبا إلى جنب، مع ارتفاع فى مستوى البحر قدره ستة سنتيمترات كل عقد، وبذا فإن متوسط درجات الحرارة، فى نهاية

القرن الحادى والعشرين، سوف تكون أعلى من الحاضر بـ ٣-٤ درجات مئوية (٥,٤ - ٧,٢ ف)، وسوف تكون مستويات البحر قد ارتفعت٦٠ -٧٠ سنتيمترا، أى حوالى قدمين، وانتهت هيئة ما بين الحكومات المعنية بالتغير المناخى إلى أنه يلزم لاستقرار التركيزات الحالية لثانى أوكسيد الكربون، تخفيض انبعاثات غاز الصوبات الحالية بمقدار ٦٠-٨٠٪، بما يعنى، فى الأساس، إغلاق أغلب المصانع ووسائل النقل الهامة[٢١]، ورغم أن هذه النتيجة تحظى بدعم ووزن ألفين من كبار علماء العالم، فقد كانت هنالك مشكلة، لقد قال الحاسوب: إنه كان من الضرورى بالفعل وجود احتباس حرارى خلال المائة سنة الأخيرة بحوالى درجة واحدة مئوية (١,١٨ ف)، غير أن قياس الاحتباس الحرارى الفعلى أعطى حوالى ٠,٥ درجة مئوية (٠,٩ ف) يضاف إلى ذلك أن الحاسوب عجز عن تفسير التبريد الذى حدث من عام ١٩٤٠ إلى عام ١٩٧٠، واعترفت هيئة ما بين المحكومات المعنية بتغير المناخ أنها عانت من سلوك أشبه بغمامة فى حاسوبها، وأنه كان هنالك مستويات من التفاصيل لم يستطع الحاسوب، ببساطة الوصول إليها، واحتدمت معركة العلماء.

كانت البيئية، فى تلك الأثناء، فى صعود، ورغم أنه ليس لأوربا تاريخ فى البيئية مثل ذلك الذى للولايات المتحدة، فإن ضباب لندن القاتل عام ١٩٥٢ أدى إلى تشريع عام ١٩٥٦ بهواء نظيف، وكان الناس، فى القارة، يلاحظون أن الأنهار ومجارى المياه والهواء بالمثل يزداد قذارة أكثر فأكثر، كنت أعيش، فى أواخر الستينيات، فى الأراضى الواطئة، وأتذكر مناقشات فى الصحافة الهولندية حول فقر نوعية مياه الرين عندما تصل فى النهاية إلى روتردام، بعد اجتيازها أوروبا طولا. وربما كان الأكثر أهمية هو الأمطار الحمضية التى بدأت تصبح مشكلة فى أوروبا، كما كانت فى الولايات المتحدة، وفى إبريل عام ١٩٧٤ قيست حمضية الأمطار فى إسكوتلندا فبلغت ٥٠٠ ضعف للحموضة الطبيعية[٢٢]، وفى عام ١٩٨٢ ماتت أو كانت فى طريقها للموت ٧٪ من أشجار "الغابة السوداء" فى ألمانيا، وارتفع الرقم فى غضون ثلاث سنوات إلى ٥٠٪[٢٣]، وفى السويد ماتت أربعة آلاف بركة حتى عام ١٩٨٠، وهنالك خمسة آلاف

فى طريقها للموت[٣٤]، وقد قادت الهموم البيئية فرنسا إلى تشكيل وزارة للبيئة عام ١٩٧١[٣٥]، وسرعان ما تبعتها بلدان أخرى.

وقد تداخل القلق العام، ارتباطا بموضوعات بيئية مع اتجاه سياسى آخر؛ إذ رغم أن أوروبا، تاريخيا، يهودية - مسيحية، فإن الكثيرين اعتنقوا ديانات مثل الشيوعية اللادينية، والفاشية والاشتراكية فى القرن العشرين، الفاشية سقطت، بالطبع، فى الحرب العالمية الثانية، وكانت الشيوعية تعانى الفشل فى السبعينيات، وكانت الاشتراكية تتعاون مع البورجوازية السائدة، حتى إنها كانت تختلف قليلا عن مبادئ المحافظين، لقد فقد اليسار المعادى للرأسمالية موطنه وقضيته ووجد قضية الخضر، كانت البيئية نموذجية من نواح عديدة، إن حماية البيئة تجعل من المرء حليفا بصورة آلية مع ما هو جيد وحسن، لقد اكتسبت شرعية من كونها معادية للشركات، ومعادية للعولمة، وهى، بالطبع، تقتضى حكومة كبرى ونظمًا وقواعد كى تفرض نمطا جديدا للحياة فى المجتمع الغربى، إن الكثيرين من اليسار الأوروبى اعتنقوا "حركة الخضر" الناهضة، التى غدت فى سرعة حركة سياسية هامة ودخل الخضر البرلمان الألمانى يمثلون حوالى ٦٪ من التصويت الوطنى، وأخيرا شكل الألمان الخضر جزءا من الائتلاف الألمانى الحاكم، وتقلدوا منصب وزير الخارجية فى شخصية جوشكافيشر، وهو متظاهر شوارع يسارى راديكالى سابق، كان هذا الجهد للبيئية جهدا أيديولوجيا أكثر بكثير من المجموعات البيئية الأمريكية السائدة، وأقل اهتماما بالحلول العملية، أقل من اهتمامه بالأجندات، والسياسات الثورية الكبرى، وقد هيمنت وجهات نظر الخضر على وزراء البيئة فى البلدان الأوروبية، إن لم يكونوا هم أنفسهم من الخضر، لقد كانوا هم الممثلين الرئيسيين لأوربا فى مختلف هيئات الأمم المتحدة العاملة، وفى ريو.

وسارت سياسات الولايات المتحدة فى تناقض مع ذلك، سارت وئيدا إلى اليمين مع إدارتى ريجان، ثم إدارة بوش الأولى عام ١٩٨٨، إن واحدا من التعبيرات الأساسية عن فلسفة المحافظين الجديدة هذه، كان الشك فى الحكومات الكبيرة

ومعارضته القواعد والنظم، خاصة تلك التى كان يعتقد أنها سوف تقيد الأعمال المنتجة على أيدى بيروقراطيين غير منتجين، فقد خفض جيمس وات، وزير داخلية ريجان - تمويل برنامج حماية الأنواع المعرضة للخطر، ودفع لفتح المناطق البرية لتراخيص النفط والغاز، ونقل عدد من المسئوليات المنظمة للبيئة من اختصاص قضاء الحكومة الفيدرالية، لكن الأكثر أهمية كانت وجهات نظر جون سونونو، الذى لعب دورا أساسيا باعتباره رئيس العاملين فى البيت الأبيض، فى إدارة بوش الأولى، فى التحضير لريو، كان حاكما سابقا لنيوهامبشاير، وكان المتزعم لوضع قواعد ونظم للتحكم فى الأمطار الحمضية، وكان يعتبر نفسه مدافعًا عن البيئة، غير أنه أحس أن أوضاع المدافع عن البيئة غالبا ما تكون أيديولوجية، وتسد الطريق أمام التنمية الاقتصادية على أساس دليل علمى ناقص عن خطر الضرر، أو إثبات أن العلاج المقترح سوف ينجح، ويرى سونونو فيما يتعلق بحالة الاحتباس الحرارى الكونى - أن تخفيض الوقود الحفرى سوف يكون مكلفا للغاية، من الناحية العملية، وأن الدليل العملى لم يثبت بعد أن المشكلة خطرة بما يكفى ليجيز الإنفاق، وقال: " إن كنت تصدر قرارا بتريليون دولار، إن كنت سوف تصدر قرارا يؤثر على مليون وظيفة، فيجب عليك أن تصدره على أساس ما تعرفه وليس على أساس ما تقودك مشاعرك للإحساس به"[٣٦]، ويحتمل أن سونونو يعكس فيما يقول وجهات نظر مجلس شيوخ الولايات المتحدة، الذى عليه أن يصادق على المعاهدة الدولية، ودخلت إدارة ريجان الإعدادات لريو بحذر، وهى تنظر بألم إلى معادلة التكلفة / الفائدة.

كانت الصناعة أيضا تتطلع إلى الدليل والتكاليف المحتملة، وحارب أصحاب المصانع، فيما يتعلق بثقب الأوزون، ضد استبدال كلورو فلورو الكربون، ما دام الخطر نظريا فقط، ولكن ما أن غدا الدليل على ثقب الأوزون واضحا، وطبيعة الخطر مؤكدة حتى تحركت الصناعة بخفة ونشاط لإجراء التغيرات اللازمة، كان الاحتباس الحرارى أكثر تعقيدا، إن أى نظم وقواعد سوف تضرب صناعات كبرى وآلاف الشركات عبر الاقتصاد، كان الدليل غير مؤكد، والضرر المحتمل غير

واضح (حتى إن البعض قال: إن الأثر قد يكون مفيدا)، وتكاليف العلاج سوف تكون عالية للغاية، ومن ثم، أعدت الصناعة الأمريكية مجموعة ضغط ضد الكل، ما عدا القرارات الأكثر مرونة.

واتخذت الصناعة الأوروبية منحى آخر، مختلفًا إلى حد ما، لم تكن قلقة، لكن لم يكن لها تاريخ الشركات الأمريكية، ولا قدرتها على تشكيل مجموعات نشطة للضغط على حكوماتها، يضاف إلى ذلك أنها كانت تواجه مشكلة أقل تكلفة، إن عملية استخدام الطاقة النووية الثابتة باستمرار فى فرنسا، تعنى أنها سوف تخفض انبعاثات الوقود الحفرى بصورة كبيرة على أى حال، ولذا فإنه لم يكن مطلوبا من الصناعة الفرنسية عمليا أن تفعل الكثير جدا، وكان الوضع مماثلا فى بريطانيا وألمانيا، إن بريطانيا قد قدمت العون المالى لمناجم فحمها لعقود، ولذا أبقت على الفحم حيا بصورة زائفة باعتباره وقودها الأساسى المولد للطاقة، غير أن حكومة تاتشر اتخذت مبكرا قرارا بوقف العون المالى، وفى نفس الوقت، أدى اكتشاف احتياطيات كبيرة من الغاز الطبيعى فى القطاع البريطانى من بحر الشمال، إلى جعل التحول من الفحم إلى الغاز الطبيعى الأكثر نظافة عند استخدامه - مسألة مريحة اقتصادية، ومن ثم، فإن بريطانيا أيضا كانت مقدمة على تغيير كبير للانبعاثات كمجرى طبيعى، وكان للصناعة الألمانية القدر الأفضل من الجميع، وبإعادة توحيد ألمانيا، ورثت مصانع الشرق القديمة غير الفاعلة التى تدار بالفحم والخُث(*)، والتى كانت تغلق بانتظام وتستبدل بمصانع حديثة، كانت مصانع الشرق القديمة رديئة إلى حد أن شركات ألمانيا الغربية زادت بالفعل انبعاثاتها، بينما كانت تنخفض بطريقة درامية كل انبعاثات البلاد، أما بالنسبة لباقى أوربا، فقد استفادت من تخفيضات الانبعاثات فى بريطانيا وفرنسا وألمانيا؛ حيث إنها كلها متطابقة تحت مظلة الاتحاد الأوربى، كان فى وسع العديد من البلدان

(*) نسيج نباتى نصف متفحم (المترجم).

الأوروبية أن تزيد من انبعاثاتها الفردية؛ حيث إن الاتحاد الأوربى ككل يمارس رغم ذلك تخفيضا ما.

وفى النهاية، كانت هنالك البلدان النامية، وقد رأت الكثير منها على أية حال أن "قلق" الغرب، بخصوص البيئة - إنما هو مؤامرة لكبح نموها، وهم راغبون على أية حال، فى أن تُدفع لهم مقادير كبيرة من معونة التنمية، مقابل أى التزامات يمكن أن يأخذوها على عاتقهم، وقدمت بلدان الأوبك، مجموعة، كل عنصر فيها هو عنصر فى مجموعة شاملة من البلدان النامية - ومما يثير الدهشة - أن تلك البلدان غير راغبة فى السماع عن قيود على الانبعاثات.

كانت هذه القوى معدة لرقصة التانجو فى ريو، فشكلت الأمم المتحدة لجنة للتفاوض فيما بين الحكومات (آى إن سى) لتضع الأجندة، وتعقد مباحثات أولية حول الاتفاقيات التى سيوقعها رؤساء الحكومات فى "قمة الأرض" الكلية، المخطط لها أن تنعقد فى يونيو ١٩٩٢، وقد اشتملت الأجندة النهائية على معاهدة لحماية التنوع البيولوجى، وبرنامج للحفاظ على الغابات، وإطار أجندة ٢١ طموحة لتكون مرشدا فيما يتعلق بالبيئة شاملة، وبسياسة التنمية الاقتصادية و"إطار معاهدة الأمم المتحدة حول تغير المناخ"، كان هذا البند الأخير هو مركز المناقشات الكبرى، التى قادت فى النهاية إلى كيوتو، كان التوجه متأثرا بشدة بتجربة بروتوكول مونتريال، واختصرت كل المناقشات أساسا فى مسألتين: هل ستكون هنالك أهداف وجداول زمنية لتخفيض انبعاثات غاز الصوبات مثل بروتوكول مونتريال، حول الأوزون؟ وهل سيطلب من الدول النامية المشاركة؟

وبدأت اللعبة فى شتاء ١٩٩١، عندما عقدت لجنة التفاوض فيما بين الحكومات اجتماعاتها التحضيرية حول معاهدة تغير المناخ المقترحة، كان الذى حدد الأسلوب هو مصطفى طلبة مدير مشروع الأمم المتحدة للبيئة، الذى قال: إن "الناس فى كل مكان، تنظر إلى عام ١٩٩٢ باعتباره أفضل فرصة لنا، وربما تكون فرصتنا الأخيرة، لإنقاذ أرضنا"[٣٧]، ورغم أن علماء هيئة ما بين الحكومات المعنية بتغير المناخ، قد انتهوا إلى

أن هنالك حاجة إلى تخفيض انبعاثات ثانى أوكسيد الكربون بنسبة ٦٠-٨٠٪؛ لتثبيت تركيز كربون الغلاف الجوى، فإن القليلين كانوا على استعداد للنظر فى مثل تلك التخفيضات فى مواجهة الواقع الاقتصادى، وكان أقوى اقتراح تم النظر فيه هو تجميد انبعاثات ثانى أوكسيد الكربون فى عام ٢٠٠٠ عند المستويات التى كانت عليها عام ١٩٩٠، كان ذلك الاقتراح مقدما من المجتمع الأوربى يدعمه "تحالف دول الجزر الصغيرة"، وكذا كندا وأستراليا، والدول الشمالية، لم يكن ذلك هدفا يقوم على أسس علمية واقتصادية، كان ببساطة هو الاقتراح الأفضل الذى فكروا فى إمكان تحقيقه، وعارضت الولايات المتحدة، فى تحالف نادر مع بلدان الأوبك، أى أهداف لها علاقة بالانبعاثات أو الجداول الزمنية، وأوضحت البلدان النامية تقودها الصين والهند أنها لن تقبل بالتزامات يمكن أن تقيد نموها.

وفى صيف ١٩٩١، غدت الحرب حرب خنادق قاسية، وطالب المجتمع الأوربى وكندا واليابان فى اجتماع السبعة الكبار فى لندن فى يوليو، طالبوا الولايات المتحدة أن تلحق بهم فى الالتزام بتجميد الانبعاثات، وكان الرفض الأمريكى مستشهدا بنقص الدليل العلمى الكافى؛ مما أثار نقدا ندر تسجيل مثيله من القادة الأوربيين، قال أحد قمم المسئولين: "إن الولايات المتحدة تود أن تتفادى أى شىء غير التعميم، إن كل شخص آخر يود أن يكون ملتزما"[٣٨]، وكان وضع بريطانيا لافتا للنظر بشكل خاص، إنها لم تلتزم فقط بتخفيض الانبعاثات، لكنها أوضحت وجهة نظرها القائلة بأن أكبر باعث على التلوث فى العالم هو الولايات المتحدة التى يتوجب عليها القيام بدورها، كما لوحظ أيضا أن نزوع الولايات المتحدة إلى الشك، جعل من السهل على ملوثى المستقبل مثل الهند والصين - تجاهل الأمر برمته، وكأن الدور قد حان للظهور على المسرح؛ إذ أصدرت مجموعة من البلدان النامية - بعد شهر من ذلك - بيانًا تتنصل فيه من مسئولية المشاكل البيئية، وتطالب بمعونة مالية كبيرة فى مقابل التعاون البيئى، وذهبت ماليزيا بعيدا فهددت بمقاطعة المؤتمر إن ركز كثيرا للغاية على مسئوليات البلدان النامية.

وفى الأشهر التالية وقع بوش الذى كان قد قال: إنه سوف يكون "رئيس البيئة"، تحت ضغط متزايد من المجموعات البيئية المحلية، لإثبات ما قال، وغدت ريو سببا للشهرة، قال الممثل جيمس إيرل جونس لمشاهديه: "إن الجنس البشرى كله على المحك"[٣٩]، ونظم "نادى سييرا" حملة شعبية ليستحث الرئيس كى يمسك بقيادة المؤتمر، بالموافقة على التوقيع على اتفاقيات قوية، وأعلن "المعهد العالمى للموارد"، أن الرئيس إن لم يتصرف بطريقة قوية فهو عرضه للاتهام بالعداء للبيئة فى حملة الانتخابات القادمة؛ وقدم قادة الحزب الديمقراطى فى الكونجرس تشريعا يدعو للعمل على استقرار انبعاثات الولايات المتحدة فى عام ٢٠٠٠ عند المستويات التى كانت عليها عام ١٩٩٠ - وهو ما كان المجتمع الأوروبى يضغط داعيا للالتزام به.، ورغم هذا الضغط، وترك سونونو منصب رئيس العاملين، تمسك بوش بصلابة بعدم تحديد أهداف أو جدول زمنى للالتزامات، وأصر مفاوضو الولايات المتحدة، فى الأمم المتحدة على تحديد مقادير وأسس علمية مناسبة لاتخاذ ما يمكن أن يكون التزامات مكلفة للغاية، وتقوى موقفهم عندما نشرت "الجمعية الأمريكية لتقدم العلم" تقريرا يحتوى على نتائج مختلطة حول التأثيرات المحتملة لانبعاثات غاز الصوبة، ونصحت باتخاذ فعل يخفض الانبعاثات، لكنها قالت: إن المعلومات المتاحة لا تسوغ فعلاً قاسيا.

وإذا كان ذلك الكلام جيدا بما يكفى للعلماء، فقد كان جيدا أيضا بما يكفى لبوش، وتمسكت إدارته بموقفها - وحبذت الولايات المتحدة معاهدة تلزم الموقعين بتخفيض الانبعاثات، ولكن على نحو - وفى وقت - يقوم على نتائج عملية جيدة التأسيس، ومتناغمة مع الحاجيات الأساسية ومؤسسات كل بلد، وهددت الدول الصناعية الأخرى، مع اقتراب موعد اجتماع ريو، بإنهاء معاهدة تقوم على الالتزام بتجميد الانبعاثات دون الولايات المتحدة، وهدد بوش بدوره بعدم حضور الاجتماع إذا بدا أن الولايات المتحدة سوف تكون معزولة وهدفا للهجوم، وفى النهاية، انتهى المجتمع الأوربى أنه من الأفضل الحصول على معاهدة ضعيفة، والولايات المتحدة داخلها، من الحصول على معاهدة قوية، والولايات المتحدة خارجها، واتخذت موقفا لينا من المطالبة

بالأهداف والجدول الزمنى، وقد أقرت الاتفاقية الأخيرة لـ"معاهدة إطار الأمم المتحدة المعنى بالمناخ"، بالأثر الضار لانبعاثات غاز الصوبة البشرية، وألزم الموقعين بتخفيض تلك الانبعاثات إلى مستوى عام ١٩٩٠ حتى عام ٢٠٠٠، غير أن الاتفاقية لم تكن مُقيدة، وكان من المتوقع أن تقدم الدول المتطورة المساعدة المالية والتقنية إلى البلدان النامية، التى لم يكن مطلوب منها غير حسن النية.

وأخيرا انضم بوش للحفل حرفيا - فى قمة الأرض بريو - فى ١٢ يونيو، كان هنالك تيد تيرنر وجين فوندا، جنبا إلى جنب مع شيرلى ماكلين وجيرى براون، وغنى جيمى كليف بينما الأمريكيون المحليون حول نار مخيم وهم يدقون الطبول بنعومة، وأعلن الأوربيون حزمة أربعة مليار دولار معونة للبيئة، وأوقع ذلك العرض الصغير الولايات المتحدة فى حرج، وأصدروا بيانا يؤكدون فيه التزامهم بتخفيض الانبعاثات، وعندما سئلوا إن كان المجتمع الأوربى يتخذ لنفسه دورا قياديا جديدا، قال لورنس جان برينكهورست المدير العام للبيئة فى المجتمع الأوربى "إن تحركنا فى ذلك الوضع أمر منطقى"، وأصر بوش، على أى حال، "إننا القادة ولسنا التابعين"[٤٠]، غير أن هذه لم تكن جماهيره ليبدأ بها، وفقد أى تعاطف عندما قال: "إن طريقة الحياة الأمريكية ليست مطروحة للتفاوض"[٤١]. وكحقيقة لا مفر منها، كان ذلك تحديدا هو المطروح للتفاوض.

من ريو إلى كيوتو

أصبح الطريق من ريو إلى كيوتو متعرجا، وجاء أحد المنحنيات الأولى سريعا عندما هزم بيل كلينتون - مرشح الحزب الديمقراطى - بوش فى انتخابات عام ١٩٩٢، بعد خمسة أشهر فقط من ريو، كان الديمقراطيون يلقون دوما دعما أكبر من المهتمين بالبيئة أكثر من الجمهوريين، وكان السيناتور السابق آل جور نائب الرئيس، فى هذا الوقت، يعد نفسه من بين المهتمين بالبيئة، المؤمنين بها بحق، كان جور وهو طالب

متأثرا ببحث كيلينج واستنتاجاته، وكان بطل التشريع للبيئة فى مجلس الشيوخ، وقد طرح جور فى كتابه الأفضل مبيعا "الأرض فى الميزان" اقتراحات تفصيلية لسياسة بيئية جديدة تشتمل على نوع من ضريبة الكربون، ومتطلبات أعلى لسرعة السير بالميل عند استخدام الغاز فى السيارات، ورسم على أصحاب المصانع الذين يستخدمون مواد غير قابلة للتجدد[٤٢]، كان لدى نائب الرئيس فرصة للتطبيق العملى لتلك الآراء؛ لذا أصبح كابتن الفريق البيئى فى الإدارة الجديدة، ولم يضيع وقتا، ووضع "خطة عمل لتغير المناخ"، وأعلن عنها فى أكتوبر عام ١٩٩٣، وقد ألزمت تلك الخطة الولايات المتحدة، من بين أشياء أخرى، بالوصول بمستوى انبعاثات الكربون إلى ما كانت عليه عام ١٩٩٠، وتحقيق ذلك حتى عام ٢٠٠٠، تماما مثلما طالب باقى العالم الولايات المتحدة فى ريو، وبعد أشهر قليلة وُضعت معاهدة ريو فى التطبيق، بعد أن صادق عليها العدد الضرورى من البلدان، بما فيهم الولايات المتحدة التى أصبحت داعمة كل الدعم.

غير أن الطريق كان يوشك أن يكون وعرا، فقد كسب الجمهوريون التحكم فى مجلس النواب، لأول مرة خلال اثنين وأربعين عاما، فى نوفمبر، وانتخبوا العنيف نيوت جينجريش متحدثا رسميا، وهو دون جدل الموقع الثانى الأكثر قوة فى حكومة الولايات المتحدة، وظهر اتجاهه نحو البيئة، فى أفضل صورة جذبا للانتباه، فى لقاء مع صحيفة قال فيه: "إننى أحب البيئة"، لكننى قليل القيمة لمحبتى للبيئة"[٤٣]، كانت مجموعة الـ ٩٤ هى المجموعة الأكثر محافظة من الجمهوريين الذين رأتهم واشنطن أو العالم منذ العشرينيات، كانوا يكرهون الحكومة الكبيرة، وكانت البيئة بالنسبة إليهم حكومة كبيرة، وفى إيجاز، قال جيم هانسن ممثل أوتاه: "ليست المسألة إذا ما كان الأمر هو إغلاق الحدائق (الوطنية)، ولكن كيفية إنجاز هذا العمل"[٤٤]، وقال دون يونج رئيس لجنة الموارد بالمجلس، وهو جمهورى من ألاسكا: "عندما أرى شجرة، فإننى أرى ورقة تفجر أنفك"[٤٥]، وأضاف: "إن المهتمين بالبيئة مجموعة اشتراكية من الأفراد هم أداة للحزب الديمقراطى، إنهم ليسوا أمريكيين، لم يكونوا قط أمريكيين، ولن يصبحوا

أبدا أمريكيين"[٤٦]، وتحدثت السيدة هيلين شينوت فى الكونجرس، وهى من إيداهو بصوت موسيقى: "إن السياسات البيئية يدفعها نوع من الروحانية العاطفية التى تهدد بالتحديد أساس مجتمعنا؛ مما يجعل مبادئ دستورنا الأساسية تتآكل"[٤٧]، وسواء كان هؤلاء الجمهوريون على صواب أم على خطأ، فذلك أمر يمكن مناقشته، لكن الشيء المؤكد أنهم ليسوا فى شك من أمرهم.

ورأى الجانب الآخر من الأطلنطى فى تلك الأثناء ديناميكية سياسية مخالفة، جاءت الحكومات الاشتراكية إلى السلطة فى بريطانيا وألمانيا وفرنسا، وكذلك بالمثل فى بعض البلدان الأوربية الأصغر، كانوا متعاطفين منذ زمن مع قضية البيئة، والآن وجدوا أنفسهم يعتمدون أكثر فأكثر على الخضر، من أجل الدعم السياسى، كانت الحكومة فى ألمانيا الآن، ائتلافًا اشتراكيا - أخضر، وكان جزء من دعوى الخضر أنهم يحددون المشاكل مثل الأمطار الحمضية والتلوث، تلك التى كانت تثير القلق اليومى، كانوا مدينين أيضا - بشيء ما - لحاسة الفضيلة عند الناس، التى استخلصوها أثناء نضالهم من أجل هواء وماء نظيفين وطعام صحى، ووراء هذا، على أى حال، نشأت أيضا وتغذت حلقة استرجاعية إيجابية بإحساس بازغ بالهوية الأوربية، وكما تشكل المجتمع الأوربى فى الوحدة الأوربية، وركز على "تعميق" تداخله الاقتصادى والسياسى، فإن سياسات معينة غدت أدوات للتعبير عن الأوربية، وكان أحد تلك بالطبع هو اقتراح بعملة أوربية واحدة، وكان الآخر سياسة بيئية، كان هنا شيء جيد يجعل الأوربيين جميعا يتفاخرون بأنفسهم وقد أمسكوا بوضع قيادى، كان ذلك أيضا وسيلة للتعبير عن استيائهم من الولايات المتحدة، وبمعنى ما أصبحت البيئية وخاصة سياسة تغير المناخ تعبيراً عن الوطنية الأوربية، وإعلانا عن استقلال أوربا.

وواصل الطقس تعاونه الرقيق مع أنبياء يوم الحساب، ووجد يناير ١٩٥٩ د. رودولفو ديل فالى، مدير قسم علوم الأرض فى "المعهد الوطنى الأرجنتينى للقطب الجنوبى"، وهو يترأس محطة رقابية على جزيرة "جيمس روس" قبالة شبة جزيرة

القطب الجنوبي للقيام ببحث أثناء صيف القارة القصير القارس، وقد أرسل في منتصف الشهر زملاء بقاعدة أرجنتينية فوق "رف لارسن الجليدي" رسالة لاسلكية تقول إنهم يعانون من الاهتزاز بسبب هزات ثلجية دائمة، وفي ٢٣ يناير اتصلوا ثانية ليقولوا: "رودي، هناك شيء يحدث، الرف الجليدي يتحطم"(٤٨)، وطار في طائرة خفيفة فوق رف بحجم "جزيرة رود" التي يبلغ سمكها آلاف الأقدام؛ ليشاهد ديل فالي ما لا يمكن تصديقه، لقد انهار الرف الجليدي أمام عينيه، وقال "إنه كان مشهدا أخاذا". "ما كان يوما رصيفا من جليد لأكثر من أربعين ميلا اتساعا - بدا مثل أجزاء من رغوة البوليسترين(*) حطمها طفل - الشيء الأول الذي استطعت فعله هو الصراخ"(٤٩)، ونظر حينئذ إلى الجزء الشمالي من الرف الناتئ في "بحر ويديل"، وتنبأ ديل فالي وزملاؤه بأنه سوف يتصدع أيضا في غضون عشر سنوات.

كان ذلك هو الحادث المناخي الأشد إثارة لهذا العام، لكنه لم يكن الحادث الوحيد، وبعد شتاء خامس متعاقب دون صقيع، اجتاح الناموس والصراصير والنمل الأبيض نيواورليانز، وكان الإسبان عبر الأطلنطي يعانون للسنة الرابعة من أسوأ جفاف تم تسجيله، وفي روسيا ذاب الأسفلت في مطار شيريميتييفو(٥٠).

كانت تلك هي ستارة المسرح الخلفية عند افتتاح "المؤتمر الأول للأطراف" (كوب١) في برلين، في أعقاب ضمانات معاهدة ريو، كان هدف هذا الاجتماع هو تحديد إذا ما كان الموقعون قد أعلنوا خططا لتخفيض الانبعاثات يحتمل أن تكون ملائمة، وأن يوصوا بالمزيد من الخطوات إن لم تكن تلك ملائمة، وبالنظر إلى الاتجاهات المتشددة في الاتحاد الأوربي، والاتجاهات المتغيرة في الولايات المتحدة، مع وصول إدارة كلينتون، لا بد أن يكون الأمر مثيرا للدهشة أن وجد "الكوب" أن كل شيء كان متألقا.

(*) مركب كيميائي متبلمر للاستيرين، وهو مادة هيدروكربونية سائلة، عطرة غير مشبعة تستخدم في صنع المطاط واللدائن .(المترجم).

كان "تفويض برلين" قد قرر في الحقيقة أن الخطط والعمليات لم تكن ملائمة، ودعا إلى مزيد من تقوية الالتزامات، ربما من خلال بروتوكول مقيَّد أو أي وسيلة قانونية أخرى، وقد فتح هذا الإعلان بصورة فاعلة مفاوضات ريو مرة ثانية.

وقد بدأ الاحتياج الأكثر لفعل ذلك، بتأكيد إطلاق التقرير الثاني الذي أصدره الآن ٢٥٠٠ عالم من علماء هيئة ما بين الحكومات المعنية بتغير المناخ، كانت نماذج حواسيبهم تتحسن، إنهم يستطيعون الآن التنبؤ بالماضي، بمعنى أن ما تقوله الحواسيب لا بد أن يكون قد حدث، في السنوات الماضية، مثيلاً له إلى حد كبير، وقد اتجهت النتائج الجديدة إلى تقوية تلك التي لعام ١٩٩٠، وتقول الجملة الأساسية: "إن توازن الدليل يطرح تأثيرا بشريا على مناخ الكون يمكن إدراكه"، وقد تنبأ العلماء بدفء من ١ إلى ٣,٥ درجة مئوية في العام ٢١٠٠، وقالوا: إن ذلك سوف يؤدي إلى ارتفاع متواصل لمستويات البحر، وزيادة في الترسيب، والمزيد من العواصف العنيفة في بعض الأماكن، وجفاف حاد في البعض الآخر، إن التقرير المصوغ بحذر يعترف بأن الشكوك لها بعض الحسنات عندما تشير إلى ضعف النماذج عند التعامل مع السحب، وموجات المحيط، والأجزاء الصغيرة[٥١]. ومع ذلك، فإن صورة مستقبل الأرض التي رسمت لوفود "الكوب ٢"، في جنيف، في يوليو عام ١٩٩٦، لم تكن بالصورة الجميلة، تحرك وفد الولايات المتحدة بقيادة تيم ويرث، وكيل الوزارة، ليمسك بالقيادة؛ كي يفعل شيئا ما بهذا الخصوص، كان "إعلان جنيف" يقوم أساسا على بيان سياسة الولايات المتحدة، وفيه جرى إقرار تقييم هيئة ما بين الحكومات المعنية بتغير المناخ، والتصديق عليه، ودعوة الأطراف لوضع أهداف مقيدة قانونيا، هنا، لم تكن الولايات المتحدة تصعد فوق خشبة المسرح، لكنها كانت تقود الهجوم، من أجل أهداف وجداول زمنية، وبقي فقط الموافقة على التفاصيل، وتخفيض المقدار الفعلي في "كوب ٣"، الذي كان مقدرا له أن يلتقي في طوكيو العام القادم.

وحظي ويرث، والإدارة، بشعبية عند الاتحاد الأوربي، لكن ليس عند آخرين عديدين، فقد رفض الأستراليون، والنيوزيلنديون والروس الدعوة إلى أهداف مُقَيدة،

بينما راوغ الكنديون واليابانيون، كان هؤلاء سيواجهون على غير مثال الأوربيين زمنا صعبا لتحقيق الأهداف التى تمت مناقشتها وأكدت مجموعة الـ ٧٧ من البلدان النامية، تقودها الصين، مرة أخرى، على أنها لن تدفع لآثام انبعاثات الدول المتطورة، ولن تسمح لهم باستخدام تغير المناخ كآلية كولونيالية عصرية، للإبقاء على الدول النامية إلى أسفل، إنهم سوف يجيئون إلى كيوتو فقط كمتفرجين مهتمين، وكمتلقين محتملين للمساعدة، غير أن أعلى اعتراضات جاءت من رجال أعمال الولايات المتحدة، الذين رأوا أن أوراق اللعب تتراكم ضدهم، وحتى نبدأ فإنه لم يكن لديهم أى شيء يشابه الغاز الطبيعى البريطانى أو الاستخدام النووى الفرنسى، أو الإغلاق الألمانى لمصانع الطاقة الألمانية الشرقية القديمة؛ ليساعدهم ذلك فى تحقيق أهدافهم، وفى الحقيقة، كان المجتمع البيئى يعارض بعنف أى نموذج فرنسى لاستخدام الطاقة النووية فى الولايات المتحدة، واقترح أحد الرؤساء التنفيذيين مازحا، إلحاق المكسيك بهم، وإغلاق بعض مصانع الطاقة القديمة بها، وفوق ذلك، كان عام ١٩٩٠، سنة الأساس، عام ركود، بينما كانت الانبعاثات منخفضة بصورة غير عادية، البلاد الآن تعيش توسعًا اقتصاديا كبيراً، وتعانى أيضا هجرة قوية، ونموا فى السكان؛ لذا كانت هنالك زيادة كبيرة فى انبعاثات الولايات المتحدة منذ عام ١٩٩٠، الأمر الذى لم تمارسه الاقتصاديات الأوربية واليابانية الراكدة، والسكان المتناقصين عددا، إن تحقيق بعض أهداف الانبعاثات، تحت مستويات عام ١٩٩٠، كان سيضر بالأعمال فى الولايات المتحدة أكثر كثيرا من الآخرين، وأخيرا، فكروا أن المقاييس المعيارية كانت خاطئة حتى إنها لم تحظ بالثقة، رغم أدائها الجيد بالفعل، كانت صناعة الولايات المتحدة، خلال السنوات الخمس عشرة السابقة، قد خفضت الانبعاثات لكل وحدة من الناتج، بأكثر كثيراً من غالبية باقى دول العالم، وبأكثر من ٥٠ ٪ من بريطانيا وفرنسا(٥٢)، وبدا أن التركيز على أطنان الانبعاثات أكثر من التركيز على الانبعاثات لكل طن من الناتج، يشكل عقابًا على المنتجين والاقتصاديات الأكثر نموًا، والأكثر فاعلية، لذا شكلت الأعمال الأمريكية " ائتلاف المناخ الكونى" لمحاربة ما خشيت أن يكون اتفاقًا غير موات فى كيوتو.

وقد أثار الائتلاف جدلين، كان الأول أن المقدار المطلوب سيخفض النمو الاقتصادى ويكلف فَقْد وظائف، وقامت الإدارة بعمل تحليل اقتصادى أوضح أن الإجراءات المناظرة لكل ١٠٠ دولار ضريبة، لكل طن من الكربون، سوف تخفض انبعاثات الولايات المتحدة فى عام ٢٠١٠ إلى مستويات عام ١٩٩٠، بينما تخفض إجمالى الناتج المحلى بأقل من ١٪ فى العشر السنوات الأولى، بعد سن القوانين، وتؤدى فعليًا إلى زيادة النمو فيما بعد، غير أن عدداً من المحللين المستقلين طلبوا من الإدارة أن تعمل بطريقة بطولية من أجل افتراضات متفائلة، وقد أظهرت دراسة قامت على النموذج المعروف حينذاك بنموذج "زملاء وهارتون للتنبؤ الاقتصادى" أنه بدلاً من مائة دولار مناظر ضريبة على الكربون، فإن الأمر يحتاج إلى ما يناظر ٢٠٠ دولار لتحقيق هدف مستوى الانبعاثات، إن هذا سوف يؤدى إلى تخفيض إجمالى الناتج المحلى بأكثر من ٢٪، وفقدان مليون وظيفة، أما الجدل الثانى للأعمال، فقد كان أنه حتى لو تم تحقيق المقادير المقترحة، فإن ذلك لن ينجح لأن النمو المستقبلى الأكبر للانبعاثات سوف يكون فى البلدان النامية، وهى التى تم بالفعل إعفاؤها من أى التزامات، وأن الأسوأ، فى مسألة الاتفاق هو أن ذلك يمكن أن يكون جاذبًا لشركات الولايات المتحدة التى تنتقل إلى الخارج مما يفاقم خسائر الوظائف فى الولايات المتحدة، بينما لا يخفض البتة الانبعاثات الكونية.

وقد أشار المهتمون بالبيئة إلى أن كل تلك الحسابات لم تشتمل على التكاليف المحتملة فى حالة عدم القيام بشيء، تكاليف يمكن أن تكون كارثية إن ثبتت صحة نصف نبوءات هيئة ما بين الحكومات المعنية بتغير المناخ، ربما جعل ذلك القادة الأوربيين وكذا دون شك قادة " جمعية دول الجزر" يفهمون، غير أن الكونجرس الأمريكى لم يكن يستمع، وقد انعكس ذلك بوضوح فى اتجاه الكونجرس، خلال جلسة استماع فى " لجنة فرعية لمجلس النواب حول الطاقة والبيئة"، بخصوص مستويات البحر، برئاسة عاشق أمواج الشاطئ الصخرى روهراباشر، جمهورى من كاليفورنيا، وعندما قيل له: إن العلماء يتصورون ارتفاعًا قدره ثلاثة أقدام فى مستويات

البحر مما سيغرق ما يصل إلى ٦٠٪ من أراضى الولايات المتحدة المشبعة بالرطوبة، ويغمر منطقة بحجم كونيكتيكت خلال القرن التالى، رد روهراباشر، "هنالك ما يعزينى بأن أسأل ما الذى سيفعله ذلك فى شكل الأمواج، وصلاحية أمواج الشاطئ الصخرى للركوب، غير أننى لن أفعل ذلك، سوف أنتظر حتى فيما بعد، عندما نصبح خارج السجل"[٥٢]، وكانا الأكثر خطورة هما روبرت بيرد، وهو ديمقراطى من فرجينيا الغربية، والسيناتور شوك هاجيل، جمهورى من نبراسكا، فقد تقدما فى يوليو ١٩٩٧، عشية اجتماع كيوتو بقرار يؤكد أن مجلس الشيوخ لن يضع فى اعتباره الموافقة على أية معاهدة يمكن أن تضر باقتصاد الولايات المتحدة أو تستبعد البلدان النامية، وقد ووفق على هذا القرار بتصويت بلغ ٩٥ صوتا إلى صفر، كنوع من رسالة، برحلة سعيدة، من مجلس الشوخ، إلى مفاوضى الولايات المتحدة، حول تناولهم لخططهم فى كيوتو.

وقد احتشدت فى كيوتو، فى ديسمبر ذاك، ثلاث مجموعات، أكثر من مائة مندوب جاءوا من البلدان النامية – جاءوا أساسا كما أظن لزيارة المعابد العتيقة ورؤية معالم اليابان القديمة؛ حيث كانوا قد أوضحوا بالفعل أنهم لن يوافقوا على أى تخفيض للانبعاثات؛ والمجموعة الثانية كانت من الأوربيين وحلفائهم وثيقى الصلة بهم من أمم الجزر الصغيرة، الذين كانوا يسعون إلى تخفيضات حقيقية تحت مستويات ١٩٩٠؛ وكان قلب المجموعة الأخيرة هم الأمريكيين مع الأستراليين والكنديين والنيوزيلنديين واليابانيين على الحد الخارجى، كان الأمريكيون تحت أعلى درجات الضغط حتى لا يتخذوا إجراءات تخفيض مؤلمة، غير أن الآخرين فى المجموعة الأمريكية كانوا، أيضا، يتساءلون: كيف يمكنهم تحقيق الأهداف، ويأملون فى حماية الأمريكيين لهم من ألم اقتصادى وسياسى شديد للغاية، كان النقاش أساسا بين الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى، كانت عيون المفاوضين تبرق بطريقة معقدة، وانتهوا فى حوالى الرابعة صباحا بعد آخر موعد لإنجاز أعمالهم، غير أنه لم يكن هنالك، حقيقة، غير أربع موضوعات – الغازات التى يجب تناولها، والتخفيضات، وتجارة الانبعاثات والأهداف والمواعيد النهائية.

الغازات

ركزت المناقشة العامة لغازات الصوبة على ثانى أوكسيد الكربون، المنبعث من الوقود الحفرى، غير أن ثانى أوكسيد الكربون يشكل حوالى ٦٥٪ من تركيز غاز الصوبة فى الغلاف الجوى، أما الـ ٣٥٪ الأخرى فتتكون من الميثان (وهو يصدر بصورة أساسية من حقول الأرز فى البلدان النامية)، ومجموعة كلورو فلورو الكربون، ومجموعة هيدرو فلورو الكربون، وأوكسيد النيتروز، كانت انبعاثات مجموعة كلورو فلورو الكربون، وأوكسيد النيتروز، وكانت انبعاثات كلورو فلورو الكربون قد خُفضت بالفعل فى بروتوكول مونتريال؛ لذا رغبت المجموعة الأمريكية فى وجودها ضمن الغازات كطريقة لجعل الوصول إلى الهدف النهائى أيسر وأسهل.

الانخفاضات

تمتص الغابات والمحيطات حوالى ٥٥٪ من ثانى أوكسيد الكربون المنبعث حاليا فى الغلاف الجوى، ومن ثم تشكل تلك "انخفاضات فى الكربون"، تساعد على تخفيض التزايد فى تركيز الغلاف الجوى، وكذا تساهم إعادة زراعة الغابات التى تجرى فى شمال شرق الولايات المتحدة، بصورة هامة فى خفض الانبعاثات النهائية. حقا، هنالك دليل ما من الاتحاد المالى الذى يصوغ نموذجا للكربون، بأنه لو تم أخذ تلك الانخفاضات بعين الاعتبار فى الحسابات فإن الولايات المتحدة قد لا تكون مصدر انبعاث خالص، لقد أرادت المجموعة الأمريكية على أية حال حساب الانخفاضات بغرض الوصول إلى أهداف نهائية.

تجارة الانبعاثات

إن تجارة الانبعاثات تشكل آلية لتسخير قوى السوق من أجل تحقيق أعلى تخفيضات بأقل تكلفة، قد يكون ذلك معقدا للغاية، إلا أن الفكرة بسيطة، ما أن ينشأ

هدف للانبعاثات، حتى يمنح من صدرت لديهم الانبعاثات رخصا أو كوبونات بكمية الانبعاثات المسموح بها لهم، فإن وجد واحد ممن تصدر لديهم الانبعاثات أنه من غير الضرورى استخدام كل الكوبونات، فإنه فى وسعه أو وسعها، بيعها إلى آخر ممن تصدر لديهم انبعاثات، ويواجهون خطر تجاوز حدودهم، إن هذه الحيلة سوف تنجح بصورة جيدة، خاصة إن تم ضم الدول النامية، إن إغلاق مصنع للطاقة موجود بالفعل قبل برنامج تحديد المواعيد، حتى تتم الاستجابة لهدف تخفيض الانبعاثات، فى بلد متطور، مسألة مكلفة للغاية، تصل إلى حد إلقاء جزء من رأس المال المستثمر، غير أن البلدان النامية تضيف مصانع جديدة لأول مرة، وهى ببيعها رخص الانبعاثات الخاصة بها يمكنها الحصول على النقود اللازمة للاستثمار فى مصانع أعلى أسعارا لكنها أكثر نظافة، فى حين أن مصنع البلدان المتطورة يستطيع العمل حتى نهاية حياته المالية القابلة للنمو، وهذه يمكن أن تكون حالة كسب، غير أن لاعبين أكثر يلعبون أفضل، وخاصة إن كان العديدون منهم بلدانا نامية، ولما كان الأمريكيون يريدون التجارة، بالطبع، فإنهم بدؤوا يحثون البلدان النامية كى تشارك، لو كانت المشاركة فقط على أسس طوعية.

الأهداف والبرامج الزمنية

إن الأمريكيين ما زالوا راغبين فى استهداف مستويات عام ١٩٩٠، لكنهم لا يرغبون فى الذهاب إلى ما دونها، كان واضحا أن لا أحد بما فى ذلك الأوربيون، يمكنه تحقيق هذا الهدف حتى عام ٢٠٠٠ كما جرى التخطيط لذلك فى ريو أساسا، وهكذا أصبح الموضوع هو إن كان خط نهاية المدة يجب أن يكون عام ٢٠١٠ لتخفيض قدره ١٥٪ أقل من مستويات الانبعاث عام ١٩٩٠، من غازات ثلاث صوبات (الوضع الأوربى)، أم عام ٢٠٠٨ - ٢٠١٢ لتحقيق تخفيض إلى مستويات انبعاثات عام ١٩٩٠ من غازات ست صوبات (وضع الولايات المتحدة). كان من الواضح أن تاريخا متأخرا

يعطى وقتا أكثر لتكنولوجيات جديدة حتى تدخل اللعبة، وكان ذلك بالطبع هو ما يريده الأمريكيون.

وبدأ الأوربيون ودول الجزر بطرح وجهة نظر حول نمط الحياة الأمريكية باعتبارها حياة متلافة، مليئة بالغرور، وحول السياسة الاقتصادية للولايات المتحدة باعتبارها أنانية واستغلالية لميزة الوضع المالى الدولى الأمريكى، وهم قد رأوا كل تلك الانخفاضات والغازات، ونظم التجارة كوسائل مراوغة ماكرة حتى تتخلص أمريكا من مسئولياتها قبل المجتمع الكونى، هنا كانت الخلاصة الحقيقية لنفاق الولايات المتحدة التى تدعى أنها قيادة العالم عفة وطهارة، بينما تبحث عن مهرب مما يلزمها بعقد أو التزام، إن أمريكا وهى تشكل ٤٪ من سكان العالم، تصدر أكثر من ٢٥٪ من التلوث الكونى، لقد حان الوقت لأمريكا حتى تقف أو تلزم الصمت، ولذا عارضت أوربا المرونة التى يسعى الأمريكيون إليها، ومرة أخرى تلقى بهم باعتبارهم الشىء الوحيد الذى يقف بين جماهير العالم المتواضعة، وبين خلاصها البيئى.

وقد وضع كلاوس كينكل، وزير خارجية ألمانيا، أسلوب الدورات، فى ملاحظاته الافتتاحية، بدا بمدح الأمريكيين لما لهم من تقليد إبداعى، ثم انزلق إلى محاولة هزيمة خصمه بأساليب ماكرة بقوله: "إن المتوقع من الرواد أن يضعوا معايير عالية، إن الأجيال القادمة يجب ألا تثقل بتكاليف إهمالنا"[٥٤]. ثم اقترح باعتباره المتحدث باسم الاتحاد الأوربى تخفيضا قدره ١٥٪ من مستوى انبعاثات عام ١٩٩٠، فى عام ٢٠١٠، كان ذلك أقل من الـ ٢٠٪ التى اقترحتها دول الجزر، لكنه أعلى بكثير مما كان يتوقعه المعسكر الأمريكى، كان هنالك ازدهار فى اقتصاد الولايات المتحدة، ولذا فإن مثل ذلك الهدف كان يعنى على وجه التقريب، تخفيض ٣٥٪ فى المستوى الحالى لانبعاثات الولايات المتحدة.

وحتى لا يتفوق أحد عليهم، دعا ميتشيل ميشر – وزير البيئة البريطانى– زملاءه الأمريكيين ليقوموا "بجهد أكبر"، واقترح لمساعدتهم ٢٠٪ من انبعاثات النقل

والصناعة دون مستوى عام ١٩٩٠، فى عام ٢٠١٠. يضاف إلى ذلك أن الأوربيين لم يكونوا راغبين فى السماع عن الانخفاضات أو التجارة أو الغازات، فقط مسألة غازات الصوبات الثلاثة الأساسية، كانوا يريدون تخفيضات حقيقية لانبعاثات فعلية، ولا تزييف، وأدرك ستورت إيزنستادت - نائب الوزير - الذى كان يقود فريق الولايات المتحدة أنه سوف يعدم دون محاكمة إن عاد إلى واشنطن بصفقة مثل تلك، كان قد قال قبل الوصول إلى كيوتو: "إننا نريد اتفاقية، لكن ليس بأى ثمن"[٥٥]. والآن، يقاطع جور، نائب الرئيس، الحديث قائلا: "إننا مستعدون تماما لأن ننجو سالمين من اتفاقية لا نعتقد بنجاحها"[٥٦]، غير أن خداع نائب الرئيس هو الذى لم ينجح، رفض الأوربيون التسوية، وبعد أسبوع، بدا أن المؤتمر قد فشل، وفى محاولة يائسة لإنقاذ المؤتمر والمهتمين المعتمدين بالبيئة، طار جور إلى كيوتو ليخاطب المندوبين المحتشدين، والأكثر أهمية أنه وجه العنيد إيزنستادت كى "يبدى المرونة"، وكانت النتيجة نوعا من التسوية اليابانية، حصل المعسكر الأمريكى على غازاته، بما فيها الميثان وأوكسيد النيتروز (غاز الضحك) وثلاثة من مركبات الهالوكربون التى تستخدم كبدائل لمجموعة كلورو فلورو الكربون، كما حصل المعسكر الأمريكى أيضا على تخفيضات، ولكن مع تنفيذ التحديدات والمعايير المحاسبية للامتصاص، فيما بعد (الله دوما فى التفاصيل)، ولكن لن تكون هنالك تجارة انبعاثات، وفيما يتعلق بالأهداف الهامة كلها والتوقيت، فإن الاتفاقية كانت مع تخفيضات الانبعاثات تحت مستويات عام ١٩٩٠ بـ ٨٪ للاتحاد الأوربى، و٧٪ للولايات المتحدة، و٦٪ لليابان، وليتم إنجاز ذلك ما بين عام ٢٠٠٨ وعام ٢٠١٢، وأُعفيت الدول النامية من أية التزامات، لكنها دُعيت لـ "مشاركة" على أساس طوعى، ويصبح البروتوكول نافذا بعد تصديق خمس وخمسين بلدا على الأقل، بحيث تصل انبعاثاتها مجتمعة إلى ٥٥٪ من ثانى أوكسيد الكربون[٥٧]، وفرقعت سدادات الشمبانيا كما ينبغى، واحتفل المفاوضون المرهقون وغالبية المؤسسات البيئية بالصفقة، غير أنها لم تكن صفقة بهذا القدر المماثل لتذكرة إلى لاهاى.

كانت نوعية المناقشة كلها فى كيوتو سريالية، هنا كانت الولايات المتحدة وأوربا، واللتان ربما تكونان أقرب حلفاء فى العالم، تمارسان النذالة مع بعضهما البعض حول فرق قدره ١٥٪ من تخفيضات الانبعاثات المستهدف، غير أن هيئة ما بين الحكومات المعنية بتغير المناخ، كانت تقول لزمن طويل، إنه من أجل استقرار تركيزات كربون الغلاف الجوى عند مستويات عام ١٩٩٠، وتفادى المزيد من الإغراء البشرى بزيادة الحرارة حتى عام ٢١٠٠، فإنه يجب التخفيض الفورى للانبعاثات بنسبة ٦٠ إلى ٨٠٪، ولم يقترح أحد فى كيوتو أية نسبة قريبة من هذه، يضاف إلى ذلك أنه قد صار واضحا بالفعل أن العالم النامى سوف يتجاوز العالم المتطور باعتباره قائدا لانبعاث غاز الصوبة، إن الاحتباس الحرارى كان إغراء بشريا على طول المدى، ومن ثم فإنه سيستمر، فى حين أن كيوتو سوف تحقق فقط فرقا بأعشار قليلة من درجة حرارة العالم عام ٢١٠٠، إذن ما الذى يحدث؟

كان الكل فى الغالب يتخذ وضعا خاصا، باستثناء دول الجزر، ولا شك أن هنالك الكثير من الإخلاص عند الجانب الأوربى، إلا أن تلك كانت حالة يمكن لأوربا أن تفعل ما هو جيد، وأن تبدو جيدة على حساب أمريكا، كان إيزنستادت وآخرون مقتنعين أن الأوربيين والدول النامية وجدوا فرصة يضعون فيها الولايات المتحدة فى وضع مجحف فى مجال المناقشة الاقتصادية، أما بالنسبة للبلدان النامية، فحيث إنها الخاسر الأكبر فى أغلب سيناريوهات الاحتباس الحرارى؛ لذا فإن تكتيكها لتوجيه اللوم إلى المستغلين الكولونياليين القدامى، وتحديهم يمكن أن يكون مرضيا من الناحية العاطفية، غير أن ذلك كان فى النهاية تحطيما للذات، كانت بلدان الحدود الخارجية للمعسكر الأمريكى تحاول أن تكون محبوبة من الجميع - من مكوناتها المحلية من الأمريكيين والأوربيين، كان اليابانيون فى النهاية هم سماسرة الصفقة، ووقع الأمريكيون فى النهاية فى فخ معاهدهم وسياساتهم، وهم على غير مثال القادة الأوربيين، وديمقراطيات برلمانية أخرى، لم يستطيعوا مجرد التوقيع على

صفقة، وأن يكونوا على يقين من أنها إما أن تمر تشريعيا، أو أنها، وقد أجيزت، لا يمكن لأحد تحديها فى المحاكم، كان عليهم أن يظهروا للكونجرس أنهم كانوا يحمون مصالح الولايات المتحدة، بينما يُظهرون أيضا لمساندى البيئة أنهم أيضا كانوا يفعلون ما هو صواب.

غير أن الاقتصادات كانت ذات صفة مشتركة عامة، لا أحد حقا أراد لنظام الولايات المتحدة أن يتغير، رغم شكواهم حول نمط الحياة الأمريكية المتسم بالغرور، والنقد الذى ذكر سابقا بأن أمريكا وهى تمثل فقط ٤٪ من سكان العالم، تصل نسبتها فى الانبعاثات الكونية إلى ٢٥٪، وكما ذُكر سابقا، فإن الرد الملائم للهجوم الأخير، كان هو أن الولايات المتحدة تصل أيضا إلى أكثر من نسبة ٢٥٪ من إجمالى الناتج المحلى الكونى، وكانت هى الآلة المنفردة التى تدفع نمو الاقتصاد العالمى، هل يود أحد أن تبطئ تلك الآلة؟ كلا، يضاف إلى ذلك أنه حتى المؤمنين بالصدق الأكثر إخلاصا، كان يجرون حسابا عن التكلفة - والفائدة، إن كنت تتوقع حقا كارثة لأطفالك، عليك أن تقبل نسبة الـ ٦٠ - ٨٠٪ التى أوصى بها العلماء، ما لم يكن ذلك يعنى - دون شك - كارثة الآن، لكنها حدثت، وذاك هو الذى جعل الأوربيين يرون أن التخفيضات كانت بطيئة للغاية. ثم إنه بدون البلدان النامية فإنها لن تنجح؛ مما أدى إلى المزيد من خفض الثمن الذى كان يرغب أى أحد فى دفعه من أجل فائدة غير مؤكدة، ولذا فإنه لو كان لكيوتو وجهة نظر، على أية حال، فإنها كانت حقا عن كسب الوقت لتمكين العلاج العملى الوحيد - تأثير التكنولوجيا الجديدة، غير أن ذلك أثار نقاشا حول إقامة نظام يقوم على مظلة كبيرة يمكن لأى أحد أن يرتاح تحتها، بل وحتى يكون متحمسا، الكل وافق فى كيوتو من ناحية المبدأ، لكن النظام الفعلى ظل يعمل بنجاح.

وكما تم بناء الصفقة، فإنها ماتت عند وصولها إلى الولايات المتحدة، إن عددا من الدراسات حدد تكلفتها، بنسبة تتراوح من ١ إلى ٤٪ من إجمالى الناتج المحلى، تجنبا لكارثة احتباس حرارى، كان يؤمن عدد قليل باحتمال حدوثها[٥٨]، وكما أوضح أحد الاقتراعات، فإن أكثر من ٥٠٪ من الأمريكيين كانوا يعتقدون أن الاحتباس

الحرارى الكونى مشكلة كبيرة، لكن ١٧٪ فقط أبدوا رغبتهم فى دفع ٥٠ سنتا زيادة، عن كل جالون من الجازولين لتجنب ذلك، وعلى رأس التكلفة، فإن هذه الصفقة، ما كان لها أن تذهب إلى أى مكان فى مجلس شيوخ الولايات المتحدة، دون التزام من البلدان النامية.

ولكن، ما بين كيوتو والتصديق عليها، كان هنالك عدد من الدورات التفاوضية على فترات لوضع التفاصيل، حتى يكون لأى مفاوض له وزنه إبداء تحفظه أو تحفظها، وتشكل تلك "الدورات التفصيلية" على الدوام فرصة جيدة لإعادة فتح الصفقة، انعقد الاجتماع فى العاصمة الهولندية لاهاى من ١٣ إلى ٢٤ نوفمبر عام ٢٠٠٠، كان هذا، فى ظل طرح نتيجة انتخابات الولايات المتحدة أمام القضاء الآن، وربما تكون تلك هى فرصة العالم الأخيرة للتفاوض، مع إدارة للولايات المتحدة، كانت ملتزمة أساسا بقضية البيئة كان فريق الولايات المتحدة التفاوضى تحت قيادة فرانك لوى، نائب الوزير، وهو متمرس فى القضايا البيئية، والمفاوضات الدولية، كان لوى فى حاجة ماسة لمساعدة الأوربيين، كان فى حاجة لأن يُنظر بتقدير كريم إلى تخفيضات الغابات، وإلى الكثير من تجارة الانبعاثات، كما أورد قدر استطاعته، وأمل كذلك فى أن يضغط برقة على البلدان النامية التى تعانى من انبعاثاتها هى، فى شكل سحابات، هى مزيج من ضباب ودخان يغطى المناطق كلها لأيام، فى كل مرة.

وقد اعترف لوى فيما بعد بأن الولايات المتحدة لم تساعد قضيتها بعمل القليل للغاية لتخفيض الانبعاثات خلال عقد من المفاوضات، وهو يعتقد من ناحية أخرى - أن العديد من مفاوضى الاتحاد الأوربى، أرادوا فرض تغيير فى نمط حياة الولايات المتحدة، بل وحتى أرادوا معاقبتها - لقد كان المفاوضون الأوربيون جميعا من وزارات البيئة، وقد لاحظ لوى أنه عندما التقى مع مسئولين من وزارة الخارجية أو وزارات التجارة فى أوربا، كانو يديرون أعينهم، وهم يتحدثون عن أوضاع وزارات البيئة لديهم.

كان المفاوضون الأوربيون - من ناحية أخرى - يخافون حقيقة الانتهاء إلى صفقة تثير السخرية، يمكن أن تبطلها الثغرات، واعتقدوا أن أى زيف من البلدان المتطورة سوف يقتل آمالهم فى الحصول على التزام من البلدان النامية، وعلى أية حال، فإنه بعد أيام من المساومات القاسية توصل جون بريسكوت - نائب رئيس الوزراء البريطانى - إلى اتفاق لم يعط لوى ما أراد، لكنه أعطاه على الأقل ما كان يحتاج إليه فيما يتعلق بالتخفيضات والتجارة، وفى الساعة الرابعة قبل الظهر من "يوم عيد الشكر"، وُقعت ورقة عمل من ثلاث صفحات بالأحرف الأولى، ومرة أخرى طرقعت سدادات الشمبانيا، غير أنه كان على بريسكوت أن يؤكدها بالإجماع مع باقى مندوبى الاتحاد الأوربى، وسقط الأمر كله مفككا عندما حاول فعل ذلك، فى اليوم التالى، وبعد شهر، أصبح للولايات المتحدة رئيس جديد لم يكن اسمه آل جور.

إلى مراكش

كان فى وسع جورج دبليو بوش أن يسمح لكلب كيوتو النائم أن يواصل ببساطة غفلته اللذيذة، وإن وضعنا فى الحسبان مقاومة كل من كندا واليابان وروسيا وأستراليا، فقد كان تحقيق الخمسة والخمسين توقيعا، التى تغطى الـ ٥٥٪ من الانبعاثات من أجل التصديق على المعاهدة تجاوزا للمستحيل، ومن ثم لم يكن فى الإمكان قط تنفيذ المعاهدة، وما كان فى وسع بوش القيام بإعادة التفاوض، إنه بدلا من ذلك، حقق الرضا، بإعلانه إعلانا عاما أن الولايات المتحدة لن تصدق أبدا على الاتفاقية.

كان هنالك ثلاثة أسباب لذلك. الأول: أن بوش كان يتعاطف تعاطفا ضئيلا مع الجمهور البيئى، سواء كان فى الولايات المتحدة أو أوربا، وهو كرجل نفط، ورجل أعمال، يؤمن بالحفر والنمو، ويرتاب فى النظم والقواعد الحكومية، وقد طالبت خطته للطاقة بالحفر بحثا عن النفط فى "المنطقة الوطنية للقطب الشمالى بحياته البرية"،

معززا التمويل الفيدرالى، داعما البحث والتنمية فى تكنولوجية الفحم، ومخفضا النظم والقواعد على المصانع التى تدار بالفحم، وكما أخبرنى موظف فى إدارة الدولة "أن البوشيين يعتقدون أن البيئة هى المكان الذى ذهب إليه كل الشيوعيين بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، إنهم يكرهونهم. ثانيا: إن بوش لا يؤمن بالعلم فيما يتعلق بالاحتباس الحرارى الكونى، وهو يعتقد حقا أن إجراءات كيوتو سوف تغير اقتصاد الولايات المتحدة وكان مستشاروه الاقتصاديون من الذين يؤمنون بتنظيم الاقتصاد على أساس العرض وصناعة الألمونيوم. ثالثا: كان بوش قد قدم وعودا فى حملته إلى شركات الفحم والطاقة والنفط والصلب حتى يكسب ولايات ذات وضع دقيق مثل ويست فرجينيا. الآن، حان وقت السداد، إن مجىء إعلانه هذا بالضبط قبل رحلته الرسمية الأولى إلى أوربا، كان له ميزة مضافة بجعل المتذمرين الأوربيين يعرفون أن ريحا جديدة بدأت تهب من واشنطن، وكان رفض بوش مثل صدمة كهربائية، وأثار عاصفة نارية دبلوماسية وإعلامية، واستثار الأوربيين كى يمسكوا بالقيادة كما لم يفعلوا البتة من قبل، لقد صمموا على أن يظهروا للولايات المتحدة أنها لم تكن أساسية، أو لا غنى عنها، وأن يضغطوا قدما باستخدام التصديق على المعاهدة، لقد صلّب بوش فقط تصميمهم، عندما قرصهم خلال زيارته، بعدم الموافقة على أهدافهم، إذ إنه بدون توقيع الولايات المتحدة، يتوجب على الاتحاد الأوربى أن يكسب كل الآخرين من بلدان الحدود الخارجية لمعسكر الولايات المتحدة، إلى خشبة المسرح، اقترحوا مناقشة اعتمادات تخفيضات الغابات فى كل بلد على حدة، بدلا من توزيعها على أساس معايير محددة؛ مما أدى إلى اعتمادات غاية فى الكرم، خاصة بالنسبة لكل من كندا وروسيا، وأراد اليابانيون والأستراليون المزيد من تجارة الانبعاثات، وتلك أيضا تم توسيعها، وفى النهاية، ومن أجل كسب المزيد من كل الآخرين الذين تحت المظلة، وافق الاتحاد الأوربى على كل شىء طالب به فرانك لوى وستو إيزنستادت، بل وأكثر، وتم التصديق على بروتوكول كيوتو المعدل، ووضع فى حيز التنفيذ فى ١٠ نوفمبر عام ٢٠٠١ فى مراكش، وجلس باولا دوبريانسكى، وكيل الوزارة

يراقب، بينما باقى الوفود توقع، ورأى الكثيرون من العالم الآن الولايات المتحدة مخترع البيئية كعدو لها.

ما الذى يجب عمله

نشرت هيئة ما بين الحكومات المعنية بتغير المناخ، فى مارس عام ٢٠٠١ - تقييمها الثالث، الذى أكدت فيه وقوت إلى حد كبير نتائج التقييمين السابقين، إن التقرير يقرر باعتباره صادرا عن سلطة مختصة أن درجات الحرارة، خلال القرن العشرين قد ارتفعت بـ ٠,٦ درجة مئوية، وأن الارتفاع قد حدث فى الثمانى كيلو مترات الأكثر انخفاضاً فى الغلاف الجوى (مقدمين حلا للتعارض السابق بين بيانات درجة حرارة السطح وبيانات درجة حرارة الغلاف الجوى). وأن سطح البحر قد ارتفع بـ ٠,١ - ٠,٢ مترا، وأن درجات حرارة المحيط قد زادت أيضا، كان هنالك المزيد من الترسيب، والمزيد من أحداث الترسيب الثقيل، وزيادة فى غطاء السحب، وقد واصلت الانبعاثات الناجمة عن نشاطات بشرية تغييرها للغلاف الجوى بطرق من المتوقع أن تؤثر على المناخ، وهنالك دليل جديد وقوى على أن غالبية الاحتباس الحرارى، خلال الخمسين سنة الأخيرة - يمكن أن يعزى إلى النشاطات البشرية، كانت النغمة الواثقة لهذا التقرير تقوم على تحسينات فى نماذج كمبيوتر المناخ، وفى قدرتها على التنبؤ بالماضى والإمساك بعناصر، مثل النشاط الشمسى، الذى لم يكن متضمنا فيما مضى، فى الحسابات، وقد اعترف العلماء أنهم - على أية حال - يستطيعون التنبؤ بثقة بزيادة درجة حرارة السطح بـ ١,٤ - ٥,٠٨ درجة مئوية، خلال القرن القادم، إن هذا يعد أكبر مما مارسه العالم فى القرن العشرين، ويحتمل ألا يكون مسبوقا فى السنوات العشرة الآف الأخيرة، إن كل هذه التقديرات تفترض أن ممارسة الأعمال أمر معتاد صدوره عن البشر، بمعنى الزيادة المتواصلة لتركيزات الكربون فى الغلاف الجوى، إن الاستنتاجات، بناء على تلك القاعدة، هى الارتفاع المتواصل لمستويات البحار، والمزيد من أحداث الطقس الحادة، والمزيد من الجفاف الكثيف، والتراجع المتواصل للثلاجات وخطوط الجليد،

هنالك أيضا احتمال نقطة ذروة، أو نقاط ذروة، تجعل تلك التغيرات مفاجئة وعنيفة أكثر منها تدريجية.

لا أحد يعرف حقا، كم من هذا سوف يحدث؛ إذ إن كلا من النشاط البشرى والطبيعى سوف يتغير بدون شك، ربما حسن ذلك النشاط من وضع المشكلة، لكنه يستطيع أيضا زيادة خطورتها وحدتها، إن نظرنا إلى المعرفة اليوم، فإن تجاهل الأمر سيبدو كمقامرة كاملة، وحتى نكون من ناحية أخرى واثقين من منع المشكلة فإن ذلك يعنى التخفيض المباشر للانبعاثات بمقياس لا يستطيع أحد تأمل نتائجه الاقتصادية، بصورة عاقلة، هنالك فى مكان ما فى خلفية عقولهم، يعتقد أغلب المراقبين أن التكنولوجيا الجديدة، أو تغييرات أخرى فى السلوك البشرى، سوف تحدث لتلطف من المشكلة، وحيث إننا لا نستطيع حقا إنقاذ طريق خلاصنا، فإنه يتوجب علينا - على الطريقة الأمريكية وبأفضل حس - أن نخترع طريقنا هناك، إلا أن ذلك سوف يستغرق وقتا وسوف تسوء المشكلة فى تلك الأثناء، إن عملا ما يستهدف الإنقاص، وكسب الوقت يبدو حكيما مثل بوليصة تأمين، إن السؤال الوحيد حينئذ هو تكلفة البوليصة وفاعليتها، إن البوليصة عالية الثمن للغاية، وهى إن أدت إلى إنقاص قليل وكسب وقت قصير، لن تكون جذابة ما لم تكن خطوة نحو بوليصة أقل ثمنا أو أكثر إنقاصا، أو كليهما معا، إن كيوتو الأصلية كانت - دون شك - بوليصة غالية الثمن للولايات المتحدة، وواحدة استهدفت إنقاصا أقل، وهنالك سؤال آخر، إذا ما كانت تلك خطوة على الطريق، غير أن النقطة الأكثر أهمية هى أن كيوتو على طريقة مراكش مختلفة للغاية، وأقل ثمنا بكثير، إن الولايات المتحدة تستطيع تحملها بسهولة، وكان يجب أن توقع عليها فى مراكش، كان ذلك سيحقق حسا اقتصاديا، وتجنب إدارة عالمية هائلة ورديئة؛ حيث إننا فقدنا الفرصة فى مراكش، كان من الممكن أن تكون حركة ذكية منا إن نحن فى أعقاب ١١ سبتمبر، وقعنا المعاهدة كعلامة عن تضامن الولايات المتحدة مع الأصدقاء الذين كانوا يعبرون عن دعمهم لنا فى ذلك الوقت بطريقة درامية، لقد فقدنا تلك الفرصة أيضا، غير أن الوقت لم يفت بعد.

الفصل السادس

نحن نثق فى الأسلحة

"إن أمريكا تبشر دوما بحكم القانون، لكنها
فى النهاية تضع نفسها دومًا فوق القانون"

- سفير بريطاني

الولايات المتحدة هى بلد القانون المثالية، المحامون ينجحون هنا ليس مثل أى مكان آخر، نحن لدينا محامون أضعاف أضعاف أى بلد آخر، بالنسبة للألف من السكان: لقد قيل حقًا: إن هنالك مثلا محامين فى أية مدينة أمريكية متوسطة الحجم، أكثر من كل محامى اليابان، إن كل ما هو مرتبط بأعمال دولية، يعرف أن وضع الأوجه القانونية لأية صفقة تجارية في الاعتبار - مسألة أكبر شمولا فى الولايات المتحدة منها فى أى مكان آخر، كما أن هنالك للتسجيل عدة أوامر خاصة بالحجم والقدر أكثر عددا، إن أغلب المشرعين وموظفى القمة فى أمريكا فقط محامون. إن القانون فى أمريكا وحدها هو بصورة روتينية، الطريق إلى قمة الشركات الكبرى، إن الولايات المتحدة فى الحلبة الدبلوماسية أيضا هى بطلة حكم القانون، والتبشير به بصورة خاصة، باعتباره شيئا لا بد منه للتجارة الحرة والتنمية الاقتصادية (إننى أعرف ذلك لأننى كثيرا ما كنت المبشر)، وبالطبع فإن التوسع فى حقوق الإنسان وحمايتها دوليا يشكل جزءًا من أساس السياسة الخارجية الأمريكية، لقد كانت أمريكا منذ زمن وودرو ويلسون هى قائد تحبيذ التفاوض حول معاهدات دولية.

ومع ذلك، فقد ذكر تقرير صدر فى إبريل عام ٢٠٠٢ بعنوان "حكم القوة أم حكم القانون"، كان يستعرض ردود فعل الولايات المتحدة على ثمانى اتفاقيات دولية كبرى، إن المحرر نيكول ديللر قد لاحظ أن الولايات المتحدة ساومت أو عمدت إلى تفجير حاسم، بصورة ما، لكل معاهدة قمنا بدراستها تفصيليا، إن أمريكا بالطبع طرف فى آلاف الاتفاقيات الدولية، ومن الخطأ القول بأنها لم تحافظ البتة على هدفها من الصفقة غير أن أمريكا رفضت، فى السنوات الحديثة، أو أضعفت معاهدات تعتبر علامات، منها حظر استخدام الألغام، والاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية (إيه بى إم)، واتفاقية الحرب الكيميائية، واتفاقية الحرب البيولوجية، وإتفاقية منع الانتشار، والمحكمة الجنائية الدولية، وأخريات. ولما كان ذلك واحدا من العوامل الكبرى التى تسبب العزلة عن أمريكا فى عالم اليوم، فأنت فى حاجة لدراسة كل من مقاومتنا للحد الدولى من مجموعة من الأسلحة، وكذلك ماذا يعنى اعتمادنا على الوسائل العسكرية من أجل اقتصاد الولايات المتحدة.

زراعة الحقول بالألغام

تحفر فى الأرض وتقبع أحيانًا بالسنوات، تنتظر طفلا بريئا يلعب، أو أما تبحث عن الطفل، أو شبابا يلعبون كرة القدم، أو مزارعين يحرثون حقولاً جديدة، إنها دوما فى انتظار أحد غافل، غير متنبه، وما أن يصبح الذين لا يرتابون، فى النهاية فى النقطة الصحيحة تماما، حتى تنفجر دون إنذار، تنتزع أحشاء الضحايا أو تمزق أذرعهم وأرجلهم.

ورغم أنها وجدت أول ما وجدت خلال الحرب الأهلية الأمريكية؛ حيث استخدمت الألغام الأرضية استخداما محدودا حتى الحرب العالمية الأولى، عندما ازدهرت باعتبارها المضاد للدبابة التى اكتشفت حديثا، والتى كانت تثير قلق خندق الحرب الطويل، وقد نشر الأعداء فى الحرب العالمية الثانية أكثر من ٣٠٠ مليون لغم

مضاد للدبابات، غير أنها كشفت فى الحرب مبكرا، عن ضعف خطير؛ إذ كان يمكن للعدو إخراجها من الحفر وإعادة توزيعها، ولمواجهة ذلك سريعا، صُنعت أنواع من ألغام جديدة مضادة للأفراد، كانت توضع على نحو نموذجى حول الألغام المضادة للدبابات لمنع تحريكها، وربما كان النوع الأكثر فاعلية هو ألغام "الحسناء النشطة" الألمانية، التى كان يمكن أن تقفز بارتفاع أعلى الفخذ عند تفعيلها، متقيئة آلافا من شذرات الصلب القاتلة فى الجنود، فى حدود قوس حولها، كانت الألغام فعالة إلى حد أنها سرعان ما استخدمت فى الأغراض الهجومية، تماما مثلما تستخدم فى الأغراض الدفاعية.

وقد تقدمت تكنولوجيا الأسلحة سريعا بعد الحرب العالمية الثانية، وصنعت فى الستينيات ألغامًا أطلق عليها "الألغام الأرضية المتناثرة، التى يمكن إسقاطها من الطائرات، فتنشط آليا بمجرد اصطدامها بالأرض، وبدلا من زرع كل لغم باليد بطريقة مجهدة، أصبح فى وسع قوة جوية أن تنشر سريعا أعداداً كبيرة من الألغام، لقد أدخلت الألغام المتناثرة أولا بواسطة الولايات المتحدة خلال الحرب الفيتنامية، وغدت سلاحا كبيرا يَدفَع بأسافين بين القوات المقاومة وقواعدها، وحصرهم فى حقول غير ملائمة، وكانت تُستخدم أيضا بواسطة كل من الجانبين لإزاحة قرى، ولجعل الأرض الخصبة غير صالحة للاستعمال، وتحطيم الطرق والكبارى ومصادر المياه، وكانت لها فى بعض الأحيان نتائج شريرة، كانت قوات الولايات المتحدة غالبا ما تجد نفسها تتقهقر عبر حقول ألغامها هى، وهنالك تقدير بأن حوالى ثلث كل ضحايا الولايات المتحدة، خلال الحرب، كانوا بسبب ألغام صديقة[١].

انتشرت خلال الستينيات والسبعينيات حروب منخفضة الحدة، استخدمت فيها الألغام على نطاق واسع، ليس فقط بواسطة القوات الحكومية، ولكن أيضا بواسطة قوات شبه عسكرية، والشرطة، وفى حرب العصابات.

وغزا الاتحاد السوفيتى أفغانستان، عام ١٩٧٩، ومعه ألغام جديدة، بعد تحسين تلك المحسنة المتناثرة، تدعى "لغم الفراشة"، التى يمكن إسقاطها بكثرة كبيرة

فوق كل بلد، ورغم أن حقول ألغام الحرب العالمية الثانية كانت قد حددت بدقة شديدة، ووضعت على خرائط حتى يمكن تجنبها، وفى النهاية إزاحتها، فإن مجىء الألغام المتناثرة واستخدامها الواسع، دون تمييز، جعل عمل الخرائط المناسبة وتحديد مواقعها مستحيلا، لم يكن ذلك صحيحا فى أى مكان آخر، بقدر ما كان فى أفغانستان؛ إذ إنه رغم إزاحة السوفيت فى النهاية، عام ١٩٨٩، بواسطة المجاهدين، ظلت الألغام باقية.

وقد غدت هذه الحقيقة واضحة بصورة مؤلمة، للمقدم كولن ميتشيل "ميتش المجنون"، الضابط بالجيش البريطانى، فى الثمانينيات، عندما أُرسل إلى أفغانستان ليعاون الأفغان على إعادة العافية إلى إنتاجهم الزراعى، فقد وجد العديد للغاية من الألغام، حتى إنه كان من المستحيل القيام بأية زراعة جادة، حتى يمكن تطهيرها، وكان الشروع فى ذلك خطيرا للغاية؛ نظرا لعدم وجود خرائط أو علامات محددة لحقول الألغام، وواظب ميتشيل رغم كل شىء، وأطلق "هالة الأمل" مع بعثة تقوم ببرنامج إنسانى لإزالة الألغام.

كانت أفغانستان بعيدة من أن تكون البلد الوحيد الذى يعانى من مشكلة الألغام الأرضية، كانت هنالك كمبوديا وفيتنام وحوالى سبعين بلدا أغلبها بلدان نامية، ما تزال تستضيف ١١٠ مليون لغم تركت بعد نشاطات توقفت منذ زمن بعيد، إن تلك الألغام كانت تقتل أو تصيب حوالى ٢٦٠٠٠ شخص سنويا[٢]، وفى يناير عام ١٩٩١، بعد أشهر من الاعتناء بضحايا الألغام الأرضية على امتداد الحدود التايلاندية – الكمبودية، دعت قائدات "لجنة المرأة من أجل النساء اللاجئات والأطفال" إلى حظر الألغام المضادة للأفراد، فى شهادة أمام كونجرس الولايات المتحدة، وافتتح فى ذلك الصيف "قدماء محاربو المؤسسة الأمريكية المعنية بفيتنام"، أول عيادة للجراحة الترقيعية فى كمبوديا، وفى سبتمبر نشرت "الهيومان رايتس ووتش" و"أطباء من أجل حقوق الإنسان" ، "حرب الجبناء – الألغام الأرضية فى كمبوديا"، وأضافوا أصواتهم إلى هؤلاء الداعين للحظر، وقد التقى فى النهاية هؤلاء ومجموعات أخرى فى خريف

عام ١٩٩٢؛ ليكونوا "الحملة الدولية لحظر الألغام الأرضية" (أى سى بى إل)، واختاروا جودى ويليامز لرئاسة هذا الجهد، وهى امرأة تتسم بالتصميم والنشاط من قدماء محاربى المؤسسة الأمريكية المعنية بفيتنام.

وألقت ويليامز بنفسها فى حملة غير مسبوقة؛ لتجىء فى النهاية بـ ١٣٠٠ منظمة حكومية من أكثر من خمسة وثمانين بلدا تحت لواء الحملة الدولية لحظر الألغام الأرضية، وقد أكدت الحملة تأكيدات كبرى على بناء تحالف كبير قدر الإمكان، والتقوا مبكرا، وغالبا مع قادة دينيين، وعمال، ورجال أعمال، وأكاديميين، وعسكريين وسياسيين، وكان من المنضمين للقضية مبكرا، والأكثر أهمية، السيناتور باتريك ليهى، ديمقراطى من فيرمونت - وقد أدخل ليهى جنبا إلى جنب مع رجل الكونجرس لات إيفانز، من الينوى - تشريعا وافق الكونجرس عليه عام ١٩٩٢، لوقف نشاطات الصادرات الأمريكية من الألغام المضادة للأفراد مدة عام[٣]، وقد أثبت هذا التشريع أنه عامل محفز قوى؛ إذ بدأ السياسيون فى كل مكان التفكير فى أنه لو استطاعت الولايات المتحدة أخذ مثل هذه الخطوة، فإنه فى الإمكان حقا تحقيق تقدم هام. وقد أعلن الرئيس الفرنسى فرانسوا ميتران، خلال رحلة له إلى كمبوديا - أن فرنسا سوف تحظر تصدير الألغام، وسرعان ما تبع هذا إعلانات مماثلة من أكثر من دستة من البلدان، ثم دعا البرلمان السويدى، فى يونيو عام ١٩٩٤، إلى حظر كلى للألغام الأرضية، وفى أغسطس، كان الدور على مجلس الشيوخ الإيطالى الذى أمر حكومته بأن تعمل على حظر كل صادرات الألغام، ثم جاءت المدفعية الأكبر من الجميع، عندما دعا الرئيس كلينتون فى الافتتاح السنوى للجمعية العامة فى سبتمبر إلى "الإزالة النهائية" للألغام الأرضية[٤]. وتلا كل ذلك ببيان حول سياسة جديدة فى مايو عام ١٩٩٦، بأن الولايات المتحدة سوف تنهى استخدام الألغام "البكماء" عام ١٩٩٩، باستثناء كوريا، التى سوف تواصل استخدام "الألغام الذكية" (الألغام ذات التدمير الذاتى بعد زمن محدد سلفا) إلى ما لا نهاية حتى يتم التوصل إلى اتفاقية دولية، والتفاوض بغية الوصول إلى اتفاقية دولية لحظر الألغام المضادة للأشخاص[٥].

وأعد ذلك المسرح لمؤتمر أوتاوا الدرامى فى أكتوبر عام ١٩٩٦، ودعت كندا كل تلك الحكومات من أجل حظر كلى للألغام، دعتهم للالتقاء، ومناقشة استراتيجية خاصة بذلك، وقد شاركت فى الاجتماع خمسون حكومة، بالإضافة إلى مراقبين من أربعة وعشرين دولة، ومشاركون آخرون من مجتمع المنظمات غير الحكومية والأمم المتحدة، وأعلن للويد أكسورثى، وزير الخارجية، فى نهاية المؤتمر، نية الحكومة الكندية دعوة ذات البلدان، بالإضافة لأى آخرين قد يرغبون فى الانضمام بعد عام واحد فى ديسمبر ١٩٩٧، بغرض توقيع معاهدة تحظر تماما، وفورا، الألغام الأرضية المضادة للأفراد من كل نوع، وقد أسست هذه، بصورة فاعلة، بديلا، هو عملية تعقب سريع لمباحثات الأمم المتحدة المثيرة للملل حول ذات الموضوع.

لكن بينما كانت عملية أوتاوا تحشد القوة الدافعة، بدأ يُسمع صدى بيانات الولايات المتحدة، مثل صدى صبى متردد، قال كارل ف.اندرفورث، نائب سفير الولايات المتحدة، فى الأمم المتحدة: "إننا لسنا مستعدين لتحديد موعد، لكننا مستعدون لبدء العمل فورا، إن كانت عملية أوتاوا يمكن إجراؤها فى غضون هذا الوقت، وإن كان من الممكن تحقيق ما يشغلنا، فإننا سنكون داعمين دعما تامًا(٦) هذا موقف إيجابى، ولكن هنالك كمية من "إن" تلك كانت الولايات المتحدة تدمر الألغام فعليا، فقد حطمت من مخزونها الاحتياطى ثلاثة ملايين لغم، وقدمت المزيد من الدعم المالى، أكثر من أى بلد آخر، من أجل إزالة الألغام على امتداد العالم(٧)، وقد وسعت الولايات المتحدة أيضا من وقف نشاط التصدير، وكفلت قرارا للأمم المتحدة يدعو كل الأمم إلى "متابعة نشطة" لحظر الألغام، وعندما بدأت عملية أوتاوا تتحرك إلى الأمام، بدأ مسئولون من الولايات المتحدة التعبير عن تفضيلهم عملية الأمم المتحدة الأكثر بطأ.

وكان مرجع ذلك إلى أن إدارة دفاع الولايات المتحدة، طلبت ثلاثة استثناءات فى محاولة تسوية اتفاقية تتفق مع احتياجات الدفاع الأساسية، بوجوب السماح بالألغام الأرضية

فى "المنطقة منزوعة السلاح" (دى إم زد) بين شمال كوريا وجنوبها، ووجوب السماح للولايات المتحدة أن تواصل استخدام الألغام فى الأنظمة المختلطة المضادة للدبابات، كما يجب أن تحتفظ الولايات المتحدة بالحق فى استخدام الألغام "الذكية"، قيل: إنه يجب استثناء كوريا؛ لأنها كانت المعركة الأرضية الأخيرة للحرب الباردة، كانت الألغام هى كل شىء وقف حائلا بين الـ ٣٧٠٠٠ من قوات الولايات المتحدة، التى تحرس سيول، والمليون جندى الكورى الشمالى على الجانب الآخر من المنطقة منزوعة السلاح(٨)، لم تكن الألغام الذكية، على أى حال، مشكلة، طالما أنها تدمر ذاتها؛ لذا يجب ألا يتم حظرها.

وقد أثار هذا الوضع وابلا من النقد، من ليهى، ومن قادة آخرين من الكونجرس، وكذا من الكثير من صحافة العالم، وقد انتقدت الأميرة ديانا، من بريطانيا العظمى، انتقدت ضمنيا وضع الولايات المتحدة أثناء زيارتها ضحايا الألغام الأرضية، أثناء جولة لها فى أنجولا، ورد كلينتون على ذلك، مغيرا التوجه الجارى، معلنا الموافقة على الانضمام إلى محادثات أوتاوا، التى كانت ستجرى فى أوسلو خلال أسبوعين تقريبا، حول إعداد المعاهدة فى صورتها النهائية، والتوقيع فى أوتاوا فى ديسمبر، غير أن الولايات المتحدة، رغم موافقتها على المشاركة فى عملية أوتاوا فإنها واصلت المطالبة بالاستثناءات، على الأقل بصورة مؤقتة، وازداد الضغط بغرض الحفاظ على ذلك الوضع فقط، بخطاب تسلمه كلينتون من عشرة جنرالات معتزلين من الولايات المتحدة، من ذوى النجوم الأربعة، والذين وصفوا الاتفاقية بأنها "معيبة بوضوح، ولا يمكن تأكيد صحتها، كما لا يمكن وضعها موضع التنفيذ، إنها غير فعالة"(٩)، وأعلن كلينتون، بعد أسبوع آخر شديد العذاب، فى ١٧ سبتمبر ١٩٩٧، أن الولايات المتحدة لن توقع معاهدة حظر الألغام، كما كانت فى حينها، ومن ثم؛ عندما احتشدت ١٢٢ أمة، بما فيها أقرب حلفاء أمريكا جميعا، فى أوتاوا، فى أوائل ديسمبر، لتوقيع اتفاقية حظر الألغام، راقبت الولايات المتحدة الأمر عن بعد.

وقال الرئيس كلينتون: "إن لأمتنا مسئولية متفردة ... وباعتبارى القائد الأعلى للقوات المسلحة، فإننى لن أرسل جنودنا لحماية حرية شعبنا، وحرية الآخرين، دون فعل كل ما نستطيع فعله حتى نجعلهم فى أمان قدر المستطاع"[١٠]، غير أن تلك لم تكن الكلمة الأخيرة. فبعد توقيع الاتفاقية بفترة قصيرة مُنح جودى ويليامز جائزة نوبل للسلام، بهدف إنهاء استخدام كل الألغام الأرضية خارج كوريا عام ٢٠٠٢، وتوقيع اتفاقية حظر الألغام عام ٢٠٠٦، وفى مايو عام ٢٠٠١، كتب ثمانية قادة عسكريين معتزلين من الولايات المتحدة، بما فيهم قادة عديدون سابقون فى كوريا، والمدير السابق لويست بوينت، إلى الرئيس الجديد بوش يحثونه على التوقيع على اتفاقية حظر الألغام، وقد أكدوا، من بين أشياء أخرى، على أمرين: أن الألغام، بعيدا عن كونها حاسمة فى الدفاع عن كوريا، كانت – على الأرجح – تبطئ وتعوق تحركات قوات الولايات المتحدة وكوريا الجنوبية. والألغام الأرضية – على أية حال – فى المنطقة منزوعة السلاح، الخاضعة للسلطة القضائية لحكومة كوريا الجنوبية، ولذا فإنها لا تتأثر بموافقة الولايات المتحدة على المعاهدة، وبصورة أكثر عمومية، قال خطابهم: إن الألغام المضادة للأفراد إنما هى أسلحة عتيقة تسبب ضررا لقوات الولايات المتحدة، أكثر من إفادتها، ولقد لحقت بتلك البيانات مشاعر عاطفية من أناس مثل كابتن الجيش السابق إدميلز، الذى فقد رجليه فى لغم أرضى فى فيتنام وقد قال: "إن السلاح قد عاش أكثر مما نفع، أيًا كان نفعه بأية حال من الأحوال"[١١]، وأعلن الرئيس بوش، فى أغسطس، إعادة البيت الأبيض النظر فى سياسة الألغام الأرضية، وقد أكد العديد من المسئولين أعباء الأمن الأمريكى الخاصة، وأولوية حماية قواتنا وحلفائنا (الذين كانوا قد وقعوا جميعا على الاتفاقية بالفعل، ودمروا ألغامهم)[١٢]، وأصدر قدماء محاربى المؤسسة الأمريكية المعنية بفيتنام، فى نهاية فبراير عام ٢٠٠١ سلسلة إعلانات فى صفحة كاملة، وفترات تلفازية تستحث الرئيس للتوقيع على المعاهدة[١٣]، وبينما أكتب يظل الأمر قيد المراجعة.

إننا نثق فى مدافعنا، وصواريخنا،

وقنابلنا، وغازاتنا، وميكروباتنا

الأسلحة الصغيرة فئة أخرى من الأسلحة، تتردد الولايات المتحدة فى كبح استخدامها، إن البلدان المتطورة تعطى اهتماما كبيرا للأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية، بينما الأسلحة الصغيرة هى أسلحة الرجل الفقير من أجل التدمير الشامل؛ وتقدر الأمم المتحدة تداول ٥٠٠ مليون من مثل تلك الأسلحة على امتداد العالم، وقد كانت تلك الأسلحة هى الأسلحة المفضلة فى ست وأربعين حربا من تسعة وأربعين نزاعا مسلحًا هامًا خلال الاثنتى عشرة سنة الماضية(١٤)؛ إذ يمكن الحصول عليها بسهولة، سواء بالقانون أم بغير قانون، إنها سهلة الإخفاء، بسيطة الاستخدام، يصعب التحكم فيها إلى حد أن سعر AK - ٤٦، فى السوق السوداء، أصبح مؤشرا رئيسيا للمنازعات، إن السعر الطبيعى يتراوح من ٢٣٠ إلى ٤٠٠ دولار، فإن قل عن مائة دولار، فتلك إشارة إلى انتشار السلام، بعد فترة عنف كثيف، وإن كان عكس ذلك؛ أى تجاوزت الأسعار ١٠٠٠ دولار، فذلك يشكل تحذيرا قويا بقدوم المتاعب(١٥).

إن التكرار يخدرنا، ولذا فإننا نراقب النتائج كل ليلة على شاشة التلفاز دون أن نراها، لقد قتل أربعة ملايين فى حقول سيراليون القاتلة، وفى أدغال شرق تيمور، وفى صحارى الصومال، وفى كل مكان آخر، بواسطة تلك الأسلحة الصغيرة؛ خلال العقد الماضى، كان ٩٠٪ منهم مدنيين، و٨٠٪ من النساء والأطفال(١٦).

وقد شكلت الجمعية العامة للأمم المتحدة، فى محاولة لضبط عملية التشويه الدائم تلك - هيئة خاصة عام ١٩٩٥، للنظر فى مشكلة الأسلحة الصغيرة، وأدى عمل الهيئة، فى النهاية، بعد عشر سنوات - إلى الدعوة إلى "مؤتمر للأمم المتحدة حول التجارة غير المشروعة فى الأسلحة الصغيرة، والأسلحة الخفيفة، فى كل أشكالها"، يعقد فى نيويورك، فى نهاية يوليو عام ٢٠٠١. كان مجرد عقد المؤتمر فى ذاته إنجازا كبيرا

فى مواجهة مقاومة عدة بلدان من كبار مصدرى الأسلحة، بما فى ذلك الولايات المتحدة، وكشف التركيز على "التجارة غير المشروعة" فى نفس الوقت، عن التسويات التى كانت ضرورية ليتحقق عقد الاجتماع، كانت غالبية المشاركين تؤمن أن المشكلة أبعد بكثير جدا من مجرد تجارة غير مشروعة، لكن الكل كان يعرف أن أى جهد لتناول أى أمر آخر سوف يتبدد أمام المعارضة العنيدة للولايات المتحدة، بل حتى تناول التجارة غير المشروعة سوف يتحول إلى قضية صعبة للغاية، كان هدف المؤتمر قد تقرر بصورة عريضة على أساس أنه سوف يتناول كل العوامل وثيقة الصلة بالموضوع التى تؤدى إلى التراكم المفرط للأسلحة الصغيرة والأسلحة الخفيفة – فى سياق تجارة الأسلحة غير المشروعة، الذى يسبب عدم الاستقرار[١٧]، كان الهدف الأساسى والمباشر هو صياغة اتفاقيات سياسية – لا تكون قيدا قانونيا – يمكنها أن تقصر إنتاج هذه الأسلحة والتجارة فيها، فقط على الصناع والسماسرة المسجلين، وأن ذلك سوف يوفر تحديدا للأسلحة، ومتابعة لخطوط إمدادها، والتحقق منها، وجمع وتحطيم الأسلحة فى "نقاط ساخنة"، ونزع السلاح، وتسريح الجيوش، وإعادة توحيد المتنازعين السابقين. كان هاما بصورة خاصة للعديد من البلدان مثل جنوب إفريقيا والنرويج – وجود إجراءات ممكنة للحد من امتلاك المدنيين لمثل تلك الأسلحة، ومنع بيعها لكيانات غير حكومية.

ولم يُضيع جون بولتون وكيل وزارة الولايات المتحدة "لضبط الأسلحة والأمن الدولى"؛ أى وقت لمنح مندوبى المؤتمر جرعة من الحقيقة، قال وهو يتحدث مبكرا فى المؤتمر: إن أهداف المؤتمر وغاياته جديرة بالثناء، لكنه استمر مؤكدا أنه كان يتحدث فقط عن الأسلحة العسكرية وليس عن بنادق الصيد أو مسدساته، كما أنه يتحدث فقط عن التجارة غير المشروعة، "إننا ... لا نبدأ بافتراض أن الأسلحة الصغيرة والخفيفة كلها متماثلة أو أنها كلها صعبة الحل"، وردا على قلق مواطنى جنوب إفريقيا والنرويج وآخرين، من وجود بندقية فى كل خزانة – أكد بولتون أنه "تماما مثل التعديل الأول والرابع (من دستور الولايات المتحدة) واللذان كفلا حقوق الأفراد فى التعبير والأمن

على التوالى، فإن التعديل الثانى يحمى حق الفرد فى الاحتفاظ بالأسلحة وحملها"؛ لذا فهنالك الكثير لحصر مبيعات الأسلحة على الكيانات الحكومية المعترف بها، وأضاف بولتون حتى لا يسىء أحد فهمه: "إننا لن ندعم إجراءات يمكن أن تقيد التجارة القانونية، والصناعة القانونية للأسلحة الصغيرة والخفيفة"، إننا لا ندعم تشجيع النشاط الدفاعى العالمى للمنظمات غير الحكومية، إننا لن ندعم إجراءات تحظر امتلاك المدنيين للأسلحة الصغيرة، إننا لن ندعم إجراءات تقصر التجارة فى الأسلحة الصغيرة على الحكومات فقط، والولايات المتحدة لن تدعم أيضا مؤتمرا إجباريا للمراجعة"[١٨]. وفى رأيه، إنه خلافا لكل ذلك يمكن وجود بعض الفائدة فى الاقتراحات.

وانتهى المؤتمر بإعلان النصر، ونشر "مجموعة من القواعد" المخففة، حتى تكون مرشدا لما تقوم به الحكومات لمعالجة هذه المشكلة[١٩]، ولم تشتمل تلك القواعد على أى قيد على امتلاك المدنيين للبنادق، وأحس الأمريكيون بالسعادة، وقال جين دو بريز مندوب جنوب إفريقيا: "يجب على الولايات المتحدة أن تخجل من نفسها"، وأطلق لويس الفونسو دى آلبا مندوب المكسيك، على وضع الولايات المتحدة: "إنه يدعو للأسف". ونَفَّس كاميليو رييز من كولومبيا ورئيس المؤتمر عن إحباطه بقوله: "يجب أن أعبر عن خيبة أملى لعجز المؤتمر لسبب يتعلق بدولة واحدة"[٢٠]، إن كثيرين من اليساريين يؤمنون أن حق الأمريكى المقدس، فى امتلاك AK – ٤٧ سوف يقود على الأرجح إلى ملايين عديدة من القتلى فى العقد التالى، غير أن الأمريكيين يرون أنهم سوف يكونون على ما يرام.

كانت الألغام الأرضية والأسلحة الصغيرة اتفاقيات للحد، اختارت الولايات المتحدة أن تتجنبها، لكن الرئيس بوش، أبدى فى ١٣ ديسمبر ٢٠٠١ ملاحظة لروسيا مفادها أن الولايات المتحدة يمكن أن تلغى فعليا اتفاقية – الاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية، النافذة حينذاك بين البلدين – مدة ستة أشهر منذ الآن، يونيو ٢٠٠٢[٢١]، وكان هو الاقتراح الذى قدمته الولايات المتحدة لأول مرة، حول الاتفاقية، فى يونيو ١٩٦٧، للحد بطريقة مشتركة من انتشار الدفاعات المضادة للصواريخ، التى انتهت

في مايو ١٩٧٢، وكان المعتقد أنها توفر الأمن بتأكيد شعور كل من البلدين بأنها ليست عرضة إلى حد كبير، لإغراء هجوم صاروخي، في محاولة لتوجيه الضربة الأولى، باقتناع أنها يمكن أن تنجو من ثأر تدميري، وبدت المعاهدة باعتبارها توفر إجراءات وقائية من المأزق النووي تحديدا، ولذا صممت - وقد نوقشت أولا في الأيام الأولى لإدراة بوش - لتحقق إمكان إلغائها، الذي تسبب في عاصفة نارية عالمية، ارتباطا بخطط الإدارة، لتدفع قدمًا بالدفاع الصاروخي الوطني، الذي يتضارب مع شروط الاتفاقية، وقد تحدث إيجوز سيرجيف، وزير الدفاع الروسي، على نحو واقعي أمام كل قادة أوربا والصين واليابان وكوريا الجنوبية قائلا: "إن هذا سوف يدمر النظام الكلي للمعاهدات الدولية التي تستهدف ضمان الاستقرار الاستراتيجي"(٢٢).

إلا أن ثلاثة تطورات خففت من رد الفعل هذا، فقد أدرك الروس أولا أنهم لأسباب مالية سوف يواجهون صعوبات كبرى لصيانة مخزونهم الكلي من رؤوس الصواريخ النووية؛ لذا كانوا مستعدين للتخفيض المتبادل لرؤوس الصواريخ، كما أنهم عرفوا أن أي نظام للدفاع الصاروخي الوطني، الذي يحتمل أن تقيمه الولايات المتحدة لن يشكل تهديدا لهم؛ لأنهم سوف يحتفظون دوما، بما هو أكثر مما يكفي من رؤوس الصواريخ لقهرها، كما أنهم أرادوا علاقات أوثق مع الغرب لتساعد في تنميتهم الاقتصادية، ولذا وصلوا إلى اتفاقية مع الولايات المتحدة، بخفض كل من الجانبين، في ظلها، ثلثي ترسانته النووية إلى ١٧٠٠ - ٢٢٠٠ رأس صاروخي(٢٣)، وأخذت الولايات المتحدة على عاتقها تحقيق تعاون أوثق للروس مع الناتو، وتيسير تنمية تلك الأمة اقتصاديا؛ فوافق الروس، في المقابل، على ابتلاع إلغاء الولايات المتحدة للاتفاقية المضادة للصواريخ.

وكان الحدث الثاني هو الهجمات الإرهابية في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ التي قدمت المبرر للولايات المتحدة لما تقوله حول نشر الدفاع الصاروخي الوطني؛ تحديدا لأنه ضروري للدفاع ضد هجمة "الأمم المارقة"، وأخيرا يمكن للصينيين بسبب ترسانتهم

النووية الصغيرة نسبيا، وتصنيف الإدارة الأمريكية لهم باعتبارهم "منافسًا استراتيجيا" - أن يروا فى أنفسهم، وذلك أمر يمكن تبريره، الهدف الحقيقى، للدفاع الصاروخى الوطنى، لكنهم قرروا مسايرة الانتشار، على الأقل. فى الوقت الحالى؛ لأن العلاقات مع الولايات المتحدة، فى أعقاب ١١ سبتمبر، أصبحت تعاونية إلى حد كبير للغاية، وأقل عدوانية بكثير، وقد فضل الصينيون أن يبقوا الوضع على هذا النحو، ومن ثم، فإنه عندما أصبح الإلغاء أخيرا رسميا، فى ١٣ يونيو ٢٠٠٢، جرى كبح النقد، وكرر الروس والأوربيون أن الإلغاء تصرف طائش، لكنهم قالوا: إن فى وسعهم الحياة معه، الصينيون فقط قالوا بهدوء: إنه فعل طائش.

كان رد فعل بولتون، وكيل الوزارة، مختلفا تماما عندما تحدث فى مؤتمر صحفى فى جنيف فى ٢٤ يناير عام ٢٠٠٢، قال: إن الولايات المتحدة تعارض معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية، إن الجهد الذى بذل لحظر التجارب النووية قديم، بالطبع، قدم التجارب النووية ذاتها، والتاريخ الحديث للجهد ولمعاهدة حظر التجارب النووية بدأ بإعلان الرئيس السوفيتى جورباتشوف فى ٥ أكتوبر عام ١٩٩١، إن الاتحاد السوفيتى سوف يتقيد بوقف التجارب النووية لعام واحد، وإنه يدعو الولايات المتحدة إلى أن تكف عن التجارب النووية بالمثل، وبدأت الأمم المتحدة، بعد فترة قصيرة، الإعداد لمفاوضات نهائية لمعاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية، وأعلنت فرنسا فى العام التالى وقف التجارب من جانب واحد، وأقر كونجرس الولايات المتحدة "تعديل هاتفيلد إكسون" مطالبا بوقف التجارب مدة تسعة أشهر، ومفاوضات لحظر التجارب، وحظر كل تجارب الولايات المتحدة بعد سبتمبر عام ١٩٩٦، ما لم تقم أمة ما بتجربة، ووقع الرئيس جورج دبليو بوش على التشريع على مضض، وأخذت إدارة كلينتون الجديدة، عام ١٩٩٣ على عاتقها عهدا أن تتقيد بالتوقيف، وأن تسعى إلى استكمال معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية حتى نهاية عام ١٩٩٦، وتبع الكونجرس هذا بقرار داعم، تمت الموافقة عليه بأغلبية ساحقة، وقد هدد الإعلان الفرنسى، فى منتصف عام ١٩٩٥، بسبب التجارب الجديدة، والتحفظات الهندية حول معاهدة حظر التجارب النووية، هدد

بوقف التوقيف، غير أن الصين أسقطت حينئذ إصرارها على ما سمى بـ "التفجيرات السلمية"، وفى نهاية سبتمبر عام ١٩٩٦، كانت معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية قد اكتملت، وعُرضت للتوقيع فى الأمم المتحدة بنيويورك، وكانت الولايات المتحدة من أوائل الموقعين، جنبا إلى جنب مع سبعين بلدا آخر، بما فيهم روسيا والصين، وسرعان ما عرضت المعاهدة على مجلس شيوخ الولايات المتحدة للتصديق السهل عليها كما وعد.

غير أن الداعمين لم يضعوا فى حسبانهم جيسى هيلمز، رئيس لجنة مجلس الشيوخ للعلاقات الخارجية، الأمريكى المتطرف المعترض، وهو جمهورى من نورث كارولينا، احتجز هيلمز الاتفاقية فى اللجنة مدة سنتين، ولم تعرض على بساط البحث للدراسة حتى خريف عام ١٩٩٩ وكان أكثر من ١٥٠ بلدا قد وقعها فى تلك الأثناء[٢٤]، وقد صادق عليها الجنرال هنرى شيلتون رئيس رؤساء الأركان المشتركة، وأربعة رؤساء سابقين، منهم الجنرال كولين باول، وكذلك فعل عدد كبير من القادة العسكريين المعتزلين والدبلوماسيين والعلماء، وطالب بول نيتز، مفاوض ضبط الأسلحة فى إدارة ريجان، بنزع أحادى للسلاح النووى الأمريكى، على أساس أن تفوقنا فى الأسلحة التقليدية جعل من الأسلحة النووية خطرا فعليا على قواتنا[٢٥]، وقد دعم العامة المعاهدة بنسبة بالغة هى ٨٢٪[٢٦].

ورغم ذلك، كان ولا يزال هنالك جدل ضد المعاهدة، قال ترنت لوت، قائد أغلبية مجلس الشيوخ، إن التحقق منها غير ممكن، ومن ثم فهى مفتوحة للغش، كما ذكر أيضا أن هنالك بدائل زائفة للتجارب لا يمكن إثباتها، ومن ثم، هنالك مخاطرة فى الحفاظ على فاعلية أسلحة الولايات المتحدة، وإمكان التعويل عليها، وكان هنالك جدل أخير أن الاتفاقية ليست غير خطوة على "المنحدر الزلق" نحو نزع السلاح النووى، وقد طالب هنرى كيسينجر وبرينت سكوكروفت المستشارين السابقين للأمن القومى، بتأخير التصويت، على أساس أن المعاهدة لم تكن مؤكدة بما يكفى، وفشلت فى ضم بلدان مثل العراق وإيران[٢٧]، غير أن سياسيين مشايعين كانوا يعملون أيضا، كان القادة

الجمهوريون فى مجلس الشيوخ مقاومين لعرضها للمناقشة والدراسة، ورغم رسالة من اثنين وستين سيناتورا يطالبون بالمزيد من الوقت للنقاش، فإن يوما واحدا فقط خصص للمناقشة[٢٨]، وعندما وصلت المعاهدة للتصويت أخيرا فى ١٣ أكتوبر عام ١٩٩٩، هزمت بموقف حزبى بعدد ١٥ - ٤٨، وعبرت غالبية البلدان عن خيبة أملها، وقد أمل البعض أن تحاول إدارة بوش الجديدة، مرة أخرى، وأن يكون حظها أفضل مع مجلس الشيوخ الجمهورى، ولكن لم تكن هنالك كما أوضح بولتون فى جنيف فرصة البتة.

وكان تركيز الإدارة على نشر الدفاع الصاروخى الوطنى، (الذى كان يشكك العديد من العلماء فى قابليته للحياة والتطبيق) نابعا من كل من استراتيجيتها للضربة الاستباقية وهيمنتها المسيطرة، ورغبتها فى تجنب التعرض للهجوم الذى يلازم مفهوم "التدمير المؤكد المتبادل" (م أ د)، إن الدفاع الصاروخى الوطنى محاولة لانطلاق الولايات المتحدة لتتدخل عسكريا فى أى مكان فى العالم على وجه التقريب، يضاعف هذا الرغبة فى إعداد قوات أكثر مرونة، وخاصة إعادة صياغة الأسلحة النووية لاستخدامها ضد الغرف المحصنة الصلدة تحت الأرض، وفى الانتقام للهجمات البيولوجية والكيميائية.

إن ذكر الأسلحة الكيميائية والبيولوجية يجىء بنا إلى الاتفاقية النهائية التى رفضتها الولايات المتحدة، إن محاولات التحكم فى تلك الأسلحة يعود تاريخها إلى "بروتوكول جنيف" عام ١٩٢٥، الذى تم تبنيه كرد فعل لاستخدام الغازات السامة فى الحرب العالمية الأولى على نطاق كبير، وفى عام ١٩٦٢ قدمت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى اقتراحات إلى الأمم المتحدة للتخلص من كل الأسلحة الكيميائية والبيولوجية، وقد جرت المحادثات الدولية ببطء حتى خريف عام ١٩٦٩، وأعلن الرئيس نيكسون أن سياسة الولايات المتحدة تقوم على التخلى عن الحرب البيولوجية من طرف واحد، وسياسة أن لا ضربة أولى باستخدام الأسلحة الكيميائية[٢٩]، وقررت الولايات المتحدة، فى منتصف الثمانينيات - أن امتلاك الأسلحة الكيميائية ليس من اهتماماتها

الوطنية، وفى نوفمبر عام ١٩٨٥ أمر الكونجرس رسميا بتدمير المخزون الاحتياطى من الأسلحة الكيميائية التكاملية[٣٠]، وفى أعقاب حرب الخليج، فى مايو عام ١٩٩١، أعلن الرئيس بوش أن الولايات المتحدة سوف ترفض بشدة استخدام الأسلحة الكيميائية لأى سبب، بما فى ذلك الثأر والانتقام، ما أن تنتهى مباحثات الأمم الجارية إلى اتفاق حول الأسلحة الكيميائية[٣١] (سى دبليو سى)، وقد انتهت تلك المفاوضات بالفعل فى يناير عام ١٩٩٣ باتفاقية صريحة وصارمة، دعت إلى تحطيم المخزون الاحتياطى من الأسلحة الكيميائية، وحظر أى مزيد من تلك الصناعة، وتكوين هيئة للتفتيش الرسمى والتحقق[٣٢]، ووقعت الولايات المتحدة فى الحال، غير أن الشكوك من أن تقوم دول أخرى بالغش، وقلق الكونجرس من التخلى عن الحق فى اختيار الأسلحة أخر تصديق الولايات المتحدة حتى إبريل عام ١٩٩٧، وقد لعبت الصناعة الكيميائية فى الولايات المتحدة دوراً أساسيا فى الضغط لتصديق الولايات المتحدة، لخوفها من فقدان الأعمال إذا ما نفذت الاتفاقية دون عضوية الولايات المتحدة.

ما أن صدقت الولايات المتحدة على الاتفاقية حتى تحركت لتدميرها من الداخل بالموافقة على تشريع يسمح للمسئولين من الولايات المتحدة برفض التفتيش على المواقع، وحظر نقل عينات كيميائية من أراضى الولايات المتحدة للتحليل المستقل، والحد بشدة من عدد المرافق المعرضة للإعلان والتفتيش الروتينى فى الولايات المتحدة، كما رفضت الولايات المتحدة دفع نصيبها من تكاليف الاتفاقية، وأهملت توفير التمويل الملائم لمساعدة روسيا على تدمير مخزونها الاحتياطى الكبير.

وقد عامل نيكسون الأسلحة البيولوجية، فى بيانه عام ١٩٦٩، بطريقة منفصلة عن الأسلحة الكيميائية، وقادت مناقشات الأمم المتحدة عام ١٩٧٢ إلى الانتهاء من "اتفاقية الأسلحة البيولوجية والسامة" (بى دبليو سى)، التى ألزمت كل طرف، "ألا يطور أو ينتج أو يخزن احتياطيا البتة فى أى ظرف من الظروف، أو يحصل على، أو يحتفظ"، بطريقة أخرى بمنتجات بيولوجية أو سامة لأغراض عسكرية، وقد وضعت هذه المعاهدة موضع التطبيق عند تصديق الولايات المتحدة عليها عام ١٩٧٥، وظلت الاتفاقية

الحاكمة منذ ذلك الحين، لكن لم يكن بها، للأسف، شروط تضعها موضع التنفيذ أو التحقق منها، وقد أعلن الرئيس الروسى، بوريس يالتسين، عن برامج سوفيتية غير شرعية لمرض مهلك هو الجمرة، كذلك أدى القلق من القدرات العراقية فى حرب الجراثيم، إلى تشكيل لجنة في الأمم المتحدة لإعداد بروتوكول جديد يضع للاتفاقية أسنانا فى شكل نظام للتأكد، ويكون مقيدا بصورة قانونية، وقد أملت اللجنة فى الحصول على وثيقة معدة للتوقيع عام ٢٠٠١، وقدمت الولايات المتحدة دعما هاما، وقالت عن الخطة: "إنها خطوة كبرى للأمام"، وفى ديسمبر عام ٢٠٠٠ بدأ يتردد صدى نغمة جديدة من واشنطن، عندما اقترح محللون خاصون، وبعض المسئولين فى دفاع الولايات المتحدة فى مجلة نيوسايننتسيت" أن الاتفاقيات التى تحظر الأسلحة الكيميائية والبيولوجية يجب أن تعاد كتابتها ليسمح فيها باستخدام الأنواع "غير المميتة" التى فى وسعها أن تجعل جيوشا بكاملها نائمة، أو أن تصيب العربات والأسلحة بالعجز بأكل ما بها من بلاستيك أو جعل إطاراتها هشة[٣٣]، ومع ذلك فحين قدمت الوثيقة، فى صورتها النهائية للتوقيع فى مارس عام ٢٠٠١، ظلت المشكلة الكبرى بالنسبة للولايات المتحدة هى مشكلة التفتيش والتحقق غير الملائمين، وقد ضغط حلفاؤها بقوة من أجل أن تقبل بالنظام المقترح، والخاص بالتقارير المنتظمة والتفتيش، بما فى ذلك أعمال التفتيش التى تتسم بالتحدى، لكنها وقد تظاهرت بتطبيق النظام المقترح على مواقعها العسكرية الكيميائية والبيولوجية، كانت الولايات المتحدة قد انتهت ليس فقط إلى أنها لم تنجح، بل وإنها يمكن أن تقود إلى المزيد من الشك، وفى ٢٥ يوليو عام ٢٠٠١، أخبر دونالد ماهلى سفير الولايات المتحدة، لجنة الأمم المتحدة – أن الولايات المتحدة كانت قد أوقفت المفاوضات؛ لأن "مسودة البروتوكول، فى تقديرنا، سوف تضع الأمن القومى ومعلومات الأعمال الخاصة والسرية فى خطر"[٣٤]، وتحدث سييشيرو نوبورو، السفير اليابانى، باسم المجتمع الدولى عندما قال: "لقد اندهشت فى الواقع من حجة الولايات المتحدة فى هذه المرحلة"[٣٥].

وفى اجتماع لاحق، فى نوفمبر لمراجعة اتفاقية الأسلحة البيولوجية والسامة، قدم بولتون وكيل الوزارة اقتراحات عدة لدعم اتفاقية الأسلحة البيولوجية والسامة، التى

زعم أنها لم تدرس البتة، وكانت كلها فى الحقيقة، ما عدا واحدا، متضمنة فى البروتوكول الذى كانت الولايات المتحدة قد رفضته للتو، لكن لا شىء من ذلك أعاق بولتون، الذى اقترح ببساطة، فى آخر يوم للمؤتمر تسريح اللجنة، وأصرت الولايات المتحدة، بعد أشهر قليلة، على عزل رئيس وحدة تفتيش اتفاقية الأسلحة الكيميائية، على أساس سوء الإدارة المالية، هذا ما قلناه[٣٦]. إلا أن أحدا لم يصدق ذلك، وكما أشار لورد ريا من بريطانيا أن كثيرا من المصاعب المالية يعود إلى رفض الولايات المتحدة دفع ما عليها من التزامات[٣٧]، كان السبب الحقيقى - كما يعتقد الكثيرون - أن مدير أعمال التفتيش كان يخطط للقيام بأعمال تفتيش غير معلنة فى الولايات المتحدة.

أبواق السيادة تعلن حقوق الإنسان

رفضت الولايات المتحدة على نفس النهج بروتوكولا لتقوية الاتفاقية ضد التخريب عام ١٩٨٧، (ويؤمن العديدون أن ذلك بسبب الممانعة فى السماح لأعمال التفتيش على حال سجناء طالبان فى خليج جوانتانامو)، و"بالاتفاقية المعنية بالتخلص من كل أشكال التمييز ضد النساء"، و"الاتفاقية المعنية بحقوق الطفل" (بسبب المخاوف المحافظة من إمكان تدخلها فى قيم العائلة).

غير أن العنصر الرئيسى فى مقاومة تلك الاتفاقيات والمعاهدات الدولية هو النضال حول "المحكمة الجنائية الدولية" (آى سى سى)، هنا تتحد معا، كل الصعوبات المفاهيمية والدستورية المختلفة التى واجهتها الولايات المتحدة فى تعاملاتها مع المجتمع الدولى، فى صورة درامية واحدة، صورة موحية.

كان للمحكمة الجنائية الدولية أصولها فى اتفاقية الإبادة الجماعية عام ١٩٤٨، التى تعززت بما كشف عنه الهولوكوست بعد الحرب العالمية الثانية، وقد دعا قرار الأمم المتحدة المطالب بتبنى الاتفاقية، "لجنة القانون الدولى بالأمم المتحدة"، أيضا للنظر فى الرغبة لتأسيس محكمة دولية لمحاكمة الأشخاص المتهمين بالإبادة الجماعية.

وحتى تجعل القصة الطويلة قصيرة، فإن الفظائع التى حدثت فى يوغوسلافيا ورواندا، فى أوائل التسعينيات، أدت إلى حدوث تطورين، تأسيس "محاكم جنائية دولية"، بناء على طلب الأمم المتحدة، خاصة بيوغوسلافيا ورواندا، لمقاضاة من ارتكبوا جرائم الإبادة الجماعية فى هذين البلدين، واعدت لجنة القانون الدولى، فى نفس الوقت مسودة تشريع لإنشاء "المحكمة الجنائية الدولية"، التى طال النقاش حولها، وقدمت الأمم المتحدة هذا التشريع لتبنيه أمام مؤتمر خاص فى روما، فى يونيو ويوليو عام ١٩٩٨.

إنه لأمر مهم أن يتم فهم الموضوعات الأساسية التى على المحك فى هذا المؤتمر الذى اشتمل على بذور التطور، أولا: كان هنالك السؤال حول استقلالية المحكمة، وهل يتطلب سلطانها القضائى موافقة مجلس أمن الأمم المتحدة، على القضايا التى تنظر فيه قضية بعد قضية، ومن ثم يكون عرضه لسلطة الفيتو التى يتمتع بها أعضاؤه الدائمون (الولايات المتحدة، روسيا، الصين، المملكة المتحدة، وفرنسا)، أم هل ستكون لها درجة من السلطة المستقلة؟ وكان السؤال الثانى خاصا باستقلال المدعى، وهل سيقدم هو أو هى الدعاوى بناء على إرادته، ثم كان هنالك ما سمى بموضوع نظام الموافقة أو القبول، وهل ستكون هنالك سلطة قضائية عالمية بحيث تكون للمحكمة سلطة مقاضاة أى جريمة، وثيقة الصلة بالموضوع، ارتكبت فى أى مكان من العالم؟ أم هل تقتضى السلطة القضائية موافقة البلد الذى ارتكبت فيه الجريمة، أو بلد الجنسية التى ينتمى إليها المتهم، الموافقة على القضايا قضية بعد قضية؟ هل ستكون للمحكمة سلطة قضائية على الجرائم التى ارتكبت خلال الحروب الأهلية؟ وكان السؤال الرابع حول، المقابل الوطنى للسلطة القضائية للمحكمة الجنائية الدولية، وهل يمكن للمحكمة الجنائية الدولية أن تقاضى أحدا إن كانت المحاكم الوطنية قد بدأت اتخاذ إجراءاتها الجنائية؟ وأخيرا كان هنالك سؤال عن الماضى، هل ستكون المحكمة قادرة على مقاضاة هنرى كيسينجر، مثلا، عن المسئولية المدعاة عن انقلاب شيلى عام ١٩٧١؟ كان كل سؤال من تلك الأسئلة مشحونا بالدلالات الخاصة بالسيادة، تقوم به الأنظمة المعادية لأمريكا.

وقد دفعت مجموعة تدعى، "مجموعة العقول المتماثلة"، والمكونة من ستين بلدا برئاسة كندا، وتشتمل على غالبية حلفاء الولايات المتحدة فى العالم، بجهد لتأسيس المحكمة، وبينما أصرت الولايات المتحدة على المعارضة المطلقة لمحكمة يمكن أن تتهم مواطنى الولايات المتحدة دون الموافقة السابقة للولايات المتحدة، فإنها دعمت المحكمة الجنائية الدولية من ناحية المبدأ، إنها تمقت بصورة خاصة، مفهوم السلطة القضائية العالمية، الذى قدمته ألمانيا، وهددت بنشاط مضاد إن اشتمل التشريع على ما يخالف ذلك، كان قلق الولايات المتحدة قويا للغاية، حتى إن كوهين وزير الدفاع أُبلغ بأن يربط بين نشر قوات الولايات المتحدة فى ألمانيا بهذا الموضوع(٣٨)، كانت الولايات المتحدة، فيما يتعلق بالجدل الذى دار حول الأسئلة الخمسة الكبرى، ضد مجموعة العقول المتماثلة تقريبا، وقد وقف باقى العالم يراقب، ورغم ذلك، سجل الأمريكيون العديد من النقاط مخفضين من فاعلية الكثير مما جاء فى مسودة التشريع، أرادت الولايات المتحدة بخصوص مسألة الاستقلال موافقة مجلس الأمن على القضايا، قضية بعد قضية، وقد ساند الأعضاء الدائمون الآخرون موقف الولايات المتحدة فى الأساس، ولكن عندما تخلت المملكة المتحدة عن هذا الموقف، باعتباره موقفا لا يمكن الدفاع عنه قانونيا أو أخلاقيا، انهار السد وتركت الولايات المتحدة، فى النهاية، معزولة، وكان القرار أنه لضمان مصداقية استقلالية المحكمة، يجب أن تكون المحكمة الجنائية الدولية قادرة على المقاضاة دون موافقة سابقة من مجلس الأمن، ومنعا لإثارة دعاوى عابثة وراءها حوافز سياسية، تمت الموافقة على أية حال أنه على المدعى - للقيام بتحقيق ما - الحصول على موافقة هيئة من قضاة المحكمة الجنائية الدولية، كما تمت الموافقة أيضا على أنه فى إمكان مجلس الأمن تبنى قرار بوقف أى تحقيق تجريه المحكمة الجنائية الدولية، وحققت الولايات المتحدة مكسبا جزئيا فى مسألة السلطة التشريعية، شطبت السلطة القضائية العالمية، وجاء فى الصياغة النهائية للتشريع أنه يمكن للمحكمة التى يحمل المتهمين جنسيتها، أو أن تكون طرفا فى اتفاقية المحكمة الجنائية الدولية، بأن تكون لهما سلطة تشريعية، وتلك هزيمة صغيرة لموقف الولايات المتحدة، وحققت الولايات المتحدة فيما يتعلق بالمقابل الوطنى إزاء السلطة التشريعية للمحكمة الجنائية

الدولية، كسبا كبيرا، باعتبار أنه يمكن فقط للمحكمة الجنائية الدولية أن تقاضى، إذا فشلت المحاكم الوطنية فى العمل، كما تمت الموافقة أيضا على أن تكون هنالك مرحلة قدرها سبع سنوات، غير قابلة للتجديد، يمكن فيها للدول أن تختار السلطة التشريعية للمحكمة الجنائية الدولية، فيما يتعلق بجرائم الحرب[٣٩]، وقد سعت الولايات المتحدة، فى الدقيقة الأخيرة، من أجل استثناء خاص لمواطنى الدول غير الأعضاء الذين يقومون بمهام رسمية، وكان هذا يعنى السماح لحكومة ما بأن تعوق مقاضاة مواطنيها ساعة تشاء؛ مما سيؤدى إلى تدمير مصداقية المحكمة وهزمت غير أن الولايات المتحدة نجحت فى أن تجعل من الأمن القومى أساسا لرفضها التعاون مع المحكمة، وفى أن تجعل من الأوامر العليا أساسًا للدفاع، وبذا تحققت أيضا فرصتان للدول لتحدى السلطة التشريعية للمحكمة أو الاحتكام إليها.

ولم يكن أى من هذا كافيا، على أية حال، للولايات المتحدة، وصوتت ضد إقامة المحكمة، جنبا إلى جنب مع الصين والعراق وليبيا واليمن وقطر وإسرائيل، وكان التصويت النهائى ١٢٠ صوتا فى صالح القرار و٧ ضده وامتنع ٢١، وسوف تصبح المحكمة فاعلة عندما تصدق الستون بلدا، على الاتفاق.

إن تحدى المجتمع الدولى لرغبات الولايات المتحدة قد أدى إلى جهاد حقيقى للولايات المتحدة ضد إنشاء المحكمة، وقد وقع الرئيس كلينتون الاتفاقية تحديدا فى اليوم الأخير من إدارته، ولكن فقط لإعطاء الرئيس القادم بوش فرصة اختيار العمل مع الأمم المتحدة لتشكيل جهاز المحكمة، وقد أعطت إدارة بوش - على أية حال - إشارة مبكرة بأنها قد تذهب بعيدا فى مسألة عدم توقيع الاتفاقية[٤٠]، وفى خريف عام ٢٠٠١، تبنى مجلس الشيوخ قرار حماية أفراد القوات المسلحة الأمريكية، الذى قدمه هيلمز، والذى يحظر على الولايات المتحدة التعاون بأية صورة مع المحكمة الجنائية الدولية، ومنع أى مساعدة عسكرية من الولايات المتحدة لأى بلد يدعم المحكمة الجنائية الدولية، ووجه القرار الولايات المتحدة لاستخدام أية وسيلة، بما فيها القوة، لإطلاق سراح أى مواطن أمريكى تحتجزه المحكمة، وكانت تلك الفقرة هى التى أعطت للقرار

اسمه المجرد "قرار غزو لاهاى"، إنه لم يصبح قانونا، غير أن الإجراءات المقيدة للتعاون مع المحكمة الجنائية الدولية وضعت موضع التنفيذ.

وعندما أصبح واضحا، فى شتاء وربيع عام ٢٠٠٢، أن الستين بلدا اللازمة للتصديق سوف تتوافر قريبا، مارست حكومة الولايات المتحدة حملة ضغط عالية متزايدة لتعوق التصديق، لكن دون جدوى، وفى ١١ إبريل أُضيف التوقيع الستون، وبذا غدت المحكمة فى حيز التنفيذ، وعند تلك النقطة اتجهت الولايات المتحدة إلى مضاعفة سرعتها، وأرسل بولتون وكيل الوزارة خطابا غير مسبوق إلى السكرتير العام للأمم المتحدة كوفى عنان يخبره فيه أن الولايات المتحدة ترفع بحق. توقيعها من اتفاقية المحكمة، وشرح أن للولايات المتحدة "دورا متفردا فى مساعدة الحرية والدفاع عنها، وتقدم قضية البشرية"، ومن ثم فإن الأمريكيين يصبحون أهدافا لدعاوى مسيسة؛ لذا فإن الولايات المتحدة ترفض أن تكون طرفا فى الاتفاقية(٤١).

غير أنه كانت هنالك مشكلة لا تزال قائمة؛ إذ بينما قد لا يكون للمحكمة سلطة قضائية فى الولايات المتحدة، فإن المواطنين الأمريكيين قد يعملون فى بلدان، هى أطراف فى المحكمة الجنائية الدولية، وأن المحكمة ما يزال فى وسعها ممارسة سلطتها التشريعية على أمريكيين دون موافقة حكومتهم، وجادل المسئولون فى الولايات المتحدة، بأن ليس من العدل تعريض أمريكيين، فى أى مكان للسلطة التشريعية لاتفاقية لم تكن حكومتهم طرفا فيها، وقد أشار المعارضون إلى أن الأمريكى الذى يرتكب جريمة عادية فى الخارج - يحق للحكومة الأجنبية مقاضاته دون موافقة الولايات المتحدة، وفى حالة حدث فظيع، فإنه يكون لذات الحكومة، فى إطار حقوقها، تفويض المحكمة الجنائية الدولية فى توجيه الاتهام، يضاف إلى ذلك أن الولايات المتحدة يمكن أن تكسب نفوذا كبيرا على مجرى أى من تلك الادعاءات القضائية إذا صدقت، ببساطة، على اتفاقية المحكمة الجنائية الدولية، وقد لوحظ أيضا أنه بينما تلعب الولايات المتحدة دورا أساسيا فى نقاط كونية ساحقة، فهى ليست بمفردها كلية؛ إذ إن لفرنسا وبريطانيا وآخرين قوات وأفراد فى نقاط بها متاعب مختلفة، ويبدو أنهم

لا يعانون مشكلة مع المحكمة. وأخيرا فإنه، حتى فى حالة توجيه اتهام لأمريكى فى بلد آخر، خاضع لقواعد المحكمة، فإنه يكون للولايات المتحدة حق الادعاء أولا، ويكون للمحكمة الجنائية الدولية القدرة على التدخل إن هى فقط رفضت التحقيق، ويكون نقيض هذا إن كان لدى الولايات المتحدة أسباب جيدة ألا تجرى التحقيق لاعتقادها أن الاتهام يقوم على الاحتيال.

غير أن هذا النزاع لم يكن يدور حول النقاط محل النقاش، لكنه كان يدور حول السلطة، وشن مسئولون فى الولايات المتحدة حملة للضغط على العديد من البلدان التى صدقت على الاتفاقية كى توقع معها اتفاقيات ثنائية تستثنى مواطنى الولايات المتحدة من السلطة التشريعية للمحكمة الجنائية الدولية، فى المناطق الخاضعة لنفوذها، ووضع ذلك حكومة الولايات المتحدة، فى أوربا، فى طريق التصادم مع الاتحاد الأوربى، الذى أخبر البلدان مثل رومانيا وبولندا أن قبولهم بضغط الولايات المتحدة يمكن أن يعرض ترشيحهم لعضوية الاتحاد الأوربى للخطر.

وهددت الولايات المتحدة باستخدام الفيتو عند تجديد كل بعثات الأمم المتحدة الحالية، للحفاظ على السلام، وأنها سوف تبدأ بالبوسنة، إن لم يمنح مجلس الأمن كل المحافظين على السلام، من قبل الأمم المتحدة - حصانة دائمة من المحكمة، وفى النهاية، منح مجلس الأمن - على كره منه - حصانة عام واحد للمواطنين الأمريكيين، وكان هذا حفاظا على ماء الوجه. إنه حل اللقاء فى منتصف الطريق غير أن مجلس الأمن عبر أيضا عن نيته تجديد الاستثناء سنويا، وهكذا بدا أن الولايات المتحدة قد كسبت، غير أن أدولفو أجويلارزينسر السفير المكسيكى تحدث باسم العديدين عندما قال،"الفكرة العامة عند المجتمع الدولى، أن هذا عمل خاطئ"[٤٢]، وقال لى سفير آخر، من أقدم وأوثق حلفاء أمريكا، بصورة شخصية، الكلمات التى جاءت فى صدر هذا الفصل: "إن أمريكا تبشر دوما بحكم القانون، لكنها، فى النهاية تضع نفسها دوما فوق القانون".

إن جون بولتون وجيسى هيلمز اللذين ظهرا مرات عديدة فى هذا السرد، يمثلان خصوصية دستورية خطيرة، إن كليهما ممن يعرفون بـ "الجمهوريين المحافظين"، اللذين يعنيان عامة أنهما مكرسان لـ "الحرية"، ويشكان فى الحكومة، إنهما يريان الولايات المتحدة باعتبار أن حكومتها هى الشكل الأكثر ديمقراطية، إنهما رائدان صلبان للعقيدة الأمريكية، ويريان أن القوة الأمريكية، ونمط الحياة الأمريكية هما النموذج النهائى الذى سيتجه العالم إليه عبر الزمن، ورغم أن هيلمز كان فى "لجنة العلاقات الخارجية"، وخدم كرئيس لها سنوات عدة حتى اعتزاله عام ٢٠٠٠، ورغم أنه كان لبولتون أوضاع عالية المستوى فى الإدارة الخارجية، فإنهما كان يشكان فى الحكومات الأجنبية، ويؤمنان بأنها أقل ديمقراطية وأكثر توجها للحرب من حكومة الولايات المتحدة، وهما يميلان أيضا لرؤية البلدان الأخرى باعتبارها بلدانا تحسد الحرية الأمريكية، وأنها لا تستفيد من الأمم المتحدة، ولا من أية مؤسسة تقوم على التعددية، إنهما يرونها فاسدة، غير ديمقراطية، مكرسة لتقييد أو تعويق قوة الولايات المتحدة الخيرية، إنهما يضعان ثقتهما الكاملة فى القوة الأمريكية، ويضعان الأولوية الأولى للحفاظ على السيادة المطلقة وحرية العمل.

إن نفوذ مثل تلك الآراء يتعزز كثيرا بفصل القوى فى حكومة الولايات المتحدة، إن الاتفاقيات يجب أن يصدق عليها مجلس الشيوخ قبل أن تصبح قانونا، ويتوجب على رئيس لجنة العلاقات الخارجية أن يضعها فى الجدول، ويدير حولها عمليات استماع ونقاش، قبل أن يجرى التصويت عليها فى مجلس الشيوخ. ويمكن لرئيس أن يعوق اتفاقية لسنوات دون اتخاذ إجراء ما، أو فى وسعه أن يصر على فعل آخر كثمن لتقديم الاتفاقية للتصويت، وغالبا ما يكون الرئيس وغالبية الشعب الأمريكى داعمين لاتفاقية ما أو لجزء من تشريع، لكنهم لا يستطيعون عرضها للتصويت بسبب معارضة رئيس اللجنة القوى، إن هذا الدمج بين وجهات النظر الأيديولوجية والسلطة الدستورية، هو واحد من الأسباب التى تضع أمريكا كثيرا فى خصام مع العالم.

إن الوجه الثالث الهام للعسكرية الأمريكية هو الاقتصاد، لقد سعت الولايات المتحدة كي تبقى البلدان الأساسية دولا شبه موالية لها، وهى قد سعت بالمثل تماما للهيمنة على الأسلحة الأساسية والتكنولوجيا العسكرية، كان الإنفاق الدفاعى للولايات المتحدة عام ١٩٤٨، ٩,١ مليار دولار، وتلك حوالى ٣,٦٪ من إجمالى ناتجها المحلى، بعد أن هبطت إلى ما يزيد عن نصف إجمالى الناتج المحلى عام ١٩٤٥[٤٣]، وأدى انفجار الحرب الكورية إلى مضاعفة سريعة للميزانية العسكرية، وغدا الإنفاق الدفاعى، خلال الحرب الباردة، حوالى ٦-٧٪ من إجمالى الناتج المحلى، كنوع من الحساب التقريبى، وإن نحن وضعنا اقتصاد الولايات المتحدة فى الاعتبار، فإننا سوف نرى أن ذلك قد أدى إلى قدر هائل من الإنفاق على الأسلحة - زيادة على الحرب الباردة كلها، بما يعادل ١٥,٨ تريليون دولار بسعر دولارات اليوم[٤٤]، لم يكن هذا هو العبء الذى لا يحتمل بالنسبة لاقتصاد الولايات المتحدة، والذى ثبت فى النهاية أنه عبء على الاتحاد السوفيتى، ومع ذلك فإن وجود انفجارات ذعر منتظمة خشية السقوط إلى وراء، والانتعاش الوقتى بنظام أسلحة الطلقات الفضية الذى يمكن أن يجعل الولايات المتحدة حصينة، قد أطلق العنان، خلال هذه الدورات، لفيضان جديد من الإنفاق.

جاء الذعر الأول عام ١٩٤٥ عندما بدا أن صور الاستعراض العسكرى السوفيتى، فى أول مايو، تظهر أسطولا كاملا من قاذفات القنابل السوفيتية، غير المستمدة، من تصميمات أمريكية أو بريطانية، وقادرة على الوصول إلى الولايات المتحدة القارية، ثم ظهر فيما بعد أنه لم يكن لديهم - فى الحقيقة - غير عدد قليل فقط، من تلك الطائرات، لكنهم طيروها فى دوائر متواصلة، خلال الاستعراض العسكرى للأول من مايو، حتى يجعلوا مخزونها يبدو بلا نهاية، كان هنالك قلق كبير، فى ذلك الوقت، بسبب "فجوة القاذفات"، وضغط كبير لإعداد المزيد من ب - ٥٢ "للحاق" بالسوفيت، وتواصل هذا الضغط حتى أظهرت طائرة التجسس الأولى يو - ٢ من خلال تحليقها فوق الاتحاد السوفيتى عام ١٩٥٦ أن تلك الفجوة كانت فى صالح

الولايات المتحدة، غير أن هذه الحقيقة لم توقف جون ف. كنيدى، المرشح للرئاسة، من تأكيد الحاجة، خلال عام ١٩٦٠، إلى سد "فجوة الصواريخ" التى تزداد اتساعًا، وذلك بإنشاء قوة ثأرية حصينة هى "صواريخ باليستية عابرة للقارات" (أى سى بى إم) بتكلفة ٢٠٠ مليار دولار[٤٥]، وبعد انتخاب كنيدى اكتشف أنه لم تكن هنالك حقا فجوة صاروخية، غير أن تلك الحقيقة أيضا لم توقف تخصيص البلايين من الدولارات لمزيد من توسع قوات الولايات المتحدة الصاروخية، من المستحيل القول إن كنا نحن أم السوفيت، السبب الدافع لسباق الصواريخ والرؤوس النووية من الستينيات إلى السبعينيات.

وبدا أن قليلا من الاستقرار قد تحقق فى السبعينيات مع الاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية والتعهدات المختلفة بالحد من التجارب النووية، غير أن انتخاب ريجان كرئيس عام ١٩٨٠ أطلق مرة أخرى عنان البحث الأمريكى لجعل البلاد حصينة، وقال ريجان إن عقيدة الـ "ماد" (التدمير المؤكد المتبادل)، التى كانت حينئذ المرشد لاستراتيجية الولايات المتحدة للردع النووى، كانت هى نفسها مجنونة، إن مفهوم القبول الطوعى بأنك عرضة للهجوم/ مفهوم غير أمريكى، ورصد ريجان ٥٠ مليار دولار لمبادرة الدفاع الاستراتيجى (إس دى آى)، والتى عرفت بصورة أفضل بـ "حرب الكواكب"، لتطوير نظام قادر على إسقاط أى صواريخ موجهة إلى الولايات المتحدة قبل وصولها، غير أن عددا قليلا من العلماء هم الذين قالوا بأن هذا النظام يمكن أن يعمل دوما بفاعلية، لكن الشكوك أو التكلفة لم تكن شيئًا يذكر إن كان الهدف هو التحصين، وأبطأت الحرب الباردة هذا البرنامج، لكنها لم تقض عليه، ولم يتحول البرنامج إلى نظام الدفاع الصاروخى الوطنى الجارى، الذى ألغت، من أجله، الولايات المتحدة، الاتفاقية المضادة للصوايخ الباليستية عام ٢٠٠١، وقد جرى تعزيزه، كما سبق وأشرنا، باعتباره مضادا لضربات صواريخ قادمة من "أمم مارقة"، لكنه بدا مثيرا للشك، وكأنه استهدف الصين، وهنالك مرة أخرى، شكوك كبرى حول فاعليته، وكما قال لى جاكس جانسلر، وكيل وزارة الدفاع السابق للتملك والتكنولوجيا، فى أغسطس

عام ٢٠٠٢، أن النظام لم ينجح فى ظل أشد الأوضاع المحكومة بساطة، كما أنه حساس للغاية للخدع والشراك ولتدابير أخرى مراوغة.

بالطبع، إذا كان فى استطاعته حقا توفير الحماية ضد تدمير مراكز السكان الكبرى فى الولايات المتحدة، فهو جدير باستثمار حقيقى، غير أن هنالك العديد مما يثير السخرية فى الوضع. أولاً: أن النظام المقترح، رغم سنوات البحث وإنفاق مليارات الدولارات لن تكون له جدوى ضد أنواع من الصواريخ مثل تلك التى ضربت برجى التجارة العالمية فى ١١ سبتمبر، كما أنه عديم الجدوى أيضا، ضد صواريخ ستينجر المحمولة باليد، التى عاونت على تحقيق النصر للمجاهدين فى أفغانستان، وهى تقريبا التى أسقطت طائرة إسرائيلية فوق نيروبى فى ٢٨ نوفمبر عام ٢٠٠٨ ويقدر أن هنالك ٧٠٠٠٠٠ من تلك الصواريخ متاحة فى أنحاء العالم، وأن الولايات المتحدة هى التى قامت بإمداد بلدان عديدة، ومجموعات ذات صلات إرهابية بالعديد منها[٤٦]. تلك هى حقا أسلحة المارقين: رخيصة، سهلة الحمل والإخفاء، قادرة على الوقف التام لرحلات الطيران، ومع ذلك لم يبذل أى جهد فعلى، لا شىء دون شك يقارن بمبادرة الدفاع الاستراتيجى، أو الدفاع الصاروخى الوطنى، للتحكم فى تلك الأسلحة أو الدفاع ضدها.

وهنالك رؤية أخرى ترى أن محاولات الدول المسماة بـ "محور الشر"، مثل كوريا الشمالية وإيران للحصول على أسلحة نووية وصواريخ، ربما تكون على الأكثر، للدفاع ضدنا لا تهديدنا، إن اتجاهنا لاستبدال الأنظمة، وتأكيدنا على القوة العسكرية الساحقة، كان بمثابة رسالة واضحة عن الخطر إلى العديد من الحكومات، وأن تجربتنا الحديثة عن كوريا الشمالية لا يمكن أن تذهب دون أن نلحظها، كان لديها أسلحة نووية وصواريخ قليلة، وتمسك بسيول رهينة، وأجبرنا نحن على التراجع عن تهديداتنا هنا، بينما واصلنا تهديد العراق بالهجوم عليها فى أية لحظة، لا يمكن للرسالة أن تكون أكثر وضوحًا من ذلك، احصل على الأسلحة النووية، وسوف يصبح الأمريكيون أكثر

عقلانية، إن الدفاع الصاروخى الوطنى لن يغير هذا التكتيك؛ لأنه ليس من الضرورى توجيه الأسلحة النووية إلى الأرض الأمريكية.

إن الإصرار على هذا، وعلى أنظمة أخرى، يشكل وجها محبطا للنظام السياسى الأمريكي، أنت لا تستطيع قتل نظام أسلحة أو قاعدة، ما أن يطرح مشروع ما، حتى يلتقطه أبطال بيروقراطيون، وكونجرسيون يوجهون الأموال إلى مناطق كونجرسية أساسية، إن صناعة الأسلحة تتعمد نشر أعمالها باتساع، على امتداد البلاد لتحقيق دعم لأكبر عدد ممكن من أعضاء الكونجرس، وخاصة هؤلاء الذين يرأسون لجان أساسية، مثال ذلك نجح نيوت جنجريش، وهو جمهورى من جورجيا، والمتحدث باسم مجلس النواب فى الحصول على ٢,٥ مليار دولار، إضافة إلى ميزانية الدفاع لمشتريات الطائرات، رغم أن سلاح الطيران قال بأنه لا يريد هذه الطائرات؛ لأن الطائرات كانت تنتج فى ولايته[٤٧]، إن مناطق مختلفة اقتصاديا وسياسيا تحتاج إلى دوام انتشار أنظمة الأسلحة؛ مما يفرض بالتبعية ضغطا لنشرها واستخدامها، ولذا فإنه رغم ما توصف به غالبا الـ إف - ١٥ بأنها الطائرة الأكثر تقدما فى العالم، ولدى الولايات المتحدة منها أكثر من ألف طائرة، غير أن مؤسسة دفاع الولايات المتحدة تخطط لاستبدالها بـ إف - ٢٢ الأكثر تقدما، ومثال آخر على هذه العملية هو اقتراح بنشر أسلحة فضاء يكون فى وسعها دفع أذى أى هجوم على معدات عسكرية أمريكية، موقعها فى الفضاء، وتدمير الأقمار الصناعية والمعدات العسكرية الفضائية للبلدان الأخرى، ليس هنالك من تهديد معروف ضد أمريكا فى الفضاء، إلا أن هنالك إغراء بعسكرته؛ لأن ذلك فى وسعنا، ولأن المشروع بالنسبة لشخص ما يعنى مِنَح أبحاث ووظائف وأصوات انتخابية.

إن صناعة السلاح أيضا مُصَدر ومُورد كبير للوظائف، إن قانونا جديدا لاقتصاديات الأعمال، يسعى إلى استهلاك رأس مال واستثمارات البحث والتنمية من أجل تحقيق إنتاج كبير قدر الإمكان، ومن ثم تخفيض تكلفة تلك الاستثمارات بالنسبة للوحدة، إن الولايات المتحدة تقوم بإنفاق حوالى ٧٠٪ من الأبحاث العسكرية والتنمية

العسكرية على امتداد العالم، ولذا فإنه ليس مثيرا للدهشة أن تكون صادرات السلاح هى من الأعمال الأمريكية الكبرى، إن إدارات التجارة والخارجية والدفاع مزودة بهيئات كبيرة لبيع وتسهيل تصدير الأسلحة الأمريكية إلى العالم، وقد ارتفعت تجارة السلاح فى العالم، فى عام ١٩٩٩، وهو العام الأخير الذى تتوافر إحصائياته، إلى حوالى ٥٢ مليار دولار بعد أن انخفضت من ٧٠ مليار دولار عام ١٩٨٩ إلى حوالى ٤٠ مليار دولار عام ١٩٩٤، وقد استوردت البلدان المتطورة أكثر من نصف هذا القدر بقليل، واستوردت البلدان النامية، ما تبقى، إن صادرات الولايات المتحدة، التى تصل إلى ٦٤٪ من تلك المبيعات، يحتمل أن تتقدم إلى ٧٠٪ فى المستقبل، وذلك بناء على اتفاقيات مبيعات تم توقيعها بالفعل[٤٨]، إن الذين يحتلون القمة فى شراء أسلحة الولايات المتحدة هم العربية السعودية، وتايوان، واليابان، وبريطانيا، وتركيا، وإسرائيل، وكوريا الجنوبية، ومصر واليونان، وإن بدا لك، وكأن الولايات المتحدة تسلح فى بعض الأحيان طرفى النزاع، فأنت على حق.

وتستخدم تلك المبيعات فى أغراض أكثر بكثير من مجرد البيع، إن الولايات المتحدة تستخدم ترتيبات الأسلحة لتوثيق علاقاتها بالبلدان الرئيسية لتوحيد قياس المعدات والمناهج كونيا، ولتكسب أيضا درجة من التحكم فى سياسات الحكومات الأجنبية، مثال ذلك أعلنت بولندا فى يناير عام ٢٠٠٣ أنها سوف تحصل على ثمان وأربعين طائرة مقاتلة جديدة إف - ١٦ من الولايات المتحدة كجزء من برنامجها، وحتى تزيد من قوة قواتها، ولتفى بإلتزاماتها كعضو جديد فى الناتو[٤٩]، إن هذا جيد بصورة واضحة للديناميكيات العامة التى تصنع إف -١٥، ولاقتصاد الولايات المتحدة، لكن له أيضا دلالات أخرى كثيرة، إن ذلك يحقق المزيد من ضعف القدرة التنافسية لصناع الطائرات الأوربية؛ إذ يحرمهم من عمليات بيع، ومن ثم يرفع من تكاليفهم، ويجعل الزبائن الآخرين أكثر إقبالا على شراء إف - ١٦. (وهذا مضاد لضغط الولايات المتحدة من أجل المزيد من إصلاح الدفاع الأوربى)، إن ذلك يجعل سلاح الطيران البولندى قابلاً للتعامل مع السلاح الجوى للولايات المتحدة، لكنه ليس

بالضرورة متناغما مع قوات الناتو الأخرى، وحيث إن أجزاء يجب أن يتم الإمداد بها من الولايات المتحدة؛ لذا يعطى ذلك مسئولين من الولايات المتحدة نفوذا وقوة على ما تود بولندا أن تفعله بهذه الطائرات؟ إن الناتو أو بولندا لا يواجهان أى تهديد له ثقله، يمكن أن تتعامل معه طائرات إف – ١٦، ربما فكر المرء فى أن بولندا كبلد نام يمكنها استخدام النقود بطريقة أفضل، كان ذلك يقينا، هو وضع البرازيل، التى أعلن رئيسها الجديد "لولا"، فى ذات الوقت تقريبا – أنه سوف يلغى تسلم طائرات مقاتلة من الولايات المتحدة، طلبتها الإدارة السابقة؛ لأن البرازيل لديها سبل أفضل لإنفاق النقود، إن هذا النوع من السلوك يسم رأس الدولة بوصمة "يسارى خطر".

ربما تتوقع بولندا ترتيبات مستقبلية، مثل تلك التى انتهت إليها الولايات المتحدة مع اليابان وكوريا وعدد من البلدان الأخرى، التى يمكن إنتاج الأسلحة معا فى ظلها، بل وحتى يمكن تطويرها معا، إن صفقات الولايات المتحدة لبيع أنظمة الأسلحة، وخاصة الطائرات – غالبا ما تعزى إلى النهاية المعروفة باسم ترتيبات "التوازن"، وهذه تعنى أن البلد المشترى – كوريا مثلا – سوف يتسلم رخصة لإنتاج جزء أو كل الطائرة فى مصانعها المحلية، وأن التكنولوجيا اللازمة لفعل ذلك سوف تُنقل إليه من المنتج الأصلى فى الولايات المتحدة، إن عددا من البلدان قد استخدم توريدات من طائرات الولايات المتحدة بهذه الطريقة ليطور صناعة طائرات محلية، لم تكن موجودة من قبل، إن اليابان قد أثبتت بصورة خاصة مهارة بقيامها بعمل تدريجى لصناعة طائرة، تزايد أكثر فأكثر، حتى أصبحت فى النهاية شريكا كاملا فى تطوير الأجيال التالية. إن هذه العملية ترفع بالفعل تكلفة المنتج النهائى؛ حيث يتم الإنتاج فى أمد أقصر، من ذلك الذى تستهلكه لو تمت صناعتها كلية فى الولايات المتحدة، وتم تصديرها من مخازنها، إن المقاتلة اليابانية الجديدة إف إس إكس سوف يصل ثمنها إلى ١٥٠ مليون دولار للواحدة، بينما شراء نظيرتها من مخازنها سوف يكلف أقل من نصف ذلك[٥٠] ، إن نقل التكنولوجيا، بالإضافة إلى التكلفة المباشرة، لا يقلل فقط من القيادة الصناعية للولايات المتحدة، لكنه أيضا يجعل أنظمة الأسلحة الحاسمة متاحة بصورة أكبر سهولة، وكل ذلك يتم تحت اسم تحسين أمن الولايات المتحدة.

إن قيامها حقا بذلك أمر غير واضح، لكن الأمر المؤكد أنه يخفض إنتاجية اقتصاد الولايات المتحدة، إننا بإنفاقنا من ٣ إلى ٥٪ من إجمالى ناتجنا المحلى على الدفاع – إنما نأخذ فى الواقع هذا القدر الكبير ونستثمره فى منتجات وخدمات لن نستخدمها البتة فى غالب الأمر، ولذا فإننا، على المستوى الأول، نفقد عوائد يمكننا الحصول عليها إن نحن استثمرنا فى مصادر قوة منتجة، وعلى المستوى الثانى، فإنه فى وسعنا أن نكسب أكثر إن قمنا ببساطة بالتصدير من مخزوننا، لكننا نفقد الكثير من ذلك الكسب عبر ترتيبات "التوازن" وصفقات التطوير المشترك. وفى النهاية، وعلى المستوى الثالث، فإن نقل الملكية التكنولوجية، بأسعار رخيصة، يستخدمه المنافسون الأجانب لتحقيق تحسن كبير المدى فى المنتجات والخدمات التى تنافس تجاريا عروض الولايات المتحدة، إننا ننتحب قائلين: إنه يتوجب علينا فعل ذلك، بسبب ما علينا من مسئوليات وأعباء خاصة، ونشكو من أن حلفاءنا لا ينفقون على صيانة قدرات القوة المماثلة، غير أن الحقيقة هى أننا من يريد تلك المسئوليات، إننا نستدعيها، وصفقات "التوازن" هى الدليل على ذلك، إن القصة الرسمية هى أننا نعقد تلك الصفقات للدفاع عن حلفائنا، غير أن الحلفاء يطلبون رشاوى لقبول تلك الصفقات، إنهم بوضوح لا يرون التهديدات بنفس الطريقة التى نراها نحن بها، إنهم يستفيدون من حاجتنا لتحمل أعباء خاصة، وحتى نتوسل إليهم أن يقوموا بها.

إننا أيضا نجعل تعاونهم معنا صعبا للغاية حتى إن أرادوا هم ذلك. إن البنتاجون بعيد ونىاء، إنه أكبر مشتر للسلاح فى العالم، ربما تتجاوز مشترياته نصف المشتريات الكونية، إنك كمورد إن لم تستطع البيع إلى البنتاجون فإنك لن تستطيع البقاء قادرا على المنافسة، إنك لن تستطيع الحصول على أحجام الإنتاج، أو الدولارات الكثيرة الخاصة بالبحث والتنمية، التى تسمح لك بالبقاء عند الناحية الرئيسية، إن البنتاجون يُصعب الأمر تماما على المنتجين الأجانب حتى يبيعوا إليه.

وقد مرت أواسط التسعينيات بلحظة محددة فى بنية صناعة الأسلحة الأمريكية، إذا كان هنالك هبوط فى الإنفاق على الأسلحة، وتقلص ضرورى لصناعة الدفاع، مع

نهاية الحرب الباردة، وعقد ويليام بيرى وزير الدفاع ما عرف فيما بعد، بـ "العشاء الأخير"، وهو غداء مع المسئولين التنفيذيين لصناعة الدفاع، لينصحهم بأن يبدؤوا التفكير فى الاندماج، وفى كساد اقتصادى صغير، كان هذا هو الوقت الذى يجب النظر فيه لعولمة صناعة السلاح، عبر اندماجات دولية، غير أن ذلك لم يحدث، جزئيا بسبب المقاومة فى الخارج، وجزئيا لأن ذلك سوف يضعف من سيطرة أسلحة الولايات المتحدة، ويقلل من النفوذ الإمبريالى.

علمهم كيف يقاتلون - لا كيف يكتبون

إن الولايات المتحدة ليست فقط المصدر الأول للأسلحة فى العالم، لكنها أيضا المعلم الأول للحرب، إن "المدرسة الأمريكية"، مثلا، التى تأسست أولا عام ١٩٤٦ فى منطقة قناة بنما التى تتحكم فيها الولايات المتحدة، قد تخرج فيها منذ ذلك التاريخ أكثر من ستين ألف من الضباط، وتلميذ حربى وصف ضابط من كل بلدان أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة كذلك، هنالك عدة أهداف، وأحد تلك الأهداف هو إقامة علاقات بين الشخصيات العسكرية من أمريكا اللاتينية، وتلك التى من الولايات المتحدة، وكان من المعتقد أن ذلك لن يغرس فقط مفاهيم الولايات المتحدة عن تحكم ما هو مدنى، فيما هو عسكرى، لكنه يجعل فى الإمكان أيضا التدريب على حقوق الإنسان والديمقراطية - جنبا إلى جنب مع تعليم أشياء مثل العمليات الخاصة، والعمليات المدنية العسكرية، وهلم جرا، تلك كانت النظرية، لكن المدرسة صنفت فى التطبيق باعتبارها "مدرسة الديكتاتوريين"، بسبب العدد الكبير من ديكتاتورى أمريكا اللاتينية السابقين، والذين تخرجوا فيها، وبسبب الرقم المرتفع من الشكاوى الخاصة بحقوق الإنسان التى تسببوا منها، وحتى نكون منصفين، فإنه صحيح أيضا أن بعض خريجى المدرسة مثل باز جارسيا، من هندوروس كان فاعلا فى نقل السلطة إلى سابق عهدها، حكما مدنيا ديمقراطيا، وأن كل بلدان أمريكا اللاتينية والجنوبية قد أصبحت

ديمقراطية خلال العقد الماضى، مع سقوط الديكتاتوريين، غير أن هذا التطور مدين بالقليل للمدرسة الأمريكية.

إن نفس الحقيقة المختلطة يمكن التعرف عليها فى برنامج متنوع أكثر حداثة، كانت المهمة العسكرية الأمريكية فيما بعد مناخ الحرب الباردة بصورة جزئية وهامة هى "صناعة المناخ الدولى"، وكان ذلك يعنى نشر العلاقات العسكرية، مشتملة على التدريب العسكرى والبرامج المضادة للمخدرات، والنشاطات المعادية للإرهاب، وبرامج التعليم ونقل المعدات، إن تلك النشاطات تقوم بها أساسًا "قوات العمليات الخاصة" (إس أو إف)، والتى تنتشر الآن فى أكثر من ١٤٠ بلدا، بميزانية تزيد عن ٣ مليار دولار، وتعمل تلك القوات فى إطار قانون "التدريب المشترك الموحد المتبادل" (جى سى إى تى) لعام ١٩٩١، والذى يسمح لقوات العمليات الخاصة بالتدريب الخارجى مع قوات أجنبية، كما يسمح أيضا لقوات العمليات الخاصة للولايات المتحدة بالحصول على نفقات القوات الأجنبية، إن هى عجزت عن الدفع، بطرقها الخاصة، لقد كان الهدف الظاهرى لهذا القانون هو توفير تدريب هام لأفراد قوات العمليات الخاصة بالولايات المتحدة، إنها ربما تحتاج إلى فعل ذلك حقا، لكنها تشكلت أيضا فى إطار برنامج عريض، تدرب الولايات المتحدة فى ظله، وبصورة عملية كل جيوش العالم، هنالك حوالى ٤٥٠٠ من قوات الولايات المتحدة منتشرة فى أنحاء الكون، فى أى وقت؛ لذا فإن عدد أفراد التدريب المشترك الموحد المتبادل يتجاوز ٤٠٠٠ ضابط فى الخدمة الأجنبية للإدارة الخارجية.

إننا عندما ننظر إلى الجانب الآخر من الجسر، فإن ذلك يُمكننا فقط من رؤية مدى ثقتنا فى الأسلحة بصورة أكثر وضوحا، كان إنفاق الولايات المتحدة عام ١٩٤٨ العام الأول للحرب الباردة، على المعونة، وعلى برامج أخرى دبلوماسية وغير عسكرية يصل إلى إجمالى قدره ٦ مليار دولار، بسعر دولار عام ١٩٤٨، أى أكثر من ٣٪ من إجمالى الناتج المحلى، وحوالى نفس قدر الميزانية العسكرية للولايات المتحدة فى ذلك الوقت[٥١]، أو ١٠٤ مليار دولار بسعر دولار عام ٢٠٠٥، إن الإنفاق غير العسكرى

للولايات المتحدة اليوم، فيما وراء البحار، بما فى ذلك تكلفة السفارات، والمعونة، والتعليم وكل شيء آخر، تصل إلى أقل من ١٧ مليار دولار، أى حوالى ١٧, ٠٪ من إجمالى الناتج المحلى، يضاف إلى ذلك حوالى ٤ مليار دولار للمعونة العسكرية، وهى غالبا ما تكون عبر برنامج "التمويل العسكرى الأجنبى"، الذى يعمل كبرنامج للمنح مساعدة للحكومات الأجنبية على شراء معدات الولايات المتحدة العسكرية[٥٢]، وبذا فإن حوالى ١٢ مليار دولار فقط أو ١٢٪ من إجمالى الناتج المحلى هى معونة بالمعنى العادى، تذهب منها حوالى ثلاثة مليارات دولار إلى إسرائيل، واثنى مليار دولار إلى مصر (ما يزال ذلك جزءا من الوفاء لصفقة السلام بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٩)، مع تقسيم الباقى بين كل الآخرين[٥٣]، إن تلك الأرقام التى تثير الشفقة – رغم انتهاء الحرب الباردة، وجدوى السلام، والانفجار الكونى إصابة بالإيدز، وانتشار المجاعة فى إفريقيا – أقل فعليا مما كانت عليه عام ١٩٩٠؛ مما جعل من الولايات المتحدة أصغر مانح للمساعدة نسبة إلى إجمالى الناتج المحلى للبلدان المُصَنعة[٥٤].

إننا أيضا أكثر المساهمين إهمالا مع المنظمات الدولية، ففى ٣١ ديسمبر عام ٢٠٠١، مثلا، كان ما يزال علينا مستحقات مدينة، واجبة الأداء للأمم المتحدة حوالى ٩٠٠ مليون دولار، حتى بعد أن دفعنا جزءا مما كنا مدينين به سابقا[٥٥]، هل هنالك ما يثير الدهشة فى إصابة حلفائنا بالتعب من كل حديثنا عن الأعباء الخاصة؟

ولكن إن قررنا بالفعل إنفاق بعض النقود، فإنه من الصعب وجود أى أحد لينفقها، والكثيرون من الذين ما زالوا موجودين، لا يستطيعون الحديث، على أية حال، مع المتلقين، فقد خفضت إدارة الخارجية، خلال العقد الماضى عدد قنصلياتها ومكاتبها عبر البحار، إن لدينا الآن عدداً أقل من القنصليات فى الصين أقل مما كان الوضع عليه عام ١٩٣٩، وما زالت الإدارة الخارجية "لمكتب المحاسبة العامة" تواجه نقصا خطيرا فى الأشخاص، فى العديد من المواقع الحاسمة، والأفراد الذين يعملون هناك، هم فى الغالب غير مؤهلين، ومثال ذلك ما وجده مكتب المحاسبة العامة فى مسح قام به

من أن ٦٢٪ من موظفي الخدمة الأجنبية المعينين في الصين، ليست لديهم البراعة اللغوية اللازمة لوظائفهم، وكذا ٤١٪ ممن يعملون في روسيا، وفي العربية السعودية لم يستطع رئيس "قسم الدبلوماسية العامة" الكلام البتة باللغة العربية، إن "وكالة معلومات الولايات المتحدة"، التي أنشئت أثناء إدارة "إيزنهاور"، بالطبع، بغرض الإخبار، عن تاريخ أمريكا في الخارج، قد تم تفكيكها عام ١٩٩٩، وقد أُنْشِئت إدارة بوش، في أعقاب ١١ سبتمير شيئا ما اسمه "مكتب الاتصالات الكونية"، واستأجرت تنفيذي إعلامي من ماديسون أفينيو لإدارته، ويظل ما سوف يكون عليه هذا المكتب مبتذلا وذكيا أم مبتذلا فقط - أمرا محل ترقب، على أية حال. يجب ألا يكون أي من هذا مثاراً للدهشة، عندما ترى أن ١٤٪ فقط من الأمريكيين يحملون جوازات سفر، وأن العديد من الجامعات لم يعد يُضَمن دراساته لغة أجنبية كضرورة للتخرج، وفي اقتراع حديث، لم يستطع ٨٧٪ من الأمريكيين تحديد موقع العراق على الخريطة(٥٦).

كان لدى أمريكا بعد نهاية الحرب الباردة فرصة مثل تلك التي جرى تخيلها، لفترة وجيزة، بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، عندما كان في وسعها أن تضع في حسبانها نظاما عالميا جديدا يقوم على مجتمع من الأمم تتشارك المسئولية بحق من أجل صيانة السلام، ومع وفاة الاتحاد السوفيتي، وتحول الصين إلى اقتصاد السوق بصورة متزايدة، مندمجة في التجارة الكونية ونظام الاستثمار، غدت الأمم المتحدة هيئة يحتمل أن تكون أكثر قابلية للعمل، كما كان هنالك وقت أيضا لمراجعة الأساس المنطقي لتحالفات أساسية مثل الناتو، ومعاهدة الأمن اليابانية الأمريكية، وكذلك بالمثل قواعد الانتشار العسكري الأمريكي في الخارج، ولم يتم القيام بشيء من هذا، وحتى تكون متأكدا، فقد هبط الإنفاق على الدفاع أخيرا، مرة أخرى إلى ٢,٥٪ من مستويات إجمالي الناتج المحلي لأواخر الأربعينيات، وتقلص حجم الخدمات العسكرية إلى حد ما، غير أنه مع الانخفاض السريع للقوات السوفيتية، وحجم نمو اقتصاد الولايات المتحدة، نمت قوات الولايات المتحدة نسبيا بصورة فعلية، إلى حد ما، وظلت أعمال الانتشار والبعثات الأساسية كما هي، وقد لاحظ صمويل هنتنجتون ميل أمريكا

لتعريف نفسها باعتبارها تقاوم تهديدات خارجية، وتبحث عن أعداء، ومع غياب أعداء محددين بعد عام ١٩٩٢، فإن الولايات المتحدة ما تزال ترى تهديدات تكفى تبرير الاحتفاظ بأكثر من ٢٠٠٠٠٠ من قواتها فى الخارج.

من الغريب على بلد رأسمالى دائم التغير، مثل الولايات المتحدة – أن يصبح "عدم الاستقرار عدوا له، إن أى تغير فى التحالفات، أو أعمال الانتشار الموجودة – يمكن أن يقود إلى عدم استقرار خطر، يتوجب تجنبه مهما كان الثمن، إن أحداث ١١ سبتمبر وظهور الحرب ضد الإرهاب، جنبا إلى جنب مع التركيز على تغيير النظام فى العراق – قد وفر أعداء جددا أقل خطرا بصورة ما، إلا أنهم ألقوا الضوء أيضا على نقطة أخرى، لاحظها إيمانويل والرستين: إن الولايات المتحدة تعتمد بشدة على ورقة واحدة من أوراق لعبة البوكر العالمية، الورقة العسكرية. إننا لا نحب التفكير فى أنفسنا باعتبارنا شعبًا محبًا للحرب، ولكن هل نتوقع أن يقبلنا الآخرون" كمحبين للسلام"، بينما نحن حقا لا نثق إلا فى الأسلحة.

الفصل السابع

شعب مسالم، وحرب بلا نهاية

توقف الرئيس بوش، فى فبراير عام ٢٠٠٢، وفى وجه توترات متصاعدة مع كوريا الشمالية، ليجرى محادثات مع رئيس كوريا الجنوبية، كيم دى جونج، بينما كان مسافرا فى الشرق الأقصى، وألقى بوش، خلال زيارة إجبارية له لقوات الولايات المتحدة، فى المنطقة منزوعة السلاح، شمالى سيول تماما، بكلمة أكد فيها بقوة: "إننا شعب مسالم"(١).

لم يكن البيان مثيرا للانتباه؛ لأنه كان حقيقيا، فالأمريكيون لا يفكرون فى أنفسهم على أساس أنهم يحبون الحرب، أو أن لهم أطماعًا إقليمية أو إمبراطورية، إن القليل من الحروب الأمريكية هى التى حظيت بحماس شعبى كبير، وقد أظهرت استطلاعات للرأى العام كيف أن الأمريكيين كأفراد لا يهتمون بما يحدث فيما وراء البحار إلا قليلا، وإن حدث وجرى استفتاء شعبى حول ما تقوم به الولايات المتحدة من انتشار والتزامات فى الخارج، فإن أكثرية الشعب الأمريكى قد صوتت ضد غالبية هذه الأشياء، ومع ذلك فإن بوش قد ألقى بحديثه ذلك فى سياق تصاعدت فيه التواترات، جزئيا على الأقل، بسبب معارضة حكومة الولايات المتحدة لسياسة "ضوء الشمس" لكوريا الجنوبية نحو الشمال، وذلك لممارسة ضغط أكبر لإجبار النظام الشيوعى المكروه على السقوط، وقد أوضح هذا الوضع وجها آخر لأمريكا، هو تحديدا أن هذا البلد لم يؤسس فقط فى ظل الحرب، لكنه كان، فى غالب الأحوال، مرتبطا على الدوام بالحرب، أو بالاستعداد للحرب، منذ مولده، رغم الطبيعة المحبة للسلام للشعب

الأمريكى، وطبقا لما لدى من إحصاءات، منذ توقيع الدستور عام ١٧٨٩، حتى اليوم، فإنه من النادر مرور عام لا تكون الولايات المتحدة فيه مرتبطة بعملية عسكرية ما، عبر البحار، إن تلك باعتراف الجميع تشتمل على عدد من المصادمات الصغيرة، وعمليات الحماية والحراسة، غير أنها تصل إجمالا إلى ٢٣٥ عملية محددة منفصلة - قد تكون من ٢٥ إلى ٣٠ عملية منها هى التى يمكن وصفها باعتبارها حربا كلية شاملة.

لقد كان الأمريكيون، حتى قبل الحرب الثورية - منهمكين فى محاربة الهنود الأمريكيين المحليين، ومنذ تأسيس البلاد، حتى إنهاء وضع الحدود، أى مدة مائة عام لاحقة، كان بالكاد يمر عام دون نزاع بين الولايات المتحدة ومختلف القبائل، كان واحد من واجبات جورج واشنطن الأولى كرئيس هو قمع ثورات الهنود فى الشمال الغربى (ثم فى أوهيو وميتشيجان)، رغم ما كان يعانيه من اضطراب بسبب ضرورة فعل ذلك، كان يأمل فى "إمكان التوقف الكلى مستقبلا للحاجة إلى عمليات القسر والإجبار"، وحث الكونجرس على تبنى نظم وقواعد محبة للإنسانية فيما يتعلق بالقبائل، وقد ناضل توماس جيفرسون أيضا مع المشكلة، وبينما كان يتفجع لمصير الهنود، عزز التوسع نحو الغرب أيضا؛ مما أحكم إغلاقه، وكان أندرو جاكسون هو من ترك بصمته بدفعه "السيمينوليين" إلى خارج فلوريدا، لم يكن يحس بوخز ضمير النبلاء، مؤمنا بأن الهنود "لا يستطيعون العيش مع مجتمع متحضر مزدهر"، وما يثير الحزن أنه أثبت صوابه، ولكن ربما لأسباب خاطئة، وفى عام ١٨٩٠ كان كل الهنود - على أية حال - قد ماتوا، أو وضعوا فى أماكن للحفظ والحجز(٢).

لقد حاربت أمريكا، بالإضافة إلى الحرب الأهلية، وحرب عام ١٨١٢ التى عززت استقلال الولايات المتحدة عن بريطانيا - نوعين من الاشتباكات مع أعداء أجانب، خلال القرن التاسع عشر، كانت هنالك حربان كاملتا العدة مع بلدان أجنبية، والعديد من الغزوات والغارات، والمصادمات والمشادات، والتدخلات فى أنحاء الكون، ناشئة عن الوعى بالحاجة لحماية الأمريكيين وتجارتهم، وكان العديد منها بمبادرة من الولايات المتحدة وحققت كلها تقريبا كسبا للبلاد، إن أمريكا المصممة على أن تكون أحادية،

حاربت دون تحالف مع بلدان أخرى، كانت الصدامات الأولى مع قراصنة دول المغاربة في شمال إفريقيا، التي رفضت الولايات المتحدة أن تدفع لهم الرشاوى، التي غدت جزءا من تكلفة ممارسة الأعمال في البحر المتوسط، وفي عشرينيات القرن التاسع عشر، كانت هنالك دوريات بحرية أمريكية في البحر المتوسط، والباسفيكي، ودوريات بحرية إفريقية، وفي جنوب الأطلنطي، تفعل كل شيء، من تأمين حقوق صيادي الفقمة الأمريكيين، في جزر فوكلاند، إلى تأديب السومطريين لسرقتهم الأفيون من التجار الأمريكيين. وكانت هنالك حوادث ثلاث ذات أهمية خاصة فيما بعد، فقد حصلت أمريكا في أربعينيات القرن التاسع عشر - على امتياز للتجارة مع الصين في شنغهاي، وبدأت عصرا من دوريات نهر اليانجتسي، تستهدف دعم فتح أسواق الصين وحماية المبشرين، ووصل العميد البحري ماثيو بيري، عام ١٨٥٢ إلى خليج طوكيو بأسطوله الشهير من "السفن السوداء"، وطلب من اليابان أن تفتح سوقها وتتحمل آلام القذف بالقنابل والغزو المحتمل، وحاول الأدميرال جون رودجرز، عام ١٨٧١ نفس الأمر لكنه حظي بنجاح أقل.

كانت الحروب الحقيقية هي تلك التي جرت مع المكسيك عام ١٨٤٦، وتلك التي مع إسبانيا عام ١٨٩٨، ثارت الحرب مع المكسيك، بعد ضم وإلحاق الولايات المتحدة لتكساس، عندما أرسل الرئيس جيمس بولك جيش الولايات المتحدة بعيدا إلى الجنوب في الأراضي المكسيكية، وكسبت الولايات المتحدة، ليس فقط تكساس، ولكن أيضا نيو مكسيكو، وأغلب أريزونا وكاليفورنيا، بأقل الضحايا، أما بالنسبة للحرب الإسبانية - الأمريكية، ردا على الوحشية الإسبانية المدعاة، بقمعها مقاتلي كوبا من أجل الاستقلال، وفي أعقاب الانفجار الغامض للسفينة الحربية "ماين" في هافانا، أرسلت الولايات المتحدة قواتها إلى كوبا، وقد دعاها جون هاي، وزير الخارجية، "تلك الحرب الصغيرة الرائعة"، وقد سقط من الولايات المتحدة مرة أخرى عدد قليل من الضحايا، وكسبت إمبراطورية تشتمل على بورتريكو، وجزر فيرجين، والفلبين وجوام، ومما يثير السخرية أن التحكم الأمريكي في الفلبين استتبعه رفض الاعتراف بـ "الإعلان الفلبيني

للاستقلال"، الذى اتخذ من النمط الأمريكى نموذجا له، وقُمع مقاتلو الفلبين من أجل الاستقلال بوحشية عالية تماثل على الأقل تلك التى استخدمها الأسبان فى كوبا، غير أن ذلك أعطانا فرصة، كما قال الرئيس ويليام ماكينلى "من أجل تنصير" الفلبينيين الذين كانوا كاثوليكيين رومانيين منذ ٣٥٠ عاما.

وقد ركز تاريخ أمريكا، خلال القرن العشرين، على ثلاثة حروب صليبية لإنقاذ العالم من العسكرية، والفاشية التى تقوم على الإبادة الجماعية، والشمولية الشيوعية، كانت الأولى بالطبع هى دخول أمريكا الحرب العالمية الأولى، ولقد طُرح للنقاش موضوع إن كان على الألمان حقا تحمل اللوم أكثر من الروس والفرنسيين والبريطانيين، غير أنه لا شك فى أن تدخل الأمريكيين أنقذ فرنسا وبريطانيا والكثير من باقى البلدان الأوربية من الهيمنة العسكرية الألمانية.

كما حدد ذلك أيضا انتقالا كبيرا فى عقلانية السياسة الخارجية الأمريكية، فبينما كانت حروب أمريكا، فى القرن التاسع عشر (باستثناء الحرب الأهلية) تدور بصورة كبيرة حول التوسع الإقليمى، وحماية طرق التجارة، أو الدفاع عن مفهوم غامض عن "الشرف"، فإن دوافعها فى الحرب الكبرى كانت أكثر مثالية، إن وودرو ويلسون، الواسع الأفق المنتمى للكنيسة المشيخية ما كان ليسمح للولايات المتحدة أن تخوض حربا من أجل مجرد كسب مادى، إن الأجدر بها هو "الحفاظ على مبادئ السلم والعدالة فى حياة العالم" و"جعل العالم ذاته فى النهاية حرا"[٣]، وإن اعتقدت أن لذلك أصداء عند بوش، فأنت على صواب، لقد دخلت المثالية السياسة الخارجية للولايات المتحدة بصورة دائمة .

لقد تأسست مثالية ويلسون فى معركته الخاسرة للحصول على تصديق مجلس شيوخ الولايات المتحدة على محبوبته "عصبة الأمم"، ففى سيناريو يمكن أن يتكرر كثيرا، قامت الولايات المتحدة بتصور خطة ودستور للعالم، وباعته له، ثم قامت الولايات المتحدة ذاتها، فى النهاية، برفضهما، إن السيناتور ويليام بوراه، والسيناتور هنرى كابوت لودج، اللذين قادا التصويت ضد العصبة فى مجلس شيوخ الولايات – قد صنفا

فى التاريخ، فيما بعد، باعتبارهما انعزاليين، وهو تعبير غدا منذ ذلك الحين يعنى الازدراء، والأصح أنهما، كما ذُكر فى الفصل الثانى، كانا أحاديين، يغيران على سيادة أمريكا، متأكدين من فضيلتهما العليا، ويشكان فى دوافع الأمم الأخرى، وإمكان التعويل عليها، كانا يعتقدان أنه من الأفضل لأمريكا أن تسير بمفردها كما سارت دوما.

إن كانت هناك حرب عادلة، فى أى وقت مضى، فتلك هى الحرب العالمية الثانية، ليس هنالك من شك فى أن أمريكا قد أنقذت العالم مما كان حقا إمبراطورية شر، كانت تلك الحرب أيضا، من أجل الحرية والعدالة وإنهاء كل الحروب، ومن ثم كان الهدف هو التسليم دون قيد أو شرط، وقد أخضعنا نحن للعقل استخدام بعض الأسلحة الرهيبة من أجل تحقيق هذا الهدف، إن الولايات المتحدة، وقد خرجت كالقوة الدولية المهيمنة عسكريا، وتكنولوجيا، واقتصاديا، صممت ألا تنكر مثالية ويلسون، وفعلت ما لم تفعله البتة من قبل، قادت إنشاء الهيئات المشتركة بالفعل، كالأمم المتحدة، وصندوق النقد الدولى، والبنك الدولى وهيئات دولية أخرى يمكن أن تُدخلها، مع بلدان أخرى، فى اتفاقيات طويلة المدى؛ مما يفقدها حرية الفعل، وقد ظلت الولايات المتحدة بالطبع هى الشريك الأعلى، ولديها قوة الفيتو الفاعلة على كل تلك الهيئات، غير أن إنشاءها مَثَّل تصورا هاما فى فكر السياسة الخارجية الأمريكية.

إن كل البلدان تسعى، بديهيا، وراء مصلحتها الوطنية، إن السؤال الحاسم هو كيف تحدد تلك المصلحة، لقد حدد هتلر المصلحة الألمانية فى هزيمة الكثير من بلدان العالم واجتثاث اليهود، وبدأت الولايات المتحدة، التى كثيرا ما ركزت على السعى المنفرد وراء حريتها هى، وسيادتها هى، بدأت الآن تحقق مصلحتها فى حدود تحسين الأوضاع الاقتصادية الكونية، وإعادة بناء البلدان التى دُمرت، وتأسيس مجتمع على أسس الحكم الكونى القانونى، وإرساء القواعد والمبادئ؛ إن الولايات المتحدة حددت، فى الواقع مصلحتها، فى حدود متجانسة مع النظام العالمى القائم على إجماع مجتمع الأمم، وكانت الولايات المتحدة متعددة الجوانب، فى ذلك الوقت،إلى حد أنها اقترحت

تحكما فى الطاقة النووية تحت إشراف الأمم المتحدة الجديدة، ربما لأول مرة فى التاريخ تدعم قوة مهيمنة، بنشاط، التخفيف من قوتها هى، وقبل أن تمضى التجربة بعيدا جدا دخلت الحرب الصليبية الثالثة القرن عنوة.

الحرب الباردة

تضاءلت القوات الأمريكية، فى أقل من عام، بعد نهاية الحرب فى ١٩٤٥، إلى حوالى ١,٥ مليون، بعد أن كانت تضم ١٥ مليون فرد، وكانت النية أن يتحقق المزيد من التقلص، لقد تم كسب الحرب، والآن حان الوقت "لعودة الأولاد إلى البلاد"، لم يكن هنالك من يخطط لإمبراطورية، وأنهت الحرب الباردة ذلك كلية.

ابتدأت الحرب مبكرا عام ١٩٦٤، بصورة جادة، فقد تحدث جوزيف ستالين، فى ٩ فبراير ١٩٤٦، معلنًا أن التعاون بين إمبريالى الغرب والشعوب المحبة للسلام فى البلدان الاشتراكية - أمر مستحيل - وأرسل الدبلوماسى جورج كينان برقيته الطويلة الشهيرة، من سفارة الولايات المتحدة فى موسكو، يشرح لواشنطن وجهة نظر قادة موسكو، من أنه لا يمكن وجود سلام دائم مع الولايات المتحدة، ولذا فإنهم يرون ضرورة تحطيم السلطة الدولية للولايات المتحدة، حتى يمكن ضمان سلطة السوفيت، وأكد كينان، فى ذات الوقت - أن السوفيت ليسوا بمخططين ولا لديهم ميل للمخاطرة، وتحدث وينستون تشرشل، فى فولتون، ميسورى، قائلا: "من ستيتين على بحر البلطيق إلى تريستا على البحر الأدرياتيكى، هبط ستار حديدى عبر القارة"، ووقع الحدث الرئيسى، فى ٢١ فبراير، عندما أعلن السفير البريطانى لدى الولايات المتحدة أن بريطانيا العظمى قد تحطمت، وليس فى وسعها الحفاظ على دعمها لحكومتى اليونان وتركيا اللتين تحاربان عصيانات شيوعية مسلحة، ولا فى وسعها مواصلة الحفاظ على العديد من مواقعها الأخرى فى الشرق الأوسط.

وواجهت إدارة ترومان قرارا هاما للغاية، هل تضع على عاتقها عباءة بريطانيا العظمى وتتحمل مسئوليات خارجية لتشكيل العالم؟ وأجاب ترومان، فى ٢١ مارس، أمام دورة مشتركة للكونجرس:

> **يجب فى اللحظة الحالية من تاريخ العالم أن تختار كل أمة على وجه التقريب ما بين طرق للحياة بديلة ... إن طريقنا فى الحياة يقوم على إدارة الأغلبية، وهى طريقة تتميز بالمؤسسات الحرة، وحكومة تمثيلية، وانتخابات حرة، وضمانات لحرية الفرد، وحرية الكلام والعقيدة، والحرية من القهر السياسى، ويقوم الطريق الآخر للحياة على إرادة الأقلية المفروضة قسرا على الأغلبية، إنه طريق يعتمد على الإرهاب والقهر، إننى أومن أنه يجب على الولايات المتحدة أن تدعم الشعوب التى تقاوم محاولات الإخضاع التى تقوم بها الأقليات المسلحة أو الضغوط الخارجية ... إننا إن ترددنا، فإننا قد نعرض سلام العالم للخطر - ويقينا سوف نعرض رفاهية هذه الأمة للخطر[٤].**

ما كان فى وسع جورج بوش أن يقولها بأفضل من ذلك، وفى تعاقب سريع اقترحت الولايات المتحدة "مشروع مارشال"، وطرحت اتفاقية "منظمة شمال الأطلنطى"، وفى أعقاب التفجير النووى الأول للاتحاد السوفيتى، تحركت صناعة القنبلة الهيدروجينية، وبدأت الولايات المتحدة، فى عام ١٩٤٩، عملية إنشاء كبرى للقوات، التى سوف تدوم حتى الحاضر.

لم تكن السياسة التى طرحها ترومان استباقية أو وقائية، لكنها كانت سياسة منع انتشار طبقا للمقدمة المنطقية "للماديسونية" القائلة: إن "القضية السيئة لا تقصر أبدا فى الكشف عن خططها الحقيقية"[٥]، غير أنها دامت طويلا، دامت مدى هائلا حتى إنها غدت أكثر بكثير من مجرد منع الانتشار. فقد أخضعت كل الأوليات الوطنية للهدف الذى طغى - هدف منع تسرب النفوذ السوفيتى والصينى، وأى شيوعيين آخرين،

أينما كانوا، إن بشارة جديدة بالأمن القومي[٦] تقود الأمة إلى عقيدة جديدة وحدت بروعة كل تقاليدها القديمة والجديدة في السياسة الخارجية. وقد غذت هذه العقيدة المشاعر الوطنية المفرطة ومشاعر نحن - ضدهم، التي لم تكن بعيدة البتة عن سطح الشخصية الأمريكية، وأقنعت البلد بأن أكثر القيم قداسة، ألا وهي "الحرية" كانت عرضة للهجوم، كما فتحت فرصة جديدة للحياة أمام النزعة الأمريكية الأحادية، التي كانت عالقة لفترة وجيزة بعد الحرب العالمية الثانية، إن الولايات المتحدة ما تزال تتحمل التزامات نحو الآخرين، وقد دخلت" تحالفات متشابكة"، لكنها تعمل دائما للحفاظ على حريتها في العمل، وقد وفرت لها عقيدة عدم الانتشار أيضا مبررا ومنطقا للسمة التقدمية للإمبريالية، التي وظفتها أمريكا في الحرب الإسبانية الأمريكية، ونزاعات أقل، وذلك بإضفاء شرعية على الحاجة إلى قواعد متقدمة - بعيدة، حولت أجزاء كبيرة من العالم إلى زبائن وعملاء للولايات المتحدة. لو جسدت الويلسونيانية مستشهدة بقيم تحررية دولية، واستخدمتها كأسلحة، خدمت في النهاية حدود التجارة التوسعية، بمعارضتها كل من الإمبراطوريات الكولونيالية والشيوعية، والدفع نحو الأسواق المفتوحة، وكما قال تونى سميت "إن الهيمنة الأمريكية قد أنشأت شكلا من الإمبريالية، المعادية للإمبريالية"[٧]. وأطلق عليها جيمس واربورج الانعزالية المقلوبة ظهراً لبطن، وقال: "إننا نرغب في أن نكون مواطنين عالميين، لكن فقط إن غدا العالم امتداداً للولايات المتحدة"[٨].

يجب ألا يكون هنالك شك في أن الحرب الباردة كانت حربا صليبية نبيلة جرت بأفضل النوايا، دون أمل في كسب مادى أو هزيمة، ضد أعداء ارتكبوا شرورا عظمى، وإن كان علينا أن نواجه نفس القرار ثانية، فيجب علينا، في تقديرى - أن نقوم بذات الاختيار دون تردد، ولكن ربما كان علينا النظر في أساليب جديدة للتطبيق، إننا ندفع الآن ثمن أخطاء جسيمة صدرت عن الجهل وجنون العظمة والثقة الزائدة في أسلحتنا وقوتنا، ليس هذا مكان تاريخ الحرب الباردة، بل الحرب الكورية، وسلسلة من

التدخلات الأمريكية التى توضح لماذا رغم كل تضحياتها، فى سبيل قضية الحرية والعدالة، ينظر إلى أمريكا فى الخارج غالبا نظرة خوف وارتياب.

الحرب الكورية

كانت أول حرب حامية فى الحرب الباردة هى الحرب الكورية، بدأت عندما قامت قوات كوريا الشمالية التى دربها السوفيت وأمدوها بالسلاح بغزو الجنوب فى يونيو عام ١٩٥٠، وبينما كان هذا الفعل العدوانى، الذى لم يصدر بسبب استفزاز أحد له - قد حدث جزئيا بسبب إغراء بيانات الولايات المتحدة وأفعالها، التى تشير إلى أن كوريا كانت خارج نطاق المحيط الدفاعى للولايات المتحدة، فإن ترومان أعلن عن حق أنه لا يمكن لهذا الأمر أن يمر دون تحد، خاصة فى سياق التهديدات السوفيتية، فى مناطق أخرى حينذاك، وقد التزمت قوات الولايات المتحدة وقاتلت بيأس من أجل وقف نزيف مد كوريا الشمالية، لقد فعلت ذلك فى سرعة، ثم قامت بهجوم مضاد بطريقة رائعة بإنزال "إنشون"(*) الشهير خلف خطوط كوريا الشمالية، وفى سبتمبر كانت قوات الولايات المتحدة قد أمنت كل كوريا الجنوبية، واحتلت الكثير من كوريا الشمالية، بما فى ذلك العاصمة بيونج يانج، وتحطم وتبعثر ما تبقى من قوات كوريا الشمالية، وكان الضحايا عند هذه النقطة ٣٦١٤ قتلى و٤٢٦٠ مفقودين و١٦٢٨٩ جرحى[٩].

وأصبحت هزيمة الكوريين الشماليين واضحة، فحذرت الصين من أن أى تقدم أمريكى إلى حدودها مع كوريا الشمالية عند نهر "اليالو"، لم يكن مثل هذا التقدم ضروريا: لقد تم كبح الشيوعيين، وكان الحلفاء متحكمين بصورة فاعلة فى كوريا، غير

(*) اسمها بالكورى عملية كرومايت من ٩/١٥ إلى ١٩٥٠/٩/٢٨ (المترجم).

أن الجنرال دوجلاس ماك أرثر، قائد القوات المتحالفة، كان يؤمن بالنصر الكامل، وكذا بالحاجة إلى استبدال النظام الشيوعى فى الصين بحكومة شانج كاى شيك الصينية الوطنية والتى كانت قد هربت منذ عهد قريب إلى تايوان، وكما أمر قوات الولايات المتحدة بالتوجه إلى كوريا، وجه الأسطول السابع كى يضع نفسه فى "مضايق تايوان"، بين الأرض الرئيسية للصين وتايوان، متدخلا فى الحرب الأهلية الصينية إلى جانب شانج كاى شيك الفاسد، وبدون اتخاذ أى قرار بالحرب مع الصين، زار ماك آرثر، تايوان، لينسق جهوده العسكرية مع محاولات شانج المتواصلة لكسب موطئ قدم على الأرض الرئيسية كما وجه ماك آرثر قوات الولايات المتحدة التى يقودها للاندفاع إلى اليالو، وكما قالوا فعلوا، وهاجمهم الصينيون، وبعد ثلاثة أعوام، وضريبة موت بلغت ٥٤٢٤٦ وجرحى ١٠٣٢٨٤[١٠]، وقوات الولايات المتحدة التى يقودها، وقد غدت غير متحكمة فى كوريا الشمالية، وانتهى الوضع إلى هدنة هشة، وإقامة منطقة منزوعة السلاح ما زال على النظام وضبط الأمن فيها مسئولية قوات الولايات المتحدة وحلفائها الكوريين الجنوبيين، ومن ثم، فإن جهلنا بعدونا، وجنون الارتياب فى شيوعية الصين، وارتباط ذلك باستعدادنا للجوء إلى السلاح لإطالة أمد الحرب، بالإضافة إلى قوائم الضحايا، أضعفت بالفعل وضع الولايات المتحدة، هنالك، أيضا، سقطات أخرى ما نزال نحس بآثارها.

لم يكن مقدرا أن يصبح الشيوعيون الصينيون عدوا كبيرا للولايات المتحدة، لقد قدموا عروضًا صديقة لرسميين من الولايات المتحدة، خلال الحرب ضد اليابان، وحاربوا بالفعل بصلابة ضد اليابانيين أكثر من قوات شانج، وكان استياؤهم من دعم الولايات المتحدة لشانج أثناء الحرب الأهلية الذى ظهر بعد هزيمة اليابان – أمرا طبيعيا، كانوا غاضبين لأن الولايات المتحدة واصلت الاعتراف ببقايا قوات شانج فى تايوان كحكومة للصين (سأتناول المزيد عن تايوان فى الفصل الثامن)، بينما اعترفت بريطانيا وغالبية دول العالم بالنظام الشيوعى فى بكين، غير أن الصين لم تكن تبحث عن القتال مع الولايات المتحدة، كانت هنالك فروق كبيرة بين الشيوعيين

الصينيين والشيوعيين السوفيت، وقد حاول بعض ضباط الخدمة الخارجية مثل جون سيرفيس وجون باتون دافيس أن يوضحا ذلك لواشنطن، ولصحافة الولايات المتحدة حينذاك، لكن تم تجاهلهما فى ظل الهيستيريا حول الشيوعية، التى استحوذت على البلد حينئذ، وسرعان ما دُمر مستقبلهما المهنى بحلول المكارثية. إن الزحف إلى اليالو قد جعل الولايات المتحدة مشتبكة، بصورة أو أخرى، بتدخل دائم فى الحرب الأهلية الصينية، وبصورة تقوم على شك وعدوانية صارمين، لم يكن من الممكن حتى السبعينيات لريتشارد نيكسون الرئيس حينذاك، أو لهنرى كيسينجر - مستشاره للأمن القومى - الاستفادة من الفروق بين الصين والسوفيت ليقوما بافتتاح الصين. ورغم التسوية المؤقتة التى حكمت علاقات الولايات المتحدة والصين حينذاك، ظلت هنالك آبار من الشك على كل من الجانبين؛ مما هدد، على نحو دورى، بالعودة إلى العلاقات العدوانية القديمة وهو الأمر الذى ما كان يجب أن يكون على هذا النحو.

أوقفت الهدنة القتال، ووطدت ديكتاتورية سيجمان رى فى السلطة، وهو الذى تدخلت الولايات المتحدة، فى كوريا الجنوبية لمساندته، ويا للسخرية، كانت هيئة العاملين معه مثقلة بالمتعاونين السابقين مع اليابانيين، ورغم أنه أنقذ الكوريين الجنوبيين من مستقبل شيوعى قاهر، سرعان ما أجرت الولايات المتحدة استفتاء، يمكن أن يُحل زمنا محل زمن آخر، ومرة أخرى حدث - خلال الحرب الباردة - انتقال من ديكتاتوريين يعتمد عليهم إلى ديمقراطيات تتسم بالفوضى، وفى عام ١٩٦٠ أطاح كوريون بـ "رى"، محاولين إقامة ديمقراطية، غير أن المحاولة باءت بالفشل؛ لأن الولايات المتحدة دعمت تولى الجنرال بارك شونج - هى السلطة، فى عام ١٩٧٩، لم تشجع الولايات المتحدة فقط انقلابا قام به الجنرال شون دوهوان، بل أذنت له أيضا باستخدام القسم "العشرين" من الجيش الكورى (الذى كان فى السابق تحت قيادة الولايات المتحدة)؛ ليقمع فى عام ١٩٨٠ ثورة للطلبة فى "كوانجو"، وقبل أن

تنتهى كان المئات من المدافعين عن الديمقراطية فى كوريا الجنوبية قد قتلوا فيما عرف باسم "مذبحة كوانجو"، وهو حدث سوف يربطه الكوريون دوما بالولايات المتحدة، وقام شون، من بين أشياء أخرى، بالحكم بالإعدام على المدافع عن الديمقراطية، منذ زمن طويل، كيم داى - جونج، بتهمة التعاون مع كوريا الشمالية، وحثت إدارة ريجان شون، على تغيير الحكم بالإعدام، وقد قامت الولايات المتحدة بالفعل بتعزيز التنمية الاقتصادية فى كوريا الجنوبية، عن طريق الترحيب بآلاف الطلاب الكوريين، وفتح أسواقها وتكنولوجيتها أمام كوريا، ونجح الكوريون المدافعون عن الديمقراطية، فى النهاية، فى أواخر الثمانينيات، فى تحقيق تغيير إلى حكومة ديمقراطية، وعاد كيم داى - جونج كلية من منفاه فى الولايات المتحدة ليكون الرئيس، إنه هو الذى قدم مبادرة سياسة "ضوء الشمس" التى تهدف إلى بث الدفء تدريجيا فى العلاقات مع كوريا الشمالية، وإكمال الروابط الاقتصادية، كوسيلة لإرخاء القبضة الحديدية لحكام بيونج يانج.

إن الأمريكيين الذين يشعرون بأن الكوريين الجنوبيين - يجحدون كل ما فعلناه من أجلهم، يجب أن يضعوا فى أذهانهم ما سبق من أحداث، عليهم أيضا أن يفكروا فيما بدأ عام ١٩٩٤، عندما أوقفت إدارة كلينتون تهديدا كوريا شماليا بصناعة أسلحة نووية، وذلك من خلال "إطار تفاهمي"، فى صفقة تقوم فيها الولايات المتحدة بإحلال مفاعلى ماء - خفيف (لا يستطيعان إنتاج بلوتونيوم مرتبة الأسلحة) ويقدمان لكوريا الشمالية نفس القدر من الكهرباء محل مفاعلين كوريين شماليين ينتجان البلوتونيوم، وكان على الولايات المتحدة أن تقدم أيضا كمية معينة من وقود النفط، كما تعهدت بعدم استخدام الأسلحة النووية فى كوريا، وفتح التجارة، وشكل ما فى العلاقات الدبلوماسية، وتعهدت كوريا الشمالية بالإضافة إلى إغلاق مفاعلاتها القديمة - أن تظل طرفا فى معاهدة حظر الانتشار (إن بى تى)، وأن تسمح للوكالة الدولية للطاقة النووية (آى إيه آى إيه) بإجراء التفتيش، وواجهت الولايات المتحدة صعوبات فى كل النقاط.

قامت بتسليم النفط، لكن ليس طبقا للجدول الزمنى، ولم تفتح أية علاقات دبلوماسية أو اقتصادية، رغم أنها قدمت بالفعل مواد غذائية كافية، حتى تبقى الكوريين الشماليين بعيدا عن المجاعة، وتخلف مفاعلا الماء الخفيف اللذان جرى الوعد بهما بعيدا عن الجدول الزمنى، وبدأ كيم، وهو يقظ لكل تلك المشاكل، يخشى احتمال انهيار كوريا الشمالية، فتغرق كوريا الجنوبية باللاجئين الجوعى - أو ما هو أسوأ، حدوث هجوم ناجم عن اليأس، فبدأ فى تقديم مساعدة اقتصادية إلى الشمال، وبقدوم إدارة بوش عام ٢٠٠١، تغيرت سياسة الولايات المتحدة من تقارب يتسم بالذبذبة إلى السعى لإسقاط النظام الشمالى، وغدا واضحا بصورة سريعة أن الكوريين الشماليين قد نكثوا بالعهد أيضا، فيما يتعلق بالصفقة، وكانوا يواصلون تطوير أسلحتهم النووية، وقد قدمت تلك الأخبار تبريرا لموقف الإدارة، فى نظر البعض، غير أن الثأر العسكرى لم يكن واردا لأن سيول كان يحتمل تدميرها فى أى حريق يشتعل، وأُجبرت الولايات المتحدة على الارتداد إلى نسخة من سياسات كلينتون - كيم، لكن مع عقبة مضافة هى مشاعر عدائية قوية لأمريكا نمت حاليا فى كوريا الجنوبية، حتى إن رئيسها الجديد انتخب على أساس مراجعة الـ "سوفا"(*).

وردا على ذلك، طالب بعض الأمريكيين، الذين يؤمنون بأن قواتنا موجودة فى كوريا، فى المقام الأول لحماية الجنوب ضد الشمال، بانسحاب الولايات المتحدة، إن على هؤلاء أن يتنبهوا إلى بيان ويليام كوهين، وزير الدفاع، فى إبريل ١٩٩٧، بأن الولايات المتحدة تنوى إبقاء قواتها فى كوريا حتى إن اتحدت الكوريتان(١١)، إن قوات الولايات المتحدة موجودة فى كوريا، بقدر كبير، لأغراض أمريكية، كما هى لحماية كوريا، إن الكوريين يعرفون ذلك، حتى لو لم يكن غالبية الأمريكيين يعرفون.

(*) اتفاقية وضع القوات (المترجم).

تدخل الولايات المتحدة: من أندونيسيا إلى العراق

تبعت الحرب الكورية سلسلة طويلة من التدخلات الأمريكية لتغيير أنظمة انتخبت ديمقراطيا، وذلك لصالح حكومات فاشستية أكثر إذعانا لرغبات الولايات المتحدة، ففى عام ١٩٥٣ لعبت وكالة المخابرات المركزية دورا رئيسيا فى طرد رئيس الوزراء الإيرانى، محمد مصدق، وإعادة الشاه، وفى عام ١٩٥٤ انتخبت حكومة، جاكوب أربينز لتحل محل حكام ديكتاتوريين دمويين من الجناح اليمينى، استمروا يحكمون جواتيمالا مدة ثلاثين عاما. لقد أُطيح بهذه الحكومة بعد شكاوى من "شركة موز شيكتيا" على أساس أن الحكومة الجديدة حكومة خطرة من الجناح اليسارى، وكانت النتيجة خمسين عاما أخرى من ديكتاتورى الجناح اليمينى الدمويين، وفى عام ١٩٥٥ شجعت حكومة الولايات المتحدة حاكم جنوب فيتنام - نجو دينه ديم - على تجاهل الاتفاقية التى تمت تسوية الحرب الفرنسية - الهندوصينية على أساسها، والتى دعت إلى انتخابات لتوحيد شمال وجنوب فيتنام، كان كل شخص يعرف أن ديم سوف يسقط أمام هوشى منه، قائد فيتنام الشمالية، ولذا وقفت أمريكا مع عدم إجراء الانتخابات، إن نظرية الدومينو، التى كانت كتاب واشنطن المقدس، كانت تقول: إنه لو ذهبت فيتنام الجنوبية إلى الشيوعية، فإن كل جنوب شرق آسيا سوف يتبعها أوتوماتيكيا، ما الذى يمكنه بالضبط جعل هذه النظرية صامدة، مسألة لم تحظ بالشرح بصورة جيدة البتة، لكنها قادت سياسة الولايات المتحدة نحو الحرب مع فيتنام الشمالية، كنا مصممين فى الحقيقة على "حمل أى عبء ودفع أى ثمن" حتى إننا صنعنا ما يبرر ذهابنا إلى الحرب، إننا نعرف الآن أن "هجوم" شمال فيتنام على المدمرة مادوكس، الذى استخدم كمبرر لقرار من الكونجرس بتفويض استخدام القوة، قد تسبب فى ضرر محدود، ووقع فقط بعد أن أطلقت مادوكس النار أولا والبقية بالطبع قضية محزنة.

فى ١١ سبتمبر ١٩٧٣ (هذا هو ١١/٩ الذى تتذكره شيلى) عاونت الولايات المتحدة فى إرسال شرر الإطاحة بحكومة سيلفادور الليندى الاشتراكية المنتخبة

ديمقراطيا، ووضع ديكتاتورية عسكرية تحت قيادة الجنرال أوجستو بينوشيه، وقد اختفى ببساطة فى ظل هذا النظام آلاف الأشخاص فى ظروف عرفها العالم فيما بعد، ظروف بربرية مروعة، إن زائير، وإندونيسيا، وجمهورية الدومينيكان، ولبنان، واليونان، والفلبين، وتايوان، وتايلاند وأفغانستان تشكل قائمة البلدان التى قلدت فيها الولايات المتحدة الحكم لديكتاتوريين، أو قدمت لهم دعما حيويا ليس هنا هو مكان مراجعة كل تلك الأحداث بالتفصيل. غير أن أربعة بلدان، تعود إلينا، تلازمنا بشكل خاص: إندونيسيا، إيران، أفغانستان والعراق.

أندونيسيا

إن أندونيسيا هى أكبر رابع بلد فى العالم، وأكبر البلاد الإسلامية، إنها تأتى كثيرا فى الأخبار اليوم نتيجة الحرب على الإرهاب، والهجمات الإرهابية فى "بالى"، كما يأتى ذكرها فى الأخبار أيضا، فى نهاية الخمسينيات وأوائل الستينيات نتيجة خوف الولايات المتحدة من أنها قد تذهب إلى الشيوعية، وأنها فى حاجة للحماية ضد الصين، وكان الأندونيسيون الصينيون أقلية صغيرة تعانى التمييز ضدها، وكانت الصين توفر بالكاد الغذاء لنفسها، وبدا مثيرا للدهشة أن يخاف أى أحد من الصينيين الذين فى أندونيسيا، لكن الحكومة كانت تخاف لأن سوكارنو، القائد الذى حصل على الاستقلال فى حرب مريرة ضد الهولنديين، رأى فى الرأسمالية نظاما يمتلك فيه الهولنديون كل شىء، والأندونيسيون لا شىء، فى بلادهم، فتبنى الاشتراكية، جنبا إلى جنب مع عدم الانحياز فى الصراع الأمريكى - السوفيتى المانوى(*)، وقد أدى هذا التطور إلى ارتعاشات خانقة على امتداد "البوتوماك"، وقامت المخابرات

(*) أحد أتباع مانى الفارسى (٢١٦-٢٧٦م) الذى دعا للإيمان بعقيدة قوامها الصراع بين النور والظلام. (المترجم).

المركزية، فى عام ١٩٥٨، بتدريب أندونيسيين منشقين ومرتزقة فى قواعد فى الفلبين، وجعلتهم يتسللون إلى أندونيسيا؛ حيث أسسوا، فى إيجاز، حكومة متمردين فى اتحاد مع بعض قادة جيش محلى منشق[١٢]، وفشلت - فى النهاية هذه المناورة، وقوى سوكارنو وضعه، وجعل من نفسه رئيسا مدى الحياة، كذلك أمم بعض ممتلكات الولايات المتحدة، وأخرج أندونيسيا من الأمم المتحدة، ولم يضطرب عندما هاجم الرعاع بعثة "المعونة الأمريكية".

وفى سبتمبر ١٩٦٥، وقعت حادثة ضبابية غيرت اللعبة كلها، تقدمت فرقة من سلاح الطيران الأندونيسى، يشك فى أن لها روابط شيوعية، وأغارت على منازل القيادة العليا للجيش، وقتلت ستة جنرالات، واستولت على محطة الإذاعة، وأعلنت أنها تنقذ البلاد من أن تستولى عليها وكالة المخابرات المركزية، وقد نجا، بصورة ما، الجنرال سوهارتو قائد الاحتياطى الاستراتيجى للجيش، وقاد هجوما مضادا، سحق به محاولة الاستيلاء على الحكم، وقد لاحظ مارشال جرين، سفير الولايات المتحدة، فى ذلك الوقت - "أن الجيش الأندونيسى يضم العديد من الناس الذين كانوا أصدقاءنا"[١٣]. وكان سوهارتو ضمن هؤلاء، وقد أمده أشخاص من السفارة بقوائم من الأسماء ساعدت الجيش على توقيع عقوبته، فى كل مكان[١٤]، وأدى حمام الدم الذى تلا ذلك إلى قتل ٢٠٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠٠ ، وفى تعاقب سريع أُعيدت ممتلكات الولايات المتحدة، ودُعى البنك الأمريكى للدخول، وحثت الولايات المتحدة صندوق النقد الدولى على توفير تسهيل ائتمانى لأندونيسيا قدره ٢٠٠ مليون دولار[١٥]، وحطم سوهارتو، خلال الاثنين والثلاثين عاما التالية كل معارضة محتملة، وأقام حكما عسكريا صارما ممزوجا بمحاباة الأقارب، وتعلمت أجيال من ضباط الجيش الأندونيسى كيفية الإبقاء على المخالفين تحت السيطرة فى المدارس العسكرية الأمريكية، وأصبحت زوجة سوكارنو وأبناؤه وبناته أثرياء ثراء خرافيا، وقد حصلوا على صناعات ورقعات عزب حقيقية ممتازة، لقد ترك الهولنديون أندونيسا دون مؤسسات، ولم يُدخل سوكارنوا أى شىء غير الجيش، ودربت الولايات المتحدة الجنود الأندونيسيين، لكنها فعلت القليل لتعزيز

مفاهيم مثل حكم القانون والديمقراطية، وفى عام ١٩٧٥، وخلال زيارة لأندونيسيا أخبر الرئيس جيرالدفورد وكيسنجر، سوهارتو أن غزوا لشرق تيمور، التى منحتها البرتغال الاستقلال حديثا، لن يلقى معارضة من الولايات المتحدة، ولم يكن مثيرا للدهشة أن تتحرك قوات سوهارتو فى الأسبوع التالى، إن المؤسسة الوحيدة التى كان يمكن أن يصدر عنها شيء مخالف، فى ذاك الوقت، كانت هى الجامع، كان الإسلام الذى تموله دولارات النفط العربى يتزايد، وكذلك تزايد انتشار الأصوليين.

وضُربت أندونيسيا، فى عام ١٩٧٧، بذات الأزمة المالية التى دمرت تايلاند، كانت الأزمة سيئة، غير أن وصفة البنك الدولى، الذى تقوده الولايات المتحدة، كانت أسوأ، طلب صندوق النقد الدولى، كشرط لتقديم قروض طارئة أساسية أن توقف أندونيسيا دعم الغذاء، وأن ترفع أسعار الفائدة، فى محاولة لحماية العملة من انخفاض قيمتها، كما أصدر توجيهاته أيضا بإغلاق العديد من البنوك، كانت الوصفات فى تعارض تام مع حاجيات الاقتصاد الاندونيسى، وللحال أغرق كل واحد ما لديه من روبايات(*)؛ مما جعل العملة تهبط بشدة رغم السقف العالى لمعدلات الفائدة، وسقط أكثر من ٢٠٪ من السكان فى الفقر بين عشية وضحاها، تقريبا، وأصبحت واشنطن قلقة، فى تلك الأثناء، من سوهارتو خاصة، وأن جيشه واصل إرهاب تيمور الشرقية، وأخيرا استدعت الأمم المتحدة القوات الأسترالية والنيوزيلندية لتهدئة الوضع الذى أوجده الجيش الأندونيسى، ومع إذعان الأساتذة المختصين فى واشنطن، وقادة حزب سوهارتو، دُفع به خارج المكتب فى مايو ١٩٩٨، وجرى هندسة تحول إلى إدارة مدنية، أجرت فى النهاية انتخابات، وبدأت فى تحقيق ديمقراطية.

وأدت التجارب السيئة للولايات المتحدة مع الجيش الأندونيسى إلى إنهاء تدريبها وبرامجها للاتصال المتبادل عام ١٩٩٨، لكن مع تطور الديمقراطية الجديدة، غدا

(*) العملة الاندونيسية. (المترجم)

واضحا أن الأحزاب الإسلامية سوف تصبح قوية حتى إن الحكومة الأندونيسية سوف تواجه المتاعب، وهى ترسى دعائم النظام، وفى أعقاب ١١ سبتمبر بدأ بعض المسئولين فى الولايات المتحدة الدفع من أجل العودة للتدريب ودعم العلاقات مع العسكريين. كنت فى ذلك الوقت تقريبا مسافرا فى أندونيسيا، وتناولت العشاء ذات ليلة مع سفير الولايات المتحدة ومجموعة من حوالى ثلاثين أندونيسيا، سياسيين، وأكاديميين، وقادة إعلاميين، وقد تأثرت بصورة خاصة بطلبهم من السفير الأمريكى عدم إعادة الارتباطات العسكرية، وأكدوا "أن ما نريده هو تدريب عُمد وضباط شرطة، وقضاة ومدرسين، وليس تدريب جنود"، كما طالبوا أيضا الولايات المتحدة أن تتحمل عناء فهم احتياجاتهم، وبعد عدة أشهر تجددت على أى حال بعض الارتباطات العسكرية، وعندما التقيت بمسئول أندونيسى عالى المقام فى واشنطن، قال فى يأس إن الولايات المتحدة تنظر إلى أندونيسيا عبر منشور الإرهاب فقط، قال: "إنهم يودون منا أن نوقف غسيل الأموال، ولكن كيف يمكن فعل ذلك بينما نحن عاجزون حتى عن جمع الضرائب".

وبعد أشهر قليلة، قتل تفجير إرهابى لنادى ليلى عدة مئات من السياح؛ مما أوضح حاجة أندونيسيا إلى مواجهة الإرهاب جنبا إلى جنب مع حاجاتها الأخرى، ومع ذلك تردد الإندونيسيون فى العمل لأن الكثيرين منهم كانوا يؤمنون بأن عملية التفجير تلك قد نظمتها الوكالة المركزية للمخابرات كوسيلة لحث الرئيس، ميجاواتى سوكارنو بوترى، لاتخاذ إجراءات صارمة ضد النشاطات الإسلامية، وقد قال عضو برلمانى، فى حزب ميجاواتى: "سوف يكون فى مقدور الشرطة فقط تحديد الفاعلين فى الواقع، لكنها لن تكون قادرة على الكشف عن العقل المدبر وراء الهجوم، غير أننى أعتقد أن وكالة المخابرات المركزية متورطة فى هذه القضية[١٦]"، وقد ردد آخرون لهم أهميتهم وجهة النظر هذه، قائلين: إن هنالك احتمالاً أن تكون مخابرات أجنبية قد نظمت هذا الهجوم بغرض خلق "صورة معينة عن أندونيسيا"، بدا الأمر للأمريكيين جنونيا، لكن من الذى يستطيع لوم الأندونيسيين بالنظر إلى خبرتهم السابقة بوكالة المخابرات المركزية، والتلاعب الأمريكى؟

إيـــران

قاد محمد مصدق عام ١٩٥١ حركة سياسية إيرانية، عُرفت باسم الجبهة الوطنية، كان وطنيا غيورا فلعب دورا كبيرا فى دفع السوفيت خارج إيران الشمالية بعد الحرب العالمية الثانية، والآن اقترح وهو رئيس لجنة برلمانية معنية بصناعة النفط - أن تدفع "شركة النفط الأنجلو إيرانية" رسم امتياز قدره ٥٠٪ من أرباحها، وكان هذا مماثلا للتسويات بين شركات النفط الكبرى والعربية السعودية وفنزويلا، لكنه كان أكثر مما تدفعه الشركة، ورفضتها الأنجلو إيرانية، التى كان نصفها مملوكا للحكومة البريطانية، مع ترتيبات تسويق خالصة مع "أكسون" و"موبيل"، اللتين كانتا تحتكران إمدادات الشرق الأوسط، ولم يكونا يسمحان بأن يغير الإيرانيون الصفقة، وحث مصدق حينئذ البرلمان على تأميم الشركة، حركة لاقت قبولا عاما وجامحا عند الشعب الإيرانى، غير أن شركات النفط الكبرى فرضت الحصار على إيران، ورفضت شراء أو تسويق النفط الإيرانى، وعلقت الوضع على نوع ما من التسوية، وحاول مصدق بيع نفطه مدة عامين دون نجاح، وهبط الاقتصاد الإيرانى، ومارست الولايات المتحدة ضغطا على إيران بقطع المعونة عنها، رغم أنها كانت تواصل قضية ضد احتكار النفط محليا، إن إيران وقد عجزت عن بيع نفطها، وتخبطت أحوالها المالية، بدأت تستدير إلى السوفيت طلبا للعون، كان المتوقع بالنظر إلى تاريخ الولايات المتحدة أن تقف صفا واحدا مع الوطنيين الإيرانيين ضد الإمبرياليين البريطانيين، غير أن الخوف من النفوذ الشيوعى فى إيران علا فوق كل اعتبار، ونظمت وكالة المخابرات المركزية انقلابا، وثورة رعاع فى طهران، وأعادت سلطة الشاه ريزا هليفى إلى عرش الطاووس، وتسلم للحال من واشنطن منحة قدرها ٤٥ مليون دولار لمساعدته فى إعادة تثبيته[١٧]، و٨٥٠ مليون دولار أخرى خلال الست السنوات التالية جنبا إلى جنب مع مساعدة وكالة المخابرات المركزية والموساد فى تنظيم وتدريب السافاك المروع، وهو الشرطة الإيرانية السرية[١٨].

وقد رد الشاه هذا العطف بأن لعب دوراً أساسيا فى أول رفع لسعر نفط الأوبك فى اجتماع طهران عام ١٩٧١؛ مما وضع أساس قاعدة الحظر ومضاعفة الأسعار أربع مرات فى عام ١٩٧٣ - ١٩٧٤، والآن ومع النظر فجأة إلى النفط كسلعة استراتيجية، ومع تخفيض البريطانيين المطرد لوجودهم فى الخليج الفارسى، بدأت واشنطن تحس القلق، فيما يتعلق بالمحافظة على استقرار المنطقة، وحيث إنها لم تكن راغبة فى نشر قوات عسكرية أمريكية كبيرة، فقد استدارت إلى صديقها القديم، وثرى البترول الآن، الشاه باعتباره المحتمل القادر على التنفيذ الإقليمى، وأحب الشاه الفكرة، وطلب معدات عسكرية من الولايات المتحدة بمبلغ قدره ٨٠ مليار دولار (بسعر دولارات اليوم)[١٩]،بدا الأمر وكأنه صفقة كبرى، أصبح الشاه عميل أمريكا فى الخليج، وحصلت الولايات المتحدة على صفقات بيع الأسلحة، يضاف إلى ذلك قول وكالة المخابرات المركزية من أن "مددا متواصلا ومتناميا من نفط إيران يبدو مؤكدا، مثل أى شىء آخر فى عالم بلا يقين"[٢٠].

كانت وكالة المخابرات المركزية، التى كتبت تلك الكلمات الباعثة على الراحة، لا بد أن تعى (وإن كانت لا تعرف بصورة خاصة) أن انفجارا كان يستفحل فى إيران؛ لأن شعبها المسلم الورع أصبح مستاء، بصورة متزايدة من وحشية الأمريكيين الذين يدعمونه، وحدث فى عام ١٩٧٩ أن قاد آية الله الخومينى ثورة قوية أطاحت بالشاه، وطردت الأمريكيين، الشيطان الأعظم، وقبضت على سفارتهم والعاملين بها، وأسست جمهورية إسلامية باسم الله.

والآن على الولايات المتحدة أن تقلق من الإسلام الإيرانى الراديكالى ونفوذه المعادى لأمريكا فى الخليج الفارسى الجديد غير المستقر، تماما مثل الوضع الإسرائيلى - الفلسطينى، الذى يتعقد بصورة متزايدة، وعندما قام الديكتاتور العراقى صدام حسين بغزو عبر المجرى المائى شط العرب، ثم حقول النفط الإيرانية، فى سبتمبر ١٩٨٠، رحبت الولايات المتحدة بالهجوم باعتباره شيئا ما أرسلته العناية الإلهية، كما سأتناول فى إيجاز.

أفغانستان

تبدأ قصة أمريكا وأفغانستان ليلة ٢٧ ديسمبر ١٩٧٩، عندما قعقعت الدبابات والمدفعية وعربات النقل السوفيتية تحمل حوالى ١٠٠٠٠٠ من القوات إلى أفغانستان لتدعم نظاما شيوعيا مترنحا أشبه بالدمية، وقد فُسر هذا الغزو فى واشنطن، فى أعقاب سقوط الشاه وصعود آيات الله، ليس باعتباره مسيرة كارثية فى رمال متحركة، ولكن باعتباره تهديدا لمصالح الولايات المتحدة الحيوية، لقد خطا السوفيت خطوة نحو الخليج الفارسى ومضايق هرمز، التى يبلغ عرضها ٣٠ ميلا، ويضيق ممر الإبحار فيها إلى حد أن ناقلة بترول كبيرة غارقة يمكن أن تسد القناة التى يمر عبرها ٦٠٪ من النفط الذى تستخدمه الولايات المتحدة، وأوربا واليابان، وقد وصف الرئيس جيمى كارتر، فى حديث أُذيع فى التلفاز الوطنى، الغزو السوفيتى بأنه الأزمة الأخطر منذ الحرب العالمية الثانية، لم يكن واضحا سبب قوله ذاك؛ حيث لو أراد السوفيت وقف الملاحة حقا عبر المضايق لكانوا ببساطة أرسلوا غواصة كى تغرق ناقلة بترول، لكن دعك من هذا، فقد كان ذلك هو وقت مؤتمرات الحجرات حول الوضع المتوتر، والمشاورات الدولية على مستوى عال.

لم يكن هنالك من سبيل للولايات المتحدة للتورط مباشرة مع القوات السوفيتية – كان احتمال التصعيد احتمالا خطرا للغاية، وكان للمشكلة من حسن الحظ حل أكثر يسرا، كانت أفغانستان بجبالها الوحشية وشعبها الجامح – مقبرة الجيوش منذ زمن الإسكندر الأكبر حتى زمن الملكة فيكتوريا، إن الأفغان الذين لم يهزمهم الأجانب قط، لم يعودوا يرحبون بالقوات السوفيتية، كما لم يرحبوا بالآخرين، لقد بدؤوا الرد بالحرب على نمط العصابات مستخدمين كل شيء من الفئوس إلى بنادق الأنفيلد، بنادق القرن التاسع عشر؛ حيث كانت النفس أكثر من راغبة، لكن الأسلحة كانت ضعيفة.

كانت تلك مشكلة يمكن لواشنطن أن تواجهها بسهولة، كما كان فى وسعها المساعدة فى الجانب الروحى، كان يحفز الأفغان، بالإضافة إلى رفضهم العنيف للأجانب، عقيدتهم الإسلامية، التى لم يكن ينكرها فقط الشيوعيون الملحدون من الاتحاد السوفيتى، لكنهم كانوا يشوهونها أيضا، وقد بذلت الولايات المتحدة جهدا فى اتحاد مع باكستان؛ لتعزيز مقاومة المجاهدين المسلمين فى مواجهة السوفيت، بدأ الأمر بشحنات أسلحة محدودة فى يناير ١٩٨٠، وأخيرا أنفقت الولايات المتحدة ٥ مليار دولار على أسلحة للأفغان، بما فى ذلك صواريخ مضادة للطائرات تطلق من الأكتاف، وبنادق مقاومة للدبابات[٢١]، وطبعت آلاف الكتب المدرسية، وكتيبات التدريب، المزودة بالصور للطلبة الإسلاميين المناضلين وهم يهاجمون الأهداف السوفيتية، وأقاموا قواعد تدريب فى باكستان للمقاتلين الإسلاميين فى العربية السعودية، وأماكن أخرى، وقد اندفع هؤلاء أفواجا للدفاع عن العقيدة بالحرب مع الأفغان، وكان من بين هؤلاء أسامة بن لادن، واستجابت الحكومة السعودية أيضا لنداء واشنطن للمساعدة المالية، واضعة فى اعتبارها ألا يحتاج المقاتلون الأفغان إلى التمويل.

وغدت أفغانستان بالنسبة للسوفيت جرحا داميا هائلا، نالوا فيها ما يكفى، بعد عشر سنوات، فانسحبوا فى فبراير عام ١٩٨٩، كمقدمة لانهيار الاتحاد السوفيتى ذاته، وفرقعت سدادات زجاجات الشمبانيا فى البيت الأبيض، وفى المقر الرئيسى لوكالة المخابرات المركزية فى لانجلى، فرجينيا، كانت تلك الحرب نجاحا تكتيكيا كبيرا، حتى إن كانت غير ضرورية.

لكن الاحتفال كان مبتسرا، قاد النصر، بدعم من باكستان والولايات المتحدة، ضمنا على الأقل، إلى نظام طالبان القمعى الذى ينتمى إلى القرون الوسطى، فى أفغانستان، كذلك أمد المقاتلين الإسلاميين العرب بالثقة، فعزوا نصرهم على واحدة من القوتين العظميين إلى تدخل إلهى، إنهم والله معهم لن يعجزوا عن فعل أى شىء، بما فى ذلك هدم القوة العظمى الأخرى.

وبعد عامين، فى أعقاب حرب الخليج عام ١٩٩١ (فيما بعد بكثير) كان هنالك ثلاثون ألف جندى من الولايات المتحدة فى العربية السعودية، كان الكثيرون منهم يقيمون فى القاعدة الكبرى "للأمير سلطان" جنوب الرياض، عاصمة السعودية، وقد أثار وجودهم، الذى بدا على ما يعتبره الكثيرون من المسلمين أرضا مقدسة، غضبا حادا بين المقاتلين الإسلاميين، ورغم أن أسامة بن لادن كان سليل أسرة سعودية ثرية، فإنه رأى فى الملكية السعودية وحكومتها عقبتين فاسدتين أمام طهارة الإسلام واستعادة أمجاد الثقافة القديمة، كانت الولايات المتحدة هى سند الحكومة السعودية ودرعها، كما يرمز إليها ذلك الوجود الهرطقى للقوات الأمريكية فى بلد مولد محمد، وصمم على ضرورة رحيل هذا الشيطان الثانى من القوى العظمى أيضا، وأنه بوجود الله إلى جانبه سوف يحقق ذلك، وولُدت القاعدة، وحفرت اسمها فى صفحات التاريخ فى ١١ سبتمبر.

العــراق

كان صدام حتى عام ١٩٨٠ معروفا بأنه شخصية غير مستساغة تماما، وكانت إدارة الخارجية قد وضعت العراق عام ١٩٧١ على قائمة الدول التى ترعى الإرهاب، وفى أواخر صيف ١٩٨٠، تم احتجاز ٥٠٠٠ عراقى كردى، لم يرهم أحد بعد ذلك مرة أخرى، وكتبت "إندبندانت لندن": إنهم قتلوا فى تجارب غاز وأسلحة كيميائية[٢٢]. كانت هذه الحادثة متناغمة مع وثائق "وكالة مخابرات دفاع الولايات المتحدة"، التى كانت تقول بحصول العراق على أسلحة كيميائية منذ منتصف السبعينيات[٢٣]، لكن هذا لا يبعث على القلق، فالذين يقتلون هم فقط الأكراد والمتعصبين الإسلاميين الإيرانيين. يضاف إلى ذلك أن الحرب لا بد سوف تنتهى سريعا، لأن غالبية الأسلحة الإيرانية، مأخوذة من الولايات المتحدة، زمن الشاه، وهى الآن عاجزة لافتقادها قطع الغيار، غير أن الإيرانيين قاتلوا بهجمات من أمواج بشرية، وفى عام ١٩٨٢ لم يدفعوا بالعراقيين فقط خارج العراق، بل كانوا يندفعون إلى داخل العراق، وأمر الرئيس ريجان، وقد

خاف الآن من تهديد "جيش الله" أن يطيح بصدام، ويستولى على حقول النفط العراقى، أمر إدارته للدفاع ووكالة المخابرات المركزية بإمداد العراق بالمخابرات العسكرية بما فى ذلك صور القمر الصناعى الجاسوس الخاص بالولايات المتحدة، وبالأسلحة الكافية لضمان ألا تخسر الحرب، ولفتح الطريق أمام معونة الولايات المتحدة العسكرية، ورفع العراق من قائمة الدول الراعية للإرهاب رغم أن الإدارة الخارجية كانت تفيد بوجود دعم عراقى قوى لمجموعات إرهابية[٢٤]، وفى نوفمبر عام ١٩٨٣ عرف جورج شولتز وزير الخارجية أن قوات العراق كانت تستخدم، على وجه التقريب أسلحة كيميائية يوميا[٢٥].

ورغم ذلك، أرسلت الولايات المتحدة، فى ١٩ ديسمبر - دونالد رمزفيلد - مندوبا عنها إلى بغداد ليخبر صدام بنية الإدارة استئناف العلاقات الدبلوماسية مع العراق، كذلك نقل رمزفيلد رسالة من إسحق شامير، رئيس الوزراء الإسرائيلى يعرض فيها المساعدة فى الحرب ضد إيران[٢٦]، وخلال السنوات التالية أعادت الولايات المتحدة فتح سفارتها فى بغداد، وأرسلت وكالة المخابرات المركزية ضباطا عسكريين من الولايات المتحدة لمساعدة العراق فى مختلف أوجه جهوده الحربية، وشحنت فى مايو عام ١٩٨٦ دفعتين من "عصية الجمرة الخبيثة" جنبا إلى جنب مع شحنتين من "الجراثيم السامة" إلى وزارة التعليم العالى العراقية[٢٧]، وقد علمت مخابرات الولايات المتحدة، فى ذات الوقت تقريبا، بجهود العراق لصناعة صواريخ باليستية، لكن هذا لم يحل دون صادرات كمبيوتر، مرتبط بتطوير الصواريخ، من الولايات المتحدة إلى مركز البحوث العراقى.

ونقفز رأسا إلى عام ١٩٨٨ لنجد أن الإدارة التجارية للولايات المتحدة قد رخصت فى يناير وفبراير بتصدير معدات إلى العراق لبرنامجها الصاروخى سكود، بينما استخدمت فى مارس "طائرات الهليوكوبتر - بل"، التى أمدتها بها الولايات المتحدة فى رش كيميائيات قاتلة على الأكراد العراقيين، سكان قرية "حلابجا"؛ مما تسبب فى موت خمسة آلاف شخص[٢٨]، وردا على التقارير المتزايدة عن استخدام العراق للأسلحة

الكيميائية خلال الصيف، قال الوزير شولتز: لم يكن هنالك دليل مقنع، وكتب ريتشارد مورفى مساعد وزير الخارجية أن "العلاقات الأمريكية العراقية هامة لأهدافنا السياسية والاقتصادية بعيدة المدى، إننا نؤمن أن العقوبات الاقتصادية لن تكون مجدية أو مضادة للإنتاجية فى تأثيرها على العراقيين"[٢٩]، وفى سبتمبر أقر مجلس الشيوخ بالإجماع قانون ١٩٨٨؛ لمنع الإبادة الجماعية جاعلا العراق غير جديرة بالحصول على قروض من الولايات المتحدة، وأية مساعدة عسكرية أو غير عسكرية، كما جعل أيضا استيراد النفط العراقى غير مشروع، غير أن إدارة ريجان بذلت مجهودا كبيرا لتقتل مشروع، القانون فى مجلس النواب، ونجحت[٣٠]، وفى مارس عام ١٩٨٩ أخبر ويليام وبيستر، مدير وكالة المخابرات المركزية، الكونجرس – أن العراق هو أكبر منتج للأسلحة الكيميائية فى العالم[٣١]، غير أن ذلك لم يمنع الصدور المتواصل لرخص تصدير معدات ثنائية الاستخدام إلى العراق، وقد وافقت إدارة بوش الأولى، منذ عهد قريب فى يوليو ١٩٩٠ على مبيعات بحوالى ٥ مليون دولار، من معدات تكنولوجيا متقدمة إلى مراكز البحوث العراقية، وهى المعروفة بانغماسها فى تطوير الأسلحة الكيميائية والنووية[٣٢]، وكان واضحا أيضا أن صدام قد قرر فى يوليو الحرب على الكويت، وقبل أن يتحرك حاول أولا أن يعرف كيف سيكون رد فعل الولايات المتحدة، فتقابل فى ٢٥ يوليو، مع إبريل جلاسى، سفيرة الولايات المتحدة، التى زعمت له أن الرئيس بوش "يريد علاقات أفضل وأعمق، وأنه ليس لدينا فكرة عن النزاع العربى – العربى مثل الاختلاف على الحدود بينكم وبين الكويت"[٣٣]، وتبع ذلك فى أغسطس، الموافقة على بيع ما قيمته ٧٠٠٠٠٠ دولار أمريكى تقريبا من أدوات نقل البيانات المتقدمة إلى العراق[٣٤]، وفى ١٢ أغسطس اقتحمت القوات العراقية الحدود إلى داخل الكويت.

تصور دهشة صدام، عندما ردت الولايات المتحدة على عدوانه، وتشبيهه بهتلر، وتنظيم ائتلاف كونى، والقيام بعملية عسكرية، عُرفت باسم "عاصفة الصحراء" لوقفه تحت رعاية الأمم المتحدة، وعليك أن تتخيل أيضا ما الذى فكر فيه بالضرورة عندما

أوقفت قوات الائتلاف تدميرها لجيوشه فى ٢٧ فبراير ١٩٩١ تنفيذا لأوامر بوش، بل وأكثر من ذلك، تصور تفكير صدام عندما لم تفعل الولايات المتحدة وقوات ائتلافها شيئا لوقفه من استخدام طائرات الهليوكوبتر التى أمدته بها الولايات المتحدة كسفن حربية ليضع حدا للثورة التى حرض عليها الائتلاف كلا من الأكراد الشماليين والشيعة الجنوبيين، إن سبب هذه الخيانة التى اتسمت بالجبن كان واضحا، إنه خوف الائتلاف من أن انهيار نظام صدام يمكن أن يقوى النفوذ الإيرانى فى المنطقة، وبذا استمر صدام حيا؛ لأن الائتلاف كان ما يزال يحتاجه كدرع ضد "آيات الله"، كذلك بقت القاعدة الجوية الهائلة قاعدة الأمير سلطان ومنشآتها الإشرافية حية، مع الآلاف من قوات الولايات المتحدة التى كانت إدارة بوش قد وضعتها فى العربية السعودية باعتبارها القاعدة الأجنبية الكبرى الأولى فى هذا البلد، إن هذا الوجود ذاته هو الذى أثار أسامة بن لادن، فعاد ليزعجنا فى ١١ سبتمبر وما بعد ذلك، وقد طلب قرار الأمم المتحدة ٦٨٧، بعد انتهاء حرب الخليج، من صدام تدمير أسلحته الكميائية والبيولوجية، وبالمثل معدات تطوير الأسلحة النووية، وأن يسمح بالتحقق الخارجى من أنه قد نفذ ذلك بالفعل، وأقيم نظام للتفتيش تقوم به الأمم المتحدة جنبا إلى جنب مع مناطق مُنع الطيران فيها فى شمال البلد وجنوبه، فى جهد متأخر لحماية الأكراد والشيعة ولم تنجح أعمال التفتيش البتة نجاحا تاما فى العثور على كل الأسلحة وتدميرها. وفرضت الأمم المتحدة؛ ردا على عدم التعاون العراقى عقوبات اقتصادية أدت إلى إفقار الكثيرين من السكان العراقيين، لكنها لم تحطم المزيد من الأسلحة، كما تمت تسوية أعمال التفتيش أيضا بإدخال عملاء مخابرات الولايات المتحدة، وكذا بالمثل الزيادة التدريجية للعوائق العراقية، التى لم يفد تجسس الولايات المتحدة إلا فى جعلها منطقية، وكانت الولايات المتحدة منفردة تطلق من وقت إلى آخر صاروخ كروز على المواقع التى تشتبه فى وجود أسلحة عراقية بها، ولكن حدث وأُبعد جمع المفتشين فى عام ١٩٩٨ وظلوا بعيدا عن العراق مدة أربع سنوات.

أثارت أحداث ١١ سبتمبر قلقا من أن سياسة وقف الانتشار، ربما لم تعد صالحة، إذا كان هنالك تحالف بين صدام والمجموعات الإرهابية، التى يمكن للعراق فى ظلها أن تنقل أسلحة الدمار الشامل إلى "القاعدة"، وسلطت إدارة بوش الجديدة التى احتوت العديد ممن احتفظوا بمفاهيمهم من إدارة بوش القديمة، سلطت الضوء بسرعة على صدام، وضرورة تغيير نظامه على أساس أن تحطيم نظام طالبان، فى أفغانستان، فى طريقه إلى النهاية، صدام يجب أن يذهب، هكذا قالوا لأنه استخدم من بين أشياء أخرى الأسلحة الكيميائية ضد الإيرانيين، بل وحتى استخدم الغاز مع شعبه هو. بدا واضحا للغاية أن مثل هذا المثل الردىء يجب التخلص منه، حتى إن كبار مسئولى أمن إدارة بوش، قالوا له: ليس هنالك حاجة لدعم من الكونجرس للقيام بفعل كهذا، وأخذ دونالد رمزفيلد نفس الرجل الذى سأل صدام، متوسلا عام ١٩٨٣، إن كان هنالك المزيد الذى يمكن أن تقدمه له الولايات المتحدة، يحث الآن وهو وزير للدفاع على هجوم فورى منفرد للولايات المتحدة، لتزيح هذه الشوكة من جانبنا بأسرع ما يمكن، وأدعى كأساس للهجوم ذريعة انتهاك العراق لقرارات التفتيش التى صدرت عن الأمم المتحدة، واتفاقية إنهاء أعمال العدوان عام ١٩٩١ وجادلت الإدارة بأن التهديد كبير حتى إنه يقتضى حربا استباقية، وردا على احتجاج كونى عنيف ضد مثل هذه الحركة، وكذا بالمثل معارضة محلية حقيقية، سعت الإدارة للحصول على القرار ١٤٤١، وحصلت عليه بتصويت إجماعى من مجلس الأمن، كما ذكر فى الفصل الأول، وقد طالب هذا القرار صدام بتقديم بيانات كاملة عن كمية أسلحة الدمار الشامل، وأماكن وجودها، وأن يجعل معلوماته متاحة حتى يتحقق منها فريق جديد من مفتشى الأمم المتحدة.

وقد عكس الاحتجاج العنيف عددا من الهموم، كانت هنالك فى الولايات المتحدة، معارضة شعبية كبيرة للذهاب إلى الحرب منفردين، ودون دعم من الأمم المتحدة، وكان هنالك فى الخارج خوف متنام من القوة الأمريكية مطلقة العنان، وأحس كثير من المراقبين فى كل من الداخل والخارج أن العراق كان تهديدا أقل مما تحث عليه الإدارة؛

إذ ليس لديه أسلحة نووية أو صواريخ باليستية، والدليل على روابطه بالقاعدة ضعيف للغاية، كان هنالك قلق أيضا من أن غزو العراق سوف يسبب مشاكل أكثر مما يقدم حلولا، مثيرا اضطرابا كبيرا فى المنطقة، وربما فى العالم الإسلامى الأكبر، كما يقتضى احتلالا طويلا ومكلفا.

كانت البلدان العربية والإسلامية تؤمن - بشكل خاص - أن موقف الولايات المتحدة - كان مثالا آخر على المعايير الغربية المزدوجة، وهو قد وضع عربة العراق أمام حصان إسرائيل وفلسطين، لماذا من غير المقبول تجاهل العراق قرارات الأمم المتحدة، لكن ذلك حسنا تماما إن فعلت إسرائيل هكذا؟ لقد قالوا قبل الهجوم على العراق: إنه يجب القيام بجهد حقيقى لحل الموضوع الإسرائيلى - الفلسطينى، حتى إن كانت هنالك، فى النهاية، ضرورة للهجوم على العراق، لا ينظر إليه فى العالم الإسلامى باعتباره هجوما على الإسلام لصالح المحتلين الإسرائيليين للضفة الغربية وغزة[٣٥]، وفى مواجهة مثل ذلك النوع من الهجوم، كان تطبيق القرار ١٤٤١ مثيرا للنزاع بصورة رهيبة، وتقدم باول بطلب إلى مجلس الأمن لإصدار إنذار إلى صدام، عندما أوضحت النتائج النهائية أنها دون الإذعان العراقى التام، وبدلا من ذلك قدمت عدة بلدان بقيادة فرنسا وألمانيا خططا من أجل أعمال تفتيش مكثفة، غير أن الولايات المتحدة رفضتها. وعندما جرت محاولة تسوية فى مجلس الأمن وفشلت أصبح المؤكد هو تصميم الولايات المتحدة على الحرب منفردة، وفى صدام مع الآخرين من أنحاء العالم.

وكملاحظة أخيرة، فى هذا الجزء من الحكاية، فى إيران؛ حيث خشيت الولايات المتحدة أن تطأها مدة عشرين عاما، كان حكم "آيات الله" يترنح فى وجه المطالبات بالحرية من محبى الإنترنت، وشباب الجمهورية الإسلامية، الذى يغنى الروك، كما فى فيتنام تماما، كلما بعدت قواتنا وبنادقنا، كلما أحبونا أكثر.

الفصل الثامن

تأرجح الكلب: حكايتان

لقد ترددت طويلا قبل أن أبدأ الكتابة؛ لأن موضوعات هذا الفصل هي موضوعات ذات نشاط إشعاعي سياسي، غير أنه لا يمكن تجنب الأهمية الكبرى لإسرائيل وتايوان، لكل من السياسة الخارجية الأمريكية، وللمدارك الخارجية للولايات المتحدة، ورغم أن عددهما ضئيل للغاية - ٦,٢ مليون و٢٢ مليون على التوالي - فقد أحسست في غالب الأحيان أن خلافات أمريكا مع العالم يمكن تناولها، إلى حد كبير، في أربع كلمات: إسرائيل، تايوان، الدين، جماعات الضغط.

إسرائيل

لا يوجد موضوع تختلف فيه وجهات نظر الولايات المتحدة فعليا مع كل البلدان الأخرى، أكثر من ذلك الذي يدور حول إسرائيل ونزاعها الذي لا ينتهي مع الفلسطينيين، ولا يوجد أكبر منه مصدراً للعزلة بيننا وبين الآخرين، وأصبح الاختلاف واضحا للغاية في ربيع وصيف ٢٠٠٢، عندما أمر آريل شارون رئيس وزراء إسرائيل جيشه - أن يقوم بأعمال انتقامية في غزة والضفة الغربية؛ ردا على تصعيد التفجيرات الانتحارية الفلسطينية، وقد أثار ما سببه من دمار ضجيجا عالميا، ورغم تحدي رئيس الوزراء للطلبات الرئاسية المتكررة بانسحاب إسرائيلي، فإن بوش قال: إنه يواصل دعمه لشارون، وأطلق عليه اسم "رجل السلام"، وفي ٢٤ يونيو ألقى الرئيس حديثا.

عامرا بالتوقع دعا فيه إلى إقامة نهائية لدولة فلسطينية إلى جوار إسرائيل، غير أنه جعل هذا الحدث مرهونا بوقف الهجمات الإرهابية، وعلى إجراء الفلسطينيين لانتخابات لاختيار قيادة جديدة، القادة الحاليون (مثل ياسر عرفات) يشتبه فيهم كإرهابيين، ورغم أن الحديث أشار، بالمناسبة إلى انسحاب إسرائيلى، نهائى، فإنه كان واضحا أن المسئولية تقع على الفلسطينيين للتغيير، إن شاءوا مساعدة الولايات المتحدة لتعزيز عملية السلام، واصطف قادة الكونجرس وراء الرئيس، ويقول ريتشارد جيفاردت القائد الديمقراطى: "سوف نقف مع إسرائيل"، ويقترح ميتش مك كونيل، السيناتور الجمهورى إصدار تشريع يصنف، منظمة التحرير الفلسطينية، رسميا، كمجموعة إرهابية، وأنهى الرئيس حديثه نهاية ذات مغزى، بفقرة من الكتاب المقدس "لقد وضعت أمامك الحياة والموت، ومن ثم، اختر الحياة".

إن بوش وهو يستخدم مرجعا توراتيا إنما يعكس تفكير غالبية الأمريكيين الذين تجسدت آراؤهم بقوة عن إسرائيل وفلسطين من "العهد القديم" أو قصة "التوراة" عن الأرض التى وعد الرب بها اليهود، إن الأمريكيين مسيحيون ويهود يميلون إلى النظر إلى إسرائيل كورثة لذلك العرف، مع حق تاريخى قديم فى أرض إسرائيل الحالية، على الأقل، وربما فى أى شىء آخر تضمنته الخريطة التوراتية.

كما يرى الأمريكيون أيضا أن إسرائيل جملة أشبه بأمريكا - أمة مهاجرة، ملاذ للمقهورين، مجتمع من المستوطنين الرواد، بلد قوى وشجاع يرغب فى القتال من أجل الحق، ديمقراطية يحكمها القانون (الوحيدة هكذا فى الشرق الأوسط) وواحة من مستهلكى الثقافة الغربية، بطريقة أو أخرى، فى صحراء معزولة، وهنالك بالطبع أيضا العديد من الأمريكيين فى إسرائيل، إن الارتباطات وثيقة بما يكفى حتى إن إسرائيل بالنسبة للكثيرين من الأمريكيين شىء ما مثل الولاية الحادية والخمسين. إن الهجمات الإرهابية تتناولها وسائل الإعلام، فى الولايات المتحدة بصورة واسعة، وسرعان ما تقارن، كما جاء فى حديث بوش بهجمات القاعدة على "المركز التجارى العالمى" والبنتاجون، رتفسر باعتبارها تهديدا موجودا بالفعل، إن وسائل الإعلام فى الولايات

المتحدة حساسة للغاية، فيما يتعلق بالنقد الذى توجهه إسرائيل لأعمال التغطية التى يقومون بها، حتى إن سى إن إن، اعتذرت بالفعل فى أول موقف تاريخى لها؛ استجابة لشكاوى من أن تقاريرها عن المعارك الإسرائيلية الفلسطينية فى مدينة "جنين" كانت مواتية للغاية للفلسطينيين(١)، وتحظى الهجمات الإسرائيلية على الفلسطينيين بانتباه أقل، وتقبل بسهولة باعتبارها دفاعا شرعيا عن النفس، إن الحرب الإسرائيلية ينظر إليها باعتبارها حربا أمريكية.

أما رؤية البلدان الأخرى فهى مختلفة تماما؛ إذ بينما يدينونهم، فإن القليلين، خارج الولايات المتحدة، يرون أن الهجمات الإرهابية الفلسطينية على إسرائيل ذات صلة بالقاعدة، إن خوف بعض المحللين فى أوربا من أن الضغط الإسرائيلى المتواصل على المناطق الفلسطينية، يمكن أن يولد تحديدا انصهار أعمال الإرهاب؛ الأمر غير المرغوب فيه إلى أقصى حد، وقد قال مطران أورشليم اللوثرى؛ تعليقا على أعمال إسرائيل الثأرية: "يبدو أن هذه ليست حربا ضد الإرهاب، إن هذه تبدو حربا ضد أمل ومستقبل الشعب الفلسطينى"(٢)، ثم ذهب إلى حد إضافة أن الاستخدام الإسرائيلى لأسلحة الولايات المتحدة، وتقارب ارتباطات الولايات المتحدة - إسرائيل تعطى أحيانا الانطباع بدعم الولايات المتحدة لهذه الحرب.

هذه هى الرؤية السائدة فى الكثير من أنحاء العالم، كنت مسافرا فى آسيا أثناء أعمال إسرائيل الانتقامية، والمشاهد المعروضة فى التلفاز، فى اليابان، فى سنغافورة، فى ماليزيا، وفى أندونيسيا - جعلت الـ سى إن إن تبدو أحادية الجانب، منحازة إلى إسرائيل، إن صور الهليوكوبترات التى أمدتها بها الولايات المتحدة وغيرها من الأسلحة وهى تستخدم ضد المدنيين الفلسطينيين، وصور شارون وهو يتحدى طلب بوش بانسحاب القوات الإسرائيلية، أوجد انطباعا معاديا بعمق لأمريكا فى كل مكان، وكذا فعل وصف شارون بأنه رجل سلام، ومن المعروف على نطاق واسع أن شارون هو واحد من أشد الصقور الإسرائيلية عنفا، وله تاريخ عنيف مع الفلسطينيين، ومعارض لمحادثات السلام، قال داتو جوهر بن حسان، القائد الماليزى

والكاتب: "كيف يمكن لبوش أن يطلق على رجل مثل هذا، رجل السلام؟ إن المسلمين المتعاطفين مع أمريكا أمثالي، بدؤوا يفكرون في أمريكا بطريقة سيئة؛ لأنها تتجاهل القهر الإسرائيلي".

وقد لاحظت الإيكونوميست أن "صحف الولايات المتحدة لا تنشر ما يجرى من تجريف إسرائيلي لمنازل الفلسطينيين، وأن الولايات المتحدة لا تعترف بمدى مسئوليتها عن ذلك باعتبارها من يقوم بتسليح إسرائيل"(٣)، كان كل من يحادثني، في كل مكان ذهبت إليه، سرعان ما ينكر المعايير المزدوجة، "إذا كانت أمريكا منزعجة إلى هذا الحد، فيما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل، فلماذا لا تعترض على ترسانة إسرائيل النووية؟"، "لماذا تصر أمريكا على أن تطيع بعض البلدان - بصرامة، قرارات الأمم المتحدة بينما لا تذكر أي شيء عن تحدي إسرائيل لقرارات الأمم المتحدة؟" "الولايات المتحدة تصر على أن تكون بعض البلدان ديمقراطية، غير أن إسرائيل في الحقيقة ليست ديمقراطية".

هنالك بوضوح انفصال كبير، وهنالك تفسيران محتملان: الأول صدر قريبا عن شارون، الذي أطلق على النقد الأوربي لإسرائيل صفة المتحيزة (متضمنا أن ذلك كان عداء للسامية)(٤)، ولكن ربما كان ذلك تحيزا كونيا ضد إسرائيل، الاحتمال الثاني هو أن إسرائيل والولايات المتحدة معزولتان بسبب هذا الموضوع لأسباب جيدة، وبينما لا يوجد شخص قادر على أن يكون مثاليا بصورة مثالية، دعني، كواحد ما له خبرة في الحياة مع العديد من أفراد مختلفين، أحاول على الأقل تقديم وجهة نظر أكثر توازنا، من واحد يرى "فوكس نيوز" أو "لوموند".

تل أبيب وأورشليم

وصلت إلى مطار بن جوريون، في تل أبيب، في ٢٧ سبتمبر عام ٢٠٠٢، وكان هنالك حتى بالنسبة للأمريكيين إجراءات أمن محكمة، بما في ذلك الفحص المزدوج

لجوازات السفر، رغم أن إسرائيل هي المكان الوحيد الذي لا يجد المرء فيه أوقية عداء واحدة للأمريكانية، كان هنالك تفجير انتحاري آخر منذ بضعة أيام مضت، في سيارة ركاب تابعة للبلدية في قلب المدينة؛ عما تسبب في مقتل خمسة أشخاص، وإصابة خمسين آخرين؛ ومرت سيارة التاكسي التي أستقلها، ونحن في الطريق إلى الفندق، عبر شارع اللنبي، قرب المكان الذي فجرت فيه السيارة إلى أجزاء، لم يكن هنالك أية علامة تدل على الانفجار، وكانت أرصفة المشاة مليئة بالناس يتسوقون ويرشفون الكابوتشينو، وكأن شيئا لم يحدث، غير أن كل امرئ كان يعرف أن شيئا قد وقع، وأن ذلك قد حدث تماما بعد يوم واحد من هجوم انتحاري آخر قتل شرطيا في شمال إسرائيل، وكانت تلك هي الهجمات الأولى بعد ستة أسابيع من السكون، تلت الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة، وحديث بوش في يونيو، حدث ذلك فقط حتى يكون هنالك يقين من أن كل امرئ قد فهم أن خطاب الرئيس وتكتيكات شارون العسكرية لم تغيرا من الأمر شيئا، وادعت "الجهاد الإسلامي" و"حماس"، وهما منظمتان فلسطينيتان متطرفتان مسئوليتهما عن الهجمات الجديدة، ووعدا بالمزيد منها، ونظرت إلى الشارع الأنيق ونشاطه الذي لا يضير، وكان على أن أتساءل: أي أناس يمكن أن يعلنوا بالفعل أنهم قد قاموا بمذبحة جماعية في الضحايا، وينشغلون وهم سعداء في البحث عن صفقة، وقد سارع عرفات، وسلطته الفلسطينية (بي إيه) لتقول: إنه لا علاقة لها بما جرى، غير أن قليلين في إسرائيل أو الولايات المتحدة صدقوه.

إن الانطباع الأول، لمراقب عابر دون قصد - تتحكم فيه مشاهد الفزع التي تذيعها الـ سي إن إن، عن الحياة الإسرائيلية - هو أن هنالك هدوءًا يثير الدهشة، لا شك أنه في كل مبنى مكون من مكاتب أو فندق قوة أمن، تنظر إليك، عندما تدخل بنظرات قاسية، وأجهزة كشف عن المعادن، وجوازات مرور خاصة في كل مكان، ومكاتب الحكومة تبدو مثل القلاع، غير إن مثل تلك الإجراءات الأمنية، بالنسبة لأي امرئ قام بقدر كبير من السفر العالمي بافتراض وقوعها على أي نحو، تبدو معتدلة بصورة تثير

الدهشة، إن تل أبيب تبدو كنسخة بحر متوسطية لسانتا مونيكا، وتشرع فى القيام بعملها، بنفس الطريقة بلا كلفة، وقد نقطتها الشمس، الشوارع مسدودة والستاربكس(*) الموجودة في كل مكان، المملوءة بما يكفى - تصيب المرء بالحيرة حول تقارير الصحف عن البطالة التى بلغت ١٠٪، وعن ترحيل العمال الأجانب غير الشرعيين. إن تل أبيب وأورشليم لا تبدوان مثل مناطق حرب فى بلد يعيش على الصدقات.

لكن ليس عليك أن تحفر إلى عمق كبير جدا؛ كى تعثر على دلائل حياة قلقة مضطربة، كانت جريدتى الصباحية "جيروسالم بوست" تعرض نتائج اقتراح قامت به يوضح أن ٦٠٪ من الإسرائيليين يؤمنون أنهم فى حرب دفاعًا عن وجودهم ذاته[٥]، وكانت الضجة الخلفية سيلاً من التقارير حول العنف، الأخبار اليومية النموذجية تحتوى هنا على قصص عن عجوز عربية تبلغ الخامسة والتسعين، قُتلت بالرصاص وهى فى سيارة أجرة، فى الضفة الغربية، وتفجير انتحارى آخر فى أورشليم، وتدمير بيوت الفلسطينيين انتقاما من هجمات مبكرة على إسرائيليين، ومنع إسرائيلى عربى ناجح لمحاولة نسف سيارة ركاب فى الضفة الغربية، إن هذا يخلق حالة دائمة من القلق، كان زميلى فى الغداء خائفا بصورة واضحة، أكلنا فى سرعة وغادرنا المطعم، وأخبرنى إذ ذاك أن هناك من كان يتناول الطعام فى المائدة المجاورة، جعله عصبيا.

ورغم الضجة والنشاط، فإن الوضع الاقتصادى كارثى، سجلت اسمى فى الماريوت وهو فندق كبير، به أكثر من سبعمائة غرفة، تطل على جزء من المدينة القديمة، لقد أطلقت النيران هنا على وزير النقل الإسرائيلى، منذ شهور قليلة مضت، واكتشفت أننى ربما أكون واحدا من عشرة ضيوف، المطعم مغلق إلا لتناول إفطار كونتيننتال،

(*) محلات لشرب القهوة. (المترجم)

وقدمت جولة فى جبل الزيتون، فيما بعد، بانوراما رائعة للمدينة ومعالمها: الأقصى، الحائط الغربى، المدينة القديمة، وغير ذلك كثير، إنه واحد من أعظم المناظر فى العالم. إن السياحة تقدم أكثر قليلا من ٣٪ من إجمالى الناتج المحلى الإسرائيلى، وهذا هو ما يجىء السياح لرؤيته، إننى وحيد باستثناء بعض الصبية البائسين العرب الإسرائيليين الذين يطنون حولى، ويحاولون بيع هدية ما إلى، وقاومت حتى سمعت أحدهم يهمس للآخر همسة مسرحية(*)، "إنه أمريكى، وهو لن يشترى لأنهم يكرهوننا"، انتابنى إحساس بالرقة، واشتريت خريطة وكتابا، من الواضح أننى سأكون كل ما يأكلونه الليلة، وهم لا يبالون إن كنت سأترك تلك الأشياء فى الفندق.

غير أن صفقتى الصغيرة المثيرة لن تفعل شيئًا للاقتصاد الإسرائيلى، هنالك تكهن بانكماشه ٣٪ تقريبا هذا العام، كما أنه يعانى تضخما قيمته ٨٪[٦]، ورغم أن الدين الحكومى هو الثانى فقط بعد اليابانى، مع انخفاض التقديرات الأهلية الائتمانية، فإن الحكومة الإسرائيلية تطلب ضمانات من الولايات المتحدة لمزيد من القروض، جنبا إلى جنب مع ٤ مليار دولار مساعدة عسكرية جديدة، حوالى ٦٤٥ دولارا لكل إسرائيلى، إن الإبقاء على منشأة عسكرية، واحتلال الضفة الغربية وغزة يُبقى جزءا كبيرا من السكان مقيدين بتزويد نقاط التفتيش بالرجال، واستئصال الإرهابيين، وحماية المستوطنين، إن العبء ثقيل، ويصعب تحمله دون عون الولايات المتحدة، وكما قال لى جيمس بنيت من "النيويورك تايمز": إن الاقتصاد الإسرائيلى لا يمكن حساب إجمالية، لكن كل التناقضات مستترة وراء القتال، تدعمها منح وهبات خاصة ورسمية من الولايات المتحدة، هذه هى إسرائيل المحصنة المحاصرة التى تشبه الشعور الأمريكى كثيرا.

(*) همسة عالية يسمعها النظارة ولا يسمعها الممثلون الآخرون. (المترجم)

المستوطنون الإسرائيليون والعرب الإسرائيليون

هنالك أغلبية من الإسرائيليين تقول: إنهم يقاتلون من أجل وجودهم ذاته، وهنالك العديد ممن لديهم معنى مختلف للوجود فى عقولهم، إن إحدى القوى القوية هى المستوطنون الإسرائيليون، لقد قامت إسرائيل فى حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ بهجوم استباقى على الجيوش العربية التى تهددها فى مصر وسوريا والأردن، أدت إلى احتلالها الضفة الغربية من نهر الأردن، وأوشليم الشرقية، وقطاع غزة وصحراء سيناء، وقايض الإسرائيليون سيناء بالسلام مع مصر عام ١٩٧٩، غير أنهم قبضوا بقوة على الباقى، فى انتظار اتفاقيات سلام مع الأطراف الأخرى، والتى عليها أن تتحقق ماديا، لقد فعلوا فى الحقيقة أكثر من القبض بقوة على الأرض، لقد ألحقوا شرق أورشليم، بمواقعها التاريخية المقدسة عام ١٩٦٧، ونقلوا عاصمتهم من تل أبيب إلى أورشليم بهدفين فى حسبانهم: إقامة حزام أمنى ضد الهجمات المستقبلية، ولتحقيق التصنيف التوراتى لفلسطين، باعتبارها الأرض التى وعد الله بها اليهود ومنذ بدايتها، كانت تلك المستوطنات مصدر نزاع وخلاف كبير، إن غالبية الخبراء يعتبرونها غير شرعية، طبقا لمواد اتفاقية جنيف الرابعة التى تشترط أنه ليس فى وسع أية قوة محتلة أن تلحق أرضا محتلة، أو تزيح جزءا من سكانها إلى المنطقة المحتلة، إنها أيضا تنازع قرارات الأمم المتحدة ٢٤٢، ٣٣٨، التى تطالب إسرائيل بـ "الانسحاب من الأراضى المحتلة"، فى سياق اتفاقية سلام نهائية، إنهم أيضا يتحدون طلبات أى رئيس للولايات المتحدة من جيمى كارتر إلى الرئيس الحالى بوش، وخداعهم خلال السنوات القليلة الماضية، التى كانت دون شك فى انتهاكهم لروح تعهدات عملية أوسلو للسلام عام ١٩٩٣، إن لم يكن انتهاكها حرفيا.

والأكثر أهمية أن المستوطنات تعنى أخذ الأرض من الفلسطينين، وإقامة نقط تفتيش ومداخل خاصة للطرق، وعمل مئات الأشياء الأخرى التى تسببت فى الاحتكاك بين الإسرائيليين والفلسطينيين، لقد كانت المستوطنات فى البداية قليلة وصغيرة، واستراتيجية فى الغالب، ولكن فى ظل رئيس الوزراء مناحم بيجين ووزير الزراعة

أريل شارون عام ١٩٧٧، قام حزب الليكود برعاية جهد كبير لتوسيع المستوطنات، كان بيجين مؤمنا صلبا بما أسماه "إرتيز إسرائيل" أو "إسرائيل الكبرى"، بمعنى كل أراضى فلسطين التى كانت "تحت الانتداب"، وبدأت الحكومة الإسرائيلية فى تقديم حوافز مالية للمستوطنين، مقدمة لهم الإيواء وأشياء أخرى للمتعة والراحة، أشياء لا يستطيعون شراءها أبدا فى إسرائيل الأصلية. ونما سكان المستوطنات، نتيجة ذلك، من آلاف قليلة، فى أواخر السبعينيات، إلى حوالى ٤٠٠٠٠٠ تقريبا اليوم[٧]، إن الأراضى الكلية التى بلغتها المستوطنات، بما فى ذلك مناطق عسكرية، ومداخل خاصة إلى الطرق، تقدر بحوالى ٤٢٪ من الضفة الغربية.

إن المستوطنين، ومن يساندونهم، يتكونون من مجموعتين من الناس، مجموعة منهما ذات دافع دينى، وكثرة هذه المجموعة جاءت من الولايات المتحدة يساندها المسيحيون الأصليون مثلما تساندهم المنظمة اليهودية، وقد أحسن أحدهم التعبير عن وجهة نظرهم لـ مولى مور من "الواشنجتون بوست"، "لا يمكن أن يكون هناك سلام، حتى تصبح كل أراضى إسرائيل لشعب إسرائيل، كما جاء فى الوعد، فى الكتاب المقدس"[٨]، والمجموعة الأخرى مجموعة ذات توجه أكثر مادية، ويمثلها المستوطن الذى أخبر مسز مور أن المشكلة ليست فيما إذا كانت المستوطنات شرعية أم غير شرعية، المسألة هى إذا ما كان على المرء أن يترك تلك التلال للعرب، أم إذا كان اليهود سوف يعيشون عليها. هذا هو الموضوع، إن مشكلة الشرعية مشكلة ثانوية، وفى كلتا الحالتين فإن المستوطنين قوة قوية، وأن الوجود الذى يقاتلون من أجله هو اندماج الضفة الغربية، وربما غزة، فى إسرائيل الأصلية.

إن أغلبية الإسرائيليين لا يقاتلون من أجل وجود المستوطنين، إن اقتراعا وراء اقتراع قد بيّن أن أكثرية ترغب فى الانسحاب من غالبية المستوطنات، وردها إلى الفلسطينيين فى مقابل سلام حقيقى دائم، إن أغلب الإسرائيليين يرغبون فى الحياة داخل حدود إسرائيل عام ١٩٦٧، مع تعديلها تعديلا محدودا، وراء جدار يفصل إسرائيل عن الضفة الغربية، وهو خط تحت الإنشاء بالفعل، غير أن الكثيرين لا

يصدقون أن الفلسطينيين راغبون فى إخراج إسرائيل من الضفة الغربية وغزة، إنهم يعتقدون أن الفلسطينيين لن يكونوا راضين حتى تتحطم إسرائيل.

إن هذا الاعتقاد قد شحب وبهت، فبعد أن بدأت عملية أوسلو للسلام فى سبتمبر عام ١٩٩٣، مع مصافحة تاريخية بين رئيس الوزراء الإسرائيلى إسحق رابين، وقائد الفلسطينيين ياسر عرفات على مرجة البيت الأبيض، كانت هنالك موجة من الشعور بالخفة والنشاط، وأمل تضاءل تدريجيا مثل عقبات الطرق، ظلت تبرز، واقعيا ومجازيا، دون توقع، وبدا أن اجتماعات كامب دافيد، ثم طابا فى مصر، قد اقتربت فى صيف وخريف عام ٢٠٠٠ من تحقيق تسوية، وانتفخ الأمل مرة أخرى، كان انهيار هذا الجهد هو الذى غمر الإسرائيليين بالمزاج الحالى من التصميم الشرس، إن الرأى الذى يؤمنون به فى إسرائيل بقوة هو أن إيهود باراك، رئيس الوزراء قد قدم لعرفات صفقة لم يستطع رفضها فى كامب ديفيد، وتم تحسينها فى "قاعدة بولينج الجوية"، فى ديسمبر ٢٠٠٠، ثم أضيف الكرز على قمتها فى طابا فى يناير عام ٢٠٠١، وطبقا لكل من باراك والرئيس كلينتون، فإن عرفات لو كان قد أجاب بـ "نعم"، لكان حصل على انسحاب من كل المستوطنات تقريبا، ودولة فلسطينية عاصمتها القدس الشرقية، و٩٧٪ من أراضى الضفة الغربية، والسيادة على الحرم الشريف (جبل الهيكل) وحق العودة إلى الدولة للاجئين من حرب ١٩٤٨، التى أنشأت إسرائيل، وبدلا من ذلك، كما يقال: رفض عرفات بالفعل، وأطلق العنان للتفجيرات الانتحارية للانتفاضة الثانية، إن هذا الرفض هو الذى يكمن وراء نتيجة المقاومة القائلة: إن الهدف الحقيقى للفلسطينيين هو التدمير النهائى لإسرائيل، إن المحرر والكاتب يوسى كلين هاليفى قد أخبرنى: "كانت هذه هى القشة الأخيرة بالنسبة إلىّ، أنت تعرف أننى كنت أعتقد فى البداية أنه ليس هنالك من أمل فى السلام، ثم بدأت فى تقبل بعض النقاط الفلسطينية، وأومن بإخلاصهم، غير أن هذا أنهى الأمر، ليس لدينا خيار غير أن ندافع عن أنفسنا"، وطرحت إشارة ما فى حيفا نفس القضية: "إننا الآن جميعا مستوطنون"، إن غالبية الطيف السياسى المتوسط تشعر أن الفلسطينيين لم يتركوا لإسرائيل خيارا غير أن تلقى بكثرتها مع المستوطنين.

بدأ البعض - على أية حال - يسألون سؤالا سوف نعود إليه، هل أدى التوسع المتواصل للمستوطنات على الجانب الفلسطينى إلى فقدان ثقة ويأس مماثل يغذى الهجمات التى يؤمن الإسرائيليون أنها لم تترك لهم غير اختيار الوجود؟ هل يمكن أن تكون صقور إسرائيل الكبرى - كما يرى بعض المحللين الإسرائيليين - هم الذين أثاروا النزاع لجعل الفلسطينيين راديكاليين، حتى تتوحد إسرائيل وراء القتال الوجودى؟ هل الأمر، كما سأل إسرائيلى مسالم، هو أنهم يريدون كل الأرض، ولكن دون فلسطينيين؟

إن هذه المناقشة تطرح وجهين حاسمين آخرين من المشكلة الوجودية: أحدهما خاص بالحفاظ على "الدولة اليهودية"، إن هذه النقطة غير مفهومة جيدا فى الولايات المتحدة، إن المرء يسمع فى إسرائيل عبارة الدولة اليهودية كثيرا، حتى إنها تكاد تكون صدى للتعريف الإسلامى للعديد من الدول العربية، إن النقطة الكلية للحركة الصهيونية، التى قادت إلى تأسيس إسرائيل كانت بعد كل شىء، هى إنشاء بلد لا يضطهد فيه اليهود؛ لأنه سيكون بلدهم، وتحت سيطرتهم، اليوم تدخل هذه السيطرة فى نزاع متزايد مع الديموجرافيات المحلية، فى كل من إسرائيل الأصلية، وفى الأراضى المحتلة، إن مواطنى إسرائيل يشتملون على خمسة ملايين يهودى و ١,٢ مليون عربى، غير أن العرب يتكاثرون بسرعة أكبر بكثير من اليهود، كان هذا النقص وأكثر يُغطى بالهجرة، غير أن هذه تضاءلت كثيرا بسبب النزاع المتواصل، وكذلك بسبب ارتفاع مستوى المعيشة فى أماكن مثل روسيا، ومن ثم، فإن أكثر وأكثر من الإسرائيليين يحتمل أن يكونوا عربا.

إن هذه النظرة طرحت أسئلة موجعة؛ إن اندمج العرب الإسرائيليون كلية فى المجتمع الإسرائيلى، فإنهم سوف يخففون بالحتم مفهوم الدولة اليهودية ويتحدونه، وإن لم يحدث دمجهم بالكامل، فإن الاستنتاج الحتمى سوف يكون وجود نوع من حكم الأبارتهيد الذى هو معاد للقيم الأصلية لليهودية ولدولة إسرائيل، ومع ذلك، فإن ما ينذر بالسوء هو أن يسمع المرء فى إسرائيل وبصورة متزايدة أحاديث عن

"النقل"، بمعنى نقل العرب الإسرائيليين إلى خارج إسرائيل، إن لهذا صدى لا يبعث على الراحة مثل التطهير العرقى، إن المستوطنات وحدها تجعل هذا الموضوع أكثر تعقيدا، هنالك فى الأراضى المحتلة، ٢,٥ مليون فلسطينى آخر، هم أيضا يتكاثرون بسرعة أكبر بكثير من الإسرائيليين اليهود، وهنالك تقدير أنه فى عام ٢٠١٠، سوف يكون الذين يعيشون فى فلسطين القديمة تحت الانتداب، من العرب الإسرائيليين والفلسطينيين أكثر من اليهود[٩]، وإذا كانت المستوطنات سوف تبقى وتتوسع، فما الذى سيكون عليه وضع الفلسطينيين، وهم الآن أغلبية فى إسرائيل الكبرى؟ وكما قال لى بروفيسور إسرائيلى: "لو كان عرفات ذكيا لرفض فكرة الدولة الفلسطينية، ولقال: إن الفلسطينيين يودون أن يكونوا إسرائيليين على أساس أن الشخص الواحد له صوت واحد".

إن هذه النظرة تحديدا هى التى قادت رابين رئيس الوزراء أن يبعث من جديد ياسر عرفات فى المنفى فى تونس عام ١٩٩٣ ويبادر "بعملية أوسلو للسلام" مع عرفات باعتباره محاوره الرئيسى، لقد رأى أن دولة يهودية ديمقراطية يمكن أن تكون قابلة للحياة فقط كإسرائيل صغيرة، مع بعض التعديلات لحدود ١٩٦٧، كان فى حاجة إلى هوية فلسطينية ولشخص ما يمكن أن يصنع السلام معه، وكان عرفات، بكل نتوءاته هو الاختيار الممكن الوحيد.

ويقود ذلك إلى السؤال الأخير. إن وضع الإسرائيليين حتى فى إسرائيل الصغيرة، سواء كانت إسرائيل دولة علمانية أو يهودية، يثير أسئلة حارقة؛ يقول ليف جرينبرج: إن "إسرائيل، بأى معيار، ليست ديمقراطية"، إن هذه مغالاة هائلة. إن إسرائيل بالنسبة لمواطنيها هى واحدة من أكثر الديمقراطيات خشونة ونبضا بالحياة قياسا بمن حولها، إن بعض الإسرائيليين يؤمنون – فى الحقيقة – وكما سنرى فيما بعد، بوجود مشكلة، من أجل الوصول، إلى تسوية مع الفلسطينيين، هى "الديمقراطية المفرطة للغاية"، كما أنه من الحقيقى أيضا أن العرب الإسرائيليين مواطنون من الدرجة الثانية بوضوح، إن "رحيق" امرأة عربية شابة مؤثرة فى يافا، تتحدث العربية

والعبرية والفرنسية والإنجليزية بطلاقة، وتعمل مع مجموعة تحمى حقوق العرب الإسرائيليين، تشير إلى أن المدارس والخدمات العامة، وإصلاح الطرق تحصل، فى الأساس، على اعتمادات مالية متدنية فى الجوار العربى، مقارنة بالمناطق اليهودية، وأن هنالك قيودا شديدة على شراء الأراضى، وبداية اشتغال العرب بأعمال يقومون بها، وأن المدارس الإسرائيلية تعكس فقط وجهة النظر الإسرائيلية فيما يتعلق بالتاريخ، وأن العرب لا يخضعون للقرعة العسكرية، ولا يشجعون على الالتحاق بالجيش الإسرائيلى، وأسباب هذه الحالة الأخيرة واضحة ومفهومة، فالخدمة فى الجيش فى المجتمع الإسرائيلى شىء ضرورى للترقى، وقد ذهبت هذه المواطنة، من الدرجة الثانية، بعيدا إلى حد أنه حدث فى الانتخابات البرلمانية الإسرائيلية، مبكرا عام ٢٠٠٣ - أن مُنع بشكل أساسى عضوان عربيان إسرائيليان فى الكنيست من خوض الانتخابات بواسطة "لجنة الانتخابات المركزية"، وقد أسقطت "المحكمة العليا" فيما بعد هذا الحكم، لكنها أقامت الدليل بصورة درامية لما يُطلق عليه نسيم كالديرون التناقض بين عقيدة الدولة اليهودية والديمقراطية.

الضفة الغربية

تبدأ التعقيدات حقا حينما نصل إلى "الضفة الغربية"، لقد بدأت أقدر هذا عندما تلقيت دعوة هاتفية ذات يوم حوالى الثالثة بعد الظهر، تخبرنى أن "الرئيس ياسر عرفات" يمكن أن يرانى، ولكن على أن أكون عند نقطة تفتيش "رام الله" الساعة الخامسة بعد الظهر، وحيث إن رام الله هى من ضواحى أورشليم، فى ظل الظروف الطبيعية، فإنها يجب ألا تأخذ أكثر من نصف ساعة للوصول إليها.

لكن لا شىء له علاقة بالضفة الغربية طبيعى، هذه المنطقة فى الأساس منطقة خاضعة للاحتلال الإسرائيلى، منذ خمسة وثلاثين عاما، إن الحاجة إلى حماية الأعداد المتزايدة من المستوطنين قد أدت إلى نظام مجنون من أربعمائة كيلو متر من الطرق

الخاصة التى تتجنب المراكز السكانية الفلسطينية، حتى يمكن للمستوطنين، والمرور العسكرى الإسرائيلى، من العبور فى سرعة وأمان، وفى نفس الوقت فإن العديد من تلك الطرق مقطوعة ومفصولة وذات انعطافات طويلة، وتحتاج نقاط التفتيش العسكرية، الموجودة فى كل مكان، إلى حواجز عديدة، وكانت نتيجة كل هذا أننى وصلت بالكاد فى موعدى لملاقاة من سوف يرشدوننى، عمدة بيت لحم وأخوه والسفير الفلسطينى المعين فى الولايات المتحدة، تحركنا ببطء إلى نقطة التفتيش، فى صف طويل من الشاحنات والدراجات والحمير، وأناس على أقدامهم، كان الجنود الإسرائيليون أولادا ربما تتراوح أعمارهم من ١٨ إلى ٢٥ سنة، كانوا مؤدبين مجتهدين، لكنه لم يكن من الصعب الإحساس بإذلال زملائى، وهم ناضجون مسئولون متمرسون، عندما يستجوبهم أطفال عما يفعلونه فى فنائهم الخلفى.

وقد اكتشفت ذات مرة عبر نقطة تفتيش ما الذى تفعله شاحنة صهريج بشوارع المدينة - إنها تطحنها ثم تبصقها وقفزت سيارتنا وترنحت فوق الأخاديد والحفر إلى مقر قيادة عرفات "المقاطعة" الذى أزيل جزئيا منذ أيام قليلة مضت. فقد أرسل شارون فى نوبة غضب دباباته وبلدوزوراته من أجل عصر عرفات، ربما بشدة أكثر، وبينما نقترب مررنا بالدبابات تطوق الأبنية التى هُدمت وخُربت، ثم أوقفنا السيارة، ودخلنا عبر أسلاك شائكة فى محاذاة أكياس رمل.

إن عرفات رجل ضئيل، فى السابعة والسبعين - مصاب بالشلل الرعاش، إن شكله يفصح عن عمره، من الصعب أن تتصوره السوط الذى يخيف الإسرائيليين، غير أن عقله ما يزال حادا، وكان مركزا فى ذلك اليوم على الإساءة الأمريكية الأخيرة، مشروع القانون الذى كان الكونجرس قد وافق عليه لتوه، بنقل السفارة الأمريكية فى إسرائيل من تل أبيب إلى أورشليم، كان ذلك قد تم إعلانه مع فرح يجاور شعوراً بالخفة والنشاط، فى الصحافة الإسرائيلية هذا الصباح، كان نقل سفارة الولايات المتحدة، بالنسبة للفلسطينيين - إضفاء شرعية على الإلحاق الإسرائيلى لشرق أورشليم، كما سيؤدى إلى هبوط الآمال الفلسطينية فى استعادة الأرض المفقودة، وقد أوضحت

شارحا أن الأمر كله ممارسة سياسية، لقد اشتمل مشروع القرار على ثغرة تسمح للرئيس بتجاهل إصدار التعليمات إن اعتقد أن نقل السفارة سوف يضر بالأمن القومي للولايات المتحدة، وهو يقينا سوف يعتقد ذلك، إن التصويت كان وسيلة من الكونجرس لإرضاء جمهور الناخبين المتعاطفين مع إسرائيل، دون خوض مخاطرة أن يتم النقل بالفعل، سياسات أمريكية ذكية، لكن حاول أن تشرح ذلك لمستمع أجنبي مستريب.

وبذل عرفات جهدا كبيرا ليشرح أنه لم يكن يوجه أو يحرض على هجمات إرهابية ضد إسرائيل، وذكر أن الجيش الإسرائيلي قد دمر بصورة أو أخرى كل مراكز شرطة السلطة الفلسطينية ومكاتبها العامة، بما في ذلك إغلاق الجامعات الفلسطينية والقيام بضربات قاسية، وقال: إن قدرته محدودة فيما يتعلق بتوجيه أي شيء، قال: "إن بوش طالب بالإصلاح والانتخابات، ولكن كيف نجري انتخابات، بينما لا نستطيع حتى إجراء اتصال هاتفي؟" ونسب التفجيرات الانتحارية للمنظمتين الإرهابيتين حماس والجهاد الإسلامي، اللتين تنافسان منظمته، "منظمة التحرير الفلسطينية" (بي إل أو) بهدف كسب الفلسطينيين، كما ذكر أيضا أنه كلما هاجمته إسرائيل أكثر، ودمرت السلطة الفلسطينية، أصبحت حماس أقوى، كما أنكر أيضا أنه رفض ما جاء من فكر في خطة سلام كلينتون وطابا. وقال: الأصح، إن باراك هو الذي ابتعد عن محادثات طابا، بعد أن اعترف بأنه لا يستطيع أن يبيع ذلك الفكر إلى الرأي العام الإسرائيلي (وقد فشل في الحقيقة، أمام شارون في الانتخابات التالية)؛ إن المرء ينتابه الشك الغريزي إزاء عجوز ما زال حيا مثل عرفات، إلا أن تعقيبه بأنه سوف يرحب بتسوية تضعها الولايات المتحدة، أو المجتمع الدولي تحفظ النظام والأمن فيها قوات أمريكية ودولية، كان لافتا للنظر؛ لأنه في تناغم مع تعليقات بعض الإسرائيليين الذين أخبروني أن الأمل الوحيد هو أن تفرض الولايات المتحدة تسوية ما.

صائب عريقات هو رئيس المفاوضين الفلسطينيين، حاصل على درجة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة كاليفورنيا، وعاش ثماني سنوات في سان فرانسيسكو،

وشارك في كل مفاوضات كامب دافيد وطابا، وما بينهما، هو أيضا عمدة "أريحا"، وأعددت أن ألقاه هنالك بعد ظهر اليوم التالي، أخذني في اليوم التالي سائق السيارة الأجرة، وهو عربي إسرائيلي، حتى نقطة أريحا، غير أنهم لم يسمحوا له بأن يأخذني عبر نقطة التفتيش، كان على أن أترك سيارة الأجرة، وأمشي، آخذ سيارة أجرة أخرى حتى أصل إلى مكتب عريقات.

سألت عريقات مباشرة: لماذا لم توقف هجمات التفجيرات الانتحارية الإرهابية، وذكرت أنه باعتباره واحدا يعرف أمريكا، فهو لا بد أن يدرك قدر الدمار الذى تسببه تلك الهجمات لأى دعم أمريكى للقضية الفلسطينية، كان رد فعله مضطربا بعمق، قال: إنه يعرف بالطبع "لكن استمع إلى يا كلايد، يُفترض أن تكون لى بعض السلطة هنا فى أريحا، لكنهم يجعلوننى بلا علاقة بعملى، أكثر فأكثر كل يوم، إن الرأس الحقيقى هنا فى أريحا هو الملازم آلون، هنالك عند نقطة التفتيش، إنه هو الذى يقرر من يدخل المدينة، ومن الذى يخرج منها؛ وما إذا كانت سيدة عجوز تذهب إلى المستشفى أم لا، وإذا ما كان وقود النفط يجىء أو لا يجىء؛ وكما يقوم هو بتدميرى، فإن "الفتيان هنا"، مشيرا إلى الجامع، "يجعلوننى أيضا بلا علاقة بعملى، بقولهم للناس: إن عريقات لا يستطيع فعل شىء لكم، وأن الله وحده هو الذى فى وسعه أن يعاون: دعنى أخبرك شيئا آخر عن الهجمات الإرهابية، إن الحياة فى الضفة الغربية جحيم، البطالة حوالى ٨٠٪ فى أغلب المناطق، نصف السكان يعيشون بدولارين فى اليوم فى أكواخ، وعليهم الانتظار عند نقاط التفتيش حتى ينال المستوطنون الأولوية، الإسرائيليون يشتكون من التفجيرات الانتحارية، وأنا أوافق أنها ليست أخلاقية، غير أن الفلسطينيين يقتلهم الإسرائيليون أكثر من الجانب الآخر، فى كل مرة يأمر فيها شارون بأعمال ثأرية، وأعمال اغتيالات، إنه يحقق دعما أكثر لحماس والجهاد الإسلامى، دعنى أخبرك أن لدى ابنا فى سن المراهقة، يلقى المضايقة دوما فى المدرسة، ويوبخ بطريقة ساخرة مهينة : لأننى أنا أبوه الذى يُنظر إليه باعتباره ضعيفا متعاطفا مع الأمريكيين، إننى أصلى كل ليلة حتى لا يصبح مفجرا انتحاريا، آملا فى وسيلة ما مراهقة مجنونة أن

تنقذ شرف العائلة، كيف يمكننا وقف أى شىء، عندما يكون شارون قد عطل بنيتنا التحتية، هل يهزل بوش؟"

أما بالنسبة لكامب دافيد فقد أكد عريقات أن عرفات قد توسل إلى كلينتون من أجل مزيد من الوقت؛ كى يستعد قبل المباحثات، ولكن دون جدوى، كان كلينتون فى شهور رئاسته الستة الأخيرة، وكان باراك يأمل فى استخدام المباحثات لتقوية موقفه الضعيف فى الانتخابات الإسرائيلية القادمة، وقد قال عريقات: إن الفلسطينيين هم الذين تقدموا باقتراحات خيالية مثل مقايضة أرض فى إسرائيل مع الفلسطينيين فى عملية تبادل من أجل دمج بعض المستوطنات الكبيرة فى الضفة الغربية، فى إسرائيل الأصلية، كما أكد أيضا أن الفلسطينيين عرفوا بعدم قبول الإسرائيليين عودة ضخمة لكل اللاجئين، ومن ثم اقترحوا آليات عودة اختيارية يمكن أن يسمح لمنظمة التحرير الفلسطينية أن تدعى أمام شعبها أنها قد عالجت هذا الموضوع الحساس للغاية، حتى تتجنب غمر إسرائيل بقادمين فلسطينيين جدد. وفى النهاية، ورغم اعترافه بأن الفشل فى الوصول إلى نتيجة حول اقتراحات كلينتون، قد تسبب فى صعوبات، فإنه أصر أيضا على أن الجانبين كانا قريبين للغاية من الاتفاق فى طابا، فقط حدث الفشل لهزيمة باراك الوشيكة فى الانتخابات. وقد أنكر بعناد أن عرفات هو الذى أمر بالانتفاضة الثانية، وقال: إنه بعد انهيار كامب ديفيد، عندما أصبح معروفا أن شارون قد خطط لمسيرة إلى جبل الهيكل؛ الأمر الذى كان من المؤكد إثارته لكراهية الفلسطينيين وعداوتهم، ذهب عرفات إلى منزل باراك وتوسل إليه أن يوقف المسيرة، قائلا: إنه لا يستطيع التحكم فى النتائج. يضاف إلى ذلك أن عريقات قال: إن الطلقات الأولى، بعد المظاهرات التى ما كان من الممكن تجنب حدوثها بسبب مسيرة شارون، كانت على الفلسطينيين من جنود إسرائيليين. وأنه فى الشهور القليلة الأولى من الانتفاضة كان كل الموتى، تقريبا، من الشباب الفلسطينى.

وحتى ترى الصورة الفلسطينية كلها، من الهام النظر، أكثر قربا، إلى نقاط عدة. أولا: خارج تأكيد المراقبين، وربما يقوى من تعليق عريقات على الحالة الاقتصادية

والاجتماعية، فإن جريدة إسرائيل الرئيسية "هآرتز" قد لاحظت أن أكثر من ربع الطلبة الفلسطينيين لم يعودوا قادرين على الذهاب إلى المدرسة(١٠)، بينما أعلنت الأمم المتحدة ووكالات دولية أخرى عن وجود خسائر فلسطينية قدرها أربعة مليار دولارر في مختلف الأنواع، من اقتصاد كان إجمالى ناتجه المحلى عام ١٩٩٩ ثلاثة مليار دولار فقط. إن الكثير من هذه الخسائر يبدو ناجما عن تدمير الجيش الإسرائيلى لبساتين الفواكه والمبانى التى يمكن أن توفر غطاء للمهاجمين الفلسطينيين المحتملين بالقرب من طرق المستوطنين(١١)، كما أعلنت الأمم المتحدة أيضا عن انخفاضات فى القبول بالمستشفيات الفلسطينية، وفى أداء الإجراءات الطبية المختلفة بمقدار يتراوح من ٣٠ إلى ٧٠٪، جنبا إلى جنب مع زيادة علامات سوء التغذية عند الأطفال(١٢)، إن هذا يكاد يكون بسبب حظر التجول والقيود المفروضة على الحركة داخل الضفة الغربية وغزة، وفى إيجاز، فإن الحالة الاقتصادية والاجتماعية الفلسطينية ربما كانت كارثية أكثر من الحالة الإسرائيلية.

النقطة الثانية أنه بينما من المقدر للتفاعلات الإسرائيلية الفلسطينية، فى المناطق المحتلة أن تكون مثيرة فى أفضل الأحوال، غير أن الأمور تزداد سوءاً بسبب حقيقة خضوع المستوطنين فقط للمحاكم الإسرائيلية، كما تتمتع العسكرية الإسرائيلية بحرية العمل، بصورة واسعة، فى الاستيلاء على الأراضى للأغراض الأمنية، وقد وجدت "لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان" أن للفلسطينيين أملا ضئيلا فى التعويض أمام المحاكم الإسرائيلية عن الأضرار الناجمة من العنف الذى يرتكبه المستوطنون القاتلون، بصورة متزايدة، إن الأوضاع غالبا ما تكون سيئة جدا، حتى إن حركة نمت داخل جنود العسكرية الإسرائيلية، ترفض الخدمة فى الأراضى المحتلة، يقول دافيد زونشين قائد هذه المجموعة: "أنت تقف على نقطة تفتيش وأنت تعرف أن المستوطنين يمرون مباشرة لكن العرب لا يمرون، وتتذكر جنوب إفريقيا"(١٣)، وتثير تعليقات المفاوض السابق يورى سافير دهشة أكبر، وهو يكتب عن هذه الدهشة؛ لأنه اكتشف فى أوسلو، قبل المفاوضات، أن الفلسطينى "لا يستطيع البناء أو العمل

أو الدراسة أو شراء الأرض أو زراعة محصول أو أن يبدأ أعمالا أو أن يتمشى ليلا، أو أن يزور عائلته فى غزة أو الأردن دون إذن منا"[١٤]، إن خرافة "احتلال مستنير" قد أخفت كل هذا عنه.

والنقطة الأخيرة هى السياسات الفلسطينية المعقدة، كان على عرفات أن يكون رمزا للحركة الفلسطينية، وقد صبغه شارون بصبغة تجعل غالبية العالم تراه كنوع من الديكتاتوريين، يتحكم تحكما كليا فى كل حركة فلسطينية، والحقيقة مختلفة، إن عرفات هو رأس منظمة التحرير الفلسطينية، ورئيس السلطة الفلسطينية، الهيئة التنفيذية التى أنشئت فى ظل عملية أوسلو لتدير المناطق التى يجب أن يتخلى عنها الإسرائيليون بالتدريج، إنه يشرف أيضا على البرلمان الفلسطينى، الذى يصفه نسيم كالديرون، من جامعة تل أبيب، إنه الأكثر ديمقراطية فى العالم العربى، غير أنه يواجه على الأقل تحديات ثلاثًا قوية: الأولى هو حماس، وهى مجموعة، ويا للسخرية، خلقت فى الأساس بدعم من الرسميين الإسرائيليين بأمل إضعاف عرفات، وهى، دون شك، قد فعلت ذلك، ولكن ربما ليس كما أملت إسرائيل، إنها مرتبطة بمجموعات دولية مسلمة تقدم هبات كبيرة، وهى ممولة بوفرة، ولحماس داخل إسرائيل ذراعان: واحد خيرى، متصدق، يوفر الطعام والدواء والمساعدات الأخرى للفقراء، والذراع الثانى عسكرى متخصص فى التفجيرات الانتحارية، الجهاد الإسلامى مجموعة أقل مرتبة فى حسن التنظيم، لكنها تدين بذات الفلسفة الإسلامية القتالية، وتتبع نفس طريقة العمل، و"حزب الله" هو مجموعة إسلامية قتالية أخرى، تأسست فى لبنان، وذات روابط بإيران، وتعمل إلى حد كبير مثل حماس، بذراعين عسكرى وخيرى، إن كل تلك المجموعات مكرسة فلسفيا لتدمير إسرائيل، وليس لديها اهتمام بالسلام أو الدولة الفلسطينية على الضفة الغربية وغزة، إنها بمطالبتها، بكل شىء أو لا شىء تعكس صورة الصقور الإسرائيلية التى تقف مع إسرائيل الكبرى.

إن الإسرائيليين والكثيرين من الأمريكيين غالبا ما يقولون: إن عرفات يريد الكل أيضا، واحتمال أنه كان كذلك احتمال قائم، لكن غالبية الخبراء يتفقون على أن عرفات

قد قرر فى اتفاق أوسلو: مهما كان كارها قبول حقيقة إسرائيل، والسعى إلى دولة فلسطينية منفصلة؛ لذا فإن القتال مع إسرائيل، بالنسبة إليه، وإلى السلطة الفلسطينية - هو فى الأساس حول الأرض، وليس الوجود، غير أن فشل عرفات فى الحصول على الأرض قد أدى، كما ذكر مستطلع الرأى العام، خالد الشقاقى، إلى الظهور المتزايد لحرس جديد من شباب يتحدى قيادة منظمة التحرير الفلسطينية القديمة، وليس بالضرورة أن يكون هذا الجيل مكرسا لمحو إسرائيل، لكنه يؤمن، بصورة متزايدة أن الإسرائيليين لن يوقفوا احتلالهم حتى يغدو الثمن باهظا، بحيث لا يستطيعون احتماله.

إن أفعال شارون وبوش، التى أضعفت عرفات، وأحبطت تحقيق الأهداف الفلسطينية المشروعة تغذى، فى ضوء هذه الديناميكية - الاستياء الذى يقوى كثيرا حماس وكل مجموعات المتحدين الآخرين، إن معرفة شارون بهذا، ومواصلته عصر عرفات والضغط عليه - قد قادت كل الفلسطينيين، وعددا كبيرا من الإسرائيليين إلى الإيمان بأنه يفضل جعل القتال حقا من أجل الوجود، حتى يوجد إسرائيل فى حرب ما، تدفع بالفلسطينيين إلى الأردن، وأخيرا يحقق حدود إسرائيل الكتاب المقدس، إن الكثيرين يخافون من أن الحرب التى قادتها الولايات المتحدة ضد العراق - سوف تمنح شارون الغطاء لإلحاق الضفة الغربية، بينما يطهرها من الفلسطينيين.

ليس شروعا فى السلام

إن للنزعات الحالية جذورها منذ أواخر القرن التاسع عشر، عندما اقتنع قادة اليهود مثل تيودور هيرتزل، وليوبينسكر، وموسى هيس بأن الطريق الوحيد لليهود كى يفلتوا من المذابح المنظمة والتمييز - هو أن تكون لهم أمتهم، فى الوطن القديم لليهود حول أورشليم، وبدؤوا عام ١٨٧٨ الإعداد لليهود الأوربيين ليهاجروا إلى فلسطين، التى كانت حينئذ جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، ويبدو أن هؤلاء الصهاينة المبكرين

لم يكونوا يعترفون بوجود عربى أصلى، وتحدثوا بسذاجة عن "أرض بلا شعب، وشعب بلا أرض"(١٥)، وثار الاحتكاك سريعا مع العرب، عندما بدا واضحا أن القادمين الجدد لم يكن فى نيتهم أن يصبحوا جزءًا من الحياة المحلية بل هم - على الأصح - يهدفون إلى خلق مجتمعهم الخاص، المنفصل والمختلف للغاية، وقد قال شايم مارجاليت كالفاريسكى، الذى أدار "جمعية الكولونيالية اليهودية" أنه أحس بالإشفاق على العرب، وكانت الأعوام الخمسة والعشرون لطردهم أعواما صعبة، غير أن الرأى العام اليهودى قد طالب بذلك، ويقرر كالنبوءة الفيلسوف والكاتب اليهودى أحاد هام "علينا أن نعامل السكان المحليين بحب واحترام ... وماذا فعل أخونا فى أرض إسرائيل؟ العكس تماما ... لقد تصرفوا قِبل العرب بعدوانية ووحشية ... هل يجب أن يجيء الزمن الذى تفرض فيه حياة شعبنا فى فلسطين على السكان المحليين ألا يستطيعوا الخطو جانبا بسهولة"(١٦).

وأدت الحرب العالمية الأولى إلى تطور جديد حاسم بالنسبة للفلسطينيين، عندما أصدر لورد بلفور، وزير الخارجية البريطانية، فى محاولة داعمة لليهود، من أجل القضية المتحالف حولها فى أوربا والولايات المتحدة، "إعلان بلفور"، الذى يقول إن بريطانيا سوف تدعم، "تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين"، وأضاف: "إن الصهيونية جيدة كانت أم رديئة، تجلب عمق التفكير بصورة بعيدة، أكثر من رغبات وتحيز ٧٠٠٠٠٠ عربى يسكنون الآن هذه الأرض القديمة"(١٧)، ولسوء الحظ، لم يكن ذلك هو رأى هنرى مك ماهون، المفوض الأعلى البريطانى فى مصر، والذى كان يحاول التحريض على ثورة عربية ضد حلفاء ألمانيا، "الأتراك العثمانيين، وقد وعد مك ماهون، فى رسالة له إلى القائد العربى، شريف حسين، باستقلال العرب، فى الأقاليم التى يحكمها العثمانيون إن ثاروا ضد الأتراك كذلك أرسل ت. أ. لورانس (لورانس العرب)، إلى العرب ليساعد فى تنظيم الثورة.

وقد تصادمت تلك الوعود المتضاربة فى "مؤتمر فرساى للسلام"، ورغم تكريسه لحق تقرير المصير الوطنى، فإن الرئيس ويلسون قال: إن "الشعوب غير

المتطورة" سوف تحتاج إلى "التوجيه"، من القوى الإدارية، في ظل انتدابات من "عصبة الأمم"[١٨]، وضغط البريطانيون، وقد نسوا لورانس، والثورة العربية، منذ زمن طويل؛ لينالوا الانتداب على فلسطين، وأرسلت "لجنة ويلسون"، "لجنة كينج - كرين"؛ كي تتحرى المشاعر المحلية، فوجدوا معارضة قوية للبرنامج الصهيوني، في المناطق التي تسكنها أغلبية مسيحية - إسلامية، كذلك بالمثل، الرغبة في انتداب أمريكي، وقد عارض الصهاينة مثل تلك الفكرة؛ ظنا منهم أن أمريكا سوف تصر على حكم الأغلبية الذي سوف يضع العرب في موضع التحكم، ومن ثم، فضلوا بريطانيا، وإعلان بلفور (وقد حث ذلك توم سيجيف على أن يذكر أن "حلم الصهيونية قد جرى في تضاد مع مبادئ الديمقراطية")، ومضى ويلسون وغدت بريطانيا مسئولة عن فلسطين.

كانت ولاية حزينة، تدفق المهاجرون من أوربا، وأدت التوترات مع السكان العرب إلى العديد من أعمال الشغب، وأخيرا حاول البريطانيون تقييد الهجرة، إلا أن هذا سبب نزاعا مع المجموعات الصهيونية، وضاعت تلك المشاكل بسبب ما أدت له الحرب العالمية الثانية من اضطراب، ولكن مع نهاية الحرب أدار الملايين ممن نجوا من الهولوكوست خطاهم نحو فلسطين، وقاوم العرب - وقد خافوا الآن، من الإزاحة الضخمة، وفرض البريطانيون القيود مرة أخرى، عند تلك النقطة، أدارت الأراجون، وهي جيش سري يهودي كان يقاتل العرب، بنادقه وقنابله إلى البريطانيين، الذين أعادوا انتدابهم إلى الأمم المتحدة، وغادروا عام ١٩٤٨، وعرضت الأمم المتحدة (التي كانت في ذلك الوقت هيئة من ستة وخمسين، غالبيتهم بلدان غربية وأمريكية لاتينية) عرضت على بساط البحث الحل الأصلي لدولتين، باقتراحها تقسيم فلسطين إلى كيانين، يهودي وعربي، مع تدويل أورشليم. ورفض العرب هذه الخطة، وأعلنوا الحرب على إسرائيل التي تشكلت حديثا، وخسروا، تاركين فلسطين وأورشليم مقسمة على امتداد خط هدنة يشكل الآن حدود إسرائيل المعترف بها دوليا، وترك حوالي ٧٥٠٠٠٠ من اللاجئين الفلسطينيين، المنطقة التي هي إسرائيل الآن، غربا في معسكرات من

الضفة الغربية وغزة وبلدان أخرى مثل الأردن ولبنان[١٩]، ومنذ حينذاك، وحتى الآن، تواصل النزاع، يعلو ويضعف، بصورة أو أخرى، ومنذ هذا التاريخ نما إحساس العرب بالظلم، والتوق "للعودة"، والإحساس الإسرائيلي بالحصار والتشوش المتواصل للمجتمع الدولي.

ولم يحدث تغيير أساسي، حتى عام ١٩٦٧ عندما تركت "حرب الأيام الستة"، إسرائيل مسئولة عن الضفة الغربية وغزة، وتسببت في حركة المستوطنين؛ مما هيأ المرحلة لعقود من الصراع، والهجمات الإرهابية، والحرب في لبنان، وقرارات الأمم المتحدة الداعية لمفاوضات سلام وانسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة، ومختلف محادثات السلام، وبدأت الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧ - ١٩٨٩ و"حرب الخليج" ١٩٩٠ - ١٩٩١ والتي بدأت فعليا في خلق حركة، ثورة من الشباب الفلسطيني يلقون الحجارة ضد الاحتلال الإسرائيلي الذي بلغ عمره الآن واحدا وعشرين عاما، ونالت الانتفاضة التعاطف في المجتمع الدولي، وأيضا بين إسرائيليين، كان الكثيرون منهم يرتاب في أخلاقيات الاحتلال والمستوطنات، وألقت حرب الخليج الضوء على ضرورة تسوية النزاع الذي طال، وطالب الرئيس بوش الأول بمؤتمر للسلام في مدريد، وأيضا بوقف بناء المستوطنات، التي كانت المعونة الأمريكية هي التي تتعهدها بصورة يتعذر تجنبها، ورفض إسحق شامير رئيس الوزراء الإسرائيلي، الذي كان رجل إسرائيل الكبرى بثبات تجميد المستوطنات، وعلق بوش حينئذ تدفقات معينة من المعونة لإسرائيل، وأدى مؤتمر مدريد إلى القليل، إلا أنه حقق الحديث المباشر بين الإسرائيليين والفلسطينيين، الواحد منهم إلى الآخر، ولعب وقف المعونة دورا في أن يهزم إسحق رابين، شامير، في الانتخابات، وواصل رابين المحادثات سرا حتى أدت إلى اتفاقية بين الجانبين في أوسلو، في أغسطس ١٩٩٣.

وقد ألزمت ترتيبات أوسلو الإسرائيليين بالانسحاب التدريجي بجيشهم من بعض المناطق المحتلة، ونقل بعض السلطة في أمور مثل التعليم والصحة والشرطة إلى الفلسطينيين، وألزمت الفلسطينيين بالاعتراف بحق إسرائيل في الوجود، وتخلي منظمة

التحرير الفلسطينية عن كل أعمال العنف، وكان على النقل التدريجي لسلطة محدودة أن يؤدى إلى تسوية دائمة تقوم على قرارى مجلس الأمن ٢٤٢، ٣٣٨. وكانت الانسحابات الإسرائيلية الأساسية من غزة ومنطقة أريحا، وسارت الأمور، ورابين في المسئولية، طبقا لما جرى الاتفاق عليها، رغم بطئها، غير أن العملية بدأت في التحلل، بعد اغتياله بيد متعصب إسرائيلي في أواخر ١٩٩٥، كان قلب المصاعب افتراضا خافيا في الصفقة؛ إذ رغم أن الإسرائيليين لم يلتزموا كتابة، فقد كان المتوقع وقف التوسع في المستوطنات؛ حيث إن نموها المتواصل كان ضد روح، إن لم يكن نصف الصفقة، بصورة واضحة. وبنفس النهج، كان الإسرائيليون يتوقعون من منظمة التحرير الفلسطينية وقد تعهدت بالتخلي عن عنفها هي أن توقف أيضا عنف حماس والمجموعات الأخرى، لكن الذي حدث هو زيادة المستوطنات أكثر من ضعف ما كانت عليه خلال عملية أوسلو، ورغم أن العنف قل دراماتيكيا - إلى المدى الذي غدا فيه الإسرائيليون أنفسهم هم اللاعبون الكبار في كازينو أريحا - لكن العنف لم يختف.

وكان السبب هو أن هذه الصفقة هي الشيء الأخير الذي تريده حماس والرديكاليون الآخرون، كما خدم الإرهاب أيضا "الصقور الإسرائيلية الكبرى"، الذي كان في وسعهم استخدامه كحجة لرفض أي انسحابات ولتبرير عنفهم هم، وبينما كان كثيرون في إسرائيل والولايات المتحدة يرون أن إسرائيل قد تخلت عن أراض في مقابل وعود فلسطينية غير مؤكدة، فإن العديد من المراقبين الدوليين يرون أن الفلسطينيين هم الذين قدموا أكبر التنازلات، وطبقا لهذا الرأى فإنهم كفوا عن أي ادعاء خاص بكل فلسطين القديمة كما كانت تحت الانتداب، ولم يحصلوا على أي التزامات بالخروج من المستوطنات المكروهة، ولم يتسلموا أي ضمانات للمستقبل ما عدا حق التفاوض حول "تسوية نهائية" غير مؤكدة، وكما لاحظ أحد المعلقين الإسرائيليين، "لا بد أن عرفات كان يائسا ليمسك بمثل تلك الفرصة"، وعلى أية حال، فإنه قد دُفع، في أواخر ١٩٩٩ بكل الجداول الزمنية إلى وراء، وكان العنف يتصاعد على الجانبين، وأصبح واضحا أن العملية تواجه مصاعب عميقة.

جماعة الضغط

هنالك حقيقة أساسية فى القضية الإسرائيلية - الفلسطينية هى الزيادة المتواصلة فى قدر الأرض الخاضعة للسيطرة الإسرائيلية، وقد حدث هذا بصورة كبيرة منذ عام ١٩٦٧ من خلال التوسع الذى لا يتوقف للمستوطنات، وبينما الهجمات الفلسطينية الإرهابية يحتمل ألا تتوقف حتى لو فكك الإسرائيليون كل المستوطنات، فمن المؤكد أن الفهم الفلسطينى بإضمار الإسرائيليين أخذ كل الأرض، يساهم فى العنف، وخلال عشاء قريب، أخبرنى مستشار سابق للأمن القومى للولايات المتحدة أنه لا يوافق على ذلك الفهم فحسب، لكن عدم القدرة على تجميد توسع المستوطنات كان محبطا للغاية، وسألت: لماذا لا يستطيع رئيس أقوى دولة فى العالم الحصول على التزام بالتجميد فى بلد أصغر منه بكثير، ويعتمد كلية على نقود وحماية الولايات المتحدة؟ قال، "كلايد: هذه هى المرة الأولى التى تسألنى فيها سؤالا، وتكون له إجابة واضحة: إنهما نيويورك وفلوريدا"، إن ما كان يعنيه هو أهمية تصويت اليهود الأمريكيين فى تلك الولايتين، وبصورة أكثر اتساعا: جماعة الضغط اليهودية القوية، وقلت له، وأنا أضيف النفوذ القوى "للائتلاف المسيحى"، وبالمثل مجموعات مسيحية أصولية أخرى، وفى سرعة وافقنى على ما قلت.

إن عاملا كبيرا فى انهيار جهود السلام كانت قدرة جماعات الضغط تلك، على منع الولايات المتحدة من ممارسة الضغط على إسرائيل: إن "لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية" (إيه أى بى إيه سى) واحدة من أقوى المجموعات المتعاطفة مع إسرائيل، وقد ادعت أن أى تشريع هام يخص إسرائيل، يبدأ بالقاعدة التى يعتمد عليها والمكونة من مائتى داعم فى مجلس النواب وخمسة وأربعين سيناتورا[٢٠]، وقد أضاف، بات روبرتسون الإنجيلى، فى حديث للائتلاف المسيحى، فى أكتوبر عام ٢٠٠٢، وزن المجتمع البروتستنتى قائلا: "سوف نقف مع إسرائيل" وأضاف، إن الدولة الفلسطينية لعنة"[٢١]، وقد كتب رجل الكونجرس، بول فيندلى، أن جماعة الضغط تؤكد أن "مناقشة مفتوحة حول النزاع العربى - الإسرائيلى لا وجود لها"[٢٢]، ويقول ويليام

كواندت، وهو موظف رسمي فى "مجلس الأمن القومى" إن من ٧٠ - ٨٠٪ من كل أعضاء الكونجرس يتعاونون مع جمعية الشئون العامة الأمريكية - الإسرائيلية[٢٣]، وقد كتبت "فوكس نيوز"، كأنما تؤيد هذا، فى أوائل مايو عام ٢٠٠٢، إن القرارات المتعاطفة مع إسرائيل، بما فيها ٢٠٠ مليون دولار للنشاطات العسكرية الإسرائيلية وافق عليها مجلس النواب بـ ٣٥٢ - ٢١، ومجلس الشيوخ بـ ٩٤ - ٢[٢٤]، وقبل ذلك عندما دعا بوش لانسحاب الدبابات الإسرائيلية من الضفة الغربية فى إبريل، تلقى البيت الأبيض ١٠٠٠٠٠ إيميل غاضب من محافظين مسيحيين[٢٥]، وكما أخبرنى محلل سياسى إسرائيلى: "إن مساحة النقاش حول إسرائيل، فى الولايات المتحدة أقل مما هى فى إسرائيل"، وكان فى وسعه أن يضيف أن النقاش الذى يدور بالفعل مثير للضحك، فى بعض الأحيان، وقد قال ريتشارد آرمى فى "باسبول"، فى مايو ٢٠٠٢: إنه كان مع دولة فلسطينية، طالما كانت لا تعنى التخلى عن الأراضى التى تسيطر عليها إسرائيل[٢٦].

لعبة اللوم

قدم إيهود باراك، رئيس وزراء إسرائيل، فى مارس عام ٢٠٠٠، وعملية أوسلو على فراش موتها، وفرص إعادة انتخابه قد دنت، إلى الرئيس كلينتون، اقتراحاً جديدا جريئا - يقفز على ترتيبات أوسلو المملة، ويدعوه إلى قمة فى كامب ديفيد، تجرى فيها محادثات حول كل شىء - أو - لا شىء، فيما يتعلق بالتسوية النهائية، ورغم عدم توافر الوقت اللازم للإعداد، والوقت المحدود المتبقى له، ولولاية باراك المحتملة فى المكتب، ومخاطرة أن يكثف الفشل النزاع، وجد كلينتون فى ذلك فرصة ذهبية للوصول إلى اتفاق وربما إلى تراث لنفسه، وأمسك عليها بالنواجز، وأدى الفشل النهائى لهذه المقامرة إلى التفجيرات الانتحارية، وإلى انتخاب الصقر نصير إسرائيل الكبرى، شارون، كرئيس وزراء إسرائيل، وأعمال ثأرية إسرائيلية وحشية، والأكثر أهمية، أن المساهمة التى لا مفر منها للوم قد أدت إلى قبول عريض بين القادة

الإسرائيليين والأمريكيين لوجهة النظر التقليدية أن الفلسطينيين رفضوا العروض الإسرائيلية السخية؛ لأنهم فى الحقيقة يكرهون إسرائيل، ويفضلون تدميرها بالعنف، بدلا من السلام.

وقد عبر باراك نفسه، عن هذا القول أفضل تعبير؛ إذ أصر أثناء إفطار معى على أنه قدم لعرفات صفقة العمر: دولة فلسطينية منزوعة السلاح، على ٩٢٪ من الضفة الغربية و١٠٠٪ من قطاع غزة، مع تعويضات أرضية من إسرائيل ما قبل ١٩٦٧، وفك غالبية المستوطنات، وإعادة إسكان مستوطنين على قطعة أرض مساحتها ٨٪ من الضفة الغربية، تلحق بإسرائيل، وخلق عاصمة فلسطينية فى شرق أورشليم، والوصاية (لا السيادة) على جبل الهيكل، وعودة اللاجئين إلى الدولة الفلسطينية (وليس لإسرائيل الأصلية) وبرنامج معونة دولى ضخم، غير أن القائد الفلسطينى العجوز قال: لا، وأصر باراك على أن عرفات كان "يمثل" فقط، ويسعى إلى أقصى تنازلات إسرائيلية دون أن "يتفاوض بحسن نية"، إنه لا يثق بعمق فى عرفات فقط، ولكن فى العرب عامة، قائلا: إنه لا يوجد فى ثقافتهم شىء مثل "الحقيقة"، ومن ثم، فإنهم لا يحسون وخز ضمير إن كذبوا، أما لماذا يرفض عرفات مثل تلك الصفقة الظاهرة الجودة، فإن باراك يقول: يرجع ذلك إلى أن الفلسطينيين لا يؤمنون بأن لإسرائيل الحق فى الوجود، وأنهم يسعون إلى دولة فلسطينية على كل فلسطين، وهو يؤمن أن عرفات يرى فى إحصائيات السكان سلاحه الأساسى، ويقول: إن الفلسطينيين سوف يستفيدون من الديمقراطية الإسرائيلية؛ ليحولوا إسرائيل إلى "دولة لكل مواطنيها"، ثم يدفعون إلى دولة مزدوجة القومية حتى يمنحهم الإحصاء السكانى أغلبية، ومن ثم، نهاية "الدولة اليهودية"، وهو يقول أيضا: إن عرفات يخطط منذ البداية أن يستغل المباحثات للحصول على أكثر ما يستطيع الحصول عليه، ثم يطلق العنان لعنفه كوسيلة لوضع المزيد من الضغط على الإسرائيليين، من أجل التنازلات.

ويوافق دينس روس، كبير مفاوضى كلينتون فى كامب ديفيد، وإن لم يقل تماما مثلما قال باراك، على أن عرفات استحق أكثر اللوم للفشل، برفضه العرض، ثم إطلاق

سراح العنف، وهو يشبّه عرفات بـ "راكب الأمواج المتكسرة"، الذى لم يلحق بـ "الموجة الكبرى"؛ لأنه كان مهتما أكثر بمواصلة ركوب الأمواج أكثر من اهتمامه بالركوب إلى الشاطئ، ربما لأن شاطئ الدولة الفلسطينية المحدود ليس هو الشاطئ الذى يسعى إليه، وأشار كلينتون أيضا بأصبعه إلى عرفات قائلا: إنه لأول مرة فى التاريخ يقترح رئيس الولايات المتحدة صفقة قريبة للمطالب الفلسطينية التى مضى عليها زمن طويل، ويرفضها عرفات، حتى باعتبارها أساسا للمفاوضات(٢٧).

والأكثر أهمية، حتى مما يقوله هؤلاء الناس الأساسيون هو أن الرئيس الحالى بوش يصدقهم، ومن هنا جاء صبر بوش على تحدى شارون، ومن هنا جاء نداؤه، الذى يجمع بين متناقضين، من أجل انتخابات فلسطينية حرة لقائد جديد، لا يمكن أن يكون عرفات، ومن ثم، مساواته العنف الفلسطينى بالإرهاب الكونى، ومطالبته بوقف كل أشكال العنف قبل بدء مفاوضات السلام، ومن ثم، رفضه مقابلة عرفات، أو حتى مصافحته فى الأمم المتحدة، ولو كان المعتقد صحيحا، حتى وإن اتجهت أفعال ومنحى بوش نحو إثارة الفوضى، فقد كان البديل ضئيلا، ولكن ماذا لو لم يكن صحيحا؟

إن انطباعى، وقد تحدثت مع غالبية المفاوضين الأساسيين الذين يمثلون كل الجوانب - مشابهة لذلك الفيلم اليابانى "راشومون"، الذى يروى فيه كل واحد من عدة مشاركين، فى حدث واحد، ما بدا أحداثا عديدة مختلفة كلية، وقد أنكر عرفات ومفاوضه الرئيسى رفض صفقة ما، وأشاروا بإصبعهم نحو باراك، الذى أصر أنهما رفضاها بالفعل، وما يثير الاهتمام أكثر هو تحليل روبرت مالى، الذى كان واحدا من فريق الولايات المتحدة المفاوض، والذى كتب فيما بعد تقارير "تصحيح" عن المفاوضات تميل إلى الاتفاق مع بحثى الخاص ونتائج مقابلتى.

وحتى نبدأ فإن مالى يؤكد قلق عرفات، بسبب عدم توافر الوقت اللازم للإعداد، ومخاطر الفشل، وقد أخبر كلينتون، فى ١٥ يونيو عام ٢٠٠٠ بخوفه من أن كل شىء يمكن "أن ينفجر فى وجه الرئيس"، وقال: "إن القمة هى ورقتنا الأخيرة، هل تود حقا

أن تحرقها"[٢٨]، وكان الرد بـ نعم، وذهب عرفات حتى لا يجلب على نفسه غضب الولايات المتحدة، ولكن دون توقعات كبرى، إن خلفية عجلة باراك، وحذر عرفات، حاسمة لفهم ما بدا أنه قد حدث فعليا، كان رئيس الوزراء الإسرائيلى عميق الارتياب فى عملية أوسلو التدريجية، كانت بالنسبة إليه تعنى انسحابات عسكرية، دفعت إسرائيل ثمنا غاليا لها، دون أى شيء ملموس فى مقابلها، ودون أية فكرة عن المطالب الفلسطينية النهائية، وكان الاضطراب الفلسطينى المتزايد يخلق على قمة هذا ضغطا من أجل حركة أسرع، وقدمت صفقة سلام درامية، فرصة إنقاذ من وضعه الهابط فى استفتاءات ما قبل الانتخابات، وقد وجد أنه من الأفضل له لكل تلك الأسباب أن يتجنب آلة تقطيع السلام، وأن يتوجه إلى السندوتش كله، وقد أهمل، بسبب تركيزة على لعبة النهاية – عددا من الخطوات الفاصلة – والهامة للغاية، انسحاب جزئى ثالث للقوات فى الضفة الغربية، ونقل السيطرة من ثلاث قرى قرب أورشليم إلى الفلسطينيين، كانت إسرائيل ملتزمة بذلك طبقا لأوسلو والاتفاقيات التالية، وفى نفس الوقت تزايد توسع المستوطنات فى الضفة الغربية، لم يكن أى من هذه الأمور يحتاج، فى عقل باراك، الاهتمام؛ إذ طبقا للتحديد والتعريف فإن تسوية نهائية لا بد أن تحل كل تلك المشاكل.

وقد رأى عرفات – بالطبع – الأمور بطريقة مختلفة. لقد وجد هو أيضا أن أوسلو عملية مؤلمة، ولكن لأسباب مختلفة عن باراك، لقد تحول وعد أوسلو بالنسبة للفلسطينيين إلى سلسلة لا نهاية لها من التزامات لا تنفذ ومؤجلة، "بعد ست سنوات من عقد الاتفاقية كان هنالك المزيد من المستوطنات الإسرائيلية، وحرية حركة أقل، وأحوال اقتصادية أسوأ"، وفى تضاد لهذه الخلفية، أكد إهمال باراك للانسحابات المطلوبة على فترات، والخطى السريعة المتصلة بالمستوطنات، شكوك عرفات فى الإسرائيليين، وفى باراك ذاته، وكى يعيد طمأنة نفسه فيما يتعلق بالقمة، سأل عرفات كلينتون المزيد من الوقت للإعداد، وأيضا من أجل الإنجاز الإسرائيلى للالتزامات السابقة، بانسحابات جزئية للجيش، ورد كلينتون، الذى كان يشارك عرفات بعض

قلقه، بالحصول على وعد من باراك بأن الانسحاب الإسرائيلى سوف يُكمل بصفقة نهائية أو بدونها، كما وعد الرئيس عرفات أيضا بأنه لن يكون الملوم فى حالة الفشل قائلا: "لن تكون هنالك إشارة بالأصبع"، وعندما حان الوقت، لم يكن هنالك زمن إضافى للتحضير، ولا لانسحاب إسرائيلى، لكن عرفات ذهب؛ لأنه لم يكن أمامه خيار آخر.

كان النهج فى كامب ديفيد مختلفا تماما عن الصورة العامة للإسرائيليين والفلسطينيين الذين يواجهون بعضهم البعض عبر منضدة المساومة وهم يطرقون الاقتراحات طرقا تحت الإشراف الأمريكى، لم يقم باراك وعرفات البتة بأية محادثات حقيقية، لقد قضوا معظم الوقت فى حجرات منفصلة مع الأمريكيين يترددون عليهم جيئة وذهابا ينقلون الآراء والردود، إننى أستخدم التعبير "آراء" عن عمد؛ لأنه لم يكن هنالك أية اقتراحات رسمية مكتوبة من جانب إلى الآخر، كان الرسل الأمريكيون يأخذون الملحوظات ويقرؤونها للجانبين حتى يتأكدوا من فهمها، غير أن كل شىء كان مشروطا، كانت تقدم الآراء باعتبارها أمريكية أكثر منها اقتراحات إسرائيلية، وتبسط فى عبارات ترضى عنها إسرائيل لاستخدامها كأسس للمفاوضة، إن فعل عرفات نفس الأمر.

لم يكن فريق الولايات المتحدة يدفع فى إطار هذا النهج، بخطة من لدنه، لكنه كان يقوم بدور مُيسر رفيع المستوى للغاية، دون معرفة النقطة الجوهرية لكل من الجانبين، وقد احتاج وسطاء الولايات المتحدة لتحريك الكرة نحو الهدف إلى اقتراحات مضادة ليعودوا بها إلى الجانب الآخر، هنا انكشف الضعف الكبير للفلسطينيين، فرغم أنهم – كما أخبرنى عريقات فى أريحا – كانوا مبدعين فى ابتكار فكرة مقايضة الأرض حتى يسهلوا الإلحاق الإسرائيلى لبعض المستوطنات الرئيسية، وفى اقتراح سبل تحد من العودة الفعلية للاجئين إلى إسرائيل كجزء من الاعتراف بحق العودة وفى منح إسرائيل السيادة على المناطق اليهودية فى شرق أورشليم، فإن الفلسطينيين أثبتوا فى النهاية عجزهم عن إعطاء مفاوضى الولايات المتحدة خطة سلام متماسكة، ليس من

الواضح تماما، لماذا حدث ذلك، رغم أن العديد من العوامل لعبت دورا كان أحدها هو أنهم قد أُحرقوا فى الماضى فى اتفاقيات ملتبسة وعارضة، وإن كانت هذه هى المبادرة النهائية فيجب أن تكون واضحة وضوح البلورة، وأن تكون مدونة، وألا يترك شىء للخيال، ومع ذلك، لم تكن تلك واضحة، إنها حقا المباراة الأخيرة لأن باراك لم يلتزم البتة، بصورة نهائية بأى وضع. كانت تلك هى الحيلة الثانية والعشرين. لم يرغب باراك فى الكشف عن نقطته الجوهرية حتى يظهر عرفات أنه جاد، وعرفات لم يكن فى وسعه تحمل فعل أى شىء حتى يكون فى وسعه رؤية النقطة الجوهرية.

العامل الآخر، كان الوضع السياسى المحلى المتجزئ للفلسطينيين، مما أدى إلى انقسامات فى فريق التفاوض، الذى كان قد بدأ يتكهن بخليفة لعرفات المسن. واخيرا رأى الفلسطينيون أن قبول آراء الولايات المتحدة، حتى باعتبارها "أسسا لمزيد من التفاوض"، مشحونة بالأخطار الماكرة وإن كانت هامة، وبينما كانت الآراء مثيرة للاهتمام من بعض أوجهها، إلا أنها صامتة فيما يتعلق باللاجئين، ومختلة التوازن فيما يتعلق بتبادل الأرض، وتركت "جبل الهيكل" والكثير من أورشليم العربية تحت السيادة الإسرائيلية، كان قبول الآراء المقترحة يخيف الفلسطينيين، على أساس أن ذلك قد يدمر الوضع الفلسطينى الأساسى بنقل الحديث من الالتزامات الإسرائيلية، فى ظل قرارات الأمم المتحدة، إلى آراء الولايات المتحدة الغامضة غير الواضحة، وعلى أية حال، فإن السؤال الذى كان يثير عذابا شديدا هو لماذا لم يعد عرفات باقتراحات أفضل، وقد أخبرنى العديد من القادة الفلسطينيين الهامين أنهم يعتقدون أنه قد فاتته فرصة كبرى؟

ولم يواجه باراك، فى ذات الوقت – على أية حال – ضغطا من الولايات المتحدة كى يوقف، دعك من حل المستوطنات التى ظلت الولايات المتحدة تدعوها بغير الشرعية مدة خمسة وثلاثين عاما، لقد قام كلينتون وفريقه بدور أكثر شبها برسل، أكثر منهم قادة أقوياء معهم سند حيوى فى قرار صائب، والوسائل لتحقيقه، ومن ثم انتهت قمة كامب ديفيد دون نتيجة لعدة أسباب.

غير أن تلك لم تكن نهاية المناقشة، تواصلت المحادثات بين الجوانب الثلاثة خلال خريف عام ٢٠٠٠، وفى ٢٣ ديسمبر، ولم يكن متبق غير أقل من شهر على مدته الرئاسية، قدم كلينتون مجموعة جديدة من المقترحات تعطى الفلسطينيين أرضا أكثر، وحق العودة للاجئين إلى دولة فلسطينية جديدة محتملة (وليس لإسرائيل) ووضع أقوى فى أورشليم، وظل عرفات حذرا، لكنه أخبر كلينتون، عندما التقيا فى ٢ يناير ٢٠٠١، أن فى وسع الرئيس إخبار باراك أننى "أقبل معاييرك، ولدى بعض وجهات النظر التى يجب أن أعبر عنها، وفى نفس الوقت، فإننا نعرف أن للإسرائيليين وجهات نظر يجب أن نحترمها".

وظهر عند هذه النقطة أن لباراك تحفظاته، التى أوصلها إلى كلينتون بصورة شخصية، وبعد ثلاثة أسابيع غادر كلينتون المسرح، غير أن الإسرائيليين والفلسطينيين واصلوا المحادثات المباشرة فى طابا، وانتهت تلك، ليس لأن الطرفين رفضا صفقة ما، ولكن لأن الانتخابات الإسرائيلية جاءت قبل إمكان إنهاء المباحثات، وأصدر باراك، الذى كان قد دبر حملة من أجل تفويضه لمواصلة المباحثات - بيانا مشتركا مع الفلسطينيين يقول: "يعلن الطرفان أنهما لم يكونا البتة أقرب للوصول إلى اتفاق، ومن ثم فإن إيماننا المشترك هو أن الفجوات المتبقية يمكن اجتيازها باستئناف المفاوضات التالية للانتخابات الإسرائيلية"(٢٩).

وللحال أعلن أريل شارون، رئيس الوزراء الجديد، أن طابا ميتة، كما أعلن معارضته لأى مزيد من محادثات السلام، لقد سقط باراك، جزئيا؛ لأن العنف تصاعد سريعا منذ نهاية سبتمبر، مدمرا مصداقية مبادرته السلامية، وكان الجزء الثانى من الاعتقاد بلوم عرفات هو اتهامه بأنه هو الذى خطط لهذا العنف وأطلق سراحه فى أعقاب الفشل، فى الوصول لاتفاقية، فى كامب ديفيد، حتى يوقع المزيد من الضغط على الإسرائيليين، من أجل الحصول على تنازلات، غير أن نظرة مدققة للأمور، تطرح، مرة أخرى، صورة أكثر تعقيدا.

لقد أصبح معروفا فى آخر سبتمبر أن شارون يخطط لمسيرة إلى جبل الهيكل/ الحرم الشريف، وقام عرفات بزيارة باراك فى منزله يتوسل إليه أن يوقف المسيرة، إلا أن باراك طبقا لعرفات قال: إنه لا يستطيع فعل شىء، كما قال باراك فى بيانات متتالية إن ذلك كان شأنا سياسيا إسرائيليا داخليا، تم التنسيق حوله مع مسئولى الأمن الفلسطينى، وأنه لا علاقة له بانفجار العنف الذى تلاه، لم تكن هذه هى وجهة نظر المراقبين المطلعين فى ذلك الوقت، فقد قال دنيس روس، عن سيرة شارون: "فى وسعى أن أفكر فى قدر كبير من الآراء الرديئة، لكننى لا أستطيع التفكير فى واحد أسوأ"، كان من الواضح، وله سمعته المعادية للسلام، والمعادية للفلسطينيين، والقلق السائد - أن هذا الحدث سوف يكون حدثا استفزازيا، ويبدو أنه كان محسوبا هكذا، فى لحظة يمكن أن يمنح فيها الاستفزاز شارون حصصا انتخابية، وفى ٢٨ سبتمبر، بدأ شارون جولته الصغيرة، مصحوبا بألف ضابط شرطة إسرائيلى، وجاءت فى اليوم التالى المظاهرات العنيفة، التى كان عليها أن تنفجر خلال الشهور التالية، وطبقا للتقرير الذى قدمه جورج ميتشيل، قائد أغلبية مجلس الشيوخ، باعتباره رئيسا للجنة التى تشكلت لتحديد سبب العنف - أن النزاع بدأ عندما ووجه عدد كبير من المتظاهرين الفلسطينيين، غير المسلحين، بفرقة كبيرة من الشرطة الإسرائيلية، "ألقى الفلسطينيون الحجارة قربى الحائط الغربى، واستخدمت الشرطة الذخيرة الحية لتفريق المتظاهرين، فقتلت أربعة وأصابت ٢٠٠"، كما أصيب أيضا أربعة عشر شرطيا إسرائيليا، وارتفع عدد القتلى الفلسطينيين سريعا خلال الأشهر الثلاثة التالية. وطبقا لتقرير ميتشيل فإن "الفلسطينيين لم يستخدموا فى أغلب الأحداث أسلحة نارية أو مفرقعات"[٣٠].

وفى نهاية الأسبوع الأول، كان أكثر من ستين فلسطينيا قد قتلوا، جنبا إلى جنب مع خمسة إسرائيليين، واشتكت مجموعات دولية عديدة من استخدام الجيش الإسرائيلى المفرط للقوة، ويؤمن العديد من الفلسطينيين، وكذا بعض الإسرائيليين، الذين تحدثت إليهم أن الجيش الذى تزداد هيمنة الأجنحة اليمينية والمخلصين لشارون

عليه، قد استخدم عمدا القوة المفرطة حتى يستفز انتفاضة يمكن أن تبرر إنهاء محادثات السلام، والعودة بكثافة إلى الأراضى المحتلة.

وبغض النظر عن حقيقة ذلك التخمين، فإن وجهة نظرى ليست تبييضا للفلسطينيين أو حلهم من تبعة اللوم، إما بسبب الفشل فى كامب ديفيد، أو العنف الذى دمر المنطقة خلال السنتين الماضيتين، إننى أومن أنا وعدد من الفلسطينيين يوافقون أن عرفات ارتكب خطأ هائلا بعدم استجابته بطريقة أكثر إيجابية، وخلاقة، فى كامب ديفيد، غير أن الفشل والعنف لم يكونا فقط بسبب عرفات، ولم يكونا بالتأكيد إعلانا عن تكريس متواصل لتحطيم إسرائيل.

المشكلة الحقيقية

إن هذا يصل بنا إلى مشكلة الحقيقة؛ إذ رغم أن العقيدة خطأ، غير أن سياسة الولايات المتحدة تقوم عليها، ونتيجة ذلك، فإن أفعالنا تزيد من العزلة الكونية لأمريكا، تماما فى اللحظة التى نحتاج فيها إلى قليل من الأصدقاء، هنا قام مسئول كبير فى سفارة الولايات المتحدة فى تل أبيب، بشرح الوضع لى: "إن الحكومات الإسرائيلية مكونة دوما من ائتلافات، وتلك حقيقة تمنح الأحزاب المتطرفة قوة غير متكافئة، وذلك يجعل إسرائيل، بصورة مؤثرة، رهينة للمستوطنين، ولجمهور إسرائيل الكبرى، إنهم يريدون أيضا دولة، واقتران الرغبة فى الأرض، بالرغبة فى دولة يهودية، يقتضى ضمنا، بطريقة لا مفر منها، إما نوعا من التطهير العرقى، أو أبارتهيد على النمط الجنوب الإفريقى، إن الحل العملى الوحيد هو تسوية، من نوع ما، تفرضها الولايات المتحدة، ربما مقترنة بالناتو، ولكن لأن جماعة الضغط الإسرائيلية المسيحية بالولايات المتحدة، هى وراء إسرائيل بنسبة ٢٠٠٪، وتسيطر على الكونجرس الأمريكى، فإن ذلك لن يحدث"، وفى وسعى أن أضيف فقط أنه لولا يقظة مجموعات الضغط والكونجرس والبيت الأبيض، فإن المتوقع من الولايات المتحدة أن تصب المزيد من بلايين الدولارات

فى توسع المستوطنات الإسرائيلية، إن هذه السياسة سوف تحفز العنف، وتؤدى إلى ثأر وحشى؛ مما يجلب للولايات المتحدة المزيد من الازدراء الكونى، وسوف يرتد السلام، الذى تريده كل الأطراف، فقط إلى الوراء.

تايـــوان

لما كانت الصين هى أكثر بلدان العالم كثافة سكان، وأسرعها تطورا، وأغناها وأكثرها قوة، فإن علاقات أمريكا معها هى على الأرجح العلاقة الثنائية الأكثر أهمية فى العالم، منذ الانفتاح على الصين عام ١٩٧٢، استهدفت سياسة الولايات المتحدة قبل الصين تطبيع العلاقات، وفطمها بعيدا عن اقتصاديات التخطيط المركزى والسياسات الشيوعية، وقد نجحت هذه السياسة واقعيا، بأى معيار من المعايير، لقد غدت الصين موقع اختيار رجال الصناعة الكونيين، واستثمرت الشركات الأمريكية وحدها فيها حوالى ٤٠ مليار دولار[٣١]، كما غدت أيضا عضوا فى منظمة التجارة العالمية، بدعم كامل من الولايات المتحدة، كما غدت مستثمرا هاما فى الولايات المتحدة، إن الصين بالإضافة إلى تبنيها الرأسمالية، فتحت أيضا بطريقة دراماتيكية نظامها الاجتماعى والسياسى، وبينما هى بالقطع ديمقراطية، فإن حقوق وحريات الناس اليومية قد ازدادت كثيرا، يجب أن تكون هنالك، طبقا للظواهر، مشاكل قليلة بين الولايات المتحدة والصين، شىء واحد يمكن أن يبطل هذا التقدم، ذلك هو تدخل الولايات المتحدة فى علاقات تايوان والصين.

إن وضع تايوان بالنسبة للصين أمر أساسى من أمور السيادة الوطنية، والتخلص من آخر الحكم شبه الكولونيالى، إنه أيضا من أمور إنهاء الحرب الأهلية الصينية، التى انتهت على الأرض الرئيسية عام ١٩٤٩، إن الصينيين يرون فى أى تدخل أجنبى، فيما يتعلق بتايوان تدخلا غير مقبول فى شئونهم الداخلية، وبينما تايوان جزء من امتداد الصين، فإن المشابهة هنا يمكن أن تعاون فى فهم الموضوع، إن لابنتى

منزلا فوق جزيرة "ماوي"، يطل على قناة ماوى، وجزيرة "كاهولاوي" غير المسكونة، وقد قامت في السنوات الأخيرة حركة استقلال "هاواينية" بين بعض أخلاف السكان البوليزيين الأصليين من الجزيرة، تصور أن الهاوايتيين المطالبين بالاستقلال يجب أن يحتلوا كاهولاوى، ويعلنون ملكية جديدة لهاواى، لا شك أن الولايات المتحدة سوف ترسل حرس الشواطئ أو الأسطول لقمع الثورة، والآن لنفرض أنه كان على الصينيين أن يرسلوا أسطولهم لحراسة قناة ماوى، حماية للدولة الهاواينية الجديدة من الأذى، أنا أعرف أن ذلك غير محتمل، ولكن إن حدث عليك أن تتصور الغضب الذى يمسك بكل أمريكى.

كان ذلك تحديدا هو الغضب الذى التقيت به عندما قمت بجولة عبر الصين فى ربيع ٢٠٠٢. ما من اجتماع يمكن أن يبدأ وينتهى إلا على موضوع تدخل الولايات المتحدة فى تايوان، ولماذا أرادت الولايات المتحدة المخاطرة بحرب حول شأن هو هَم لكل الصينيين. لماذا حقا؟ قبل أن نشرع فى ذلك، دعونا نتناول هذا الصخب.

أعلنت الولايات المتحدة، فى ٢٤ إبريل عام ٢٠٠١ عن عملية بيع ضخمة لأسلحة إلى تايوان، كانت حزمة ٤ مليار دولار اشتملت على أربعة مدمرات، وستة طائرات مضادة للغواصات، وثمانية غواصات قادرة على إطلاق، ليس فقط طوربيدات، ولكن أيضا صواريخ كروز، كانت هذه هى المرة الأولى التى تبيع فيها إدارة الولايات المتحدة بصورة واضحة إلى تايوان، وقد اقترن البيع باتفاقية غير مسبوقة، مدت فيها الولايات المتحدة تدريبها لقوات تايوان، لاستخدام أنظمة أسلحة متقدمة، جاء الإعلان بعد ساعات فقط من إخبار السفير الصينى، فى الولايات المتحدة، لمستمعيه أثناء غداء مأدبة صغيرة أن علاقات الصين والولايات المتحدة، عند مفترق طرق، إن بيع الولايات المتحدة المتواصل لأسلحة متقدمة لتايوان يهدد الأمن القومى للصين، وينتهك سيادتها، ويشجع القوى الانفصالية على تلك الجزيرة الصينية[٣٢].

وقد نُظر إلى البيع باعتباره نصرا كبيرا لتايوان (وخاصة للتايوانيين الذين يدفعون نحو الاستقلال)، وجماعات الضغط فى الولايات المتحدة (بما فيهم سيناتور ترنت لوت، جمهورى من المسيسيبى؛ حيث ستبنى السفن، ومعهدان كبيران يحصلان على منح ضخمة من تايوان) والذين أحبطهم تأجيل كلينتون لاقتراحاتهم، بينما كان يسعى إلى ارتباط بالصين.

وكانت تعليقات الرئيس فى اليوم التالى هى الأكثر إثارة للدهشة، قال بوش: إن الولايات المتحدة سوف تفعل "كل ما يمكن فعله لمعاونة تايوان على الدفاع عن نفسها"، حتى إذا اقتضى الأمر القوة الكلية، للقوى العسكرية الأمريكية[٢٣]، ورغم أن الصين أسمت هذا "استفزازا صريحا"، فقد تبعته فى الأشهر التالية زيارات من كبار مسئولين عسكريين تايوانيين ليلتقوا "بصورة غير رسمية" بسلطات دفاع الولايات المتحدة، وبتوسيع تدريب الولايات المتحدة والتنسيق مع القوات العسكرية التايوانية.

إن المشكلة فى كل هذا والسبب فى إثارتها حنق بكين، هى أنها كانت انتهاكا كاملا لروح، واحتمال نص "البيان المشترك" فى ١٧ أغسطس عام ١٩٨٢ وهو واحد من ثلاث وثائق تحكم علاقات الولايات المتحدة بالصين، إن الولايات المتحدة تكرر فى تلك الوثيقة بصورة تثير الضجر "أنه ليس فى نيتها انتهاك سيادة الصين وسلامة أراضيها، أو التدخل فى الشئون الداخلية للصين، وممارسة سياسة صينين أو صين واحدة، وتايوان واحدة"، كما قالت الولايات المتحدة: "إنها لن تسعى إلى تنفيذ سياسة طويلة المدى لمبيعات أسلحة لتايوان، حتى إن مبيعاتها أسلحة لتايوان لن تتجاوز، كمًا أو كيفًا، مستوى تلك التى أمدتها بها فى السنوات القريبة، وأنها تنوى منذ أُقيمت علاقات دبلوماسية بين الولايات المتحدة والصين – التخفيض التدريجى لمبيعاتها من السلاح إلى تايوان؛ مما يؤدى عبر فترة من الزمن إلى حل نهائى.

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى ظهرت فيها الولايات المتحدة، وهى تخرق هذه الاتفاقية. فقد أعلن الرئيس بوش الأول، فى الحملة الساخنة للانتخابات الرئاسية عام

١٩٩٢ بيع ١٥٠، ف - ١٦ مقاتلة إلى تايوان (طائرات أكثر تفوقا بكثير من أى شىء فى مخزون الأرض الأساسية الصينية"، فى جهد واضح ليدعم قاعدته السياسية فى تكساس حيث تصنع الطائرات، وليتملق الجناح اليمينى الجمهورى، المعادى للصين، كسبا لرضاه، والمعروف بمجموعة ضغط الصين، وأكثر قربا، بمجموعة ضغط تايوان، ولفهم ما يجرى هنا، فإنك تحتاج إلى معرفة بعض من التاريخ.

كانت الصين، فى نهاية القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين هى الغاية المختارة للمبشرين البروتستانت الأمريكيين، كان إنقاذ الصين هو المعادل التبشيرى للهدف التجارى لتزويد لمبات الصين بالزيت لإضاءتها، أتذكر فى صباى زيارات المناسبات التى يقوم بها المبشرون فى الصين، والتى كانت تدعمها كنيستى، كان من بين المبشرين والدى هنرى ب.لوس، مؤسس ومحرر مجلة "التايم"، والذى وصفهما تيودور هوايت باعتبارهما أكثر صانعى الأفكار قوة فى أمريكا، وقد ذكر هوايت أيضا: "إن ما كان يستهدفه المسيح، وما تستهدفه أمريكا قد اتحدا فى عقل لوس، فى نمط غير معقد، غاية فى البساطة، وعانق ما استهدفه الاثنان، الشعب الصينى[٢٤]، وكان من بين الصينيين الذين عانقهم، الجنراليسمو ومدام شيانج كاى - شك اللذين أطلقت عليهما التايم عام ١٩٣٧، "رجل وزوجة العام". كان شيانج قائد الكومنتانج أو "حزب الصين الوطنى" - قد عمل على فرض سيطرة غير محكمة على أمراء الحرب فى الصين، وكان يتحرك لتوحيد البلاد محرزا بعض النجاح، لولا المقاومة العنيدة لحلفائه السابقين الشيوعيين الصينيين بقيادة ماوتس تونج، وكانت "مدام"، أو "مى لينج" ابنة ت.ف.سونج، واحدة من أغنى رجال الصين، وقد حقق ثروته من نشر الكتب المقدسة، كانت المدام خريجة كلية ويلسلى، وهى ميثودية(*) أقنعت شيانج بالاهتداء إلى المسيحية، وكانا هما الاثنان من قادا الصين عندما أخذت الحرب الثانية تهدأ، واللذان

(*) اتباع الحركة الدينية الإصلاحية عام ١٧٢٩، فى محاولة لإحياء كنيسة إنجلترا. (المترجم)

اعتمد عليهما لوس والمبشرون، وقالت الـ "ميثونارى رڤيرأوف ذى ورلد": "الصين لديها الآن أكثر الحكام استنارة، ووطنية، وقدرة فى تاريخها"[٣٥].

لم تكن تلك هى وجهة النظر التى انطلقت فى عقل الجنرال جوزيف ستالين بعد أن تعامل مع شيانج والمدام باعتبارها الجنرال القائد لقوات الولايات المتحدة على مسرح الصين - بورما - الهند، ورئيس أركان شيانج، كان ستيل ويل، الذى عرف بـ جو فينيجار (جوالِنكد)، بسبب آرائه الفظة، متحدثا صينيا سلسا، وقد وصف ستيل ويل، بعد سنوات من الإحباط مع شيانج، الذى بدا أكثر اهتماما بتسخير موارده من أجل حسم نهائى مع شيوعى ماو بدلا من تسخيرها فى القتال ضد اليابانيين، وصف المشكلة وصفا بليغا، "المشكلة فى الصين بسيطة: نحن نتحالف مع جاهل، أمى، متطير، فلاح ابن عاهرة"[٣٦]، وبينما وجد ستيل ويل الشيوعيين حازمين، ومنظمين، ومتلهفين على قتال اليابانيين، وجد جنود شيانج دون غذاء، ودون رواتب؛ لأن الجنرالات سرقوا النقود، ومنتشرين ضد الشيوعيين أكثر من انتشارهم ضد اليابانيين، وبينما قاتل ستيل ويل ببسالة ليصلح ديكتاتورية شيانج، التى يستحوذ عليها الابتزاز، وذلك بهدف تحقيق درجة من السيطرة، تمكن من إنزال جيش صينى حقيقى، إلى الميدان، فى ارتباط مع الشيوعيين، ضد اليابانيين، استخدمت المدام مفاتنها واتصالاتها وصحافة لوس السخيفة لاستبعاد ستيل ويل، وقد عبرت خاتمة هوايت عن ذلك بصورة أفضل، "كنت قد بدأت الاعتقاد بأن الحكومة الصينية كانت عاجزة كلية على الحكم، لقد كان (شيانج) ليس فقط بلا قيمة لنا، لكنه كان بلا قيمة لشعبه أيضا، وذلك كان أكثر أهمية، لو أن ستيل ويل كان قد نجح فى تحقيق طريقه، ربما ما كان الشيوعيون قد كسبوا الصين، وإن كسبوها فإنهم كانوا سيكسبونها كحلفاء لنا، أو على الأقل ما كانوا ينظرون إلينا كأعداء".

إلا أن ستيل ويل لم ينجح فى تحقيق طريقه، وبعد أن استسلم اليابانيون اندلعت الحرب الأهلية بين وطنى شيانج وشيوعى ماو فى ضراوة متجددة، ورغم بلايين الدولارات معونة من الولايات المتحدة، وأطنان المعدات والأسلحة التى جرى الإمداد

بها، لم يكن ذلك صراعا، لقد سار الشيوعيون عبر قوات شيانج مثل سكين ساخن عبر الزبد، وأسروا وهاجموا كل الأسلحة التى أمدت بها الولايات المتحدة الوطنيين، وبدا وكأن الأمريكيين كانوا يمدون الشيوعيين بينما كان الوطنيون يلعبون دور القائم بتسلم الطلبات، ووصف هوايت النظام المتآكل والحكم الذى كانت أمريكا مقيدة إليه، وكأنه عملية ضم "ما هو أسوأ فى ملامح البهو - التامانى(*) لمحكمة التفتيش الإسبانية"(٣٧)، إلا أن لوس لم يكن ينشر الأخبار السيئة؛ لأنها كانت تدمر فلسفته عن العالم.

لم يكن لوس هو الوحيد الذى عجز عن مواجهة الحقيقة؛ إذ بينما كان هوايت يرسل بنسخة لا تنشرها التايم، فإن مجموعة من المتخصصين فى الشأن الصينى، فى المخابرات الأجنبية للولايات المتحدة، بما فيهم جون سيرفيس، كانوا يرسلون إلى واشنطن رسائل مماثلة، لم يكن يقرؤها المسئولون، وفى النهاية، ترك هوايت التايم، واستولى الشيوعيون على الأرض الأساسية للصين، وهرب شيانج وسبائك ذهب الصين إلى جزيرة تايوان؛ حيث ظل هو والمدام أحياء، وطُرد جون سيرفيس من الخدمة حيث وجه إليه السيناتور جو مك كارثى، والجناح اليمينى المحافظ، وخبراء أخرون فى الشأن الصينى اللوم "لفقدان الصين".

ما أن أصبح شيانج فوق تايوان، حتى أمر بإعدام عدة آلاف من المعارضين، وأسس ديكتاتورية وطنية، فرضت الحكم العرفى قرابة أربعين عاما، وأكد أن حكومته هى الحكومة الشرعية، وأنه سوف يعود ويستولى على الأرض الأساسية، وسرعان ما اعترفت غالبية البلدان بذلك، سواء أحبته أو لم تحبه؛ حيث سيطر نظام ماو الشيوعى على كل الصين باستثناء تايوان، وأقامت تلك البلدان علاقات دبلوماسية مع بكين، دون الولايات المتحدة على أية حال، ودافعت الولايات المتحدة عن قصة شيانج فى تايوان،

(*) التامانى هو الساعى إلى التمتع بالسلطة بطرق كثيرا ما تكون فاسدة أو مشبوهة. (المترجم)

باعتباره الحكومة الشرعية للصين مدة ثلاثة وعشرين عاما، حتى بدأ نيكسون فى النهاية إعادة البلد إلى الواقع بفتحه الصين عام ١٩٧٢.

إن ما كان يكمن وراء هذه الممارسة فى تصورى، هو جماعة ضغط الصين، فى ارتباط بالحرب الكورية؛ إذ فور هروب شيانج إلى تايوان عام ١٩٤٩، أعلن دين أتشيسون وزير الخارجية أن "فرموزا" (أى: تايوان) كانت خارج محيط دفاع الولايات المتحدة، وهى إن كانت قد ظلت كذلك لكان الشيوعيون، دون شك، قد أنهوا الحرب الأهلية بالاستيلاء على الجزيرة بسرعة تامة، ولكن عندما نشبت الحرب الكورية أُرسل "أسطول الولايات المتحدة السابع" إلى مضايق تايوان لحراستها، ومن أجل الجيل التالى، قامت التايم، والمنظمات الدينية، والقادة السياسيون مثل سيناتور والترجورج، وجون فوستر دالاس، ودين رسك بإقناع الرأى العام الأمريكى أن ديكتاتورية شيانج الفاسدة فى تايوان كانت هى بطلة الحرية والديمقراطية.

كانت حيلة نيكسون لإقامة علاقات ودية مع بكين هى كيفية التخلص من شيانج دون جعل الولايات المتحدة تبدو وكأنها تحنث بوعدها حول جيل من الدعم، وقد تم تحقيق ذلك من خلال "الازدواجية الخلاقة"، وخفة يد بليغة، وانتهزت الولايات المتحدة فرصة حقيقة أن شيانج ما يزال يرعى قصة أنه حكومة الصين الشرعية، وأنه سرعان ما سيعود ليسيطر على الأرض الأساسية؛ لتحدد الصين فى البيان مسألة تايوان باعتبارها الموضوع الذى يعوق تطبيع العلاقات، وأكدت معارضتها لأى وضع لتايوان غير أنها جزء متمم للصين، ولما كانت وجهة نظر شيانج مماثلة، وإن يكن لأسباب مختلفة، فقد أعلنت الولايات المتحدة أنها "تعترف أن كل الصينيين على جانبى مضيق تايوان الذين يعيشون هناك صين واحدة، وأن تايوان جزء من الصين، كان ذلك عملا ذكيا رغم أنه كان عملا ماكرا مخادعا، غير أن ما تلى ذلك وضع التزاما على الولايات المتحدة، وأكد البيان الرسمى أن "الهدف النهائى هو انسحاب كل قوات الولايات المتحدة والمنشآت العسكرية من تايوان، لكن كلمة نهائى يمكن أن تعنى زمنا طويلا منذ الآن، خاصة أن مبيعات أسلحة الولايات المتحدة، والعلاقات العسكرية مع

تايوان استمرت بكامل قواتها، كما تم الإبقاء على السفير الأمريكى لدى الصين فى "تايبيه"(*).

وظل الأمر كذلك حتى عام ١٩٧٩، وإصدار البيان الرسمى الثانى المشترك، وعندئذ وافقت الولايات المتحدة والصين على إقامة علاقات طبيعية، وبفعل ذلك، أعادت الولايات المتحدة تأكيد مبدأ الصين الواحدة، ووافقت على قطع العلاقات الرسمية بتايوان، وإقامة سفارتها فى بكين، وإنهاء معاهدة دفاعها المشترك مع تايوان، وسحب كل قوات الولايات المتحدة من الجزيرة، وتُرك موضوع مبيعات السلاح دون حل، وبدا هذا وكأنه يمكن أن يجعل من ابن شيانج، شينج كو، والذى هو الآن رئيس النظام الوطنى شيئا ما، لا يزيد عن حاكم إقليم صينى - غير أن المدام وربيبها ما يزال لهما أنصار فى صحافة تصورهما كأبطال فى النضال من أجل الحرية، رغم ثلاثين عاما من الرقابة على الصحف والحكم العرفى فى تايوان.

وكان لهما أصدقاء فى الكونجرس أيضا، كانت إدارة كارتر قد أعدت مسودة مشروع قانون لتقديم عدد ضخم من البيانات القانونية عن انتقال الاعتراف الدبلوماسى للولايات المتحدة من تايبيه إلى بكين، إن هذه الوثيقة القانونية الرقيقة فى الأساس تحولت عام ١٩٧٩ إلى قانون العلاقات مع تايوان بواسطة مجموعة تمثل حزبين من رجال الكونجرس المتعاطفين مع تايوان يقودهما صديقنا القديم السيناتور جيسى هيلمز جنبا إلى جنب مع السيناتور تيد كينيدى، ديمقراطى من ماساشوستس، وكان هنالك فى القلب من القانون شرط لبيع أسلحة لتايوان تكفيها دفاعا عن نفسها (أيا كان معنى ذلك)، والتزام من الولايات المتحدة بمقاومة أى لجوء إلى القوة أو الإكراه ضد تايوان، كما أوجد القانون شبه سفارة رسمية فى تايبيه،

(*) عاصمة تايوان. (المترجم)

و"المعهد الأمريكي فى تايوان"، وهو منظمة خاصة مندمجة فى واشنطن دى.سى.، وتمولها حكومة الولايات المتحدة، ولها مجلس من الأمناء يعينه وزير الخارجية.

يحتمل لو كنت صينيا أن ترى هذا القانون مدمرا لوعود الولايات المتحدة التى قطعتها فى "بيانها الرسمى الثانى"، وتلك فى الحقيقة كانت رؤية الصينيين لها بالضبط. وطالبوا بإيضاح، فأنتج ذلك "البيان الرسمى الثالث" فى أغسطس عام ١٩٨٢، لم يكن الصينيون فى كل هذا، دون عيب، بالطبع، لقد أقاموا قوة صاروخية فى مواجهة تايوان، واستعرضوا بعض الطلقات الصاروخية عام ١٩٩٦ وحذروا من الحرب، إن أعلنت تايوان الاستقلال، لقد أصيبوا بالإحباط؛ لأن ضمانات الولايات المتحدة مكنت النظام فى تايوان من مقاومة مناقشات جادة فيما يتعلق حول نوع من التوحيد طبقا لنمط هونج كونج، ومن ثم فإن أفعالهم فى بعض الأحيان لم تكن سارة بل وحتى مخيفة، لكنهم كانوا يفكرون حينئذ بأن تلك بلدهم، إن مشابهة مثل "ماوى" الخيالية الخاصة بى، والتى غالبا مايذكرها المتحدثون الصينيون: ما الذى كانت تحس به الولايات المتحدة، لو أن الصين أرسلت قواتا لدعم التحالف خلال الحرب الأهلية الأمريكية؟

من حسن الحظ، على أية حال، إنه ليس علينا أن نجيب على ذلك السؤال، ومع انتهاء "الحرب الباردة" اختفت فائدة الصين كشبه حليف للولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفيتى، إن ذلك، جنبا إلى جنب مع تطور نظام ديمقراطى فى تايوان بعد لأى، أدى إلى حركة بين المحافظين الأمريكيين لدعم "إعلان استقلال تايوان"، وذلك شىء لم ينل دعم الأغلبية هناك، رغم النقاش الكثير، ولكن حدث بسببه النمو السريع للاقتصاد الصينى، خلال السنوات العشر الماضية، أن اندفع رجال الأعمال من تايوان فى أفواج يحركون مصانعهم إلى الأرض الرئيسية. وقد حاول نظام تايوان يائسا الحد، فى البداية، من الاستثمار وتدفق التكنولوجيا المتطورة، ولكن ذلك كان مثل مطالبة المد بألا يتجه إلى الخارج، إن رجال الأعمال من تايوان هم الآن أكبر المستثمرين فى

الصين، هنالك حوالى نصف مليون من المقيمين السابقين فى تايوان يعيشون الآن فى شنغهاى، مع المزيد الذى يلحق بهم، ومن ثم، ربما يجد بوش نفسه "يفعل أى شىء مهما اقتضى الأمر" لحماية تايوان حتى يطفئ آخر مقيم فى تايوان النور ويبحر إلى الأرض الرئيسية، إننى بينما أكتب، فإن رحلة الطيران التجارية الأولى بين تايوان وأرض الصين الرئيسية منذ عام ١٩٤٩، قد حدثت، فى الحقيقة، هذا الأسبوع (٢٦ يناير عام ٢٠٠٣)؛ ولذا فإن آخر مقيم ليس عليه أن يبحر، ولكن فى وسعه أن يطير بالدرجة الأولى.

مغزى القصص

إن أمريكا بسياستها نحو إسرائيل وتايوان، تواصل إلحاق الضرر البالغ بنفسها، وتخلق عداوة كثيفة، لا حاجة لنا بها، نحو نفسها بسماحها بتشويه وجهة نظرها عن الحقيقة، بواسطة مجموعات مهتمة بذاتها بشدة، وتحول عينيها عمدا عن الدليل المناقض، إن نظام حكومتنا، بما فيه انفصال القوى، يسهل للأقليات التى تكرس نفسها لغرض معين، كى تمسك بمواقع رئيسية، وهى فى بعض الأحيان متأثرة للغاية بعناصر أجنبية تتصادم مصالحها مباشرة مع تلك التى للولايات المتحدة، إن سيناتور من ولاية بها أقل من مليون مواطن يمكن أن يقبض على السياسة الخارجية للولايات المتحدة إن أمسك هو أو هى بالرئاسة المناسبة فى الوقت المناسب، إن قوتنا الكبرى تمكننا، كما أشرت، من تجنب مواجهة للواقع لآماد طويلة من الزمن، ويمكن أن تؤدى إلى تحقيقنا أضرارا بالغة، ليس فقط للآخرين، ولكن لأنفسنا أيضا.

وفى هذا الصدد فإن على صحافتنا أن تجيب على الكثير، لقد مر وقت طويل قبل أن تكتب الصحافة عن الحقيقة فى فيتنام، وهى لا تزال لا تروى حقيقة إسرائيل وفلسطين وتايوان، ومناطق أخرى عديدة حاسمة؛ لأنها فى الغالب أصابتها

أيديولوجيتها المقتنعة بها سابقًا بالعمى، أو الخوف من تحدى تحامل وتحيز قرائها، وأخيرا، على أية حال، فإن المشكلة ترقد مع هذا الجمهور من القراء، مع اهتمامات، فى الغالب الأعم، ببلدان انتقائية، ومؤقتة أو كتعبير عن تحيزاته العرقية والدينية والسياسية، إن الأمريكيين يميلون إلى التفكير فى البلدان الأخرى، ليس كأماكن حقيقية، بها شعوب حقيقية، ولكن كأدوات نقل لآرائهم عن الكيفية التى يجب أن يعمل بها العالم، أو تعويض ما حل بهم من ضيم تاريخى، لا تجعلنى أنطلق حول كوبا.

الفصل التاسع

أصدقاء وأعداء

كنت أتابع، فى ٩ نوفمبر عام ١٩٨٩، سى إن إن، شأنى فى ذلك شأن ملايين الآخرين على امتداد العالم، ألمان برلين الشرقية، وألمان برلين الغربية وهم يطرقعون سدادات زجاجات الشمبانيا، أعلى سور برلين، الذى ظل طويلا رمزا للحكم الاستبدادى والتقسيم، لقد غدا الآن فجأة رمزا للنصر والحرية والأمل، إن الأربعين عاما من الحرب الباردة، والستارة الخلفية المشئومة لمسرح كل حياة جيلى، قد انتهت، ليس فى "الهرمجدون"(*)، ولكن فى ضحك الناس الأحرار وغنائهم، لقد كانت لحظة عظمى لى ولجيلى وللولايات المتحدة التى قادت النضال والمثل العليا والقيم الغربية.

وتحسنت الأمور؛ إذ قبلت العراق، فى ٢ مارس عام ١٩٩١ - شروط الائتلاف بقيادة الولايات المتحدة لإنهاء "حرب الخليج"، والتى بدا أنها قد أنهت وعلى طول المدى، تهديد ديكتاتور العراق، صدام حسين لجيرانه، وتم حل "ميثاق وارسو" فى يوليو ١٩٩١، وانتهى الاتحاد السوفيتى الضخم، وغير القابل للتخريب، "إمبراطورية شر" رونالد ريجان، فى يوم عيد ميلاد عام ١٩٩١، إن النضالات الأيديولوجية بين الفاشية والشيوعية، والرأسمالية الديمقراطية، التى حددت معالم القرن العشرين - انتهت،

(*) المكان الذى ستجرى فيه المعركة الفاصلة بين الخير والشر. (المترجم)

والرأسمالية الديمقراطية هى الوحيدة الباقية حية، وقد أطلق فرانسيس فوكوياما على ذلك جملة شهيرة هى "نهاية التاريخ"، وبدا سريعا أنه على صواب. وتبرعمت الديمقراطية فى التربة التى كانت يوما قاحلة، تربة أمريكا اللاتينية، بينما تبنت الصين شيئا يدعى "اقتصاد السوق الاشتراكى"، وهو تعبيرها الخاص عن الرأسمالية، وحتى الإسرائيليين والفلسطينيين بدوا وقد دخلوا فى حالة نفسية؛ حيث أطلقوا ما أصبح يعرف "بعملية أوسلو للسلام"، واحتل ذروة كل ذلك، النمو الاقتصادى العالمى، وقد تدعم بالازدهار الأكبر فى تاريخ أمريكا، وانطلق من عقاله فى النهاية النموذج الأمريكى الفريد للرأسمالية، بزغ كالمعيار الذى لا بد وأن يتجه العالم، لا محالة إليه.

وبدا أنه ليس هنالك من أعداء للولايات المتحدة، كان الرئيس يلقى الترحاب فى أى مكان، فى لندن، فى باريس، فى الرياض، فى موسكو، فى بكين، فى سيول، فى جاكرتا، فى القاهرة، فى نيو ميكسيكوسيتى، أو فى بيونس أيرس، كانت تلك هى لحظة الفرصة والأمل، مثلما كانت أعوام ١٩٤٦ – ١٩٤٨، عندما سمت أمريكا أيضا فوق العالم، وبدأت وضع أسس نظام عالمى جديد للتعاون متعدد الأطراف، فقط اعترض انفجار الحرب الباردة عملها بوقاحة، كانت هذه اللحظة حقيقة هى الأفضل، فقد انتصرت المؤسسات والمفاهيم التى تأسست فى المرحلة الأولى، والآن ليس هنالك من منافس محتمل يمكن أن يهدد بنزاع جديد.

كان هنالك أيضا فرق آخر مهم، فقد فكر أتشيسون، وقادة تلك الحقبة المغايرة، لما بعد الحرب، بوعى فى أن يكونوا "موجودين وقت خلق" النظام العالمى الجديد، وأن يلعبوا دورا مباشرا فى صياغته، فكر قادة التسعينيات فى أنهم سوف يحققون "النيرفانا"(*) بطريقة أوتوماتيكية، لم يكن عليهم غير اتباع نصيحة رونالد ريجان أن

(*) السعادة القصوى. (المترجم)

"يشقوا المجرى"، وقد قال فوكوياما: إن الديمقراطية الليبرالية تمثل دولة النهاية السياسية؛ "حيث تمنح الفرد الجدارة الذاتية، التى كان يبحث عنها طوال تاريخه"[١]، إنه عالم من ديمقراطيات ليبرالية متماثلة العقليات، لديها حافز ضئيل للحرب؛ لأن الديمقراطيات كما يعرف كل امرئ لا تذهب إلى محاربة بعضها البعض؛ إذ من الأجدى لها أن تتاجر وأن تحقق الثراء، إن عالما مكونا من مثل تلك الديمقراطيات سوف يشكل نظاما مستقرا وسلميا، ومن ثم يجب أن تكون الأولوية الأولى للولايات المتحدة هى تعزيز توسيع نطاق الديمقراطية، وقد تمت الإجابة على السؤال عن كيفية فعل هذا، بالكلمة المفردة الفاتنة "العولمة"، وقد اعتبرت هذه النغمة المغرية أسرة إلى حد أن بلدانا سوف ترغب فى تبنى قواعد عامة شديدة القسوة (مثل الرداء الخارجى المصنوع من مادة قوية مقيدة لتوم فريدمان)[٢]، حتى تحقق الثراء، وأكثر ديمقراطية، تصبح أكثر حداثة، ومن ثم أكثر تكريسا للسلام والاستقرار، والملاحقة البريئة للسعادة، لقد كان حلما جميلاً، وأفضل ما فيه أنه لم يكن يقتضى "وجود" أحد من أى نوع من "الخلق".

ما أن كسب قادة الولايات المتحدة الحرب حتى بدؤوا إساءة إدارة السلام، فقد واصلوا العمل وكأن الحرب الباردة والقرن العشرين لم ينتهيا، وبينما انخفضت فعليا نفقات الدفاع، على الأقل قليلا، فإنها ارتفعت بالفعل، فى علاقة نسبية بتلك التى للاتحاد السوفيتى القديم، والبلدان الأخرى التى تلاشت، إن أبنية التحالف القديم كانت مصونة فى ظل الشروط القديمة مع كوريا واليابان، وإلى حد ما ظلت أوربا محميات أمريكية ودولا تابعة، بل إن التزامات عبر البحار والقواعد العسكرية توسعت، وخاصة فى الخليج الفارسى، مع إقامة القاعدة الجوية الكبيرة فى العربية السعودية كما ذكرنا آنفا، وتواصل فى نفس الوقت إهمال عمليات أجنبية غير عسكرية، وتواصل ارتفاع كمية الالتزامات الأمريكية للأمم المتحدة والمستحقة الأداء، بينما هبطت ميزانيات معونة الولايات المتحدة والمواقع الدبلوماسية عبر البحار، وواصلت الولايات المتحدة التفاوض بعدوانية من أجل الوصول إلى اتفاقات تجارية دولية مثل "اتفاقية أمريكا الشمالية

للتجارة الحرة" (نافتا) و"جولة أوروجواي" التى أوجدت "منظمة التجارة العالمية" من "الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة"، إلا أن البنيات التحتية الأساسية، وأحوال المشاركين الجدد، والأسواق التى فُتحت حديثا - لم تحظ بأى تفكير، إن "إجماع واشنطن" يُعَلم أن التجارة الحرة سوف تعتنى بكل ذلك أوتوماتيكيا.

وأهملت أيضا تطورات أخرى مهمة، إن الولايات المتحدة، وقد هزمت الاتحاد السوفيتى، فعلت القليل لمساعدة الدول التى خلفته لتحقق التحول من الشيوعية والتخطيط المركزى، إلى الديمقراطية والأسواق الحرة، والقليل لصيانة المخزون من مواد خطرة هزيلة الحراسة، إن أمريكا وحلفاءها يهدهدهم إيمان بإمكان الإبقاء على النادى الذرى محدودا، أمسكت المفاجأة بتلابيبهم عندما أعلنت الهند وباكستان عضويتهما الجديدة، فى ضربات عنيفة عالية، وبينما تحث العولمة على نمو اقتصادى فى بعض المناطق، فإن ميلها إلى فعل ذلك بطريقة غير متساوية، مع خلق فجوات أكبر بين الأغنياء والفقراء قد نُظر إليه بشعور من الارتياح، كذلك نُظر أيضا إلى حقيقة أن العولمة قد جعلت تلك الفجوات أكثر وضوحا، وفرضت على شعوب ذات معتقدات وقيم مختلفة للغاية - صلة حميمة بطرق تهدد هويتها، إن نهاية الحرب الباردة، وتطور الاتحاد الأوروبى وعملته الجديدة اليورو قد غيرت بصورة درامية ديناميكيات العلاقة الأمريكية - الأوربية، إلا أن هذا التطور لم يتم الاعتراف به أيضا، وكان الأكثر من ذلك هو الأثر المزعج، لاستخدام الولايات المتحدة للمخدرات والسياسة، على أمريكا اللاتينية، أو مفاهيم الحس الإسلامى عند فقدان الاحترام، وأهمية السياسات المحطمة لليابان، والديمقراطية الجديدة فى كوريا، وولادة الصين من جديد، إن الانتشار السريع لوباء "الإيدز"، جنبا إلى جنب مع أوبئة أكثر انتشارا، كالملاريا والسل، نظر إليها كمشكلة نائية، وكذا التكهنات القائلة: إنه فى عام ٢٠٠٥ سيفقد ثلث العالم ماء الشرب النظيف، وأن ارتفاع مستويات البحر والفيضانات سوف تؤدى إلى انخفاض مستوى القمح فى أماكن مثل مصر وباكستان بنسبة تتراوح من ٢٠ إلى ٥٠٪[٣]، إن ذكر مثل تلك الأشياء كان أمرا فظا أخرق، وإلهاء عن الأخبار الأكثر أهمية بكثير، والصادرة عن وول ستريت.

والنتيجة أنه بينما يمكن أن يكون القرن العشرين قد انتهى يوم عيد ميلاد عام ١٩٩١، فإن القرن الواحد والعشرين لم يبدأ حتى ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١، عندما أظهرت الهجمات على برجى التجارة العالمية والبنتاجون بوضوح أن التاريخ ما يزال على الدرب. وأن العولمة ليست بالضرورة إكسيرا سحريا، إن تلك الهجمات قد فجرت تحولات بعيدة المدى فى العلاقة الكونية مع بعض أصدقاء أمريكا القدامى، وهم يظهرون أكثر مثل الأعداء، ومعارضين قدامى يظهرون أكثر مثل الحلفاء.

أوربا

لم تكن تلك التحولات أكثر حدة فى أى مكان، مما هى عليه فى أوربا؛ حيث لأمريكا أكثر روابطها الدولية طولا وأهمية، ورغم أن الولايات المتحدة ولدت من ثورة ضد بريطانيا، والكثير الذى كان أوربيا، إلا أن المبادئ التى تم التعبير عنها فى "إعلان الاستقلال" و"دستور الولايات المتحدة" كلها مأخوذة من الفكر الأوربى، وكان تحالف "الناتو" الذى تأسس على قيم عامة من الديمقراطية وحقوق الإنسان ومقاومة القهر هو الذى كسب الحرب الباردة، إن تحالف الولايات المتحدة وأوربا هو الذى شكل مثل تلك المؤسسات الاقتصادية الكونية الأساسية مثل "صندوق النقد الدولى" و"البنك الدولى" و"منظمة التجارة العالمية"، إن تفاعل اقتصاديات الولايات المتحدة والأوربية هو الذى دفع العولمة أساسا، إن استثمارات الولايات المتحدة فى أوربا تصل إلى ٨٠ مليار دولار(٤)، وهى أكثر بكثير من استثماراتها فى آسيا وأمريكا اللاتينية مجتمعة، وناتج مصانع الولايات المتحدة العاملة فى أوربا يصل إلى حوالى ربع إجمالى الناتج المحلى الأوربى، وتصل استثمارات أوربا فى الولايات المتحدة إلى قدر مماثل، إن إجمالى الناتج المحلى للولايات المتحدة وأوربا معا هو ١٠ تريليون دولار، و٩ تريليون دولار على التوالى، ويصل إلى حوالى ٦٠٪ من الاقتصاد الكونى، وكما أخبرنى رئيس منظمة التجارة العالمية ورئيس "بريتش بتروليوم" حاليا بيتر سوزرلاند – "أن نجاح حلفائنا أساسى لنجاح النظام الكونى".

إن سوزرلاند تحديدا على صواب، وتلك الحقيقة وحدها هى التى تجعل الحالة المتزايدة الاضطراب للتحالف مزعجة إلى حد كبير، وبينما لا تزال استفتاءات "بيو" للرأى توضح وجود أغلبيات فى أوربا ذات منحى إيجابى تجاه الولايات المتحدة، إلا أن النسب فى كثير من باقى العالم أقل من ذلك، وهى فى هبوط(٥)، ففى "المنتدى الاقتصادى" فى دافوس فى يناير عام ٢٠٠٢، وفى اجتماع بيلدبرج فى ربيع عام ٢٠٠٢، وفى اجتماع "شبكة سياسة عبر الأطلنطي" فى ربيع عام ٢٠٠٢، لاحظ كبار رجال الأعمال، والحكومة والإعلام، وقادة أكاديميون من جانبى الأطلنطى – أن الفجوة بين الولايات المتحدة وأوروبا لم تكن البتة بهذا القدر من الاتساع. وبعد السعى عن معادل لحلف الناتو فيما يتعلق بإعلان الحرب، ورفض الولايات المتحدة مساعدة تقوم على التحالف فى أفغانستان بعد ١١ سبتمبر، على أساس أن الأوربيين سوف يؤدون فقط إلى إبطاء الأمور؛ مما جرح الكبرياء الأوربى، بل وأثار أيضا أسئلة حول الغرض من التحالف، وبينما ضغطت الولايات المتحدة من أجل حل عسكرى سريع لمشكلة أسلحة الدمار الشامل العراقية، أصرت أوربا على قرارات الأمم المتحدة، وعلى تأكيدات وتحقق الوعود العراقية بتحطيم الأسلحة. حقا، إن المستشار الألمانى، جيرهارد شرودر، أخذ على نفسه عهدا ألا تدعم ألمانيا عملا عسكريا فى العراق تحت أى ظرف من الظروف، ودقت العقيدة الجديدة للولايات المتحدة بالحرب الوقائية والاستباقية أجراس الإنذار فى أوربا ذات الخبرة الحميمة، عن الحرب إلى حد بعيد للغاية، أكثر مما لدينا، وعندما رفضت الولايات المتحدة اتفاق كيوتو، والمحكمة الجنائية الدولية، واتفاقيات أخرى، تحركت أوربا قدما لتأكيد أنها ستضع تلك الاتفاقيات فى التطبيق حتى بدون مصادقة الولايات المتحدة، وانتشرت على قمة هذا كالفطر نزاعات تجارية حول موضوعات مثيرة للعاطفة مثل الأغذية المعالجة جينيا.

يضاف إلى ذلك، أن النغمة التى كانت تناقش بها تلك الموضوعات، غدت أكثر خشونة عن أى وقت مضى، وقد عبر أصدقاء أمريكا، الأوربيين القدامى، عن شعورهم بالخديعة وخيبة الأمل، وقد قال لى إتيين دافيجنون، المفوض السابق للاتحاد الأوربى:

"إن أمريكا تنسف الناتو لصالح تحالف الراغبين"، وقد قال مارتن وولف، محرر العمود بـ الفينشل تايمز: إن "الولايات المتحدة تملك أصولا ضخمة، إلى حد لا يصدق، تتطابق فيها المصلحة الدولية مع مصالح الولايات المتحدة، غير أن كل ذلك قد ألقى به الآن بعيدا، إن الولايات المتحدة اليوم تثير الخوف؛ لأنها لن تكون مقيدة، إن اليسار قد فكر دوما فى الولايات المتحدة باعتبارها دولة مارقة، غير أن المركز يفكر الآن بذات الطريقة".

إن الولايات المتحدة، بالنسبة للعديد من الأوربيين – قد أدارت ظهرها للقيم الداعمة للنظام الكونى، وأثمرت طبقا لكلمات وولف فكرة أن "القوة تصنع الحق"، وعلى الجانب الأمريكى، أشار دوج فيث، وكيل وزارة الدفاع، إلى سياسة الولايات المتحدة قبل الناتو، بأن تعمل من أجل "الإبقاء على الأسطورة حية"، بينما قال مسئول فى البيت الأبيض عن الأوربيين: إنهم "أصدقاء الطقس الصافى"[٦]، وقد ادعى، روبرت كاجان، فى كتابه الصادر عام ٢٠٠٢، والذى نوقش كثيرا، "الجنة والقوة" – أن أوربا من كوكب "الزهرة"، بينما الولايات المتحدة من كوكب "المريخ"، وقال إن ضعف أوربا العسكرى أوجد ميلا إلى كل من تهدئة أمريكا وتقييدها[٧]، إن أوربا تُصور – على نحو ما – فى أمريكا، ليس فقط باعتبارها مهدئة، ولكن أيضا باعتبارها معادية للديمقراطية، ومعادية للسوق، وتنظر إلى الداخل، وتحصل على الأشياء بدون الثمن أو الجهد المعتاد، وهى غير راغبة فى إنفاق النقود على الدفاع ،بينما تحسد الوحدة وتغتاظ من قوة الولايات المتحدة ونجاحها.

وترقد عميقا، تحت تلك الموضوعات والإحباطات النوعية – أمور تتعلق بالقيم، والدوافع والنماذج، ويعلق دومينك مويسى، محرر العمود الفرنسى فى الفورين أفيرز – أن "العداء للتأمرك"[*]، فى السبعينيات، كان رد فعل لما فعلته أمريكا، غير أن العداء

(*) اصطلاح أمريكى خاص بالولاء للولايات المتحدة. (المترجم)

للتآمرك الآن هو رد فعل لما عليه أمريكا"[٨]، وقد حذر معلقون فى الولايات المتحدة مثل جون أوسوليفان من ذى ناشونال ريفيو: إن الاتحاد الأوربى ينجرف نحو التحول إلى قوة معادية للولايات المتحدة[٩]، ويرد مارتن وولف بقوله: إنه ربما يكون على الاتحاد الأوربى والصين والهند أن يصطفوا معا كى يوازنوا الولايات المتحدة.

ليست هذه صورة طبق الأصل لزوجين منذ عهد قديم، إن الصفائح الكونية يمكن أن تغير بطريقة درامية، إن لم تحطم، النظام الكونى الذى وصفه سوزرلاند، إن القول "بنهاية التاريخ"، يزعم أن الرأسمالية الديمقراطية المنتصرة متكاملة، لكن هنالك فى الحقيقة عناصر، يمكن أن تشتمل على حرب بين الولايات المتحدة وأوربا؛ لأنه من كل القوى العالمية، فإن لأوربا فقط الحجم، والموارد، والمؤسسات، والتقنية لتحدى الولايات المتحدة، إن بعض المراقبين بما فيهم فوكوياما يسألون، فى الحقيقة: إن كان تعبير "الغرب" لا يزال له معنى[١٠]، فإن وُضعت السياسة الأمريكية المعلنة فى الحسبان، تلك السياسة التى تقوم على منع قيام أى مُتَحَد لها، فإن هذا الخط من التفكير يجعل النكتة الخاصة بغزو الولايات المتحدة "للاهاي"، التى قيلت نتيجة معارضة الولايات المتحدة لـ "المحكمة الجنائية الدولية"، يجعلها فجأة أقل إثارة للضحك بكثير. حقا لن يحدث غزو حقيقى، غير أن نوعا من الحرب الباردة الأمريكية الأوربية احتمال واضح جلى.

إن عددا محدودا من الأمريكيين هم الذين يعرفون مدى الإنجاز الاقتصادى الأوربى، إننا بدلا من ذلك، نتجه إلى أن نكون نافذى الصبر مع أوربا بسبب ما تواجهه من صعوبة للوصول إلى وضع موحد، وبسبب لجانها التى لا تنتهى، وانشغالها بالصفحات الثمانية آلاف من "مكتسبات المجتمع"(*)، المخدرة للعقل، والتى تشكل القواعد والنظم الكاملة للاتحاد الأوربى، ولكن كما ذكر الرئيس كينيدى فى حديثه

(*) التشريعات المتراكمة، القوانين، وقرارات المحكمة التى تشكل قوام قانون الاتحاد الأوربى. (المترجم)

عام ١٩٦٢، دعما لهذا الجهد أن مهمة بناء أوربا موحدة عملية مخيفة أكثر بكثير من مهمة بناء الولايات المتحدة، ولقد تذوقت شخصيا هذه الحقيقة عندما كنت أعمل فى بروكسل فى السبعينيات كرئيس لعمليات التسويق الأوربى "لشركة سكوت للورق"، وكان لنا شركات فرعية فى غالبية البلدان الأوربية الكبرى، وكنا نحاول معايرة عملياتنا حتى يمكن نشرها على اتساع أوربا، وكان هذا الجهد يقتضى دعوة مديرى التسويق معا من مختلف البلدان لتناقش التغيرات، وكانت المشكلة الأولى هى اللغة. كان المفروض أن تكون اللغة الإنجليزية هى اللغة الفاعلة، إلا أنها لم تنجح دائما، وغير ذلك، كانت هنالك آلاف الأسباب حول لماذا لم يكن فى الإمكان تبنى استراتيجيات على اتساع أوربا، مثال ذلك: كان لدينا مصنع ورق فى شمال إيطاليا، وآخر فى شمال بلجيكا، وكنا نود إمداد السوق الفرنسى من هذين المصنعين، غير أن ما حدث هو أن لفات المناشف كانت أعرض قليلا فى بلجيكا عنها فى إيطاليا، مما أثار التشوش عندما وصلت الشحنات إلى أسواق فرنسا المركزية، كذلك اشتمال رقعة التعريف فى بريطانيا على معلومات مغايرة لتلك التى فى هولندا، إن فى وسعى أن أواصل، لكنك أدركت الصورة، كانت عملية طويلة مملة، غالبا ما تثير الجنون، وكنت أنا أتعامل مع شركة واحدة فقط، وخط إنتاج واحد بسيط للغاية، واندهشت من نشاط وصبر وتفانى المسئولين الأوربيين الذين يبنون الاتحاد الأوربى، طبقا لمعيار واحد، فى وقت واحد.

وانظر إلى ما تم إنجازه، لقد هَزم الاتحاد الأوروبى التضخم العنيف، والعجز الجامح فى الميزانية الوطنية، ووضع حدا للعجز الجديد، وأسس بنكا مركزيا أوربيا واحداً، ويستخدم الآن عملة واحدة فقط، كما يمكنك السفر فى طول أوربا وعرضها دون أن تغير النقود البتة، أو تظهر جواز مرورك، وغالبا ما يقال: إن للولايات المتحدة أكبر اقتصاد فى العالم، تليها اليابان، غير أن تلك وسيلة عتيقة للنظر إلى الأمور، ففى ١٣ ديسمبر عام ٢٠٠٢، قرر الاتحاد الأوربى إضافة عشرة بلدان أعضاء جدد، وكان يونيو عام ٢٠٠٤ فعالا؛ إذ زاد عدد سكانه الكلى إلى ٤٥٠ مليونا من البشر،

ووصل إجمالى الدخل المحلى إلى ٩ تريليون دولارا - ضعف حجم اليابان، وبالضبط وراء الولايات المتحدة، التى بلغ إجمالى دخلها المحلى ١٠ تريليون دولارا، يضاف إلى ذلك أنه فى حالة يقوى اليورو أكثر بكثير فى مواجهة الدولار، فإن الاتحاد الأوروبى يمكن أن يصبح هو رقم واحد.

إن أهمية هذا التطور لا يمكن المغالاة فى تقديرها، ولا يمكن للولايات المتحدة، فى الاقتصاديات الكونية؛ حيث أوربا قوة عظمى كاملة النمو أن تتصرف منفردة، إن الاتحاد الأوربى يتحدث بصوت واحد، عبر مسئول كبير واحد - كما فعلت فى شئون التجارة والزراعة والمعايير التكنولوجية، وسياسة المنافسة والعملة، ولذا فهو ند كلى للولايات المتحدة، ولا يمكن بأية حال من الأحوال دفعه جانبا، ولو كان هنالك أى شىء فعله، فهو قد وضع المعيار، إن جاك ولش، المسئول التنفيذى لـ"جنرال اليكتريك" (جى إى) ورب عمل سابق، عرف أن الطريق صعب، عندما غنت أوزته العراقية أغنية الموت قبل الاعتزال، فى الوقت الذى حاول فيه تحقيق دمج جنرال اليكتريك مع "هونى ويل"، عندما بدأ ذلك العمل بهمة ونشاط، من خلال عملية تقوم بها "مقاومة التروستات"(*) "بإدارة العدالة" بالولايات المتحدة، اعتبرها وول ستريت صفقة تتفق والعرف الاجتماعى، وفتحوا زجاجات الشمبانيا، لكن الأمر سرعان ما انقلب ظهرا لبطن" لقد قدروا دون أن يضعوا فى حسبانهم، ماريو مونتى، مفوض الاتحاد الأوربى لسياسة المنافسة، والذى قتل الصفقة، وحطم عقد اعتزال ولش، ومن ثم، أثبت أنه لا يمكن تحقيق اندماج بين شركتين مقرهما الولايات المتحدة، ولهما عمليات فى أوربا، دون موافقة أوربية، وهو بفعله ذلك قد أكد أيضا صحة عقيدة المنافسة التى ركزت على الأثر الذى يحل بالمتنافسين، أكثر من ذاك الذى يحل بالمستهلكين، كما هو نموذجى فى الولايات المتحدة.

(*) مقاومة تجميع الرساميل الكبيرة. (المترجم)

لكن العملة - على أية حال - هى الملك أكثر من سياسة المنافسة، كان خط وول ستريت قبل أن تتحقق تلك العملة، يتحدث وخاصة على صفحات، وول ستريت جورنال، إن توحيد العملة الأوربية لن يحدث أبدا، وعندما حدث كان الخط الجديد هو أن ذلك لن ينجح، وحتى إن نجح فإن اليورو لن يشكل تحديا للدولار، وإذا ما كان سينجح على المدى الطويل، فإن الزمن وحده هو الذى سيقول ذلك، لكننا نرى الآن بالفعل أثرا ما على الدولار، ففى أواخر فبراير عام ٢٠٠٢، حولت روسيا بعضا من احتياطياتها من الدولار إلى اليورو، بينما واصل الدولار اتجاهه نحو الضعف، إن اليورو يبزغ كشىء لم يره العالم منذ ستين عاما: بديل قابل للحياة كعملة احتياطية للدولار، أما وقد فعل ذلك، فإن الولايات المتحدة سوف تجد حريتها فى العمل قد ازدادت تقييدا فيما يتعلق بمعدلات الفائدة، ومعدلات المدخرات والعجز التجارى، وربما تجد نفسها فى صراع مع أوربا، بشكل عام، للتحكم فى صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى، ومنظمة التجارة العالمية، إن هذه المنافسة يمكن أن تصبح كثيفة، بصورة خاصة، إن اتسعت الفجوة بين أمريكا وأوربا حول موضوعات كونية أكثر اتساعا، وفى النهاية، فإن ذلك يمكن أن يؤثر على مقدرة أمريكا فى إظهار القوة.

ويحتمل أن يرى الاقتصادان أن النزاع يتصاعد بطرق أخرى كذلك، تماما مثل "روما" و"بيزنطة" واللتان أقامتا فى النهاية مجتمعين مختلفين تماما، بعد انقسام "الإمبراطورية الرومانية"، وهكذا طورت الولايات المتحدة وأوربا نموذجين اجتماعيين اقتصاديين جد مختلفين، حتى إنهما يحتكان، الواحد منها ضد الآخر، بصورة متزايدة، بسبب العولمة. وفى القلب من هذه الخلافات هنالك أدوار ومسئوليات كل من الفرد والحكومة، إن أمريكا بالطبع تؤكد على الفرد ولا تثق بالحكومة، إنها تؤمن بتساوى الفرص، لكنها تعتنق فكرة عدم مساواة النتائج بصورة واسعة، وقد حثت مجلة بيزنيس ويك، فى مقالها الافتتاحى فى ٢٦ أغسطس عام ٢٠٠٢، على تبنى سياسات يمكن أن توسع الفجوة بين الأغنياء والفقراء فى الولايات المتحدة، وهى قد فعلت ذلك على أسس أنه رغم الفجوة الأوسع، فإن المستوى المطلق لدخل الفقراء سوف

يرتفع أيضا[١١]، إن هذا الجدل لن يكون جدلا محبوبا فى أوربا؛ حيث يتم التأكيد على التخفيف من عدم مساواة النتيجة، والاعتقاد بأن للحكومة دورا إيجابيا تلعبه تعزيزا لرفاهية المجتمع، وقد جادلت الولايات المتحدة دوما، فيما يتعلق بالنقاش الخاص بالنمو - مقابل - رفاهية - الدولة، إن سياستها بعدم التدخل إنما ترعى بدايات العمل، والانطلاق، والابتكار والتجديد، والنمو والإنتاجية، بينما يتم الإبقاء على البطالة منخفضة، ويشير معلقو الولايات المتحدة إلى النمو المنخفض ومعدلات البطالة العالية فى أوربا، بينما يقول الأوربيون: إن العاطلين لديهم يعيشون أفضل مما يعيش كثير من الأمريكيين الذين يعملون، ويرثى الأوربيون لحال الأعداد الكبيرة من الأمريكيين الذين يفتقدون التأمين الصحى، ويعيشون تحت مستوى الفقر.

وقد بدا أثناء التسعينيات أن هذا الجدل قد يسوى لصالح الأمريكيين، بدأ الأوربيون يجربون رفع القواعد والقيود المنظمة، ويخصخصون بينما ينطقون كلمة "حامل السهم"، ويستنسخون "ناسداك"[*] دون تزاوج، غير أنه بانهيار الفقاعة التكنولوجية، بدا النموذج الأمريكى أقل جاذبية، وبدا الجدل فى الاتجاه إلى درب آخر، وكما قرر لويس سكويزر، الرئيس التنفيذى لـ "ريتولت"، فى محادثة قريبة " إنه من الصعب تصديق الفكرة الأمريكية القائلة بأن سعر السهم لفترة زمنية قصيرة هو أفضل السبل لقياس قيمة أداء شركة أو مدير"، يضاف إلى ذلك أنه رغم الرؤية الأمريكية العامة لصلابة اليورو، فإن العديد من الاقتصاديات الأوربية ذات الضرائب العالية والمدفوعات الخاصة بالرفاهية، مثل السويد والأراضى الواطئة، تحقق نجاحا كبيرا للغاية، وعموما فإن أداء الاتحاد الأوربى لا يتخلف كثيرا وراء ذلك الذى للولايات المتحدة، مثال ذلك: أنه عندما يجرى ضبط صحيح لعمليات المحاسبة، يتضح

(*) بورصة ناسداك. (المترجم)

أن الكثير من الزيادة التى يُعلن عنها حديثا بصورة صاخبة عن إنتاجية الولايات المتحدة - هى فى الحقيقة إلى الوراء من تلك التى لأوربا[١٢]، والأكثر أهمية من أوجه عديدة هو أن الأساسيات الاقتصادية للاتحاد الأوربى تبدو أفضل من تلك التى لأمريكا، إن معدلات مدخرات الاتحاد الأوروبى هى٦,٢٥٪ مقارنة بنسبة تقريبية قدرها -,٢٪ لأمريكا[١٣]، وبينما تتوازن تقريبا تجارة الاتحاد الأوربى مقارنة بالعجز التجارى التنموى الكبير للولايات المتحدة[١٤]، ومن ثم فإنه مهما حققت الولايات المتحدة من تفوق فى نموها الاقتصادى، فإنه يتوجب عليها أن تقترض حوالى ٥٠٠ مليار دولار سنويا من أوربا وأماكن أخرى، وكما أشار مارتن وولف فإن اقتراض الولايات المتحدة الآن عال للغاية حتى إنه غدا أمراً غير محتمل، يضاف إلى ذلك أن الكثيرين ينظرون إلى أوربا باعتبارها أكثر تقدما فى عمليات وأساليب العولمة نتيجة خبرتها فى دمجها اقتصادياتها الوطنية كلية فى الاتحاد الأوربى، وكلما تقدمت العولمة، أفرز الاتحاد الأوربى نموذجه بقوة، وسوف يكون هذا النموذج جذابا، ومن ثم، فبدلا من معايير المحاسبة الخاصة بالولايات المتحدة، مثلا ربما يتبنى العالم تلك التى للاتحاد الأوربى، وبدلا من قواعد الولايات المتحدة لخصوصية الإنترنت، قد يتبنى العالم تلك التى للاتحاد الأوروبى، وربما تكف العولمة سريعا على أن تكون لعبة أمريكية.

إن الأوربيين فخورون حقا بتلك الإنجازات، وتلك القيم التى أنتجتها، لقد كان تشارُكنا ذات القيم تعويذة روحية، منذ زمن طويل للحوار الأمريكى - الأوربى، لكن بينما نحن ورثة نفس الخلفية الثقافية العريضة، والمدافعون عن الديمقراطية، هنالك بالفعل اختلافات كبيرة فى القيم، وواحد من أكبر تلك الخلافات هو الدين؛ إذ بينما يذهب نصف كل الأمريكيين إلى مكان للعبادة فى نهاية كل أسبوع، فإن العدد فى أوربا أقرب إلى أن يكون ١٥٪. إن الأوربيين عادة ما يجدون فى نقاشات الأمريكيين حول الإجهاض والتطور، فى مواجهة قصة الخلق - مسألة يصعب فهمها، بل والأكثر صعوبة على الفهم، وأكثر إثارة - هى تلك النداءات العديدة التى يطلقها قادة الولايات

المتحدة السياسيون "للرب": ليبارك أمريكا، وكأن هذه الأمة أكثر استحقاقا لمحاباة الرب من الأمم الأخرى، فمن غير المحتمل - إلى حد كبير - أن يسأل تونى بلير، أو جاك شيراك، الرب، فى أى وقت، فى خطبة عامة - أن يبارك بريطانيا أو فرنسا.

إن الأوربيين قلقون من الصبغة الدينية للسياسة الخارجية الأمريكية، بعناصر صليبية ومانوية(*) يمكن أن تؤدى إلى نزاعات عنيفة لا داعى لها، ويميل الأوربيون، وهم لا يؤمنون كثيرا بالخير فى مواجهة الشر، للنظر فى الأسباب الاجتماعية والاقتصادية للمشاكل، وكما لا يشارك الأوربيون الالتزامات الدينية لأمريكا، فإنهم أيضا لا يشاركونها وطنيتها المفرطة، إن طالبا تبادليا(*) سويسريا ظل عدة شهور مقيما مع أسرتى، أصيب بصدمة من نشر الرايات، والعهود العديدة بالولاء التى صادفها فى الولايات المتحدة، هنالك - مرة أخرى - إحساس فى أوربا أن هذا التأمرك العاطفى يمكن أن يتحول، فى بساطة، إلى عدوانية، إن الأوربيين لا يتشددون، نتيجة لتاريخهم، للوطنية، ويبدون منغمسين فى مفاوضات لا نهاية لها لحل موضوعات خطيرة.

وبينما يؤكد الأمريكيون المساواة فى الفرصة، فإن الأوربيين يركزون أكثر على المساواة فى النتائج، إن شركة "نوكيا" هى المنتج العالمى القائد للهواتف الخلوية، ومع ذلك فإنها تدفع لمديريها التنفيذيين أكثر الرواتب تواضعا نسبيا، ويتساءل الأوربيون: لماذا يحتاج المديرون التنفيذيون الأمريكيون أن يدفع لهم أكثر كثيرا جدا من عمالهم، إنهم أيضا يتشككون فى قيم رجال الأعمال الدافعة للمساهمين فى الولايات المتحدة، ويعترفون بدلا من ذلك بمد واسع من حاملى الحصص، بالإضافة إلى أصحاب الأعمال - بما فى ذلك موظفوها، الذين يمدونها، وزبائنها، والمجتمع المحلى، ويتضمن

(*) مانوى أحد أتباع فانى الفارسى الذى دعا إلى الإيمان بعقيدة قوامها الصراع بين النور والظلام. (المترجم)

(*) طالب من بلد أجنبى يتلقى العلم فى بلد ما مقابل طالب أخر يرسل إلى بلد الأول. (المترجم).

توجه هذا المجتمع على إيمان فى الحكومة كأداة للخير، ويرى الأوربيون أن تأكيد الأمريكيين على الفردية وعدم الثقة فى الحكومة يخلق مجتمعا عنيفا تسيطر عليه الجريمة، مجتمعا معدلات السجن فيه ببساطة مجنونة (٤١٧ لكل ١٠٠٠٠٠ مواطن من الرجال البيض، و٢٤٠٨ لكل ١٠٠٠٠٠ من الرجال السود، مقارنة بأقل من ١٠٠ لكل ١٠٠٠٠٠ رجل فى أوربا)[١٥]، إنهم لا يفهمون بشكل خاص تلك الإتاحة السهلة للبنادق فى أمريكا، بحجة أن البنادق ضرورية للديمقراطية، وهم يعتبرون أن ديمقراطيتهم الخاصة مؤكدة دون أن يكون كل مواطن مسلحا حتى الأسنان، إنهم يرون عقوبة الموت، عقوبة كريهة بشكل خاص، وقد رفضوا تسليم مشتبه فيهم بأنهم إرهابيون، إلى الولايات المتحدة، إن كان هنالك احتمال مواجهتهم حكما بالموت، حقا إن الأمر مثير للحيرة بالنسبة إليهم، كيف يمكن لمجتمع متدين هكذا أن يحتضن مثل تلك العقوبة التى لا تتسم بالغفران.

وفى النهاية، فإنهم يرون الديمقراطية الأمريكية، بمشاعرها المتجهة نحو المصالح الخاصة الثرية - أمرا معيبا للغاية، ورغم كل تلك النقائص التى يجدونها فى المجتمع الأمريكى، فإن ٦١٪ من الفرنسيين لديهم اتجاه إيجابى كلى نحو الولايات المتحدة[١٦].

وينظر الأمريكيون، من ناحية أخرى إلى إلحاد الأوربيين باعتباره مصدر مشاعرهم مع الديانات العلمانية المدمرة للفاشية والشيوعية، التى أنقذتهم الولايات المتحدة منها مرارا فى القرن الأخير، وهم ينظرون أيضا للأوربيين باعتبارهم جاحدين، يحصلون على الأشياء بدون الثمن أو الجهد المعتاد، وأنهم لم يلتقوا قط بديكتاتور إلا واستكانوا إليه، وانتهزوا فرصة مظلة الدفاع الأمريكية ليتخذوا وضع المعتد بذاته باعتباره متفوقا أخلاقيا، إن الأوربيين فى عرف الأمريكيين يقاومون الهجرة رغم عدد سكانهم المتناقص، ويترددون فى الموافقة على طلب تركيا لعضوية كاملة فى الاتحاد الأوربى، وينتقدون سياسات إسرائيل نقدا به نكهة عنصرية، ومعادية للسامية، إن أوربا من المنظور الأمريكى ليست ديمقراطية البتة، لكنها

مجموعة من البيروقراطيات تديرها نخبة شبه أرستقراطية بعدت للغاية عن الشعوب الحقيقية، وهى تميل إلى تقييد الولايات المتحدة الأكثر ديناميكية، بسبب الحسد والتوق إلى الماضى، من أجل الهيمنة الكونية المفقودة التى لن يستعيدوها البتة مرة أخرى، يجب أن أؤكد مرة أخرى أن الاستفتاءات توضح أن للأمريكيين مواقف منحازة كلية نحو أوربا، لكن الانتقادات الموجهة إليهم هى أيضا مرة أخرى وجهات نظر يعبر عنها معلقون بارزون.

ويجىء ذلك بنا إلى صلب الموضوع - مستقبل أوربا والتحالف، إنها ترى بداءة أن المشروع الأوربى يمثل لهم وحدة سياسية نهائية، يتم إنجازها عبر اندماج اقتصادى تدريجى، أما وأن هذا الاندماج قد اكتمل الآن عمليا، فإن القادة الأوربيين يستديرون إلى السؤال الشهير الذى وضعه هنرى كيسنجر، ما رقم الهاتف الذى تديره لتصل إلى أوربا؟ وبينما أكتب، يقود الرئيس الفرنسى السابق، جيسكار ديستان جهدا لكتابة دستور أوربى لتقديمه إلى قادة أوربا كى ينظروا فيه، فى يونيو عام ٢٠٠٣. فإن تم تبنيه، فسوف يحقق اتحادا أوربيا، بنيانه أكثر وحدة، وصوته أكثر صدقا، إن هدفه - على أية حال - قد جرى التنبؤ به بالفعل فى الوثائق والأحاديث، وقد قال تونى بلير، رئيس وزراء بريطانيا، وهو يتقبل "جائزة شارلمان" فى مايو ١٩٩٩: "إن التحدى الأساسى بالنسبة لأوروبا هو التحدى المفروض من العالم الخارجى حول الكيفية التى نجعل بها أوربا قوية ومؤثرة، كيف نحقق استخداما كليا للقوة الكامنة التى تمتلكها أوربا لتصبح قوة كونية من أجل الخير"[١٧]، وقد أكد بلير فيما بعد أن "هذا عن بروز القوة والنفوذ مجتمعين ... مما يصنع القوة العظمى"[١٨]، وقد أصدرت "المفوضية الأوربية" تعليمات إلى البرلمان الأوربى تقول: إن "هدفنا يجب أن يكون جعل أوربا فاعلا كونيا، له وزن دولى يتناسب وقوتنا الاقتصادية، لاعبا قادرا على الحديث بصوت قوى، وتحقيق فرق فى إدارة شئون العالم"[١٩]، إن إنجاز أى شىء مثل هذا يعنى بالطبع طمس سيادات قديمة فى أوربا الأكبر ككل، ومن ثم، فإن كريس باتن مفوض الشئون الخارجية للاتحاد الأوربى يقول

فى "محاضرة شاتام ٢٠٠٠" فى أكسفورد: إن السيادة بمعنى حرية العمل غير المقيدة هراء، إن رجلا عاريا وجوعان وبمفرده فى الصحراء - هو شخص حُر - وهالك"[٢٠]، وكرر كلامه كارل بيلدت، رئيس وزراء السويد الذى قال: "إن دولة الأمة ميتة، إن كانت فاعلا مستقلا"[٢١].

إن هذه الفكرة العاطفية لا تغرى أى سياسى أو رجل دولة أمريكى، ولكن كما قال جوزيف جوفى محرر "دى زيت" لى: "إن القادة الأوربيين غاضبون بشدة من عجزهم الجنسى"، لقد غطى عجزهم الجنسى قناع الحرب الباردة على امتدادها، ورغم أن الحرب العالمية الثانية قد أنهت حقبة قوى أوربا العظمى، فإن وضع أوربا باعتبارها ميدان المعركة الأساسى للحرب الباردة، والحاجة التالية للولايات المتحدة للتشاور والعمل مع الأوربيين عن كثب، أبقت على وهم وضع القوة - العظمى طويلا بعد أن انقضى هذا الواقع، لقد تحولت المصالح الأمريكية، مع انهيار الاتحاد السوفيتى، إلى أماكن أخرى، ولم تعد هواتف أوربا تدق كثيرا، على وجه التقريب.

لقد انعكس العجز الجنسى فى تجربة يوجوسلافيا، لقد كانت لوكسمبورج فى رئاسة الاتحاد الأوربى عام ١٩٩١، عندما انفجرت الصدامات العرقية فى البوسنة، وطار جاكس بوس، وزير خارجية لوكسمبورج لما اعتقد أنه المنقذ، معلنا: "هذه هى ساعة أوربا، وليست ساعة الأمريكيين"[٢٢]، وما زال بوس يختنق بتلك الكلمات، فقد أثبت الاتحاد الأوربى عجزه الباعث على اليأس، ليكون على مستوى الحالة، وكان الأمريكيون هم الذين أعدوا، فى آخر الأمر، ببراعة "اتفاقية دايتون" التى أنهت القتال، وكان الارتباك الذى سببته كوسوفو هو الأكبر أهمية، لم يكن الاتحاد الأوربى عاجزا فقط عن إعداد عملية عسكرية جديرة بالثقة، فى فنائه الخلفى، بل إنه استطاع بصعوبة أن يدعم عمليات الولايات المتحدة، يضاف إلى ذلك أنه رغم رفضه العميق لاستراتيجية الولايات المتحدة بالضربات الجوية أساسا على بلغراد، وتفضيله استخدام القوات الأرضية فى كوسوفو ذاتها، فإن الاتحاد الأوربى لم تكن لديه القوة لتغيير خطة اللعبة

الأمريكية، وكان رد فعل أوربا معقدا: ارتياح لأن الجهود الأمريكية أسقطت نظام ميلوسيفيتش، وارتباك بسبب قصورهم، ودهشة وكدر بسبب الفجوة التكنولوجية بين القوات الحربية الأمريكية والأوروبية، وقد نَشَطَت هذه التجربة فى عام ١٩٩٩ إصدار القرار بالإسراع فى وضع "سياسة خارجية وأمنية عامة" (سى إف إس بى)، وذلك بتعيين خافير سولانا "الممثل الأعلى لأوربا"، للسياسة الخارجية والأمنية العامة – مسئولا، من بين أشياء أخرى، عن تكوين قوة رد فعل سريع ومستقل للاتحاد الأوروبى، مكونة من حوالى ستين ألفا من القوات المزودة بمعدات وقوة نيران تمكنها من معالجة حالات مثل كوسوفو، دون استدعاء حلف الناتو أو الأمريكيين – هنا جاء رقم هاتف كيسنجر أو آلة الرد على الأقل.

ولكن لما كان فى وسع الناتو تشكيل قوة رد الفعل الخاصة به بسهولة، وهو قد فعل ذلك، فى الحقيقة، فيما بعد، فإن فى وسع المرء أن يسأل، بطريقة معقولة: ماذا كان الغرض من قوة الاتحاد الأوربي؟ ورغم أن الإجابة كانت مغلفة برداء صداقة لا تموت وتعاون متبادل، فإن الإجابة بدت أساسا فى عدم وجود الأمريكيين فيها، وكما أكد تونى بلير "أيا كان أصلها، فإن أوربا اليوم لم تعد للسلام فقط، إنها توشك أن تُبرز قوة جماعية"(٢٣)، والتى تظهر بحزم فى مبادرات نحو كوريا الشمالية والشرق الأوسط، المناطق التقليدية للهيمنة الأمريكية.

إن السياسة الخارجية للاتحاد الأوربى، مثلها مثل الاتحاد ذاته – عمل يجرى فى تقدم، وهنالك – على أية حال – مؤشرات هامة عن أسلوبها ومادتها المحتملة، إن الاعتبار الأول الكبير هو التوسيع المنطلق للاتحاد الأوربى، إن إضافة عشرة أعضاء جدد عام ٢٠٠٤، لن يوسع الاتحاد الأوربى دراميا فقط، لكنه كما ذكرت إلين سسيولينو شكل أكبر استسلام طوعى للسيادة فى ألف ومائتى عام(٢٤)، وبينما هذا الأمر هام اقتصاديا، فإنه مبادرة فى السياسة الخارجية أيضا؛ لأنه وسع من تأثير استقرار الاتحاد الأوربى ومقرطته إلى حدود روسيا وأوكرانيا، وكذا نحو الشرق الأوسط، وإذا حكمنا عليه على أساس ممارساته الداخلية لبناء إجماع عبر حوار لا نهائى،

فإن الاتحاد الأوربى سوف يكون تعدديا بطريقة حاسمة فى السياسة الخارجية، وسوف يصر على التعامل مع الموضوعات الكونية عبر الأمم المتحدة والهيئات الدولية الأخرى، ويجادل روبرت كاجان، ومعلقون آخرون محافظون من الولايات المتحدة - بأن هذا قد يكون جزئيا إعلانا عن استراتيجية للاستخدام الضئيل "لأقزام الأمم المتحدة الليليبتيين" لتقييد "العملاق الأمريكى جاليفر"، لكنه أيضا تأكيد لصحة الخبرة الأوربية فيما بعد الحرب العالمية الثانية، فبعد قرون من الحرب، غدت أوربا غير واثقة من ادعاءات السيادة المطلقة، ووجدت أن حجرة المؤتمر هى أفضل السبل إلى المجد.

ومن ثم، أصر الأوربيون على العمل ضد العراق عبر مجلس أمن الأمم المتحدة، حتى يضفوا الشرعية على أى عمل، وكان رد فعلهم هو القلق من دعوة الولايات المتحدة للائتلافات من الراغبين فى القيام بحرب وقائية، يقول خافير سولانا: "ربما يحتاج الإرهاب شكلا جديدا من الاحتواء، غير أن الاستخدام الوقائى للقوة يحتاج إلى شرعية أوسع، إما من خلال الأمم المتحدة، أو شكل ما من الدعم متعدد الأطراف، وإذا ادعت الولايات المتحدة تلك القوة لنفسها، فإنها فقط سوف تغذى الاستياء وتدمر مصلحتها الوطنية"[٢٥]، ويضاف إلى التعددية التركيز على مهاجمة الأسباب الجذرية للقلق من خلال برامج اقتصادية واجتماعية، هنا يذكر سولانا، أنه بينما تميل الولايات المتحدة إلى تأكيد الحلول العسكرية، فإن الاتحاد الأوربى يؤمن بأن العمليات العسكرية وحدها لا يمكنها حل مشكلة الإرهاب؛ يقول: "إن للاتحاد الأوربى ثقافة معينة تقوم على منع النزاع، من خلال الحوار، والإحساس بجذور العنف الاقتصادية والاجتماعية"، ويضيف زميله كريس باتن: "أنا لست ساذجا إلى حد الاعتقاد أنك لو أسقطت عشرين مليونا من ربطات المساعدة على أفغانستان، فإن الإرهاب سيختفى غدا، لكننى أؤمن بالفعل أن هنالك علاقة بين عدم المساواة الكونية وتحطيم الدولة والعنف وعدم الاستقرار والإرهاب"[٢٦]، وفى هذا السياق، فإنه من الجدير بالذكر، أن إنفاق أوربا على التنمية الاقتصادية وقدره ٣٠ مليار دولار، يقارب ما تنفقه الولايات المتحدة ثلاث مرات.

وفى النهاية، فإن الاتحاد الأوربى مرتاب فى العاطفة الأخلاقية التى تصبغ سياسة الولايات المتحدة الخارجية، وكذا بالمثل "التواءاتها وتحولاتها" فى أماكن مثل الشرق الأوسط، إن ويليام دالاس، بروفيسور بمدرسة لندن للاقتصاديات يقول: إن "الولايات المتحدة تفكر فقط أن بوسعها تعزيز الديمقراطية، وإنها هى النموذج الوحيد الصحيح، غير أن أسلوبها الحاد عن التفوق الأخلاقى والاقتصادى يتسبب فى حركة ارتجاعية، بينما سياساتها مثل تلك التى تدعم إسرائيل، وتبنى فى ذات الوقت قواعد هائلة فى العربية السعودية، أرض القلب الإسلامى، يجعل الأمر غير مفهوم"[٢٧]، ومن ثم، فإن كلمات مارتن وولف تقول: إن "البهلوان (اقرأ الاتحاد الأوربى) نبوءة تحقق ذاتها بذاتها".

وقد ظلت الولايات المتحدة طويلا فى تناقض وجدانى حول أوربا؛ قال الرئيس كينيدى وهو يتحدث فى "إنديبندنس هول"، فى يوليو عام ١٩٦٢: "إن الولايات المتحدة تنظر إلى هذا المشروع الشجاع بأمل وإعجاب، إننا لا ننظر إلى أوربا الموحدة القوية باعتبارها منافسا، ولكن باعتبارها شريكا، إن المساعدة فى تقدمها كان هو الهدف الأساسى لسياستنا الخارجية خلال السنوات السبع عشرة الماضية"، ثم استمر داعيا إلى "إعلان استقلال" بين الولايات المتحدة وأوربا. لكن وجهة النظر هذه تغيرت، لأن أوربا غدت أقوى، إن مؤتمر الاتحاد الأوربى عام ١٩٩١، فيما بين الحكومات، اشتمل على اقتراحات لإعطاء الاتحاد الأوربى بعداً أمنيا، وأخيرا قدرة عسكرية، وبالنظر إلى الشكاوى العديدة للولايات المتحدة من أن الأوربيين لا يشاركون فى حمل العبء بما يكفى، فقد فكر كثيرون أن هذا سوف يلقى ترحيب الأمريكيين، غير أن رد فعل واشنطن كان فزعا وتحذيرات من أخطار تدمير الناتو، وسقطت الاقتراحات، وبعد ست سنوات، فى أعقاب تجربة البوسنة، صادقت الولايات المتحدة كلية على اقتراح لتطوير هوية أمنية ودفاعية للاتحاد الأوربى، وفى نفس الوقت، دَفعت الولايات المتحدة، دون تشاور، على أية حال، فى اتجاه توسيع الناتو ليضم بولندا والمجر وجمهورية التشيك، وعندما بدأ جهاز "الاتحاد الأوربى للسياسة الخارجية

العامة والأمن" فى اتجاه شكله وخططه من أجل أن تتحرك قوة رد فعله السريع قدما فى عام ١٩٩٩ - ٢٠٠٠، تفجرت واشنطن مرة أخرى بالقلق والتحذيرات، وهاجم السيناتور جيسى هيلمز "جيش اليورو"، داعيا إياه "قوة محركة خطرة وانشقاقية داخل الناتو، وكررت تعليقاته مادلين أولبريت، وزيرة الخارجية السابقة، ووليام كوهن، وزير الدفاع"[٢٨]، ودعا فريق انتقال الرئيس القادم، جورج دبليو بوش، قوة رد الفعل السريع، بـ"الخنجر المصوب إلى قلب الناتو"[٢٩]، ومن ثم، فإن سياسة الولايات المتحدة، تأرجحت بين حث أوربا على المشاركة أكثر فى عبء الدفاع، ومحاولة اعتراض سبيل تكوين قوة عسكرية أوربية مستقلة، إن الديناميكيات هنا ليست معقدة، وكما قال زبيجنيو برززينسكى: "إن أوربا محمية للولايات المتحدة"[٣٠]، إن واشنطن تحتاج إلى أوربا باعتبارها قاعدة مراحل(*) لعمليات فى الشرق الأوسط، وكجزء من شبكة اتصالاتها الكونية، إن الناتو هو المقعد الأمريكى على المنضدة الأوربية، وبذا فإن الولايات المتحدة، تريد المزيد من الدعم الأوربى للناتو، وللمبادرات التى تقودها الولايات المتحدة، لكنها ليست متحمسة لأى شىء يمكن أن يجعل من أوربا لاعبا حقيقيا.

وعندما أكدت أوربا استقلالها، تحول التعليق فى الولايات المتحدة تحولا سلبيا بصورة واضحة. وحتى قبل ١١ سبتمبر كان المحللون، مثل محرر الناشونال ريڤيو، جون أوسوليفان يحذر من تحول الاتحاد الأوربى إلى "منافس ومجموعة من السياسات العدوانية"[٣١]. كتب أوسوليفان، أنه ليس هنالك من ضرورة لقوة أو سياسة أمن أوربية. إن ذلك تعبير خالص لإزدهار مرحلة الدولة والقومية، متنكرة فى لباس معاد للقومية"[٣٢]، يضاف إلى ذلك أنه رأى فيما سبق سياسة أوربية منفصلة نابعة من عداء للتآمر ورغبة فى تحدى الولايات المتحدة، وفى أعقاب ١١ سبتمبر،

(*) القاعدة التى تُجمع فيها القوات العسكرية، وتعد للقتال قبل تكليفها بمهمة ما. (المترجم)

وعجز أوربا (مع استثناءات ملحوظة مثل قوات بريطانيا الخاصة) عن الإنزال السريع لقوات جيدة الإعداد إلى ميدان القتال، مثل قوات الولايات المتحدة، وترددها فى دعم الولايات المتحدة للتخلص من "صدام حسين العراق"، بينما تصر على التوسع فى إجراءات الأمم المتحدة، أكد لكثير من الأمريكيين أن أوربا ليست فقط مُسَكن لا أمل فيه، لكنها أيضا مهتمة بكبح قوة أمريكا أكثر من ضبط أمن أى أحد آخر. الأوربيون بالطبع هم من قالوا بأنهم قد قدموا كتلة قوات حفظ السلام والمعونة بعد الهجمات الأساسية فى أفغانستان، وأصروا على اتباع إجراءات الأمم المتحدة كشأن أساسى لتفادى الفوضى الدولية، وقد خفض هذا الجدل بعض برودة الولايات المتحدة، التى فضلت وجهة نظر روبرت كاجان، باعتبار أن الأوربيين من "الزهرة"، وأن الأمريكيين من "المريخ".

كانت حجة كاجان فى إيجاز أنه طبقا لقوة أمريكا الوقائية، فإن أوربا قادرة على أن تنغمس فى كل من ترف الإنفاق الدفاعى المنخفض، ومن وَهْم وجوب تجنب القوة العسكرية، والعمل طبقا للقوانين والقواعد والتعاون عبر الحدود القومية، وفى إطار هذه الرؤية، فإن أوربا، طالما لا تفهم العالم "الهوبزى"(*) الذى يجب أن تعمل فيه أمريكا، فإنها ترى أمريكا كتهديد يجب تقييده، وهى لا تدرك أن وجود عالم أحلامها إنما يحقق تمكنه فقط بواسطة قوة الولايات المتحدة[٣٣]، هنالك حقيقة فى هذه الحجة، ولكن لسوء الحظ ليست كل الحقيقة، إن الأوربيين مثلهم مثل اليابانيين وآخرين خلف درع الولايات المتحدة الدفاعى - لا يتحملون مسئولية أنفسهم كاملة، ومن ثم، فهم قادرون على رؤية العالم عبر نظارات وردية، ولكن هذه هى الكيفية التى تفضلها الولايات المتحدة، عندما تحركت أوربا فى اتجاه أخذ المزيد من المسئولية، غالبا ما اعترضت الولايات المتحدة، وحاولت تدمير هذا الجهد.

(*) نظرية توماس هوبز للحكم الاستبدادى. (المترجم)

مثال ذلك: أن أوربا تعتمد على نفط الخليج الفارسى اعتمادا أكثر بكثير من اعتماد الولايات المتحدة، وأى تقسيم عقلانى للعمل الدفاعى يقتضى نشر بلدان الاتحاد الأوربى حاملات طائرات وقوات أكثر مما تنشره الولايات المتحدة، غير أن أمريكا لم تطلب البتة هذه المساعدة؛ لأنها بصورة خاصة لا تريدهم هناك، وإلا فإن وجودهم يخفف من نفوذ وقوة الولايات المتحدة، إننا نؤمن أنه من الأيسر والأسرع والأقل تعقيدا إن نحن أنفسنا فقط قمنا بالعمل، ويجب أن نقول الحقيقة: إننا حقا لا نثق بهم. إن مصالحهم تختلف قليلا عن مصالحنا، إنهم لا يرون بصورة خاصة النزاع الإسرائيلى الفلسطينى، كما نراه، إن ترك الأوربيين يلعبون دورا هاما فى المنطقة – لن يكون متفقا على الدوام مع منظورنا لمصالحنا، ولكن إن لم نكن راغبين فى تركهم يتحملون مسئوليات القوى صاحبة السيادة كاملة النمو، فإنه ليس فى وسعنا أن نشكو، فى ذات الوقت، من أنهم ضعاف الشخصية، إننا نشكو من أن أوربا لا تنفق ما يكفى على الدفاع، وأن مستوى تكنولوجية أسلحتها يتلكأ وراءنا على نحو كارثى، إن لكل من الشكايتين ميزته، يقينا أن الأوربيين يفضلون كثيرا إنفاق النقود على الرعاية الصحية والإجازات الطويلة بدلا من الدفاع، ومن ناحية أخرى، فإننا دائما ما نؤكد، فى حالة لاعب حقيقى مثل الصين – أنها تنفق الكثير على الدفاع، ونستخدم ذلك "التهديد" لتبرير إنشاءاتنا.

ونحن نتحرك أيضا بطريقة منتظمة لتعويق تطور الأسلحة الأوربية، لقد عملت فى إدارة ريجان وقت أن كان الترخيص بصادرات التكنولوجيا موضوعا ساخنا، إن الولايات المتحدة تقيد صادرات التكنولوجيا بعدة طرق تجعل قيام شركات أجنبية بأعمال معنا مسألة صعبة أو منفردة يضاف إلى ذلك أن البنتاجون وهو الشارى الأكبر لكثير من الأسلحة فى العالم، يعمل ويده فى القفاز مع موردى أسلحة الولايات المتحدة لمساعدتهم على هيمنتهم الكونية: إن القيود على الأجانب الذين يقومون بأعمال مع البنتاجون تصل إلى حد أن أكبر مورد أجنبى "أنظمة بى إيه أي"، تبلغ أعماله أقل من ١٪ من مشتريات البنتاجون من الأسلحة والأنظمة، ومن ثم فإن ميزانيات تطوير أسلحة جديدة تذهب بصورة ساحقة إلى شركات أمريكية(٢٤).

إن الولايات المتحدة تستخدم الناتو، علاوة على ذلك، كوسيلة للتغلب على الاتحاد الأوربى فى أوربا، يقينا، لم يكن هنالك أى زيادة فى التهديد من روسيا يبرر توسيع الناتو، ولم يضف الأعضاء الجدد شيئا إلى قوة الناتو، حقا، لقد زادوا ثقله دون أن يضيفوا إلى موارده، إن التوسع قد جرى جزئيا لأسباب سياسات عرقية داخلية للولايات المتحدة، وجزئيا لربط البلدان الأوربية الشرقية مباشرة بالولايات المتحدة، إن عضوية الناتو جذابة للغاية لمكان مثل بولندا، مثلا له روابط بالولايات المتحدة، ولكن عليها كعضو فى الناتو أن ترفع من وضع قوتها الجوية، والبنتاجون مستعد للمساعدة ببيع إف - ١٦، والتى أدى شراء بولندا لها إلى ضرب منافسة منتجى الطائرات الأوربيين، يضاف إلى ذلك - كما لوحظ آنفا - جعل قوة الطيران البولندية، خاضعة للعديد من رخص الولايات المتحدة، والإمداد بالنظم والقواعد، واستخدام الحاجات الأساسية، حتى يكون للولايات المتحدة قول مؤثر فى الكيفية التى تستخدم بها بولندا طائراتها، وبذا لو كان الأوربيون يعيشون فى أرض الأحلام، فإنها أرض أحلام خلقتها الولايات المتحدة، وهى التى تقوم على صيانتها.

إن حربا باردة ثانية مع أوربا غير محتملة، غير أن الاحتكاك المتواصل كثير للغاية فى أوراق اللعب، وخاصة فيما يتعلق بجهود الولايات المتحدة لخلق انشقاق بين أوربا القديمة والجديدة. كما أن سياسة الولايات المتحدة، فيما يتعلق بالعراق، قد أدت إلى هوة بين بريطانيا والقارة، إن ما يثير السخرية هو أن الروس يبدون الآن كأصدقائنا الطيبين تماما، فإن أردنا وقف الاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية، فإنهم يجاملوننا، وإن أردنا نشر نظام دفاعى وطنى صاروخى، فإنهم يوافقوننا ولو على مضض، لكن الروس ليسوا فى وضع يمكنهم من تحدينا، ويعود بنا هذا إلى نقطة بيتر سوزرلاند من أن النظام الكونى لا يستقر على تحالف أمريكى روسى، ولكن على تحالف الولايات المتحدة والاتحاد الأوربى، وهو إن تحطم فعلا، فإن النظام الكونى سيذهب معه، إن كل الخلافات التى اكتشفناها حديثا بيننا، كانت هنالك خلال الحرب الباردة، ومع ذلك عمدنا إلى غمرها فى قيم وأهداف أكبر

تشاركناها، وحيث إنه ليس من صالحنا، أو الصالح العالمى - أن يتحطم النظام، فإنه أمر هام للغاية أن تراجع الولايات المتحدة سياساتها الأوربية وتعد بنية جديدة للتعاون مع الاتحاد الأوربى.

آسيا

ويشبه الحال فى آسيا الحال فى أوربا؛ إذ تجد الولايات المتحدة برودة جديدة فى علاقاتها مع أصدقائها القدامى، بينما يبدو أنها تحقق علاقات أفضل مع الخصوم القدامى، إن ما يثير الدهشة بشكل خاص، على أية حال، هو التماثل المذهل لما تدركه الولايات المتحدة عبر آسيا؛ إذ سواء فى طوكيو أو بكين أو جاكرتا، فإن تحليل الولايات المتحدة للأهداف والدوافع فى خصام مع الأساس المنطقى الأمريكى النموذجى.

وبداءة فإن الكل يؤمن أن الولايات المتحدة تفكر فى نفسها باعتبارها حاملة المعايير العالمية للأخلاق، والفلسفة السياسية والتنظيم، أو كما وصفها أحد المعلقين: "مَثَل أعلى مؤله، وحَكَم السلوك العالمى المتحضر"(٣٥)، إنهم يرون الولايات المتحدة تميل إلى فرض ميسمها الخاص بالقيم الغربية بالقوة عبر هيمنة مسيطرة، وكذا عبر المؤسسات متعددة الأطراف، يضاف إلى ذلك أن الحلفاء والخصوم، على حد سواء، يرون فرقا حادا بين الفردية والمادية يرقد فى قلب قيم الولايات المتحدة، وبين قيمهم الآسيوية الأكثر طائفية وهرمية، ويؤمنون أن العسكرية الأمريكية موجودة فى آسيا؛ لتؤكد بصورة كبيرة الهيمنة فى المنطقة، ولتمنع نهوض أية قوى منافسة، وفى رأيهم أن الولايات المتحدة تريد مجتمعا آسيويا - باسفيكيا قويا ومزدهرا، ولكن طبقا لشروطها بحزم - مجتمعا ثابتا ومتينا من الناحية الاقتصادية، ومستقرا وديمقراطيا من الناحية السياسية، ويقبل قيادة الولايات المتحدة، وهم يؤمنون أيضا أن الولايات المتحدة قد تكون فى حاجة غير واعية للأعداء، ليوفروا لها تبريرا لقوتها الكبيرة عالية التكنولوجيا، وكى يخدموا كبؤرة لاستراتيجيتها الجغرافية، كما يعتقدون أن سبب هذا هو تأكيد

الولايات المتحدة، مع نهاية الحرب الباردة، فكرة "الأمم المارقة" والحاجة إلى "استقرار"، وهم يؤمنون أيضا بأن إدارة بوش كانت تعد لوضع الصين فى مرتبة "الأعداء"، عندما جعل أسامة بن لادن، من نفسه، بطريقة مريحة - هدفا أفضل.

ويُنظر إلى الولايات المتحدة أيضا بأنها تستثنى نفسها من القيود التى تحكم الآخرين بها؛ لأنها ترى صورتها باعتبارها مسيطراً رقيقًا، ومن ثم، فإنها تشرح نشرها للقوات العسكرية فى مراكز أمامية باعتبارها غير مهددة، بينما هى غالبا ما تذكر كتهديدات، مبررة، دوما، نفقات الدفاع الأمريكية الكبيرة، مقابل الانتشار المحدود للغاية لبلدان أخرى؛ مرة أخرى، فإننى حينما أذهب إلى آسيا أجد حساسية بالغة للمعايير المزدوجة التى يلاحظونها، وخاصة فيما يتعلق بالتسلح، مثل الأسلحة النووية التى ترى مقبولة عند الولايات المتحدة، عندما تكون مملوكة لبريطانيا أو فرنسا أو إسرائيل، وغير مقبولة فى أيدى الآسيويين.

يجب ألا تؤخذ أى من وجهات النظر تلك، بمعنى أن الآسيويين لا يحبون أمريكا، فى الحقيقة، تبين استفتاءات "بيو" عامة اتجاهات إيجابية وإعجابا شديدا على عدة مقاييس، يضاف إلى ذلك أن الآسيويين يفرقون، مثل الآخرين، بحسم بين الأمريكيين الذين يحبونهم بصورة كبيرة، وأمريكا التى يجدون سياساتها وأفعالها غالبا ما تكون معوقة وبغيضة، غير أن هنالك فجوة واسعة بين وجهات النظر الآسيوية عما تفعله أمريكا فى المنطقة، ووجهة النظر الأمريكية عنها، وحتى تفهم الفروق الدقيقة وتضمينات هذه الفجوة، دعنا نقوم بجولة، ولنبدأ بكوريا حيث القيود أكثر وضوحا.

كوريا

لقد ذكرت بالفعل فى الفصل السابع النفور المتنامى بين الولايات المتحدة وكوريا الجنوبية، الذى بلغ ذروته - فى ضيق شديد فى واشنطن - فى انتخابات ديسمبر

عام ٢٠٠٢، انتخابات "روه مو - هيون"، كرئيس لكوريا خلفا لـ "كيم واى جونج"، كانت واشنطن تأمل بإخلاص فى نجاح خصم "روه"، صديق الولايات المتحدة منذ زمن طويل "لى هوى - شانج" بناء على برنامجه الساعى لإبطال سياسة "ضوء الشمس" نحو "الشمال".

ولم يربح روه فقط، بل فاز بنسبة عالية من تصويت الشباب، وقد تزامن انتخابه مع مزيد من تسارع التوتر بين كوريا الشمالية، والولايات المتحدة؛ لأن كوريا الشمالية لم تكشف فقط عن برنامج تخصيب اليورانيوم السرى السابق، لكنها أيضا طردت مفتشى "الوكالة الدولية للطاقة النووية" (أى إيه أى إيه)، وبدأت الاستعدادات لاستئناف عمل مفاعلها "يونج بيون"، من هذا المرفق، يمكنها استخراج البلوتونيوم الذى يمكن استخدامه لصناعة القنابل الذرية، منتهكة بذلك معاهدة عدم الانتشار، وبالمثل اتفاقياتها مع الولايات المتحدة، وبينما أصرت واشنطن على عدم التفاوض مع كوريا الشمالية حتى توقف هذه النشاطات المهددة، أعلن روه أنه سيواصل سياسة ضوء الشمس، ويقوم بمفاوضاته مع الشمال، ويكمن وراء خرق القانون هذا وجهة نظر عن الحالة الكورية، لم تسمح بها واشنطن البتة، يمكن بالطبع أن تكون خاطئة، لكن من الهام أن يفهمها الأمريكيون، كما شرح لى واحد من كبار مفاوضى كوريا الجنوبية منذ عهد قريب.

إن الأمريكيين يعرفون أنه ليس لدى الولايات المتحدة نية غزو كوريا الشمالية، غير أن كوريا الشمالية لا تعرف ذلك، لم تكن هنالك البتة معاهدة سلام لإنهاء الحرب الكورية، لقد أبقت الولايات المتحدة حوالى أربعين ألفا من القوات فى كوريا الجنوبية، بالإضافة إلى الإشراف على جيش كوريا الجنوبية زمن الحرب، وإدخال كوريا الشمالية فى "محور الشر"؛ مما قاد الشمال لأن يرى الولايات المتحدة كتهديد لأمنه، كان أساسيا بالنسبة لوجهة النظر الأمريكية الاقتناع بأن كوريا الشمالية لا يمكن الثقة بأنها سوف تفى بالتزامات ثنائية أو متعددة الأطراف، إنها ببدئها برنامج تنشيط اليورانيوم منتهكة الاتفاقات التى أبرمتها مع الولايات المتحدة، فى "الإطار المتفق عليه"

لعام ١٩٩٤، تكون قد قدمت نموذجا يدعم وجهة النظر هذه، ومع ذلك فإن الشروط المحددة لاتفاق ١٩٩٤ كانت لتعليق برامج إنتاج بلوتونيوم الشمال، وتلك الشروط قد تم الوفاء بها[٣٦]، يضاف إلى ذلك أن الولايات المتحدة ذاتها فشلت فى الوفاء بشروط أساسية من الصفقة، إن المحطة النووية التى تم الوعد بها عام ٢٠٠٢ بطاقة قدرها ٢٠٠٠ ميجاوات لتوليد الكهرباء لم يتم تسليمها، كما لم يتم "التطبيع الكامل للعلاقات الاقتصادية والسياسية"[٣٧]، ولا نفذت "التأكيدات الرسمية ضد التهديدات أو استخدام الأسلحة النووية بواسطة الولايات المتحدة"[٣٨] ومن ثم، فإن الولايات المتحدة حصلت، فى رؤية الكوريين الشماليين، على ما أرادت، حتى خط النار، وتحديدا تعليق برنامج البلوتونيوم الكورى الشمالى بينما حصلت كوريا الشمالية، فى الأغلب، على وعود لم يتم الوفاء بها.

يضاف إلى ذلك أنها عندما ووجهت بمعرفة الولايات المتحدة برنامج تخصيب اليورانيوم، بواسطة جيمس كيللى، مساعد وزير الخارجية، خلال زيارته لبيونج يانج فى أكتوبر عام ٢٠٠٢، عرض الكوريون الشماليون إغلاق البرنامج فى مقابل التزام من الولايات المتحدة بعدم الهجوم، وأن تسير قدما فى تنفيذ وعدها بتطبيع العلاقات، غير أن كيللى أخبرهم أنه عليهم وقف البرنامج لفترة، وأنه لن تكون هنالك مفاوضات، إن أكثر ما تريده كوريا الشمالية طبقا لمفاوضى كوريا الجنوبية - هو اعتراف من الولايات المتحدة، ومعاهدة بعدم الاعتداء لإنهاء الحرب، والجنوب لا يرى أن ذلك صعب إلى هذا الحد، بالنظر إلى حقيقة أن كل بلدان العالم قد اعترفت عمليا بكوريا الشمالية ما عدا الولايات المتحدة واليابان وفرنسا، إن الكوريين الجنوبيين يؤمنون بأن سياسة واشنطن يدفعها خط الصقور المتشددين أيديولوجيا، الذين يودون تحقيق انهيار الشمال، والإبقاء على العدوانية لتبرير انتشار الولايات المتحدة الأوسع فى الباسفيكى، ومن ثم، فإن الولايات المتحدة، من وجهة نظر العديدين من الكوريين الجنوبيين، تشكل عقبة أمام الحل، مثلها مثل الشمال.

ويستاء الكوريون فوق هذا؛ مما يعتبرونه طريقة واشنطن المستبدة، وقد أُعلن منذ عهد قريب أن إدارة كلينتون فكرت بجدية فى توجيه ضربات جوية لتدمير المشروعات النووية الشمالية عام ١٩٩٤، وفى النهاية لم تفعل، وبدلا من ذلك فاوضت حول "الإطار المتفق عليه"، الذى أدى إلى إغلاق المشروع، غير أن الكوريين الجنوبيين صدموا عندما وجدوا أن حكومتهم قد أُبلغت بخطة الهجوم فقط فى اللحظة الأخيرة، عندما اعترضت الحكومة بقوة؛ حيث إن عاصمة كوريا الجنوبية - سيول - تقع فقط على بعد ١٧ ميلا من جنوب الحدود، وأن كوريا الشمالية استهدفتها بأثقل تركيز للمدفعية فى العالم، وأن مثل ذلك الهجوم كان لا بد أن يؤدى إلى تسوية سيول بالأرض، كانت لطمة حقيقية للكوريين ألا يسألوا من حليف، يفترض فيه الوفاء، عما اعتقدوه تدميرا لعاصمتهم هم.

كما لم يستشر أحد من واشنطن الكوريين الجنوبيين حول ضم كوريا الشمالية إلى محور الشر، أو حول تدمير سياسة ضوء الشمس الجنوبية بواسطة الخط الأمريكى المتشدد، وفى إيجاز يعتقد الكوريون الجنوبيون أننا نستخف بهم، وهم مستاءون من ذلك، كما يستاءون من الجحيم، ويا للسخرية، فهذه المشاعر تدفع المثل العليا الديمقراطية الصاعدة حديثا لآلاف الشباب ورجال الأعمال الذين درسوا وعملوا فى الولايات المتحدة، وعادوا وهم يرغبون فى أن ينالوا نفس حقوق أصدقائهم الأمريكيين، إن الكوريين مثلهم مثل العديد من الأوربيين لديهم إحساس بالخذلان، عندما لا يعيش الأمريكيون كما هو متوقع طبقا لمثلهم العليا.

هنالك التواءة مثيرة، فقد بدأت كوريا الجنوبية إرسال بعثات تبشيرية إلى الولايات المتحدة، إن الكثيرين من الكوريين، بعد أن غدت كوريا بلدا مسيحيا عبر الخمسين سنة الماضية، مع سيطرة البروتستانت، وخاصة الكنائس "المشيخية"، يرون أن الولايات المتحدة فى حاجة متزايدة إلى التجديد الروحى.

وهناك عامل ديناميكى آخر مهم هو صعود الاقتصاد الصينى، لقد غدت الصين مستوردا كبيرا للمنتجات الكورية، غدت المنتجات كثيرة إلى حد أن كوريا يمكنها أن

تتكهن باليوم الذى تسبق فيه صادراتها إلى الصين تلك التى للولايات المتحدة، وقد أدى ذلك إلى مناقشات كبيرة فى كوريا، حول استراتيجية تجارية إقليمية، وحول الأقلمة عموما، وقد سار جنبا إلى جنب مع هذا نقاش مفتوح حول وضع قوات الولايات المتحدة فى كوريا الجنوبية، كان الأمريكيون يقولون لمدة خمسين عاما: إن تلك القوات هناك، لحماية كوريا الجنوبية. بالطبع، علق كوهن وزير الخارجية عام ١٩٩٧ أن قوات الولايات المتحدة سوف تبقى، حتى إن أعيد توحيد كوريا، دع القطة خارج الحقيبة، والحقيقة أن قوات الولايات المتحدة هناك كجزء من مشروعها الكلى للقوة فى آسيا، والآن، فإن تبلد الشعور والسياسة التى تضغط بها الأيديولوجية يوفران بالضبط وضع القوات التى تحاول الولايات المتحدة الحفاظ عليه.

اليابان

تتطور ببطء عبر المضايق من كوريا إلى اليابان، وبكثير للغاية من التعقيد، حالة ما، لكنها ذات خواص متماثلة، إن اليابان حقا فى أزمة، رغم أنها أزمة هادئة وغير مرئية بصورة كبيرة، أنت إن سرت عبر طوكيو، أو سافرت غير اليابان، كل شىء يبدو طبيعيا تماما، والمرور متعذر لا يطاق، والمطاعم مزدحمة، القطارات تسير تماما فى مواعيدها، والأنفاق تقف تماما أمام علامة فتحاتها، وأوناش التشييد فى كل مكان، وحتى أصغر القرى تقدم لها الخدمات بالطرق الأكسبرس والقطارات السريعة، ذلك هو مفتاح حل اللغز، إن الاقتصاد اليابانى، رغم البريق الخارجى، على حافة الكارثة، وسياساته فى القلب عطنة، والدليل على الاثنين كل أوناش التشييد تلك، والطرق السريعة والقطارات الذاهبة إلى لا مكان.

لقد حكم "الحزب الليبرالى الديمقراطى" اليابان طول الوقت تقريبا ما عدا سنتين من السنوات الخمسين الغريبة الماضية، لقد بين الحزب قوته على مثلث حديدى من دعم يضم المزارعين، وسكان الريف، وشركات التشييد وموظفيها والنشاطات ذات العلاقة،

ورجال أعمال صغار، وأصحاب حوانيت، النظام السياسى مزود بقصبات(*) عطنة تماما مثل تلك التى كانت لبريطانيا فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وبسبب هذه الوسيلة، تُعد الأصوات بحيث تصل قيمة صوت المزارع فى اليابان إلى حوالى ٢,٢ صوتا من سكان المناطق الحضرية، ويُبقى الحزب الليبرالى الديمقراطى على هذا المثلث الحديدى، بتقديم الدعم الثقيل إليه وحمايته، المزارعون محميون من الواردات حتى إن سعر الأرز المحلى - مثلا - عشرة أمثال سعره فى السوق العالمى، الأعمال الصغيرة أيضا مدعومة بسبل شتى، أفضلها جميعا عدم الدفع العملى للضرائب، وتعيش أعمال التشييد على ما يقدم لها من حسنات هائلة، من عقود الحكومة، الخاصة بطرق تذهب إلى قرى المزارع والكبارى التى تربطها، والنتيجة هى ذلك الإنفاق فى التشييد، الذى يصل إلى حوالى ١٠٪ من الاقتصاد اليابانى كله، حوالى ضعف رقم الولايات المتحدة.

إن غالبية الاقتصاد اليابانى يلقى فوق هذا حماية عالية منذ سنوات من كل من الواردات والمستثمرين الأجانب، وقد تبنت اليابان بعد الحرب العالمية الثانية استراتيجية تنمية يقودها التصدير، وفرضت الحكومة فى ظلها مدخرات عالية شقت طريقها من خلال النظام المصرفى إلى إنتاج صناعات تحويلية ضخمة مثل السيارات والإلكترونيات والصلب، وتحققت طاقة إنتاجية هائلة، وجرى تصدير الكثير من الإنتاج بينما تم الاحتفاظ بالسوق المحلى للإنتاج اليابانى أساسا - ونجح النظام تماما حتى إن اليابان، فى منتصف الثمانينيات، كانت تصدر الكثير للغاية وتستورد القليل للغاية، حتى إن قيمة الين أُجبرت على الصعود فى "اتفاق بلازا" عام ١٩٨٥، كان يجب تغيير استراتيجية التصدير، لكنه كان من الصعب الانصراف عن مثل هذه المعادلة الناجحة، وبدلا من ذلك ضخت الحكومة أموالا فى الاقتصاد الأقوى، وكانت النتيجة انفجار فقاعة كلاسيكية عام ١٩٩١ - ١٩٩٢ تاركة العديد من الشركات مفلسة من الناحية

(*) قصبة: مدينة إنجليزية تتمتع بحكم محلى ذاتى - أو مدينة ذات ممثلين فى البرلمان. (المترجم)

العملية، وبنوك عديدة بقروض لا تقدم عوائد، إلا أن العديد من تلك الشركات كانت شركات تشييد، وبنوك مرتبطة بالحزب الليبرالى الديمقراطى، وفضلا عن تنظيف كل شىء، كان الحزب الليبرالى الديمقراطى يجرف خلال العشر السنوات الماضية، الدعم أكثر فأكثر، وفى أثناء ذلك أصاب الاقتصاد الركود؛ لأن البنوك كانت تحمل بالفعل الكثير للغاية من الدين الردىء الذى كان يقرض فى الغالب لتبقى الشركات الميتة الحية، حية، ومن ثم المزيد من ديونها الرديئة، إن الدين الوطنى لليابان الآن هى الأعلى فى العالم، وما يزال يرتفع، لقد وقع فى انكماش حلزونى مهدد، حلوله الوحيدة تؤدى إلى تضخم حقيقى، شىء يحتمل أن يحدث تآكلا فى ثروة الأسر، أو كسادا على نمط كساد الثلاثين ليفعل ذات الأمر.

أين دخلت الولايات المتحدة، فى هذا؟ إن الحزب الليبرالى الديمقراطى مخلوق من مخلوقات الولايات المتحدة، وقد أقر الفريد ك. أدلمر الصغير، رئيس عمليات وكالة المخابرات المركزية بشرق آسيا ١٩٥٥ - ١٩٥٨، وروجر هيلزمان، رئيس المخابرات والبحث فى إدارتى كينيدى وجونسون، ويو.اليكسيس جونسون، السفير فى اليابان ١٩٦٦ - ١٩٦٩ إلى ١٩٧٢ (٣٩)، يضاف إلى ذلك وجود ارتباطات وثيقة بين وكالة المخابرات المركزية والحزب الليبرالى الديمقراطى و"الياكوزا" أو "المافيا اليابانية"(٤٠)، وقد ساندت واشنطن، منذ نهاية احتلال اليابان إلى اليوم، الحزب الليبرالى الديمقراطى فى اليابان؛ لأنه كان معاديا للشيوعية، وقدم القواعد العسكرية، واتبع القيادة الأمريكية فى السياسة الخارجية، كانت هنالك صفقة منذ زمن طويل، الولايات المتحدة تعتنى بالأمن وتستخدم القواعد فى اليابان، وتدعم الولايات المتحدة فى المقابل، أو على الأقل، تقبل السياسات الاقتصادية لليابان، ولم يعد الأمر، بصورة كبيرة للغاية، فى السنوات الحديثة - هو أمر القبول، بعد أن غدت مضفرة بنيويا وماليا، مع اليابان، إلى حد كبير، حتى إن مقدرتها غدت محدودة لتفعل الكثير قبل هذا الأمر، غير أن القضية هى أن الولايات المتحدة كانت عاملا هاما (وإن لم تكن العامل الوحيد أو حتى العامل الأكثر) فى أمراض اليابان، وخاصة فى قهر ديمقراطية حقيقية.

لقد شوهت الولايات المتحدة تنمية اليابان أيضا بوسائل أخرى هامة، ولأن محاكمات "طوكيو لمجرمي الحرب" استبعدت أى نقاش عن دور الإمبراطور (بقرار من الولايات المتحدة) التى فكرت أنها فى حاجة إلى حكم اليابان عبر الإمبراطور، إن تلك المحاكمات لم تُقبل البتة من اليابانيين باعتبارها أى شىء آخر غير عدالة المنتصر، ولم تصل اليابان البتة إلى توافق مع تاريخ الحرب، إنها لم تُدرس حتى الجزء الأكبر من هذا التاريخ فى موادها، وقد جعل هذا من المستحيل على اليابان أن تنهى ما يخص الحرب فى علاقاتها بالبلدان الأخرى، إن الزيارات التى قام بها رئيس الوزراء اليابانى فى السنوات الحديثة إلى "مزار باسوكوني" (حيث أرواح موتى اليابان فى الحرب، بما فيهم مجرمو الحرب المدانون، الذين يحتفظ بهم كشىء مقدس) قد تسببت فى غضب فى العديد من البلدان، غير أن الغضب حير اليابانيين الذين يرون هذا مماثلا لزيارة مقابر "جبانة ارلينجتون الوطنية".

وقد أوجدت الولايات المتحدة فوق هذا نفس النوع من أرض الأحلام فى اليابان، مثلما فعلت فى أوربا، إن اليابان لا تتحمل مسئولية حقيقية دفاعا عن مسالك النفط أو موضوعات استراتيجية كلية فى آسيا؛ لذا فإنه يمكنها الخوض فى نفقات دفاع منخفضة - تصل فقط إلى ١٪ من إجمالى الناتج المحلى - وتجنب الموضوعات الصعبة (من المثير للاهتمام أن الولايات المتحدة، لم تعد تشكو من مستوى الإنفاق الدفاعى لليابان، رغم أنه قد غدا أقل بكثير من ذلك الذى لأوربا)، إن وضع قوات الولايات المتحدة فى اليابان يعطى سلطات اليابان عمليا سلطة قضائية كأمر واقع، أكثر مما تحظى به فى كوريا، غير أن النتيجة متماثلة، اليابان محمية ودولة تابعة للولايات المتحدة، كما أنها لم تُستشر كلية حول سياسة الولايات المتحدة نحو كوريا الشمالية، رغم أنها كانت ستكون هدفا لصواريخ كوريا الشمالية.

إن شيئا من هذا لم يثر مظاهر مشاعر معادية لأمريكا مثل تلك التى عُبر عنها فى كوريا، جزئيا؛ لأن اليابان مستفيد أكبر من العلاقة الاقتصادية بالولايات المتحدة، وجزئيا لأن ديمقراطية اليابان ليست متطورة تطورا مماثلا لديمقراطية كوريا، وجزئيا

لأن اليابانيين يميلون إلى أن يكونوا أقل صراحة، غير أن هنالك مؤشرات هامة يجب ملاحظتها، مثلا، كان فيلم "كبرياء"، واحدا من أكبر الضربات السينمائية فى اليابان خلال السنوات الحديثة، وهو فيلم يمجد "الجنرال هيدكى توجو" الذى قاد اليابان خلال أكثرية الحرب العالمية الثانية، وأدين ونفذ فيه حكم الإعدام باعتباره مجرم حرب، إن المنتج هيديكى كاسى، الذى يكتب الآن كتابا عن طيارى "الكاميكازى"(*) قال: إن "توجو كان سوبر ستار وما يزال"(٤١)، ثم هنالك يوشينورى كوبا ياشى، وهو أكثر رسامى الكاريكاتير شعبية، قال لى ونحن نتناول القهوة فى طوكيو قريبا: إن الحرب العالمية الثانية كانت بالنسبة لليابان حرب تحرير لآسيا من الكولونيالية الغربية، والأهم من كل هؤلاء هو شينتارو أشيهار، الروائى وحاكم طوكيو، وهو الذى ألف مع الرئيس السابق شركة سونى، أكيو مورتيا، صاحب أفضل الكتب مبيعا، "اليابان التى فى وسعها أن تقول لا"، وأشيهارا وطنى صريح، ووجهات نظره، رغم أنها معقدة، فإنها إلى حد ما شوفينية، وهو يطرح فى كتابه وقف اليابان لصادراتها - عالية التكنولوجيا إلى الولايات المتحدة، ردا على شكاوى الولايات المتحدة من الحواجز التجارية اليابانية، إنه بلد مريض بالفساد تحت قيادة بكماء للحزب الليبرالى الديمقراطى الذى تدعمه الولايات المتحدة، وهو الآن وإلى حد كبير، القائد السياسى المفرد والأكثر شعبية فى البلد، والذى يذكر اسمه باعتباره رئيس الوزراء. وهو إن انتخب، فمن المحتمل جدا أن يلحق بالكوريين الجنوبيين فى التحرك من أجل إخراج قوات الولايات المتحدة (وقد جرى، ذات مرة، حوار بيننا فى التلفاز اليابانى، فأكد معارضته للقواعد العسكرية للولايات المتحدة فى بلده)، وحتى بدون ذلك، هنالك دعوات متزايدة فى اليابان لتخفيض مستويات قوات الولايات المتحدة، وقد أعلن وزير خارجية اليابان يوريكو كاوا جوشى، فى ٢ فبراير عام ٢٠٠٢ - أن الحكومة اليابانية سوف تناضل لتخفيض عدد القوات الأمريكية فى أوكيناوا(٤٢).

(*) الطيار الفدائى اليابانى. (المترجم)

إن وجهة نظر اليابان، عن دور قوات الولايات المتحدة وقواعدها، من الهام فهمها، وهى فى خصام كبير مع وجهة نظر غالبية الأمريكيين؛ إذ بينما يعتقد الأمريكيون أنهم يدافعون عن اليابان، وأنه يجب على اليابانيين أن يكونوا شاكرين مقرين بالجميل، فإن اليابانيين يسمون الأموال التى يقدمونها لصيانة القواعد "ميزانية تعاطف"، إن هذه الميزانية يقدمها القادة السياسيون فى اليابان، ليس مساهمة كحليف لمهمة مشتركة حاسمة، ولكن باعتبارها معروفًا أو هدية للأمريكيين لتمكنهم من تحقيق طموحاتهم الساعية للهيمنة، مرة أخرى، للمنظور أهمية حاسمة، اليابانيون يحبون الأمريكيين، إن كل الاستفتاءات وكل سنوات الأربعين من الاتصال باليابان تؤكد ذلك، لكن علينا ألا نتجاهل وجهات نظر مثل تلك التى لصديقى اليابانى، وهو سفير سابق فى تايلاند، فقد قال لى: "إن أمريكا فى حاجة إلى نزاع لتُبقى اقتصادها دائرا"، إن اليابان لن تتخلى عن أمريكا غدا أو ربما أبدا، ولكن هؤلاء الذين فى حكومة الولايات المتحدة، والذين يصرون على الرهان على اليابان باعتبارها "شريكًا استراتيجيا" لأمريكا، ربما وجدوا أنفسهم وقد أصابتهم خيبة أمل محزنة.

الصين

إن علاقات الولايات المتحدة مع روسيا مثلها مع الصين، أفضل اليوم بصورة واضحة عما كانت عليه قبل ١١ سبتمبر، إن هذا يجعل النمط المتأرجح لعلاقات الولايات المتحدة - الصين متواصلا، وقد جذبت التنمية الاقتصادية للصين، والمصالح المشتركة فى احتواء الاتحاد السوفيتى، منذ افتتاح نيكسون للصين عام ١٩٧٢، خلال إدارة ريجان، البلدين إلى بعضهما البعض، وقد شاركت باعتبارى مسئولا فى إدارة ريجان، فى بعض المباحثات الاقتصادية المبكرة مع الصين، وفى استطاعتى أن أشهد بالاهتمام البالغ لرجال الأعمال الأمريكيين، بالسوق الصينى، وقد أدخلت نهاية الحرب الباردة، وحادثة "ميدان تيينان مين" عام ١٩٨٩ رعشة، صححتها بصورة نهائية إدارة بوش الأول استجابة لضغط رجال الأعمال، وكذا بالمثل لصالح استراتيجية أعرض.

وقد اتهم كلينتون، خلال الحملة الرئاسية عام ١٩٩٢ - إدارة بوش بتدليل الصين، ووعد باتخاذ خط أكثر صرامة، واتخذ بالفعل عندما صار رئيسا، وبشكل أولى خطا عنيفا حول حقوق الإنسان، وموضوعات أخرى، غير أنه سرعان ما خضع لمنطق التنمية الاقتصادية، وبدأ العمل بسياسة "الارتباط"، داعيا الصين بـ "الشريك الاستراتيجي"، وقد أغضب هذا البعض فى اليابان هؤلاء الذين اعتقدوا أن اليابان هى "الشريك الاستراتيجي"، والكثيرين من الجناح اليمينى للحزب الجمهورى، والذين ما زالوا يضمرون عداء قديما للشيوعيين الصينيين.

وجاءت الإدارة التالية لبوش عام ٢٠٠١، وتشدد خط الولايات المتحدة مرة أخرى، وأعيد تصنيف الصين باعتبارها "منافسًا استراتيجيا". وازدادت مراقبة الولايات المتحدة العسكرية على الصين، وبدا للكثيرين من الصينيين أن أمريكا تحتاج إلى عدو يحل محل الاتحاد السوفيتي، وهى قد اختارت الصين، وظهر أسامة بن لادن للصين كلقية سعيدة غير منتظرة، وعبرت فى سرعة عن تعاطفها، وقدمت التعاون لواشنطن، واتسمت العلاقات بعد ذلك بالدفء إلى حد بعيد، غير أن الصينيين ظلوا قلقين من أنه ما أن تتم السيطرة على تهديد الإرهاب، حتى يصبحوا مرة أخرى هدفا للعدوانية الأمريكية.

إن أكثر الأجزاء أهمية إلى حد بعيد فى لغز الولايات المتحدة - الصين، هو تايوان، وكما ذكرنا سابقا، فإنه فيما يتعلق بالأرض الرئيسية الصينية، فإن وضع تايوان تحت العلم الصينى يمثل الخطوة الأخيرة فى تأسيس السيادة والوحدة اللتين فقدتا لحساب الكولونيالية الغربية فى "حروب الأفيون" فى القرن التاسع عشر، إن دعم أمريكا لتايوان ينظر إليه، بشكل صارم، باعتباره تدخلا فى شأن داخلى يتعذر تفسيره إلا باهتمام الولايات المتحدة بإضعاف الصين واحتوائها، وهم يرون من وجهة نظرهم أنه فى كل زمن يلتقى فيه قائد تايوانى، بقائد من الولايات المتحدة، وفى كل وقت يقول فيه الرئيس بوش شيئا مثل: "إننا سنفعل كل ما يقتضيه الأمر" للدفاع عن تايوان، إن هذا يشجع ببساطة، القادة التايوانيين على مقاومة جهود الصين لإعادة التوحيد، وبذا

يضع مزيدا من الضغوط على القيادة فى بكين حتى تتخذ خطا أشد حزما، وقد أخبر الصينيون كل من يمكن أن يستمع إليهم (وغالبية الخبراء يصدقونهم)، إن الشىء الوحيد الذى يمكن أن يسبب دون شك حربا فى الغالب - هو إعلان تايوان مستقلة، وترى وجهة النظر الأمريكية، التى تنعكس كالصورة فى المرآة، إن بناء الصين لقواها على الجانب الآخر من تايوان يفرض تهديدا يتطلب رد فعل من الولايات المتحدة، ويرى الصينيون فى إيماءاتنا الداعمة لتايوان تهديدا مفروضا عليهم، وليس أمامهم من خيار بالنسبة إليه غير الرد، ومن وجهة نظرهم فإن الولايات المتحدة هى التى خلقت مشكلة تايوان كجزء كبير من جهد كبير لكبح وتدمير قوة الصين الصاعدة ونفوذها.

ويجىء ذلك بنا إلى الجزء الثانى من اللغز - المنافسة من أجل الهيمنة، وسواء كان هنالك شك أو لا فى صحة قصة البروفيسور الصينى الذى علق بقوله: "إن الصين قد مرت بـ١٥٠ عاما رديئة، لكننا الآن نرجع إلى وراء"، وهو قول شديد الأثر، ما أن يتجاوز المرء مناقشة تايوان التى لا مفر منها، حتى يكون الموضوع الثانى الكبير فى عقول النخبة الصينية هو التوقعات المضيئة للبلاد والعودة إلى الصف الأمامى للأمم، إنك بدون أن تكون صينيا، من المحتمل ألا تستطيع الفهم الكلى للإحساس العميق بالمهانة التاريخية التى جاءت بها متاعب القرن الماضى، غير أن الشعور بالخفة والنشاط والتوقع فى أعقاب نجاح الصين الجارى واضح ملموس، ومع ذلك فهناك قلق فى الصين من أن الولايات المتحدة تخشى هذا النجاح وتود الحد منه.

مرة أخرى، صور المرآة تعمل. أستدعى مثلا الحادثة التى وقعت مبكرا عام ٢٠٠١، عندما أُجبرت طائرة المراقبة إى بى - ٣ الإلكترونية على الهبوط فى جزيرة هاينان، ورأى الأمريكيون فى هذا الحدث فعلا من أفعال العدوان الذى لم يستفزه أحد، والذى أثبت مرة أخرى: لماذا علينا أن نكون حذرين من الصين، غير أن الصينيين تساءلوا: لماذا تقوم طائرات الولايات المتحدة بشكل دائم بدوريات فوق ساحلهم ولماذا يخرقون عمدا وسائل الاتصال الدفاعية الصينية من أجل رصد القدرات الدفاعية للصين؟ وقد أشاروا إلى إنه ليس لديهم مثل تلك الطائرة، ولا هم يقومون بدوريات فوق

سواحل الولايات المتحدة، ولا حتى البلدان المجاورة فى آسيا، إن الولايات المتحدة من وجهة نظرهم، تكسب فوائد ومنافع من كونها القوة المهيمنة، وتسعى للإبقاء على تلك القوة، ربما حتى بالمنع الجبرى لصعود مزاحم . إن هذا الإحساس يعزز بقوة بالأفعال الأمريكية، وبحديث وبيانات الرئيس فى ويست بوينت، ومسئولين آخرين يدعون إلى حرب وقائية، وإبطال صعود أية قوة منافسة، ويرى الصينيون، عند النظر إلى العالم فى بكين، قوات وأساطيل الولايات المتحدة تغطى الباسفيكى، وتُرسل أسلحة الولايات المتحدة إلى تايوان، وانفراج العلاقات بين الولايات المتحدة وروسيا، وقوات الولايات المتحدة لأول مرة على الإطلاق، فى العديد من الدول غير الديمقراطية من بلدان آسيا الوسطى على الحدود مع الصين، نتيجة للنزاع فى أفغانستان، إنهم يرون مسعى الدفاع الصاروخى الوطنى للولايات المتحدة، وهو مسعى موجه بصورة ظاهرية نحو "الأمم المارقة" مثل كوريا الشمالية، لكنه يميل أيضا إلى إبطال القوة المانعة للصواريخ النووية الصينية، حركة أحادية الجانب دون دعم الأمم المتحدة فى العراق، وترسانة لا نظير لها من التطور والقوة، إن كل ذلك يقدم صورة مروعة للصينيين، تشير إليهم بأن أمريكا تعتقد أنهم تهديد لها، وهم يؤكدون أنهم ليسوا قوة توسعية، ولم يكونوا كذلك أبدا، ولا يهددون الولايات المتحدة فى غير المنافسة الاقتصادية التى تقول الولايات المتحدة إنها ترحب بها. حقا، إنهم يقولون: إن الولايات المتحدة تجبرهم على إضاعة موارد على الدفاع، يفضلون كثيرا على وضعها فى التنمية الاقتصادية، إن الكثيرين يشكون فى أن التهديدات الأمريكية إنما هى جزء من استراتيجية لتخفيض النمو الاقتصادى للصين.

والجزء الثالث من اللغز هو موضوع الكبرياء والاحترام وصراع الثقافات والقصد النهائى، ربما كان الصينيون أكثر تأرجحا وتضاربا فيما يتعلق بالولايات المتحدة عن أى شعب آخر. قم كأمريكى بتقديم محاضرة فى جامعة صينية، وسوف تُسأل بحدة، وتتعرض لنقد شديد حول الهيمنة والعسكرية والتدخل الأمريكى فى تايوان، ولكن بعد المحاضرة، سوف يتجمهر نصف الطلبة حولك ليسألوك كيف يمكنهم الذهاب إلى "إم

آى تى" أو ستانفورد، أو كيف الحصول على عمل فى أمريكا، إنهم مفتونون بصورة لا نهائية بالتكنولوجيا الأمريكية، صناعتها وإنتاجيتها وحكومة الديمقراطية وروحها، إن الصينيين يجدون الأمريكيين أيضا غير متكلفين ومعبرين مثلهم، يسهل الكلام معهم، ومع ذلك، فإن لديهم أيضا اعتداداً هائلاً بثقافتهم، ويؤمنون بعمق أنه يجب على الصين أن تُحكم بطريقة مختلفة عن أمريكا، وأن أساليب الصين يجب أن تُدمج فى إطار العولمة، ومرة أخرى يعبر الرسميون الصينيون والعلماء والطلبة عن استيائهم لأن الأمريكيين يفترضون أن الأسلوب الأمريكى أو الغربى هو الأسلوب الأفضل عالميا، إنهم يكررون بإصرار أن العالم لا يمكن أن يسير طبقا لمعيار أمريكى فقط، ولكن يجب أن تُدمج المعايير الصينية بالمثل؛ إنهم يصرون، فى هذه المنافشة على أن الصين لا تشكل تهديدا لأحد، وأنه لا رغبة لديهم فى فرض معاييرهم.

إن هذا الادعاء يحظى برد فعل مختلط فى باقى أسيا، ويخشى عدد قليل من بلدان آسيا، خارج تايوان، من هجوم مسلح صينى، هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى أخبرنى الكثيرون أنهم يخافون من أن طريقة النظام الصينى الهرمى سوف تتجه إلى إعادة تنظيم الأبنية الكونية، كلما زادت قوتها، إن مثل هؤلاء الناس يحسون بالراحة مع وجود الولايات المتحدة فى الجوار كذلك، وقد عبروا عن أحد الأسباب فى محادثة طويلة قمت بها مع طلبة وكلية تسينغاو، "معهد الاقتصاديات أحادى القاعدة"، فى ربيع عام ٢٠٠٢، فبعد أن وُبخت بعنف بعض الوقت حول غطرسة أمريكا فعليا، والعجز فى المعايير الغربية، سألت إن كان فى وسعهم إخبارى تحديدا ماهية المعايير أو النظام الصينى، للكيفية التى يجب أن يكون عليها التنظيم السياسى والجيوبوليتيكى، فاعترفوا بأمانة، بأن ذلك ليس فى وسعهم.

هنا، إذن القضية الكبرى، إن الصين تود أن تكون قوة عظمى، تتوق للقبول والاحترام الأمريكى، وتلك رغبة تقدم لنا نفوذا كبيرا محتملا، ومع ذلك فإن الصين ليس لديها بعد مؤسسات يمكن أن تعالج التغيير بأسلوب منظم يمكن التنبؤ به، وتلك حقيقة تشكل بطريقة لا يمكن تفاديها، عنصرا يتسم بالمخاطرة، الصين دون شك

ليست عدوا للولايات المتحدة اليوم، وفى كلمات أخرى، يمكننا أن نجعل عدوانية الصين نبوءة، تحقق ذاتها بذاتها، وهى من ثم، شأن له أهمية عظمى، حتى إنه علينا أن نخطو بعناية، وأن نفعل كل ما نستطيع حتى نؤكد أن الصين تواصل السير على طريقة التنمية والتحرير.

ويصل ذلك بنا إلى الجزء الأخير من اللغز: الاقتصاد، إن التحول الصينى يترنح منذ ذهبت فى هذه المهمة التجارية عام ١٩٨٢، إنه ليس اقتصاد السوق تماما، إلا أنه يصل إلى هناك بسرعة عالية، وقد غيرت هذه التنمية، بطريقة درامية، المجتمع والسياسات الصينية، وبينما لا تزال بعيدة عن الديمقراطية، بالنسبة للشخص المتوسط، فإن للصين اليوم مكانا أكثر، أكثر حرية، ربما مما كانت عليه فى أى وقت مضى، وجرى تعزيز هذا التطور بقوة بواسطة كل من حكومة الولايات المتحدة وصناعة الولايات المتحدة، من خلال نقل الاستثمار والتكنولوجيا بصورة هائلة، إن هذا الاتجاه هو الضمان الأفضل لعلاقات أمريكية - صينية سلمية وودية المستقبل، حقا، هنا سخرية كبري، وحتى بينما تأرجحنا، جيئة وذهابا، حول إذا ما كانت الصين "شريكًا استراتيجيا" أم "منافسًا استراتيجيا"، كان اقتصاد الولايات المتحدة قد نما بصورة متزايدة معتمدا على الصين، عن طريقين حاسمين: الأول، بلغ العجز التجارى للولايات المتحدة مع الصين ٨٥ مليار دولار، حيث اعتمدت أمريكا أكثر فأكثر على الصين باعتبارها المورد للنوعية الأدنى تكلفة لكل شىء من فُرش الدهان إلى الهواتف الخلوية[٤٢]، والأكثر أهمية هو أن الصين حققت احتياطيات دولارية هائلة، وهى مستثمر فى التدابير الوقائية للولايات المتحدة، بصورة متزايدة، وكما رأينا مبكرا، فإن اقتصاد الولايات المتحدة يعتمد بصورة كبيرة على تدفق دائم لرأس المال الأجنبى، ولما كانت الصين تتحول إلى مصدر أكبر لرأس المال ذلك، فإن الولايات المتحدة سوف تصبح أكبر اعتمادا على الصين، ويأمل المسئولون فى الصين ألا تكون الولايات المتحدة قادرة على النظر إلى الصين باعتبارها عدوا، عندما يحين وقت إزاحة أسامة بن لادن خارج الطريق.

"هنالك سلاح ضخم للدمار الشامل موجود فقط جنوب حدود الولايات المتحدة، وهو يوشك على الانفجار، ويدعى "أمريكا اللاتينية"، إن تلك الكلمات قالها أنجيل جوريا، وزير المالية المكسيكى السابق، وهى قد أيقظتنى على إفطار فى مكسيكو سيتى، فى خريف عام ٢٠٠٢، كانت الأرجنتين، فى ذلك الوقت، تتخلف عن سداد ما عليها من ديون لصندوق النقد الدولى، والبطالة التى فى المكسيك، والنزاع اللانهائى فى كولومبيا يزداد كثافة، ومحاولة انقلابية بدت وكأنها حظيت، على الأقل، بدعم الولايات المتحدة الصامت، وقد فشلت تلك المحاولة فى فنزويلا، وكان الاقتصاد البرازيلى يتأرجح على حافة كارثة بسبب سحب المستثمرين العالميين الأموال فى منتصف الحملة الانتخابية الرئاسية المضطربة لاحتمال أن تؤدى الانتخابات إلى مجيء يسارى إلى السلطة، وقد انتخب جوريا لأن "أصولى السوق" فى واشنطن كانوا يؤخرون معونة صندوق النقد الدولى، ويصدرون بيانات حول أخطار المجازفة الأخلاقية (وخاصة تمكين سياسات لا تتسم بالحكمة على المدى الطويل حتى تحقق اكتفاء على المدى القصير)، وهم قليلو المعرفة بالأحوال فى أمريكا اللاتينية، ولا ينتبهون إلى انهيار النظام كله، وتلك هى المخاطرة الأكثر كثيرا، كما قال: "إن البرازيل تلقى العقاب من مستثمرى البلدان الديمقراطية؛ لأنها تجرى انتخابات ديمقراطية، كيف تتوقع أن يؤمن الأمريكيون اللاتينيون سريعا بالديمقراطية؛ عندما يحدث ذلك؟" كما هاجم "إجماع واشنطن" حيث ينصحون باستخدام سياسات طبقا للكتب والمراجع أكثر من أن تكون طبقا لقانون حالات البلد النامى. وقال: "إن الولايات المتحدة فى حاجة إلى استراتيجية لأمريكا اللاتينية، لكنها لم يكن لديها واحدة أبدا".

كان ذلك هو تقييم واحد من أفضل أصدقاء أمريكا فى أمريكا اللاتينية، فإن وضعنا فى الحسبان سجل الولايات المتحدة فى المنطقة، وهو سجل مواقف متبادلة من التدخل والإهمال، فإن شعورا واسع الانتشار من السخرية والشك فى دوافع الولايات المتحدة، يجب ألا يثير الدهشة، كما يُنظر إلى الولايات المتحدة، على نطاق

واسع، باعتبارها صاحبة مصالح، وليست صاحبة أصدقاء، وهى مهتمة ، بصورة أساسية، بالكسب المادى والقوة، إنها لا يُنظر إليها بأية حال، باعتبارها محبة للسلام، حقا، لقد سأل سفير أمريكى لاتينى آخر فى الولايات المتحدة، "إن كانت أمريكا محبة للسلام؟ هل تهزل؟ إن أحدا فى أمريكا اللاتينية لا يؤمن بهذا الهراء". هنا، كما فى أماكن أخرى، يوجد نقد يقال همسا عن المعايير المزدوجة للولايات المتحدة، ومع ذلك فهنا أيضا، تحظى الولايات المتحدة بالإعجاب لنجاحها الاقتصادى وجامعاتها ومعاهدها الكبرى، كما يعترف بها، على نطاق واسع، باعتبارها الأمل الوحيد لأمريكا اللاتينية"، ولكن كما يقول روبنز باربوسا السفير الإسرائيلى، إن تجسيد ذلك الأمل صعب؛ لأنه "ليس هنالك تهديد أمنى أو نووى فى هذا النصف من الكرة الأرضية، ونتيجة ذلك فإن واشنطن تمنح أمريكا اللاتينية أولوية ضئيلة".

وقد سببت هذه الأولوية الضئيلة الإحباط للرئيس المكسيكى فيسينت فوكس، والذى ربط نجاحه فى الرئاسة برهان أن صديقه الطيب، وزميله فى تربية الماشية جورج دبليو بوش سوف يغير، بصورة درامية، شكل ومادة العلاقة كلها، ولم يكن يبدو أن هذا فى طريقه للحدوث، ولذا سبب الأذى لفوكس – غير أن الرؤساء الذين تحدثت إليهم فى المنطقة، ما زال لديهم أمل بأن يقوم بوش بتناول موضوعات أساسية ثلاثة خلال إدارته: التجارة والتنمية الاقتصادية، والسيطرة على تجارة المخدرات، ودعم الديمقراطية.

إن التنمية الاقتصادية هى الموضوع الأكثر إلحاحا، وهى الموضوع الذى ترى المنطقة فيه واشنطن وهى تفشل فشلا ذريعا، إن مدخل الولايات المتحدة يقوم على اقتراح اتفاقات تجارة حرة، جنبا إلى جنب مع الخصخصة المحلية ورفع القيود والقواعد المنظمة، إن الصعوبة هنا هى أن "النافتا" جاءت بزيادة دراماتيكية فى التجارة بين المكسيك والولايات المتحدة، لكنها لم تحقق توقعات ونبوءات أخرى عديدة، مثال ذلك: أن الرواتب والأجور المكسيكية هبطت إلى حد بعيد منذ عام ١٩٩٤، وارتفع عدد هؤلاء الذين يعيشون تحت مستوى خط الفقر، جنبا إلى جنب مع البطالة، وما هو

دون البطالة، ومن ثم فإن جاذبية الهجرة غير الشرعية، بحثا عن وظائف فى الولايات المتحدة، تظل قوية، إن المشكلة لا ترجع فقط للنافتا، إنها أيضا نتيجة الأزمة الاقتصادية لعام ١٩٩٥، وارتفاع وانخفاض أسعار النفط، غير أن النافتا لم تكن كافية لتفرخ أيا من هذا، وجاءت بمشاكلها الخاصة، ويظل المدخل المكسيكى إلى سوق الولايات المتحدة كما فى السكر، أو الخدمات كما فى النقل بالشاحنات محدودا، وفى نفس الوقت الذى فُتحت فيه الأسواق الزراعية المكسيكية أمام سلع مدعومة بقوة مثل القمح الأمريكى، فإن المنتجات المكسيكية تواجه الانقراض بصورة متزايدة، وعلى غير مثال الاتحاد الأوربى، الذى قدم معونة تسوية مادية حقيقية، ومدخلا كليا إلى السوق، وتمويلا جديدا للبنية التحتية عندما ضم إسبانيا والبرتغال، فإن الولايات المتحدة زعمت فى ظل النافتا أن التجارة وحدها هى التى ستوفر الوسائل للعناية بالضرورات الأخرى.

إن المشكلة فى باقى "أمريكا اللاتينية والجنوبية"، خارج النافتا - أكثر صعوبة، وبينما تقدم اقتراح العديد من الاتفاقيات التجارية، فإن واحدة فقط، مع شيلى هى التى استكملت، إن البرازيل وهى ذات أكبر اقتصاد فى أمريكا الجنوبية تجد أن أكثر من نصف مفردات صادراتها تخضع لبعض القيود فى سوق الولايات المتحدة، ويأتى تحدى الصين، على قمة كل هذا، إن المصانع التى تحركت أولا من مواقع فى الولايات المتحدة، إلى المكسيك، قد بدأت الآن تغادر المكسيك إلى الصين؛ حيث الأجور أقل بكثير من المستويات المكسيكية المنخفضة، وما هو حقيقى بالنسبة للمكسيك يظل كذلك، بل وأكثر، بالنسبة لباقى نصف الكرة، إن دخول الصين فى منظمة التجارة العالمية يُنظر إليه جنوب ريوجراندى باعتباره بداية النهاية للنافتا، ولا يبدو أن أحدا فى واشنطن يتناول هذا الموضوع.

إن الموضوع الأكثر إثارة للقلق هو تجارة المخدرات؛ حيث إن موقف الولايات المتحدة يشبه سلوكها فى مسألة واردات النفط، إن إدمان الولايات المتحدة للغاز الرخيص قد ورطها فى سياسات الشرق الأوسط، وقادها ذلك عن غير عمد إلى

تمويل نشر الإسلام الأصولى والإرهابيين، إلى ما يصيبها هى بالضرر، وبنفس الطريقة، فإن إدمان الولايات المتحدة للكوكايين، ومواد مخدرة أخرى - يمول الاتحادات الاحتكارية فى أمريكا اللاتينية، والفساد، وتآكل المجتمعات فى بيرو وكولومبيا وبنما والمكسيك وأماكن أخرى، إن الأمريكيين - ويقدرون بعشرين إلى خمسة وعشرين مليونا يدخنون الماريجوانا، وستة ملايين مستخدم منتظم للكوكايين، ونصف مليون مستهلك للهيروين - ينفقون حوالى ٦٤ مليار دولار سنويا على المخدرات[٤٤]، وقد اتخذت الولايات المتحدة منذ عام ١٩٠٩ نهجا يقوم على التحريم، يقتضى بالضرورة "أن يقوم التجار والموزعون والمدمنون بالتسليم دون قيد أو شرط"، إلا أن عدم تحقق هذا التسليم أمر واضح من حجم السوق، وحقيقة أن إنتاج العالم من الأفيون والكوكايين قد زاد أكثر من الضعف فقط بين عامى ١٩٨٥ - ١٩٩٦[٤٥].

إن تفاعل حكومة الولايات المتحدة مع المخدرات مُركب، وغالبا ما هو فاسد، كانت وكالة المخابرات المركزية، عندما ساعدت فى تنظيم المجاهدين فى أفغانستان بعد الغزو السوفيتى - تعرف أن العصابات تحصل على النقود ببيع الأفيون، وكان ٦٠٪ من الهيروين فى سوق الولايات المتحدة قد جاء أصلا من أفغانستان[٤٦]، وقد كان مانيويل نورييجا، رئيس بنما السابق، وهو من رجال وكالة المخابرات المركزية - متعاونا أيضا مع "ميدلين كارتل أوف كولومبيا"- وقد غزت إدارة بوش الأولى عام ١٩٨٩ بنما، وقبضت على نورييجا، الذى هو الآن فى أحد سجون الولايات المتحدة لتنفيذ حكم بأربعين عاما، وتظل بنما على أية حال مغسلة كبيرة للأموال، ومركز نقل للكوكايين.

إن مدخل الولايات المتحدة لتجارة المخدرات، لم يكن تحريميا فقط، بل كان أيضا شبه عسكرى وتدخلى إلى حد كبير للغاية، ورغم أن محاكم وسجون الولايات المتحدة مثقلة بأناس قبض عليهم بتهم ذات علاقة بالمخدرات، فإن جهودا كبرى، لخفض الطلب على المخدرات، عبر المعالجة - لم تطبق فى الحقيقة أبدا فى الولايات المتحدة، إن جهد السيطرة قد ركز على وقف الإنتاج ومنع الشحنات، إن هذا الجهد يستخدم

أسطولا كبيرا من السفن والطائرات يحدد المواقع، يتعقب، ويوقف تدفق المخدرات، وتقوم الولايات المتحدة بتدريب وحدات عسكرية لاتينية وتمويلها، لتوقف إنتاج المخدرات والاتجار فيها، في بلدانهم، وتستخدم طائرات الرش لتدمير محصول الكوكا الذي يزرعه المزارعون في الأدغال وأراضي المزارع في بيرو وكولومبيا، وغالبا ما يدمر هذا الرش المحاصيل القانونية كما يدمر الكوكا، كما أنه يتسبب في تآكل التربة، وكانت الجهود التي بذلت لمساعدة المزارعين على زراعة محاصيل بديلة، غير كافية وغير ناجحة، يضاف إلى ذلك أن التدريب الذي أُعطي للأشخاص المتحكمين في المخدرات اللاتينية - يشابه إلى حد كبير التدريب المضاد للعصيان والتمرد، الذي كان دون شك قد طبق لأغراض لا علاقة لها بالمخدرات في مناطق تستوطنها عصابات الحروب.

إن المشكلة الكبرى هي مراجعات الشهادات السنوية الخاصة بالحكومات الأجنبية، إن على البيت الأبيض أن يزود الكونجرس كل عام بشهادة أن الحكومات الأجنبية تتعاون بصورة وافية مع جهود الولايات المتحدة، حول التحكم في المخدرات، والبلدان التي لا يُشهد لها تفقد المساعدة الأجنبية، وتواجه عقوبات تجارية، وتعني هذه السياسة الخاصة - بصورة مؤثرة - أن الحرب ضد المخدرات لا تُشن في شراكة مع حلفاء، ولكن ضدهم، إن الولايات المتحدة تتصرف كمدع، وقاض، وهيئة محلفين في تحديد إذا ما كانت المكسيك أم بيرو تعمل بطريقة صحيحة محاولة وقف تدفق المخدرات عبر حدود الولايات المتحدة، إن العملية مهينة وتثير الجنون، وهي في عيون جيراننا اللاتينيين عامرة بالنفاق الأمريكي، وقد أخبرني مسئول مكسيكي يحس بالمرارة أن الولايات المتحدة تعمل على التغاضي عن بنوكها عندما تتعامل في أموال المخدرات، ورغم أنها تستطيع تعقب الشاحنات إلى حدود الولايات المتحدة، فإنها تختفي بشكل ما حالما تكون في نطاق سلطة الولايات المتحدة، إن الناس تتساءل، على اتساع أمريكا اللاتينية، حول أين جانب الطلب في هذه المعادلة؛ إذ طالما كان الطلب كبيرا جدا، والربح كبيرا جدا، فإن التجار سوف يجدون وسيلة للعرض، ونتيجة ذلك

فإن قوات الشرطة والقضاة والجيوش، والناس العاديين لأمريكا اللاتينية يُغرقون فى أموال غير مشروعة تلتهم تدريجيا، وتدمر نسيج مجتمعاتهم.

ويصل بنا ذلك إلى موضوع الديمقراطية، إن واحدا من الأوجه البراقة للخمسة عشر عاما الماضية كان تحول أمريكا اللاتينة إلى الديمقراطية، ومع ذلك، هنالك شك متزايد فى أن ذلك سينجح؛ "إن السياسة تقتضى وقتا لتظهر نتائج"، قال أحد القادة: "غير أن الديمقراطية لا تمنحك أى وقت"، قال آخر: "انظر إلى البلدان التى تطورت بنجاح مثل سنغافورة، تايوان وشيلى، إنها لم تكن ديمقراطية خلال مراحل التطور"، إن هؤلاء القادة يتساطون فى عجب، كيف يمكن للديمقراطية أن تتعزز فى محيط من أموال المخدرات، لكن الأشد إحباطا للهمة، فى كل ذلك، هى وجهة نظرهم بأن الولايات المتحدة "لا تبالى حقا، وإلى حد كبير، بالديمقراطية فى أمريكا اللاتينية"، لقد لاحظ الجميع بالطبع ما كانت تحسه الولايات المتحدة فى الماضى من راحة مع الديكتاتوريين وتنصيبهم، غير أن المثل الرئيسى فى أيامنا تلك هو فنزويلا، حيث بدا فى إبريل عام ٢٠٠٢ أن رسمى الولايات المتحدة يقدمون الدعم لمحاولة انقلابية لطرد الرئيس المنتخب هوجو شافيز، بالطبع غيرت الولايات المتحدة موقفها وأنكرت التورط، غير أنه لا يوجد واحد فى أمريكا اللاتينية يصدق هذا الإنكار ولو لدقيقة واحدة، هنا مرة أخرى لم تقدم سياسات الولايات المتحدة مبررا هاما للثقة.

الشرق الأوسط

إن كان لدى أمريكا اللاتينية القليل من الثقة فى الولايات المتحدة، فإن البلدان الإسلامية فى "الشرق الأوسط"، وجنوب آسيا وجنوب شرق آسيا، لم يعد لديها أية ثقة. إن هذا يعنى أيضا حركة عكسية كبرى، إن هذه البلدان باعتبارها بلدانا عميقة التدين، فقد رفضت العقيدة الشيوعية، بصورة طبيعية، وكانت فى أغلب الوقت حليفة لأمريكا خلال الحرب الباردة، رغم عدم ارتياحها لدعم الولايات المتحدة لإسرائيل.، وكما

هو ملاحظ فى الفصل الرابع، فإن العربية السعودية كانت لها بصورة خاصة علاقات دافئة مع الولايات المتحدة تعود إلى الاكتشاف الأول للأمريكيين للنفط فى صحراء السعودية، عندما أكد البريطانيون وغيرهم بقوة استحالة وجود أى نفط هناك، إن البلد الأساسى الآخر فى الشرق الأوسط هو مصر، التى كانت لها علاقات أكثر صعودا وهبوطا مع الولايات المتحدة، ولكن بعد نهاية حرب "يوم كيبور" عام ١٩٧٣، أصبحت هى أيضا صديقا صلبا، وقد لعبت الأردن ولبنان أيضا رغم صغرهما أدوارا رئيسية كمساعدين وصديقين للولايات المتحدة، وقد قامت الأردن، فى الغالب، وبشكل خاص، فى ظل الملك حسين بدور مهدئ وسط سياسات المنطقة المتفجرة.

والآن، كما ذكرت بيانات مسح "بيو" فى الفصل الأول والثانى، فإنها تشير إلى أنه قد تم نزح كل حسن نية، إن السبب المباشر هو الحالة فى العراق، غير أن العامل طويل المدى والأعمق هو ملاحظة انحياز الولايات المتحدة لإسرائيل، هنالك دون شك أيضا عنصر للإحباط والغضب الذاتى، فى العديد من تلك البلدان، بسبب عجزها الكبير على أن تكون على مستوى التحديث، وهم يوجهون هذه المشاعر وجهة جديدة نحو الولايات المتحدة، غير أن فقدان الإرادة والاحترام اللذين أشير إليهما هنا بشكل خاص – هما لهؤلاء الناس الذين راهنوا بتاريخهم المهنى، وبنوا حياتهم على أساس كونهم أصدقاء للولايات المتحدة، إن العربية السعودية هامة بشكل خاص فى هذا الصدد؛ لأن الكثير للغاية من نخبها قد درسوا وعاشوا فى الولايات المتحدة، ولأن البلد قد فعلت الكثير، فى نظرها هى لتكون داعمة بتقديمها المساندة لعمليات الولايات المتحدة السرية حول الكون، وكذلك بالمثل فى ضبط أسعار النفط، وفى أعقاب ١١ سبتمبر اتخذت الصحافة الأمريكية موقفا صارما من السعودية، وهى الصديق المُقدم حتى الآن، أو فى الغالب لا مصلحة لها؛ لأن خمسة عشر من التسعة عشر قرصانا كانوا مواطنين سعوديين، وبعد سنوات من تجاهل المملكة، أو التغطية على ما تقدمه من دعم قوى لغالبية مبادرات الولايات المتحدة بكفاءة، فإن صحفا مثل الـ "وول ستريت جورنال" لم تجد شيئا جيدا فى المملكة، وقد أدين بشدة قانونها الإسلامى، وتحجيبها

للمرأة، ومؤسساتها الخيرية، ونظامها المدرسى، وافتقادها للديمقراطية، ودعمها للفلسطينيين، أُدينت كلها بشدة باعتبارها بربرية من العصور الوسطى ومعادية لأمريكا، وبينما أشار النقد إلى موضوعات حقيقية يحاربها السعوديون أنفسهم، فإن النغمة الخشنة والتحول العكسى الفجائى للاتجاهات الودودة السابقة قد لدغت عندما بدا واضحا أن الأمريكيين قد نسوا، أو ربما لم يعرفوا أو يبالوا بالدعم الذى أعطته لهم العربية السعودية.

وقد شرح لى مالك سلسلة صحف سعودية رئيسية، المرارة التى سببها هذا المنحى، إنه خريج جامعات الولايات المتحدة الذى يقضى معظم وقته فى بلده الثانى الولايات المتحدة، وصف لى صدمته فى أناس كان يفكر فيهم دوما كأصدقاء، وقد بدوا الآن فجأة شكاكين فى كل السعوديين، بل والأكثر أهمية كان وصفه لرد فعل ابنه البالغ من العمر ٢١ عاما، كان الشاب قبل ١١ سبتمبر طالبا فى جامعة رئيسية بالولايات المتحدة، ذهب إليها بعد انتهائه من مدرسة تمهيدية من مدارس القمة بالولايات المتحدة، كان دائما معجبا شديد الإعجاب بكرة القدم، وكرة السلة فى الولايات المتحدة، يستمع بلا توقف إلى الموسيقى الأمريكية، ويأكل الطعام الأمريكى الردىء، ويلعب ألعاب الكومبيوتر، ويواعد فتيات أمريكيات، والآن على أية حال وفى أعقاب التحول العكسى المفاجئ للاتجاهات الأمريكية، فإن الابن، كما أخبرنى، انسحب من الجامعة، ويرفض السفر إلى أمريكا، أو حتى أن يقابل أمريكيين فى العربية السعودية، بل وأكثر ما يثير قلق صديقى حقيقة هو أن ابنه قد غدا مهتما بصورة كثيفة بالسياسة، ويحضر بانتظام اجتماعات شخصيات راديكالية سياسية ودينية، وهو ليس الآن معاديا بقوة لأمريكا فقط، لكنه معاد لإسرائيل أيضا.

هذا مثل واحد فقط، لكنه دال على مشاعر أكثر إتساعا لها نتائجها بالفعل على الولايات المتحدة، إن القاعدة الجوية العملاقة "الأمير سلطان"، كانت عنصرا رئيسيا فى بنية الولايات المتحدة من أجل مراقبة مستمرة للخليج الفارسى، وقد أعلن قادة سعوديون، فى الأشهر القريبة، على أية حال أنه ما أن تنتهى الحرب مع العراق، حتى

يطلبون من الرئيس بوش سحب كل القوى المسلحة الأمريكية فى المملكة، حقا، إن العديد من السعوديين - كما يبدو - يفكرون فى أن أفضل جزء فى الأمريكى الجديد فيما يتعلق بالعراق - لن يكون إلى حد كبير التخلص من أسلحة "صدام" للدمار الشامل، ولكن التخلص من الوجود الأمريكي فى العربية السعودية، ومن ثم فإن أسامة بن لادن قد يرى إنهاء التحالف السعودى مع الولايات المتحدة، ذلك التحالف الذى طالما سعى إليه.

وتعانى الأردن ومصر القلق أيضا، مثلما عانت السعودية، ولقد تأثرت فى اجتماعات مع قادة أردنيين من الإحباط الذين عبروا عنه لما يرونه سوء تأويل واشنطن للأحداث فى المنطقة، ويشاركهم وجهات نظرهم، ويعبر عنا أفضل تعبير عبد المنعم سعيد، مدير مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية فى القاهرة، وقد شرح أثناء إفطار أن الأمريكيين يميلون إلى رؤية مشاكل العراق وإيران والأصولية والإرهاب والنزاع الإسرائيلى - الفلسطينى باعتبارها مشاكل منفصلة، تحل كل منها على حدة، وقال: إنها بالنسبة للعرب هى كل مترابط، واستمر خاصة أن المشكلة ليست فى أن وضع العراق قريب إلى حد كبير مما عليه وضع القضية الفلسطينية، وقال حقا: إن ضرب العراق سوف يفاقم الوضع فى الشرق الأوسط، وخاصة أنه ليس من المحتمل كبح الأصولية والعنف بين العرب وإسرائيل، ولكن تحفيزه، إن ما لا يفهمونه فى أمريكا، هكذا أكد، هو ذلك الحس العميق بالظلم الذى يحسه عمليا كل العرب، إنهم يتساءلون: لماذا فى وسع إسرائيل امتلاك قنابل نووية، وليس فى وسع البلدان العربية؟ لماذا فى وسع إسرائيل تجاهل قرارات الأمم المتحدة مع إعفائها من العقاب، لكن صدام يجب مهاجمته على الفور؟ لماذا فى وسع إسرائيل الإفلات حتى مع إغراق باخرة الأسطول الأمريكى "ليبرتيي"؛ فى حرب ١٩٦٧، واستخدام الأمريكيين، أمثال جوناتان بولارد، الذى هو الآن فى السجن؛ للتجسس على الولايات المتحدة ذاتها، بينما العرب المواطنون فى الولايات المتحدة يُجمعون بصورة روتينية للاستجواب بخصوص نشاطات إرهابية، فقط لأنهم عرب؟ يضاف إلى ذلك قوله: إن العرب لا يرون فى صدام

تهديدا كبيرا كما هو الإرهاب، وبالسعى وراء العراق، يقول: أمريكا تسلك الطريق السهل بمهاجمتها عاصمة يمكن قذفها بالقنابل، وواصل: إن رباط الولايات المتحدة بالعرب المعتدلين - عمل طوال نصف قرن لكبح التوسع الشيوعى، ولوقف موجات الثورة الإيرانية، ولإنهاء تهديد صدام فى حرب الخليج عام ١٩٩١، وقال: الآن يرى العرب أن القوة العظمى وراء عدم الاستقرار فى المنطقة هى الولايات المتحدة ذاتها.

وترددت وجهة النظر تلك على أساس أوسع بواسطة رئيس الوزراء الماليزى مهاتير، الذى قال لـ ١١٦ عضوا فى حركة عدم الانحياز فى فبراير عام ٢٠٠٢، إن الولايات المتحدة لم تعد تحارب فقط ضد الإرهاب، والأصح هو القول أن تلك الحرب للهيمنة على العالم، هكذا قال. وأكد عدم مبالاة أمريكا بالإحباط فى العالم الإسلامى بسبب النزاع الإسرائيلى الفلسطينى، وأدان المعايير المزدوجة الوقحة التى تثير حنق المسلمين، بينما قال إن الجهود الجارية التى تقودها الولايات المتحدة تخلق الظلم والقهر للناس الذين من أصول عرقية وألوان أخرى، إنه نفس مهاتير الذى كُرم فى "البيت الأبيض" منذ ما يقل عن عام سابق لدعمه الوفى للولايات المتحدة فى حربها ضد الإرهاب.

جنوب آسيا

إن ميراث انقسام باكستان عن الهند، عام ١٩٤٧، والحرب الباردة - متحدان مع ورود الحرب على الإرهاب، قد خلقا خليطا مخيفا من الجنس والوحشية غير المروضة فى جنوب آسيا؛ مما يجعلها أكثر الأماكن حذرا فى العالم اليوم، إن الفصل المر للهند وباكستان قد ترك الملايين موتى، جنبا إلى جنب مع الألم الحادث لتقسيم كشمير، لقد خاضت الهند وباكستان ثلاثة حروب خلال الخمسين سنة الماضية، وكانا مرتبطين بصورة مستمرة بعملية تطوير الأسلحة عالية التكلفة رغم فقرهما المشترك، وغدت الولايات المتحدة مضفرة فى كل هذا نتيجة الحرب الباردة.

ورغم أن الهند كانت دوما ديمقراطية، وباكستان ليست فى الغالب الأعم غير ديكتاتورية عسكرية، والهند بنظامها الاقتصادى الاشتراكى، والشك فى ارتباطات أمريكا بحاكمها الكولونى السابق، بريطانيا، اتجهت نحو الاتحاد السوفيتى خلال الحرب الباردة، ومن ثم اتجهت الولايات المتحدة نحو باكستان، التى قفزت برشاقة فى تحالفات الخمسينيات التى ترعاها الولايات المتحدة مثل "السنتو" (منظمة المعاهدة المركزية) و"السياتو" (منظمة معاهدة جنوب شرق آسيا)، غير أن علاقة الولايات المتحدة بباكستان كانت علاقة ساخنة وباردة، كانت ساخنة، فى الأيام الأولى للحرب الباردة؛ حيث كانت الولايات المتحدة "تبحث عن حلفاء فى آسيا"، ثم عندما هاجمت الصين الهند، عام ١٩٦٢، كانت هنالك فترة قصيرة من الدفء الهندى الأمريكى، عندما قدمت واشنطن بعض المساعدات للهند، غير أن باكستان سرعان ما غدت حليفة للصين التى أراد نيكسون فتحها فى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، وقدم قادة باكستانيون أنفسهم كقناة إلى بكين، ومن هنا وطدوا رباطا وثيقا بواشنطن، حقا، كان الرباط وثيقا حتى إن الولايات المتحدة مالت فى الحرب الهندية الباكستانية عام ١٩٧١ نحو باكستان الفاشستية ضد الهند الديمقراطية، وبدت واشنطن بعد ذلك بصورة أو أخرى ناسية ما يجرى فى المنطقة حتى عام ١٩٧٤، عندما فجرت الهند أداتها النووية الأولى، ورغم أنها هى التى مرنت علماء الهنود، وأمدتها بمواد نووية حاسمة فإن الولايات المتحدة قطعت عن الهند ما كانت تمده بها من وقود نووى بعد التفجير، رغم حقيقة أن الهند وعدت ألا تحول أداتها إلى أسلحة، وقد دفع هذا بالهند أكثر مباشرة بين ذراعى السوفيت، الذين سعدوا بأن يكونوا مورد الماء الثقيل إلى الهند.

كانت باكستان فى تلك الأثناء تقوم بتنفيذ برنامج تطورها النووى بعد حربها عام ١٩٧١ مع الهند، وبينما قامت كندا وألمانيا بتوريد معدات حاسمة، أوقفت الولايات المتحدة المعونة الاقتصادية والعسكرية فى تعبير عن معارضتها لما لم يكن واضحا أنه برنامج أسلحة نووية، وأصبحت باكستان عام ١٩٨١، على أية حال، هامة مرة

أخرى لواشنطن نتيجة غزو السوفيت لأفغانستان، كانت الولايات المتحدة فى حاجة إلى منطقة خلفية لتدريب وتسليح وإمداد المجاهدين، وكانت باكستان مثالية فى ذلك؛ حيث إنها بلد إسلامى يؤوى العديد من ذات القبائل التى تعيش فى أفغانستان وتتعلم بعض لغاتها، ومن ثم، رفعت إدارة ريجان العقوبات عنها، رغم القبض على مهرب حاول شحن طنين من الزركونيوم(*) إلى باكستان، وجددت مساعداتها السخية العسكرية والمالية فى مقابل العون مع المجاهدين، وقد أمدت الصين، عام ١٩٨٣، باكستان بتصميم قنبلة؛ ردا على ذلك، وأقر الكونجرس تعديلا يطالب بعقوبات اقتصادية ما لم يشهد البيت الأبيض أن باكستان لم تعمل فى برنامج أسلحة نووية، وشهد البيت الأبيض بذلك للسنوات الخمس التالية، لكنه فرض أخيرا عقوبات عام ١٩٩٠، عندما خافت باكستان الحرب مع الهند مرة ثانية فصنعت الأجزاء المركزية من أسلحة نووية عديدة، وتواصل البرنامج - على أية حال - منتهيا عام ١٩٩٨، عندما قامت كل من الهند وباكستان بسلسلة من تفجيرات التجارب النووية، وعبرت واشنطن ثانية عن غضبها.

وفى أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتى، وتحقيق عدد كبير من أصحاب الشركات الهنود الثراء فى "سيليكون ڤالى"، وعودتهم لتكوين شركات جديدة فى وطنهم، بدأت علاقات الهند والولايات المتحدة فى الدفء، بل أصبحت أكثر دفئا عندما أعلنت إدارة بوش الجديدة أن الصين "منافس استراتيجى" عام ٢٠٠١، وبدأت تعاونا عسكريا أكبر مع الهند كوسيلة للإشارة إلى الصين بأنها محاصرة، وفى تلك الأثناء، سيطرت "طالبان" على أفغانستان، تحت النفوذ الباكستانى؛ الأمر الذى كانت الولايات المتحدة قد تخلت عنه ونسيته بعد خروج الجيش السوفيتى عام ١٩٨٩، وعندما فرضت طالبان الحجاب على النساء وأخرجتهم من الوظائف، والمدارس، حتى المستشفيات، ووفرت

(*) عنصر فلزى نادر. (المترجم)

تسهيلات ودعما لأسامة بن لادن، وفرضت نظاما ينتمى إلى العصور الوسطى، ظلت الولايات المتحدة خرساء بكماء - حتى جاء ١١ سبتمبر.

فجأة، احتجنا لباكستان مرة أخرى، وبدأت المعونة الاقتصادية والعسكرية تتدفق مرة أخرى، عندما تعهد الرئيس مشرف بأنه مع الولايات المتحدة فى الحرب ضد الإرهاب، وأثبت مشرف بهذا التعهد أنه فعليا رجل شجاع، كان الإسلاميون الراديكاليون الداعون لطالبان، يخترقون بعمق أجهزته العسكرية والسرية، بينما العالم فى بلده، وخاصة فى الأقاليم الحدودية مع أفغانستان، يميل إلى أن يكون متعاطفا مع أسامة، ولما كان مشرف ديكتاتورا عسكريا آخر، فإن إمكانية اغتياله أو الانقلاب عليه، كانت وما زالت قائمة طوال الوقت، ولكن إن كان مشرف شجاعا، فقد كان مخادعا أيضا، فعندما قبض من يدعمون القاعدة فى باكستان على دانى بيرل، المراسل الصحفى لـ وول ستريت جورنال، وقتلوه، فإن أجهزة الأمن الداخلية كانت واعية لهذا الأمر، وهنالك احتمال كبير لتورطها فى عملية القتل، إن مشرف دون شك، كان يعرف فى الغالب هذا عندما زار واشنطن فى فبراير عام ٢٠٠٢، ومع ذلك فإنه أخبر الرأى العام الأمريكى باعتقاده أن دانى كان ما يزال حيا، ربما كان عليه أن يفعل ذلك حتى يظل هو، ذاته حيا، إن الحالة اليوم، على أية حال، هى أنه بينما يبقى مشرف رئيسا يدعم الولايات المتحدة فإنه لا يسيطر على الأقاليم الغربية، أو ما تسمى المناطق القبلية لبلده هو. كما أنه لا يبدو مسيطرا على بعض أجهزته الداخلية التى تواصل دعمها للنشاط الإرهابى فى كشمير، إن هذا النشاط يمكن أن يؤدى إلى حرب مع الهند، غير أن الأمم المتحدة تقول للهنود: أن يهدؤوا لأن واشنطن تحتاج إلى مشرف لدعم سياستها فى أفغانستان. وفى تلك الأثناء، على أية حال، فإن سياسة الولايات المتحدة فى العراق وفى إسرائيل - فلسطين تجعل موقف باكستان جذريا إلى حد كبير، حتى إنه من الممكن للغاية، كما أخبرنى ناشر باكستانى هام، أن تقتل مجموعة مثل طالبان مشرف وتستولى على باكستان بمعداتها النووية وصواريخها الباليستية، إذا كنت تعتقد أن ذلك يبدو أمرا خطرا، فهو بالفعل كذلك.

النظام العالمى الجديد

إن شكل النظام العالمى الجديد ما يزال غير متبلور - على نحو ما - غير أنه لا يبعث على الراحة بصورة متزايدة، إنه ليس تماما، الولايات المتحدة ضد العالم، كما تنبأ صديقى الماليزى، لكن التوتر بين أمريكا وأصدقائها القدامى فى كوريا الجنوبية وأوربا واليابان، وجنوب شرق آسيا، وأمريكا اللاتينية، يتصاعد إلى مستويات خطرة، إن العلاقات بالخصوم القدامى مثل روسيا والهند والصين قد تحسنت بالفعل، لكن التنبؤ بها يظل صعبا، حقا، إن النظام العالمى الجديد كله غدا أمرا لا يمكن التنبؤ به وغير مستقر. هل ذلك هو ما نريده حقا؟ إننا فى حاجة لنسأل أنفسنا ذلك السؤال.

الفصل العاشر

مدينة فوق التل

" لا حاجة ليلا إلى قمر أو نجوم ولا حاجة نهارا لشمس
تشرق. إنها أورشليم الجديدة التى يجب ألا تموت"

المدينة المقدسة (ويزرلى وآدمس)

يبدو لى وأنا أبدأ هذا الفصل الأخير أنه من المحتمل تماما أن تحتل حشود الولايات المتحدة جنبا إلى جنب مع بعض القوات البريطانية، وربما تمثيل رمزى لوحدات مسلحة من أعضاء آخرين فى "ائتلاف الراغبين"، العراق عندما يظهر هذا الكتاب، وبينما يحتمل أن يكون ذلك فى هذه المرحلة، أفضل من البديل الذى يسمح لصدام بتحدى مجلس أمن الأمم المتحدة وازدرائه، وهو يواصل معاملة العراقيين العاديين بوحشية، ويبدو لى أننا ونحن نحاول فعل الشىء الصحيح، ولكن بأسوأ سبيل ممكن، نكون قد منحنا أنفسنا الاختيارات السيئة فقط، وأوجدنا حالة خاسرة - خاسرة؛ إذ سواء دخلنا عاجلا أو تأخرنا بسبب تغير ما فى قلب صدام، فى آخر دقيقة، أو لم ندخل على الإطلاق، فإن ضررا بالغا قد ارتكب بالفعل، وإن سار الاحتلال على هدى ما جاء فى الكتب، وبزغت العراق كنموذج ديمقراطى خلال خمس سنوات - وهو سيناريو نزاع طويل للغاية - فسوف يكون للضرر نتائج لاحقة دائمة، وهذا صحيح بشكل خاص إن نظرنا إلى العراق وكوريا الشمالية، كجزء من كل، أكثر من النظر إليهما باعتبارهما موضوعين منفصلين.

إن التقليل من أهمية تهديدات كوريا الشمالية، والانسحاب من معاهدة حظر الانتشار بينما تبذل جهود جبارة للذهاب إلى الحرب مع العراق البعيد للغاية وغير النووى، تعنى أن واشنطن قد أرسلت رسالة عالية تقول بأنك إن فكرت باحتمال وجودك فى الجانب السيئ لأمريكا، يجب أن تصبح نوويا، وفى سرعة، والأمر الأكثر أساسية هو أننا بسوء فهمنا لمصالحنا الوطنية الخاصة بنا وأسس قوتنا - نكون قد دمرناها بالفعل، إن الاتحاد الأوربى مثلا أكثر من مجرد سوق كبير، إنه الأداة التى هدَّأت حروب الخصومات القديمة والقبلية فى أوربا، وهو الذى خلق مولدا للثروة، مولدا قادرا على أن يكون شريكا مساويا للولايات المتحدة، وذلك بعمله كمولد لنشر الديمقراطية والسلم والاستقرار فى كل أوربا، وفى أجزاء من آسيا الآن أيضا، إن مصدر القوة الهائل ذاك، والذى عززته الولايات المتحدة دوما باعتبار أنه كان فى صالحها إلى حد كبير - قد أُوقع به ضرر داخلى بالغ بسبب الانقسامات التى نشأت فى المعركة حول كيفية معالجة العراق، انقسامات بسبب سياسات الولايات المتحدة، وفوق هذا، فإن علاقة الاتحاد الأوربى، وغالبية البلدان الأوربية الأساسية والولايات المتحدة قد أصابها الضرر، وهذا حقيقى، حتى فى البلدان، مثل بريطانيا؛ حيث ساندت القيادة أمريكا؛ لأن الرأى العام على اتساعه كان ضد سياسات الولايات المتحدة بصورة ساحقة، ولم يخدعه الحديث عن "أوربا القديمة - أوربا الجديدة"، إن أوربا الجديدة لن ترسل أى حشود جنود، أو تدفع أية حوالات، وهى إن ذهبت جنبا إلى جنب مع واشنطن، وإبعاد نفسها عن أوربا القديمة، فهى تكون على الأرجح قد دمرت طموحاتها التنموية.

خذ الناتو مثلا آخر، إن الأمريكيين عادة ما ينظرون إلى الناتو، وإلى الاحتفاظ بحشود من جنود الولايات المتحدة فى أوربا، باعتبار ذلك نوعا من المعروف الذى تقوم به من أجل الأوربيين، حقا، لم يعد هنالك، بموت الاتحاد السوفيتى، تهديد عسكرى لأوروبا، ومن ناحية أخرى، ليس فى وسع الولايات المتحدة إظهار القوة فى الشرق الأوسط أو إفريقيا دون استخدام قواعد الناتو، والتعاون، والحقيقة أننا فى حاجة إلى

الناتو ربما أكثر من الأوربيين، ومع ذلك، فهنالك بالفعل حديث فى أوربا عن إنهاء محتمل أو تقييد لاستخدام الولايات المتحدة للقواعد والفضاء الجوى، ومن الواضح بالفعل أن العربية السعودية سوف تطلب منا إجلاء القواعد هنالك فى المستقبل القريب، ويبدو محتملا أن تطلب كوريا الجنوبية نفس الشىء، وربما تتبعها اليابان، إن السخرية الكبرى هنا هى أن الأحادية الأمريكية تبدو وهى تأكل ذات قواعد الهيمنة التى يحاول حواريوها توسيعها.

الحلم الذى يمكن أن يتحقق

إنه ما كان، ولم يكن عليه أن يكون على هذا النحو، كان هنالك وما يزال سيناريو آخر ممكن، لم يكن معروفا بصورة واسعة أن الولايات المتحدة أو الأمم المتحدة فى نهاية حرب الخليج، عام ١٩٩١ - قد وضعت شروطا جادة لوقف إطلاق النار، حقا، عندما اجتث الجيش العراقى كلية، أوقف الائتلاف القتال ببساطة، وطلب من القادة العراقيين أن يتخذوا الاستعدادات لوقف إطلاق النار، والتقى الجنرال نورمان شوارتزكوف، وكان يعمل ببضعة تعليمات فى ٣ مارس ١٩٩١ - مع الجنرالات العراقيين لاتخاذ الاستعدادات لشروط وقف إطلاق النار، ولم يقدم الائتلاف طلبات لصدام، أو إلى أى أحد من ممثليه، لتوقيع أية وثيقة بالتسليم، أو بشروط تطالب بنزع سلاح العراق، أو تدمير أسلحة الدمار الشامل، أو حماية مجموعات الشيعة أو الأكراد فى العراق، والذين شجعهم الائتلاف ليثوروا ضد نظام صدام، وقد حصل صدام، فى الواقع، على جواز مرور، ورغم أن شوارتزكوف قد طلب ألا تطير طائرات ثابتة الأجنحه قرب حشود جنود الولايات المتحدة، ولم توضع شروط لتقييد الطائرات المروحية؛ لذا فإنه عندما ثار الشيعة والأكراد، وقد حثهم الائتلاف على ذلك، ذبحتهم مروحيات صدام، وقد أحالت واشنطن اللوم على هذا، فيما بعد إلى الحاجة للرد على مخاوف السعودية من الشيعة، غير أن مسئولين كبارا من الولايات المتحدة والسعودية، كانوا فى نفس المكان فى ذلك الوقت، أخبرونى أن السعوديين رغبوا، فى الحقيقة،

فى مساعدة الشيعة، وقد جعلت الولايات المتحدة المنطقة الجنوبية أخيرا، دون طيران، لكن الوقت كان قد تأخر كثيرا لإنقاذ الشيعة، وأصدرت الأمم المتحدة، فيما بعد، فى ابريل، القرار ٦٨٧ والذى يأمر صدام بتدمير كل أسلحة الدمار الشامل، ورغم أن وزير خارجية العراق رد بخطاب يقبل فيه التعليمات كانت لحظة التغيير الحاسم قد مرت، كان الوضع الآن هو لعبة القط والفأر.

افترض أن الولايات المتحدة وحلفاءها (وقد كانوا بالفعل حلفاء حينذاك) قد فرضوا شروط نزع سلاح على العراق فى وقت وقف إطلاق النار، طالبين من صدام توقيع وثيقة رسمية ذات شروط حقيقية، وآليات وضعها موضع التنفيذ، لكان فى وسعنا أن نفعل ما نتحدث عنه الآن، يساندنا الثقل الكلى للرأى العام العالمى، وقد أخبرنى خبراء كبار للولايات المتحدة كانوا فى المنطقة فى ذلك الوقت، أن مثل هذا المطلب كان يعنى بالتأكيد سقوط صدام، لكننا سمحنا له، بدلا من ذلك، أن يحول مأساة عسكرية إلى نصر سياسى، كان لدينا حينئذ غالبية القادة الذين لدينا الآن: شينى، باول، وولفويتز، فيث وهان، كانوا جميعا هناك، واليوم، يجادلون بأن الكونجرس والأمم المتحدة أمروهم رسميا بطرد العراق من الكويت فقط، وأن أى تقدم نحو بغداد كان سيمزق الائتلاف إربا، وبينما يمكن أن يكون ذلك صحيحا، بقدر ما ينجح، فإنه يتهرب من حقيقة أنه لم تكن هنالك ضرورة للذهاب إلى بغداد، كان هنالك حاجة فقط لفرض شروط المنتصر، وربما نتذكر أننا كرمنا هؤلاء القادة، وأقمنا لهم المواكب فى قلب المدينة فى مانهاتن حيث ألقيت عليه قطع الأوراق الصغيرة فكانت كهبة ريح ثلجية، ومنحناهم الأوسمة أمام الكونجرس لانتصارهم الواضح على جيش من العالم الثالث، كان علينا أن نصفر لهم لأنهم نسفوه نسفا.

نسفوه بعدم توصلهم إلى أسلحة الدمار الشامل، عندما كان فى وسعهم أن يفعلوا ذلك، ونسفوه ثانية عندما سمحوا لصدام باستخدام مروحياته وإطلاق النار على الثورات المتمردة التى دعوا إليها فى مناطق الأكراد والشيعة بالعراق، لقد نسفوه للعجز فى التخطيط لما بعد الحرب، وبسبب الجهل بالحالة الحقيقية فى العراق.

وبوضوح، بسبب مراعاة ائتلاف حلفائنا الذين خشوا فراغا فى المنطقة، لقد عرفوا حينذاك أن صدام قد استخدم الغاز ضد شعبه، وأنه كان ديكتاتورا وحشيا يقينا، لقد أملوا، وربما حتى اعتقدوا - أن ضباطه سوف يقومون بانقلاب ضده، لكنهم كانوا على استعداد للقبول ببقائه حيا؛ لاعتقادهم أنه قد هُزم، وأنه لن يشكل تهديدا مرة أخرى.

لكن، ضع كل ذلك جانبا، لقد بدا للعديدين - فى هذا الوقت - أن ذاك كان صحيحا، افترض بديلا آخر، مصادقة الولايات المتحدة على "اتفاقية كيوتو"، والتى هى قريبة للغاية من الاقتراحات الأمريكية الأصلية، افترض أن الولايات المتحدة وقعت على المحكمة الجنائية الدولية، أو على الأقل أحجمت عن شن حملة ضدها، افترض أننا وقعنا على معاهدة الألغام الأرضية، ومعاهدة الأسلحة الصغيرة، ولم نُخرج أحشاء معاهدة الأسلحة الكيميائية، ودعمنا الاتفاقيات المضادة للإبادة العرقية، واتفاقية وضع المرأة، افترض أن الولايات المتحدة كانت تقود الجهود لإعادة تجديد الناتو وإعادة بنائه، وعلاقته بالاتحاد الأوربى، جنبا إلى جنب مع مؤسسات الحرب الباردة المهجورة العتيقة بما فيها الأمم المتحدة، افترض أنه بدلا من القول: إن "الحرية ذاتها قد هاجمها جبان عديم الكرامة"، أو "أنهم يكرهون قيمنا وحرياتنا"، كنا قلنا شيئا ما مثل: "لقد هاجَمَنا متدينون متعصبون يسيئون فهم قيمنا وسياساتنا"، وهم قد سطوا على الإسلام، تماما مثلما سطا الصليبيون على المسيحية، فى محاولة لجعل الأخطاء المتصورة صحيحة، وهى ذات علاقة كبيرة بالصعوبات التى تواجهها مجتمعاتهم فى عملية التحديث، صعوبات نحن ملتزمون بمساعدتهم للتغلب عليها"، افترض أنه بدلا من تسمية أريل شارون "رجل سلام" - وهو شىء لم يسمه به أحد من إسرائيل، دع جانبا الأمم العربية - كنا ألزمنا أنفسنا بالعمل حول خطة سلام عبد الله(*)، افترض أنه بدلا من قول "أنت معنا أم ضدنا"، فى أعقاب ١١ سبتمبر، كان الرئيس انتهز تلك الثورة

(*) الملك عبد الله بن سعود (المترجم).

الهائلة من التعاطف مع أمريكا، وطار إلى باريس وبرلين، وموسكو، وبكين، والقاهرة، وطهران، وسيول، وطوكيو، وإسلام آباد وقال "شكرا".

افترض أنه استدعى قادة العالم معا فى مؤتمر خاص للبحث عن التزود بالمعلومات اللازمة والنصيحة فى كيفية التعامل مع الإرهابيين ومصادر الإرهاب، افترض أن الولايات المتحدة لم تعلن عن استراتيجية للحرب الاستباقية بهدف منع صعود أى متحد لسيطرة الهيمنة الأمريكية.

افترض، فى هذا السياق، أن الولايات المتحدة جاءت بالشأن العراقى إلى مجلس الأمن من أجل نقاش حقيقى بدلا من تحدى المجلس؛ لتجعل نفسها وثيقة الصلة بالموضوع، هل كان على المجتمع العالمى أن يستجيب بطريقة مختلفة؟ وحتى لو ظلت هنالك معارضة قوية، هل كان من الممكن وجود دعم حقيقى أكثر، لوضع الولايات المتحدة؟ وفى النهاية، وقد جرى العمل منفردا، هل كان من الممكن وجود مخاطرة أقل بالعمل هكذا؛ لأن الأمر اعتبر فعلا استثنائيا للأحادية، أكثر من كونه فعلا أخيرا فى سلسلة مثل تلك الأفعال؟ إننى أومن أن اختياراتنا الآن سوف تكون أفضل، إن كان قد نُظر إلينا باعتبارنا مواطنين عالميين جيدين، أكثر من مرشحين لقائمة الأمة المارقة.

ماذا عن الوضع فى كوريا؟ افترض أننا بدلا من رفض الرئيس الكورى الجنوبى كيم - داى - جونج بازدراء، كنا دعوناه إلى واشنطن، وسألناه النصح فى كيفية التعامل مع الشمال، افترض أننا بدلا من تسمية كوريا الشمالية جزءا من "محور الشر"، كان الرئيس اتصل برئيس كوريا الشمالية كيم جونج إيل، وأكد له تسليم المعدات المولدة للكهرباء، التى وعدناه بها، والتى هو فى حاجة شديدة إليها، افترض أننا عرضنا التفاوض حول معاهدة سلام لإنهاء الحرب الكورية، وعرضنا الاعتراف الدبلوماسى بكوريا الشمالية، كما وعدناها، ولم نكن قد عقدنا مثل تلك الصفقة الكبيرة الخاصة بنشر الدفاع الصاروخى الوطنى ضد "الأمم المارقة مثل كوريا الشمالية"، هل كان يمكن أن تكون أزمة كوريا تحت أيدينا؟ هل ستكون الإدارة فى وضع مضحك

وهى تحاول أن تشرح، لماذا شمال كوريا، وهى التى لديها أسلحة نووية وصواريخ طويلة المدى، وتعد لإنتاج المزيد منها، أقل تهديدا من صدام، ومرة أخرى: هل سيكون الشمال واضح الخوف منا، إلى حد كبير، إن لم نكن قد أعلنا غن استراتيجية حربنا الوقائية؟ اعتقد أن الإجابة، لا. لقد ساهمنا كثيرا فى تنمية الاختيارات الرديئة التى تواجهنا الآن.

* * *

إن نقطة النقاش، فيما بعد الأزمة الحالية، هى ذلك السؤال الكبير للغاية، عما يجب أن تكون عليه استراتيجيتنا الوطنية، ويكمن وراء ذلك السؤال، الذى قد يكون الأكبر، نوع الشعوب والأمم التى نريد حقا أن نكونها، دعونا نبدأ بالاستراتيجية، لقد اتبعت الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وحتى نهاية الحرب الباردة، استراتيجيتين متشابكتين - منع الانتشار والعولمة الاقتصادية، إن الصفقة التى عقدتها أمريكا مع حلفائها، هى أنه يمكنهم الحصول على مدخل إلى السوق الأمريكى الهائل، والتكنولوجيا الأمريكية المتقدمة، وبالمثل استثمار أمريكى، فى مقابل نظام شراكة جيوبوليتيكية تكون الولايات المتحدة فيها هى الأعلى مقاما، لكنها ليست دائما الشريك المسيطر - وكما شرح جون إيكنبرى: "إن قوة الولايات المتحدة لم تُفقد النظام العالمى استقراره؛ لأن الولايات المتحدة ألزمت نفسها بنظام من القواعد العامة مفهوم ومقبول"[1]، وفى كلمات أخرى، حددت البلدان الأخرى مصالحها مع مصالح الولايات المتحدة؛ لأن الولايات المتحدة "جعلت قوتها آمنة"، وقد كتب بنيامين شوارتز وكريستوفر لاين فى الـ "أتلانتيك" فى أكتوبر عام ٢٠٠٢ داعين هذا بـ"استراتيجية إعادة التأكيد"[2]، إن ما أدى إلى الإحساس الغريب بالعزلة والخوف والخيانة الموصوفة فى تلك الصفحات هو أولا: النمو النسبى الدرامى فى قوة الولايات المتحدة، وقد قالها البروفيسور تيمونى جارتون آش، من أكسفورد بطريقة لطيفة عندما كتب فى نيويورك تايمز: "إننى أحب هذا البلد (الولايات المتحدة) .. على عكس ما يعتقده الكثيرون من

الأوربيين، إن المشكلة مع القوة الأمريكية ليست فى أنها أمريكية، المشكلة ببساطة هى القوة، سوف يكون خطرا على ملاك من ملائكة الطبقة العليا، أن يستخدم قوة بهذا القدر الكبير ... حتى الديمقراطية تجيء بإغراءاتها هى عندما تكون قوة مفرطة"(٣)، قد يكون جارتون آش على حق، رغم أن الفجوة بين الولايات المتحدة والباقين لم تُظهر تعليقه للعيان، فيما مضى، إن الأمر لا أهمية له الآن، كما أعتقد، أساسا لمصاحبته بتحول أساسى فى عقيدة الولايات المتحدة التى جعلت القوة الأمريكية "غير آمنة" فى عيون العالم بصورة متزايدة.

بدأ التحول فى نهاية إدارة بوش الأولى، عندما أعدت فى البداية مجموعة الدراسة تحت مسئولية شينى أو برئاسة وولفوويتز مسودة ورقة (سرعان ما تم تسريبها إلى النيويورك تايمز) طالبت باستراتيجية مانعة لصعود أية قوى متحدية(٤)، وقد تم إنكارها فى حينها باعتبارها تأملات غير رسمية لعدد قليل من المفكرين الضئيلى القيمة، وقد أصبحت هذه الوثيقة منذ حينئذ الاستراتيجية الرسمية للولايات المتحدة، كما أعلنت فى خطبة الرئيس فى ويست بوينت، وفى وثيقة "استراتيجية الأمن القومي" (إن إس إس) فى سبتمبر عام ٢٠٠٢، إن الولايات المتحدة لم تعد تؤمن بنجاح وقف الانتشار، إن العقلية الانتحارية للخصم، مرتبطة بالسهولة المتزايدة لإتاحة أسلحة الدمار الشامل ونقلها، تجعل استراتيجية لا - ضربة - أولى استراتيجية يتعذر الدفاع عنها، ومن ثم، فإن العقيدة الجديدة تقول: "إننا ننتظر بينما تتجمع الأخطار"، أو حتى تتصاعد "سحابة عش الغراب"، إننا بدلا من ذلك نضرب استباقيا ووقائيا أينما ووقتما نحس، بأن هنالك أخطارا غير متوقعة تتجمع، إن هذه العقيدة تُقدم الكيفية التى يتم التعامل بها مع التقلبات وعدم الاستقرار الذى يسببه فشل الدول و"الأمم المارقة"، وتتحدث ورقة استراتيجية الأمن القومى عن التعاون بين القوى الكبرى حتى يمكن تهدئة مخاوفها؛ حيث إنها قد تكون موجهة إليها أيضا(٥).

لكن الجزء الثانى من العقيدة ينسف هذه النغمة المطمئنة بالإصرار على أن الولايات المتحدة سوف تحافظ على فجوة القوة تلك، بينها وبين الباقين كى لا يفكر بلد

حتى فى رفع أى تحد، هذه هى عقيدة الأمن المطلق عبر التفوق العسكرى الساحق، إنها من أوجه عدة عقيدة مناسبة لأمريكا، فأمريكا وحدها هى التى لديها الموارد البشرية، والمؤسسية، والطبيعية والتكنولوجية التى تمكنها من الإنجاز بنجاح، إنها رغم المصاعب، تتلاعب بالإحساس الذى نما منذ زمن طويل للحصانة الأمريكية باعتبارها حقا بكورية، وللثقة الأمريكية المألوفة فى الأسلحة المتفوقة، إنها تعكس أيضا الإحساس الذى لدى الأمريكيين بأنهم استثناء ومعزلون، شعب غير عادى، مختار، يمكنه تحقيق الحصانة؛ لأنه يستحق الحصانة، وليس لباقى العالم أن يخاف منه؛ لأن الأمريكيين قد منحوا "الحقيقة". وأن الحقيقة، قد جعلتهم أحرارا صالحين، ومن ثم فإن الأنانية المانوية(*) صريحة للغاية فى بيان الرئيس عن "انتصار الحرية على كل أعدائها الذين شاخوا"(٦).

لا ينتابك الشك فى أن هذه العقيدة الجديدة عقيدة إمبراطورية، أعلنتها مجموعة عصرية لـ"روديارد كيبلينجز"، أفرختها وول ستريت جورنال، ومطبوعات أخرى للجناح اليمينى والذين صنفوا أنفسهم، بصورة غير دقيقة "كمحافظين"، ودعوا "أمريكا" إلى أن "تتبنى عبء الرجل الأبيض"، ويجادل ماكس بوت، وهو محرر سابق فى وول ستريت جورنال، فى "قضية الإمبراطورية الأمريكية"- بأن هجمات ١١ سبتمبر كانت "نتيجة التأثير والطموح الأمريكى غير الكافيين، والحل أن نكون أكثر توسعا فى أهدافنا وأكثر تأكيدا فى تنفيذنا"(٧)، يقول بوت: "إن أفغانستان، وأراضى أخرى مضطربة تصرخ اليوم طلبا لنوع من إدارة أجنبية مستنيرة، قدمها ذات مرة الرجال البريطانيون الواثقون فى ذواتهم، المرتدين سراويل ركوب الخيل والخوذات ذات الشأن"(٨)، ويكرر سيباستيان مالابى، كاتب العمود، بالواشنجطون بوست، تناول هذا الموضوع قائلا: إن "منطق النيو إمبريالى قاهر إلى حد... .. لا يقاوم"، ويجادل بأن المجتمعات المنظمة التى تقودها الولايات المتحدة "تفرض مؤسساتها على المؤسسات

(*) عقيدة فارسية قوامها الصراع بين الخير والشر (المترجم).

غير المنظمة"[٩]، ويدعو روبرت كابلان مراسل الـ " أتلانتيك مونتلى" إلى حمل "الرفاهية إلى الأجزاء النائية من العالم تحت النفوذ الإمبراطورى الأمريكى الناعم"[١٠]، إنه يدعو إلى ذلك حتى لا يسبقه أحد.

إن المناقشة مغرية لاعتبارين: الاعتبار الأول هو حقيقة وجود تهديدات جديدة غير متماثلة، يمكن أن تكون الروادع القديمة غير ملائمة للوقوف ضدها، والاعتبار الثانى هو أنه من الواضح بالنسبة لأى امرئ يعيش فى روح نظام غربى حديث، علمانى، مادى، إن النظام الأمريكى القائم على الإدارة والقيمة الاقتصادية هو أفضل من التشوش وعدم النظام، ورغم أن أنصار هذه الرؤية من المتعلمين يمكن أن ينكروا ذلك، فإن هذا هو نفس التفكير الذى توسل به مك كينلى، عندما تقرر ضم الفلبيين إلى الإمبراطورية الأمريكية؛ إذ قال بأن هناك حاجة إلى "النهوض بهم وتنصيرهم"، إن غالبية النيوإمبرياليين سوف يجفلون من أى ترابط مع "التنصير"، وسوف يستبدلونه بـ "الأمركة"، ولا يوجد فرق كبير.

إن منطق العقيدة الجديدة هو منطق توسع لا محدود، إن عدد التهديدات المحتملة، فى حقبة العولمة - كبير للغاية، ومحاولة التحكم فى واحد مثل العراق، يمكن فقط أن يعرضنا لأخطار جديدة، إننا نرى هذا بالفعل فى أفغانستان، ولمواجهة التهديد الجديد، ربما يكون من الضرورى كسب سيطرة على أراض جديدة أو كيانات جديدة، وفى النهاية، فإن الأمان الوحيد هو فى جعل كل مكان امتدادا لك أنت.

إن هذا سوف يبدو مهمة مروعة، إن النظرية التقليدية للعلاقات الدولية تقول: إن صعود أية قوة إمبراطورية سوف يُنتج بطريقة أوتوماتيكية تحالفات مضادة وتعاونا بين القوى الأخرى لتوازن القوى المهيمنة، ونتيجة ذلك، تضاعف القوى المهيمنة جهودها فى تضاد مع التحالف الجديد، حتى يصبح فى النهاية امتداد الإمبراطورية مفرطا وتنهار، غير أن الإمبرياليين الجدد يؤمنون - مرة أخرى - أن أمريكا استثناء - لأنها ديمقراطية، وليس لديها أى شبق لكسب الأرض، وسلطتها الإمبراطورية جذابة، ولها حق الصداقة المكتسب، إنها قوة ناعمة، بل وحتى مغرية، ليس هنالك من نشاط يوازن

القوة الأخرى المقابلة؛ لأن الكل سوف يرحب بالطريق الأمريكى، من الذى لا يود أن يكون أمريكيا، إذا كان ذلك فى وسعه؟ ومن ثم، فإن الرجال والنساء الأمريكيين سوف يرسلون إلى أركان الأرض البعيدة فى حملة صليبية لنشر العقيدة الأمريكية فى عالم جائع وظمآن لها.

إن ذلك لن ينجح، دعنى أعدد الأسباب:

السبب الأول أنه ليس هنالك من أشياء كثيرة مثل الأمن العسكرى المطلق، هل قامت قنابلنا الموجهة بالليزر وصواريخنا النووية، وصور الأقمار الصناعية بحمايتنا من حاملى الأسلحة البيضاء والتعصب الانتحارى والمختطفين الذين قاموا بهجمات ١١ سبتمبر؟ هل روعت قدراتنا العسكرية المتطورة الكوريين الشماليين فأذعنوا؟ هل قلل نشر قواعدنا عبر البحار مما نواجهه من مخاطر؟ الجواب: لا، فى كل حالة، بل ربما يكون نشر القواعد مما يزيد المخاطر التى نواجهها.

السبب الثانى أنه حتى لو كنا ظرفاء، كما هو نحن الأمريكيين، فإن باقى العالم لا يرانا بالضرورة كما نرى أنفسنا، وهم ليسوا بالضرورة راغبين أن يكونوا مثلنا، حتى إن أحبونا، وهم بالفعل يتحركون لتوازن مقابل لقوتنا، إن هذه الحركة يمكن رؤيتها بأكثر وضوح فى عملية المناورة داخل مجلس أمن الأمم المتحدة "حول العراق"، كما أنها واضحة أيضا فيما قام به الاتحاد الأوربى من دفع لتحقيق وضع أكثر مساواة بالولايات المتحدة، وفى الروابط التى أُعيد تجديدها بين روسيا والصين، وفى الجهود النشطة للعديد من البلدان والخاصة بتشجيع "لينوكس" على "ميكروسوفت ويندوز" باعتباره نظام الكومبيوتر الأساسى العامل، يوجد هنا عامل بشرى أساسى فى العمل هو أن الأمريكيين يجدون صعوبة كى يفهموا، ولكن علينا إن وضعنا فى اعتبارنا تاريخنا أن نكون أول من يفهم، الأمم تشبه الأفراد بصورة كبيرة للغاية، إنها مدفوعة بالحاجة إلى الكرامة والاحترام، بالحاجة إلى أن تُعرف باعتبارها فعالة، ذات قيمة مثل أى شخص أو بلد آخر، أكثر من الرغبة فى كسب مادى أو خوف أو حب، عندما سُئل أورهام باموك، الروائى التركى، ما الذى يقود رجلاً عجوزًا فى إسطنبول

إلى التغاضى عن الهجمات على "برجي التجارة العالمية"، أو شاب باكستانى إلى الإعجاب بطالبان، أجاب: "إنه الشعور بالعجز الناشئ عن الإهانة، عن الفشل فى أن تكون مفهوما، وعدم قدرة مثل هؤلاء الناس على جعل أصواتهم مسموعة"(١١). إنهم بقدر ما يحبون ويعجبون كثيرا بالأمريكيين (وكما قلت إنهم يفعلون ذلك)، فإن لباقى العالم تقاليده وطرائقه وقيمه الخاصة، التى يحبون لها أن تحترم.

إن العولمة لم تغير هذه الحقيقة، إن الرجل الفرنسى لم يتوقف عن كونه فرنسيا، أو أدار ظهره لـ "ديسكارتس" بأكلِه همبورجر "مك دونالد"، وامرأة شابة أندونيسية تركت قرية تقليدية لتعمل فى مصنع أحذية "نايكي"، وتعيش فى عنبر نوم - قد تتمسك، بصورة أكثر عنادا، أو تعود إلى غطاء الرأس الإسلامى باعتباره وسيلة للالتزام بقيمها فى عالم غريب، إننا لا نستطيع إنهاء ذلك، وعلينا ألا نحاول.

السبب الثالث أن حربا صليبية أمريكية لن تنجح؛ لأنها سوف تورطنا بصورة متزايدة فى أنواع من تحالفات تقوم على الملاءمة، وأعمال لا رحمة فيها ولا شفقة، أعمال لن تؤدى إلى شىء غير تعقيد حياتنا فقط، حتى فى المدى الطويل؛ حيث إنها ستفسد شخصيتنا ومؤسساتنا.

السبب الرابع أن العولمة الاقتصادية والتبذير الأمريكى قد نسفا بالفعل سيادتنا الاقتصادية، وجعلانا أكثر اعتمادا، أكثر مما نعرف، على هؤلاء الذين نهيمن عليهم، إن تهمة الرغبة فى غزو العراق للتحكم فى نفطه، والتى تبدو مضللة لآذان الكثيرين من الأمريكيين كان لها الكثير من المصداقية فى الخارج، تحديدا لأن الكثيرين فى العالم يعرفون أن الاقتصاد الأمريكى غير حصين وسريع التأثر، ويرون فى التهديدات العسكرية الأمريكية عملا متعمدا للإبقاء على تدفق رأس المال إلى المأوى الأمريكى الآمن، وللتحكم فى أسعار المواد الحيوية، من أجل الإبقاء على أسلوب "بوبا" فى الحياة، إن الاقتصاد الأمريكى الآن يسير على مسار غير ثابت، إن نموه يدفع بصورة شاملة بالاستهلاك القائم على الاقتراض الدائم الصعود، إننا كأمة نستهلك بصورة متزايدة أكثر مما ننتج، ونحن قادرون على فعل ذلك فقط بالاقتراض من

الخارج، إننا باعتبارنا من يوفر أمن العالم، ولدينا أكبر احتياطي لعملته؛ لذا فإن دورنا قوى؛ مما يمكننا من الاستمتاع بمستوى من الحياة يفوق ما نكسبه بالفعل، غير أن اليورو بدأ توفير احتياطي عملة بديلة، وحاجاتنا للافتراض العالمي تتصاعد إلى مستويات تجعل المقرضين في حالة عصبية، كيف يمكن أن نصبح "قيصر" العالم بينما نهز كوبًا من صفيح، ما لم نأخذ فقط ما نحتاج إليه؟ ولكن هذا هو السبب النهائي في عدم نجاح الحرب الصليبية الأمريكية - إن الأمريكيين ليسوا الرومان، ولا حتى البريطانيين، قد تفعل أمريكا أشياء غبية وسيئة من وقت لآخر، غير أن الشعب الأمريكي لا ينظر إلى أكياس الموتى باعتبارها رموزا لشجاعته المتألقة، ولا هو أيضا تواق لإرسال ثاني أبنائه أو بناته إلى الخدمة الكولونيالية، لقد بدأنا حياتنا في ثورة ضد الإمبراطورية، ولن نصبح حقا مرتاحين البتة، بعادات الإمبراطورية، فنحن في بساطة لسنا إمبرياليين جيدين، لسبب واحد هو أننا نتلهف كثيرا على حب الناس لنا.

ما الذى يجب عمله إذن؟ إنه فى الحقيقة أمر بسيط، إنه شيء يجب على جورج دبليو بوش أن يعتنقة فى نبضة قلبه، حقا، لقد كان بوش على حق فى المرة الأولى، عندما قال خلال الحملة: "نحن إن كنا أمة متواضعة، فإنهم سوف يرون ذلك ويحترمونه"[١٢]، إن ما نحتاج إليه هو العودة إلى مبادئ المحافظين الحقيقية، إن المشروع الإمبراطورى لما يسمونه بالمحافظين الجدد ليس هو محافظا البتة، لكنه الراديكالية والغرور والمغامرة، مترابطة فى بلاغة مثيرة للوطنية التقليدية، إن المحافظين الحقيقيين لم يكونوا البتة مسيحيين أو نظريين غير علميين، إن الجوهر الحقيقى للمبادئ المحافظة، الذى يبشر به بصورة ثابتة المحافظون الجدد، هو الحكومة المحدودة، ومع ذلك فإن المشروع الإمبراطورى الذى يقترحونه سوف يزيد إلى حد كبير دور الحكومة فى كل من الوطن والخارج، لقد رفعنا بالفعل الإنفاق الفيدرالى، بطريقة درامية، بينما زدنا بالفعل قوة آلتنا العسكرية الساحقة، وجعلنا من إدارة "أمن الوطن" أكبر بيروقراطية محلية حصلنا عليها فى أى وقت مضى، ليست هذه بمبادئ

المحافظين، إنها "الحكومة الكبيرة"، لقد كان المحافظون التقليديون حريصين دوما على موازنة الميزانية، ويصرون على مسئولية كل مواطن فى القيام بواجبات مدنية. غير أن الإمبرياليين الجدد يطالبون بتخفيض الضرائب، حتى وهم يرفعون الإنفاق، ليس هنالك من رسوم أو تضحيات، والإيماءة الوحيدة للرئيس بالواجب المدنى جاءت عندما استحثت كل فرد فى أن يذهب للتسوق لمساعدة الاقتصاد.

ليس هذا بالمحافظة أو الليبرالية، لكنه ببساطة عدم مسئولية، إننى أستدعى كلمات الفيلسوف المحافظ الكبير أدموند بروك، الذى قال عن قوة بريطانيا، فى حقبة مبكرة: "إننى فزع من كوننا فزعين للغاية"، القوة تجذب التهديدات، ويمكن لرد الفعل عليها أن يستحث مشروعات راديكالية، لقد رأى الحاكم وينثروب، "مدينة فوق التل"، باعتبارها جذابة بفضل فضيلتها، وليس قوتها، وقد أمرنا جون كوينسى أدمز، "بألا نذهب إلى الخارج بحثا عن وحوش نذبحها"، إن كل هؤلاء مرشدون محافظون جيدون لاستشارتهم حول استراتيجية مستقبل أمريكا.

غالبا ما يقول الناس : إن نقد الولايات المتحدة يجب ألا يؤخذ مأخذ الجد كثيرا؛ لأنه من الطبيعى لمن هو رقم واحد – أن يكون هدفا للحسد والشكوى، كما كانت "روما وبريطانيا" فى زمانهما – غير أن هذه النصيحة اللامبالية تثير سؤالا جادا، هل نود نحن أن نكون بالفعل "روما" أو "بريطانيا"، إننا كثيرا ما نقول: إنه يجب على أمريكا أن تكون القائدة وأن أمريكا هى "الأمة التى لا غنى عنها"، غير أن صديقا مكسيكيا يسأل: "لماذا؟ لماذا تكون أمريكا مسئولة عن كل شىء ؟ من الذى عينكم لفعل ذلك؟" بالطبع، هنالك تاريخ طويل وراء هذا، غير أن تعليقه يذكرنا بأن هنالك استراتيجية بديلة لن تطالب أمريكا بالتخلى عن التزاماتها ومسئولياتها، إن الولايات المتحدة لا تستطيع الانسحاب من الارتباط العميق بالشئون الكونية، ويجب عليها ألا تحاول ذلك، دعونا نتذكر أنه رغم كل أخطائها، فإن الولايات المتحدة، طبقا لبيانات استفتاء "بيو"، ما تزال تعتبر مهيمنا آمنا نسبيا، غير أنه من المرغوب فيه من جميع وجهات النظر أن

تكون الولايات المتحدة هى نداء الملاذ الأخير، بدلا من أن تكون ملاذ النداء الأول، وفيما يلى بعض الأفكار عما يمكن أن تشتمل عليه مثل تلك الاستراتيجية.

عند هذه النقطة يصبح الاختيار محدوداً، لكن الأمر بالنسبة للولايات المتحدة، وأيا كان الشركاء الذين كان فى وسعها حشدهم للإطاحة بصدام واحتلال العراق، كان هو أن عدم القيام بذلك الآن سيكون أكثر تكلفة، لكن علينا أن نفعل كل ما فى قوتنا لتجنب احتلال أمريكى طويل، كان فى وسعنا تجنب أن نصبح المحتل، وأن نعاون فى لأم الجراح الحديثة بإعادة تقييم الأمم المتحدة، وأن نطلب منها تشكيل اتحاد من بلدان مثل ماليزيا، والأردن، وسويسرا، وكندا، وبلدان أخرى لتشرف على خلق عراق جديد، إن الولايات المتحدة سوف تكون مشاركا أكبر، وسوف تدفع جزءا أكبر من الفاتورة، غير أنها لن تكون بمفردها أو هى المسئولة.

كذلك يجب مناقشة مستقبل الأمم المتحدة نفسها، إنها موجودة، رغم معاناتها التصدع، وكما قال وينستون تشرشل عن الديمقراطية: "إنها أسوأ نظام، باستثناء كونها لكل الباقين"، يجب علينا بدلا من نبذها، أن نعيد إحياءها، ونعيد تصميمها. يجب ضم الهند والبرازيل، وربما اليابان والعربية السعودية، كأعضاء دائمين فى مجلس الأمن، كما يجب فى ذات الوقت أن يحل محل بريطانيا وفرنسا ممثل واحد عن الاتحاد الأوربى، كذلك يجب فى وقت ما وضع شروط لاختيار أعضاء متعاقبين فى مجلس الأمن، وإعادة النظر فى مدى قوة الفيتو، قد يبدو الأمر الآن طوبائيا، لكن وجود أمم متحدة قابلة للحياة سوف تصنع - على المدى الطويل - أمريكا أكثر قوة، لا أقل قوة.

إن أى عمل فى العراق، يجب أن يقترن بجهد متجدد لحل المأزق الإسرائيلى - الفلسطينى، يجب أن يشتمل ذلك على تقديم معونة لإسرائيل، مشروطة بالانسحاب من "الضفة الغربية" و"غزة"، وتجميد كل أعمال الاستيطان، وغلق كل المستوطنات باستثناء تلك التى تم الاتفاق عليها بشكل غير نهائى فى كامب دافيد وطابا، إن الخطوط العريضة للاتفاق الذى لم يتم فى طابا يمكن فرضه مع نشر قوات من الناتو

على الضفة الغربية وغزة لحراستها، هنالك ضرورة عند قيام أى اتفاق على وجود شرط بوضع نهاية لكل أعمال العنف، وهو شرط سوف يعطى ببساطة قوة الفيتو للمتطرفين على الجانبين.

يجب علينا - فيما يتعلق بكوريا الشمالية - أن نجرى تفاوضا حول اتفاق جديد يُضمن فيه أمن البلد من الهجوم الخارجي، وكفالة ما يكفيها من الكهرباء والطعام، وتوقيع معاهدة لإنهاء الحرب الكورية، ومنح الشمال اعترافا دبلوماسيا رسميا، ودعم جهود كوريا الجنوبية لتنمية التجارة والاستثمار مع "الشمال"، وفى التنمية الاقتصادية، إن التنمية الاقتصادية الداخلية تحتمل إلى حد بعيد تغيير نظام كيم أكثر من التهديدات الخارجية، وبالطبع، يجب على كوريا الشمالية فى مقابل هذا أن توقف مشروعاتها الخاصة بالأسلحة النووية، وأن تجعلها عرضة لتفتيش الأمم المتحدة الراهن ومراجعتها.

إن تعبير "الإشراف الراشد" قد استخدم لوصف علاقة أمريكا بأوربا واليابان، ويقول مراقبون آخرون مثل كاجان: إن تلك البلدان تعيش فى جنة زائفة تمكنهم من الانغماس فى وضع فارغ، وتدلل أنانى؛ لأنهم تركوا لأمريكا أعباء التعامل مع العالم الحقيقى، هنالك حقيقة فى هذا، كما تُستخدم المناقشة لتشويه سمعة الأوربيين واليابانيين باعتبارهم جاحدين وكارهين لفعل الأشياء الضرورية للعناية بأنفسهم، إن ما يجرى دون أن يذكره أحد، وكما اقترحت، هو أن الولايات المتحدة تفضل الإبقاء عليهم فى حالة من المراهقة الممتدة كشرط لهيمنتها هى وللأسف، فإننا نشترى هذه الهيمنة بتكلفة متزايدة، إن البلاد المتطورة الأخرى، مثلها مثل المراهقين، تمتعض من إشرافنا، وتغدو متمردة أكثر فأكثر، وفى نفس الوقت، فإن ما نتكلفه نحن حماية لمضايق نفطهم وجيرانهم عالية ومتنامية.

لذا، لماذا لا ندعهم ينمون ليصبحوا راشدين حقيقيين، أو كما يقول أوزاوا: "بلدانا عادية"؟ لماذا لا نرحب بتلك البلدان، ونرعى تنميتها، بدلا من أن تكون هدفا لقوة دفاع أوربية تابعة؟ يجب أن نخفف من القيود على تدفقات التكنولوجيا العسكرية من وإلى

أوربا، ونفتح مشتريات البنتاجون لمشاركين حقيقيين أوربيين ويابانيين، ونشجع الصناعات الدفاعية عبر القوميات، كان على الاتحاد الأوربى بالطبع أن يوافق على تحمل مسئولية كاملة فى حراسة جيرانه، فى حالات مستقبلية، مثل كوسوفو أو البوسنة، وعلينا فى نفس الوقت أن نضع فى الحسبان تجديد الناتو لمعالجة قضايا كونية أكثر، لماذا لا ندع الناتو يحرس طرق النفط والخليج؟ سوف نكون جزءا من العملية، لكننا لن نكون الجزء الوحيد، يمكننا حتى أن نؤجر للأوربيين قوات ناقلة للمهام، وفوق ذلك، يمكننا أن نرعى سياسة خارجية ودفاعية مشتركة، حقا، للاتحاد الأوربى، بأن نعلن أننا سوف نتعامل فقط مع سلطات الاتحاد الأوربى فى الموضوعات الدفاعية والسياسية الأوربية، إن هذا سوف ينهى طموحات فرنسا وحنينها إلى الماضى، إلى وضع القوة العظمى، ومن المحتمل أن تكون سلطة واحدة للاتحاد الأوربى أكثر ملاءمة لحماية مصالح الولايات المتحدة، ويكون على الاتحاد الأوربى، فى نفس الوقت، الاضطلاع بالمسئوليات، وكذا امتيازات القوة الحقيقية الراغبة بشدة فى أن تتحقق.

يتوجب على الولايات المتحدة، فى الشرق الأقصى، عندما يصبح الوضع فى كوريا الشمالية تحت السيطرة - تخفيض انتشار قواتها إلى قوة رمزية، إن كان الكوريون يريدونهم، أو استبعادها تماما، إن لم يكونوا يريدون ذلك. يجب أن يوضع الجيش الكورى الجنوبى تحت قيادة كورية فى كل الأوقات، ويجرى تغيير اتفاقيات وضع القوات (السوفا) لتأكيد أن النظام الشرعى محترم تمام الاحترام، ونفس الأمر صحيح فى اليابان، أما بالنسبة للدفاع الصاروخى الوطنى، فقد اتضح بالفعل أنه لن يمنع دولا مارقة مثل كوريا الشمالية من إثارة المتاعب، كما أنه يحرض الصين فى نفس الوقت على زيادة قدرتها العسكرية، وهو شىء ليس فى صالحنا على الإطلاق؛ لذا يجب علينا فقط، وقف النشر وتوفير قدر كبير من المال لنا، وكما حدث مع أوربا فإنه يجب على الولايات المتحدة أن تصر على أن اليابان قد نضجت وأصبحت بلدا طبيعيا

راشدا، إن هذا يعنى فى المقام الأول إنهاء الحرب الباردة، بمراجعة معاهدة الأمن الأمريكى - اليابانى بحيث تنهى بيئة أرض الأحلام التى خلقتها ضمانات الولايات المتحدة أحادية الجانب للأمن اليابانى، إن تسوية جديدة يجب أن تكون تبادلية فى حدود كل من المسئوليات وسلطة صناعة القرار، يجب تشجيع اليابان على إنهاء "الحرب العالمية الثانية"، وذلك بتشكيل لجنة رسمية تصدر بيانا نهائيا عن وجهة نظر اليابان فى أسباب ومسئوليات ونتائج الحرب، إن هذا البيان يمكن أن يكون الأساس لكل الكتب المرجعية والشارحة المفسرة، ويمكن أن يحل أيضا الخلافات حول زيارات مقام "ياسكونى"، يضاف إلى ذلك ضرورة تشجيع اليابان على أن تفعل بالمثل، وأن تعتذر اعتذارا كليا حيث تتوجب الاعتذارات، ودفع تعويضات سخية حيث تتوجب التعويضات، مثال ذلك "نساء السلوى" (النساء الكوريات وغيرهن ممن أجبروا على العمل كمومسات للقوات اليابانية أثناء الحرب) واللواتى ما يزلن أحياء.

لقد كتب الأمريكيون الدستور اليابانى، وهذا أمر غير طبيعى يقود إلى تشوهات خادعة للحياة السياسية اليابانية داخليا وعالميا، إن على الولايات المتحدة تشجيع اليابان على إعادة التفكير فيه، ويجب، كما حدث فى كوريا، تخفيض مستويات قوات الولايات المتحدة بطريقة جادة، يجب أن نعيد حقا أوكيناوا إلى اليابان، أما فيما يختص بدوريات الباسفيكى الغربى، فإنه فى وسع الولايات المتحدة اقتراح قوة عسكرية إقليمية توجد بها عناصر من البلدان الكبرى فى المنطقة، بما فيهم الصين.

يجب على الولايات المتحدة توضيح معارضتها لأى إعلان استقلال تصدره تايوان، ويجب ألا ندافع عن تايوان إن حدث مثل هذا الإعلان.كما يجب عليها أن توضح أيضا للأرضى الأساسية، للصين أنها سوف تتدخل فى حالة الهجوم على تايوان فجأة بعد إعلان التايوانيين الاستقلال، ولكن على الولايات المتحدة فى ذات الوقت الإحجام عن بيع المزيد من الأسلحة لتايوان، والنشاط العسكرى المشترك، يجب

علينا أن نشجع المزيد من مناقشات تايوان - بكين، بهدف تحقيق طريقة للعيش الداخلى، يجب علينا فى تعاملات أخرى مع الصين أن ننتهز كل فرصة لنمنح الصين التقدير والاحترام الذى تتوق إليه، مثلا انضمت روسيا إلى ما كان السبعة الكبار (G-7)، والذين غدوا الآن الثمانية الكبار (G-8)، مجموعة من القوى الاقتصادية القائدة عالميا، التى يعقد قادتها اجتماعات قمم دورية لوضع استراتيجيات اقتصادية كونية، إن اقتصاد الصين أكبر بكثير من الاقتصاد الروسى، واحتياطيات عُملتها العالمية تُقزم الاحتياطيات الروسية، لماذا لا تُضم الصين؟ حقا، لماذا لا تضم الصين والهند، ونجعلها مجموعة العشرة الكبار (G-10) ؟

يجب على الولايات المتحدة أن تصدق فورا على معاهدة كيوتو، ومعاهدة الألغام الأرضية، والمحكمة الجنائية الدولية، كما يجب أن تراجع بعناية وضعها فى الاتفاقيات الأخرى، التى نوقشت آنفا، وأن تبذل جهدا جادا للتوقيع ما دام ذلك ممكنا، يجب أن ندفع ما علينا من مستحقات لكل الهيئات الدولية التى نحن أعضاء بها مثل الأمم المتحدة، ويجب أن يصاحب ذلك مجهود جاد لتخفيض انبعاثات غاز الصوبات، وتخفيض استخدام الطاقة، ليس هنالك من سبب لماذا لا تستطيع أمريكا تبنى العديد من الإجراءات الناجحة فعلا فى بلدان صناعية أخرى، لقد اقترحت إدارة بوش زيادة أكثر من مليار دولار فى تمويل الأبحاث الخاصة بطاقة الهيدروجين، وهى خطوة على الطريق الصحيح، ولكن إن كان فى مقدورنا تقديم ٣٠ مليار دولار حقوق قاعدة فى تركيا، فإنه يبدو منطقيا أن نفكر فى حدود مقادير مماثلة لضمان أنه ليس علينا الاعتماد على من يمدوننا بالطاقة، والذين يجعلون تلك الحروب ضرورية، إن مشروع مانهاتن لطاقة بديلة تأخر عن موعده طويلا.

إننا - حقيقة - ننفق بالفعل على الدفاع أكثر من الخمسة عشر بلدا المتحدين؛ لذا فإنه يحتمل أن وجود هذا التركيز للقوة ذاته يصبح إضافة إلى الضغوط على الآخرين ليزيدوا من إنفاقهم العسكرى، إننا إذ نقوم بنقل الأعباء تدريجيا إلى آخرين، يتوجب علينا إذن وضع خطة للتخفيض التدريجى فى الإنفاق الدفاعى، إن اليابان تحاول منذ

سنوات رفع إنفاقها بناء على توصيتنا إلى هدف هو ١٪ من إجمالى الناتج المحلى، وربما نستطيع وضع هدف يتراوح من ٢٪ إلى ٢,٥٪ من إجمالى الناتج المحلى، والعمل على النزول به مع مرور الوقت، إن المدخرات يمكن تحويلها إلى معونة، وإلى التحكم فى الأمراض، وإلى دعم جهود دولية أخرى، تتحرك بنا إلى وراء نحو توازنات عام ١٩٤٨.

إن منهج السياسة الأمريكية الخارجية فى حاجة شديدة إلى المراجعة، إنه لأمر بالغ الضرر أن يكون فى وسع واحد أو اثنين من أعضاء الكونجرس الأقوياء الذين يترأسون لجانا - إملاء سياسات الولايات المتحدة، رغم افتقادها دعما شعبيا ذا شأن، ربما كان الأكثر أهمية هو السؤال الذى يحتاج إلى التوضيح بصورة ملحة، وهو من الذى يقرر متى تذهب أمريكا إلى الحرب، إن الكونجرس يبدو مشاركا بصورة أقل فأقل، غير أنه ليس هنالك نية أن يدير أمريكا "قيصر"، إن فعل هذا سوف يخفض إلى حد كبير تعاملاتها وتكاليفها بينما يحسن علاقاتنا بالعديد من المناطق الرئيسية فى العالم، إن ذلك سوف يسمح لنا بالالتفات إلى الأزمتين الباديتين الآن عبر الأفق، واللتين فى حاجة للتعامل معهما الآن، وإن لم يحدث ذلك، فإنهما سوف يجعلان عنف القرن العشرين يبدو وكأنه روضة للأطفال.

المسألة الأولى هى العولمة، إذ رغم كل الهياج المرح والمثير حول عجائبها، فإنه من الواضح أن "سترتها الذهبية" غير ناجحة، أو على الأقل ليست كما يجب أن تكون طبقا لما تقوله الكتب المرجعية، إن بلدانا مثل المكسيك تفعل كل الأشياء المفروض صحتها وتتساقط إلى الوراء، إن حكومة محافظة يجب أن تكون ضد أعمال الدعم، نحن فى حاجة لوقف دعم مزارعى القطن الأمريكى، الذى يجعلهم قادرين على دفع مزارعى غرب إفريقيا خارج الأعمال، إن تأثير الصين على البلدان النامية الأخرى يحتاج إلى أن يُحلل بعناية، وعلينا استنباط السياسات الملائمة لتأكيد أن بلدانا مثل المكسيك وأندونيسيا ليستا بضحايا للتنمية الصينية، من الواضح أن مجرد فتح أسواق، وانتظار أن تحل التجارة المشاكل غالبا ما لا ينجح، إننا فى حاجة، للالتفات بجدية

للبنية الأساسية ورأس المال البشرى وحاجات التكيف فى المناطق النامية الكبيرة، إن لم تنجح التنمية الاقتصادية فإن كل قنابل الليزر والصواريخ الدفاعية لن تحمينا، وخاصة لأن العولمة بينما يحتمل ألا تعود أوتوماتيكيا إلى التنمية، فإنها مكنت كل امرئ بالفعل فى أن يرى كيف يعيش الآخرون.

إننا فى حاجة، ونحن نناضل لإنجاح العولمة، إلى معالجة موضوعات أكثر أساسية، لقد أدهش الرئيس بوش كل امرئ عندما أعلن فى رسالته عن "حالة الاتحاد" عن برنامج بـ ١٥ مليار دولار لمحاربة الإيدز فى إفريقيا، إنها خطوة فى الاتجاه الصحيح، لكنها خطوة فقط، إن التدمير الذى سببه الإيدز فى إفريقيا قد نال بعض الانتباه؛ لأن معدلات الإصابة قد بلغت أكثر من ٤٠٪ فى بعض البلدان، وعدد الموتى جنوب الصحراء الإفريقية بلغ أكثر من مليونين سنويا[١٣]، غير أن أخبارا تنذر بسوء حظيت باهتمام أقل، هل يعرف أى أحد أن كل امرئ تقريبا فى غرب إفريقيا يعانى من نوع من الملاريا؟[١٤]. أو أن السل قد أصبح وبائيا فى كثير من أنحاء العالم، إنه يصيب عددا أكبر من هؤلاء الذين يعانون من الإيدز.

وماذا عن موضوعات مثل الماء، وإزالة الغابات، والصحة، والتصحر، واستنزاف التربة، وزيادة السكان المفرطة؟ هل يفكر أى أحد من مجلس الأمن القومى فى احتمال قيام حروب حول المياه بين حلفائنا، "تركيا" و"إسرائيل"؟ إن "سد كمال أتاتورك" سوف يتحكم قريبا فى تدفق الكثير من مخزون مياه جباله إلى بلدان الجنوب، وطبقا لمدير الموقع، فإن المياه المنسابة إلى سوريا والعراق يمكن أن تُوقف لمدة ثمانية أشهر[١٥]. من الذى يتابع حقيقة ثلث سكان العالم الذين سيواجهون ندرة المياه عام ٢٠٢٥؟ انظر إلى باكستان، إنها بالفعل واحدة من أكثر بلدان الأرض خطورة، إن بها عدة مجموعات عرقية تتأثر بصورة متزايدة بعناصر أشبه بطالبان، وتمتلك قنابل نووية وصواريخ باليستية لتسديدها، إن ثلثى أرضها تقريبا يعتمد على رى كثيف، تزداد صعوبة الحفاظ عليه بسبب الإزالة الحادة للغابات والنمو السريع للسكان، البلد يعتمد بصورة كبيرة على نهر الأندوس، وهكذا الهند أيضا، التى تعانى تماما من ذات

المشاكل على نطاق واسع، ماذا سيفعل هذان البلدان عندما ينفذ الماء، والقنابل النووية مستعدة بالفعل فوق كشمير؟

إن إزالة الغابات قد أنقصت الغابات المطرية الرئيسية فى سيراليون من ٦٠٪ من البلد إلى ٤٠٪ منه، بينما أدت إزالة الغابات فى الصين إلى زيادة الفيضان، وتآكل تربة القمة وإنهاك الآبار، وكانت نتيجة ذلك التدنى السريع للأراضى الصالحة للزراعة، إن حركة السكان واسعة المدى تشكل فى الصين مشكلة كبرى حقا؛ إذ يحاول السكان الهرب من الداخل إلى المناطق الساحلية المزدهرة[١٦]، هل يفكر أى امرئ فى واشنطن فى كيفية مساعدة الصين فى هذه المشكلة؟ الإجابة واضحة بطريقة دارمية فى ميزانيتنا التى اعتمدت زيادة أكثر من ٥٠ مليار دولار من أجل البنتاجون، بينما برامج المعونة والتنمية تواصل ذبولها عند ١٦,٨ مليار دولار[١٧].

أحيانا ما تكون الحقيقة الأصغر أفضل، وتكون تلك الأقل حقيقية أفضل بكثير، ذلك المفهوم، كما أعرف، مفهوم غريب على الأمريكيين. إن استراتيجية تجعل قوتنا قوة آمنه للآخرين، حتى بانقاص قوتنا النسبية، ويمنح الآخرين شرف معاملتهم كراشدين، والتعاون والتشارك فى المسئوليات، سوف يحقق كسبا من سبل عدة. إن ذلك سوف يهبط بمظهرنا، ويجعلنا واحدا من بين أهداف عدة بدلا من أن نكون الهدف الوحيد. إننى سوف أجبر الآخرين على فهم وجهة نظرنا بتحميلهم مسئوليات أكثر مثل مسئولياتنا. إن منح الآخرين مساواة أكبر سوف يخفض الحسد والامتعاض، وسوف يكون ذلك أقل تكلفة بكثير لأنه لن يكون علينا السيطرة على كل شىء والدفع لكل شىء. إن ذلك سوف يعنى المشاركة فى بعض القوة، غير أن "إعلان الاستقلال" كان حول الحرية والسعى وراء السيادة، لا السعى وراء القوة، وكان "الدستور" حول التحكم فى القوة وتقييدها. إن أمريكا لم تُصَمم كى تكون إمبراطورية.

إن كان علينا أن نتبنى هذه الاستراتيجية غير المسبوقة، القائمة على تقليل قوتنا الجيوبوليتيكية، يجب علينا التعامل مع شىء واحد آخر- العقيدة، إننا شعب حسن النية والقصد وقد بوركنا بالثروة، إن لدينا ديمقراطية رائعة، لكنها ليست الديمقراطية

الوحيدة الممكنة، وهى ليست على الدوام أفضل ديمقراطية ممكنة، إن لدينا اقتصادا ناجحا للغاية، لكن الآخرين كذلك أيضا، وليس اقتصادنا هو الأفضل دائما، إن لدينا نظاما قضائيا به الكثير الذى يثير الإعجاب، لكن الآخرين لديهم كذلك، وليس نظامنا هو الأفضل دائما.

لقد كانت رحلة طويلة من القراءة والتجربة التى قادتنى إلى هذه النقطة، لقد كنت أرغب دوما فى أن أومن بأن تكون أمريكا هى الأنقى والأفضل فى كل شىء، ولذا فإننى أستطيع أن أتصورك، أنت القارئ، واحتمال صراعك مع بعض من هذا، غير أن الطريق الوحيد كى تكون أمريكا هى ما اعتقده، هو أن تكون صادقة النفس بصورة أساسية، وأن تعرف الحقيقة وتعترف بها. وسوف تكون الحقيقة هى التى تجعلها حرة، وتجعلها ما يجب أن تكون عليه، وفى كلمات أخرى، علينا أن نعيد التفكير فى الاستثنائية الأمريكية، إن جزءًا من صدمة ١١ سبتمبر كان الثرثرة حول أسطورة أن الأشياء الرديئة لا تعنى ضرورة أن نكون مؤمنين بالقضاء والقدر، لكننا فى حاجة، فى زمن ما فى العولمة، أن نعترف بأن مشاكل الآخرين هى مشاكلنا أيضا، وأننا لا نملك كل الإجابات، خاصة أننى أود تذكير زملائى المسيحيين بكلمات أوليفر كرومويل التى أمر بها فى خطاب له إلى "كنيسة إسكتلندا" - "باسم رحمة المسيح، أرجو منكم أن تؤمنوا إمكان أن تكونوا على خطأ"[١٨]، وأود باعتبارى ممن يقدمون النصيحة "للكنيسة المشيخية" أن أؤكد أن المسيح لم يكن من أجل الأمم والقوة، ولم ينشر بشارته بالقسر والإكراه، وعندما سُئل عن الضرائب قال: "أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله"، لقد أنقذ المسيح أرواح الناس واحدا بعد الآخر، إن خلاص الكنائس الأمريكية كان فى فصل الكنيسة عن الدولة، وبالنظر إلى موت كنائس أوربا فى حضن الدولة المحكم الفظ، فإننا نحن المسيحيين يجب أن نتجنب أكثر من أن نحتضن، هنا فى أمريكا، علاقات أوثق بين الكنيسة والدولة، إن السياسيين الذين يستخدمون الرب كدعامة لحملتهم يجب أن يتذكروا أن الرب لا يُخدع، إن أمريكا التى أكدت تسامحها أكثر من قوتها، وتقليدها الخاص بتحققها المفتوح أكثر من نهجها فى الحياة، التى

طلبت مباركة الرب لكل شعوب الأرض، وليس مباركتها هى فقط، سوف تكون أمريكا التى يريدها العالم بشدة، إنها سوف تصبح أيضا شيئا آخر، إننى لن أنسى أول نظرة خاطفة لى لمدينة "آسيس" الإيطالية موطن سان فرانسيس؛ إذ بينما كنت أجتاز منحنى فى الطريق قبل غروب الشمس، كانت هى هنالك بيضاء، تومض فوق التل.

خاتمة

تحقق ما كنت أتوقع، بعد أن سلمت الفصل الأخير من هذا الكتاب لناشرى، فى نهاية فبراير عام ٢٠٠٢؛ إذ بعد العرض الذى قدمه كولين باول وزير الخارجية إلى الأمم المتحدة، فى فبراير حول برنامج أسلحة الدمار الشامل العراقية، ضغطت إدارة بوش بشدة، بدعم من بريطانيا العظمى، من أجل الحصول على قرار ثان من مجلس الأمن ليدعم إصدار إنذار إلى الرئيس العراقى صدام حسين، يطلب منه وقف كل برامجه النووية والكيميائية والبيولوجية، ويفتح البلد أمام تفتيش الأمم المتحدة، وتعهد بالتدخل المسلح، إن ظل متحديا، وشنت فرنسا، بدعم من ألمانيا وروسيا والصين حملة ضد إصدار إنذار فورى، محبذين إعطاء مزيد من الوقت لمفتشى الأمم المتحدة، للبحث عن أسلحة غير شرعية، وخفض الرئيس الفرنسى جاك شيراك، فى النهاية، طلبه للوقت الإضافى إلى مجرد شهر واحد لا غير، فى مواجهة ضغط الولايات المتحدة الهائل، غير أن واشنطن ظلت متصلبة تضغط من أجل إنذار سريع.

وتابع العالم، مدة أسبوعين، مشهد الولايات المتحدة وفرنسا، وهما فى مزايدة ضد بعضهما البعض من أجل كسب الأصوات، أمثال أنجولا وباكستان، كان الدعم الذى حظى به الموقف ضعيفا إلى حد يثير الدهشة، وقد ظهر ذلك فى صورة درامية فى ٣ مارس، عندما أعلنت تركيا، وهى واحدة من حلفاء أمريكا الأوفياء منذ زمن، إنها لن تسمح للولايات المتحدة باستخدام الأراضى التركية كمنطقة تجمع لقوات غزو العراق، وعبر أصدقاء آخرون قدامى مثل المكسيك وكندا عن دعمهم لوجهة النظر

الفرنسية، ووقع رؤساء وزراء ثمانى دول، بما فيهم رؤساء إيطاليا وإسبانيا وبولندا وبريطانيا العظمى خطابا ردا على معارضة فرنسا وألمانيا؛ دعما لوضع الولايات المتحدة، كتبه لهم ونشره محرر وول ستريت جورنال، ورغم ذلك، عندما حل التصويت، فى النهاية، فى مجلس الأمن، لم تحصل الولايات المتحدة حتى على الأغلبية، دع جانبا مسألة ثلثى الأصوات التى تحتاجها للموافقة على القرار.

وأعلن الرئيس المقدام - جورج دبليو بوش - أنها "لحظة صدق" للأمم المتحدة، ثم أعلن فى قمة الآزور، مع رؤساء بريطانيا وإسبانيا والبرتغال، فى ١٧ مارس أن "المجهودات الدبلوماسية لنزع سلاح صدام حسين سوف تنتهى اليوم، واتهم مجلس الأمن، فى اليوم التالى، بالعجز عن القيام بمسئولياته، وأعلن إنذارا لصدام بثمان وأربعين ساعة؛ كى يترك العراق أو يواجه الحرب فى الوقت الذى نختاره، وأعلن الوزير باول، بعد فترة قصيرة - قائمة بأسماء ثلاثين عضوا، فى ائتلاف، بقيادة الولايات المتحدة، ولكن كان عليه أن يعترف أن واحدة من أكثرهم بروزا، إسبانيا، لن ترسل أية قوات، ثم غدت كل عمليات المناورة، فى مساء ١٩ مارس عام ٢٠٠٣، غير ذات أهمية عملية، عندما دوى الصوت العالى، لصفارات الغارات الجوية فوق بغداد، وسار الرئيس بوش، بعد ذلك بقليل أمام آلات التصوير فى المكتب البيضاوى الساعة ١,١٦ بعد الظهر، وأعلن إلى العالم أن العمليات التى تقودها الولايات المتحدة لنزع سلاح العراق قد بدأت، وحذر من أن الحرب "قد ترهق الأمة"، وأكد أن القتال قد يقتضى وقتا أطول، ويكون أكثر صعوبة مما تكهن به البعض، وقد لاحظت أقلية، وإن كانت تلك الملاحظة ذات أهمية متأخرة - أن الأعمال العدوانية قد ابتدأت، ولكن ليس كجزء من خطة البنتاجون الحربية، ولكن كضربة انتهازية، لحشد من القادة العراقيين جرى الاعتقاد بأن صدام حسين من بينهم، وأشارت التقارير المبكرة إلى أنه قد قتل أو جرح جرحا بليغا، غير أن ذلك تكشف عن كونه أمرًا غير حقيقى.

كان هذا – فى الحقيقة – هو أول العديد من الحسابات الخاطئة والمفاجئات، وكان الثانى هو السرعة التى ناوش بها "ائتلاف الراغبين"، بقيادة الولايات المتحدة، الجيش العراقى، وانتهى القتال بأكبر سرعة، وأقل صعوبة مما تكهن به أى فرد، على نقيض ما حذر منه الرئيس، بدا الجيش وكأنه يتبخر فى مواجهة قوات الائتلاف، ولم تدخل الأسلحة الكيميائية وأسلحة الدمار الشامل الأخرى، التى كان هنالك خوف كبير منها، اللعبة البتة، وفى ١٠ إبريل كانت قوات الولايات المتحدة تتحكم تحكما تاما فى بغداد، وأُسقط تمثال صدام من فوق قاعدته وسط هتاف العراقيين المتهللين الذين قَبلوا الجنود الأمريكيين، وركلوا صورة صدام بأحذيتهم.

بدا، بالنسبة للمحافظين الجدد وغيرهم، وكأن الأحداث تترعرع كما توقعوا، وأعلن الرئيس فى أول مايو أن الصراع الأكبر قد انتهى، وحذر رئيس الوزراء تونى بلير هؤلاء الذين يشككون فى العثور على أسلحة محظورة، حتى إنهم سوف "يعتذرون عن بعض ما قالوه من كلمات"، غير أن المفاجأة الثالثة والرابعة جاءتا حينئذ. إذ عندما انتهى الأمر، لم تكن الأمور تسير كما كان متوقعا، لقد تبع الهتاف والقبل العراقية لجنود الولايات المتحدة، بسرعة، عمليات نهب وسلب لكل شىء لم يُحكم الإغلاق عليه، من النفايات النووية إلى كنوز الفن القديم، وكان الأسوأ هو الانهيار الكلى، تقريبا، للإدارة المدنية العراقية، لقد زعمت إدارة بوش أنه فى إمكانها هزيمة صدام حسين فى حين أن المدرسين ورجال الإطفاء والشرطة، والأطباء وعمال الصحة العامة، وكل العناصر الأساسية الأخرى للمجتمع المدنى، سوف تواصل العمل على نحو طبيعى بصورة أو أخرى، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك، وبالدخول فى أوج صيف العراق شديد الحر، لم تكن هنالك مياه، أو كهرباء، ولا جازولين (فى بلد يطفو على النفط) – وليس هنالك من مسئول، وقد أضيفت لهذا التشوش واحدة من الحركات الأولى لسلطة الائتلاف الجديد الحاكم، هى حل الجيش، ومن ثم دفع بالآلاف من الشباب العاطل حديثا حاملا أسلحته إلى الشوارع، ثم سقط العائق الآخر، أطلقت قوات عراقية غير منظمة حربا شريرة، حرب إنهاك على قوات الائتلاف تستخدم تكتيكات العصابات، وقنابل

صاروخية، وسيارات مفخخة، تُكذب كلية ادعاءات الرئيس حول نهاية النزاع، وتم قتل وتشويه خمسة وسبعين، في المتوسط، في أسبوع، في حملة لا تزال مستمرة، وقت كتابة هذا الكتاب، وكان الفشل هو الأكثر إزعاجا، رغم جهود البحث المكثفة للغاية من أجل العثور على أسلحة الدمار الشامل التي أثارت أشد الخوف، والتي ساعد تهديدها، المفترض، على الحرب، باعتباره الأساس المنطقي الرئيسي لذلك، كم عدد المرات التي حذر فيها الرئيس، وشيني نائب الرئيس، وبلير رئيس الوزراء من السماح لأسوأ قادة العالم بامتلاك أسوأ أسلحة العالم؟ غير أنه مع السقوط أصبح واضحا لكل امرئ تقريبا أن صدام لم يكن لديه في الحقيقة مثل تلك الأسلحة، ورقدت كل الشكوك حول هذا الموضوع ساكنة، عندما قرر كبير مفتشي أسلحة الولايات المتحدة دافيد كاي في أواخر يناير أنه لم يعجز فقط عن العثور على أسلحة، بل إن صدام حسين أيضا لم تكن لديه أسلحة دمار شامل خلال السنوات السبع الماضية، كانت برامجه في الحقيقة مشوشة، وكان هو نفسه يعيش في أرض أحلام، مع معونات عالية، تساعد في الحفاظ على أوهامه، وقد أكد كاي أن استخبارات الولايات المتحدة كانت قاصرة وخاطئة بكل ما في الكلمة من معنى.

والحقيقة أن لا شيء سار كما توقع المحافظون الجدد، وقد قادتهم أيديولوجيتهم وافتراضاتهم الرومانسية، وهي قابعة على قمة استخباراتهم الرديئة - إلى تحاشي التخطيط العادي للبنتاجون، وللإدارة الخارجية، لمرحلة ما بعد الحرب، حقا لقد غدا واضحا فيما بعد أنهم تجاهلوا القنوات الطبيعية منذ البداية، وذلك بتشكيل وحدة خاصة، خاضعة لـ بول وولفوويتز نائب وزير الدفاع (ومرتبطة بصورة وثيقة بمكتب نائب الرئيس شيني) وهي التي أمدت البيت الأبيض بنسختها الخاصة من الاستخبارات.

لم أكن مثل كثيرين من نقاد السياسات الخارجية للإدارة، معارضا لغزو العراق، لقد أحسست لزمن طويل أن عدم الذهاب إلى بغداد عام ١٩٩٢ كان خطأ تاريخيا، كان من الواضح أن صدام هو أحد وحوش التاريخ الكبرى، وأن إسقاطه لن يكون

شيئا رديئا، وبدا لى الغزو فى ظل أوضاع ربيع عام ٢٠٠٢ - فى ظل بناء ضخم لقوات فى الخليج الفارسى وقرار يصدره مجلس الأمن يطالب بمحاسبة كلية لبرامج الأسلحة العراقية - بدا لى أقل شرا من التراجع والسماح لصدام بتقديم نفسه كمنتصر على الولايات المتحدة والأمم المتحدة.

وفوق هذا كنت أعانى على أية حال قلقا عميقا حول الدور الأمريكى فى العالم؛ وكيف يمكن لأوضاع الغزو المقترح للعراق أن يؤثر فيه؛ وبينما بدا لى أن التخلص من صدام أمر مرغوب فيه، غير أن ما بدا أكثر جاذبية هو فعل ذلك فى صحبة حلفاء، وبدعم من الأمم المتحدة؛ لأن ذلك سوف يؤدى إلى المشاركة فى الأعباء والمخاطر، بينما يحافظ على الأرضية الأخلاقية العالية للولايات المتحدة، لو كنت أنا مكان الرئيس لكنت طلبت من مجلس الأمن أن يخبرنى ما هى المدة المطلوبة للتفتيش على الأسلحة، ولكنت وافقت على الوقت الذى تحتاجه المرحلة أيا كان شريطة أن يلتزم المجلس الآن بدعم عمل عسكرى، إن لم تتم الاستجابة لمطالبه حتى نهاية المرحلة المحددة، غير أننى لم أكن الرئيس؛ لذا قبلت الغزو باعتباره أقل الشرور، وأملت فى الأفضل، أملت بصورة خاصة، أنه ما أن تتم السيطرة على العراق، حتى تتحول الولايات المتحدة إلى الناتو والأمم المتحدة لحراسة الأرض، وقيادة عملية إعمارها، بالطبع، لم يحدث شىء من ذلك، ويجب أن نسأل أنفسنا الآن، هل نحن الآن أفضل أم أسوأ، نتيجة أفعالنا الأحادية، وهل يجب أن تتواصل الأحادية لتكون نجمنا الهادى.

وحتى تتم الإجابة على هذا السؤال، من الهام فهم الأغراض الحقيقية لغزو العراق، إنها حقا لم تكن حول أسلحة الدمار الشامل كما قال وولفوويتز فيما بعد، إن أسلحة الدمار الشامل استخدمت فقط كذريعة؛ لأنها كانت الموضوع الوحيد الذى يمكن أن توافق عليه البيروقراطيات فى واشنطن، والذى كان حوله كذلك، درجة ما من اتفاق تحالفى، إن الأهداف الحقيقية كانت أعرض بكثير، بل وحتى ثورية، كان الأول ببساطة استعراض القوة الأمريكية والرغبة فى استخدامها، لقد ادعى المحافظون الجدد أن الأشياء الرديئة تحدث فى العالم؛ لأنه يُنظر إلى أمريكا باعتبارها نمرا من ورق، غير

راغبة، وغير قادرة على رد الهجمات على سفاراتها وطائراتها المدنية، وأهداف أخرى مكشوفة، وإظهارا لأن هذا غير حقيقى، وأن أمريكا يجب أن تُحترم، كان هنالك إيمان بأنه عليها هى أن تبعث بالرعشة، بنفسها، إلى النشاط العدوانى، إن مثل هذا الإظهار يحتاج إلى هدف، وكان صدام هو الهدف المثالى، هنا قائد يكرهه الجميع، كما أنه قام، على الأقل، بانتهاكات فنية للعدد من قرارات الأمم المتحدة، ورغم حديثه وفعله الفظ، فإنه كان بالفعل أضعف بكثير مما كان عليه خلال حرب الخليج عام ١٩٩١ - ١٩٩٢، لقد وقع مدة عشر سنوات تحت العقوبات الاقتصادية للأمم المتحدة، وتعرض لتحديد مناطق مُنع الطيران فيها فى بلده، وللمراقبة الأمريكية البريطانية الجوية المتواصلة، كان من الناحية العسكرية فتاتا سهلا.

وكان لهزيمته ميزات ثانوية بالمثل، نتيجة تدمير أى أسلحة دمار شامل يمكن أن تكون لديه، ومنعه من تحويلها إلى آخرين، وكانت القواعد العسكرية الأمريكية، فى العربية السعودية، بصورة متزايدة - مصدرا للمشاعر المعادية لأمريكا عند هذا الحليف الأساسى المنتج للنفط، ويمكن للقوات العسكرية الأمريكية بغزو العراق وتنصيب حكومة صديقة - أن تنسحب من العربية السعودية، وتحظى بقواعد جديدة وأكثر أمنا فى العراق، البلد الذى يحتوى على ثانى أكبر احتياطيات النفط فى العالم، كما كان معتقدا أن هزيمة صدام سوف تخفض دعم الإرهاب الفلسطينى ضد إسرائيل، ومن ثم يؤدى ذلك إلى تسوية سلمية إسرائيلية - فلسطينية، بينما يزيل ذلك أيضا أى تهديد باستخدام أسلحة الدمار الشامل ضد إسرائيل، وفى النهاية كان من المعتقد أن إقامة نظام علمانى ديمقراطى فى العراق سوف يحفز الإصلاح والحركة نحو الديمقراطية عبر العالم العربى، ومن ثم تخفيض التهديد الذى يفرضه المتطرفون العرب، والأفضل من كل شىء، أن التكلفة سوف تكون منخفضة لأن العراقيين سوف يرحبون بنا لإزاحتنا الديكتاتور المكروه، كما يمكن تغطية مثل تلك التكاليف التى سوف تظهر، بواسطة العراقيين أنفسهم عبر بيع نفطهم، وفى أعقاب كل تلك النتائج المفيدة، فإن

الأمم المتحدة، وباقى العالم، سوف يجىء فى النهاية، ليحتضن سياسة الولايات المتحدة، ما الذى يمكن أن يكون أسهل، من ذلك وأفضل؟

هنالك القليل الذى يمكن قوله عن الجانب الإيجابى لدفتر الحسابات الجارية، قليلون هم الذين ناحوا على موت صدام، أبناؤه الساديون، والآخرون الذين ملؤوا المقابر الجماعية، إن نقل قوات الولايات المتحدة من العربية السعودية إلى قواعد أخرى فى المنطقة قد حدث، وهو دون شك عمل إيجابى كبير للسعوديين، ولنا بالمثل. هل فعل استعراض القوة الأمريكية أى شىء، بالنسبة للاتفاق الأخير لإيران مع الاتحاد الأوروبى للسماح بالتفتيش على مواقعها النووية، ذلك أمر يصعب قوله، غير أنه لا شك لم يوقف الاتفاق، ويمكن قول نفس الأمر بالنسبة لاتفاقية ليبيا لوقف برامج تطوير أسلحتها النووية يضاف إلى ذلك أن الخوف الشديد من تفجر "الشارع العربي" لم يحدث، وبدا أن العربية السعودية، وسوريا، وأخرين قد غدوا أكثر تعاونا فى محاربة القاعدة، بدا أن السعودية تحاول القيام ببعض الإصلاحات الليبرالية المحلية بالفعل، وبدأت باكستان، تحت قيادة الرئيس مشرف فى الرجوع القهقرى ببطء عن دورها كمورد عام للتكنولوجيا الذرية والصواريخ إلى البلدان النامية، وتتجه إلى الدفء نحو الهند شريكتها فى المقارعة منذ زمن طويل، بينما تحاول السيطرة على المتطرفين الإسلاميين داخل حكومتها، وبالرغم من تخطيط الولايات المتحدة الأقرب لأن يكون كارثيا، للوضع فيما بعد الحرب، فإن العراق يعاد إعماره ببطء، وتتعاون عناصر الشيعة والأكراد، التى تشكل الأغلبية الساحقة للعراق، مع قوات الولايات المتحدة، إلى أقصى حد، بغرض خلق نظام عراقى جديد، وقد أعفى الروس والفرنسيون، منذ فترة قريبة - العراق من دينه القديم، بناء على توصية الولايات المتحدة، ويناضل الألمان والمكسيكيون والكنديون كى يعودوا إلى أفضال أمريكا الجيدة، رغم أو ربما بسبب أنها وضعت فى ثلاجة الولايات المتحدة.

واحسرتاه، إن لدفتر الحسابات الجارية أيضا جانب المدين أيضا، إن الولايات المتحدة بارتباطها بالحرب الاستباقية، وتبنيها عقيدة رسمية أحادية، أمنية وقائية،

استباقية، قد تخلت عن المستوى الأخلاقى العالى، وكذبت أسطورتها هى عن الاستباقية، وعملت من نفسها مجرد آخر، فى صف طويل من القوى المهيمنة تمتد إلى الوراء، إلى المصريين القدماء، والرومان، كما أنها خانت ثقة شعبها، وهو عمل مزعج لأى بلد يدعو نفسه بلدا ديمقراطيا، هل يمكن لأحد أن يصدق أن الكونجرس والشعب الأمريكى كانا سيدعمان الغزو لو كان الرئيس قد أخبرهم أنه ليس هنالك من تهديد مباشر لأسلحة الدمار الشامل، لكن صدام شخص ردىء، وعلينا أن نودع ٥٠٠٠ قتيل وجريح من الفتيان الأمريكان حتى يمكننا استعراض القوة الأمريكية، ونحفز الديمقراطية فى الشرق الأوسط؟ إن غياب أسلحة الدمار الشامل، والاكتشاف التالى بأن معلومات الاستخبارات، إن لم يكن قد جرى التلاعب فيها، فإنها بلا شك، قد استخدمت بطريقة انتقائية - وبطريقة غير دقيقة فى بعض الحالات، حتى تقتضى الحالة الحرب المباشرة، قد خلق أيضا فقدان ثقة فى الخارج، وكان هبة لمنظرى المؤامرة من جميع الأنواع، لا أحد فى الشرق الأوسط أو جنوب آسيا، وقليلين فى أجزاء مختلفة من العالم مقتنع بأن وكالة المخابرات المركزية لم تكن عارفة بأنه لا توجد هنالك أسلحة دمار شامل، إن كل امرئ يفترض أن الأمريكيين وتكنولوجيتهم المثيرة للدهشة التى يعلنون عنها يمكن أن تسمع وأن ترى كل شىء تقريبا، يقينا، أنهم يعرفون وضع أسلحة الدمار الشامل، كما هو مفترض، ولذا فإن لم تكن هنالك أسلحة دمار شامل، فإن النتيجة التى تصل إليها الغالبية الواسعة من الناس حول العالم أن الحرب كانت فى الحقيقة من أجل السيطرة على نفط العراق، وقد انتهت مجموعة أكثر حنكة أن الحرب كانت من أجل تأسيس واضح جلى لهيمنة أمريكية، وضربة استباقية لتحديات محتملة من أية قوى أو مجموعة قوى أخرى، ويختلف الوضع فى الأجزاء المختلفة من العالم، إلا أن العزلة التى أحسستها، بقوة كبيرة، عن أمريكا بينما كنت أسافر عام ٢٠٠٠/٢٠٠١ التى قادتنى إلى كتابة هذا الكتاب قد ازدادت سوءا، إن هذا تطور يثير قلق أى امرئ ما زال مقتنعا بأن أمريكا تحتاج إلى أصدقاء.

إن الولايات المتحدة تجد نفسها، فى تعبيرات أكثر مباشرة، ملتزمة بجهد للتهدئة وإعادة الإعمار أكثر مما كان متخيلا، فى العراق، إن حرب العصابات والإرهابيين غير المتوقعة تفرض ضريبة راسخة على جنود الولايات المتحدة والمسئولين العراقيين الأساسيين بالمثل، وحتى الآن، فإن الضحايا يبلغون أكثر من ١٠,٠٠٠ - وما زال الرقم يتصاعد، إن جيش الولايات المتحدة، وغالبية كتائبه مشتبكة على امتداد مشدود على نحو يفوق شدة الطبل، الدورات تطول والاحتياطى تزداد دعوته، وقدرة الولايات المتحدة على الانشغال بأى نزاع آخر يمكن أن ينشأ، محل تساؤل كبير للغاية، وتكاليف كل من مواصلة النشاط العسكرى وإعادة الإعمار تتصاعد بسرعة، لقد صبت الولايات المتحدة بالفعل أكثر من ١٥٠ مليار دولار فى الجهد العراقى، وذلك يمكن أن يكون العربون فقط، إن إنتاج النفط العراقى، الذى لن يزداد لفترة من الوقت، لا يُحتمل أن يغطى جزءا كبيرا من الفاتورة، أما عن مساهمات شركاء الائتلاف وبلدان أخرى، فقد كانت نقطة فى دلو، إن الائتلاف باستثناء بريطانيا هو أقرب إلى حلية منه إلى واقع، مثال ذلك أن حكومتىَ إسبانيا واليابان قد حصلتا على إطراء سخى من إدارة بوش لدعمهما ومع ذلك فإن الإسبانية لم ترسل قواتا، وأرسلت اليابانية أخيرا ٦٠٠ جندى غير مقاتل إلى الميدان بعد عشرة أشهر من إعلان بوش انتهاء القتال الأكبر، إنها الولايات المتحدة، وليست حكومات التحالف التى تدفع لغالبية قوات التحالف فى الميدان.

إن سقوط صدام - دون شك - شىء جيد، لكن الحرب فى العراق صرفت الأنظار عن أفغانستان واصطياد أسامة بن لادن، إن الشىء الوحيد الذى يدفع الاقتصاد الأفغانى حاليا هو بعث زراعة الخشخاش الذى سوف يُرسل فى النهاية بأطنان الأفيون كعنصر أساسى إلى مصانع الهيروين فى أوربا الغربية والولايات المتحدة، تحت إشراف أمراء الحرب، الذين تتحالف معهم قوات الولايات المتحدة من أجل الإطاحة بطالبان، وقد أصبح أمراء الحرب هؤلاء بالكاد أكثر احتراما للمرأة وحقوق الإنسان من طالبان، والآن يبدون فى بعض الحالات متحالفين بالفعل مع

طالبان التى تستعيد نشاطها، لحصر إرادة حكومة الأفغان الاسمية، بصورة أو أخرى، فى حدود كابول، وكان أسامة والقاعدة، فى تلك الأثناء، يعيدون التجمع عبر حدود باكستان تماما، التى هى حليف هام للولايات المتحدة، كما أنها على نحو قابل للجدل أكثر البلاد خطرا فى العالم، وبرغم أن الرئيس مشرف قد وضع بلده بصراحة فى معسكر الولايات المتحدة، فى الوقت الحاضر، فإن سيطرته ضعيفة، إن منطقة الحدود الغربية؛ حيث يختبئ أسامة، والمتاحة لكل الأغراض العملية، غير خاضعة لتحكم الحكومة المركزية، وفوق ذلك، فإن انتخابات حرة سوف تجيء دون شك، بقوى الإسلاميين المتطرفين المتحالفين مع أسامة، كما أن الأمن الداخلى، والأعمال الاستخبارية مخترقة بكثافة من المتعاطفين مع أسامة، وقد أفلت فى ديسمبر ٢٠٠٣ مشرف بصعوبة من محاولتين لاغتياله؛ لذا فإن الأخبار الطيبة هى أن باكستان مشرف حليف يحاول أقصى جهده كى يجعل المتطرفين تحت السيطرة، والأخبار السيئة هى أن أسامة يمكن أن يكسب بحق السيطرة على باكستان بأسلحتها النووية العاملة وصواريخها الباليستية طويلة المدى، ونبدو نحن فى هذا الوقت غير قادرين، أو غير راغبين على الأقل، فى أن نقوم بنوع من الدفع على أسامة مثل ذلك الذى فعلناه مع صدام.

وحتى نجعل الصورة أكثر إثارة للمتعة فقط، فإن العربية السعودية مرشح آخر لأسامة لأخذ السلطة فيها، إن سبب إخراج القوات الأمريكية كان لأن وجودهم على أرض أكثر بلاد المسلمين قداسة كان يولد دعما متزايدا للقاعدة ولبرنامجها للإطاحة بالعائلة الملكية، إن العربية السعودية هى اليوم بلد يختمر بقادة الأسرة الملكية المسنين والمنقسمين، والطائفة الوهابية الإسلامية القوية يزداد وجودها فى معسكر أسامة، لا شيء هنا غير ممكن، وتبدو القاعدة، فى تلك الأثناء وهى لا تزال قادرة على القيام بأفعال إرهابية كبرى فى أى مكان من العالم.

إن غياب أسلحة الدمار الشامل قد أجبر إدارة بوش على إيجاد أسس منطقية جديدة تبرر بها التزامها الثقيل قبل العراق، قيل فى البداية: إن التخلص من صدام كان

سببا كافيا، غير أن الرئيس تحول فى النهاية إلى مقرطة الشرق الأوسط، بادئا بالعراق ومنتشرا من هنالك إلى باقى العالم الإسلامى، وقد قال الرئيس وهو يعلن أساسه المنطقى الجديد، فى بلاغة مثيرة: إن قبول ستين عاما من الفاشية فى الشرق الأوسط لم يجعلنا أكثر أمنا، والآن فإن السؤال ليس فقط إذا ما كان فى الوسع إنجاز المقرطة، وإذا ما تحققت، هل يجعلنا ذلك أكثر أمنا، بالنسبة للأول، فإن الشيعة يشكلون أغلبية العراقيين، وحتى الآن، فإنهم متعاونون مع سلطات الولايات المتحدة، غير أنهم مصرون على انتخابات مباشرة للهيئات العراقية المكلفة بخلق نظام جديد، إنهم، دون شك، سوف يصرون على انتخابات مباشرة لحكومة أساسية، وذلك بوضوح لأنهم سوف يكسبون، لكن هذا بالضبط ما لن تقبل به سلطات الولايات المتحدة؛ لأن حكومة يسيطر عليها الشيعة يحتمل إلى حد كبير أن تكون حكومة خاضعة لهيمنة رجال الدين، وقد أظهر الأكراد بالفعل رغبتهم فى الحكم الذاتى، إلى حد أنهم سوف يشكلون حكومة أمر واقع، وبينما يمكنهم تخفيف مطالبهم قليلا، تحت ضغط الولايات المتحدة، فإنه من الصعب تصورهم يتخلون ببساطة عن الاستقلال الفعال الذى تمتعوا به عبر عشر سنوات، فى ظل حماية الولايات المتحدة، منطقة محظور فيها الطيران، وعقوبات ضد صدام، ولذا فإن الانتقال من هنا إلى هناك يبدو صعبا.

ويفرض السؤال الثانى صعوبات أكبر، إن الانتخابات الحرة، كما لاحظنا آنفا، تكاد - دون شك - تعيد إلى السلطة حكومة معادية لأمريكا، معدة بأسلحة دمار شامل حقيقية، وبينما لا تمتلك العربية السعودية أسلحة دمار شامل، فإن الانتخابات هنالك يحتمل أيضا أن تنتج نظاما خبيثا معاديا لأمريكا، ومعاديا لإسرائيل، ويمكن أن تكون مصر فى ذات المرتبة، يضاف إلى ذلك أن الولايات المتحدة حققت، دعما للحرب ضد الإرهاب، تحالفات وأقامت قواعد فى سلسلة من بلدان آسيا الوسطى، مثل أوزبكستان، التى يوجد حولها بعض الحكومات الأكثر استبدادا، ولذا فإنه عندما تقول كوندوليزا رايس مستشارة الأمن القومى: إنه من الكياسة التفكير فى أنه ليس فى وسع البلدان الإسلامية تحقيق الديمقراطية، فإنها دون شك على صواب، لكن على المرء

أن يتساءل إذا ما كانت حقا تريد أن تكون كذلك، لقد أعلنت إدارة بوش هدفا كبيرا للسياسة الخارجية يحتمل ألا تكون راغبة فى تحقيقه، إن كل امرئ يعرف هذا ما عدا الرأى العام الأمريكى الذى أُبقى عليه فى جهالة بالأمر، بواسطة بلاغة عالية التلاشى، تترك العالم يتهكم من دوافع الولايات المتحدة.

إن هذا التهكم تفاقم، فقط بسبب مدخل الولايات المتحدة إلى كوريا الشمالية، هنا بلد لديه بالفعل، وبوضوح أسلحة نووية وصواريخ باليستية طويلة المدى، ومع ذلك فإن الولايات المتحدة لم تدع ضده إلى حرب وقائية - إن السبب بالطبع، هو أن أى حرب مثل تلك سوف تدمر كوريا الجنوبية، التى تقع عاصمتها، بسكانها العشرين مليونا، فى متناول مدفعية الشمال، وفى نفس الوقت، فإن الإدارة برفضها "استراتيجية ضوء الشمس"، استراتيجية كوريا الجنوبية، واتخاذ خط متشدد برفض المحادثات مع الشمال، بينما تطالب بتغيير النظام، تكون قد وضعت نفسها فى صندوق متعب للغاية، وهى تأمل أن يستخلصها الصينيون، وربما الروس منه، وبينما تتحرك كوريا الشمالية إلى الأمام، وهى تسلح مخزونها الاحتياطى من البلوتونيوم، فإن واشنطن تعتمد على الصين لتعقد اجتماعات مع كوريا الشمالية، تضم الصين وروسيا والولايات المتحدة واليابان؛ حيث يكون فى وسع المسئولين الرسميين من الولايات المتحدة الحديث فيها إلى المسئولين الرسميين لكوريا الشمالية، دون الإقرار بأنهم يقومون بتغيير مفاجئ؛ فى المواقف المبكرة الرافضة للحديث مع الشمال، حتى يفكك برنامجه النووى، إن كون إدارة بوش مجبرة، فى هذه اللحظة، على تبنى التعددية، يزيد فقط من المرارة التى يحسها هؤلاء الذين جرحتهم بالفعل أحادية الولايات المتحدة.

إننا فى حاجة فى هذا السياق للنظر إلى بعض التحولات الأساسية فى بنية النظام الكونى، إن الأكثر عمقا هى علاقة الولايات المتحدة بأوربا، وربما كان أبرز ما رمزت له هى زيارة رئيس الدولة إلى لندن فى نوفمبر عام ٢٠٠٣، إن هذه الرحلة التى كانت للالتقاء بأوثق حلفائنا فى أعقاب النصر فى العراق، كان يجب أن تكون تلك فرصة للاحتفال الدافئ؛ غير أنها بدلا من ذلك كانت محنة، قاد الخوف من المظاهرات

المعادية لأمريكا إلى إلغاء ركوب الحصان المعتاد والعربة مع الملكة إلى قصر بكنجهام عبر شوارع لندن، كما لم يتوجه الرئيس، الذى يبغى مقرطة الشرق الأوسط، بالحديث إلى "أم البرلمانات" خشية المضايقة بكثرة الأسئلة والتحديات، ولم تكن هنالك مؤتمرات صحفية.

إن هذا الاستقبال البارد، من أوثق حلفائنا، يعكس أثر الاستراتيجية الأمريكية الجديدة نحو أوربا، إن العلاقة الأمريكية الأوربية كانت أساس النظام الكونى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، إن مبادئ السوق الحر الديمقراطية التى تتشاركها أمريكا وأوربا هى التى حددت وعززت العالم الحر، وخلقت المؤسسات الدولية الكبرى، والأكثر أهمية: إن التحالف الأمريكى الأوربى هو الذى كسب الحرب الباردة، وعززت الولايات المتحدة، طوال تلك المرحلة وشجعت تطوير أوربا أكثر وحدة، لقد وضع الرئيس كينيدى الأسلوب فى "قاعة الاستقلال" (إنديبندانس هول)، فى ٤ يوليو ١٩٦٢، عندما قال: "إننا لا ننظر إلى أوربا القوية المتحدة كمنافس، ولكن كشريك"، ولإثبات ذلك، دعا إلى قوة عسكرية أوربية مستقلة وموحدة، كما دعا إلى "إعلان استقلال" بين أوربا المتحدة والولايات المتحدة، واليوم، فإن ازدراء المحافظين الجدد لأوربا، والدفع إلى غزو العراق بأى ثمن، قد قلب الوضع، إن واشنطن الآن تنظر إلى أوربا المتحدة، وخاصة تلك التى لها قوة عسكرية مستقلة عن الناتو، باعتبارها منافسا محتملا، وهى قد ثبتت سياسة التقسيم والإبقاء تحت الهيمنة.

بالطبع، لن تتحارب الولايات المتحدة وأوربا، لكن أمريكا لن تكون قادرة على الاعتماد على الإحساس القديم بالقيم والأهداف المشتركة، إن أفضل دليل على هذا هو تحرك البريطانى تونى بلير فى آخر نوفمبر ٢٠٠٣ للالتحاق بفرنسا وألمانيا فى خلق وحدة التخطيط العسكرى الأوربية المستقلة، إن ما يثير السخرية من العدوانية الأمريكية الجديدة نحو أوربا - هو أنها قد تعجل بظهور المنافس الأوربى المتحد الذى تخافه إدارة بوش.

إن صدق القول المأثور أنه "كلما زاد تغيرها، زاد بقاؤها كما هي"، ليس متوافرا في أية حالة، كما هو متوافر في حالة النزاع الإسرائيلي الفلسطيني، إن أحد الأسباب التي طرحت دعما لهزيمة صدام، كما قيل: إن الطريق إلى أورشليم يقع عبر بغداد، ومن الواضح الآن أنه ليس كذلك، وقد قامت الولايات المتحدة والاتحاد الأوربي وروسيا والأمم المتحدة، بإعلان صاخب للغاية، عن "خارطة الطريق"، من أجل السلام، وقد أصرت الولايات المتحدة على عدم تعاملها مع الفلسطينيين طالما كان عرفات مسئولا، فعين الفلسطينيون رئيس وزراء - أبو مازن - ليقود الوزارة مع عرفات باعتباره رئيسا شرفيا، والتقى بوش برئيس الوزراء الجديد، وكذا بالمثل مع ملك الأردن عبد الله، ورئيس وزراء إسرائيل شارون، وألزم الولايات المتحدة بالدعم الكامل لدولة فلسطينية وبخارطة الطريق، باعتبارها السبيل الذي سيوصل إلى هنالك، وبذهاب صدام، وبالتزام بوش، كما بدا فعليا، لاح شعاع من أمل للحظة، غير أن الديناميكيات القديمة عادت لتؤكد ذاتها، رفض شارون عمل أي شيء حتى يوقف الفلسطينيون كل أعمال العنف، وقد رفض بصورة خاصة وقف برنامج قوات الأمن الإسرائيلية الذي يستهدف قتل القادة الذين يشتبه فيهم كإرهابيين، وقد حاول الفلسطينيون إقناع مجموعاتهم المختلفة بوقف إطلاق النار، غير أنهم نجحوا جزئيا؛ لأن المستوطنات الإسرائيلية واصلت تمددها بعناد، وقد رفضت أقسام هامة من الفلسطينيين التخلي عن العنف، حتى بدأ الإسرائيليون التراجع من المستعمرات، وقد أحجم بوش عن ممارسة أي ضغط على شارون، وسرعان ما أثبتت خريطة الطريق أنها نهاية ميتة، وقد واصلت إسرائيل في تلك الأثناء بناء جدار أمني سوف يطوق في النهاية أقل بقليل من نصف الضفة الغربية الحالية، ويلحقها بشكل مؤثر بالأراضي الإسرائيلية، إنه بدون تدخل قوي من الولايات المتحدة أو الناتو، فإن الوضع يواصل تدهوره، وبينما يظل الأمر هو ذات اللعبة القديمة، من أوجه عديدة، فإن هنالك طريقا واحدا حاسما تختلف فيه الأمور، لقد أصرت إدارة بوش على أن الطريق إلى أورشليم يقع عبر بغداد، والتزمت بجهد كبير مع خارطة الطريق، في أعقاب غزو العراق، إن الذهاب إلى أورشليم قد أثبت أنه صعب كما كان من قبل، وأن بوش قد غسل بوضوح يديه من

الأمر، دون حله؛ مما يعنى أن مواصلته هى رشح للسم فى أكثر علاقات الولايات المتحدة الخارجية أهمية، إن القول بأن هذا الموضوع منفرد سيصبح سلاح الدمار الشامل لسياسة الولايات المتحدة الخارجية، ليس بالأمر الكثير للغاية.

وفى الشرق الأقصى، وصف قائد حكومة سنغافورة، رفيع المقام، الصين باعتبارها "شمسًا جديدة فى الكون"؛ مما يطرح مؤشرات عن حلولها محل الولايات المتحدة، كالقوة الرئيسية فى المنطقة، وأصبح ذلك واضحا بصورة كبيرة فى أكتوبر عام ٢٠٠٣ عندما قام الرئيس بوش بزيارة أستراليا، ثم تبعه بفترة قصيرة الرئيس الصينى "هو جينتاو"، وما كان يمكن للتناقض بين الزيارتين أن يكون أشد وضوحا مما كان، كان بوش متعجلا مُركزا فقط على مناقشة الحرب على الإرهاب مع القادة الأستراليين، ورغم أن أستراليا هى الحليف الثانى وثيق الصلة بأمريكا، بعد بريطانيا العظمى، فإنه أحس بالضيق من كثرة الأسئلة والتحديات عندما خاطب البرلمان، لم يضع فى برنامجه أى ظهور عام، واتجه للإجابة على ما طرحته الصحافة عليه من أسئلة، لكن "هو جينتاو" من الناحية الأخرى تجول فى البلد، ووقع اتفاقيات تجارية كبرى، ومما أثار الدهشة، بالنسبة لما يمكن أن يصدر عن قائد صينى، عقده بالفعل مؤتمرا صحفيا غير مكتوب، وبدا للمراقبين الذين يتابعون المشهد، منذ زمن طويل، وكأن أمريكا والصين تبادلتا المواقع، وقد لاحظ معلق أسترالى أن "بوش جاء، إلا أن جينتاو هو من تغلب"، إن أهمية كل هذا قد ظهرت لى خلال زيارة قريبة لى لأستراليا، عندما علق العديد من القادة الحكوميين ورجال الأعمال - بصورة مستقلة، أنهم يأملون ألاتُسأل أستراليا أن تختار بين أمريكا والصين، إن أحدا فى باقى منطقة آسيا - الباسفيك لن يضع الأمر على هذا النحو الفظ، لكن الإحساس متماثل عبر المنطقة. وكما قال لى قائد أندونيسى: "إن كل القادة الأمريكيين يرغبون فى الكلام عن المساعدة فى الحرب ضد الإرهاب، إنهم يظلون يكررون ضربنا لنوقف غسيل الأموال، ألا يعرفون أننا نعجز حتى عن جمع ضرائبنا نحن؟ إن الصينيين لا يرهقوننا بحقوق الإنسان والإرهاب، إنهم يتحدثون عن الأعمال والتجارة الحرة".

حقا، إنهم يفعلون ذلك، لقد شكلت الصادرات إلى الصين، خلال السنوات الماضية - الكتلة الكبرى للزيادة فى صادرات كل البلدان الأخرى فى المنطقة، بل وحتى الكثير، من خارج المنطقة، مثل البرازيل وشيلى، إن كوريا واليابان وتايوان وماليزيا وكل الآخرين مدينون بنموهم الحديث للصين فى غالب الأحوال، إن الصينيين يستخدمون الدبلوماسية ببراعة ليهدئوا من مخاوف المنافسة مع الصين، ولتكون المُيسر والصديق لكل جيرانها، الذين أدمنوا الاعتماد على الصين، بصورة متزايدة، ولا يوجد مثل هذا الإدمان فى أى مكان مثلما هو فى الولايات المتحدة؛ حيث أصبحت الصين جنبا إلى جنب مع اليابان، الممول الأساسى لعجز الولايات المتحدة التجارى، ومن ثم عاملا أساسيا فى تمكين الأمريكيين من الاستهلاك بأكثر مما ينتجون، وفى مثل تلك الحالات، فإنه من الصعب تصور رئيس أمريكى يضغط على الصين فيما يتعلق بحقوق الإنسان أو أى شىء آخر.

كان يجب فى نصف الكرة الغربى فى ١ يناير ٢٠٠٤ - أن يكون الاحتفال بالذكرى العاشرة لانطلاق "اتفاقية أمريكا الشمالية للتجارة الحرة (النافتا)، مناسبة لتبادل التهنئة، لكنها بدلا من ذلك ألقت فقط الضوء على التناقض بين الإرادة الطيبة والآمال الكبيرة خلال عشر سنوات مضت، والتوترات والمخاوف من الحاضر، هنالك سبب واحد لعدم تحقق الآمال الكبار التى استثمرت فيها، رغم أن إيجابياتها أكثر من سلبياتها، وهذا السبب هو أن الولايات المتحدة لا تنفذ فى الأساس العديد من الالتزامات التى تعد بها، فيما يتعلق بفتح أسواقها، كما لم تكن راغبة فى معالجة موضوعات مثل البنية التحتية، والتدريب، والهجرة والخدمات الاجتماعية، حقا، لقد كان رد فعل افتقاد الدعم المكسيكى والكندى لغزو العراق - معاقبة إدارة بوش لهما وتجاهلهما، بدأ هذا فى التغير فى الشهور القريبة، خاصة بالنظر إلى موضوعات الهجرة المكسيكية، التى هى هامة بالنسبة لانتخابات الولايات المتحدة، غير أن النقطة الأساسية هى أن الافتراض القديم للشراكة والقيم والأهداف المشتركة خاصة مع كندا - قد تم إنكاره، وحل محله فهم أكثر سخرية، وهذا صحيح أيضا فى أمريكا

الجنوبية حيث يواصل نفاق الولايات المتحدة، فيما يتعلق بالمخدرات والتجارة الحرة، كونه سببا للإحباط والعزلة.

ثم هنالك قضية هاتين المؤسستين المتعددتين اللتين أصيبتا بجراح خطيرة، الأمم المتحدة ومنظمة التجارة العالمية، لقد تعاملت إدارة بوش مع الأمم المتحدة كقوة أجنبية معادية، حتى أدركت فيما بعد الوقت الصحيح، الحاجة لمساعدة الأمم المتحدة فى إقناع آية الله السيستانى بالعمل مع مسئولى الولايات المتحدة لتشكيل حكومة عراقية مؤقتة فى يونيو عام ٢٠٠٤ ونتيجة ذلك أن السؤال حول إذا ما كانت الأمم المتحدة قادرة على لعب أى دور له معنى أو هدف فى المستقبل، مطروح إلى حد كبير للغاية على بساط البحث، إنها لا تستطيع أن تلعب اليوم دورا مثل ذلك الذى لعبته عام ١٩٩٩ فى إزاحة نظام تيمور الشرقية الجائر، وبداية بناء أمة جديدة، إن الأمم المتحدة تبدو مثل ديمقراطية وينستون تشرشل، أسوأ نظام لحكم العالم، باستثناء أن تكون كذلك لكل الباقين، وقد اكتشفت واشنطن فى العراق أنه لو لم يكن لديك أمم متحدة، فعليك أن تخترع واحدة.

ربما كانت تلك هى النقطة: إن الأمم المتحدة فى حاجة إلى إعادة ابتكار؛ حتى لا تتكرر الخطى الخاطئة للأعوام الثلاثة السابقة، لكن الولايات المتحدة - فقط - هى التى فى وسعها قيادة مثل هذا الجهد الذى لا يحتمل توقعه فى هذه المرحلة الحاسمة، ومن ثم، فإن الفرص مواتية كى تسير الأمم المتحدة على طريق "عصبة الأمم"، مع نتيجة تقول : إن مخاطر وتكاليف حراسة العالم يحتمل أن يكون على الولايات المتحدة أن تنهض بها.

إن مستقبل منظمة التجارة العالمية، فى أعقاب فشل المفاوضين فى تحقيق أى تقدم فى محادثات "كانكون" فى خريف عام ٢٠٠٣ يتسم أيضا بعدم الوضوح؛ إذ المفروض بعد سنوات من التعامل، بصورة أساسية، مع موضوعات ذات أهمية للبلدان النامية، أن تكون هذه الدورة، من المحادثات، مكرسة لفعل شىء من أجل البلدان النامية، وفى القلب من هذا الجهد توجد الزراعة، وفى القلب من المسألة الزراعية يوجد

القطن، وقد انهارت المباحثات فى كانكون لعدد مَن الأسباب، إلا أن سببا رئيسيا منها كان رفض الولايات المتحدة تقديم أى تخفيض له قيمة أو معنى من الدعم الزراعى المقدم إلى قطنها ومحاصيل أخرى، وقد بذلت الولايات المتحدة فى أعقاب هذا الفشل جهدا منفردا بهدف تخفيض عدد مما يسمى باتفاقيات التجارة الحرة الثنائية، غير أن ذلك يمكن عمله فقط بصورة نمونجية مع البلدان الصغيرة نسبيا، مع إنهاء عقد ذلك الخليط من الاتفاقيات التفضيلية المشابهة لتلك التى ساهمت فى كارثة الكساد العظيم فى الثلاثينيات.

ويواصل ثانى أوكسيد الكربون تراكمه، فى الغلاف الجوى، فى تلك الأثناء، وتواصل الثلاجات والغطاء الثلجى القطبى الانصهار، وتواصل الألغام الأرضية قتل وتشويه مئات الآلاف من النساء والأطفال كل عام، وتواصل تجارة الأسلحة الصغيرة ازدهارها، ويظل تدفق الكوكايين والهيرويين إلى داخل الولايات المتحدة فى كامل قوته رغم المزيد من رش محاصيل فلاحى أمريكا الجنوبية، وفرض مراقبة أشد صرامة على الممرات الجوية والبحرية، كما يواصل الإيدز نشر دماره فى إفريقيا، والآن أجزاء كبيرة فى آسيا، وتواصل مناسيب المياه انخفاضها مع ارتفاع أعداد السكان، وتضرب مبيعات سيارات الدفع الرباعى فى سوق سيارات الولايات المتحدة أرقاما قياسية، ولكن "هاى"(*) لقد نلنا من صدام، وارتفعت بورصة "الناسداك" إلى أكثر من ٥٠٪ عن العام الماضى، وازدهرت مبيعات سيارات الدفع الرباعى، إنها حقا كلما كبر حجمها زادت مبيعاتها، من ذا الذى يقول: إن بلدنا هذا بلد عظيم؟ هل تعرف أن الأجانب هم مجرد أناس يحسون الغيرة.

(*) للفت الانتباه أو التساؤل أو التعجب . (المترجم)

الهوامش

الفصل الأول

(١) "عمل قذر: لقد وضع السيد بوش مصداقية الولايات المتحدة فى خطر شديد". الجارديان، ٣٠ مارس، ٢٠٠١، ص ٢١.

(٢) كولومباني، جان – مارى "Nous somme tous Americains". "الموند باريس، فرنسا، ١٢ سبتمبر، ٢٠٠١.

(٣) كل اللقاءات فى هذا الكتاب قد أديرت ما بين إبريل ٢٠٠١ وأكتوبر ٢٠٠٢، فى الولايات المتحدة، أوربا، أمريكا اللاتينية وآسيا، هؤلاء الذين لم تذكر أسماؤهم هم الذين طلبوا بقاءها مجهولة.

(٤) كونستانتين، جوس، "امتدحت تايوان قسم بوش أن يفعل ذلك مهما اقتضى الأمر"، واشنطن تايمز، ٤ مايو، ٢٠٠١، ص أ ١.

(٥) "المضيف السويدى ينسف السياسات الخاطئة حول البيئة"، أسوشيتدبرس (أ ب) الصحافة الكندية، ١٤ يونيو، ٢٠٠١.

(٦) مركز أبحاث بيو للشعب والصحافة. ما الذى يفكر فيه العالم فى ٢٠٠٢: كيف يرى الرأى العام الكونى: حياتهم، بلدانهم، العالم، أمريكا. ديسمبر ٢٠٠٢.

الفصل الثانى

(١) باسيفيتش، أندرو ج. الإمبراطورية الأمريكية: الحقائق والنتائج لدبلوماسية الولايات المتحدة. كامبريدج، م أ: صحافة جامعة هارفارد، ٢٠٠٢، ص ١٢٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٨.

(٣) المرجع السابق ص ٧.

(٤) هينتينجتون، صامويل ب - "القوة العظمى المنعزلة". فورين أفيرز مارس/إبريل، ١٩٩٩، ص ٢٨.

(٥) حديث لجورج دبليو بوش. "دولية أمريكية بوضوح". سيمى فالى، كاليفورنيا، ١٩ نوفمبر ١٩٩٩، وباسيفيتش، ص ٢٠١.

(٦) مركز أبحاث بيو للشعب والصحافة. ما الذى يفكر فيه العالم فى ٢٠٠٢، ص ٧٠ - ٧١.

(٧) حديث الرئيس بوش يوم التخرج بأكاديمية ويست بوينت، ١ يونيو، ٢٠٠٢.

www.whitehouse.gov/news/releases/2002/06/2002601-3-html.

(٨) استراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية للأمن القومي. البيت الأبيض، سبتمبر، ٢٠٠٢،
http:/usinfo.state.gov/topical/pol/terror/secstrat.htmnHssintro.

(٩) أرمسترونج، دافيد. "أغنية ديك تشينى الأمريكية: وضع مسودة خطة للهيمنة الكونية". هاربرز. أكتوبر، ٢٠٠٢ . مجلد ٣٠٥، رقم ١٨٢٤، ص ٧٦ - ٨٢.

(١٠) "موجود وقت الخلق: مسح لدور أمريكا العالمى". الإيكونوميست. ٢٩ يونيو، ٢٠٠٢، ص ٥.

(١١) كريستول، إيرفينج. "الإمبراطورية الأمريكية البازغة". معهد المشروع الأمريكى، واشنطن دى سى. ١٨ أغسطس، ١٩٩٧.

(١٢) كينيدى، بول. "لقد حط النسر". فاينانشيال تايمز ٢٠ فبراير، ٢٠٠٢، ص ١.

(١٣) جونسون، شالمرز. "رد اللطمة: تكاليف ونتائج الإمبراطورية الأمريكية"، نيويورك: هنرى هولت ومساعده، ٢٠٠٠، ص ٣٦.

(١٤) وولفى ريتشارد. "التكنولوجيا تجىء بالقوة مع قليل من القيود". فاينانسيال تايمز. ١٨ فبراير، ٢٠٠٢، ص ١٤.

(١٥) "موجود وقت الخلق". الإيكونوميست. ٢٩ يونيو، ٢٠٠٢.

(١٦) صفحة حقيقة النشاط المالى الكونى: تقرير المناقشة العامة حول التمويل من أجل التنمية.www.un.org/reports/financing/profile.htm;and Quick Facts: Market Capitali-zation

www.nyse.com/market,info/market capitilization.htm.l

(١٧) "موجود وقت الخلق". الإيكونوميست. ٢٩ يونيو، ٢٠٠٢, وأوين، جيوفرى، "مشروع التكنولوجيا العضوية فى المملكة المتحدة: دور السياسة العامة". معهد ديبولد، ٢٠٠١.

(١٨) باربر، بنجامين ر. جهاد فى إس. مك وورلد: كيف تعيد العالمية والقبلية تشكيل العالم. نيويورك: كتب بالنتاين، ١٩٩٦، ص ٩٧ – ٩٩، وملحق ب.

(١٩) "قبول القوة الأمريكية"، الإيكونوميست. ٢٩ يونيو، ٢٠٠٢.

(٢٠) شيرمان، ويندى. "استمع إلى الجنوب، وتحدث إلى الشمال"، واشنطن بوست. ٢٤ ديسمبر، ٢٠٠٢، ص ١٥ أ.

(٢١) أوزاوا، إيشيرو. "برنامج عمل من أجل يابان جديدة". طوكيو: كودانشا إنترناشونال ليمتد، ١٩٩٤, نشر فى اليابان فى يونيو ١٩٩٣.

(٢٢) كريستول.

(٢٣) معهد التعليم العالى. "مضاهاة زيارة العام الماضى باعتبارها أعلى نمو منذ ١٩٨٠". ١٨ نوفمبر، ٢٠٠٢.

www.iie.org/content/ContentGroups/Amrouh

cements/International - student-Enroplement-in-u-s-Rose-6-4%25-In-20012002.htm.

(٢٤) جايا ديف، راج. أصحاب مشاريع سيليكون ڤالى احتاجوا إلى: "أين كنتم عندما يحتاج إليكم مجتمع أسيا الجنوبية؟ "باسفيك نيوز سيرفيس، ٢٢ نوفمبر، ٢٠٠١.

(٢٥) باربر، ص ٦٩.

(٢٦) مك دوجال، والتر أ. "أرض الميعاد، دولة الصليبى: الصدام الأمريكى مع العالم منذ ١٧٧٦، نيويورك: هوغتون ميفيلين ١٩٩٧.

(٢٧) مك دوجال، ص ١١٢.

(٢٨) مك دوجال، ص ١٤٧.

(٢٩) ترومان، هارى س. خطاب أمام الدورة المشتركة للكونجرس، ١٢ مارس، ١٩٤٧.

(٣٠) هيجز، روبرت. "الإنفاق العسكرى للولايات المتحدة فى حقبة الحرب الباردة: تكاليف الفرصة، الأزمات الأجنبية ، والقيود الداخلية " بولبسى أناليسس (تحاليل سياسية)، نوفمبر ١٩٩٨ ، المجلد ١١٤.

(٣١) نيكيرك، ويليام، ودافيد س. كلود. "كلينتون: إساءات تضع الصين فى الجانب الخاطئ من التاريخ، بكين مع الحد من مبيعات الأسلحة". شيكاغو تريبيون. ٢٠ أكتوبر، ١٩٩٧.

(٣٢) هاريس، جون ف. "جيانغ يكسب أعلى إطراء لكلينتون، نهاية رحلة، التفاؤل حول مستقبل الصين". واشنطون بوست. ٤ يوليو، ١٩٩٨، ص ١ أ.

(٣٣) جينجريتش، نيوت، "تجديد أمريكا". نيويورك: هاربر كولينز، ١٩٩٥.

(٣٤) حديث كوندوليزا رايس أمام مجلس لوس أنجلوس للشئون الخارجية، ١٥ يناير، ١٩٩٩.

www. Lawa.org./speech/rice.html.

(٣٥) فريدمان، توماس ل. "بيان رسمى من أجل العالم الشرقى"، نيويورك تايمز مجازين. ٢٨ مارس، ١٩٩٩، ص ٢.

(٣٦) باسيفيتش، ص ١٢٧، ويليام ج. كلينتون، "الاستراتيجية الوطنية من أجل قرن جديد"، واشنطن دى سى: ديانى للنشر، ١٩٩٨. ص ٨.

(٣٧) المنافسة الثانية للرئيس، جامعة ويك فورست، ١١ أكتوبر، ٢٠٠٠.

(٣٨) نيبوهر، رينهولد، "رجل أخلاقى ومجتمع غير أخلاقى: دراسة فى علم الأخلاق والسياسة"، نيويورك: سكريبنرز، ١٩٣٢، ص ٢٩٤.

(٣٩) شيستيرتون، ج. ك. "ما رأيته فى أمريكا". نيويورك: دود، ميد وشركاه، ١٩٩٢، ص ٧.

(٤٠) هينتينجتون، صامويل ب. "تآكل المصالح الوطنية الأمريكية"، فورين أفيرز، سبتمبر/ أكتوبر ١٩٩٧، مجلد ٧٦، رقم ٥

(٤١) ليبست، سيمور مارتين، "الاستثنائية الأمريكية: سيف ذو حدين". نيويورك/ لندن: و. و. نورتون، ١٩٩٦، ص ١٩.

(٤٢) الخطاب الوطنى للرئيس جورج دبليو بوش. ١١ سبتمبر، ٢٠٠١.

(٤٣) إيمرسون، رالف والدو. "الحرب". بوسطن. م أ: مارس، ١٨٣٨.

(٤٤) تيرنر، فريدريك جاكسون. "الحدود فى التاريخ الأمريكي". نيويورك: هنرى هولت، ١٩٢١، ص ٣٧.

(٤٥) "فى مديح ما لا يصح ذكره – رجال الأعمال وحب البشر والعمل على تعزيز السعادة الإنسانية". الإيكونوميست. ٢٠ يوليو، ٢٠٠٢، ص ٢٨.

(٤٦) إدارة الولايات المتحدة للصحة والخدمات البشرية، ويب سيت المركز الوطنى للاحصائيات الصحية،

www.cdc.gov/nchs/fastats/homicide.hem

(٤٧) "سياسة أمريكا الجنائية الصارمة لها نتائج غير مقصودة"، الإيكونوميست، ١٠ أغسطس، ٢٠٠٢.

(٤٨) ألان، ستيفن روبرت. "شرطة الولايات المتحدة الأمريكية". ويكلى اليبى. ٩ – ١٥ مارس، ٢٠٠٠.
www.alibi/2000-03-09/edit.htm و"العقد الدافع: تقديرات السجون فى الألفية". واشنطن دى سى: معهد سياسة العدالة، مايو ٢٠٠٠.

(٤٩) المسح السكانى الحالى المسح الديموجرافى السنوى، تكملة المسيرة. جدول "السن، الجنس، العلاقات الأسرية، السلالة والأصل الأمريكى اللاتينى – وضع فقر الشعب فى خصائص منتقاة فى ١٩٩٨". مكتب الولايات المتحدة للإحصاء الرسمى، روجع فى ١٥ ديسمبر، ١٩٩٩.

(٥٠) وورث، روبرت. "أمة تواجه التحدى: الاستخبارات، العملاء المطلوبون، يجب أن نتحدث الباشتونية".

(٥١) ماركيز، كريستوفر. "الأكثر يقولون نعم للخدمة الأجنبية، ولكن ليس للمهام الشاقة"، نيويورك تايمز. ٢٢ يوليو، ٢٠٠٢، ص أ ، ١.

(٥٢) بونر، رايموند. "مدارس باكستانية: حطام هزيل للعقول الجائعة"، نيويورك تايمز. ٣١ مارس، ٢٠٠٢، ص ٣.

(٥٣) داو جيمس. " المجموعة الآسيوية توافق على أهداف تنظيم الأسرة بسبب احتجاج الولايات المتحدة". نيويورك تايمز، ١٨ ديسمبر، ٢٠٠٢ ص أ ٧.

(٥٤) ويلز، جارى. "بلطجى العالم الحر"، فورين أفيرز. مارس/إبريل ,١٩٩٩ مجلد ٧٨، رقم ٢.

(٥٥) هينتينجتون.

(٥٦) هاس، ريتشارد، "تحديد السياسة الخارجية للولايات المتحدة فيما بعد – عالم الحرب الباردة". جمعية السياسة الخارجية، محاضرة إرثر روس لعام ٢٠٠٢، نيويورك. ٢٢ إبريل، ٢٠٠٢.

(٥٧) نى جوزيف س. الأصغر. "ملزم بالقيادة: الطبيعة المتغيرة للقوة الأمريكية. نيويورك: كتب أساسية، ١٩٩١ (إصدار معاد طبعه).

(٥٨) مونتيسكيو، شارلز لويس. "آراء حول أسباب عظمة الرومان وانحدارهم" دافيد لوينتال. نيويورك: الصحافة الحرة، ١٩٦٥، الفصل السادس – السلوك الذى استخدمه الرومان لإخضاع كل الشعوب.

(٥٩) ج.ر. (جون روبرت)، سير سيلى (١٨٣٤ – ١٨٩٥). الكلاسيكى، المؤرخ البريطانى، "توسع إنجلترا"، المحاضرة الأولى (١٨٨٤): .www.bartleby.com/66/58/48958.html

(٦٠) باترسون، توماس ج. ودنيس ميريل. "المشاكل الكبرى فى العلاقات الخارجية الأمريكية، المجلد ١: ١٩٢٠، الطبعة الرابعة، لكسينجتون إ م إيه: دى سى الصحة وشركاه، ١٩٨٩.

(٦١) براوس، ميشيل. "رؤساء طماعون، وسياسيون كذابون ومدرسون غشاشون"، فاينانشيال تايمز. ١٥ يونيو، ٢٠٠٢، ص ٣.

(٦٢) معهد الأبحاث الوطنى للتعليم المحلى، "حقائق حول التعليم الوطنى"، أغسطس، ١٩٩٩.

(٦٣) فريدمان، ص ٤٠.

(٦٤) مركز أبحاث نيو ستب والصحافة.

(٦٥) تقرير قمة المديرين التنفيذيين للتعاون الاقتصادى لآسيا والمحيط الهادى ٢٠٠٢: التحديات من أجل التنمية في حقبة عدم اليقين، قمة المديرين التنفيذيين للتعاون الاقتصادى لآسيا والمحيط الهادى، المكسيك، أكتوبر ٢٠٠٢.

(٦٦) هيرش ميتشيل: "بوش والعالم". فورين أفيرز. سبتمبر- أكتوبر ٢٠٠٢، ص ١٨.

الفصل الثالث

(١) شاندا، نايان. "مسح اقتصادى: إعادة بناء آسيا". فار إيست إيكونوميك رفيو. ١٢ فبراير، ١٩٩٨.

(٢) ستيجليتز، جوزيف. "العولة وما تثيره من سخط واستياء". نيويورك. و. و. نورتون، ٢٠٠٢، ص ٩٣.

(٣) وارد، إبراهيم. "الرأسمالية الصديقة: إدارة رأس المال طويل المدى، صندوق تغطية فوق الشبهات"، ليموند ديبلوماتيك. نوفمبر ١٩٩٨. www.mondediplo.com/1998/11/05warde2

(٤) كيتو، أليكس. "مراقبة البيت الأبيض: بوش يطالب سلطة سرعة العمل والحركة"، خدمات دو جونز الإخبارية. ٧ مايو، ٢٠٠١.

(٥) تويدتمان، جيمس. "باول: التجارة حيوية فى الحرب ضد الإرهاب". نيوز داى. ٢ فبراير، ٢٠٠٢.

(٦) ثورو، روجر وسكوت كيلمان. "معلق بخيط: فى الولايات المتحدة يزدهر زارعو القطن، وفى إفريقيا يقاتلون من أجل البقاء أحياء – المعونات الأمريكية تخفض الأسعار العالمية، وتدمر أهداف سياستها الخارجية". بذر بذور الإحباط. وول ستريت جورنال، ٢٦ يونيو، ٢٠٠١ ص ١.

(٧) "رفع الإنتاج فى ٢٠٠٣/٢٠٠٤، اللجنة الدولية الاستشارية للقطن. ٣ فبراير، ٢٠٠٣.

(٨) باديان، أومين، دهانشوار غورا، لويس جورو وبول ماسون. استراتيجيات قطاع القطن فى الغرب ووسط إفريقيا. أبحاث سياسة البنك الدولى. يوليو ٢٠٠٢.

(٩) ثورو، روجر، وسكوت كيلمان. ص ١.

(١٠) هوفباور، جارى كلايد وبن جودريش. "زمن المساومة الكبرى فى الصلب ملخص السياسة الاقتصادية العالمية، يناير ٢٠٠٢، المجلد ٢، رقم ١، جدول ٥.

(١١) هوفباور، جارى كلايد وبن جودريش.

(١٢) هويل، توماس، ويليام أ. نوبلرت، جيسى ج. كرير، وألان و. وولف. "الصلب والدولة: تدخل الحكومة وأزمة الصلب البنيوية". بولدر، وشركاه: ويست ڤيو برس، ١٩٨٨.

(١٣) إحصائيات تم حسابها من بيانات جمعها المعهد الدولى للحديد والصلب. مايو ٢٠٠٢.

(١٤) "جدول ١ الناتج كل ساعة فى الصناعة، ١٤ بلدا أو منطقة، ١٩٥٠ – ٢٠٠١". إدارة الولايات المتحدة للعمل، إحصائيات مكتب العمل. سبتمبر ٢٠٠٢.

www.bls.gov/news.release/prod 4.to 1.htm.

(١٥) من أجل حساب أكثر دقة لصناعة الصلب، فإننى أرشح كتاب توماس ر. هويل، "الصلب والدولة": تدخل الحكومة وأزمة الصلب البنيوية". انظر حاشية رقم ١٢.

(١٦) سيمان رودريك. "الخطاب القانونى لليابان". إبريل ١٩٨٣.

law.com/law letter/april 83/bed.htmwww.Japan

(١٧) ماى، برنهارد. "مشروع مارشال: دروس تاريخية وتحديات حالية فى البلقان"، المجلس الألمانى للعلاقات الأجنبية.

www. dgap.org/marshallplan.html., February 14,2003

(١٨) "تاريخ التكنولوجيا الأمريكية: صناعة السيارات، ١٩٤٠ - ١٩٩٩".

Web. bryant.edu/-history/h364 material/cars, cars - 60.htm.

(١٩) "المكسيك - الاتحاد الأوروبى، المكسيك تحتل المرتبة السابعة فى التجارة العالمية فى ١٩٩٨". خدمة إى إف إى للأخبار. ٥ مايو، ١٩٩٩.

(٢٠) دراسة البيانات الدولية. مجموعة البنك الدولى، إبريل ٢٠٠٢ devata.world bank.org

(٢١) "سى أو إف إيه سى إى لشراء خط سى إيه إن لاعتماد الأعمال فى أمريكا الشمالية" خط بى آر ١٨ نوفمبر ٢٠٠٢.

(٢٢) هوتون، ويل، "العالم الذى نحن فيه" لندن: ليتل، براون، ٢٠٠٢، ص ١٨٦.

(٢٣) تم حسابها من الإحصائيات الرسمية التجارية لحكومة الولايات المتحدة.

(٢٤) إسوشيتدبرس. "حراسة الشبكة". أنباء سى بى إس. ٢٢ نوفمبر ٢٠٠١.

(٢٥) لافيل ، لويس، مع فريدريك جيسبرسون وميشيل أرندت. "الدفع التنفيذى". بيزنيس ويك. ١٥ إبريل، ٢٠٠٢، ص ٨٠.

(٢٦) فريدمان، توم، "فورين أفيرز: بيج ماك ١". نيويورك تايمز، ٨ ديسمبر، ١٩٩٦.

(٢٧) "داخل متجر حلوى صينى: حياة أشياء جميلة ومرهقة"، بيزنيس ويك، أكتوبر، ٢٠٠٠، ص ٨٦.

(٢٨) الاقتصاد، إليزابيث. "طلاء الصين باللون الأخضر: الصراع الصينى - الأمريكى التالي". فورين أفيرز. ١ مارس، ١٩٩٩، المجلد ٧٨، رقم ٢، ص ١٦.

(٢٩) بونر/ رايموند. "الغابات الأندونيسية تحت الفأس من أجل أرضية الحجرات". نيويورك تايمز، ١٣ سبتمبر، ٢٠٠٢، ص أ ٣.

(٣٠) كوكوسون، كلايف. "مخزون الأسماك يواجه الانهيار الكونى"، فاينانشيال تايمز. ١٨ فبراير، ٢٠٠٢.

(٣١) "طلقات خضراء قليلة: قمة العالم فى جوهانسبرج". الإيكونوميست، ٢١ أغسطس، ٢٠٠٢، ص ٥٩.

(٣٢) سليمان، جاى. "كيف تكون أسواق مستر بامبانج، بيج ماكس، فى أندونيسيا المسلمة". أسيان وول ستريت جورنال. ٢٩ أكتوبر، ٢٠٠١.

(٣٣) باسو، كاوشيك. "العولمة وتهديدها للديمقراطية" السترايتس تايمز. ٣ مايو، ٢٠٠٢.

(٣٤) "التوقعات الاقتصادية للعولمة ٢٠٠٢: جعل التجارة تعمل من أجل فقراء العالم". البنك الدولى، نوفمبر ٢٠٠١.

(٣٥) تم حسابها من إحصائيات جُمعت من قسم الإحصائيات بالأمم المتحدة، ومؤتمر الأمم المتحدة حول التجارة والتنمية.

(٣٦) ميلمان، جويل. "إفساد عمل جيد: خروج الجولف" ذى وول ستريت جورنال، ٢٤ يوليو، ٢٠٠٢، ص أ ١٢.

الفصل الرابع

(١) بامبرجر، روبرت، اقتصاد وقود السيارات والشاحنات الخفيفة: هل سي إيه إف إي على مستوى المعايير؟ تقرير سي أر إس للكونجرس، حدث في ٣ أغسطس، ٢٠٠١.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) لانكاستر، جون، "النقاش حول اقتصاد الوقود يتحول إلى نقاش عاطفي"، واشنطن بوست، ١٠ ، مارس ٢٠٠٢، ص أ ١٢، وهوراه(*)، سي إيه إف إي تتجه إلى النزول" وشنجتون تايمز، ١٥ مارس، ٢٠٠٢، ص أ ٣٠.

(٥) جمعية اليابان لصناعة السيارات، "ارتفاع طفيف في أسعار الجازولين باليابان"، يابان أوتو ترندس، يوتيو ٢٠٠٠ المجلد الرابع، رقم ٢.

(٦) وكالة الطاقة الدولية، "إحصائيات أسعار وضرائب الطاقة ربع السنوية لعام ٢٠٠٢".

(٧) المرجع السابق.

(٨) الإدارة الوطنية لسلامة نقل الطرق العمومية، إدارة النقل بالولايات المتحدة.

(٩) الوكالة الدولية للطاقة (أي إيه ايه)، "معلومات عن كهرباء ٢٠٠٢".

(١٠) وكالة الموارد الطبيعية والطاقة (اليابان). "الطاقة في اليابان ٢٠٠٢". يونيو ٢٠٠١.

(١١) مركز اليابان للحفاظ على الطاقة. "استهلاك الكهرباء العالمي الأول، وفقا لإجمالي الناتج المحلي،. كتاب بيانات الحفاظ على الطاقة /١٩٩٩/ ٢٠٠٠،

(١٢) هو، باريشياس، "تقديرات إنفاق الولايات المتحدة العسكري فيما يتعلق بالدفاع عن مصادر إمداد النفط من الشرق الأوسط: محاضرة نظرة عامة"، المعمل الوطني أوك ريدج، تمت مراجعتها في أغسطس ١٩٩٧.

(*) هتاف استحسان وتشجيع (المترجم).

(١٣) ستيكيل، ريتشارد هـ. "تاريخ مستوى المعيشة فى الولايات المتحدة"، أنسيكلوبيديا شبكة إى إتش، تحرير روبرت هابلس، ٢٢ يوليو، ٢٠٠٢،

www.eh.net/encyclopedia/steckel. standard.living-us.php.

(١٤) آدامز، شين باتريك. "صناعة الفحم فى الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر" أنسيكلوبيديا شبكة إى إتش، تحرير روبرت وهابلس. ٢٤ يناير، ٢٠٠٣.

(١٥) وكالة الولايات المتحدة لحماية البيئة. "بصمة الماضى: التاريخ الإيكولوجى لرفأ نيو بيدفورد"، ٢٢ إبريل، ٢٠٠٢ .www.epa.gov/nbh/html/whaling.html

(١٦) ستيكيل.

(١٧) إن الكثير من هذا التفسير لتاريخ صناعة النفط مأخوذ من كتاب دافيد يرجين الحائز على جائزة بوليتزر. "الجائزة: المطلب الملحمى للنفط، النقود والقوة". (نيويورك: سيمون وسشوستر، ١٩٩١)، وهو كتاب يوصى بقراءته بقوة لهؤلاء الذين يرغبون فى قراءة تفسير تفصيلى دقيق لصناعة النفط.

(١٨) يرجن، ص ٣٠.

(١٩) ستيكيل.

(٢٠) يرجين، ص ٢٠٨.

(٢١) المرجع السابق، ص ١٧٨، ١٨٣.

(٢٢) المرجع السابق، ص ٢٧٩.

(٢٣) المرجع السابق، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٢٤) المرجع السابق، ص ٥٥١.

(٢٥) المرجع السابق، ص ٥٥٣.

(٢٦) إحصائيات تاريخية للولايات المتحدة: من الأزمان الكولونيالية إلى ١٩٧٠ سلسلة إم ١٣٨ - ١٤٢، فى الجزء رقم ١، ص ٥٩٣، سلسلة إم ١٧٨ - ١٨٧، فى الجزء رقم ١، ص ٥٩٦، إدارة الولايات المتحدة للتجارة، مكتب الإحصاء الرسمى، واشنطن دى سى. ١٩٧٥.

(٢٧) يرجين، ص ٥٦٧.

(٢٨) المرجع السابق، ص ٥٦٧.

(٢٩) المرجع السابق، ص ٥٦٧.

(٣٠) المرجع السابق، ص ٥٦٨.

(٣١) المرجع السابق، ص ١٥٧ - ١٦٤.

(٣٢) المرجع السابق، ص ٤٢٥.

(٣٣) المرجع السابق، ص ٥٥٥.

(٣٤) المرجع السابق، ص ٦٠١.

(٣٥) المرجع السابق، ص ٦١٦.

(٣٦) المرجع السابق، ص ٦٣٥.

(٣٧) المرجع السابق، ص ٤٢٨.

(٣٨) المرجع السابق، ص ٥٥٢.

(٣٩) أتشيسون، دين، "موجود وقت الخلق، سنواتى فى وزارة الخارجية"، نيويورك و.و. نورتون، ١٩٨٧، ص ٥٦٨.

(٤٠) يرجين، ص ٧١٨.

(٤١) ناومان، مات، "مبيعات، الطلب ينتعش على السيارات الهجين"، سان جوسيه ميركيور نيوز، ٤ يناير، ٢٠٠٣.

(٤٢) الطاقة فى اليابان، وزارة التجارة الدولية والصناعة، يونيو ٢٠٠١.

(٤٣) يرجين، ص ٦٥٥.

(٤٤) ملخص تحليل وكالة معلومات الطاقة (إى أى إيه) للبلد، فرنسا.

www.eia.doe.gov/emeu/cabs/crance.html.

(٤٥) وكالة الطاقة الدولية، "توفير النفط وتخفيض انبعاثات ثانى أوكسيد الكربون فى نظام النقل: اختيارات واستراتيجيات"، منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية/ وكالة الطاقة الدولية، ٢٠٠١، ص ٢٣.

(٤٦) إدارة معلومات الطاقة. "استهلاك الطاقة العالمى الأول لكل فرد (بى تى يو)، ١٩٨٠ - ٢٠٠٠".

www.eia.doe.gov./pub/international/ieall/tableelcx.ps.

(٤٧) يرجين، ص ٦١٧.

(٤٨) المرجع السابق، ص ، ٦٦٠.

(٤٩) المرجع السابق، ص ٦٦٠

(٥٠) المرجع السابق، ص ٦٦٠ - ٦٦١.

(٥١) المرجع السابق، ص ٦٦٢.

(٥٢) المرجع السابق، ص ٦٩٥ - ٦٩٦.

(٥٣) وكالة معلومات الطاقة، استهلاك الطاقة العالمى الأولى لكل دولار من إجمالى الناتج المحلى" ١٩٨٠ - ٢٠٠٠.

(٥٤) وكالة معلومات الطاقة، "ملخص تحليل البلد، كندا"، ديسمبر ٢٠٠٢.

(٥٥) مقرر القانون البيئي، "الخطة الوطنية للطاقة: لا نجاح بعد الجولة الأولى"، ١٩٧٧، روم، جوزيف، "الحاجة إلي: سياسة للطاقة لا تعرف الندم"، بوليتين أوف أتوميك سينتيستس، يوليو/ أغسطس ١٩٩١، المجلد ٤٧، رقم ٦.

(٥٦) وكالة معلومات الطاقة، "استهلاك الطاقة العالمي الأولي بالنسبة للفرد (بي تي يو)، ١٩٨٠ - ٢٠٠٠".

(٥٧) وكالة معلومات الطاقة، "المراجعة السنوية للطاقة ١٩٩٧"، دي أو إي/إي آي إيه - ٣٨٤، يوليو ١٩٩٨، جدول ٢٢، ٥.

(٥٨) وكالة معلومات الطاقة، "ملخص حول البترول ١٩٤٩ - ٢٠٠٠". المراجع السنوية للطاقة ٢٠٠٠، ص ١٢٣.

(٥٩) وكالة حماية البيئة (إي بي إيه)، "متوسط قوة القرية بالحصان في الولايات المتحدة"، تكنولوجيا صناعة سيارات خفيفة - الخدمة واتجاهات اقتصاد الوقود خلال ١٩٩٦، إي بي إيه/ إيه إيه/ تي دي إس جي/ ٩٦ - ١.

(٦٠) وكالة معلومات الطاقة، "سعر التجزئة لكهرباء الولايات المتحدة"، المراجعة السنوية للطاقة ١٩٩٧، إدارة الطاقة (دي أو إيه) وكالة معلومات الطاقة - ٣٨٤، يوليو ١٩٩٨. جدول ١٣، ٨.

(٦١) جمعية صناع ما يستعمل محليا، "فاعلية ثلاجة جديدة متوسطة في الولايات المتحدة"، طاقة الثلاجات والاتجاهات الاستهلاكية. ١٤ يوليو، ١٩٧٧.

(٦٢) "الاحتياطي الاستراتيجي للبترول"، إدارة الطاقة بالولايات المتحدة www.fe.doe.gov/spe.

(٦٣) روم، ٤٧: ٦.

(٦٤) يرجين، ص ٧٦٩.

(٦٥) المرجع السابق، ص ٧٦٩.

(٦٦) المرجع السابق، ٧٦٩.

(٦٧) سوليفان، ألانا. "خيارات الطاقة، لن يكون الأمر سهلا، لكن الولايات المتحدة يمكنها أن تخفف الاعتماد على نفط العرب وغازهم الطبيعي، الآبار المحلية، يمكن للناتج السوفيتي أن يساعد إن إرتفع السعر بما يكفي - لا تعتمد على طواحين الهواء"، وول ستريت جورنال. ١٧ أغسطس ١٩٩٠، ص ١، ١.

(٦٨) يرجين، ص ٧٧٢.

(٦٩) يرجين، ص ٧٧٢، وروم.

(٧٠) كلارك، مارك ت. "القلق مع الأمن الجماعي"، أوربيس. ٢٢ مارس، ١٩٩٥، المجلد ٣٩، الإصدار الثاني، ص ٢٣٧.

(٧١) روم.

(٧٢) المرجع السابق.

(٧٣) براون، ليستر ر. جارى جاردنر، وبريان هالويل. "١٦ أثر للنمو السكانى"، ذى فيوتشر ست. ١ فبراير، ١٩٩٩.

(٧٤) موريز، إيرنست ج. "أمن الطاقة"، شهادة فى الكونجرس تقدمها غرفة إجازة الوثائق.

(٧٥) سكولمان، بروس ج. "أزمة الطاقة: أمريكا تحفظ سترتها الصوفية فى مكان واق". لوس أنجلوس تايمز، ١٣ مايو، ٢٠٠١.

(٧٦) سكنيدر، ويليام. "أمريكا تبقى على الشحن بالتأملات"، ناشونال جورنال، ٢٣ مارس، ٢٠٠٢.

(٧٧) المرجع السابق.

(٧٨) الأمم المتحدة. "توقعات بخصوص سكان العالم، مراجعة عام ٢٠٠٠"، المجلد ١: جداول شاملة. نيويورك، ٢٠٠١.

(٧٩) مورس، إدوارد ل. وجيمس ريتشارد، "المعركة للهيمنة على الطاقة"، فورين أفيرز، مارس / إبريل، ٢٠٠٢.

(٨٠) المرجع السابق.

(٨١) المرجع السابق.

(٨٢) وولسى، ر. جيمس، "تعطيل سلاح النفط". وول ستريت جورنال. ١٩ سبتمبر ٢٠٠٢، ص أ ١٦، ومورس، ص ١٦.

(٨٣) ديكى، كريستوفر، "ملوك البترول ذات مرة وفى المستقبل"، نيوزويك، ٨- ١٥ إبريل، ٢٠٠٢، ص ٤٠.

(٨٤) سكنيدر.

(٨٥) هربرت، هـ. جوزيف، "مجلس الشيوخ يرفض معايير اقتصادية جديدة منظمة لوقود السيارات". أسوشيتدبرس، ١٣ مارس، ٢٠٠٢.

(٨٦) لوفينز، أ. "مشاكل قديمة، حلول جديدة". وورلد لينك، يوليو/ أغسطس، ٢٠٠٢.

(٨٧) المرجع السابق.

(٨٨) وولسى، ص.أ ١٦.

(٨٩) لاكايو، ريتشارد. "المبانى التى تتنفس: أفضل ما فى فن العمارة الجديد استخدامه للطبيعة بدلا من محاربتها". تايم. ٢٦ أغسطس، ٢٠٠٢، المجلد ١٦٠، رقم ٩، ص ٣٦ أ.

(٩٠) "صناعة خلية الوقود تتجه إلى الاشتعال التجارى"، مانيو فاكتشورينج نيوز، ١٦ يوليو، ٢٠٠٢، ص ٩.

(٩١) "مؤيدو الحرب، مجموعة ضغط معارضة للتأثير على ميزانية ف ى - ٤٠". إنسايد ذى بنتاجون. ٣٠ يناير، ٢٠٠٢، المجلد ١٩، رقم ٥.

الفصل الخامس

(١) ديكى، كريستوفر وآدم روجرز، وآخرون. "دخان ومرايا. كان رد فعل العالم غاضبا عندما رفض الرئيس بازدراء فى الصيف الماضى معاهدة كيوتو لتخفيض الانبعاثات الحرارية، ولم تأت له خطته الجديدة بأى أصدقاء أيضا"، نيوزويك إنترناشونال، الطبعة الأطلنطية، ٢٥ فبراير، ٢٠٠٢.

(٢) بيانين، إريك. "الولايات المتحدة تهدف إلى الانسحاب من اتفاقية الاحتباس، الحرارى، "لا مصلحة" فى تطبيق ميثاق كيوتو، يقول هويتمان"، واشنطن بوست، ٢٨ مارس ٢٠٠٢.

(٣) "الرئيس بوش يناقش التغير المناخى الكونى". ١١ يونيو، ٢٠٠١.

www. White-house.gov/news/releases/2001/06/20010611-2.html.

(٤) كريستى، ميشيل، "حالة غضب عندما تلقى الولايات المتحدة بكيوتو". دايلى تلجراف. ٣١ مارس، ٢٠٠١.

(٥) "عمل قذر" . الجارديان. ٣٠ مارس، ٢٠٠١.

(٦) بيانين، إريك، "رئيس وكالة حماية البيئة يمارس ضغطا أمام تحول بوش عن الانبعاث، تفاصيل مذكرة هويتمان التى تلتمس التزاما رئاسيا". واشنطن بوست. ٢٧ مارس، ٢٠٠١، ص أ ٧.

(٧) كريستيان سون، ص ١٦٨ - ١٦٩، ومولينا، ماريوج. د ف س. رولاند، "الهبوط الستراتوسفيرى(*) بسبب مجموعة الكلوروفلورو ميثان - ذرة كلور - حفزت تدمير الأوزون". ناتشور، ٢٤٩, ٢٨ يونيو، ١٩٧٤، ص ٨١٠ - ٨١٢.

(٨) كريستيان سول، جال، "الصوبة: قصة المائتى عام من الانبعاث الحرارى الكونى"، نيويورك: كتب بنجوين، ٢٠٠٠، ص ١٦٩.

(٩) فار مان، ج ك ب ج. جاردينز، ود.ج.د. شانكلين. "خسائر كبرى للأوزون الكلى فى أنتاركتيكا(**) كشفت عن تفاعل موسمى لثانى أوكسيد الكربون وأوكسيد النيتروز، ناتشوز. ١٩٨٥، مجلد ٣١٥، ص ٢٠٧ - ٢١٠.

(*) الجزء الأعلى من الغلاف الجوى (المترجم).

(**) قارة غير مأهولة تقع حول القطب الجنوبى (المترجم).

(١٠) "أسباب وتأثيرات التغيرات فى الأوزون الستراتو سفيرى: حدث فى ١٩٨٣". ناشونال أكاديمى برس، واشنطن، دى سى. ١٩٨٤.

(١١) كريستيان سون، ص ١٩٤.

(١٢) المرجع السابق، ص ١٩٥.

(١٣) هولدر، فانيسا، وكليف كوكسون. "وداعا ثقب السماء"، فاينانسيال تايمز. ٢١-٢٢ سبتمبر، ٢٠٠٢.

(١٤) من أجل وصف حياة وعمل فورييه، انظر الفصل الأول. "الجيلوتين والناقوس الزجاجي"، فى كريستيان سون، نفس المرجع، ص ٣ - ١٢.

(١٥) كريستيان سون، ص ١١٣.

(١٦) كاليندار، ج. س. "الإنتاج الصناعى لثانى أوكسيد الكربون وأثره على درجة الحرارة. الجريدة ربع السنوية للجمعية الملكية للأرصاد الجوية ١٩٣٨.

(١٧) المرجع السابق، ص ١٥٥.

(١٨) المرجع السابق، ص ١٦٧.

(١٩) جيلبسبان، روس. "الحرارة مستمرة: أزمة المناخ، الغطاء، وصفة العلاج. بوسطن: فرساوس(*) للنشر، ١٩٩٨، ص ١٣٦- ١٣٩.

(٢٠) ساروينز، دانييل، روجر بيلكى الصغير. "تحطيم الازدحام الخانق للاحتباس الجرارى الكونى". أتلانتياك مونثلى، يوليو، ٢٠٠٠.

(٢١) سكيندر، ستيفن. "نظم الأرض الهندسية والإدارية"، ناتشور. ١٨ يناير، ٢٠٠١.

(٢٢) كريستيان سون، ص ١٧١.

(٢٣) كيلوج، ويليام/ ومرجريت ميد. "الغلاف الجوى: عرضة للخطر، وهو خطير، مطبوعات كاسيل هاوس، ١٩٧٧.

(٢٤) جيلبسبان، ص ١٣٩.

(٢٥) كريستيان سون، ص ٢١٦.

(٢٦) المرجع السابق، ص ٢١٨.

(٢٧) المؤتمر الدولى للبيئة يحث على فرض ضريبة على الوقود"؟ رويترز نيوز. ١ يوليو، ١٩٨٨.

(*) بطل من أبطال الميثولوجيا الإغريقية (المترجم).

(٢٨) كريستيان سون، ص ١٩٧.

(٢٩) كريستيان سون، ص ١٩٦.

(٣٠) تعليق من ريتشار ليندزن. وول ستريت جورنال. ١١ يونيو، ٢٠٠١.

(٣١) هوغتون، ج.ت، ج. ج. جنكينز، و ج ج. أفراومس، محرر "التقييمات العلمية لتغير المناخ: تقرير مجموعة العمل أ". لندن: مطبعة جامعة كمبريدج، المملكة المتحدة، ١٩٩٠.

(٣٢) كريستيان سون، ص ١٧٦ – ١٧٧.

(٣٣) المرجع السابق، ص ١٨٠.

(٣٤) المرجع السابق، ص ١٧٨.

(٣٥) شارفولين، فلوريان. "١٩٧٠: العام مفتاح تعريف البيئة في فرنسا"، ربى دهيستوار دى سى إن إر إس. مايو ٢٠٠١، رقم ٤.

(٣٦) سيب، جيرالدف، "إنه ضد المطر الحمضي، إنه العدو أيضا، هكذا يقول العديد من المهتمين بالبيئة، إنه جون سونونو". وول ستريت جورنال، ٢ مارس، ١٩٩٠.

(٣٧) نيلسون، دانييل. "معارك المشاهد الخلفية في التمهيد لمؤتمر البيئة الضخم في ريو عام ١٩٩٢". جارديان، ٢٩ مارس، ١٩٩١.

(٣٨) ماتيوس، جيسيكا. "الغوريلا في الصوبة"، واشنطن بوست. ٢٥ يوليو، ١٩٩١.

(٣٩) جتفلد، روز، "لقد وضعت قمة الأرض بوش في مأزق: الموضوع إذا ما كان سيحضر اجتماع البرازيل"، وول ستريت جورنال، ٧ إبريل، ١٩٩٢.

(٤٠) ويسكوبت، ميتشيل. "الألمان يقوبون في مسرح ريو، والولايات المتحدة في موقف المتفرج، الأوروبيون يقدمون مبادرة حول البيئة "واشنطن بوست ١٣ يونيو، ١٩٩٢، وديفروى، أن. "بوش يصرف النقاد بعنف، الرئيس يمتدح نتائج الرحلة المثيرة للقلق"، واشنجطون بوست. ١٤ يونيو، ١٩٩٢.

(٤١) "بوش الأكثر خضرة". الإيكونوميست. ١٥ فبراير، ٢٠٠٣.

(٤٢) جور، البرت. "الأرض في الميزان". نيويورك: كتب بلوم، ١٩٩٣.

(٤٣) كومبيند نيوز سرفيسيس. "جينجريتش يضيء بطاقته الخضراء، ولكن هل بهت اللون؟ سولت ليك تريبون. ٧ فبراير، ١٩٩٥، ص أ .

(٤٤) خطاب الجمهوري، جيم هانسن إلى ناخبيه في أوتاه. ١٨ ديسمبر، ١٩٩٤.

(٤٥) تعليق دون يونج على الانكوراج دايلي نيوز، مراجعة الناطق الرسمي، ١٨ ديسمبر، ١٩٩٦.

(٤٦) تعليق دون يونج على راديو ألاسكا العام في أغسطس ،١٩٩٦ سولت ليك تريبيون، ١ ديسمبر، ١٩٩٦.

(٤٧) تسجيل من الكونجرس، بيانات الحكومة الصحفية بواسطة غرفة إجازة الوثائق الفيدرالية، ٣١ يناير، ١٩٩٦.

(٤٨) جيلبسبان، ص ١ – ٣.

(٤٩) "تقارير العلماء عن تصدع رف الجليد بالقطب الجنوبي"، شبكة الاحتباس الحرارى الكونية أون لاين اليوم ٢٨ مارس، ١٩٩٥.

(٥٠) جيلبسبان، ص ١٥.

(٥١) تقرير التقييم الثانى لهيئة ما بين الحكومات المعنية بتغير المناخ: تغير المناخ ١٩٩٥".

(٥٢) سزاموسزيجى، أندرو ز لورانس شيميرين وكلايدف. بريستوويتز الصغير. "النقاش حول المناخ الكونى: الإبقاء على الاقتصاد دافئا والكوكب باردا"، دراسة قام بها معهد الاستراتيجية الاقتصادية ومنظمة التعاون الاقتصادى والتنمية. سبتمبر ,١٩٩٧ ص ١٤.

(٥٣) جيلبسبان، ص ٤.

(٥٤) كريستيان سون، ص ٢٥٦.

(٥٥) واطسن، تراسى، "معاهدة الاحتباس الحرارى الكونى معلقة فى هواء رفيع"، الولايات المتحدة الأمريكية اليوم. ١ ديسمبر، ١٩٩٧، ص ٦ أ.

(٥٦) هال، ميمى. "إن مدخل قيد – كيوتو يقبل بمخاطرات سياسية من أجل تحقيق الرحلة". الولايات المتحدة الأمريكية اليوم، ٢ ديسمبر، ١٩٩٧، ص ٨ أ.

(٥٧) كريستيان سون، ص ٢٦٦ – ٢٦٧.

(٥٨) ثوننج مارجو."بروتوكول كيوتو، سياسة تغير المناخ والنمو الاقتصادى للولايات المتحدة"، المجلس الأمريكى لتكوين رأس المال (إيه سى سى إف)، مركز بحث السياسات، تقارير خاصة. أكتوبر ١٩٩٨.

الفصل السادس

(١) مشكلة تاريخ الألغام الأرضية. المؤسسة الكندية للألغام الأرضية.

www. Canadian landmine.org/landmine brop-History.cfm.

(٢) فهريباك، بوب. "استخدام الألغام الأرضية لا يقدم فوائد عسكرية للولايات المتحدة"، لانسينج ستيت جورنال. ١٤ يناير، ٢٠٠٣.

(٣) هويت، أندرو. "استيراد الكتب". ملتينا شونال مونتير. يناير ١٩٩٥.

(٤) حملة حظر الألغام الأرضية: الحملة العالمية لحظر الألغام الأرضية تدين سياسة الألغام الأرضية لإدارة كلينتون. ١ سبتمبر، ١٩٩٦.

(٥) ديون، نانسي. "على كلينتون أن يعمل على إنهاء الألغام الأرضية"، فايننشيال تايمز. ١٧ مايو، ١٩٩٦.

(٦) تيرنر، كريج. "كندا سوف تقدم معاهدة حول الألغام الأرضية في العام القادم". لوس أنجلوس تايمز، ٦ أكتوبر، ١٩٩٦.

(٧) ملاحظات للرئيس كلينتون حول الألغام الأرضية. البيت الأبيض. ١٧ سبتمبر، ١٩٩٧.

(٨) المرجع السابق.

(٩) خطاب مفتوح للرئيس كلينتون، منشور في نيويورك تايمز. ٣ إبريل، ١٩٩٦.

(١٠) ملاحظات للرئيس كلينتون حول الألغام الأرضية، البيت الأبيض، ١٧ سبتمبر، ١٩٩٧.

(١١) ستيوارت، جون س. "من تبقى حيا يحتج على رفض توقيع معاهدة الألغام الأرضية"، روكي مونتين نيوز، ٢ مارس، ١٩٩٦.

(١٢) كالمس، جاكي. "معاهدة الألغام الأرضية تثير الشك". وول ستريت جورنال. ٢ أغسطس، ٢٠٠١، ص أ ١.

(١٣) المحاربون القدماء يحثون بوش على توقيع معاهدة الألغام الأرضية. أسوشيتدبرس. ٢٦ فبراير، ٢٠٠٢.

(١٤) كيلرهالس، ميرل د. الصغير. "نجاح مؤتمر الأمم المتحدة للأسلحة الصغيرة، رسمي من الولايات المتحدة يقول: خطة العمل تركز على حظر التجارة غير المشروعة في الأسلحة". ٢٠ أغسطس، ٢٠٠١.

http://usinfo.state.gov/topical/pol/arms/stories/0/01082001.htm.

(١٥) بك، دون. "تجارة البنادق". أتلانتيك مونثلي. ديسمبر ٢٠٠٢، المجلد، ٢٩، رقم ٥.

(١٦) كيلر هالس. "الأسلحة الصغيرة في دول عاجزة، تركيبة قاتلة". مركز معلومات الدفاع، ١٩٩٩.

(١٧) لورانس، إي دي. "مسح ٢٠٠٢ للأسلحة الصغيرة". نيويورك: صحافة جامعة أوكسفورد، سبتمبر ٢٠٠٢، ص ٢٠٦.

(١٨) بولتون، جون، خطاب عام وكيل وزارة التحكم في الأسلحة والأمن الدولي إلى مؤتمر الأمم المتحدة حول حظر التجارة في الأسلحة الصغيرة والأسلحة الخفيفة. نيويورك. ٩ يوليو، ٢٠٠١.

(١٩) المرجع السابق.

(٢٠) لينزر، دافينا، "مؤتمر الأسلحة الصغيرة ينتهي بنصر للولايات المتحدة". أسوشيتد برس، ٢١ يوليو، ٢٠٠١.

(٢١) راوم، توم. "معاهدة الأسلحة تلفظ أنفاسها اليوم، الكثيرون يتضررون من انسحاب الولايات المتحدة الأمريكية من الاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية". أسوشيتدبرس. ١٣ يونيو، ٢٠٠٢.

(٢٢) سير جييف، مارشال. "كبار الضباط الروس يعدون ردا في حال تخلي الولايات المتحدة عن الاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية". ديلي نيوز بوليتين، ٢٦ ديسمبر، ٢٠٠٠.

(٢٣) راوم.

(٢٤) "العالم: مجلس شيوخ الولايات المتحدة الأمريكية يرفض معاهدة حظر التجارب". بي بي سي نيوز. ١٤ أكتوبر، ١٩٩٩،

http://news.btc-co.uk/1/hi/world/americas/474220.stm.

(٢٥) نيتز، بول هـ. "تهديد لنا في الغالب"، نيويورك تايمز. ٢٨ أكتوبر، ١٩٩٩، ص ٣١، عمود ٢.

(٢٦) "تحليل اتجاهات المصوتين فيما يتعلق بمعاهدة الحظر الشامل للتجارب". مستطلعي الرأي من مجموعة ميلمان، ضمنا و ويرثلين ورلد وايد، ٢٩ يونيو، ١٩٩٩.

(٢٧) ديوتش، جون، هنري كسينجر، وبرنت سكا وكروفت. "معاهدة حظر التجارب: دعونا نتريث قليلا"، ذي واشنطن بوست. ٦ أكتوبر، ١٩٩٩.

(٢٨) سجل الكونجرس الـ ١٠٦ – الكونجرس ١٣ أكتوبر، ١٩٩٩، ص س ١٢٥٤٩.

(٢٩) "تقرير: لقد استخدمت الولايات المتحدة غاز الأعصاب ضد المرتدين في فيتنام"، أسوشيتدبرس نيوز ويرز. ٨ يونيو، ١٩٩٨.

(٣٠) نالدر، إريك. "مخبأ مسن لغاز الأعصاب – إن حظر الولايات المتحدة لحرق المخازن الضخمة للذخائر الكيميائية العتيقة في أوريجو مخاطرها". ذي سياتل تايمز. ١٧ يناير، ١٩٩١، ص أ ١.

(٣١) داسشل، تيماس. "قرار تنفيذي لمجلس الشيوخ ٧٥، قرار بالموافقة على تصديق الولايات المتحدة على اتفاقية الأسلحة الكيميائية"، بيانات صحفية للحكومة بواسطة غرفة إجازة الوثائق الفيدرالية. ٢٢ إبريل، ١٩٩٧.

(٣٢) المرجع السابق.

(٣٣) إدواردز، روب. "حرب بالدموع". نيوسايتنتيست. ١٦ ديسمبر، ٢٠٠٠، ص ١٤.

(٣٤) "الولايات المتحدة توقف محادثات حرب الجراثيم". يوركشاير بوست. ٢٦ يوليو، ٢٠٠١، ص ١٢.

(٣٥) هيجينز، ج. الكسندر. "الولايات المتحدة ترفض الاتفاق المضاد لحرب الجراثيم". أسوشيتدبرس أون لاين، ٢٥ يوليو، ٢٠٠١.

(٣٦) بروجر، سيث. "اتفاقية الأسلحة الكيميائية ترحل أساسا بناء على مبادرة من الولايات المتحدة"، آرمز كونترول توداى. ١ مايو، ٢٠٠٢.

(٣٧) "دبلوماسية السموم – أحادية الولايات المتحدة تدعى ضحية أخرى"، جارديان. ٢٤ إبريل، ٢٠٠٢، ص ١٧.

(٣٨) "لم يكسب شيء من غضبة أمريكا الكونية". كانبيرا تايمز. ٢١ يوليو، ١٩٩٨، ص ٩.

(٣٩) سكميت، ميتشيل، "فى المياه غير المدونة على خريطة المحكمة الجنائية الدولية"، نافال وور كولينج رفيو. ١ يناير، ٢٠٠٠.

(٤٠) نيوفر، اليزابيث أ. "الولايات المتحدة تحنث بوعدها لممثل خطة المحكمة الدولية: يمكن (ألا يوقع) فريق بوش المعاهدة". بوسطن جلوب. ٢٩ مارس، ٢٠٠٢، ص ٢٢ أ.

(٤١) جوردن، هوجو. "يجب ألا توقع الولايات المتحدة كيوتو". وول ستريت جورنال يوروب. ١١ أكتوبر، ٢٠٠٢، ص ٦ أ.

(٤٢) ميرستين، أريل. "مجلس الأمن يمنح الولايات المتحدة حصانة من المحكمة الدولية ١٢ شهرا"، ٢٣ يوليو، ٢٠٠٢.

www.crimesofwar.org/print/onnews/iccimunity-print.html.

(٤٣) الإنفاق العسكرى للولايات المتحدة ١٩٤٥ – ١٩٩٦"، مركز معلومات الدفاع.

www.cdi.org/issues/milspend.html.

(٤٤) التقويم العسكرى، ٢٠٠١ – ٢٠٠٢"، مركز معلومات الدفاع.

www.cdi.org/products/almanac/milspend.html.

(٤٥) ليبرت، ديريك. "جرح الخمسين عاما: الثمن الحقيقى لانتصار أمريكا فى الحرب الباردة"، نيويورك: ليتل براون وشركاه، ٢٠٠٢، ص ٢٥١.

(٤٦) مينتز، جون. "أفعال الولايات المتحدة لتقاوم حظر الصواريخ ضد طائرات الخطوط الجوية"، واشنجطون بوست، ١٥ يناير، ٢٠٠٣، ص أ ١.

(٤٧) جونسون، شالميرز. "رد اللطمة: تكاليف ونتائج الإمبراطورية الأمريكية. نيويورك: كتب متروبوليتان، ٢٠٠٠، ص ٩٠.

(٤٨) إدارة مكتب الدولة للتحقيق والإذعان. "الإنفاق العسكرى الدولى وانتقالات الأسلحة ١٩٩٩ - ٢٠٠٠". أكتوبر ٢٠٠١،

www.state.gov/r/pa/prs/ps/2003/17447.htm.

(٤٩) ستيلينسكى، أندريزيج. "حتى تشترى بولندا نفاثات لوكهيد، الولايات المتحدة تدعم قرار قرض معان". أسوشيتدبرس، ٢٨ ديسمبر، ٢٠٠٢.

(٥٠) "اليابان تحاول كبح جماح التكلفة المنطلقة للمقاتلة إف إس إس". دفنس نيوز، ٢٤ يوليو، ١٩٩٥.

(٥١) ثارنوف، كيرت ولارى نويلز. "المعونة الأصلية: موجز تمهيدى لبرامج وسياسة الولايات المتحدة"، تقرير خدمة أبحاث الكونجرس، مؤرخ ٦ إبريل، ٢٠٠١، ص ٢٣ و "المبيعات العسكرية الأصلية، مبيعات إنشاءات عسكرية أجنبية وحقائق عسكرية معاونة"، كتاب حقائق وكالة تعاون أمن الدفاع. ٢٦ سبتمبر، ٢٠٠٢.

www.dsca.osd.mil/programs/comptroller/2001 - FACTS/default.htm.

(٥٢) المرجع السابق، ص ١٢.

(٥٣) المرجع السابق، ص ١٨.

(٥٤) بايت، فيتا، "نظام تمويل الأمم المتحدة: موضوعات خاصة بالكونجرس". خدمة أبحاث الكونجرس. ٨ يناير، ٢٠٠٨، ص ٥.

(٥٥) ريسير، بول. "الشباب الأمريكى يسقط فى الجغرافيا، طبقا لمسح امتحان موجز جغرافي وطني". أسوسيتدبرس نيوزوير، ٢١ نوفمبر ٢٠٠٢.

(٥٦) واليستين، إيمانويل. "ارتطم النسر وهو يهبط أرضا"، فورين بوليسى. يوليو/ أغسطس، ٢٠٠٢، ص ٦٠.

الفصل السابع

(١) كورنبلو، آني أ. "بوش يحاول في سيول أن يهدئ الحذر من نية قتل كوريا الشمالية"، بوسطن جلوب. ٢٠ فبراير ٢٠٠٢.

(٢) تيرنر، فريدريك جاكسون. "الحدود في التاريخ الأمريكي". نيويورك. هنرى هولت، ١٩٢١.

(٣) ويلسون، وودرو. "رسائل حرب". الكونجرس الـ ٦٥، الدورة الأولى، وثائق مجلس الشيوخ رقم ٥، مسلسل رقم ٧٢٦٤، واشنطن دي سي، ١٩٢٧, ص ٣ –٨، متكرر.

(٤) مك دوجال، والتر. "الأرض الموعودة، دولة الصليبي: الصدام الأمريكي مع العالم منذ ١٧٧٦, نيويورك، هوغتون ميفلين وشركاه، ١٩٩٧، ص ١٦٣، وتوماس ج. باترسون ودنيس ميريل، مشاكل كبرى في العلاقات الخارجية الأمريكية، نيويورك، هوغتون ميفلين وشركاه، ١٩٩٩، ص ٢٦٧ – ٣٠٠.

(٥) مك دوجال، ١٦٩.

(٦) يرجين، دانييل. السلم المبعثر: "أصول الحرب الباردة"، نيويورك: هوغتون ميفلين وشركاه، ١٩٧٧، ص ١٩٦ – ٢٠٠.

(٧) مك دوجال، ص ١٦٨، وتوني سميث، "مهمة أمريكا: الولايات المتحدة والنضال على النطاق العالمي من أجل الديمقراطية في القرن العشرين"، برينستون: مطبعة جامعة برينستون. ١٩٩٤، ص ١٤٣.

(٨) مك دوجال، ص ١٦٤، وجيمس ب. واربورج، المعتقد، الفرض، والقوة. التماس سياسة إيجابية. نيويورك: فارار، ستراوس وشركاه، ١٩٥٠.

(٩) كويتني، جوناثان. "أعداء بلا نهاية: صناعة عالم غير ودود"، نيويورك/ مطبعة سانت مارتين، ١٩٨٤، ص ٢٧٣.

(١٠) المرجع السابق.

(١١) ماينون، جيم. "لا تخفيض في قوات الولايات المتحدة في أسيا حتى لو أعيد توحيد كوريا: كوهين. مطبعة وكالة فرنسا، ٦ إبريل، ١٩٩٧.

(١٢) كويتني، ص ٢٧٨ – ٢٨٣.

(١٣) ليبيرت، ديريك. "جرح الخمسين عاما: الثمن الحقيقي لانتصار أمريكا في الحرب الباردة". نيويورك: ليتل براون وشركاه، ٢٠٠٢، ص ٣٢٩.

(١٤) المرجع السابق، ص ٣٢٨ – ٣٢٩.

(١٥) المرجع السابق، ص ٣٣٠.

(١٦) سيبرس، الآن. "الأندونيسيون بدؤوا رؤية مؤامرة وقد نضج وطنهم". واشنطن بوست، ١٤ يناير، ٢٠٠٣، ص أ ١٤.

(١٧) ليبيرت، ص ١٥٨.

(١٨) كويتنى، ص ١٥٨.

(١٩) ليبيرت، ص ٢٠٤.

(٢٠) المرجع السابق، ص ٤٠٨، هامش ٦٧.

(٢١) المرجع السابق، ص ٤٨٤.

(٢٢) فيسك، روبرت. "هل أجرى جيش صدام اختبار غاز سام على الخمسة آلاف مفقود؟". إندبندانت. ١٣ ديسمبر، ٢٠٠٢، ص ١٥.

(٢٣) فينانشيال تايمز. ٢٣ فبراير، ١٩٨٣، ذكر فى مقال مارك بيثيان "تسليح العراق: كيف قامت الولايات المتحدة وبريطانيا سرا ببناء آلة حرب صدام". بوسطن: مطبعة جامعة نورث إيسترن، ١٩٩٧.

(٢٤) دويس، ميتشيل. "للولايات المتحدة دور أساسى فى بناء العراق". واشنطن بوست. ٣٠ ديسمبر، ٢٠٠٢، ص أ ١، مقالة فينانشيال تايمز ٢٣ فبراير، ١٩٨٣، ذكر فى مقال بيثيان (انظر الهامش السابق)، وبروس وز جنتلسون، "مع أصدقاء مثل هؤلاء: ريجان، بوش وصدام، ١٩٨٢ – ١٩٩٠ نيويورك: و. و. نورتون، ١٩٩٤، ص ٥٢

(٢٥) دويس، ص أ ١.

(٢٦) ويندريم، روبرت. "رمسفيلد اللاعب الأساسى فى تحويل سياسة العراق"، أخبار إن بى سى. ١٨ أغسطس، ٢٠٠٢.

(٢٧) ماكاى، نيل/ وفيليسيتى أربوثنوت. "كيف حصل العراق على أسلحة: نحن من باعها". صنداى هيرالد، ٨ سبتمبر، ٢٠٠١، ص ١.

(٢٨) أوبرياك، ستورت. "٥ر١ مليار دولار مبيعات الولايات المتحدة للعراق: منتجات تكنولوجية تمت الموافقة عليها اليوم قبل الغزو". واشنطن بوست. ١١ مارس، ١٩٩١ ص أ ١، وهنرى وينستين وويليام ك. رمبل. "أسلحة العراق: مساعدة كبرى من تكنولوجيا الولايات المتحدة تم بيعها بموافقة – وتشجيع – من الإدارة التجارية، ولكن فى الغالب إلى جانب اعتراضات مسئولى الدفاع". لوس أنجلوس تايمز، ١٢ فبراير، ١٩٩١، ص ١.

(٢٩) دويس، ص أ ١.

(٣٠) جينتلسون.

(٣١) لجنة مجلس الشيوخ المعنية بالاستماع للعلاقات الخارجية، الكونجرس١٠١، الدورة الأولى، ١ مارس، ١٩٨٩، ص ٢٧ – ٤٥.

(٣٢) اللجنة المعنية بعمليات الحكومة، مجلس النواب، "تقوية نظام تراخيص الصادرات". ٢ يوليو ١٩٩١، الفقرة ١٠.

(٣٣) دويس، ص أ ١.

(٣٤) أوير باك.

(٣٥) "مجلس العلماء الأندونيسى يطلب من الأندونيسيين المسلمين الصلاة من أجل الشعب العراقي". إل كيه بى إن انتارا، ١١ فبراير" ٢٠٠٣، و"رئيس القضاة الإيرانى يقول: الرجم بالأحجار لم يبطل استعماله بعد". مطبعة وكالة فرنسا، ٤ فبراير، ٢٠٠٣.

الفصل الثامن

(١) هاربر، جنيفر. "متاعب لـ تيد تيرنر سي إن إن". ذي واشنطن تايمز، ٢١ يونيو، ٢٠٠٢.

(٢) بيان صحفي: "الكنيسة الإنجليكانية اللوثرية في أورشليم". الأسقف د. منيب أ. يونان. ١٦ إبريل، ٢٠٠٢.

(٣) "نيران صديقة" لماذا تقسم فلسطين أوروبا وأمريكا". الإيكونوميست. ٢٠ إبريل، ٢٠٠٢، ص ٩.

(٤) بينيت، جيمس. "شارون يقول: إن أوروبا متحيزة لصالح الفلسطينيين"، نيويورك تايمز. ٢٠ يناير، ٢٠٠٣، ص أ ٦.

(٥) توما، أبو خالد وهيئة بريد أورشليم. "استفتاء: ٦٠٪ من الإسرائيليين يقولون: إنهم يقاتلون من أجل بقائهم أحياء". جيروسالم بوست، ٤ أكتوبر، ٢٠٠٢.

(٦) ديفي، شاميلا، الانتفاضة تسدد ألما حادا للإسرائيليين". فينانسيال تايمز. ٢٤ أكتوبر، ٢٠٠٢، ص ٩.

(٧) "مستوطنات الضفة الغربية تلتهم كل ما كان قبلها". الإيكونوميست، ٣١ أكتوبر، ٢٠٠٢.

(٨) مور، مولي. "حول التحكم في قمم التلال عن بعد، إسرائيل توسع المستوطنات". واشنطن بوست. ٨ ديسمبر، ٢٠٠٢، ص أ ١٠.

(٩) موريس، هارفي. "إسرائيل تواجه قنبلة زمنية ديموجرافية". فينانشيال تايمز. ١٤ يونيو، ٢٠٠٢، ص ٥.

(١٠) هالبرن، أورلي. "تعليم في تحدي". هارتز. ٤ أكتوبر، ٢٠٠٢.

(١١) بشارة، مراون. "قوانين إسرائيل للانتقال سوف تحطم "أمال السلام، الأبرتهايد في الأراضي". إنترناشونال هيرالد تريبيون. ٢٢ مايو ٢٠٠٢، ص ٦.

(١٢) "مسألة انتهاك حقوق الإنسان في الأراضي العربية المحتلة، بما فيها فلسطين"، لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان. مارس ٢٠٠١.

(١٣) جورنبرج، جيرشوم. "الخط الأخضر الرفيع". موزر جونس. سبتمبر/ أكتوبر ٢٠٠٢، ص ٥٠.

(١٤) كريستيسون، كاثلين. "القدرة على فهم فلسطين: تأثيرهم على سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. بيركلي: مطبعة كاليفورنيا، ١٩٩١، ص ٢٠٥، لقد كان هذا الكتاب عونا كبيرا لي في كتابة هذا الفصل، وقدم تحليلا رائعا لسياسة الولايات المتحدة في النزاع الإسرائيلي الفلسطيني.

(١٥) كريستيسون، ص ٢٢.

(١٦) "الحقيقة من فلسطين". بقلم أحاد هام، مقتبسة من توم سيجين. "فلسطين واحدة كاملة: اليهود والعرب في ظل الانتداب البريطاني. نيويورك: هنرى هولتا والشركة (كتاب أول) ص ١٠٤، ٢٥٧، واڤينيرى شلومو. "صناعة صهيونية حديثة: الأصول الفكرية للدولة اليهودية". نيويورك: كتب أساسية. ١٩٨١، ص ١٢٢.

(١٧) كريستيسون، ص ٢١.

(١٨) حديث إلى مجلس شيوخ الولايات المتحدة، ١٠ يوليو ١٩٩٩.

(١٩) حددت تقديرات متعددة عدد اللاجئين الفلسطينيين عام ١٩٤٨ ما بين ٧٠٠٠٠٠ر ومليون، انظر الملحق ٤ من "تقرير التقدم العام والتقرير التكميلي للجنة الأمم المتحدة للتوثيق من أجل فلسطين، الذي يغطي المرحلة من ١١ ديسمبر ١٩٤٩ حتى ٢٣ أكتوبر ١٩٥٠". في ٢٣ أكتوبر، ١٩٥٠، والذي يقدر العدد بـ ٧٠٠,٠٠٠,

(http:lldomino.an.org/unispal.nsf/.).

انظر أيضا أبو لغد، جانيت. "التحول الديموغرافي لفلسطين"، في أبو لغد، إبراهيم (محرر)، "التحول في فلسطين. إيفانستون، إيل: مطبعة جامعة نورث ويسترن، ١٩٧١ (ص ص ١٣١ – ١٦١)؛ حيث بلغ التقدير ٧٨٠,٠٠٠

(٢٠) بير، روبرت، مع ريتشاردل. بيرك. "المجموعة المتعاطفة مع إسرائيل تمارس قوة هادئة وهي تحشد الداعمين في الكونجرس". نيويورك تايمز، ٧ يوليو، ١٩٨٧، ص ٨١.

(٢١) جولد ستين، أفرام. "الائتلاف المسيحي يحشد من أجل إسرائيل لاستعادة عطاء". واشنطن بوست. ١٢ أكتوبر، ٢٠٠٢، ص ب١،

(٢٢) فيندلي، بول. "تحرير أمريكا من إسرائيل". ميديا مونيتورز نتورك. ١١ سبتمبر، ٢٠٠٢.

(٢٣) ماسينج، ميتشيل. "محطمو الاتفاقات". أمريكا بروسبيكت. ١١ مارس، ٢٠٠٢.

(٢٤) فلاهوس، كيلي، بيوكار. "جماعة الضغط المتعاطفة مع إسرائيل قوة يحسب حسابها". فوكس نيوز كومباني. ٢٨ مايو، ٢٠٠٢.

(٢٥) إنجل، ماتيو. "التقى بالصهاينة الجدد". جارديان ٢٨ أكتوبر، ٢٠٠٢، ص ٢.

(٢٦) هاردبول. إم إس إن بي سي، ١ مايو، ٢٠٠٢.

(٢٧) موريس، بني. "كامب ديفيد وما بعدها، لقاء مع أيهود باراك". نيويورك ريو أوف بوكس. ١٣ يونيو، ٢٠٠٢.

(٢٨) مالي، روبرت وحسين أغا. "كامب ديفيد: تراجيديا الأخطاء"، نيويورك ريو أوف بوكس. ٩ أغسطس، ٢٠٠١.

(٢٩) البيان المشرك الإسرائيلي – الفلسطيني. ٢٧ يناير، ٢٠٠١.

(٣٠) التقرير النهائي للجنة تقصي الحقائق بشرم الشيخ (ميتشيل)، ٢٠ إبريل، ٢٠٠٢.

(٣١) خدمة زين هاو الصيني للمعلومات الاقتصادية، "يجب حل الخلل في الميزان التجاري الصيني - الأمريكي من خلال التنمية". ٢٢ ديسمبر، ٢٠٠٢.

(٣٢) موفسون، ستيفن، ودانا ميلبانك. "تايوان تحصل على تنويعة من الأسلحة، غير أن الولايات المتحدة تمتنع عن رادار الحماية الذي اعترضت عليه الصين بشدة. واشنطن بوست ٢٤ إبريل، ٢٠٠١، ص أ ١.

(٣٣) موفسون، ستيفن. "البيت الأبيض يقول: الرئيس يضمن أمن تايوان، السياسة لم تتغير"، واشنطن بوست. ٢٦ إبريل، ٢٠٠١، ص أ ١.

(٣٤) هوايت، تيودور. "بحثا عن التاريخ". نيويورك: هاربر رو، ١٩٧٨.

(٣٥) توشمان، باربارا. "ستيل ويل والتجربة الأمريكية في الصين". نيويورك، مطبعة جرو، ١٩٧١، ص ١٨٨.

(٣٦) هوايت، ص ١٣٤.

(٣٧) هوايت، ص ٢٠٨.

الفصل التاسع

(١) فوكوياما، فرانسيس. "نهاية التاريخ والرجل الأخير". نيويورك: أفون، ١٩٩٣.

(٢) فريدمان، توماس. "لكزس وأشجار الزيتون: فهم العولمة". نيويورك: فارار، ستراوس وجيروكس، ٢٠٠٠، ٢ ٩٩.

(٣) صفحة الحقيقة العالمية لأثر السكان. "لماذا السكان مسألة هامة للموارد الطبيعية".

www.populationaction.org/resources/factsheet - 13.htm.

(٤) ١٩٩٩ أرقام عن "علاقات الاتحاد الأوروبي بالولايات المتحدة الأمريكية" أوروبا.

www.europa.ell.int/comm/external relations/us/intro/index.htm.

(٥) مركز أبحاث بيو للشعب والصحافة. "بماذا يفكر العالم فى ٢٠٠٢".

press.org/reports/files/report/165.pdf. http://people

(٦) دالر، إيفووفيليب جوردن. "التفاهة الأوربية". واشنجطون بوست، ٢٩ مايو ٢٠٠٢، ص أ ، ١٧.

(٧) كاجان، روبرت. "عن الفردوس والقوة". نيويورك: كنوبف، ٢٠٠٣، ص ٣.

(٨) مويسى، دومينيك. "الأزمة الحقيقية فوق الأطلنطى". فورين أفيرز، يوليو/ أغسطس، ٢٠٠١، ص ١٥٢.

(٩) أوسوليفان، جوناثان. "لماذا يجب على الولايات المتحدة أن تكون حذرة من الاتحاد الأوربى". ناشونال ريفيو. ٦ أغسطس، ٢٠٠١.

(١٠) فوكوياما. "ربما يكسر الغرب أوربا وأمريكا". إنترناشونال جيرالد تريبيون. ٩ أغسطس، ٢٠٠٢، ص ٤

(١١) مانديل، ميتشيل ج. "الغنى أصبح أكثر غنى، وهذا جيد". بيزنيس ويك، ٢٦ أغسطس، ٢٠٠٢، ص ٨٨.

(١٢) "أوهام إحصائية". الإيكونوميست. ٨ نوفمبر، ٢٠٠١.

(١٣) بارسيلان، روبرتو. "إجمالى الناتج المحلى ٢٠٠١". التركيز على الإحصائيات: الاقتصاد والموارد المالية، موضوع ٢ – ٥٣/٢٠٠٢، نوفمبر، ٢٠٠٢، رسم بيانى ت ٥، والتقرير الاقتصادى للرئيس، فبراير ٢٠٠٣، ص ٦٠.

(١٤) الميزان التجارى للاتحاد الأوربى، ١٩٩٠ –١٩٩٩ سجل متوسط عجز سنوى قدره ٢,٦٣ مليار دولار (بالسعر الجارى). انظر أيروستات بيربوك، ٢٠٠٢.

(١٥) دافنبورت – هينس، ريتشارد. "ملاحقة النسيان: تاريخ كونى للمواد المخدرة"، نيويورك: و. و. نورتون، ٢٠٠٢، ص ٤٤٢.

(١٦) مركز أبحاث بيو للشعب والصحافة. بماذا يفكر العالم فى ٢٠٠٢". ص ٥٣.

(١٧) مقتبسة بواسطة ريفكين، دافيد. "أوربا فى الميزان"، بوليسى ريڤيو. ١ يونيو، ٢٠٠١، ص ص ٤١ – ٥٢.

(١٨) ريد، ت. ر. "قادة الاتحاد الأوربى يجتمعون ليصمموا قوى عظمى كونية"، واشنطن بوست، ١٦ ديسمبر، ٢٠٠١، ص ٣٥.

(١٩) كا سى، لى أ. ودافيد ب. ريفكين. "النزعة المنذرة بالخطر غير الديمقراطية للاتحاد الأوربى". بوليسى رڤيو. ١ يونيو، ٢٠٠١، ص ص ٤١ – ٥٢.

(٢٠) المرجع السابق.

(٢١) بوركى، أل. "استفتاء مريب". شبكة أخبار نورديك. ١ يناير، ٢٠٠١.

(٢٢) سميث، دان. "ساعة أوربا لبناء السلام". جورنال أوف إنترناشيونال أفيرز. ربيع ٢٠٠٢، ص ٤١.

(٢٣) حديث رئيس الوزراء تونى بلير إلى البورصة البولندية، ٦ أكتوبر، ٢٠٠٠.

(٢٤) سسيولينو، إيلان. "الاتحاد الأوربى يعمل للاعتراف بعشر أمم". نيويورك تايمز. ١٤ ديسمبر، ٢٠٠٢، ص أ ٧.

(٢٥) سولانا، جافيير. "الصدع عبر الأطلنطى". هارفارد إنترناشونال ، ١ يناير، ٢٠٠٣، مجلد ٢٤، رقم ٤، ص ٦٢.

(٢٦) ريتشبورج، كيث. "أوربا، الولايات المتحدة يختلفان حول مداخل سياسات أساسية، واشنجطون بوست. ٤ مارس، ٢٠٠٢، ص أ ، ١٣.

(٢٧) والاس، وليام. "أوربا الشريك الضروري". فورين أفيرز، مايو/ يونيو، ٢٠٠١، المجلد ٨٠، رقم ٣، ص ص ١٦ – ٣٤.

(٢٨) مقتبسة فى واورو، جيوفرى. "يجب على استراتيجيات الولايات المتحدة الترحيب بالجيش الأوربي". لوس أنجلوس تايمز. ٣١ ديسمبر، ٢٠٠٠، ص م ٥.

(٢٩) المرجع السابق.

(٣٠) برززينسكى، زبيجنيو. "الحياة مع أوربا جديدة". ناشونال إنترست، صيف ٢٠٠٠، ص ١٨.

(٣١) أوسوليفان، جوناثان. "لعنة القومية – الأوربية". ناشونال ريڤيو. ٦ أغسطس، ٢٠٠١، ص ص ٣٣ – ٣٦.

(٣٢) المرجع السابق.

(٣٣) كاجان، روبرت. "القوة والضعف". بوليسى ري?يو. يونيو/ يوليو، ٢٠٠٢، رقم ١١٣.

(٣٤) إدارة الدفاع، مديرية عمليات المعلومات والتقارير. "مائة الشركة وفئة التى تحتل قمة"مشتريات إدارة

الدفاع – السنة المالية ٢٠٠٢".

www. dior.whs.mil/peidhome/procstat/procstat.htm.

(٣٥) لاثام، أندرو. "الصين فى التصور الجيولوليتكى الأمريكى المعاصر". آسيان أفيرز، خريف ٢٠٠١، المجلد ٢٨، رقم ٣، ص ١٤٠.

(٣٦) "الإطار المتفق عليه بين الولايات المتحدة الأمريكية وجمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية". جينيف، سويسرا، ٢١ أكتوبر ١٩٩٤، الفقرة الشرطية ١ –٣.

(٣٧) المرجع السابق، الفقرة الشرطية، ٢.

(٣٨) المرجع السابق، الفقرة الشرطية ٣ –١.

(٣٩) جونسون، شالميرز. "نظام عام ١٩٥٥ والارتباط الأمريكى. مقدمة ببليوجرافية". معهد أبحاث سياسة اليابان. ورقة عمل رقم ١١، يوليو ١٩٩٥.

(٤٠) سكالر، ميتشيل. "مجرم الحرب المفضل لدى أمريكا: كيشى نوبوسوك: وتحول العلاقات الأمريكية اليابانية". معهد أبحاث سياسة اليابان. ورقة عمل رقم ١١، يوليو ١٩٩٦.

(٤١) ناكاو، أنى. "معركة من أجل التاريخ". سان فرنسيسكو كرونيكل. ٢٨ إبريل، ٢٠٠٢، ص أ ٣.

(٤٢) بيلينج، دافيد. "اليابان تطالب بقوات من الولايات المتحدة أقل فى أوكيناوا" فينانشيال تايمز، ٣ فبراير، ٢٠٠٣.

(٤٣) إدارة التجارة الدولية، أضواء على التجارة الخارجية للولايات المتحدة. "أعلى عجز مع ٥٠ بلدا فى تجارة الولايات المتحدة لعام ٢٠٠١".

www.ita.doc.gov/td/industry/otea/usfth,aggregate H0IT13.html.

(٤٤) ما الذى ينفقه المتعاطون الأمريكيون على المخدرات غير الشرعية". المكتب التنفيذى للرئيس، مكتب سياسة التحكم الوطنى فى المخدرات. ١ ديسمبر، ٢٠٠١، ص ٣، جدول ١.

(٤٥) دافنبورت – هينس، ريتشارد. "ملاحقة النسيان: تاريخ كونى للمواد المخدرة". نيويورك: و. و. نورتون، ٢٠٠٢، ص ١٥.

(٤٦) المرجع السابق، ص ٤٢٨.

الفصل العاشر

(١) إكينبرى، جون ج. "الطموح الأمريكى الإمبراطورى". فورين أفيرز، سبتمبر/ أكتوبر ٢٠٠٢، ص ٤٨.

(٢) سكوارتز، بنجامين وكريستوفر لاين. "استراتيجية جديدة كبرى". ذى اتلانتك مونثلى. يناير ٢٠٠٢، المجلد ٢٨٩، رقم ١، ص ص ٣٦ - ٤٢.

(٣) أش، تيموثى جارتون. "خطر الكثير للغاية من القوة". نيويورك تايمز. ٩ إبريل، ٢٠٠٢، ص ٣٤.

(٤) استراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية للأمن القومى. سبتمبر ٢٠٠٢، ص ١٥.

(٥) المرجع السابق، المقدمة.

(٦) بوش، جورج دبليو. "تأمين انتصار الحرية". نيويورك تايمز، ١١ سبتمبر، ٢٠٠٢، ص أ ، ٢٣.

(٧) بوت، ماكس. "قضية من أجل الإمبراطورية الأمريكية". ويكلى ستاندارد. ١٥ أكتوبر، ٢٠٠١، ص ٢٧.

(٨) المرجع السابق، ص ص ٢٨ -٢٩.

(٩) مالابى، سيباستيان. "الإمبريالى المعارض: الإرهاب، الدول الفاشلة، وقضية من أجل الإمبراطورية الأمريكية". فورين أفيرز. مارس/ إبريل، ٢٠٠٢، ص ص ٢ -٢.

(١٠) كاجان، روبرت. "سياسات المحارب: لماذا تقتضى القيادة نفسية وثنية". نيويورك راندوم هاوس، ٢٠٠٢، ص ص ١٥٢ - ١٥٣.

(١١) "عندما تثأر الإمبراطوريات". فيناشيال تايمز. ٨ ديسمبر، ٢٠٠١.

(١٢) المناقشة الثانية للرئيس، جامعة ويك فوريست، ١١ أكتوبر، ٢٠٠٠.

(١٣) الإصابة بضعف المناعة ينخفض جنوب الصحراء الإفريقية، ويرتفع على اتساع العالم".

www.cnn.com/2000/health/aids,11/28/hiv.africa.

(١٤) كابلان، روبرت. "الفوضى القادمة". أتلانتيك مونيكى،، فبراير ١٩٩٤، ص ٤٨.

(١٥) المرجع السابق، ص ٦٨.

(١٦) كابلان، ص ٦٠.

(١٧) تورنوف، كيرت ولارى نويلز. "المعونة الأجنبية: ملخص تمهيدى لبرامج وسياسة الولايات المتحدة". تقرير المؤسسة (سى آر إس) إلى الكونجرس، مؤرخ ٦ إبريل، ٢٠٠١.

(١٨) خطاب إلى الجمعية العامة لكنيسة أسكتلندا. ٣ أغسطس، ١٦٥٠.

مراجع يوصى بقراءتها

Acheson, Dean. *Present at The Creation: years in the State Department.* New York: W.W.Norton, 1987.

Alagappa, Muthaiah (ed.). *Asian Security Order: Instrumental and Normative Features.* Stanford, CA: Stanford University Press, 2003.

Avineri, Shlomo. *The Making of Modern Zionism: Intellectual Origins of the Jewish State.* New York: Basic Books, 1981.

Bacevich, Andrew. *American Empire: The Realities and Consequences of us Diplomacy.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 2002.

Bandow, Doug. *Tripwire: Korea and US. Foreign Policy in a Changed World.* Washington, D.C.: Cato Institute, 1996.

Barber, Benjamin R. Jihad vs. *McWorld: How Globalism and Tribalism are Reshaping the World.* New York: Ballantine Books, 1996.

Bix, Herbert. *Hirohito and the Making of Modem Japan.* New York: Perennial. 2001. Boniface. Pascal (ed.) *Les lecons du 11 septembre.* Paris: IRIS-PUF. 2001.

Boot, Max. *The Savage wars of Peace.* New York: Basic Books. 2002.

Brackman, Arnold C. *The Other Nuremberg: The Untold Story of the Tokyo War Crimes.*

Trials Tokyo: John Hawkins & Associates, Inc., 1987.

Carson, Rachel. *Silent Spring. Boston:* Mariner Books, 2002 (first. published in 1962). Chesterton, G.K. *What I Saw in America.* New York: Dodd, Mead & Co, 1992

Christianson, Gale E. *Greenhouse: The 200-year Story of Global Warming.* New York: Penguin Books, 2000. Originally printed by Walker Publishing Company, 1999.

Christison, Kathleen. *Perceptions of Palestine: Their Influence on Us. Middle East Policy.* Berkeley, CA: University of California Press, 1999.

Clawson, Patrick L., and Rensselaer W. Lee III. *The Andean Cocaine Industry.* New York: St. Martin's Griffin, 1996.

Colombani, Jean-Marie. *Tous Americains? Le monde apres le 11 septembre 2001.* Paris: Fayard, 2002.

Dasquie, Guillaume and Jean Guisnel. *L'effroyable mensonge- These et foutaises sur les attentats du 11 septembre.* Paris: La Decouverte. 2002.

Davenprt-Hines, Richard. *The Pursuit of Oblivion: A Global History of Narcotics.* New York: W.W. Norton. 2002.

De Toqueville, Alexis. *Democracy in America.* New York: Vintage Books, 1990.

De Villiers, Marq. Water: *The Fate of Our Most Precious Resource.* New York: Houghton Mifflin, 2000. First published in Canada in 1999 by Stoddart Publishing Co. Limited.

Dickens, Charles. *American Notes For General Circulation.* New York: Penguin USA, 2001 (Rdssue).

Dinan, Desmond. *Ever Closer Union-An Introduction to the European Community.* Boulder, co Lynne Rienner Publishers. 1999.

Eisendrath, Craig, Melvin A. Goodman, and Gerald E. Marsh. *The Phantom Defense: America's Pursuit of the Star Wars Illusion*. Westport, CT: Praeger Publishers, 2001.

Friedman, Thomas L. Longitudes and Attitudes: *Exploring the World After September 11*. New York: Farrar, Straus, & Giroux, 2002.

Friedman, Thomas L. *The Lexus and the Olive Tree: Understanding Globalization*. New York: Anchor Books, 2000.

Fritsch-Bournazel, Renata. *L'Allemagne depuis 1945*. Paris: Hachette, 2002.

Fukuyama, Francis. *The End of History and the Last Man*. New York: Avon Books, 1993. Gelbspan, Ross. *The Heat Is On: The Climate Crisis, the Cover-up, the Prescription*. Boston: Perseus Publishing, 1998.

Gingrich, Newt. *To Renew America*. New York: Harper, 1996.

Gore, Al. *Earth in the Balance: Ecology and the Human Spirit*. New York: Plume, 1993.

Graham, Bradley. *Hit to Kill: The New Battle Over Shielding America from Missile Attack*. New York: Public Affairs, 2001.

Haass, Richard. *The Reluctant Sheriff: The United States After the Cold War*. New York: Council on Foreign Relations, 1998.

Harding, Harry. *A Fragile Relationship: The United States and China since 1972*. Washington D.C.: The Brookings Institute, 1992.

Harrison, Selig S. *Korean Endgame: A Strategy for Reunification and US. Disengagement*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2002.

Harrison, Selig S. and Prestowitz, Clyde. Asia After the Miracle. Washington, D.C.: The Economic Strategy Institute, 1999.

Howell, Thomas, William A. Noellert, Jesse G. Kreier, and Alan W. Wolff. *Steel and the State: Government Intervention and Steel's Structural Crisis*. Boulder, CO: Westview Press, 1988

Huntington, Samuel P. *The Clash of Civilizations and the Remaking of the World Order*. New York: Simon and Schuster, 19S6.

Hutton, Will. *The World we're In*. London: Little, Brown, 2002.

Jentleson, Bruce W. *With Friends Like These: Reagan, Bush, and Saddam, 1982-1990*. New York: W.W. Norton, 1994.

Johnson, Chalmers. Blowback: *The Costs and Consequences Of American Empire*. New York: Metropolitan Books, 2000.

Kagan, Robert. *Of Paradise and Power: America and Europe in the New World Order*. New York: Knopf, 2003.

Kagan, Robert. Warrior Politics: *Why Leadership Demands a Pagan Ethos*. New York: Random House, 2002.

Kellogg, William and Margaret Mead. *The Atmosphere: Endangered and Endangering*. Castle House Publications, 1977.

Kissinger, Henry. *Does America Need a Foreign Policy? Toward a Diplomacy for the 21st Century*. New York: Simon & Schuster, 2001.

Kojima, Noboru. *Tokyo Saiban Vol. 1 and Vol 2* [Tokyo war crimes trial}. Tokyo: Chuko shinsho, 1971.

Kupchan, Charles A. *The End of the American Era*. New York: Knopf 2002.

Kwitny, Jonathan. Endless Enemies: *The Making of an Unfriendly World.* New York: St. Martin's Press, 1984.

Lampton, David M. *Same Bed, Different Dreams: Managing U.S.-China Relations* 1989-2000. Berkeley and Los Angeles, CA: Uaiversity of California Press, 2001.

Laqueur, Walter and Barry Rubin. *The Israel-Arab Reader.* New York: Penguin Books, 1976.

Laurence, Ed. *Small Arms Survey 2002.* Oxford, England: Oxford University Press. September 2002.

Leebaert, Derek. *The Fifty- year Wound: The True Price of America's Cold war Victory.* Boston, Mass.: Little, Brown and Co., 2002.

Lewis, Bernard. *The Middle East*: A Brief History of the last 2000 years. New York: Scribners, 1996.

Lipset, Seymour Martin. *American Exceptionalism: A Double-Edged Sword.* New York: W. W. Norton, 1996.

Lomborg, Bjorn. *The Skeptical Environmentalist: Measuring the Real State of the World* Cambridge: Cambridge University Press, 2001.

Marsh, George Perkins. *Man and Nature.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 1973.

McDougall, Walter. *Promised Land, Crusader State: The American Encounter with the World Since 1776.* New York: Houghton Mifflin, 1997.

Mead, Walter Russell. *Special Providence: American Foreign Policy and How it Changed the World.* New York: Knopf, 2001.

Meyssan, Thierry. *11 Septembre 2001-L'effroyable imposture.* Paris: Carnot, 2002. Mikuni, Akio and R. Taggart Murphy. *The Japan Policy Trap. Washington,* D.C.: The Brookings Institute, 2002.

Minear, Richard H. Victors' justice: *The Tokyo War Crimes Trial.* Princeton: Princeton University Press, 1971.

Morita, Akio and Shintaro Ishihara. *The Japan That Can Say "No".* 'Jefferson Educational Foundation, Washington,D.C., 1990.

Murakami, Hiromi, Steven Clemons and Clyde Prestowitz, eds. *Japan and the United States Reconsidered: Evolution of Security and Economic Choices since 1960.* Washington, D.C.: Economic Strategy Institiute, 2002.

Niebuhr, Reinhold. *Moral Man and Immoral Society*: A Study of Ethics and Politics. New York: Scribners, 1932.

Nuttal, Simon. *European Political Cooperation.* Oxford: Clarendon Press, 1992.

Nye, Joseph S. Jr. Bound to Lead: *The Changing Nature of American Power.* New York: Basic Books, 1991.

Nye, Joseph S. Jr. *The Paradox of American Power.* Oxford: Oxford University Press, 2002.

Oberthur, Sebastian and Hermann E. Ott. *The Kyoto Protocol: International Climate Policy for the 21st Century.* Berlin: Springer, 1999.

Ohmae, Kenichi. The Borderless World: *Power and Strategy in the Interlinked Economy.* New York: Harper Business, 1999.

Ohnuma, Yasuaki. *Tokyo saiban kara Sengo Sekinin no shisou he* [From Tokyo Trial to War responsibility]. Tokyo: Yushindo, 1985.
Oren, Michael B. *Six Days of war and the Making of the Modern Middle East*. New York: Oxford University Press, 2002.
Ozawa, Ichiro. *Blueprint for a New Japan*. Tokyo: Kodansha International Ltd, 1994. **Patterson**, Thomas G. and Dennis Merrill. *Major Problems in American Foreign Relations*. New York: Houghton Mifflin, 1999.
Pells, Richard. Not Like Us: *How Europeans Have Loved, Hated, and Transformed American Culture Since World war II*. New York: Basic Books, 1997.
Phythian, Mark. *Arming Iraq: How The US. and Britain Secretly Built Saddam's war Machine*. Boston: Northeastern University Press, 1994.
Pyle, Kenneth B. *The Japanese Question: Power and Purpose in a New Era*. Washington D.C.: The American Enterprise Institute Press, 1992.
Revel, Jean-Francois. *L'obsession anti-americaine: Son fonctionnement, ses causes, ses incon sequences*. Paris: Plon, 2001.
Roger, Philippe. *L'ennemi americain: Genealogie de l'anti-americanisme franrais*. Paris: Seuil, 2002.
Schaller, Michael. *The American Occupation of Japan: The Origins of the Cold war in Asia*. Oxford: Oxford University Press, 1985.
Schonberger, Howard B. *Aftermath of War: Americans and the Remaking of Japan, 1945-1952*. Kent: The Kent State University Press, 1989.
Schoultz, Lars. Beneath the United States: *A History of u.s. Policy Toward Latin America*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2001.
Segev, Tom. *One Palestine, Complete: Jews and Arabs Under the British Mandate*. New York: Henry Holt (An Owl Book), 1999.
Servan-Schreiber, Jean-Jacques. *Le Defi Americain*. Paris, Denoel, 1967.
Shipler, David K. Arab and Jew: *'Wounded Spirits in a Promised Land*. New York: Pen guin, 1986.
Sigal, Leon V. Disarming Strangers: *Nuclear Diplomacy with North Korea*. Princeton: Princeton University Press, 1998.
Smith, Tony. *America's Mission: The United States and the Worldwide Struggle for Democracy in the Twentieth Century*. Princeton: Princeton University Press, 1994.
Stiglitz, Joseph. *Globalization and Its Discontents*. New York: W. W. Norton, 2002.
Suzuki, David and Holly Dressel. *Good News For A Change: Hope For a Troubled Planet*. Toronto: Stoddart Publishing Co., 2002.
Thoreau, Henry David. *The Main Woods*. New York: Penguin USA, 1988.
Todd, Emmanuel. *Apres L'empire-Essai sur la decomposition du systeme americain*. Paris: Gallimard, 2002.
The World Bank. *The East Asian Miracle: Economic Growth and Public Policy*. Oxford: Oxford University Press, 1993.
Tuchman, Barbara W. *Stilwell and the American Experience in China, 1911-45*. New York: Grove Press, 2001.

Turner, Frederick Jackson. *The Frontier in American History.* New York: Henry Holt, 1921.

Victor, David G. *The Collapse of the Kyoto Protocol and the Struggle to Slow Global Warming.* Princeton: Princeton University Press, 2001.

Vogel, Ezra. (ed.). *Living with China: U.S.-China Relations in the Twenty-First Century.* New York: W. W. Norton, 1997.

Warburg, James P. *Faith, Purpose and Power: A Plea for a Positive Policy.* New York: Farrar, Straus, & Giroux, 1950.

White, Theodore. *In Search of History.* New York: Harper Row, 1973.

Woodard, Colin. *Ocean's End: Travels Through Endangered Seas.* New York: Basic Books, 2000.

Yergin, Daniel. The Prize: *The Epic Quest for Oil, Money & Power.* New York: Simon & Schuster, 1991.

Yergin, Daniel. *Shattered Peace: The Origins of the Cold war.* New York: Houghton Mifflin, 1977.

Zimmermann, Warren. *First Great Triumph.* New York: Farrar, Straus, & Giroux, 2002.

شكـــــر

لم يكن في وسـعي أن أكتب هذا الكتـاب دون مـعـاونة المئـات من الناس الذين قابلوني برحابة صدر وشاركوني بنفاذ بصيرتهم وآرائهم، القائمة طويلة للغاية إن ذكرت كل شخص هنا، غير أنني أود أن أشكر كل من شاركوا بوقتهم وأفكارهم في لقاءات ومناقشات.

إن عددا غير قليل قد عمل طويلا، وبلا كلل، في البحث والمعاونة في تنظيم المخطوطة، إنني مدين بصورة عميقة، بشكل خاص، لـ أولريكا "ريكي" سوانسون، التي أشرفت على كل الجهد البحثي والجيش الداخلي وتنسيقهما، كذلك أود أن أشكر فرانك جورنود، الذي أدار الكثير من البحث المرتبط بأوربا، وهيرومي مورا كامي الذي أدار الكثير من البحث المرتبط بآسيا، وسام مك كوي، الذي أنفق العديد من الساعات حول الشرق الأوسط، جنبا إلى جنب مع راشيل سترين، وقد قدمت جلاديس سكوت وسونجاي هاريسون دعما إداريا أساسيا، وكان لدى لوري هارمون معلومات الاتصال الصحيحة، في الوقت الصحيح، وهنالك شكر خاص واجب الأداء أيضا لـ مونيكا ملكة "بريدج واتر"، التي حافظت على المكتب نشطا للغاية في مواجهة الطلبات غير العادية، كما يجب أن أعبر عن افتتاني لسجنائي الذين لا يعرفون التعب في "كهف القرصان" (بيرات كوف): بن باردن، سكوت، فريدمان، تريشاجالوين، ساشيكوجاوس، ريتشارد خو، بوري كيم، باكور كفاشيلافا، جوشوا لاجوس، جيمس مورو، ميليس أوزدوجان، هيو أون بارك، تيجال باتل، إريك راهن، كارتيك راما شاندران، ريان سينجر، كيفين سو، كاكي تسي، جيمس تيودور، وستيافي وولفينبارجر.

كان السفير شاس فريمان، المتخصص فى المشروعات الدولية - عونا هائلا لى فى تنظيم لقاءات فى الصين والشرق الأوسط، وكان لفترة طويلة ناصحا موضع التقدير والاحترام، صديقا، ومرشدا، كما كان البرفيسور شالميرز جونسون ناصحا، مخلصا وصديقا، وأنا مدين له بدين ثقافى كبير، وقد أمدنى دافيد يونج وآرنى ناشمانوف، من أوكسفورد أناليتيكا، برؤى نقية بعيدة النظر، ومساعدات للقاء شخصيات هامة، وقد قرأ الاثنان أجزاء من المخطوطة ونقداها، وقد قرأ زميلى القديم وصديقى بوب بركينز المخطوطة كلها، وقدم اقتراحات ثمينة كما فعل كذلك، بات مالوى من "المجلس الصينى للولايات المتحدة"، وكان جان أبى - نادر من "المعهد العربى الأمريكى" - عونا هائلا فى تنظيم اجتماعات لى فى الأردن والضفة الغربية، كما أننى ممتن أيضا لمساعدة روى بيليد ودافيد ليفى، واللذان ساعدانى فى تحقيق صلات أساسية فى أورشليم وتل أبيب. وكان ستيفن كوهين من "مركز الشرق الأوسط للسلام" عونا كبيرا ببصيرته داخل إسرائيل والنزاع الإسرائيلى الفلسطيني، وكان كاتب العمود فى النيويورك تايمز، توم فريدمان مرشدا هاما إلى الشرق الأوسط، وكذا بالمثل إلى العولمة، وإننى مدين بعمق لـ سليج هاريسون، لمساعدته فى تنظيم اجتماعات فى كوريا، ولتقديمه معلومات ثمينة عن خلفية الوضع الكورى، كما أود أيضا أن أشكر البروفيسور مون شونج - إن من "جامعة يونسي"، وكيك شين - هيون لما قدماه من عون فى كوريا. إن بول ألاير المدير التنفيذى السابق لـ "زيوركس"، وميك فارين نائب رئيس زيوركس، أصدقاء منذ أمد بعيد، وقد عاونانى معاونة كبيرة فى اقتراح اجتماعات، مع مفكرين أوربيين قادة وصانعى سياسات، وعقدها معهم، كما أننى أود أن أشكر إيتيين "ستيفى" دافينون من "الجمعية العامة البلجيكية" لما قدمه من مساعدة فى هذا الخصوص، وقد وفر سفير الاتحاد الأوربى فى واشنطن جونتر بورغادت رؤى هامة بعيدة النظر، وأرشدنى إلى أخرى ذات وجهات نظر هامة بالمثل، وكان السفيران جوان جوس بريمر من المكسيك، وداتو، غزالى شيخ عبد الخالد من ماليزيا، معاونين بكثافة فى توفير رؤى بعيدة النظر عن بلديهما، وفى تنظيم اجتماعات أيضا

مع مفكرين، وقادة أعمال، وصانعى سياسة أساسيين، وقد نظم لى بعطف وكرم السفير السويسرى فى الأمم المتحدة جينو ستا يهيلين عشاء مع زملائه من الأمم المتحدة، وقد ساعدنى الرئيس "جروبو كورازا جوليو ميلان" فى العثور على شخصية أساسية فى المكسيك والالتقاء بها، كما أمدنى بالمثل بدعم لوجيستى، وأود أيضا أن أشكر داتو، مجمد جوهر بن حسان من "مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية" فى ماليزيا لرؤاه بعيدة النظر، ولتقديمه مفكرين آخرين، وفى أندونيسيا لم ينظم صديقى القديم جوسوف واناندى من "مركز الدراسات الاستراتيجية الدولية"جدول أعمالى فقط، لكنه استضاف أيضا حلقة دراسية أثناء عشاء مع غالبية قادة الفكر الأندونيسى، وقادة سياسيين أساسيين، كما أننى ممتن أيضا لـ خالد الشقاقى من "معهد بروكينجز" لمساعدته في فلسطين، وإلى الوزير المستشار جان فرانسوا بويتين من السفارة الفرنسية فى واشنطن، لنصيحته ومساعدته فيما له من علاقات بأوربا، وقد تفضل جيم فوستر نائب رئيس "البعثة التبشيرية" إلى البعثة التبشيرية الأمريكية، بالاتحاد الأوربى، بالاستضافة على عشاء فى بروكسل، كما قدم المساعدة من خلال العديد من سبل العون، وكان بروس ستوكس من "مجلس العلاقات الخارجية" معاونا للغاية بالنصح فيما يتعلق بالرأى العام فى الخارج، وقد قدم إيرا شابيرو نصيحته المعتادة وقرأ أجزاء أساسية من المخطوطة، وقد عمل بوب ليس من "نقطة الاتجاه" وستيف أولسون من "المجلس الاقتصادى لحوض الباسفيكي" بلا كلل، ليقترحا أناسا حتى أراهم فى آسيا، وقدما اقتراحات ثمينة للموضوعات محل النظر، وكان سفير سنغافورة فى واشنطن هيونج شى شان معينا للغاية كمرشد للتفكير الآسيوى، وكذلك بالمثل فى تنظيم اجتماعات فى جنوب شرق آسيا، كما أننى ممتن أيضا لـ جاكلين ويلبز، رئيس "بعثة هونج كونج التبشيرية إلى واشنطن"، وكريس جاكسون من "بعثة هونج كونج التبشيرية فى بروكسل لرؤيتهما بعيدة النظر ولمساعدتهما، وكانت البرفيسور يوان مينج وزميلتها فان شيمينج من جامعة بكين – الصين – عونا ثمينا لى

فى تنظيم لقاءات وتقديم رؤى بعيدة النظر حول التطورات فى الصين - وكان صديقى القديم فان جانج من "المعهد الوطنى للبحث الاقتصادى" - معاونا كالعهد به، وكان المستشار يوزباو يونج من السفارة الصينية بواشنطن - معاونا للغاية فى دعم جهودى فى الصين، وكان صديقى القديم ومرشدى إلى اليابان، كومورى يوشيهيا، المحرر الحر لجريدة "سانكى"، وزميله ياماموتو هيديا معاونين للغاية فى اقتراح أناس؛ كى أراهم فى اليابان والصين، وكذلك قدم لى نام - كى رئيس الـ "إف تى سى الكورية"، وزميله شين هو - هيون، مساعدة قصوى، وكذلك كان وينكى سو من مكتب "بعثة هونج كونج الاقتصادية والتجارية فى واشنطن"، وأنا ممتن لـ جويرج وولف من "مؤسسة كونراد أديناور فى بكين" لدعمه بالاجتماعات والعشاء والمعاونة، كما أننى أود أن أشكر السيد والسيدة دين هو لتقديمهما عشاء ضيافة وترتيبات فى شنغهاى، كما أننى ممتن بالمثل لـ لوزهو نجوى رئيس "معهد الصين للعلاقات الدولية" الذى استضافنى على عشاء مع عدد من الباحثين والكتاب حول علاقات الولايات المتحدة والصين، وأود أن أشكر كين هسو، من "شركة فورد موتور فى الصين"، الذى لم يقدم لنا العشاء فقط، لكنه قدم لنا أيضا العديد من الرؤى الثمينة بعيدة النظر، يضاف إلى ذلك أيضا صديقى، منذ أمد طويل، ميرلى هينريكس المدير التنفيذى لـ "جلوبال سبورسس" الذى كان معاونا كالعهد به فى هونج كونج، وأود أن أشكر أوهتاماساهيدى، عضو "المجلس التشريعى اليابانى" وعضو "لجنة الشئون الخارجية والدفاع" لاقتراحاته وضيافته على عشاء عاون كثيرا فى طوكيو، وأخيرا أود أن أشكر جون لاركين رئيس مكتب "مراجعة الشرق الأقصى الاقتصادية ، سيول"، وقد قدم بيل كريست من "مركز وود رو ويلسون"، معاونة ثمينة حول موضوعات بيئية.

وقد سعدت بمحرر عظيم هو بيل فروشت، إنه مبدع، ومثابر، متعاطف، وقد غدا صديقا طيبا، كما يجب أن أشكر ناصحى المخلص فى الكتابة فويب هوس، الذى تعلمت منه الكثير.

وقد منحنى كل هؤلاء وقتهم ووجهات نظرهم ومعلوماتهم بكرم، غير أن مسئولية هذا الكتاب، وما جاء فيه من بيانات هى مسئوليتى كلية.

وأخيرا، وليس على الأقل إطلاقا، فإننى يجب أن أشكر مصدر وحيى، وناصحتى، وناقدتى ومحررتى وباحثتى، وصانعة الشاى لى - رفيقتى الدائمة، أفضل أصدقائى، وزوجتى كارول أند بريستوويتز.

قائمة بالاختصارات الواردة فى الكتاب

الاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية	ABM
المجلس الأمريكى لتكوين رأس المال	ACCF
لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية	AIPAC
التعاون الاقتصادى لآسيا والمحيط الهادى	APEC
وكالة مشروعات البحث المتقدم	ARPA
اتفاقية الأسلحة البيولوجية والسامة	BWC
المسئولون التنفيذيون (مديرون)	CEOs
منظمة المعاهدة المركزية	CENTO
مجموعة كلورو فلورو الكربون	CFCs
سياسة خارجية وأمنية عامة	CFSP
وكالة المخابرات المركزية	CIA
المؤتمر الأول للأطراف	COP 1
مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية	CSIS
معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية	CTBT
اتفاقية الأسلحة الكيميائية	CWC
المنطقة منزوعة السلاح	DMZ
وكالة معلومات الطاقة	EIA
وكالة حماية البيئة	EPA
الاتحاد الأوربى	EU

FDI	الاستثمار الأجنبى المباشر
GAO	مكتب المحاسبة العامة
GATT	الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة
GDP	إجمالى الناتج المحلى
GE	جنرال اليكتريك
HFCs	مجموعة هيدرو فلورو الكربون
IAEA	الوكالة الدولية للطاقة النووية
ICBL	الحملة الدولية لحظر الألغام الأرضية
ICBMs	صاروخ باليستى عابر للقارات
ICC	المحكمة الجنائية الدولية
IEA	وكالة الطاقة الدولية
IMF	صندوق النقد الدولى
INC	لجنة التفاوض فيما بين الحكومات
IPCC	هيئة ما بين الحكومات المعنية بتغير المناخ
IPO	الإصدار الأصلى العام
JCET	قانون التدريب المشترك الموحد المتبادل
LPD	الحزب الليبرالى الديمقراطى (اليابان)
LTCM	إدارة رأس المال طويل المدى
MAD	التدمير المؤكد المتبادل
MITI	وزارة التجارة الدولية والصناعة (اليابان)
mpg	ميل لجالون الواحد
NAFTA	اتفاقية أمريكا الشمالية للتجارة الحرة
NASA	وكالة ناسا الأمريكية
NATO	اتفاقية منظمة شمال الأطلنطى (الناتو)
NGOs	المنظمات غير الحكومية

الدفاع الصاروخى الوطنى	NMD
معاهدة حظر الانتشار	NPT
استراتيجية الأمن القومى	NSS
منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية	OECD
منظمة البلدان المصدرة للبترول (أوبك)	OPEC
السلطة الفلسطينية	PA
منظمة التحرير الفلسطينية	PLO
جزء لكل مليون	ppm
مبادرة الدفاع الاستراتيجى	SDI
منظمة معاهدة جنوب شرق آسيا	SEATO
قوات العمليات الخاصة	SOF
اتفاقية وضع القوات	SOFA
سيارات الدفع الرباعى	SUV
قانون هيئة تعزيز السياحة	TPAA
الأمم المتحدة	UN
الولايات المتحدة	US
أسلحة الدمار الشامل	WMD
منظمة التجارة العالمية	WTO

المؤلف فى سطور :

كلايد بريستوويتز

ينتمى المؤلف إلى الطبقة الوسطى الأمريكية، وهو محافظ جمهورى، يقول عن نفسه: إنه ليس اشتراكيا فرنسيا ولا من شباب الستينيات الأمريكى المتمسك بعناد بالمبادئ وعدم التوطين، صلب لا ينثنى، مفرط فى الوطنية، من عائلة مسيحية ولدت من جديد، التحق بكلية سوارثمور حيث أسس نادى الكلية المحافظ فى مواجهة الليبرالية السائدة، درس فى اليابان كى يصبح دبلوماسيا، تطوع للخدمة فى فيتنام، واستمر داعيا للحرب مدة طويلة، عمل فى العديد من الشركات متعددة الجنسيات، والتحق عام ١٩٨١ بإدارة ريجان، ثم أصبح مستشارا لوزير التجارة؛ حيث أدار العديد من المفاوضات بهدف تحقيق اتفاقيات، وشارك فى محادثات تجارية متنوعة حتى أنه لقب بـ"صقر التجارة"، أسس فيما بعد منظمة بحثية لا تقوم على الربح، وكان رئيسها وهى "معهد الاستراتيجية الاقتصادية" التى أطلق عليها "مصنع الفكر".

يجيد اللغات اليابانية والهولندية والألمانية والفرنسية.

من أهم كتبه ومقالاته:

خيانة الرفاهية الأمريكية: أوهام السوق الحرة، انحدار أمريكا، وكيف علينا أن نتنافس فى حقبة ما بعد الدولار، ٢٠١٠.

ثلاثة بلايين رأسمالى جديد: التحول الكبير للثروة والسلطة نحو الشرق، ٢٠٠٥.

مخفر إطفاء كوريا الجنوبية، الجلوباليست، ٢٥ يوليو، ٢٠٠٥.

لا تزعج أوربا حول الطعام المعدل جينيا، نيويورك تايمز، ٢٤ يناير، ٢٠٠٢.

تبادل الأماكن - كيف نعطى مستقبلنا لليابان وكيف نستعيده، ١٩٩٣.

من مؤلفاته:

موسوعته الكبرى "تاريخ الفلسفة" التى تضم تسعة أجزاء، و"الفلسفة والفلاسفة"، و"الفلسفة والثقافة"، و"الفلسفة فى روسيا"، و"نيتشه.... فيلسوف الحضارة"، و"القديس توما ونيتشه".

المترجم فى سطور :

فخرى لبيب

ولد فى ٧//١٩٢٨٢.

حصل على بكالوريوس علوم كيمياء وجيولوجيا عام ١٩٥١.

وحصل على دكتوراه فى الجيولوجيا عام ١٩٨٧ - كلية العلوم - جامعة القاهرة.

عمل جيولوجيا فى الهيئة العامة للمساحة الجيولوجية والمشروعات التعدينية، ووفر خامات لصناعات الألمونيوم والحديد والصلب والكيمياويات والإسمنت والفيروسيليكون والطوب الطفلى والزجاج.

يعمل حاليا: مسئول الإعلام بمنظمة تضامن الشعوب الإفريقية الآسيوية.

من أهم أعماله :

١- أعمال ترجمة منذ عام ١٩٥٨: والكتب المترجمة سياسية واقتصادية وعلمية وأدبية نشرتها: جريدة المساء، ودار المعارف، ودار الثقافة الجديدة، ودار المستقبل العربى، ودار الفارابى اللبنانية، ودار سعاد الصباح، ومركز البحوث العربية والإفريقية، والمجلس الأعلى للثقافة، ودار الشروق.

٢- قصص قصيرة منذ عام ١٩٥٨، وقد تم نشرها فى جريدة المساء (١٩٥٨) وإبداع وأدب ونقد، وأخبار الأدب، والجماهير الأردنية، والثقافة الجماهيرية.

٣- ثلاث روايات صدرت عن دار العربى، والهيئة العامة للكتاب، ومدبولى.

٤– كتابان سياسيان صدرا عن دار الديمقراطية (١٩٥٧) ودار الأمل.

٥– تحرير كتب وإعدادها منذ عام ١٩٨١ لجامعة الدول العربية، ومنظمة تضامن الشعوب الإفريقية الآسيوية.

٦– مقالات سياسية وغيرها فى مجلات الطليعة، الأهالى، أدب ونقد، آسيا وإفريقيا اليوم، والمنار، والمختار من الصحفى الديمقراطى (مجلة اتحاد الصحفيين العالمى)، وقضايا فكرية، والثقافة الجديدة، والعالم اليوم، والتنمية والتقدم الاجتماعى والاقتصادى، والقاهرة، والبديل.

٧– ترجمة مقالات وعرض كتب أجنبية، فى مجلات الثقافة العالمية، والنداء اللبنانية، ومركز دراسات الشرق الأوسط، وجريدة أخبار الخليج، ومجلة العربى الكويتية.

التصحيح اللغـوى: محمد نصر الدين
الإشـراف الفنـى: حسـن كـامـل



لقد عُرِفَت أمريكا يوما بحرصها الوطني علي المصلحة الشخصية في لغة يمكن للعالم كله أن يعتنقها – التحيز لمؤسسات كونية قوية، وتنفيذ الإجراءات القانونية طبقا للقواعد والمبادئ الراسخة، وحكم القانون. إننا نبدو الآن كأننا نفكر بطريقة أكثر دقة فيما يتعلق بأمننا العسكري والاقتصادي الحالي. كما أننا نعتبر مؤسسات مثل الناتو والأمم المتحدة مؤسسات غير ملائمة، بل حتي مزعجة. لقد هجرنا سياسة وقف الانتشار إلي سياسة الهجمات الوقائية – إننا نعمل أكثر فأكثر بمفردنا – وقليلاً ما نأخذ بعين الاعتبار حاجات وأهداف الأمم الأخرى.

إن كتاب "أمة مارقة" يشكل حجة ضد هذا النوع من الغطرسة والجهل في ممارسة القوة، كما يستكشف النبض الأحادي لأمريكا، ويبين لماذا يجب علينا، اعتناق التعددية، والقانون الدولي من جديد.